المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية
مركز البحوث الدراسات الإسلامية
مكة المكرمة



سلسلة بحوث الدراسات الاسلامية

الحياة العلمية في إفريقية

« المغرب الأدنى » منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري

« ٩٠ / ٤٥٠ هـ »

الجزء الأول

د / يوسف بن أحمد حواله
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

(ح) جامعة أم القرى ، ١٤١٩ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

حوالة ، يوسف أحمـــد

الحيـاة العلمية في افـريقيـة (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحـتى منتصف القـرن الخامس الهجري : ٩٠/٤٥٠ هـ ـ مكة المكرمة .

٤٤٨ ص ٢٤ × ١٧ سم .

ردمك : ٨ ـ ٣٨٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

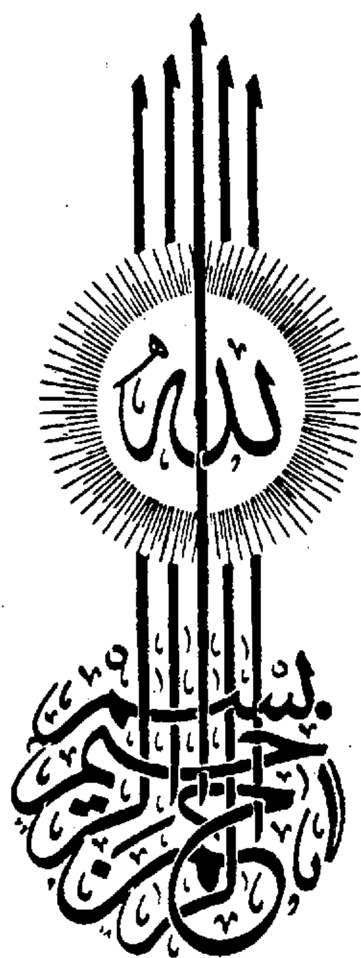
١ ـ التاريخ الإسلامي ٢ـ الحضارة الإسلامية ٣ ـ أفريقيا الشمالية ـ تاريخ أ ـ العنـوان

ديوي ٩٥٣,٠٧٢ ١٩ / ٠٥٠٤

رقم الايداع : ٠٥٠٤ / ١٩

ردمك : ٨ ـ ٣٨٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

الطبعــة الأولـــى


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ..

فمذ وضعتني العناية الآلهية الكريمة في طريق التخصص في التاريخ الأندلسي ، وذلك باختياري : دولة بني عباد في أشبيلية - « دراسة سياسية وحضارية » موضوعا لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي ، وأنا أرنو ببصري إلى الكتابة في الشق الآخر وهو التاريخ المغربي ، الذي يشكل مع التاريخ الأندلسي ، ذلك التخصص الدقيق من التاريخ الإسلامي ، وهو تاريخ المغرب والأندلس . ومن هنا وجدتني أعمل الفكر في اختيار موضوع مناسب في تاريخ المغرب ، يكون هدفا للحصول على درجة الدكتوراة .

ولقد هداني البحث والتقصي إلى اختيار الموضوع الآتي :

« الحياة العلمية في المغرب منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ٩٠ - ٤٥٠هـ » . وفي الحق فإن أستاذي المشرف الاستاذ الدكتور / أحمد السيد دراج كان يتلمس بحسه التاريخي الذي لاينكر صعوبة ، بل تعذر استقامة الموضوع من الناحية المنهجية والتاريخية على النحو الذي رغبت فيه . ولكنه لم يجد أمام تحمسي البالغ بُدّاً من الموافقة على ذلك .

بيد أنه وبعد استقراء معظم المصادر والمراجع المتعلقة بتاريخ المغرب-

في الفترة الزمنية موضوع الرسالة – تبين لي أن البحث في حاجة إلى تحديد يضمن له تحقيق الغاية المنشودة منه . فلقد اتضح لي أن المصادر والمراجع لاتركز إلاَّ على المغرب الأدنى وعواصمه السياسية والعلمية ، وذلك لأن المغرب الأدنى كان مركز النشاط السياسي والحضاري في عصر الولاة الأمويين فالعباسيين ، ثم في عصور الدول المستقلة : الأغالبة والفاطميين وبني زيري الصنهاجيين على التوالي ، علماً بأن المغرب الأدنى في العصر الإسلامي إنما يعني لدي معظم الجغرافيين والمسلمين : إفريقية ، وهي تشمل اليوم البلاد التونسية كلها ، وولاية طرابلس شرقا ، وغربا حتى بجاية في ولاية قسنطينة بالجزائر .

أما المغرب الأوسط ، فلم يكتب له أن يشهد نشاطا علميا إلاَّ بعد فترة من قيام دولة بني حماد الصنهاجية (تأسست سنة ٣٩٥هـ) . وحتى هذا النشاط العلمي كان محدود الأثر ، إذا ما قيس بالنشاط العلمي في المغرب الأدنى أو افريقية أو تونس على عهد أبناء عمومتهم بني زيري . وأما الدولة الرستمية التي تأسست مبكراً في سنة ١٦١هـ ، واتخذت مدينة تاهرت عاصمة لها ، فقد تمثل تأثيرها في النشاط المذهبي الإباضي فحسب ، وهو أمر بعيد عن دراستي وتخصص العلمي .

كما أن المغرب الأقصى لم يشهد استقراراً سياسياً وبالتالي نشاطاً علمياً يذكر في ظل دولة الأدارسة التي قامت به سنة ١٧٢هـ . ذلك أن الأدراسة انقسموا على أنفسهم بعد وفاة ادريس الثاني سنة ٢١٣هـ ، ودخلوا بذلك في صراعات ضد بعضهم بعضا ، علاوة على خروج الزناتيين

المتكرر عليهم ، الذين غلبت عليهم الهرطقات والبدع الدينية والفكر الخارجي على مذهب الصفرية . ولم يقدر للمغرب الأقصى أن يشهد استقراراً سياسياً وبالتالي نهضة علمية إلاّ بعد قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري ، ومن بعدهم دولة الموحدين . فجامع القرويين ، مركز النشاط العلمي هناك ، الذي تأسس عام ٢٤٥هـ ، لم يضطلع والمغرب الأقصى عموماً بدوره العلمي الريادي في بلاد المغرب إلاّ في عصر المرابطين فالموحدين . وكان ذلك بداية للمكانة العلمية التي تبوأها المغرب الأقصى حتى اليوم .

أما دولة بني اليسع أو بني المدرار الخارجية الصفرية التي كانت عاصمتها مدينة سجلماسه بالمغرب الأقصى ، فإنه يصدق عليها مايصدق على دولة بني رستم الإباضية فكلتاهما تمثّل تأثيرهما العلمي في النشاط المذهبي الخارجي وحده ، وفضلاً عن هذا وذلك فقد كان المغرب الأقصى مسرحاً للصراع بين الأمويين في الأندلس وبين القوى المحلية بالمغرب الاقصى ، فقد كانت السيادة فيه تتأرجح بين الجانبين . وعندما قامت الدولة الفاطمية في إفريقية عام ٢٩٦هـ ، استمر ذلك الصراع : دون أن يقدر للمغرب الأقصى أن تظهر شخصيته المستقلة التي تهئ المناخ الصالح للحياة العلمية وغيرها .

وإذ تمثلت هذه الحقائق أمامي ، فقد تقدمت مزوداً بموافقة أستاذي المشرف إلى مجلس الدراسات العليا التاريخية والحضارية بطلب الموافقة على تحديد موضوع الرسالة لتقتصر على المغرب الأدنى . وجاءت الموافقة

الكريمة ليصبح الموضوع بعد التحديد : « الحياة العلمية في إفريقية – المغرب الأدنى – منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ٩٠–٤٥٠هـ » .

ولقد جاء اختياري للحياة العلمية في إفريقية – المغرب الأدنى – في الفترة الزمنية مدار الاهتمام موضوعاً لرسالة الدكتوراة ، نابعاً من الأحساس بأهمية التاريخ لهذا الجانب الحضاري للأمم . فغير خاف أن النشاط العلمي هو من أكثر جوانب النشاط الإنساني إشراقاً وتألقاً . هذا شئ ، والشئ الثاني ، هو أن التأريخ للحياة العلمية في إفريقية لم ينل حقه من البحث والدراسة الكافيتين . فمن المعلوم أن المؤرخين القدامى لم يعنوا إلاَّ بالتاريخ السياسي والعسكري للدول والمدن والأسرات الحاكمة ، وحده تقريبا . وبالطبع فإن هذا لايمنع أن ترد مادة علمية عن التاريخ الحضاري ، ومن بينها تاريخ العلوم في ثنايا كتاباتهم ، لكنها كانت ترد عرضاً دونما استقراء تحليلي تاريخي يهدف إلى إبراز ذلك الجانب بالصورة التي نبحث عنها اليوم . وهذا ينطبق أيضاً على كتب التراجم والطبقات – ولكن مع الفارق بالطبع –، فعلى الرغم من النصوص ذات الأهمية البالغة للحياة العلمية التي تحتويها كتب التراجم والطبقات تلك إلاَّ أننا عبثاً نحاول أن نجد فيها – وهو منهج مألوف آنذاك –، استقراءاً تاريخيا يعتمد المنهجية العلمية في التحليل والتعليل والاستنتاج والاستنباط .

أما الشيء الثالث الذي دفعني إلى اختيار موضوع الحياة العلمية في إفريقية خلال تلك الفترة فهو الشعور بأن الاهتمام بالتأريخ لحركة العلوم

والمعارف لم ينل حقه من البحث والدراسة من قبل الباحثين المحدثين ، سواء فيما يتعلق بالدراسات المتخصصة أو حركة التأليف والرصد العادية . فهناك كثير من جوانب النشاط العلمي مازالت بحاجة إلى البحث والدراسة . وفي الحق فإن التأريخ للعلوم والمعارف لم يكن وحده الذي لم ينل حقه من البحث والدراسة الكافيتين من قبل المحدثين وخاصة المغاربة ، وإنما مجمل الدراسة المغربية بشقيها التاريخي والحضاري كانت كذلك ، بعكس الدراسات الأندلسية التي نالت حظاً عظيماً من البحث والدراسة . وكان الاهتمام بها أسبق دون ريب من الدراسات المغربية التي لم يبدأ الاهتمام بها بصورة واسعة إلا متأخرا أي منذ ما ينيف على ربع قرن .

لكن الملاحظ أن الباحثين المحدثين من المغاربة ، والتونسيين منهم على وجه الخصوص ، قد انصرف اهتمامهم إلى بعض جوانب من الدراسات المغربية ، فأوسعوها بحثاً ودراسةً ، في حين بقيت جوانب مهمة بعيدة عن ذلك الاهتمام . ففيما يتصل بالدراسات التي تخص إفريقية ، وجدنا اهتماماً كبيراً بالدراسات التاريخية . فلقد كتب الكثيرون منهم مؤلفات جمة بمنهجية علمية رصينه ، أفدت منها دون شك ، كما يتضح في تضاعيف الرسالة ، وأسهم بعض الباحثين المشارقة في التأليف في هذا الجانب بمؤلفات قيمة ، افدت منها هي الأخرى .

وبجانب ذلك وجدنا اهتماماً ببعض مظاهر النشاط الحضاري ، كالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والعمرانية . فقد ألف الباحثون التونسيون عدداً من المؤلفات القيمة ، وشارك بعض الباحثين المشارقة في

ذلك ، وهي مؤلفات قيمة أفدت منها كثيراً في ثنايا الرسالة .

غير أن النشاط العلمي لم يحظ إلا بقدر ضيل من الاهتمام . وحتى ذلك القدر كان مكرساً لجانب واحد من جوانب النشاط العلمي أعني بذلك النشاط الأدبي فلقد خطى النشاط الأدبي بقدر وافر من الاهتمام من قبل التونسيين وبعض المشارقة ، وظهرت بالتالي مؤلفات علمية جيدة ، نذكر منها على سبيل المثال الكتاب الذي كتبه الشاذلي النيفر بعنوان : عنوان الأريب عمَّا ظهر في المملكة التونيسية من عالم وأديب ، والكتابين اللذين كتبهما أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، وعصر القيروان ، وكتب محمد العروسي المطوي : سيرة القيروان – رسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي – وكتب حسن حسني عبدالوهاب : منتخبات من الأدب التونسي ، كما احتوت موسوعته : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية على قدر كبير من الحديث عن الحياة والحركة الأدبية في إفريقية ، وكذلك احتوى كتابه : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق على معلومات وفيرة عن الحركة الأدبية .. الخ . ولقد كتب بعض من الباحثين المشارقة عدداً من المؤلفات الأدبية ، فكتب محمد عبدالمنعم خفاجي : قصة الأب في ليبيا ، وكتب محمد طه الحاجري : دراسات وصور من الحياة الأدبية في المغرب العربي ، وكتب ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعر المغرب حتى خلافة المعز ، وكتب عبده عبدالعزيز قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي .. الخ .

و كتب بعض آخر من التونسيين سلسلة من المؤلفات اتخذت من بعض

الشخصيات الأدبية موضوعاً لها . فكتب محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى كتاباً بعنوان : أبو الحسن الحصري القيرواني . وكتب عبد الجبار الشريف وعلي دب كتاباً عن ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، وكتب المنجي الكعبي كتابين : النهشلي القيرواني، والقزاز القيرواني . وكتب الهادي مصطفى التوزري كتاباً عن الأديب الإفريقي عبدالله الشقراطسي بعنوان : أعلام الافارقة (عبدالله الشقراطسي) .. ومن الباحثين المشارقة آلف عبدالرحمن ياغي كتاباً هو : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، وألف عبدالرؤوف مخلوف كتاباً هو : ابن رشيق ونقد الشعر ، وبالإضافة إلى هذه المؤلفات ، هناك العديد من البحوث والمقالات الأدبية في المجلات العلمية التونسية وغيرها .

وهذه المؤلفات التي أشرنا إليها ، وكذلك البحوث والمقالات المختلفة التي رجعنا إليها واثبتناها في قائمة المصادر والمراجع على قيمتها العلمية التي لاتنكر ، والتي أباحت لنا الأخذ عنها حتى الإغتراف ، تقتصر أهميتها على الحياة الأدبية أولا ، وعلى إبراز جوانب الحياة الأدبية في القيروان وحدها ثانياً تقريباً .

ومع أن التأريخ للحياة الأدبية يحتل حيزاً مهماً وجليلاً من رسالتي ، إلا أنه ليس إلاّ جانباً أو حقلاً من حقول الحياة العلمية ، كما هو معروف . هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الدراسات المتخصصة الأكاديمية تختلف اختلافاً بيِّناً عن المؤلفات العادية ، مع أخذها بالمنهج العلمي . ففيما يتصل بنا نحن هنا ، فإن تناولنا للحركة الأدبية يندرج داخل الإطار العام للحياة

العلمية بإفريقية خلال الفترة موضوع الاهتمام . ذلك الإطار الذي يستهدف التأريخ للحياة العلمية وملاحظة خطواتها في تقدمها أو تعثرها ، والظروف المحيطة المؤثرة فيها ، وما يجر ذلك إلى اكتشاف غلبة جانب من جوانب الحياة العلمية على جانب ، والاسباب الموضوعية لذلك ، بتقصٍ ، وتحليل علمي يأخذ في اعتباره ظروف الزمان والمكان والشخوص والأنظمة السياسية .. الخ . دون الغوص في تفاصيل الحركة الأدبية ذاتها .

وبدهي أن ماينطبق على الحركة الأدبية ، ينطبق على بقية العلوم الأخرى .

وإذا كنا محظوظين تجاه ذلك الفيض من المعلومات التي تحمله لنا تلك المؤلفات ، والتي أنارت لنا السبيل للحديث عن الحركة الأدبية خلال الفترة موضع الاهتمام ، فإننا نستغرب بدهشة ممزوجة بالأسى ألاَّ تنال الدراسات الشرعية أو حركة العلوم الشرعية حقها من التنويه والإشارة ، ولاسيما وهي المظهر الرئيسي للنشاط العلمي في إفريقية وقتذاك ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كيف لاتلقى الدراسات الشرعية العناية المطلوبة ، وهي التي لا تقل أبدا : ازدهاراً كماً ونوعاً عن مثيلاتها في بقية الأمصار الإسلامية الأخرى ؟ .

إننا نفتقر في الحقيقة إلى مؤلفات حديثة تتناول بالتحليل والتقصي حركة تطور العلوم الشرعية وانتشارها في إفريقية – المغرب الأدنى – آنذاك، وتتحسَّس الأسباب الموضوعية التي أدت إلى أن تحتل الدراسات

الشرعية تلك المكانة البارزة من النشاط العلمي . نعم نستدرك فنقول بأن كتب التراجم والطبقات التي ألَّفها المغاربة وخاصة الإفريقيين قد ألقت الضوء على نشاط حركة العلوم الشرعية ، ولربما وجد الباحثون في ذلك الكفاية . لكن تلك المؤلفات في الحقيقة كانت تقدم لنا المادة العلمية الغزيرة دونما بحث وتعمق في الظروف والملابسات والأسباب المؤثرة والمتأثرة .. الخ. ونستدرك ثانية فنقول بأن ثمة مؤلفات عالجت بعض جوانب الدراسات الشرعية مثل كتاب : المدرسة القرآنية في المغرب لمحمد عبدالسلام الكنوني ، ومثل كتاب : الإمام المازري لحسن حسني عبد الوهاب ، وكتاب : التفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور ، وغير ذلك من المؤلفات التي لم يقدر لنا الإطلاع عليها . ولكن هذا أوذاك ليس كافياً إلى الحد الذي يوضح طبيعية تلك الدراسات التي كانت دون ريب أهم مظهر علمي للحياة العلمية كما أسلفنا . (١)

وصفوة القول إنه تراءى لي أن كثيراً من جوانب الحياة العلمية الإفريقية بحاجة إلى توضيح أكبر والكشف عن مكنوناتها . ومن هنا فقد تصديت لدراسة الحياة العلمية بكل أوجهها في إفريقية - المغرب الأدنى - منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولعلى أحسب بأن هذا الموضوع بشكله الذي قصدته لم يكن موضوع دراسة أكاديمية متخصصة من قبل . نعم هناك رسائل علمية - حسبما هدانا إليه جهد

---

(١) هذا القول مضى له نحواً من ١٠ سنوات ، وبالطبع فقد ظهر خلال هذه المدة من السنين كم من المؤلفات لباحثين مغاربة ومشارقة على السواء .

التقصي –، قد تناولت بعض جوانب الحياة العلمية في إفريقية في الفترة الزمنية موضع الاهتمام مثل رسالة الدكتوراة التي أعدّها الباحث المصري محمد محمد شتا زيتون بعنوان : الحياة الفكرية في القيروان منذ نشأتها حتى رحيل الفاطميين إلى مصر ٣٦٢ هـ . غير أن هذه الرسالة التي ماتزال مخطوطة لم تنشر ، لم يتح لنا الإطلاع عليها ، ومن جهة أخرى فهي كما يبدو من عنوانها تؤرخ للحياة الفكرية في القيروان فقط حتى نهاية العصر الفاطمي (١) .

كما أن الباحث السيد محمد أبو العزم داود أعد رسالته للدكتوراة عن : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين . وهي رسالة جيدة نشرت حديثا ، لكن الواضح أن الصراع السياسي بين المذهب المالكي والمذاهب الكلامية ، والدينية السياسية قد استحوذ على جل صفحات الرسالة ، علاوة على مداها الجغرافي الذي شعل المغرب كله .

وأعد الباحث التونسي الشاذلي بويحى رسالة علمية بعنوان : الحياة الأدبيــة في إفـريقـيــة في عــهــد بني زيري ٣٦٢–٥٥٥هـ /٩٧٢– ..١١م للحصول على درجة الدكتوراة في الأدب . وقد طبعت في تونس باللغة الفرنسية عام ١٩٧٢م

غير أن هذه الرسالة كما يدل عنوانها تتحدث عن الأدب والقضايا الأدبية في إفريقية آنذاك من منظور أدبي صرف ، فضلاً عن اقتصارها

(١) ظهرت هذه الرسالة مطبوعة طبعتها الأولى سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م ، وقد نشرتها دار المنار للنشر والتوزيع بالقاهرة .

على العصر الزيري وحده .

كما أعد الباحث الليبي صالح مصطفي مفتاح رسالة بعنوان : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، وذلك للحصول على درجة الماجستير في التاريخ من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٣م . غير أن هذه الرسالة وهي عبارة عن دراسة سياسية وحضارية تقتصر على ليبيا وحدها .

هذه الرسائل العلمية التي أفدت من بعضها، تناولت كما يتضح من عناوينها بعض جوانب الحياة العلمية وليس كلها ، كما أنها اقصرت في البعض منها على منطقة أو عصر من العصور التي تصديت لها .

بقي أن أشير إلى أن السبب الذي حدا بي إلى اختيار الإطار الزمني للرسالة على النحو الذي حُدِّد آنفاً كان منسجماً علمياً وتاريخياً مع ذلك الإطار . إذ لا يخفى أن الحياة العلمية آنذاك تمشَّت في تدرج طبيعي حتى وصلت ذروة تقدمها في منتصف القرن الخامس الهجري في كثير من جوانبها المتعددة . أما بعد منتصف القرن الخامس الهجري فقد توقف النشاط العلمي مؤقتاً على إثر غزوات بني هلال ، ودخلت إفريقية مرحلة التفتت والضعف ، وظهرت دويلات الطوائف فيها حتى أذن الله للبلاد أن تستعيد مجدها العلمي بعد ذلك بقيام الدولة الحفصية .

أما فيما يتصل بخطة البحث فقد بدا لي أن تتكون من تمهيد ، ثم قسمين . أما التمهيد فقد رأيت اقتضاءً للسياق المنهجي أن يكون من فقرتين

الأولى بعنوان : مدلول لفظ إفريقية (المغرب الأدنى) جغرافيا وتاريخيا لما لذلك من أهمية في تحديد الإطار الجغرافي الذي نشأت على أديمه الحياة العلمية التي أؤرخ لها . والفقرة الثانية من التمهيد بعنوان : عرض موجز للأحوال السياسية في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، وهو إطار مهم يبحث من مقدار تأثير الأوضاع السياسية في مسيرة الحياة العلمية سلباً وايجاباً .

ولقد دعتنا طبيعة الحياة العلمية ومسيرتها في افريقية آنذاك إلى أن نجعل الحديث عنها منقسماً إلى قسمين : قسم أول بعنوان : دراسة لأهم مظاهر النشاط العلمي في إفريقية ، والقسم الآخر بعنوان : النشاط العلمي في إفريقيه .

أما القسم الأول فقد جهدنا أن نتتبع فيه المسبِّبات التي هيأت المناخ الصالح للتقدم العلمي ، وكذلك البحث في الوسائل التي ازدهرت وتقدمت الحياة العلمية بها ومعها في إفريقيه . وهكذا آثرنا أن يكون هذا القسم من ثلاثة فصول : الفصل الأول وعنوناه بالعنوان الآتي : عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية . ولقد تحدثنا فيه عبر نقاطه الأربع عن الخاصية العلمية للفتح الإسلامي ، ثم جهود الفاتحين والولاة في نشر الإسلام والثقافة الاسلامية في إفريقية ، فالرحلات العلمية وأثرها في تقدم العلوم ، وأخيرا أثر قيام الدول المستقلة في النشاط العلمي .

واخترنا للفصل الثاني عنواناً هو : المراكز العلمية الرئيسية في إفريقية . وقد تعرضنا من خلاله للدور الذي اسهمت به بعض المدن والاقاليم

الرئيسية في الازدهار العلمي مثل : القيروان ورقادة ، والمهدية ، وتونس ، وإقليم الجريد ، ثم إقليم طرابلس ، وغير ذلك من المدن العلمية الأخرى .

ولما كانت كثير من الجهود العلمية في إفريقية في الفترة موضع الاهتمام قد نشطت عبر قنوات علمية مهمة ، فقد آثرنا تلك القنوات بالفصل الثالث واخترنا عنوانه هكذا : وسائط الثقافة في إفريقية . ولقد قصدنا بالوسائط : المساجد ، والكتاتيب ، والرباطات ، والمكتبات العامة والخاصة وهي وسائط فعالة نشطة ذات أثر مباشر في تقدم الحياة العلمية كما هو معروف .

أما القسم الثاني الذي خصصناه للحديث عن النشاط العلمي في إفريقية فيتناول بالدراسة : الدراسات الشرعية ، والأدبية والإنسانية ، والطبيعية في إفريقية وقتذاك .

وحيث قد تكشّف لنا بجلاء أن الدراسات الشرعية هي جوهر الحياة العلمية في إفريقية في الفترة الزمنية موضع الاهتمام فقد دعانا ذلك إلى أن تستغرق منا هذه الدراسات ثلاثة فصول من هذا القسم .

أما الفصل الأول فقد خصص للحديث عن انتشار المذهب المالكي في إفريقية ومكانته بها وهو فصل مهم يوضح الدور الذي أسداه المذهب المالكي لحركة الدراسات الشرعية في إفريقية . وقد تناولنا الحديث فيه عن نشأة المذهب المالكي نفسه من الوجهة التاريخية والفقهية ، ثم حالة الدراسات الشرعية في إفريقية قبل دخول المذهب المالكي ، ثم انتشار المذهب المالكي

في المغرب الأدنى : أدواره ، وأسبابه ، ثم المكانة التي احتلها المذهب المالكي في قلوب وعقول وأفكار الإفريقيين ، وأخيراً اقتضانا المنهج الموضوعي أن نلم بأوضاع بقية المذاهب الفقهية الأخرى في إفريقية لما لذلك من ارتباط وثيق بحركة تطور الدراسات الشرعية .

والفصل الثاني من الدراسات الشرعية أفردناه برمته للحديث عن العلوم الشرعية : الفقه والحديث وعلوم القرآن ، وقد سرنا في هذا الفصل وفق اتجاهين اثنين : إتجاه يرمي إلى ابراز العلوم الشرعية في تدرج زمني يأخذ في اعتباره واقعها الكمي والنوعي في ظل العصور السياسية الأربعة التي تعاقبت على حكم إفريقية ، وهي : عصر الولاة ، عصر الاغالبة ، عصر الفاطميين ، ثم العصر الزيري .

والإتجاه الآخر يسعى إلى إبراز دور بقية مدن وأقاليم إفريقية في تلك العلوم الشرعية خلال العصور السياسية أنفة الذكر .

أما الفصل الثالث في هذه الدراسات الشرعية فقد عالجنا فيه موضوعاً علمياً شائقاً كما نحسب ، وهو إلقاء الضوء على ما اكتسبته الحياة العلمية من فوائد لذلك الصراع المذهبي الذي هبت رياحه بين المالكية والمذاهب الكلامية كالمعتزلة والمرجئة وغيرهم من جهة ، والمذاهب الدينية السياسية : الخوارج والشيعة من جهة أخرى . وهكذا فقد كان عنوان هذا الفصل الثالث : الأثر العلمي للصراع المذهبي في إفريقية .

وأعقب الدراسات الشرعية ، الدراسات الأدبية ، وقد حظيت بالفصل

الرابع . ولقد جاء حديثنا عن مفرداتها : النثر ، والشعر واللغة والنحو منسجماً وما ذهبنا إليه في الدراسات الشرعية من حيث التدرج الزمني الكمي والنوعي من ناحية ، ومن حيث إبراز دور بقية مدن وأقاليم إفريقية الأدبي من ناحية أخري .

واستأثرنا الدراسات الانسانية : الجغرافيا ، والفلسفة والتاريخ بالفصل الخامس . وقد سرنا خلاله في نفس الاتجاهين السابقين في الدراسات الشرعية والأدبية .

وأخيراً يتناول الفصل السادس الدراسات الطبيعية بشقيها : الطب والصيدلة ، والفلك والرياضيات على ذات النسق الذي سرنا عليه فيما سلف من مظاهر الحياة العلمية الإفريقية .

وبعد هذا العرض لقسمي الرسالة – والتمهيد من قبل – وفصول كل قسم يجدر بنا أن نلفت نظر القارئ الى أن طبيعة هذه الدراسات المختلفة في الفترة الزمنية موضوع الرسالة هي التي حددت لنا هذا التقسيم الذي يتمشى مع قواعد البحث العلمي . كما أن مما يتعين أن نفصح به للقارئ هو أن هناك تفاوتاً من حيث الحجم في معالجة هذه الدراسات المختلفة في الفصول التي خصصناها لها . ولقد جاد ذلك التفاوت نتيجة لمرتكزات وحقائق تاريخية وسياسية واجتماعية شرحنا أبعادها في ثنايا الرسالة .

وهكذا جاءت الدراسات الشرعية – وهي جوهر الحياة العلمية كما قلنا –، ثم الدراسات الأدبية لتطغيا على معظم صفحات الرسالة ، في حين

لم تحظ الدراسـات الانسـانيـة والدراسات الطبيـعـيـة إلاَّ بكم ضـئـيل من الصفحات .

وأخيراً ختمنا الرسـالـة بخاتمة وضحنا من خلالها أهم النتائج التي استخلصناها من متابعتنا لسيرة الحياة العلمية في إفريقية في الفترة موضع الاهتمام .

دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع والدوريات

لعل من المألوف والدراسة تتعلق بالحياة العلمية أن يكون اعتمادنا علي كتب التراجم والطبقات بالدرجة الأولى ، ثم على الكتب التي تؤرخ للحياة الحضارية بإفريقية ، ومن بينها الحياة العلمية بالدرجة الثانية ، ثم الكتب التي تعالج القضايا السياسية وغيرها من القضايا بالدرجة الثالثة ، هذا بالإضافة إلى الدوريات التي تدور موضوعاتها حول تلك الجوانب المختلفة .

وحيث أن الدراسات الشرعية هي جوهر الحياة العلمية كما أشرنا من قبل -، فقد تعدد تكتب التراجم والطبقات لعلماء الفقه والحديث وعلوم القرآن - وهي بالمناسبة في معظمها كتب تراجم كتبها مؤرخون مغاربة - . ومن حق الأمانة أن نشير هنا إلى أن كثيراً من مصادر التراجم والطبقات المغربية التي رجعنا إليها هي لمؤرخين أفريقيين ، كما أن من المصادفات التاريخية أن يكون معظم أصحابها من الذين شاركوا في النهضة العلمية الإفريقية التي نؤرخ لها ، وكانت أقوالهم وتراجمهم التي كتبوها محتوية على معلومات وتفاصيل غزيرة جاءت من معاصرتهم لأصحاب تلك التراجم .

وكيفما كان الأمر فإن من أهم كتب المصادر والتراجم لعلماء المالكية ، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم

وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لأبي بكر عبدالله بن محمد المالكي (ت٤٥٣هـ) .

وتأتي أهمية الكتاب من عدة زوايا ، منها : احتواؤه على معلومات غزيرة عن حياة فقهاء وعباد إفريقية المشهورين ومصنفاتهم العلمية ومواقفهم المذهبية والسياسية وغيرها . ومما زاد في قيمة الكتاب أن صاحبه اعتمد على مصادر كتب طبقات إفريقية سبقته ككتاب أبي العرب التميمي : طبقات علماء إفريقية ؛ وكتاب محمد بن حارث الخشني : طبقات علماء إفريقية كذلك ، وغيرها من الكتب التي لم تصل إلينا اسماؤها . والكتاب فوق هذا يحتوى على معلومات غاية في الأهمية عن الصراع المذهبي بإفريقية بين المالكية والمذاهب الكلاميه والدينيه السياسية .

وإضافة إلى هذا فإن أهمية الكتاب تزداد قدراً في التحقيق التاريخي الدقيق الذي استفدنا منه ، والذي كتبه محققا جزئي الكتاب ، وهما حسين مؤنس والبشير البكوش . أما حسين مؤنس فقد حقق الجزء الأول من الرياض ونشره عام ١٩٥١م ، وأما البشير البكوش فقد عزم على تحقيق الجزء الثاني من رياض النفوس ونشره ، ولكنه رغب في أن يعيد تحقيق الجزء الأول ، الذي كان قد حققه حسين مؤنس ، زيادة في التحقيق والشرح كما يقول محمد العروسي المطوى في تصديره للجزء الأول . وهكذا فقد نشر الكتاب في ثلاثة أجزاء عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

والمهم أننا قد استفدنا من تحقيق الكتاب سواء في الجزء الذي حققه حسين مؤنس ، وقد بذل فيه جهداً تاريخياً قيِّماً في تحليلاته ، أو في

تحقيقات البشير البكوش ، وخاصة في الجزء الثاني .

وهناك مصدر ثان من كتب التراجم صاحبنا في صفحات واسعات من الرسالة ، وهو كتاب : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض بن موسى اليحصبى السبتي (ت٥٤٤هـ) . وكتاب القاضي عياض على أنه يترجم لعلماء المالكية في الحجاز والعراق ومصر والمغرب والأندلس إلا أن تراجمه لعلماء المغرب الأدنى ازدادت أهميتها ليس لاقتصارها على كتب التراجم الإفريقية التي سبقته فحسب ، وإنما لاعتماده على نقولات مشرقية وأندلسية بشأن علماء إفريقيين خلت منها كتب التراجم السابقة . وفي الوقت نفسه كان القاضي عياض كثيراً مايتدخل في تسلسل وقائع حياة العلماد ومواقفهم فيدلي بآراء جد قيمة آشرنا إلى بعضها في تضاعيف البحث .

والمصدر الثالث الرئيسى في كتب التراجم والطبقات المغربية الذي أفدنا منه كثيراً هو : كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد : عبدالرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدى المعروف بالدباغ (ت ٦٩٦هـ) الذي أكمله وعلّق عليه عالم إفريقي متأخر هو أبو الفضل أبو القاسم ابن عيسى بن ناجي التنوخي (ت :٨٣٩هـ) .

وكتاب المعالم على اعتماده على كتب مؤرخي التراجم الإفريقية مثل أبي العرب ، ومحمد بن حارث الخشني ، والمالكي ، وعلى كتاب القاضي عياض وغيره ، فإن أهميته تكمن في الإشارة لبعض من التراجم التي أغفل

ذكرها أولئك المؤرخون سهوا أوعمداً ، وقد أشرنا إلي هذا في ثنايا الرسالة. لكن القيمة الكبيرة للكتاب بجانب ذلك ، تنحصر في التعليقات التاريخية والفقهية الجيدة التي كان يدلى بها أبو الفضل بن ناجي مكمِّل ومعلِّق الكتاب .

وثمة مصدر رئيسى في كتب تراجم طبقات العلماء الإفريقيين رافقنا طويلاً ، وهو كتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف . وتأتي أهميته من أنه استوعب كل جهود من سبقه لاسيما وهو من المتأخرين في الترجمة لعلماء المالكية ليس في إفريقية فحسب و إنما في كل الأمصار وخاصة الحجاز والعراق ومصر والمغرب والأندلس .

وعلاوة هذه المصادر الرئيسية التي أرخت لعلماء المالكية ، فإن هناك مجموعة من كتب المصادر المشرقية والأندلسية التي تحدثت عن علماء المالكية ككتاب تاريخ علماد الأندلس لابن الفرضي (ت :٤٠٣هـ) وطبقات الفقهاء للشيرازى (ت :٤٧٦هـ) ، وبغية الملتمس للضبي (ت :٥٩٩هـ) وتذكرة الحافظ للذهبي (ت :٧٤٩هـ) والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون (ت : ٧٩٩هـ) وغاية النهاية في طبقات القرآء لابن الجزرى (ت :٨٣٣هـ) وطبقات الحفاظ ، وطبقات المفسرين للسيوطي (ت ٩١١هـ) وغير ذلك .

وفيما يتصل بمصادر التراجم التي أرخت للحياة الأدبية في افريقية وقتذاك فقد استفدنا من عدد منها ، وننكر على سبيل المثال كتاب الحلة السيراء لابن الابار (ت :٦٥٨هـ) الذي حققه حسين مؤنس في جزأين .

ولكتاب الحلة السيراء أهمية مزدوجة فيما يتعلق بمجهودات صاحبه ، فقد اعتمدنا عليها كثيراً فيما يتعلق بالشعراء الذين شغلوا بالسياسة من الأمراء والولاة والخلفاء والقواد والوزراء .. الخ . وأما الأهمية الأخرى فهى التي تمثلها التحقيقات العلمية الرصينة للمحقق حسين مؤنس .

وثمة مصدر ثان في تراجم الأدباء استفدنا منه كثيرا وهو كتاب : الوافي بالوفيات للصفدي (ت :٧٦٤هـ) . فقد زودنا بمعلومات قيمة نقلها عن كتاب ابن رشيق : المفقود (١)، أنموذج الزمان في شعراء القيروان . أما كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ت : ٦٥٨هـ) فمع أن تراجمه لا تقتصر على الأدباء وحدهم ، وانما هى تراجم شاملة للعلماء والأدباء والسياسين وغيرهم ، فإنه يحتوى على معلومات مهمة استفدنا منها في حديثنا عن بعض مظاهر الحركة الأدبية في إفريقية .

وأخيراً لانغفل ذكر كتاب : معجم الأدباء لياقوت الحموى (ت :٦٢٦هـ) فهو كتاب ترجم لابرز الأدباء في المشرق والمغرب وقد أفدنا منه في كثير من التراجم .

أما عن طبقات اللغويين والنحويين بصفة خاصة فقد كان اعتمادنا على مجموعة مهمة من مصادرها – وهي مشرقية في أغلبها – على أن أهم تلك المصادر لبحثنا هو كتاب طبقات النحويين واللغويين ، لأبي بكر الزبيدي

(١) ظهر بعد فترة من الآنتهاء من الرسالة ، أي سنة ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م عن الدار التونسية للنشر بتونس ، – المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر – كتاب أنموذج الزمان بجمع وتحقيق محمد العروسي المطوى وبشير البكوش .

الأندلسي (ت ٣٧٩ هـ) فلقد وردت فيه مجموعة تراجم لعدد من اللغويين والنحاة الإفريقيين . ومما هو جدير بالذكر أن كثيراً من تلك التراجم اعتمد عليها من جاء يترجم لطبقات اللغويين والنحاة الإفريقيين ، وإن كنا قد استفدنا مما ورد من معلومات إضافيه في كتاب البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز أبادي (ت ٨١٧ هـ) وبغية الوعاة للسيوطي (ت : ٩١١ هـ).

أما فيما يتعلق بكتب التاريخ العامة ، فإننا مدينون جدا للمؤرخ المغربي ابن عذاري المركشي (ت ٦٩٥ هـ) . وكتاب ابن عذارى عبارة عن تاريخ عام للمغرب والأندلس من الفتح العربي حتى عصر بنى مرين في المغرب الأقصى . ويقع في ٤ أجزاء . وقد حقق الأجزاء الثلاثة الأولى منه كل من ج . س كولان وليفي بروفنسال ، بينما حقق إحسان عباس الجزء الرابع منه . وفي الحق فقد كانت الاستفادة كبيرة من الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهو الجزء المختص بالحديث عن إفريقية والمغرب منذ الفتح وحتى منتصف القرن السادس الهجري .

وترجع أهمية الكتاب إلى المادة التاريخية الغزيرة التي جمعها ولاسيما مايعلق بقيام الخلافة الفاطمية وقضايا الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة في روايته للأحداث .

ومما أعطى الكتاب أهمية بالغة ، أن ابن عذارى قد اعتمد في كثير من رواياته للأحداث على نقولات من مجموعة من المصادر هي في حكم المفقودة ككتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني الذي لم يبق منه سوى قطعه تشمل التأريخ لإفريقية منذ الفتح وحتى نهاية القرن الثالث

الهجري ، ومثل كتاب أخبار الدولة الصنهاجية المفقود للرقيق القيرواني ، وغير ذلك .

على أن ممّا يعيب كتاب ابن عذارى أنه لم يكن يوضح نهاية نقولاته ، فتختلط نقولاته هاته بكلامه هو . ولكن الكتاب مع هذا لايمكن لاى باحث الاستغناء عنه للأهمية التاريخية التي يمثلها .

ومن كتب التاريخ العام كتاب الحلل السندسية في الأخبار التونسية لابن السراج (ت :١١٤٩هـ) ، والكتاب يقع في ٤ أجزاء ، فقد الرابع منه ، وقد وقف الحبيب الهيلة على تحقيقه فأصدر الجزء الأول في ٤ أقسام ، ثم أصدر الجزء الثاني في قسمين وكذلك الجزء الثالث . وقد أفدنا من هذا الكتاب على تأخره ، وأفدنا أيضا من تحقيقات المحقق الرصينه حسبما يتضح في ثنايا البحث .

ومن كتب التاريخ العامة التي أفدنا منها في بعض النقاط التاريخية كتاب المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس لابن أبي دينار الرعيني القيرواني (كأن حيا (سنة : ١١١هـ) ، وكتاب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية لمحمد الباجي المسعودي (من رجال القرن الحادي عشر الهجري) ، وغير ذلك .

على أننا قبل أن نترك الحديث عن كتب التاريخ العامة لايفوتنا الإشارة والإشادة أيضا بمصدرين مهمين كتبهما أحد أبناء إفريقية في الفترة التي نؤرخ لها . أعنى بذلك كتاب افتتاح الدعوة وكتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان بن حيون (ت٣٦٣هـ) وهذان الكتابان نشرا وحققا بعناية بعض من الباحثين التونسيين .

وبصرف النظر عمّاً في الكتابين من اتجاهات مذهبية وفقهية لا تتفق مع اتجاهات أهل السنة ، إلاّ أن الكتابين في غاية الأهمية من الناحية التاريخية . فكتاب افتتاح الدعوة يعالج الدعوة الشيعية ومبدأ امرها مذ كانت حلما إلى أن تحقق قيام الخلافة الفاطمية ، وهو يروى الاحداث من وجهة نظر مغايرة للرواية السنية .

أما كتاب المجالس والمسايرات فهو لايقل أهمية عن كتاب افتتاح الدعوة ، وإن كانت مادته العلمية عبارة عن خليط من المعلومات التاريخية والمذهبية والشخصية أو مايدخل في إطار أدب السيرة الذاتية وهي سيرة الخليفة المعز لدين الله .

أما المراجع الحديثة العربية والمعربة ، فلعلنا لانبالغ إذا قلنا إنها تمثل العمود الفقري لكثير من الموضوعات التي تطرقنا لها وخاصة موضوعات القسم الأول ، وكان بعضها أساسيا في مفردات القسم الثاني .

ومن أهم المراجع التي أنارت لنا السبيل في القسم الأول كتاب تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول عبدالحميد . والكتاب يقع في جزأين ، الجزء الأول يتصدى للحديث عن تاريخ المغرب العربي من الفتح الى بداية عصور الاستقلال أي حتى قيام الدويلات المستقلة في المغرب ، أما الجزء الثاني فهو مختص بالحديث عن تاريخ الاغالبة والرستميين وبنى مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين .

وكتاب تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول لست في حاجة إلى التنويه به . فمنذ أن أخرج صاحبه الجزء الأول منه عام ١٩٦٤م ، أصبح المعول عليه في استخلاص المادة التاريخية الغزيرة التي يحتاجها الباحثون عن المغرب . وهو من الناحية التاريخية السياسية أشمل كتاب من نوعه غير أنه يقف بتاريخ المغرب حتى الخلافة الفاطمية ، وإن كانت النية متجهة لدى مؤلفة للتأريخ للمغرب العربي في ظل الدولة الفاطمية .

وبالإضافة إلى كتاب سعد زغلول عبدالحميد هذا ، فإن هناك مرجعا مهما آخر يعالج النواحي التاريخية والاقتصادية والعمرانية ، وهو كتاب تاريخ المغرب في العصر الإسلامي للسيد عبدالعزيز سالم .

وفيما يتصل بالكتب التي أرخت للخوارج في المغرب نذكر على رأسها كتاب الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري لمحمود اسماعيل عبد الرازق ، وهذا الكتاب هو رسالة دكتوراة في الأصل ، وقد نشرها صاحبها عام ١٩٧٦م . ولقد استفدنا من كثير من تحليلاته عن دخول المذهب الخارجي بلاد المغرب .

ومن الكتب المهمة التي استفدنا منها في تأريخنا للاثار العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والاباضية كتاب الإباضية يبين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، وكتاب الإباضية في الجزائر للمؤرخ والباحث الاباضي على يحيى معمر .

ولقد أفدنا في الحقيقة من الكتابين وخاصة كتاب الإباضية بين الفرق الإسلامية وذلك فيما يتعلق بوجهة نظر الإباضية في كثير من القضايا

الفقهية والعقائدية ، وكذلك في التعرف على تراجع علماء وأدباء الإباضية في إقليم الجريد وجبل نفوسة .

وتأتي موسوعة حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية في طليعة الكتب التي كتبها الباحثون التونسيون من حيث الأهمية لبحثنا . والحق أننا لانستطيع ان نفي حسن حسنى عبدالوهاب حقه وأفضاله على تاريخ المغرب الأدنى . فلقد كانت كتبه النبراس الذي استفاد منه الباحثون . أما موسوعته : الورقات فهي درة فريدة وموسوعة شاملة تتنقل بالقارئ من موضوع لموضوع في تشويق وتنويع محبب . وقد أفدنا منه حق الافادة لكن مايعيب كتاب الورقات ، الذي يقع في ثلاثة أقسام ، هو إهمال المؤلف توثيق كثير من أخباره ومعلوماته .

ولحسن حسني عبدالوهاب سلسلة من الكتب الاخرى التي أنارت لنا الطريق في بعض القضايا ، ككتاب بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، وكتاب خلاصة تاريخ تونس والإمام المازري ، وغير ذلك .

ومادمنا نتحدث عن مصنفات الباحثين التونسيين لايفوتنا الإشارة إلى الأهمية التي تمثلها الكتب التالية ، شخصيات أدبية من المشرق والمغرب لأبي القاسم كرو وعبدالله شريط وكتاب سيرة القيروان لمحمد العروسي المطوى ، وكتاب القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي للحبيب الجنحاني ، وكتاب مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر لعثمان الكعاك ، وغيرها من

الكتب التي أرخت للحيـــاة الحضارية لتونس في الفترة التي تخصنا وكذلك في فترات لاحقة .

وهناك الكثير من المراجع الهامة التي استفدنا منها والتي يضيق بنا المجال أن نتتبعها هنا . ولذلك فإننا نكتفي بما أوردناه منها هنا محيلين القاريء إلى قائمة المصادر والمراجع في نهاية الرسالة .

أما عن الكتب المعربة فإننا لانستطيع إغفال الأهمية الكبيرة للكتاب الموسوعي : تاريخ الأدب العربي للمستشرق الألماني كارل بروكلمان فهو كتاب لاغنى عنه للباحثين ، وقد استفدنا منه في نقطه جديدة ومفيدة لم يسعفنا غيره في الإشارة إليها سوى عبدالعزيز بن عبدالله في كتابه : الموسوعة المغربية للأعلام البشرية تلك النقطة هي الإشارة إلى الشروحات والاختصارات والتعليقات التي حظيت بها أشهر مصنفات الرجال الذين أرخنا لهم هنا في الرسالة سواء كانوا فقهاء أو أطباد أو أدباء .

وفيما يتصل بالرسائل الجامعية التي أعدت لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراة من الجامعات العربية ، فقد استفدنا من الرسالة التي أعدها الباحث المصري السيد محمد أبو العزم داود عن الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقيا حتى قيام دولة المرابطين المنشورة عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م والرسالة التي أعدها الباحث التونسي عبدالغزيز المجذوب بعنوان : الصراع المذهبي بإفريقية حتى قيام الدولة الزيرية ، المنشورة عام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، وذلك للحصول على شهادة الكفاءة في البحث من الكلية

الزيتونية وأصول الدين بتونس عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

وأخيرا نذكر الرسالة التي أعدها الباحث الليبي صالح مصطفى مفتاح بعنوان : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، وذلك للحصول على درجة الماجستير في التاريخ من كلية الأداب – قسم التاريخ بجامعة القاهرة ، عام ١٩٧٦م .

وفيما يتعلق بالدوريات فقد أتيح لنا الاستفادة من كثير من المقالات والبحوث التي نشرتها بعض المجلات العلمية المتخصصة ، وخاصة التونسية مثل البحث الذي نشره محمد اليعلاوي في مجلة حوليات الجامعة التونسية، عام ١٩٧٠م بعنوان : شعراء أفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية والمقال الذي نشره الشاذلي بويحيى في مجلة حوليات الجامعة التونسية أيضا العدد الأول عام ١٩٦٤م . بعنوان : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري وغيرهما من البحوث التي تتضح للقارئ في قائمة الدوريات .

وفي الختام حق عليَّ قبل أن أضع القلم أن اتقدم بأجزل الشكر وأعظم الامتنان إلى استاذي المشرف الأستاذ الدكتور أحمد السيد دراج الذي ما انفك يمدني جزاه الله خيراً بسديد آرائه وبليغ توجيهاته برحابة صدر ، وطول أناة حتى خرج هذا البحث إلى حيز الوجود . وفي الحق فلست أجد من العبارات ماتفي بشكره ، فله من الله حسن الثواب .

كما لايفوتني أن أعرب عن جميل تقديري لكل من قدم لي يد العون والمساعدة في ابراز هذا البحث واخراجه إلى المستوى المطلوب .

والله أسأل أن يوفقنا سواء السبيل وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا ، إنه القادر سبحانه على ذلك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والله ولي التوفيق ؛؛

تمهيد

تمهيد

- مدلول لفظ إفريقية (المغرب الأدنى) جغرافيا وتاريخيا .
- عرض موجز للأحوال السياسية في إفريقية المغرب الأدنى في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

مدلول لفظ إفريقية (المغرب الأدنى) جغرافياً وتاريخياً :-

لعل من الضروري قبل أن نتحدث عن تفاصيل الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) أن نلم بجغرافية هذا الإقليم الذي نشأت على أديمه تلك الحياة العلمية التي سنؤرخ لها لاحقاً إن شاد الله ذلك أن الحديث عن الحياة العلمية تلك لايستقيم له معنى إلا بتسليط الضوء على هذا الإقليم من حيث اسمه ومدلوله ومعناه . غير أن المغرب الأدنى ليس إلاَّ جزءاً من إقليم أكبر وأوسع هو المغرب الكبير ، أو المغرب العربي مطلقاً . ومن هنا فليس أمامنا كي يستقيم المعنى موضوعياً إلاَّ الإفاضة في ذكر هذا المغرب الكبير الذي يضم حقل دراستنا في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

معنى لفظ المغرب : لغوياً - جغرافياً - تاريخياً :-

فالمغرب لغوياً كل ماهو خلاف المشرق (١) ، والغرب والمغرب عند كثير من علماء اللغة سواء ،أي بمعنى واحد (٢) ، بل هو عند بعض المؤرخين الجغرافيين كذلك (٣) . ولقد جاء في القرآن الكريم مايدل على هذا المعنى اللغوي للفظي : المشرق والمغرب ، فقد قال تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، الجزء الثاني ، ص ١٢٩ .

(٢) أنظر مثلا ابن منظور ، نفس المصدر أعلاه والجزء والصفحة .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول الخاص بالفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ، حاشية رقم ٥، ص ٦٣ (تلخيصاً وتحليلاً لأقوال عدد من المؤرخين والجغرافيين القدامي) .

المغربين ﴾(١) . والمغرب كما ذكر ابن منظور (٢) : (موضع الغروب (أي غيوب الشمس) ، ثم استعمل في المصدر والزمان ، وقياسه الفتح ، ولكن استعمل بالكسر كالمشرقِ والمسجدِ) .

أما من حيث معناه الجغرافي ، والتاريخي ، فإنه – أي لفظ المغرب – جاء في نظر بعض الجغرافيين المسلمين الأوائل من أن أهل مصر ، كانوا يسمون مايلي أيمانهم – أي مايلي أياديهم اليمنى – إذا ما استقبلوا الجنوب : مغرباً ، ويسمون مايلي شمائلهم – أي مايلي أياديهم اليسرى – : مشرقاً (٣) .

غير أن أحد الباحثين المحدثين يرى أن التسمية : المغرب ، إنما هي اسم الاتجاه الأصلى الذي يحدد مغرب الشمس (٤) – وهو هنا يتفق مع المعنى اللغوي – بمعنى أن لفظ المغرب هذا كان ومازال ذا دلالة جغرافية تعنى البلدان التي تقع في اتجاه مغرب الشمس ، مثلما هو الشأن للبلدان الواقعة تجاه مشرق الشمس . وعلى هذا الأساس ، فإن لفظ المغرب يدل على كل مايقابل المشرق من أمصار . (٥)

---

(١) سورة الرحمن آية : ١٧ .

(٢) لسان العرب : ج٢، ص ١٢٩ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٥٤ .

(٤) سعد زغلول عبدالحميد : تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول ، ص ٦١ ، وحاشية رقم ٢٠- ص٦١- ٦٢ .

(٥) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١ .

ولقد ظهر هذا التقسيم الاصطلاحي في الدولة الإسلامية في عهد الخلافة العباسية . ذلك أن الخليفة المهدي بن المنصور ، قسم دولته بين ولديه: الهادي والرشيد ، فعهد للهادي بالمشرق كله وآذربيجان وأرمينيه ، وعهد للرشيد بالمغرب كله من الأنبار إلى إفريقية (١) . بيد أن هناك من يرجع هذا التقسيم الإداري إلى الرشيد نفسه ، وليس لأبيه المهدي، فالرشيد كما ذكر قسم دولته بين ولديه : الأمين والمأمون على نفس النسق السابق . وعلى أية حال فإن الدولة العباسية رأت بغداد العاصمة كما يقول سعد زغلول (٢) عبد الحميد بمثابة خط جرينتش اليوم تجاه خطوط الطول.

يبقى أن نشير أخيراً إلى أن لفظ المغرب ، ومن ثم لفظ افريقية كان معروفاً عند المسلمين منذ العهود الأولى للإسلام ، بل أن بعض كتب التراجم التي ترجمت لعلماء المغرب أوردت عدة أحاديث عن الرسول ﷺ، ذكر فيها لفظ المغرب كاسم علم للقطر المغربي نفسه (٣) ، ونحن هنا بطبيعة الحال

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع والجزء ، ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع أعلاه والجزء ، والصفحة .

(٣) من تلك الأحاديث : روى عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : «لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال سمعت رسل الله ﷺ تسليما يقول : « لا تزال عصابة من أمتى بالمغرب يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة لايضرهم من خالفهم ، حتى يروا غماما فيقولوا « غشيتم » فيبعثون سراعا خيلهم ينظرون ، فيرجعون اليهم فيقولون : الجبال قد سيرت فيخرون سجدا فتقبض أرواحهم » وعن أبي عبدالرحمن الحبلي قال ، قال رسول الله ﷺ : « ينقطع الجهاد عن البلدان كلها فلايبقى إلاّ بموضع من الغرب يقال له إفريقية ، فبينما القوم بازاء عدوهم ، نظروا الى الجبال قد سيرت ، فيخرون لله تبارك وتعالى سجدا ، فلا ينتزع أخلاقهم إلاّ خدمهم في الجنة » . إلى غير ذلك . =

لسنا في وارد تبيان قوة تلك الأحاديث أو ضعفها (١) ، فما يهمنا هو الإشارة إلى الحقيقة التاريخية وحدها . على أن الأمر الذي لايرقى إليه شك هو أن المسلمين عرفوا على وجه الخصوص لفظ إفريقية منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (٢) عندما طلب منه عمرو بن العاص فاتح مصر السماح بفتح إفريقية ، فأجابه بالرفض ، وعرف اللفظ أيضا في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان الذي سمح بغزو (٣) إفريقية ، وعرف كذلك في عهد الخليفة معاوية إبان بناء عقبه بن نافع لمدينة القيروان ، حيث قال عقبة : (إن افريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الاسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر) (٤) .

أما لفظ المغرب ، فإنه قد ظهر منذ عهد معاوية بن أبي سفيان عندما

= أنظر أبو بكر المالي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيه وزهادهم وعبادهم ، وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، ص : ٣-٥ مع الحواشي - الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، أكملة وعلق عليه أبو الفضل بن ناجي التنوخي ، الجزء الأول يتعليق وتصحيح ابراهيم شبوح ، ص ٤ وما بعدها .

(١) أشار مكمل ومعلق كتاب معالم الإيمان المذكور أعلاه أبو الفضل بن ناجي التنوخي إلى أن تلك الاحاديث يغلب على الظن أنها موضوعة ، وقصد بها تحبيب بلاد المغرب إلى ساكنيه . انظر معالم الإيمان ، الجزء الأول ، ص٦ وما بعدها .

(٢) أبو بكر المالكي : نفس المصدر اعلاه والجزء ، ص٥ .

(٣) أبو بكر المالكي : نفس المصدر ، والجزء ، ص ٨-٩ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الأول ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، ص ١٩ .

ولى مسلمة بن مخلد الأنصاري ولاية مصر والمغرب كله (١) ، ثم عندما ولي يزيد بن معاوية عقبة بن نافع ثانية إفريقية والمغرب (٢) كله ، ثم أخذ لفظ المغرب يشيع في عهد الدولة الأموية في العهد المرواني ، فنرى بعض المؤرخين ينسب إلى الخليفة الوليد بن عبد المطلب تولية موسى بن نصير إفريقية والمغرب (٣) واتضح معناه بصورة أكثر تفصيلاً عندما ولى الخليفة سليمان بن عبدالملك ، محمد بن يزيد مولى قريش إفريقية والمغرب ، فلقد قال له مانصه : (قم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله) (٤) .

مدلول لفظ المغرب : جغرافياً وتاريخياً :-

ماقدمناه من شرح إنما كان إيضاحاً للفظ المغرب : لغوية وجغرفيا وتاريخياً . أما عن مدلوله الجغرافي والتاريخي ، فهو ماسيكون موضع الشرح الآن . والواقع أن مدلول لفظ المغرب جغرافياً كان مثار نقاش بين المؤرخين والجغرافيين قدامى ومحدثين ، بل كان موضع اختلاف فيما بينهم . ففي الوقت الذي نرى فيه بعض المؤرخين والجغرافيين يعتقد أن مدلول لفظ المغرب جغرافيا هو كل مايلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسى ، بما في

(١) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ج١، ص ٢١ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٣ .

(٣) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٤، ٤٧ .

(٤) ابن عذارى : نفسه ، ص٤٧ .

ذلك الأندلس والجزر الموجودة في البحر الأبيض المتوسط كجزر البليار ، وصقلية وسردينيا ، وكورسيكا (١) نلاحظ أيضاً أن هذا المفهوم يزداد اتساعاً عند البعض الآخر وعندهم أيضا . فيرون أن مصر نفسها داخلة ضمن مفهوم المغرب (٢) . بل لقد زاد مدلول اللفظ اتساعا، فشمل بالإضافة لما ذكرناه : بلاد الشام (٣) وذلك عندما قسم الخليفة العباسي هارون الرشيد دولته بين ولديه : الأمين والمأمون ، فعهد للأمين بالمغرب كله ، وشمل بلاد الشام والعراق ومصر وإفريقية ، وعهد للمأمون بالمشرق كله ، وشمل بلاد فارس ومايليها شرقاً كما أشرنا سابقاً . غير أنه لايعزب عن القول بأن ذلك التقسيم لايعدو أن يكون مجرد تقسيم اداري ، اكثر منه واقع جغرافي طبيعي .

واذا ما نحينا الاختلاف حول هذه النقطة - أي حد المغرب شرقاً - جانباً ، فإن أولئك المؤرخين والجغرافيين يختلفون على حد المغرب جنوبياً -

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٦٤-٦٥ - المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ص٢١٥ - ٢١٦ - سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج١، ص٦٣) - السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، ص ٤٠- أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص : ١١.

(٢) ابن حوقل : نفس المصدر أعلاه ص ٦٥- ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ١ ص ٥-٦- المقدسي : نفس المصدر أعلاه ص ٢١٦ . وأنظر عبده عبدالعزيز قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي ، الجزء الأول ، ص ١٣- ١٥ (حيث ينقل عن ابن سعيد المغربي في كتابيه : المغرب في حلى المغرب ، وكتاب الجغرافيا ، ما يفيد هذا المعنى ، بل وكتابه الثالث : عنوان المرقصات والمطربات . حيث يتحدث عن أدباء مصر مع أدباء المغرب) .

(٣) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع أعلاه ، ص ١١-١٢ .

وغـربه بالطبع – فـهم يرون أن المغـرب يمتـد طبيـعيـا جنوبا حـتى تخـوم السـودان (١) ، وبالتحديد تخوم الدويلات الإفريقية المستقلة اليوم التاليـة : تشاد ، وغربي جمهورية السودان من جنوبها الشرقي ، ومالي ، والنيجر من وسطه ، والسنغال من جنوبه الغربي (٢) .

وأيا كان الأمر فإن مدول لفظ المغرب إنما يعنى الآن : المغرب العربي الافريقي بتنظيماته السياسية المعروفة اليوم ، وهي الجماهيرية الليبية ، الجمهورية التونسية ، الجمهورية الجزائرية ، المملكة المغربية . ثم جمهورية موريتانيا ، التي كانت ضمن المغرب الأقصى (٣) . هذا ويطلق على المغرب العربي أحيانا : شمال أفريقيا ، لوقوعه شمال القارة الافريقية .

---

(١) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص٦٤ –٦٥ – البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك له ، ص ٤٨–٤٩ ، وص ١٥٦–١٥٧ ، وص ١٦٠ . وما بعدها – ابن السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٣٥ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج١ص٦١–عبده عبدالعزيز قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي ، ج١، ص ١٤ – محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ٣ – محمود شيت خطاب : عقبة بن نافع الفهرى – قادة فتح المغرب الإسلامي ، ط٤، ص ١٦ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع السابق والجزء ص٦١– السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص٤٠–٤١ – أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص١٢–١٣ محمود شيت خطاب : المرجع السابق أعلاه ، ص١٦ .

أقسام بلاد المغرب :

اصطلح الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على تقسيم بلاد المغرب العربي إلى ثلاثة أقسام رئيسية انطلاقا من المفهوم الواسع لمدلول لفظ المغرب الذي أشرنا إليه آنفاً من جهة ، وتحديداً لمبدأ القرب والبعد عن المشرق من جهة أخرى (١) .

وهذه الأقسام هي :

١- المغرب الأدنى (إفريقية) :-

ويمتد هذا الإقليم من طرابلس شرقاً حتى مدينة بجاية أو تاهرت (في الجزائر الحالية) غرباً . وعاصمة هذا الإقليم أو القسم مدينة القيروان (٢). ولإفرّيقية مفهومان : عام وخاص سنتطرق لهما بعد . ولكن الذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن إفريقية في مفهومها الخاص بل والمنطقي هي المنطقة التي تمتد من الأجزاء الشرقية من المغرب أو ماكان يعرف بإفريقية القنصلية في عهد الرومان . بمعنى أن إفريقية تعني كل البلاد التونسية اليوم مع بعض الأجزاء الغربية من ولاية طرابلس بما في ذلك المدينة نفسها ، وأجزاء من بلاد الجزائر الحالية أي التخوم الشرقية للجزائر حتى مدينة بجاية أو تاهرت (٣) . ويعرف هذا القسم أيضا عند بعض المؤرخين . والجغرافيين

---

(١) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج١ ، ص ٤ - أحمد مختار العبادى : نفسه ، ص١٢ .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص٤١ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٨ مع الحواشي رقم : ٣٢-٣٥ - =

ببلاد القيروان . (١) ويرى بعض الباحثين المحدثين أن إفريقية تعد أول أقاليم المغرب الحقيقي إعتماداً على بعض أقوال تنسب لعدد من المؤرخين القدامى كابن عبدالحكم وغيره (٢) .

٢- المغرب الأوسط ، ويمتد من بجاية أوتاهرت شرقاً حتى وادي ملوية وجبال تازا غرباً (٣) : (فيما بين مدينتي تلمسان وتازا التي تعد ممراً يربط بين المغرب الأوسط والأقصى) (٤) . ويكاد المغرب الأوسط يشكل حالياً بلاد الجزائر الآن (٥) . أما عن عاصمته ، فقد تعددت بتعدد الدول التي حكمته ، ففي عصر الدولة الرستميه كانت العاصمة مدينة تاهرت ، وفي عهد الدولة الحمادية أصبحت العاصمة مدينة أشير ، وفي عهد الدولة العبدوادية أوبني عبد الواد ، غدت تلمسان هي العاصمة ، ثم أصبحت جزائر بني مزغنة (الجزائر العاصمة الآن) هي عاصمة القطر الجزائري (٦) .

= أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ١٢- محمود شيت خطاب : عقبة بن نافع القهرى ، ص ١٦-١٧ .

(١) أنظر مثلا البكري : المغرب في ذكربلاد إفريقية والمغرب ص ٤٧ - سعد زغلول عبدالحميد ، المرجع السابق والجزء ، ص ٧٠ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص٦٧ .

(٣) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٤١ - محمد على دبوز : المرجع السابق والجزء ، ص٤ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٩ .

(٤) محمود شيت خطاب : المرجع السابق ، حاشية رقم (١) ، ص ١٧ .

(٥) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص : ٤١- أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ١٣- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٩- محمود شيت خطاب : نفسه ، ص ١٦-١٧ .

(٦) أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ١٣ .

٣- المغرب الأقصى ، ويمتد من وادي ملوية وجبال تازا شرقاً ، حتى المحيط الأطلسي غرباً (١) ، أو بالتحديد حتي الساحل المغربي على المحيط الأطلسي . ويكاد يشكل المملكة المغربية (٢) بحدودها المعروفة اليوم مع موريتانيا . وقاعدته أو عاصمته تعددت أيضا بتعدد الدول التي حكمته . ففي عهد الأدارسة كانت العاصمة مدينة فاس ، ثم مراكش في عهد المرابطين فالموحدين . وتنقلت العاصمة بعد ذلك بين فاس ومراكش الى أن استقرت أخيراً في مدينة الرباط إبان الاستعمار الفرنسي للمغرب . (٣)

هذه التقسيمات التي أوردناها لم تكن محل اجماع بين المؤرخين والجغرافيين على السواء . ففي الوقت الذي نرى فيه معظم المؤرخين والجغرافيين القدامى كياقوت (٤)، وابن حوقل (٥) ، ثم بعض من الباحثين المحدثين يدمجون ليبيا بولاياتها الثلاث ضمن مفهوم إفريقية ، نجد السيد عبدالعزيزسالم يرى أن برقة وطرابلس تشكلان جزءاً أو قسماً مغربياً مستقلا قائماً (٦) بذاته . والبعض الآخر من هؤلاء المحدثين يرى أن برقة تكاد تكون امتداداً طبيعياً لمصر ، حيث لافوارق طبيعية (٧) تذكر .

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٤١ - محمد علي دبوز : نفسه ، ص ٤ .

(٢) أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ١٣ - محمود شيت خطاب : نفسه ، ص١٧.

(٣) راجع أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص١٣-١٤ .

(٤) معجم البلدان ، ج١ ، ص ٢٨ .

(٥) صورة الأرض ، ص٧١ .

(٦) نفسه ، ص٤٠ .

(٧) سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق والجزء ، ص٦٤- ٦٥ .

والآن وقد استعرضنا أقسام بلاد المغرب في العصر الإسلامي وفي العصور التي سبقته نجد من الضروري أن نوضح معاني الألفاظ التي كثر استخدامها هنا كإفريقية ، المغرب الأدنى ، المغرب الأوسط ، المغرب الأقصى .

أما لفظ إفريقية من حيث أصلة ومعناه واشتقاقاته فسنؤخر الحديث عنه متيحين الفرصة أولاً لشرح معاني ألفاظ : مغرب أدنى ، أوسط ، أقصى، ثم نتصدى بعد ذلك لشرح كلمة إفريقية .

يعتقد سعد زغلول عبدالحميد (١) أن لفظي : مغرب أوسط وأقصى ظهرا ابتداءً من القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي عندما دعت الحاجة المسلمين للتمييز بين أقاليم المغرب الواسع ، فظهر لفظ المغرب الأوسط وعنى به البلاد الجزائرية اليوم تقريبا، وعاصمته تلمسان كما ذكرنا، مع الاختلاف فيما يدخل ضمن هذا القسم شرقاً وغرباً . ثم ظهر لفظ المغرب الأقصى وقصد به كل مايلي بلاد المغرب الأوسط شرقاً حتى المحيط الأطلسي ، وهو ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية مع موريتانيا . ويتراءى لسعد زغلول عبد الحميد (٢) أيضاً أن تعبير المغرب الأقصى الذى كان أسبق في الظهور من تعبير المغرب الأوسط فرضته ضرورة منطقية ، وذلك لأن بلاد الجزائر كانت تعرف مغرباً لإفريقية – وهو ما أشرنا إليه قبل ذلك من تعيين الوليد بن عبد الملك ثم سليمان أخاه ولاة على إفريقية والمغرب

---

(١) نفسه ، ص ٦٩ مع الحواشي .

(٢) نفسه ، ص٦٩ .

. ولما كانت بلاد الجزائر في نفس الوقت مشرقاً لما بقي من أراضي المغرب الممتدة حتى المحيط الأطلسي وجب أن يطلق لفظ أقصى على هذه الأرض المتبقية ، فهو (مغرب بالنسبة لما دونه من الأقاليم وهو ليس مشرقاً بالنسبة لأى أقليم) . ومن هنا كان من المنطق أن يطلق على هذا الجزء من المغرب : المغرب فقط أو المغرب الأقصى . (١)

وأخيراً ينبغي الإشارة إلى أن اصطلاح المغرب الأدنى لم يعرفه المؤرخون والجغرافيون القدامى (٢) ، بل عرفوا ما يدل عليه باسم إفريقية أو بلاد القيروان . ويعود الفضل في استخدامه كما يبدو لى للباحثين المحدثين (٣) الذين رأوا أن من ضرورات المنطق أيضاً أن يشار إلى هذه الأراضى التى تعرف باسم إفريقية بالمغرب الأدنى طالما أن هناك مغرباً أوسط وأقصى ، وهذا الأستنتاج يبدو لى أنه يحمل كثيراً من عناصر الوجاهة .

أما التعبير الفني : أدني – أوسط – أقصى ، فقد جاء انطلاقاً من بعد أو قرب هذا الأقليم أو ذاك من المشرق ، أو بالتحديد من عاصمة الدولة الإسلامية في المشرق . فقيل أدنى ، أو أقرب بلاد المغرب لدار الخلافة بالحجاز والشام والعراق ، وقيل أقصى لأنه أبعد أو أقصى أقسام المغرب

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، نفسه ، ص٧٠ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص٦٩ –٧٠ .

(٣) أنظر السيد عبد العزيز سالم : نفسه ، ص٣٩ – ٤١ – أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص١٢ – ١٣ – محمد علي دبوز : نفسه ، ص ٤–٥ .

عن دار الخلافة . (١)

كلمة إفريقية : مدلولها - ومفهومها :-

لكلمة إفريقية عند المؤرخين والجغرافيين قدامى ومحدثين عربا أكانوا أم غير ذلك عدة تفسيرات متباينة كثيرا . ولا تخلو بعض تلك التفسيرات في الواقع من الطابع الأسطوري ، بل وطابع الطرافة أيضاً . ولم تقتصر تلك التفسيرات على أصل الكلمة فحسب ، وإنما تعدت إلى أوماتدل عليه جغرافيا . وهذا التباين شمل بالإضافة لذلك الاختلاف في البناء الاملائي للكلمة نفسها (٢).

وعلى كل حال فما يهمنا هنا هو تحديد مدلولها لفظ إفريقية الجغرافي والواقع أنه حتى فيما يتعلق بمفهوم هذه الكلمة فقد تعددت الآراء والأقوال ، فالبكري (٣) يذكر أن (حد إفريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة

---

(١) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٣٩-٤١ - أحمد مختارالعبادي : نفسه ، ص١٢-١٣- محمد علي دبوز : نفسه ، ص ٤-٥ .

(٢) عن التفسيرات الواسعة والمختلفة لكلمة إفريقية والرسم الإملائي لها أنظر البكري : معجم ما أستعجم ، ج٢، ص ٣٠ وكذلك المغرب في ذكر إفريقية والمغرب له نفسه ، ص ٢١ ،- ابن حوقل : نفس المصدر السابق ،ص ٩٣ - ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ،- الطبعة الثالثه ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، ص١٩- ياقوت الحموي : نفس المصدر السابق ، ج١، ص ٣٢٨ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٧-٦٩- الطاهر أحمد الزادي : معجم البلدان الليبية ، الطبعة الأولى ، ص ٨- اسماعيل العربي : دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، ص١٥-٣٥- محمود شيت خطاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٥-١٦، وأنظر بعناية كذلك : دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية - المجلد الثالث ،ص ٥٨١ ومابعدها ، مادة إفريقية .

(٣) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ، ص ٢١ .

الخضراء غربا) ويوافقه في رأيه هذا ياقوت الحموي (١) ، وهذا المفهوم كما يتضح لنا يعادل تقريبا مفهوم المغرب كله .

على أن هناك من المؤرخين والجغرافيين من يذكر أن مدلول أو مفهوم إفريقية هو ماسبق أن أشرنا إليه ، من أنه يعنى البلاد التونسية الآن مع أجزاء من ليبيا وكذلك أجزاء من الجزائر . ومن هؤلاء : ابن سعيد المغربي ، وابن أبي دينار (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقد غدا لإفريقة مفهومان (٣) : مفهوم عام ، وهو الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب كله تقريبا ، ومفهوم خاص ، وهو الذي يعادل المغرب الأدنى كما ذكرنا من قبل . هذا بالإضافة إلي اطلاق اسم إفريقية على القارة كلها ، وهو من قبيل اطلاق الجزء على الكل ، واطلاق الكل على الجزء .

وعلى أية حال ، فإن المفهوم الذي سنعتمده كإطار جغرافي للحياة العلمية في الفترة الزمنية التي حددناها للبحث ، هو مفهوم إفريقية (المغرب الأدنى) الخاص الذي يمتد من طرابلس شرقاً حتى مدينة بجاية ، أو تاهرت (في الجزائر الحالية) غرباً . أي المفهوم الذي يعنى الآن كل البلاد التونسية اليوم ، مع الأجزاء الغربية من ولاية طرابلس في ليبيا ، وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر الآن .

---

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج ١ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٨– محمود [illegible] يت خطاب : نفسه ، ص ١٥ .

عرض موجز للأحوال السياسية في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة :-

في دراسة مظاهر الحياة لمدينة أو إقليم أو دولة ما ، تستدعى الحاجة المنطقية ايضاح صورة وشكل المناخين : الجغرافي والسياسي ، اللذين نشأت بهما تلك الحياة العلمية . ذلك لأنه لايمكن فهم طبيعة الحياة العلمية بما تحتويه من أوجه المعارف والعلوم المختلفة ، دون أن نسترشد بالواقع الجغرافي الذي يحتويها وكذلك بالواقع السياسي الذي يغذيها وينميها سلباً أو ايجاباً .

أما وقد تهيأ لنا ايضاح الجانب الأول من هذا التصور ، وهو مدلول لفظ إفريقية (المغرب الأدنى) – والمغرب ككل اقتضاءاً – ، جغرافيا وتاريخياً ، فلا يبقى أمامنا سوى أن نستعرض بايجاز – غير مخل – الأحوال السياسية في مغربنا الأدنى في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة إلى أن ازدهار الحياة العلمية في المغرب الأدنى – وفي المغرب عامة – قد إرتباط بالمناخ السياسي بصورة يصعب فصلها أو اجتزاؤها ، بل إن الحياة العلمية تدين في كثير من تقدمها وتطورها للعامل السياسي الذي يتعهدها ويحوطها بكل أسباب التفوق والنمو غالباً .

فكرة فتح المغرب :-

لم يكد يمر عقد واحد من السنين على وفاة الرسول ﷺ ، حتى كانت الأقطار التي تقع شمالى الجزيرة العربية وغيرها تخضع للنفوذ الإسلامي . فلقد قدر للمسلمين أن يضعوا أيديهم على مقدرات الأمور في كل من الشام والعراق وفارس ومصر في هذه الفترة الزمنية القصيرة جداً .

ولقد تطلع عمرو بن العاص فاتح فلسطين ومصر إلي متابعة الجهاد والغزو في سبيل الله فيما يلى مصر غرباً ، أي برقة وطرابلس اللتين تعتبرا، أول بلاد المغرب من جهة ، ولتأمين فتح مصر وبلاد الشام من جهة أخرى (١)، ولذلك فما كادت تستقر له وللمسلمين الأوضاع في مصر ، حتى يمم وجهه نحو المغرب قاصداً برقة ، وذلك في سنة ٢١ (٢) ، أو ٢٢هـ (٣) . ولقد تهيأ لعمرو بن العاص ولقادته العسكريين من أمثال عقبة بن نافع وغيره، أن يفتح ليبيا بولاياتها الثلاث : برقة وطرابلس وفزان في مدة قصيرة وبسهولة ويسر دونما مقاومة تذكر . (٤) .

---

(١) يرى عدد من المؤرخين المحدثين - ومعهم الحق في ذلك - أن تطلع عمرو ب العاص لفتح إفريقية، كان ضرورة استراتيجيه لتأمين فتح مصر ، ويرون أنه كما فرضت الظروف فتح مصر لتأمين فتح فلسطين وبلاد الشام ، فقد فرضت هنا فتح المغرب لتأمين فتح مصر والفتوحات كلها . تماماً مثلما فرضت الضرورة العسكرية فتح فارس لتأمين فتح العراق وفتح فارس قاد أيضاً إلى فتح أواسط آسيا والهند . أنظر محمد التونجي : عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، ص ٢٤-٢٥، ص ٢٩ - سعد زغلول عبدالحميد ، نفسه ، ص ١٣١ .

(٢) أنظر السيد عبد العزيز سالم : نفسه ، ص ٥٥ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ١٢٧، ١٣٠ ومابعدها .

(٤) عن فتح ليبيا بولاياتها الثلاث ، راجع سعد زغلول عبدالحميد - نفسه ، ص ١٣٠- ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٥ .

وعندما فرغ من فتح ليبيا ، فكر في فتح إفريقية التي كانت تخضع لنفوذ القائد البيزنطي جريجوريس (١) ، أو جرجير كما تسميه المصادر الإسلامية ، إلاَّ أنه فضل استئذان الخليفة عمر بن الخطاب في ذلك . لكن الخليفة رفض ذلك وطلب إليه العودة ، فعاد عمرو أدراجه نحو الفسطاط مكرها . وسواء أكان ذلك تنفيذاً لطلب الخليفة كما ذكرت المصادر ، أم كان نتيجة لتخوف عمرو بن العاص نفسه من التوغل في أرض إفريقية الشرقية ، حيث وطن جرجير نفسه للمقاومة ، أم كان رجوعه إلى مصر لتدارك الأوضاع فيها بعد أن نكث الروم بعهدهم فإن عمراً عاد إلى الفسطاط لتفاجأ الأمة الإسلامية بمقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في أواخر سنة ٢٣هـ /٦٤٣م (٢) .

مراحل فتح بقية المغرب العربي : ٢٣-٩٠هـ :

استغرق فتح المغرب مدة طويلة (٢٣-٩٠هـ) مقارنة بغيرة من الفتوحات الأخرى . ويعزو كثير من المؤرخين والباحثين المحدثين ذلك إلي عدة عوامل ، كانت سبباً في إطالة أمد (٣) الفتح وبطبيعة الحال فنحن

---

(١) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٥٥ - سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ٥٣- أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ٣٦ .

(٢) عن هذه الاحداث والأراء المتباينه في مسألة عودة عمرو بن العاص إلى الفسطاط ، راجع سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص١٤٣-١٤٤، ١٤٥ .

(٣) عن العوامل التي أدت إلى اطالة أمد الفتح ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ١٢٩ - أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ٤٩-٥٠- ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، =

لايهمنا من هـذا إلاّ الإشـارة إلي أن المـغرب شهـد خلال تلك الفترة عدة حملات ، بعـد أن مهـدت حملـة عمـرو بن العـاص الطريق إلى ذلك ، فلقد تتابعت الحمـلات بدءاً بحملـة عبدالله بن سعـد بن أبي السـرح ، وحملة معـاوية بن حديـج ، ثم حملـة عقبـة بن نافع الأولى ، فحملة أبي المهـاجر دينـار ، ومروراً بحملـة عقبـة بن نافـع الثانيـة ، فحملة زهير بن قيس ، وانتهاءً بحملتي حسان بن النعمان ، وموسى بن نصير .

ولقـد تمخـض عن هذه الحملات عدة نتائج إيجابيـة انعكس أثرها على بلاد المغـرب وعلى الفتح الإسـلامـي نفسـه ، مـثل القـضـاء على النفـوذ البيـزنطي تمامـاً في بلاد المغرب (١) ثم إسـلام البـربر بجـذميـهم الكبيـرين البتر والبرانس، بعـد أن نجحت جهود بعض هـؤلاء الفاتحين في استمـالتهم نحو الاسـلام . والحق أن البربر لم يستجيبوا في بداية

= عرض لأحداث المغرب في تطوراتـه في الميادين السياسيـه و الدينيـة و الاجتماعية و العمرانية والفكرية لايهمنا والفكرية منذ ماقبل الاسلام إلي العصر الماضي الجزء الأول الطبعة الأولى ، ص ٨٧-٨٩ .

١- عن القضاء على النفوذ البيزنطي في المغرب ، و جهود عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، و حسان ابن النعـمـان في ذلك أنظر المالكي : رياض النفـوس ، ج١ ، ص ٣٠ - ١٣٨ - ابن عـذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٤ -٣٩ - ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ الاول ، والجزء ص ٩٦ - ٩٧ سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ص ٢١٤ -٢٤٥ - السيد عبد العزيز سالم : نفسه ، ص١٥٤-١٦٥ - حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في افريقة ، الجزء الأول، ص ١٥٩ - شارل اندرى جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية - تونس - الجزائر - المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي إلى سنة ١٨٣٠ م . الجزء الثاني ، النشرة الثانية ، ص ٢٠ .

الأمــر للإسـلام والمسلمــين ، فقـــاوموا أشـــد المقاومة (١) علاوة على الدور العلمي والثقافي الذي أدته منذ تأسيسها في نشر الإسلام بين البربر .

يبقى أن نشير أخيراً إلي أن ضرورة التسلسل التاريخي والموضوعي للأحوال السياسية للمغرب في تلك الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، هي التي قادتنا إلى ذكر هذه الخلاصة عن فتح المغرب ومراحله وإلاَّ فإنه من غير المنطقي أن نبحث خلال هذه الفتوحات عن الحياة العلمية بكافة أوجهها ، لأن ذلك أمر لايستقيم له منطق في ظل الفتوحات وعدم الاستقرار . مع ذلك فلا يمكننا أن نستعبد ظهور مؤشرات حركة علمية توحى بها المحاولات المستمرة لنشر الإسلام بين البربر . وهل يمكن حدوث ذلك دون أن تصحبه عملية تعلم البربر لأصول ومبادئ الإسلام على يد الصحابة والتابعين الذين كانوا يصحبون هذه الحملات في غدوها ورواحها . مع مايصحب ذلك من انتشار اللغة العربية وعاء الدين ؟؟

---

(١) عن القيروان وظروف بنائها ، وأسباب اتخاذها قاعدة عسكرية في ذلك الموضع أنظر محمد التونجي : عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، ص ٢١٠ - ٢٢٢ - محمود شيت خطاب : نفسه ، ص ١٢٢- ١٢٧.

عصر الولاة : ٩٦ - ١٨٤هـ/٧١٥- ...٨م :

يلوح لبعض المؤخين القدامى والمحدثين ، القول بأن عصر الولاة في المغرب ، هو الذي يبدأ من عام ٥٠هـ ، أي منذ حملة عقبة بن نافع الأولى (١) ، ويصر بعضهم على ذلك فيذكر أن عددهم بلغ ستة وعشرين أميراً بدءاً بعقبة بن نافع وحتى محمد بن مقاتل العكي ، أي منذ عام ٥٠هـ- حتى عام ١٨٤هـ (٢) .

لكننا في الحقيقة لانذهب هذا المذهب ، فعصر الولاة كما يترائ لنا لم يبدأ إلاّ منذ اللحظة التي تم فيها فتح المغرب جميعه ، بحيث يكون الوالي : حاكماً مدنياً أكثر منه حاكماً عسكرياً (٣) . ولهذا فحتى حملة موسى بن نصير - ناهيك عن حملة حسان بن النعمان - كما يبدو لنا لاتنطبق عليها هذه الصفة . (٤) وعلى هذا فإننا مع الرأي الذي يرى أن عصر الولاة هو الذي يلي حملة موسى بن نصير وحتى ولاية محمد بن مقاتل العكي .

---

(١) أنظر مثلا المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٦-٨ ، ١٨- ٢٨ - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ص ١٩- ٤٦- الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الاثني الهجري ، ص ٣٩- ٨٩ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٨٣-٢٦٥ .

(٢) الطاهر أحمد الزاوي : نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٣) يذهب السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص١٧٥ إلى أن عصر الولاة هو الذي تلا حملة موسى بن نصير ، وعنده أنه هو الذي يبدأ بولاية محمد بن يزيد مولى قريش ، وقد مهد لذلك بقوله (ولاة المغرب بعد موسى بن نصير) - أما رابح بونار فيذكر في كتابه : المغرب العربي تاريخه وثقافته ص١٨ ، بأن عصر الولاة يطلق على الفترة التي أعقبت الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا ، ويقول مانصه بالحرف الواحد (وقد كان الوالي فيها حاكماً مدنياًأكثر منه حاكماً حربياً)

(٤) رابح بونار : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

وانطلاقا من هذا يمكننا القول بأن محمداً بن يزيد مولى قريش الذي ولاّه سليمان بن عبدالملك ولاية إفريقية والمغرب هو أول والٍ لبلاد المغرب ، وقد حكم المغرب بين عامي : ٩٦- ١٠٠هـ ، ٧١٥-٧١٨م ، ثم تتابع الولاة بعد ذلك في عهدي الدولة الأموية فالعباسية ، فجاء إفريقية والمغرب بعده والياً كل من : اسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر ١٠٠-١٠٢هـ/٧٢٠م ، ويزيد بن أبي مسلم ١٠٢هـ/ ٧٢٠م وبشر بن صفوان الكلبي ١٠٢-١٠٩هـ/ ٧٢٠-٧٢٨م ، وعبيدة بن عبدالرحمن السلمي ١١٠-١١٥هـ/ ٧٢٨-٧٣٣م ، وعبيدالله بن الحبحاب ، ١١٦-١٢٣هـ/ ٧٣٤-٧٤١م ، وكلثوم بن عياض القشيرى ١٢٣هـ/٧٤٨م ، ثم حنظلة بن صفوان الكلبي (١)-١٢٤-١٢٧هـ/ ٧٤١م ، ثم عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى الذي تغلب على إفريقية والمغرب ، وبدأ معه حكم الأسرة الفهرية حيث اعترفت به الدولة الأموية قبل سقوطها فالعباسية والياً ، لكنها مالبثت أن سحبت اعترافها به. وقد حكم المغرب من هذه الأسرة بالإضافة لعبدالرحمن ١٢٧-١٣٧هـ/٧٤٥-٧٥٥م كل من : إلياس شقيقه ١٣٧-١٣٨هـ/ ٧٥٥-٧٥٦م ، ثم حبيب أبنه أي ابن عبدالرحمن ١٣٨-١٤٠هـ/٧٥٦-٧٥٧م (٢) .

(١) عن هؤلاء الولاة ، أنظر الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص٩٣ -١٢٣- ابن عذارى ، المصدر السابق والجزء ، ص ٤٧-٥٩ - ابن ابي دينار : المصدر السابق ، ص ٣٩-٢٢ - محمد الباجي المسعودي : الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ، ص ١٢-١٥- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٥٩- ٣١٠ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٠٢-٢٣٧ .

(٢) عن هؤلاء أنظر الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ١٢٣-١٤١- ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٠ - ٧١ - محمد الباجي المسعودي : الخلاصة النقيه في أمراء افريقية ، ص ١٥-١٨- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ٣١٠-٣٣٩- السيد عبدالعزيز سالم: نفسه ، ٢٣٧ - ٢٥٢ .

ثم عهدت الدولة العباسية بالولاية على إفريقية لمحمد بن الأشعث الخزاعي ١٤٢-١٤٨هـ/٧٦٠-٧٦٥م ، فالأغلب بن سالم التميمي ١٤٨-١٥٠هـ/ ٧٦٥-٧٦٧م ، ثم عمر بن حفص بن قبيصة المهلبي ١٥١-١٥٤هـ/ ٧٦٨-٧٧١م، وبه بدأ عصر الأسرة المهلبية في المغرب كولاة من قبل الخلافة العباسية . وبعد مقتل عمر بن حفص أسندت الخلافة الولاية ليزيد بن حاتم ١٥٥-١٧٠هـ/ ٧٧٢-٧٨٨م ، ثم عندما توفي خلفه ابنه داوود والياً مؤقتاً ١٧٠-١٧١هـ / ٧٨٨م ، ثم روح بن حاتم شقيق يزيد ١٧١-١٧٤هـ / ٧٨٨- ٧٩١م ، فنصر بن حبيب ١٧٤- ١٧٨هـ ، وأخيراً الفضل بن روح بن حاتم ١٧٧-١٧٨هـ/٧٩٣- ٧٩٤م ، وبه إنتهى عهد الولاة من أسرته . (١)

وقد رأت الدولة العباسية أن تسند الولاية لهرثمة بن أعين ١٧٩-١٨١هـ /٧٩٥ - ٧٩٧ ثم محمد بن مقاتل العكي ١٨١-١٨٤هـ/ ٧٩٧- ٨٠٠م الذي كان أخر والٍ للدولة العباسية قبل أن يتم الإتفاق بينها وبين ابراهيم بن الأغلب ، وهو الاتفاق الذي ظهرت بموجبة الدولة الأغلبية نسبة إلى مؤسسها ابراهيم بن الأغلب . (٢)

---

(١) الرقيق القيرواني : نفس المصدر السابق ، ص١٤٢-٢٠٢- ابن عذارى : نفسه ، ص١٤٢-٢٠٢- ص ٧٠-٨٢ ، ٨٤-٨٨ - محمد الباجي المسعودي : نفس المصدر أعلاه ص ١٨ - ٢٠ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣٤٢-٣٨٦ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٥٣-٢٧٤

(٢) الاتفاق أو العقد السياسي الذي تم بين الرشيد وبين ابراهيم بن الأغلب كان ينص على أن يتنازل ابراهيم بن الأغلب عن الإعانة السنوية التي كانت ولاية إفريقية تتلقاها من الخلافة ومقدارها ، مائة الف دينار ، وقد تعهد ابراهيم بن الأغلب أيضا بأن يدفع لخزينة الدولة أو الخلافة سنوياً مبلغ أربعين ألف دينار ، مقابل أن تكون إمرة إفريقية له ولبنيه من بعده . أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفسه، ج٢، ص ٢٥-٣١ وكذلك محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ)=

عصر الولاة هذا في المغرب شهد أحداثاً جساماً ضخمة ، وكان المظهر العام للمغرب خلالها – تقريباً – الفوضى الشاملة والاضطرابات والفتن . ولم تشهد إفريقية والمغرب فترات من الهدوء والسلام إلاَّ في بعض عهود الأسرة المهلبية ، وفترات قصيرة جداً في عهود بعض الولاةً .

ولقد تنوعت تلك الأحداث ، لكن معظمها في الحقيقة لم يكن إلاًّ نتيجة للحدث المؤسف وهو إساءة معاملة البربر ، والحرص على أخذ الجزية منهم على إسلامهم ، واعتبار أرضهم أرض فيئ . ولقد حمل وزر هذا التصرف بعض الولاة ، الذين كانوا ينفذون بلاشك رغبات بعض خلفاء بنى أمية في إصلاح الوضع المالي للدولة (١) .

وعاصر هذا تسرب الآراء الخارجية إلى المغرب بمذهبيها : الصفرى والإباضي حيث لقيت تلك الأراء هوى في نفوس البربر ، الذي رأوا في كثير من آرائها سنداً لموقفهم من الولاة الذين أساءوا معاملتهم وفرقوا في المعاملة بينهم وبين العرب ، ولقد تتابعت الأحداث سراعاً . فأعتنق معظم البربر الآراد الخارجية نكاية بالعرب وببعض الولاة الذي يتحملون تبعة تلك السياسة العصبية العنيفة . فكان أن وقعت الثورة الكبرى للبربر في بلاد المغرب والاندلس ضد الدولة الأموية وولاتها . واسفرت موقعتا : الأشراف وبقدورة عن اهتزاز مركز الخلافة الأموية في بلاد المغرب ، مما خشى معه

= سياستهم الخارجية ، ص ٢٩-٣٢ ، وأنظر أيضا حاشية رقم ٨٦ ، ص٢٩ (حيث يرد محمود اسماعيل عبدالرزاق على من ينفى أن العقد خلا من الإرتباطات المالية) .

(١) أنظر مثلا سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٦١-٢٦٢، ٢٨٢- ٢٨٤ مع الحواشي (فيما ينقله من مصادره المتعدده التي تحدثت عن هذا الموضوع) .

منَ خروج المغرب من سلطة الدولة الأموية ، حتى تمكن أحد الولاة المحنكين، وهو حنظلة بن صفوان الكلبي من إعادة الأمور إلى نصابها في البلاد (١).

بيد أن إفريقية والمغرب دخلا في دوامة جديدة من الفتن والقلاقل إبان حكم عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، الذي أطاح بالوالي الشرعي حنظلة بن صفوان ، وتولى الولاية بدلا منه ، وظلت الفوضى السياسية تضرب أطنابها طيلة حكم هذه الأسرة الفهرية ، إذ نشب الصراع العائلي بين أفرادها في الوقت الذي عادت للبربر قوتهم وسيطرتهم على البلاد ، حيث خلص المغرب كله للصفوية والإباضية من جديد ، وتكلل ذلك بتأسيس دولة صفرية في سجلماسة عام ١٤٠هـ ، هي الدولة المدرارية (٢) .

ولقد راع الدولة العباسية قسوة تلك الأحداث في المغرب فدفعت بوالٍ جديد هو : محمد بن الأشعث الخزاعي الذي استطاع بعد جهد أن يقضى على نفوذ الاباضية ويقتل زعيمهم أبا الخطاب المعافرى ، وأتاح هذا لاحقاً إلى أن يستجمع البربر لقواهم ، حيث نجحوا في تأسيس دولة إباضية في

(١) تقصى سعد زغلول هذه الاحداث باستفاضة وموضوعية في كتابه السابق ، معتمدا على أقوال المؤرخين والأخباريين المسلمين . أنظر المرجع السابق والجزء ، ص٢٨٤-٣١٠ مع الحواشي ،. أنظر كذلك السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢١٣- ٢٣٦ .

(٢) عن دولة بنى المدرار أو الدولة المدرارية وظروف قيامها والأحداث التي مرت بها حتى سقوطها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص٤٠٧-٤١٧ - محمود اسماعيل عبدالرزاق : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، ص ١١٢-١٤٣، ٢١٠-٢١٨. فقد تتبّعا وتقصيا في تحليل تارخي دقيق كل تلك الأحداث نقلا عن المصادر القديمة والمرجع العربية والمعربة ، وبما توصلا إليه من تعليلات واستنتاجات تاريخيه قيمة .

تاهرت بالمغرب الأوسط عام ١٦١هـ ، هي الدولة الرستمية (١) .

لكن المغرب شهد بعد ذلك صراعاً آخر ، أبطاله هذه المرة زعماء الجند العرب المقيمين في المغرب ، الذين رأوا أنفسهم أحق بالمغرب من الجند العرب القادمين إلى إفريقية (٢) تواً . وأسفرت الأحداث عن عزل الوالي محمد بن الأشعث ومقتل الوالي الجديد الأغلب بن سالم التميمي عام ١٤٠هـ/ ٧٦٧م ولقد استمرت الأمور كذلك تصل كل يوم حد الهاوية ، إلى أن رأت الخلافة أن تعهد بالولاية لأحد أبناء الأسرة المهلبية ذائعة الصيت ، وهكذا عهدت الدولة بالولاية لعمر بن حفص بن قبية لتدارك أمر المغرب .

وإذا كان عمر بن حفص المهلبي لم يستطع مقاومة التيار الزاحف الجامح من ثورات البربر جميعاً ضد الخلافة :صفرية وإباضية حيث انتهى الأمر بمقتله ، فإن سلفة يزيد بن حاتم المهلبي استطاع أن يواجه ثورات البربر بحزم وشدة ، حتى أتيح له أخيراً أن يعيد لإفريقية والمغرب هدوءهما المفقود (٣) ؛ واستمرت الأمور هادئة حتي وفاته سنة

---

(١) عن الدولة الرستمية ، وظروف قيامها والأحداث التي مرت بها حتى سقوطها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٨٦- ٤٠٦ (بتوسع شديد) - محمود اسماعيل عبدالرزاق : نفس المرجع ، ص١٤٤- ٢٠٨، ص ٢٢٩- ٢٣٤ - علي يحى معمر : الإباضية في الجزائر « الإباضية في موكب التاريخ » الطبعة الأولى ، ص ١١ - ١٢٦ ، فهؤلاء المؤرخون المحدثون في طليعة من كتب عن الدولة الرستمية .

(٢) عن هذه الأحداث أنظر ابن الأبار : الحلة السيراء ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص٩ومابعدها- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، الجزء الأول ، ص٣٤٤-٣٥٠ .

(٣) الرقيق القيرواني : نفسه ، ص١٤١ -١٦٨ - ابن عذارى : نفسه ، ص٧٥ - ٨٢ - الباجي المسعودي : المصدر السابق ،ص ١٩- ٢٠ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص٢٦٤ -٢٧٣ .

١٧٠هـ/٧٨٨م كما مربنا .

وبوفاته عادت الفوضى السياسية إلى المغرب ، وعاد البربر يثيرون المتاعب في وجه خلفه داوود بن يزيد ، وتزامن ذلك بنجاح أحد أبناء الأسرة العلوية في الفرار إلي المغرب الأقصى حيث قدر لإدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب أن يؤسس دولة علوية في المغرب الأقصى عام ١٧٢هـ ، عرفت بالدولة الأدريسية نسبةً إليه (١) . وحاول خلفاء يزيد بن حاتم تهدئة الأمور في إفريقية والمغرب إلاَّ أن الصراعات العنيفة عادت لتظهر من جديد في ولاية الفضل بن روح بن حاتم عام ١٧٧هـ/٧٩٣م وذلك بين الجند في المغرب (الأبناء) (٢) ، وبين الجند القادمين حديثاً ، وانجلت الأمور عن مقتل الفضل بن روح ، وبالتالي زوال الوجود المهلبي عن المغرب .

ورأت الخلافة أن تعهد بولاية إفريقية لأحد قادتها العسكريين المعروفين وهو هرثمة بن أعين . وقد نجح هرثمة في أن يعيد للبلاد بعض هدوئها ، إلاَّ أنه مالبث أن طلب الإعفاء ، فعينت الدولة محمداً بن مقاتل العكي بدلا منه . غير أن ثورات الجند ، مالبثت أن لاحقته ونجحت في إعفائه عن الولاية . يبد

---

(١) عن الدولة الادريسية ، وظروف قيامها ، والأحداث التي مرت بها حتى سقوطها ، أنظر ابن ابي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ص ١٢-١٠٢- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص ٤١٩-٤٧٩ - ابراهيم حركات المرجع السابق ، ص ١١١-١٤١ .

(٢) أنظر ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج١ ،ص٧٧-٨٤ مع الحواشي ، سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص٣٧٩-٣٨٦ .

أن ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي الذي كان عاملاً على اقليم الزاب تدخل لمصلحة الوالي الشرعي وأعادة لولايته ثانية (١) .

وقد دفع هذا الأمر الخليفة هارون الرشيد إلي أن بعهد لابن الأغلب بولاية إفريقية نظراً لكفاءته . ولقد أدى هذا إلى ظهور دولة مستقلة في المغرب الأدنى استقلالاً ذاتياً عن الخلافة تنفيذا للإتفاق أو العقد السياسي الذي وافق الخليفة بموجبه على قيام الدولة الأغلبية كما ذكرنا سابقاً .

الدول المستقلة في إفريقية · المغرب الأدنى) : -

الدولة الأغلبية : ١٨٤-٢٩٦هـ/ ٨٠٠-٩٠٨م

فاز ابراهيم بن الأغلب بموافقة الخلافة العباسية على تأسيس دولة له ولبنيه من بعده ، نظير تعهده بالوفاء للشروط التي تم التعاقد على أساسها كما ذكرنا ، وظهرت بذلك دولة مستقلة ذاتياً عن الخلافة العباسية . ولقد قدر لهذه الدولة التي حكمت إفريقية (المغرب الأدنى) أن يستمر نفوذها مائة واثنى عشر عاماً (١٨٤-٢٩٦هـ) أي مايقارب مائة وثمانية أعوام ميلادية .

والواقع أن الخلافة العباسية لم تكن لتقبل بهذا الوضع لاسيما وأنها أول سابقة في تاريخها لو لم تكن هناك دوافع عديدة ، حتمت الخضوع لذلك الاتفاق ، أو العقد الساسي ، وفي الحقيقة فإن ظروف المغرب السياسية

(١) عن هذه الأحداث أنظر الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ٢٠٣- ٢١٢ - ابن عذارى : نفسه والجزء ص ٨٦-٩٣ الباجي المسعودي : نفسه ، ص ٢٢ - ٢٥ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣٨٣- ٣٩٥- السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٧٤- ٢٧٩ .

وقتها كانت هي السبب الرئيسي في قبول الخلافة بقيام هذه الدولة في إفريقية ، فالخلافة كما رأينا أعيتها الحيلة أمام الفتن والاضطرابات المتواصلة التي كان البربر والجند العرب يثيرونها دائماً ضد الولاة ، الذين أزداد تقاطرهم نحو المغرب لاصلاح أوضاعه . ولم تفد تلك المحاولات شيئا ، بل تمكن البربر من إقامة دولتين لهما في المغربين الأوسط والأقصى ، وهما الدولة المدرارية والدولة الرستمية كما ذكرنا . غير أن الخطر الحقيقي الذي استشعرته الدولة العباسية ، تمثل في نجاح العلويين في تأسيس أول دولة لهم في المغرب الأقصى ، وهى الدولة الأدريسية . (١)

ولقد راع هذا الأمر الخليفة هارون الرشيد الذي يعرف الدلالة الخطيرة التي ينطوى عليها قيام دولة علوية من تهديد مباشر للخلافة من قبل أناس يرون أنهم أحق بالأمر من العباسيين ، وقدر الخليفة أن الأدارسة إذا نجحوا في تسكين المغرب الأقصى بالذات وهو الذي كانت تعصف به الثورات ، فإن نجاحهم في تسكين أوضاع المغربين الأدنى والأوسط لصالحهم ، أمر لايحتاج لكبير عناء . وبعد هذا فلايحول بينهم وبين مصر فالمشرق حائل ، لاسيما وأن إدريس بن عبدالله بدأ فعلاً يراسل المصريين من أتباعه (٢) أضف إلى ذلك أن دولة بنى رستم ودولة بني المدرار ، وإن

(١) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ص٨٦-٢٨٩ - محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص٣٠-٣١ مع الحواشي .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٢٨٨- محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه المرجع أعلاه ، ص ٣١ مع الحواشي .

كانتا دولتين خارجيتين إلاّ أنهما تشتركان مع الأدارسة في العداء للعباسيين.

ولذلك رأى الخليفة أن يبقى على النفوذ العباسي في المغرب ، حتى ولو كان اسمياً ، بأن يضع أسرة تكون حاجزة بينه وبين الأدارسة ، تتحمل هي من واقع مصالحها الذاتية عبء مدافعة الأدارسة بالدرجة الأولى ، وعبء التصدي لفتن البربر والجند العرب بالدرجة الثانية ، وعلى ضوء هذا نستطيع فهم الاتفاق السياسي الذي تم بين الخليفة هارون الرشيد ، وإبراهيم بن الأغلب . أما مايثار من أقوال بأن متاعب الخلافة في المشرق ، أو وصول الخلافة إلي تصور واضح ، وهو عجزها عن مواجهة أحداث المغرب ، ومن ثم نفض يدها من المغرب جملةً بذلك الاتفاق مع الأغالبة ، أو الرضي بالعرض المالي الذي (١) عرضه ابراهيم ، فإنه لايعول عليه ولايمكن أخذه كسبب أو أسباب رئيسية في قبول الخلافة بالاتفاق مع ابراهيم ابن الأغلب ، ولكن أوضاع المغرب التي شرحناها هي السبب الرئيسي في ذلك .

وكيفما كان الأمر ، فقد قامت الدول الأغلبية في إفريقية (المغرب الأدنى) نتيجة لذلك الاتفاق السياسي الذي تم بين الخلافة العباسية وبين ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة . وسنشير هنا في إيجاز لمجمل الأحداث التي شهدتها إفريقية في عهد الأغالبة كما أوردنا من قبل وهو أن نتعرض للأحوال السياسية في المغرب الأدنى في الفترة موضوع البحث في إيجاز يوضح لنا المناخ السياسي وقتها .

---

(١) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق ، نفسه ، ص٣٠-٣١ .

ولعل أو مايمكن ملاحظته في عهدهم هدوء الثورات التي كان يشعلها البربر والجند العرب ، وماظهر من مقاومة في بعض الفترات ، استطاع الأمراء الأغالبة أن يقضوا عليها أخيرا ، وخاصة ثورات الجند العرب في عهد زيادة الله الأول (١) بن ابراهيم الأغلب : (٢٠١-٢٢٣هـ/ ٨١٧-٨٣٨م) أما البربر الخوارج وبعد أن أفلحوا في تأسيس دولتين خارجيتين لهما وهما الدولة الرستمية والدولة المدرارية ، فقد سكنت ثوراتهم تقريباً إلا من بعض أحداث متفرقة (٢) ، ويبدو أن البربر قد وجدوا في قيام الدولة الأغلبية تحقيقاً لأمانيهم وإرضاءً لنزعاتهم الإقليمية ، وتتويجاً لنضالهم من أجل الاستقلال عن سلطان الخلفاء (٣) ، ومما يساعد في توضيح هذا الأمر أيضا ، الإشارة إلى أن المغرب الأدنى لم تكن تتركز فيه كثافة سكانية بربرية كتلك التي كانت موجودة في المغربين الأوسط والأقصى .

وعلى عهد الأغالبة فتحت جزيرة صقلية ليس هذا فحسب ، وإنما وأجزاء من الجنوب الإيطالي ، وكذلك بعض الجزر الإيطالية الأخرى ، وهو فتح مجدٌ دور الأغالبة في التاريخ ، وغدت صقلية في وقت من الأوقات الرئة

---

(١) كانت الثورة التي أشعلها منصور الطنبذي في مدينة تونس ، وهو أحد القادة العرب المعروفين في إفريقية آنذاك أخطر ثورات الجند العرب التي شهدتها الدولة الأغلبية ، ومع أن عهد أبيه شهد ثورة عمران بن مجالد ، وهو أحد رؤساء الجند العرب أيضا ، إلا أن ثورة منصور الطنبذي كانت أخطر وأعنف ، وكادت تؤدي بالدولة الأغلبية . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج ٢، ص ٤٦-٥٩ - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٣٢- ٣٥، ٣٧، ٣٨ .

(٢) عالج محمود اسماعيل عبدالرازق هذه النقطة بتقصٍ شديد من مصادر ومراجع عربية وأجنبية - أنظر المرجع السابق ص ١٠١-١١٢ (فقرة بعنوان : الأغالبة والرستميون) .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه : ص٢٢ .

التي تتنفس عن طريقها إفريقية والمغرب (١) .

واتسمت العلاقات في عهدهم مع الدول التي استقلت عن الدولة العباسية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري - وبعضها قبله ، كدولة بني مدرار في المغرب والدولة الأموية في الأندلس بطابع العداء . غير أن ذلك العداء اختلف وقعه بين النفور والتصادم المسلح بينهم وبين كل من : الدولة الرستمية في تاهرت ، والدولة المدرارية في سلجماسة والدولة الإدريسية في فاس ، والدولة الأموية أخيراً في الأندلس . (٢)

وعلى عهد الأغالبة شهدت إفريقية استقراراً اقتصاديا ، وتمتعت البلاد ببحبوحة من العيش الرغيد (٣) ، وشمل التطور الحياة الإجتماعية (٤) ، حيث ذابت الخلافات العنصرية تقريباً بين العناصر التي كانت متصادمة أبداً : العرب البربر - ولم يكن الجانب العمراني بمنأى عن

---

(١) عن الفتح الأغلبي لجزيرة صقلية والجزر الأخرى في الجنوب الإيطالي ، أنظر أحمد توفيق المدني: المسلممون في صقلية وحنوب إيطاليا ، ص٤٧-١٠٨ - عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، نقله إلى العربية وقدم له مع إضافة حواش وتعليقات مناسبة أمين توفيق الطيبي : ص٨-٢٢، ١٣-٣١ ، إحسان عباس : العرب في صقلية ، دراسات في التاريخ والأدب ، ص٣١ -٣٩ .

(٢) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص٩٧-١٣٣ .

(٣) راجع السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٣٢١- ٣٢٨ .

(٤) راجع سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، الفصل الأول (قيام الأغالبة في القيروان - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٣٢٩- ٣٣٥- وأنظر كذلك حسن حسني عبدالوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية وهو عبارة عن موسوعة أدبية وتاريخيه وثقافية وفنية لإفريقية في العصور الإسلامية في عهود الولاة والأغالبة والفاطميين والزيريين . ويصعب ايضاح الصفحات عن هذه المجالات التي أوردناها في المتن ذلك لأنها مبثوثة في كل صفحات هذه الموسوعة دون ترتيب .

هذا التطور ، فقد خلدت كتب التاريخ والأدب لهم أعمالاً عمرانية (١) مرموقة، يأتي على رأسها تأسيس بعض المدن التي أصبحت ذات شأن بعيد كالعباسية (القصر القديم) (٢) ورقادة .

وعلى عهدهم قدر للحياة العلمية أن تقوى وتشتد في جميع أوجه مناحيها المختلفة من دراسات شرعية وأدبية ، إلى علوم إنسانية وتجريبية . ولقد تم ذلك في بعض أوجهه إلى العناية التي كانوا يولونها للعلم والعلماء ، والأدب والأدباء بالإضافة إلى جهود العلماء والأدباء الفردية مما سنوضحه في مكانه المناسب . وسيطرق سمعنا لاحقاً إن شاء الله أسماء العديد من أولئك الأمراء الأغالبة ، وسنبين مجهوداتهم في الارتقاء بالحياة العلمية في إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

على أن هذه الدولة دب فيها أخيراً داء الأمم الذي يصيبها بعد أن تصل الذروة ، فبدأت سطوتها تضعف نتيجة لإنتهاج آخر الأمراء من الأغالبية لسياسات سيئة عجلت بسقوط دولتهم وتزامن ذلك مع ازدياد النفوذ الشيعي الذي تسلل إلى المغرب في فترات ضعف الدولة ، وأنتهى الأمر بسقوط هذه الدولة على يد داعي الفاطميين الشيعة ، أبو عبدالله الشيعي ، عندما فضَّل زيادة الله الثالث آخر حكام هذه الدولة الإنزواء في المشرق بعد أن أسقط كل شيء في يده . (٣)

---

(١) عن منشآت الأغالبة العمرانية أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٣٣٦-٣٧٥ .

(٢) عن العباسية ورقادة أنظر - بعد ص ١٤٨، ١٥٢ .

(٣) عن هذه السياسة السيئة أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص١٢٦-١٤٨، ١٦٠-١٨٠- محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص١٩١-٢٠٨ .

هذا المصير الذي لاقته الدولة الأغلبية على يد الفاطميين تعرضت له الدويلات الأخرى المستقلة في المغرب ، كالدولة الرستمية والمدرارية ، حيث سقطت جميعها بيد الفاطميين في مدة زمنية متقاربة .

الدولة الفاطمية (العبيدية): ٢٩٦/٣٦٢هـ/٩٠٨-٩٧٣هـ :

في الفترة الأخيرة من عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب نجح دعاة الشيعة الإسماعيلية (١) في التسلل نحو المغرب ، وخاصة المغرب الأوسط ، حيث استطاعوا أن يتصلوا بزعماء قبيلة كتامة ، وهي إحدى أشهر القبائل البربرية على الإطلاق . ولقد نجحت جهودهم في استمالة أعداد كبيرة من أبناء قبيلة كتامة وغيرها . ثم أتبع المشرفون على الدعوة الإسماعيلية هؤلاء ببعث أحد أشهر دعاة الإسماعيلية ، وهو أبو عبدالله / الحسن بن أحمد الصنعاني المعروف بالشيعي ، واستطاع أبو عبدالله أن يتصل بزعماء كتامة ، كما أستطاع أن يستأنف الدعوة للمذهب بينهم وقد نجح في مسعاه ذلك نجاحاً كبيراً (٢) .

---

(١) عن الشيعة الاسماعيلية ، الذين يدعون إلى إمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، أنظر برنارد لويس : أصول الاسماعيلية بحث تارخي في نشأة الخلافة الفاطمية . نقله إلى العربية خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب وقدم له عبدالعزيز الدورى ، ص٤٨- ١٦٣- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١-٤٣ وقد تتبعا في تقصٍ تاريخي دقيق بداية المذهب الشيعي وفرقة المختلفة من بطون المصادر والمراجع العربية والمعربة قديما وحديثا .

(٢) عن هـذه الأحداث التي أدت في النهاية إلى قيام الدولة الفاطمية ،أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص ١٦٣-١٨٣ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٠٧- ٥١٥ - حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٣-٦٥- محمد جمال الدين سرور : =

ورأى أبو عبدالله الشيعى أن ينتقل بالقضية من مرحلة الدعوة والإعداد ، إلى مرحلة المواجهة مع القوى الكبرى في المغربين : الأدنى والأوسط . وهم الأغالبة والرستميون وكان الدولة الأغلبية قد بلغت في الفترة الأخيرة من عمرها مرحلة سيئة من الضعف والانحلال وخاصة في عهود أمرائها الثلاثة الأخر : ابراهيم ابن أحمد وابنه عبدالله ، ثم زيادة الله بن عبدالله (١) .

وأتاح هذا للدعاة الإسماعيلية استغلال أحوال الدولة الأغلبية السيئة ، فكثفوا جهودهم في نشر الدعوة الشيعية بين البربر بقيادة داعي الإسماعيلية الخطير أبي عبدالله الشيعي وهو ماتحقق لهم بالفعل ، فانتقلوا بالقضية كما ذكرنا من مرحلة الدعوة والاعداد إلى مرحلة المواجهة العسكرية مع الدولة الأغلبية . ولايهمنا من تفاصيل الصراع والمواجهة العسكرية بين أبي عبدالله الشيعى وجيشه من البربر ، وبين الأغالبة ، إلاّ ماتمخضت عنه الأحداث في النهاية ، من سقوط الدولة الأغلبية نهائياً عام ٢٩٦هـ ، وسقوط الدويلات الأخرى ، المستقلة بالمغرب : المدرارية والرستمية، ومن ثم الإدريسية . وقد ترتب على هذا بطبيعة الحال ، خلوص المغرب جميعه للفاطميين الإسماعيلية ، اللذين نجحوا في تأسيس دولة شيعية في المغرب كله . وهو ما أعلنه عبيد الله المهدى أول خلفائهم من على منبر رقادة عام ٢٩٧ .

= الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، ص١٨-٢٤. هذه المراجع اهتمت بالتفاصيل الواسعة لهذه الأحداث وعالجتها بتعليلات علمية مهمة .

(١) عن هذه الأحداث ، أنظر محمود اسماعيل عبدالرزاق : نفسه ، ص١٩١-٢٠٨ .

ولقد تعاقب على حكم المغرب خلال الفترة التي عاشها الفاطميون هنا، أربعة خلفاء هم :- عبيد الله المهدي : مؤسس الدولة ٢٩٧-٣٢٢هـ/ ٩٠٨-٩٣٤م ، ثم ابنه أبو القاسم محمد بن عبيدالله ويدعى نزاراً أيضا ، ولقب بالقائم بأمر الله ٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٦م ، ثم ابنه أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن عبيدالله ، الذي لقب بالمنصور ٣٣٤-٣٤١/ ٩٤٦-٩٥٣م ، وأخيراً ابنه أبو تميم معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله الذي لقب بالمعز لدين الله.٣٤١-٣٦٥هـ/٩٥٣ - ٩٦٦م ، والذي غادر المغرب نهائيا إلي مصر عام ٣٦٢هـ .

يبقى أن نشير إلى أن للمؤرخين القدامى والمحدثين من المؤرخين المسلمين وكذلك نفر من المستشرقين أقوال مختلفة في مسألة صحة نسب هؤلاء الفاطميين إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها . فمن منكر شديد الإنكار إلى مؤيد يدعم رأية بالحجج والبراهين كما هو حال المنكرين (١) . ونحن لايهمنا ، بل ليس من

---

(١) مسألة نسب الفاطميين من أعصى المسائل التاريخية التي اختلف حولها كثيرا . ولقد انقسم المؤرخون القدامي وبعض من الباحثين حول هذه المسألة إلى فريقين : معارض ويشكلون الأكثرية ومؤيد ويشكلون أقلية ، وأدلى بعض المستشرقين بدلوه أيضا حول هذا الموضوع . انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباه أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، المجلد الثالث ، ص١١٧، وأنظر كذلك الحاشية رقم ١٠-ص١١٩ التي علق بها المحقق على موضوع نسب الفاطميين - ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبدالحليم عويس ، ص ٣٥ ، وأنظر بعناية المقدمة التي قدم بها المحققان الكتاب ،، وأنظر كذلك الحاشية رقم (١) ، (٣) من ص٣٥ حيث علّقا على قول ابن خلدون الذي يذهب إلى صحة نسب الفاطميين ، والذى أورده ابن حماد في المتن بقولهما بأن ذلك يعد من =

شرطنا أو شرط بحثنا الوقوف عند هذا الموضوع ، ولذلك فإننا سنمر عليه عند إقتضاء الحاجة لذلك في القسم الثاني مروراً سريعاً .

ولقد شهدت إفريقية والمغرب في عهد هؤلاء الفاطميين أحداثا جساما سنجعلها هنا إقتضاءاً لما ذهبنا إليه من الإيجاز ، وأول مايمكن ملاحظته من خلال حكمهم لبلاد المغرب كله ، أنهم لم يلقوا قبولاً من معظم سكان المغرب ، نظراً للإختلاف المذهبي الواضح بينهم ، وبين جل السكان الذين يتمذهبون بالمذهب المالكي ، والذين يشككون بالإضافة إلى ذلك في صحة نسب عبيدالله المهدي وبنيه ، وسنتبين هذا الأمر بوضوح من خلال حديثنا عن أثر الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة على الدراسات الشرعية (١) .

الأمر الثاني الذي يمكن استخلاصة من حكمهم المغرب ، هو أن المغرب جميعه لم يستكن لهم ، فبجانب الخلاف مع السنة الذين يشكلون غالبية السكان ، تعددت ثورات البربر في المغربين الأوسط والأقصى ، وأمضى معظم خلفائهم أوقاتاً عصيبة في مواجهة الثورات المتلاحقة عليهم من البربر (٢) وحتى قبيلة كتامة ، وهي الساعد الأيمن الذي اعتمد عليه أبو

= أكبر هفوات ابن خلدون التاريخيه - جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، ص٤-٦، ٥٢٤-٥٢٥ ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الجزء الأول ، ص ١٥٥، وأنظر الحاشية رقم (٥) من نفس الصفحة - حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص١٧٥ -٧٩ - برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ولافاطمية والقرمطية، ص ٤٨ - ١٦٣ .

(١) أنظر بعد ص ٥٢٨ ومابعدها .

(٢) انظر ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ص ٣٥-٩٢- ابن عذارى : نفسه ، ص ١٤٩- ٢٢ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، المجلد الأول ، ص٢٣٤- ٢٣٦- المجلد الخامس ، =

عبدالله الشيعي في قيام الدولة الفاطمية شعرت بأنه لم ينلها من المكاسب والمصالح شيئا وأن جهودها ذهبت هباء (١) .

غير أن الحدث الضخم الذي هز الدولة وكيانها هزاً عنيفاً تمثل في الثورة الكبرى التي أشعلها الثائر البربري الخارجي أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الذي كاد أن يطيح بالدولة الفاطمية نهائياً . وشغلت ثورته التي أندلعت في أواخر عهد الخليفة المهدي ، كل خلافة القائم بأمر الله ، وجزءاً من خلافة المنصور بن القائم حتى استطاع المنصور أخيراً أن يقضى على ثورته العظمي هذه عام ٣٣٦هـ كما سيتضح لنا لاحقا في مكانه من القسم الثاني إن شاء الله (٢) .

وفي عهد الفاطميين في المغرب تتابعت جهودهم في مواصلة الفتوحات في الجزء الجنوبي من إيطاليا، كما تتابعت إهتماماتهم بجزيرة صقلية بالإعتناء في إختيار الولاة عليها ، كالأسرة الكلبية التي قدر لها أن تتولى أمر صقلية من قبلهم مدة زمنية طويلة (٣) . وفي عهدهم كان المغرب الأقصى بين مد وجزر في تبعيته للدولة الفاطمية ، أو الدولة الأموية في

= ص ١٩-٢٠ وص ٢٣٤- ٢٣٦- المجلد الخامس ، ص ١٩-٢٠ وص ٢٢٤- ٢٢٨- حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٨٣ -٩٧ - محمود إسماعيل عبدالرازق : الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٢١٠ ٢٥٤ .

(١) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٥١٥-٥١٧ .

(٢) أنظر بعد ص : ٥٣٥ .

(٣) أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ، ص ١٠٩-١٣٣- عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، ص ٣٢ - ٤٨- إحسان عباس : العرب في صقلية ، ص ٣٩-٤٨ .

الأندلس أو زعماء قبيلة زناتة ، الذين كانوا كثيرا مايبسطون نفوذهم على المغرب الأقصى خالعين طاعة الفاطميين (١) . وأدى هذا بالدولة الفاطمية إلى أن تصطنع قبيلة بربرية أخرى منافسة لزناته ، هي قبيلة صنهاجة ، التي غدت الساعد الأيمن للخلافة الفاطمية ضد خصومها (٢) وهيأ هذا لقبيلة صنهاجة تولى أمور المغرب جميعه بالنيابة عن الفاطميين ، عندما قرروا الرحيل إلى مصر .

ولقد كان التطلع إلى مصر والشرق الهاجس الذي يشغل بال كل الخلفاء الفاطميين إبتداء بالمهدي ومروراً بالقائم والمنصور ، وانتهاءاً بالمعز لدين الله . ولا أدل على ذلك من أن كل هؤلاء الخلفاء ماعدا المنصور ، الذي شغل بالقضاء على أبي يزيد اليفرني - جرب أو عمل فعلاً على إرسال الجيوش لفتح مصر ، وهو الأمر الذي تحقق أخيراً للمعز ولقائده جوهر الصقلي (٣) .

---

(١) ابن حماد : المصدر السابق ص ٤٤ ومابعدها - المالكي : المصدر السابق والجزء ، المقدمة التي قدم بها المحقق حسين مؤنس الكتاب ، ص ١٨م - ١٩م - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٢٣-٥٣٢ .

(٢) أنظر المالكي : المصدر السابق ، والجزء ، مقدمة المحقق ص ١٥م - ١٦م - عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٨ مع الحواشي .

(٣) كان حسن إبراهيم حسن أفضل من تتبع هذا الموضوع بكل ظروفه وأسبابه ، سواء كان ذلك في المصادر القديمة أو الحديثة أو في المراجع الأجنبية . أنظر تاريخ الدولة الفاطمية ، الباب الرابع كله ، ثم ص١٤٩- ١٥١ من الباب الخامس .

وأخيراً فإن المتتبع للأوضاع الإقتصادية والإجتماعية والعلمية والأدبية والعمرانية (١) وغيرها ، لايمكن له إلا أن يقرر بأن المغرب شهد بهذه الأوضاع تطوراً ورقياً لايقل إن لم يفق ماشهدته البلاد في عهد الأغالبة (٢) وسيتضح لنا من الحديث عن الحياة العلمية بكل أوجه معارفها التي سترصدها مقدار مابلغته من تقدم وازدهار في عهدهم . وهذا شيء يمكن توقعه وحصوله إذا ماتبينا حقيقة مهمة ، وهي أن خلفاء الفاطميين بالمغرب ، كانوا علماء وأدباء في نفس الوقت ، ومن هنا أعطوا الحياة العلمية حق قدرها .

---

(١) من جلائل الإنشاءات العمرانية التي تنسب إلى الفاطميين في المغرب بناؤهم لعده مدن أصبحت في وقت من الأوقات ذات أهمية كبرى ، فالخليفة المهدى مؤسس الدولة ، إبتنى مدينة جديدة له إلى الشرق من مدينة سوسة وأمامها على طرف داخل في البحر كهيئة كف مفصل بزند بالبحر ، وسميت المهدية نسبة اليه نفسه . وكان ذلك عام ٣٠٣هـ ، عندما شعر بعدم الأمان في مدينتي القيروان ورقادة ، حيث المعارضة البربرية والسنية . أما ابنه أبو القاسم القائم بأمر الله محمد ، فقد ابتنى هو الآخر مدينة في المغرب الأوسط ، وبالذات في إقليم الزاب سميت بالمسيلة ، وكان ذلك عام ٣١٥هـ ، وتسمى أيضا المحمدية نسبة إليه . وبنى المنصور مدينة جديدة إحتفاءاً بإنتصاره على ثورة أبي يزيد مخلد ابن كيداد الخارجي ، وقد سميت المنصورية نسبة إليه ، أي إلى المنصور سنة ٣٣٧هـ وهي تبعد عن القيروان نصف ميل وتسمى كذلك مدينة صبرة .أنظر البكرى : المصدر السابق ص٢٩ ومابعدها ، ٥٩ ، ومابعدها ، ص٢٥ عن صبرة أو المنصورية – ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الأول عن بناء المسيلة ، ص ٢٣٥ – وص ٢٣٥ عن مدينة المنصورية ، المجلد الثالث ، ص ١١٨ المهدي الكناني القيرواني : تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الايمان في أولياء القيروان ، تعليق رقم ٢٥٩ – ص١٨٦ – حسن حسنى عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص٩٧-٩٨ ، ص ١٠٠ ، ١٠٤ .

(٢) أنظر موسوعة حسن حسني عبدالوهاب : الحضارة العربية بإفريقية التونسية .

الدولة الزيرية أو الصنهاجية : ٣٦٢-٥٤٣هـ/ ٩٧٢-١١٣٨م : -

لم تكد الدولة الفاطمية تنتصب في المغرب حتى وجدت في قبيلة صنهاجة السند والمعين القوى ، وفي الوقت الذي أخذت فيه قبيلة كتامة تراجع حساباتها ، كان زيرى بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، ومن ثم ابنه بلكين أويلقين يقفان قلباً وقالباً مع الخلافة ضد خصومها .

لقد كانت المشكلة التي تقلق بال الخليفة المعز لدين الله وهو يتهيأ للرحيل النهائي إلى مصر هي كيفية المحافظة على النفوذ الفاطمي في المغرب ، وخاصة وهو الذي يعرف أكثر من غيره صعوبة ذلك ، حتى في ظل وجودهم الفعلي . ولذلك فقدب توصل إلى حقيقة مهمة ، وهي ضرورة إشغال المغرب في فتن متلاحقة يضرب قبائله بعضها ببعض حتى لاتفكر هذا القبائل في الخروج على الدولة ، ولو مؤقتا (١) .

وهكذا فقد استدعى المعز بلكين بن زيرى بن مناد ، الذي لعب دوراً بارزاً في تثبيت سلطة الدولة الفاطمية ، وعهد إليه بحكم المغرب من بعده . ومع أن بلكين مانع في ذلك ، إلاّ أنه لم يجد مفراً من القبول . ولم يكتف الخليفة بذلك ، بل أنعم عليه بلقب سيف الدولة ، أوسيف العزيز بالله ، وكناه بأبى الفتوح ، بل أطلق عليه اسماً آخر هو

---

(١) في هذا الصدد راجع التعليق الموضوعي الذي علق به أحمد مختار العبادي في مقاله : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس الذي نشر في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧/١٣٧٧هـ .

يوسف (١) . وما أن غادر المعز إلي مصر ، حتى بدأت الدولة الزيرية أو الصنهاجية فعلاً – وكان هذا الحدث في الحقيقة نقطة تحول تاريخية في المغرب كله ، إذ بقيام هذه الدولة انتهى حكم العرب الفعلي في المغرب كله (٢) . وكان قيامها إيذاناً بنشوء الدول البربرية المستقلة ، وأصبح ينظر إليها من قبل البربر في المغرب الأدنى على أنها أول دولة بربرية صرفة تعبر عن الشعور بالإستقلال والخروج عن التبعية العربية (٣) ، وعلى مافي هذا القول من صحة هذا ، فإن الواقع التاريخي يقر بأن هذه الدولة وغيرها من الدويلات البربرية المستقلة بعد ظلت عربية المنزع (٤)

وكيفما كان الأمر فقد تعاقب على حكم هذه الدولة ثمانية أمراء أولهم أبو الفتوح بلكين أو بلقين بن زيرى كما ذكرنا ٣٦٢-٣٧٣هـ ثم ابنه المنصور ابن بلكين الذي أتاه تكليف الدولة الفاطمية ٣٧٣-٣٨٦هـ ولقب بعده العزيز بالله ويكنى بأبي (٥) الفتح ، ثم ابنه باديس بن المنصور ٣٨٦ - ٤٠٦هـ ولقبته الخلافة بنصر الدولة ويكنى بأبي مناد (٦) .ثم ابنه المعز بن باديس

---

(١) ابن عذارى : نفسه، ص٢٢٨ ومابعدها – ابن خلكان نفسه ، المجلد الأول ، ص ٢٨٦ -٢٨٧-ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ج١، ص ١٦٢-١٦٥ – خير الدين الزركلي : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء الثاني ، ص ٧٤ .

(٢) عبدالحيلم عويس : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٣) عبدالحليم عويس : نفس المرجع السابق ، ص٣٨ .

(٤) أنظر المالكي : المصدر السابق ، ج١ ، مقدمة المحقق ، ص ٢٥م – وأنظر كذلك عبدالحليم عويس: نفس المرجع السابق ، حاشية رقم (١) ص ٣٩ .

(٥) ابن عذارى المصدر السابق والجزء ، ص ٣٣٩- ابن أبي الضياف : المصدر السابق ج١، ص٦٧

(٦) ابن عذارى : نفسه ، ص ٣٤٧- ابن خلكان : نفسه ، المجلد الأول ، ص٢٦٥- الزركلي =

٤٠٦- ٤٥٤هـ ويلقب بشرف الدولة (١) . وفي عهد المعز انقسمت الدولة الزيرية (٢) إلى دولتين بعد أحداث وانشقاق أسري : دولة في إفريقية وعاصمتها القيروان ثم المهدية ، وتُعرف بالدولة الزيرية التي احتفظت أو إحتفظ لها المؤرخون بالتسمية الأصلية لمؤسس الدولة : زيري ، ودولة أخرى في المغرب الأوسط عاصمتها أشير ثم القلعة (٣) ، ثم بجاية ، وتعرف بالدولة الحمادية نسبة إلى حماد بن بلكين بن مناد الذي نازع المعز حفيد شقيقه المنصور بعد أن كان قائدة ويده اليمنى الباطشة التي يضرب بها خصومة .

= الأعلام ، ج٢، ص٤١ .

(١) ابن عذارى : نفسه ، ٢٦٧- ٢٦٩- ابن خلكان : نفس المصدر السابق أعلاه ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٣- ٢٣٦- الزركلي : نفس المرجع أعلاه ، ج ٢، ص٢٦٥

(٢) عن هذا الانقسام الأسرى فالسياسي ، راجع إسماعيل العربي : نفسه ، ص ٨٩ - ١١٨- عبد الحليم عويس : نفسه ص ٤٧-١٢٠ . وقد خلَّدا الدولة الحمادية بمصنفين إعتماداً على معظم المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي تحدثت عن هذه الدولة بعد إنشقاق زعيمها حماد بن بلكين عن الزيريين .

(٣) مدينتا أشير والقلعة (قلعة حماد) كانتا عاصمتي الدولة الحمادية ، قبل مدينة بجاية ، ومدينة أشير وتنطق بمد الهمزة ، أو بدون ذلك ، وكسر الشين ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، ثم راء مهملة ، تقع إلى الطرف الغربي من مدينة بجاية في المغرب الأوسط ، وقد بناها والد مؤسس الدولة الزيرية : زيري بن مناد ، الذي ينتسب إليه الزيريون والحماديون على السواء ، وذلك في عام ٣٢٤هـ ، ثم أصبحت عاصمة للدولة الحمادية . أما مدينة القلعة أو قلعة بني حماد بدون (بني) فتقع في مكان حصين في جبل يدعى جبل عجيبة البر . في المغرب الأوسط ، وقد بناها حماد مؤسس الدولة الحمادية عام ٣٩٨هـ ، واتخذها عاصمة له . أنظر عبدالحليم عويس : نفسه ص٨٦، ٨٩، ص٨٥، ٩٢ (نقلا عن عدة مصادر ومراجع مختلفة) .

وخلف المعز ابنه تميم الذي تقلص نفوذه في شريط ساحلي ضيق يضم مدن المهدية وقابس وسفاقس وجزيرة جربة ، ذلك بعد الأحداث التي ترتبت على الانفصال السياسي والمذهبي للدولة الزيرية عن الخلافة الفاطمية، الذي قاده المعز والده على ماسنذكر في موضعه . وقد حكم تميم من سنة ٤٥٤ حتى سنة ٥٠١هـ ثم خلفه ابنه يحيى بن تميم (٥٠١-٥٠٩هـ) ثم ابنه علي بن يحيى (٥٠٩ - ٥١٥هـ) واخيراً الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى (٥١٥ - ٥٤٣ هـ) الذي ختم به عهد الدولة الزيرية من فرع باديس بن المنصور بن بلكين . وذلك عندما سقطت عاصمته المهدية بيد النورمانديين حكام صقلية عام ٥٤٣هـ/١٣٨م . (١)

ولقد شهدت هذه الدولة أحداثاً سياسية وعسكرية خطيرة وأول مايمكن ملاحظته من تلك الأحداث هو النزاع القبلي الخطير بين البربر البتر ممثلين في قبيلة زناته والبربر البرانس ممثلين في قبيلة صنهاجة ، فلقد أمضى ثلاثة من أمراء هذه الدولة الأول حياتهم تقريباً في النزاع المسلح مع قبيلة زناته في المغربين الأوسط والأقصى . وظلت مواجهة زناته كأنما هي إرث تقليدي يتقلده الخلف عن السلف من أمراء الدولة الزيرية (٢) ، غير أن

---

(١) عن هذه الأحداث أنظر ابن عذارى : نفسه، ص٢٩٨-٣١٥- الباجي المسعودي : نفسه ، ص ٤٩-٥١- ابن أبي الضياف : نفسه ، ج١ ، ص ١٧٤- ١٨١- السيد عبدالعزيز سالم : نفسه، ص ٥٨٥ - ص ٥٨٨ - ٥٩٦ - عبدالحليم عويس : المرجع السابق ، ص ١٥٦-١٦٣ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ، ص٢٣١-٢٣٢، ٢٣٧-٢٣٩-٢٤٢-٢٤٩-٢٦٦- ابن أبي الضياف :=

هذه المواجهة إنتهت بقيام الدولة الحمادية في المغرب الأوسط التي تولت بعد ذلك هذا الإرث العدائي حتى قيام الدولة المرابطية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . (١)

وكما كانت المواجهة مع زناته بمثابة إرث تقليدي عند صنهاجة ، كانت المواجهة مع الدولة الأموية في الأندلس على زعامةأرض المغرب الأقصى كذلك ، ولم تكن هذه المواجهة في الحقيقة إلا استمراراً لموقف الدولة الفاطمية من الدولة الأموية غريمتها (٢) . وقد تسلمت الدولة الحمادية هذا الدور أيضا في بعض فترات حياتها (٣) .

ومن الأحداث المهمة كذلك انقسام الدولة الصنهاجية على نفسها إلى قسمين أو دولتين كما ذكرنا . وكان هذا الانقسام السبب الرئيسي في انحلال أمر الدلولة الزيرية التي لو قدر لها أن تمارس دورها دون هذا الانقسام لتغير وجه المغرب كله .

= نفسه : ج١، ص١٦٦- ١٦٨- السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٥٥٥- ٥٦٣- عبدالحليم عويس المرجع السابق ، ص ٣٩-٤٣ .

(١) أنظر عبدالحليم عويس : المرجع السابق ، ص ١٧٥-١٧٧ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٣١ ، ٢٣٨، ثم ص ٢٦٩ وفيها نص مهم يدل على أن الزيريين كانوا يراقبون الأوضاع في الأندلس بدقة بالغة يقول ابن عذارى أن الخليفة الحاكم بأمر الله بعث في سنة ٤١١هـ إلى المعز بهدية وخلعه وسجل فيه تشريف له ثم يقول : (.. وورد أيضا محمد ابن عبدالعزيز بن أبي كدية بسجل آخر من الحاكم ، جوابا للمعز عما كان فيه من أخبار الأندلس وانقراض الدولة الأموية منها ، وقيام القاسم بن حمود (الأدريسي) فيها فشكره على ذلك ، وبعث إليه خمسة عشر علماً منسوجة من الذهب) .. إلخ .

(٣) أنظر عبدالحليم عويس : المرجع السابق ، ص١٨٣- ١٨٤ .

على أن الحدث الخطير والأهم من بين كل الأحداث هو الانفصال السياسي والمذهبي عن الدولة الفاطمية عام ٤٤١هـ على الأرجح ، الذي قاده المعز بن باديس كما ذكرنا .

ولم تقف الدولة الفاطمية مكتوفة الأيدي ، وهي ترى هذا التحول الخطير الذي يمس كرامتها وهيبتها ، فقررت مواجهة تلك الأحداث بسرعة وحزم ، ويبدو أن الظروف وقتها لم تسمح بعمل عسكري منظم ، لذلك فقد توصلت إلى الرد على المعز بطريقة لاتكلفها كثيراً ، فبعثت إليه بقبائل بني هلال وسليم التين كانتا تعيشان في صعيد مصر ، وأباحت لهما ملك المعز ودولته كما هو مبثوث في كتب التاريخ والأدب .

وأخيراً تهاوى ملك المعز تحت أقدام القبائل العربية التي بسطت نفوذها وسيطرتها على إفريقية كلها تقريبا . وأنكمش المعز في مدينة المهدية مع ابنه تميم حيث لم يبق لهما سواها وأحوازها ، وتوفى أخيراً حزيناً كاسف البال عام ٤٥٤هـ كما سنعرف بعد عند الحديث عن أثر الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة على الدراسات الشرعية (١) .

وفيما يتعلق بالأحوال الاقتصادية (٢) والاجتماعية والعمرانية والعلمية فإن عهد الدولة الزيرية كان إمتداداً لعهد الدولة الفاطمية بل والأغلبية ،

---

(١) أنظر بعد ، ص ٥٤٣ .

(٢) عن تطور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في الدولة الزيرية كتب أحمد بن عامر المؤرخ التونسي كتاباً أطلق عليه العنوان الاتي : الدولةالصنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضارة التونسية تتبع فيه بالتفصيل كل مناحي التطور والرقي ، في تلك المجالات التي ذكرناها في المتن .

وشهدت إفريقية في عهدهم تطوراً ورقياً كبيرين في هذه المجالات عامة وفي الحياة العلمية خاصةً حسبما سنعرفه في مكانه إن شاء الله .

الفصـــــــل الأول

عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى)

- الفتح الإسلامي فتح عقدي علمي .
- جهود الفاتحين والولاة في نشر الإسلام وأهمية البعثات العلمية في الازدهار .
- قيام الدول المستقلة .
- الرحلات العلمية .

شهدت إفريقية (المغرب الأدنى) تقدماً وتطوراً كبيرين شمل معظم أوجه العلوم والمعرفة منذ اللحظة التي تم فيها فتح المغرب عموماً ، بل مع المحاولات الأولى للفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، وهي الفترة الزمنية موضوع البحث ، وذلك بطبيعة الحال في تدرج طبيعي .

والمتتبع للحياة العلمية ومسيرتها من خلال تلك الفترة سيسترعى انتباهه بلاشك ذلك التقدم والتطور العلمي ، وسيخرج باقتناع مفادة أن ذلك التطور والتقدم لابد أن يكون وليد عوامل وأسباب هيأت له ذلك .

الفتح الإسلامي فتح عقدي علمي

ولعل أول مايمكن ملاحظته من تلك العوامل أن الفتح الاسلامي للمغرب كان فتحاً عقدياً علمياً بالدرجة الأولى . فهذا الفتح كان يحمل معه كتاباً فيه قوام عقيدة ودستور حياة ، فتح عيون السكان الأصليين ، وأعنى بهم البربر ، على ذلك الدين الذي يمثله هذا الكتاب الذي حمله الفاتحون العرب فاندفعوا في دهشة وفضول يستكشفون كنهه ، حتى إذا ماوجدوه قريباً من أفئدتهم وفطرتهم الأصلية زالت دهشتهم وزال فضولهم ، فأقبلوا عليه يحاولون فهمه وتدبر معانيه وأحكامه ، وتأتى ذلك لهم على يد العلماء من الصحابة والتابعين ، الذين جاؤا مع الفتح وبعده .

على أنه ماكان لهم أن يسبروا غور هذا الدين ، إلاَّ بعد أن استفتحت أمامهم مغالق اللغة التي جاء بها القرآن الكريم ، إذ لايخفى أنه لايمكن أداء

شعائر الدين الإسلامي ، إلاّ بفهم اللغة التي نزل بها على أقل تقدير ، ولقد أدرك المواطن المغربي الأصيل أن وجه هذا الفتح يبدوله مغايراً لغيره من الفتوحات . فهو إذ يتلفت حول ماضيه البعيد فالقريب نسبياً لايرى إلاّ غزاةً بدءً بالفينيقيين ومروراً بالرومان والوندال ، وإنتهاءً بالبيزنطيين جاءوا إلى بلاده ، وكان همهم الاستيطان والاستيلاء على خيرات البلاد وليس من أجل غرس عقيدة أو نشر ثقافة كما يقول إبراهيم العبيدي التوزري (١) .

نعم لانستطيع أن نغفل أن ثمة بعض التأثيرات الثقافية التي تركها الرومان بين الطبقات البربرية التي ربطتهم وأياهم مصالح مشتركة (٢) . وكذلك فيما وجد من مسارح عثر عليها في بلاد المغرب تدل على نشاط ثقافي (٣) . وكذلك لانستطيع أن ننكر أن الديانة النصرانية التي حملها البيزنطيون معهم قد استطاعت أن تجتذب إليها نفراً من البربر ، وخاصة البرانس ، الذين كانوا يعيشون في المدن الساحلية ، التي تتركز فيها الجاليات الرومانية و البيزنطية (٤) .

ولكن هذا وذاك لايمكن إلاّ أن يظل أثراً ثقافياً محدوداً لايعتبر شيئاً أما الإنتشار الواسع للإسلام بخاصيته العقدية والعلمية ، الذي انتشر بين البربر السكان الأصليين للبلاد .

---

(١) تاريخ التربية بتونس ، الجزء الأول ، ص٧٦ .

(٢) عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه الجزء الأول ، ص ٢٥-٣٠ .

(٣) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، الجزء الأول ص ٧٦ .

(٤) ابراهيم العبيدي التوزري : تاريخ التربية بتونس ، الجزء الأول ، ص ٧٦ .

ويبقى من بين تلك الأمم الغازية التي تقاطرت على بلاد المغرب : الفينيقيون والوندال . أما الوندال ، فقد كان تاريخهم دموياً في المغرب ، إضافة إلى أنهم كانوا وثنيين عندما أكتسحوا الإمبراطورية الرومانية ، ولم يعتنقوا الديانة النصرانية بعد احتلالهم بلاد المغرب وخاصة الأدنى (١) إلاّ مؤخراً .

واما الفينيقيون فلعلهم الوحيدون الذين ينظر إليهم على أنهم مع إنحصار إهتمامهم في الإتجار والشراء كان لهم حضور ثقافي في المغرب (٢) . وهو لايرقى أو يتناسب بطبيعة الحال مع طول المدة الزمنية (٣) التي قضوها في المغرب من جهة ، والأثر الثقافى العلمي الإسلامي من جهة أخرى ، ولكن مع هذا فقد كان لهم أثر ثقافي غير مباشر وتمثل في سرعة قبول البربر للغة العربية لما فيها من تشابه مع اللغة الفينيقية ، كما يؤكد كثير من الباحثين المحدثين (٤) . على أنه حتى إذا صح هذا ، فإن ذلك التأثير الثقافي يظل هامشياً أو غير مباشر كما أسلفنا.

---

(١) ابراهيم العبيدي التوزري : تاريخ التربية بتونس ، ج١ ، ص٧٦، وأنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ١١٥-١٢٠ .

(٢) أنظر مثلا عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه الجزء الأول ، ص ٢٠ - ٢٥ .

(٣) إمتد الحكم والوجود القرطاجني في المغرب ، من عام ٨١٤ق . م - ١٤٦م . أنظر ابراهيم حركات، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص٤١ .

(٤) أنظر مثلا عباس الجراري : نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ١٧ - ١٨ عبدالعزيز بنعبدالله : مظاهر الحضارة المغربية ، الجزء الأول ، ص٢٦ - ابراهيم العبيدي التوزري ، نفس المرجع اعلاه والجزء والصفحة .

أما الفتح الإسلامي ، فقد كان فتحاً عقدياً بالدرجة الأولى ، لم تشهد البشرية له مثيلا . والواقع أن الأدلة على أن الفتح الإسلامي - بصرف النظر عن الإقليم المفتوح - إنما هو فتح عقدي علمي في المقام الأول - كثيرة ومتعددة . وهل يفوتنا ونحن في هذا السياق الإشارة إلى أن أول آية نزل بها القرآن الكريم كانت ومازالت تحث على القراءة والعلم ؟ قال تعالى : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق - خلق الإنسان من علق - إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم - علم الإنسان مالم يعلم ﴾ (١) وهل نستطيع إغفال الأحاديث النبوية العديدة التي تحث على العلم والتعلم (٢) ؟

ثم إن اشتراط الإسلام على الشعوب المفتوحة بلادها كأحد خيارات ثلاثة ، آلا يعطينا الدليل على أنه - أي الإسلام - يحمل في طياته تلك الخصوصية ، وهي خصوصية الثقافة والعلم ؟. إن إختيارهم للإسلام ستتبعة بالضرورة خطوات هي من العلم والأخذ بالثقافة بمكان كبير ، لاسيما وأن العلوم الدينية هي التي كانت تملأ ساحة العلم ، بجانب الأدب في الفترة التي تمت فيها الفتوحات .

ولهذا كله ليس غريباً أن نقول إن افريقية (المغرب الأدنى) بل والمغرب عموماً كان من أوائل الأقاليم المفتوحة التي تجاوبت مع الإسلام ، ومع خصوصياته العلمية ، إذ لم تكد تمر على إتمام الفتح سوى سنوات

---

(١) سورة العلق ، آية ١-٥ .

(٢) أنظر مثلا الأحاديث التي تحث على العلم والتعلم والتي أخرجها البخاري : في صحيحه : باب كتاب العلم ، الجزء الأول ، ص ٢٢- ٤٥ .

يسيرة حتى كان المغرب بتفاعل وبتأثر بالثقافة العربية والإسلامية .

ويؤكد أحد الباحثين المحدثين على هذا الأمر بقوله (... ويمكننا أن نقول في إطمئنان إن القرن الثاني للهجرة أظل بلاد المغرب ، وقد أصبحت قطراً إسلامياً ينفعل مع التفكير الإسلامي الذي شاع في العصر الأموي) (١) .

ويقول باحث آخر مانصه : (وكانت القيروان في منتصف القرن الثاني للهجرة مرجلاً يغلو بالدراسات والمناقشات المذهبية ، وصارت حلقاتها نوادي تفكير إسلامي . ومسارح ملل ونحل وفلسفات) (٢) .

ولقد صاحب انتشار الإسلام بالمغرب - انتشار اللغة العربية بالضرورة ، لاسيما وهي وعاء الثقافة الإسلامية ، التي عن طريقها يمكن أداء الشعائر الدينية كما ذكرنا سابقاً . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لايمكن فهم خصائص التعاليم والتشريعات التي جاء بها القرآن ، إلاَّ عن طريق فهم اللغة العربية ، ولذلك انتشرت اللغة العربية في المغرب جنباً إلى جنب مع الإسلام .

ويرى حسن أحمد محمود (٣) في سبيل المقارنة بين إنتشار اللغة العربية في كل من مصر والمغرب ، أنها - أي اللغة العربية - كانت أوسع

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، الجزء الأول ، ص ١٦٢ .

(٢) عثمان الكعاك : محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، ص ١٦ .

(٣) الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، الجزء الأول ، ص ١٦٢ ١٦٣ .

إنتشاراً في المغرب منها في مصر .ذلك أن اللغة العربية واجهت في مصر لغة ذات أصالة وعراقة هي اللغة القبطية ، فضلاً عن وجود اللغة الإغريقية هناك بصورة واضحة ، مع ملاحظة أن مسيرة إنتشار الإسلام وبالتالي اللغة العربية كانت بطيئة ولم يتم إسلام أغلبية المصريين إلاَّ في أواخر القرن الثالث الهجري . بينما إختلف الأمر في المغرب ، فبجانب الانتشار السريع للإسلام ، فإن اللغة اللاتينية واليونانية لم تنتشر بين البربر إلاَّ على نطاق محدود . أما اللغة المحلية وهي البربرية ، فقد كانت أضعف من أن تقاوم تأثير اللغة العربية الكبير ، لاسيما وأنها لم تكن لغة مكتوبة . كما أنها –أي البربرية – تفتقر إلى المفردات والقدرة البلاغية والتصويري التي تحتوي عليها اللغة العربية بما فيها من جرس موسيقى يأسر النفوس . (١)

ولم تفد محاولات بعض الدول المغربية ، كالدولة الرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط مثلاً في إحلال اللغة البربرية محل اللغة العربية في كل مجالات التعبير والأدب . كما فشلت محاولة نقل القرآن الكريم إلى تلك اللغة، حيث ذهبت كل تلك المحاولات أدراج الرياح . (٢)

على أن هذا الأمر وإن كان صحيحاً ، إلاَّ أنه لاينفي في نظر كثير من المحدثين أن اللغة البربرية تنتمي كما يظهر من البحث اللغوي إلى مجموعة اللغات الحامية السامية ، وذلك لوجد تشابه بين هذه اللغة ، وأخواتها الحامية السامية سواءً من الناحية البنيوية أو النحوية ، أو الجرس الموسيقي

---

(١) عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ، ص٣٧ .

(٢) عثمان الكعاك : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٧ .

أو عن طريق تشابه الخطوط . (١)

والواقع أن هذا الأمر يقودنا للبحث عن الأسباب الأخرى التي جعلت البربر يقبلون في لهفة وتسرع على الإسلام ولغته العربية إذ لايخفى أن الإسلام قد وصل إلى غور العقلية البربرية ، وتمكن من مخاطبة عواطف البربر ، وتغلغل في سويداء قلوبهم .

ونحن هنا لن ندخل في تفاصيل القضية المطروحة اليوم ، عن الأصل الحقيقي للبربر (٢) ، فهذا الموضوع خارج عن خط بحثنا ، لاسيما وأن القضية لم يبت فيها البحث التاريخي والجنسي أوالسلالي حتى اليوم ، ولكن مانود الإشارة إليه هو أن هناك عناصر تشابه كثيرة بين العرب والبربر كالعادات والتقاليد ، وإتحاد طبيعة الفكر بين الجنسين ، ووجود تشابه في السلوكيات كذلك . (٣)

ويميل بعض الباحثين المحدثين وخاصة من المغاربة إلى تأكيد هذا الموضوع ، بل إن بعضهم يعتقد أن البربر والعرب تربطهم وحدة سلالية أو

---

(١) عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهر وقضاياه الجزء الأول ، ص١٨ .

(٢) في هذا الصدد انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان (الشأن) الأكبر . منشورات دار الفكر ببيروت ، الطبعة الأولى، المقدمة (الجزء الأول) ، ص ٩–١٠ ، ١٦–١٧، ٦٠، ٧٣– ٧٥، ٢٠٦، ٢٠٨ والجزء الثاني ، ص ٨–٩ ، ٥٨،١٢ ، ٥٩ ، ٦٦، ٨٥ ، ١٠٢ ، ٢٨١ والجزء السادس ، ١٧ ، ٤٨، ٨٨، ١٦٦ – ٣٠٠ والجزء السابع ، ص ٤–١٧– سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، الجزء الأول ، ص ٦٨–٧٨ – دائرة المعارف الإسلامية ، الجزء السادس ، ص ٥٦٧ ومابعدها (مادة البربر) .

(٣) الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص٩٩ .

جنسية (١) كما أن البعض منهم يرجع أصول البربر إلى الأصل السامي إعتماداً على وجود تشابه بين اللغة البربرية الدارجة ، واللغات السامية ، ويقولون للدلالة على ذلك إن الحضارة الفينيقية التي أقامها الفينيقيون في المغرب نجحت لأن اللغة الفينيقية استقبلت من قبل البربر بالقبول ، نظراً لوحدة الأصل السامي بينهما (٢) .

ونحن كما ذكرنا لايهمنا تأكيد أو نفي الرابطة السلالية بين العرب والبربر بقدر ما يهمنا الإشارة إلى وجود تماثل وتماذج إجتماعي وفكرى بين العرب والبربر . وقد أشار أحد المؤرخين الفرنسيين وهو: ل . أ . سديو في كتابه تاريخ العرب العام فيما ينقله عنه الحسن السائح (٣) إلى أن البربر والعرب لهم ميول وعواطف ومباءئ متشابهة ، كحب الفخر والهيام بالحرية وإكرام الضيف . كما يذكر مؤرخ فرنسي آخر وهو جوتييه في كتابه : عصور المغرب الغامضة فيما ينقله عنه عبدالعزيز بن عبدالله (٤) مانصه : (إننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذباً بين البربر الرحل والعرب لأن تشابه الحياة والعواطف الجوهرية أقوى من اختلاف اللهجات) ، وفي موضع آخر يشير إلى أن الحضارات السالفة عجزت عن بلوغ هذه الغاية .

وأياماكان الأمر ، فقد انتشر الإسلام في المغرب عموماً ، وكذلك

---

(١) أنظر مثلا عباس الجراري : المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١٦- ١٧ .

(٢) راجع عبدالعزيز بن عبدالله : مظاهر الحضارة المغربية ، أو تاريخ الحضارة المغربية ، الجزء الأول ، ص٢٢ ، ٢٥-٢٦ .

(٣) الحضارة المغربية عبر التاريخ ، الجزء الأول ، ص ٩٩ .

(٤) مظاهر الحضارة المغربية ، الجزء الأول ،ص ٢٥ .

إنتشرت اللغة العربية نتيجة لخصوصياتهما العلمية ، وللتشابه الكبير بين البيئتين : العربية والبربرية . وإذا كانت عملية تعريب البربر لم تكتمل تماماً وتمخض عنها وجود الأقليات البربرية القائمة حالياً ، فإن هذه الأقليات البربرية قد تعربت ألسنتها ، وتعرب فكرها . وهذا ما أشار إليه المؤرخ الفرنسي جوتييه (١) بقوله : (إن نتائج الفتح العربي بعد مرور إثنتى عشر قرناً ، تبعث على الدهشة لأن المغرب استعرب على نطاق واسع . كما تغلغل الإسلام في أحشائه وشمل مجموع أجزائه ، وقلما أحرزت الفتوحات في تاريخ المعمورة مثل هذا النجاح .

(١) فيما ينقله عنه عبدالعزيز بن عبدالله : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٥ .

جهود الفاتحين والولاة في نشر الإسلام وأهمية البعثات العلمية في الازدهار :-

استغرق فتح المغرب مدة زمنية طويلة قياساً بباقي الفتوحات وامتدت هذه الحقبة من عام ٢١-٩٠ وقد تعاقب خلال تلك الفترة عددمن القادة إبتداءً من عمرو بن العاص ، وعبدالله بن سعد بن أبى السرح ، ومعاوية بن حديج ، ومروراً بعقبة بن نافع ، وأبى المهاجر دينار ، وزهير بن قيس ، وإنتهاءً بحسان بن النعمان الغساني ، وموسى بن نصر ، وقد تلى هؤلاء االقادة الفاتحون ولاة الأمويين فالعباسيين حتى قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤هـ .

ولقد كان للكثير من هؤلاء القادة دور مرموق في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية في المغرب عموماً . على أننا نقف عند بعضهم ، وهم الذين بذلوا جهداً مذكوراً في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية دون غيرهم . وعلى رأس هؤلاء يأتي القائد عقبة بن نافع الذي تولى قيادة فتح المغرب سنة ٥٠هـ ، فرأى بثاقب فكرة العسكرى أن ينشئ مدينة تكون بمثابة قاعدة عسكرية للمسلمين في بلاد المغرب . ونحن لايهمنا في هذا الصدد استعراض الأسباب العسكرية والاجتماعية التي فرضت على عقبة ابن نافع تأسيس قاعدته العسكرية : القيروان ، وإنما يهمنا الإشارة إلى أن القيروان أضحت منذ اللحظة التي تم فيها إنشاؤها بجانب كونها قاعدة عسكرية للجند العرب ، وأول منارة للإسلام في إفريقية ، العاصمة الثقافية الإسلامية الأولى في المغرب كلية ، ولقد ترتب على ذلك أن أصبحت تضطلع

بدوررئيسي في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية والعربية لافي المغرب وحده، بل وفي غرب أفريقيا ، وفي الأندلس وفي صقلية (١) .

ويكفينا هذا القدر من الحديث عن مكانة القيروان الثقافية والعلمية ، فمكان ذلك التوسع في الحديث عنها في الفصل الثاني حيث سنوضح مراكز الثقافة في إفريقية (المغرب الأدنى) ، إن شاء الله . غير أن مجمل القول الذي نستطيع تأكيده هنا هو أن الدراسات الشرعية والأدبية في المغرب ماكان ليكتب لها النجاح والانتشار لولا وجود مدينة القيروان .

وبجانب الأثر الثقافي لتأسيس مدينة القيروان ، فإن كثيراً من المؤلفين قدامى ومحدثين يتفقون على الأثر الكبير الذي بذله القادة العرب في سبيل نشر الإسلام ، والدراسات الإسلامية والعربية ، فلقد حرص أولئك القادة إبتداءً من عقبة بن نافع على نشر الإسلام بين البربر ، وأتخذوا في سبيل الوصول لذلك سياسة الترغيب وتأليف القلوب والمساواة بين العرب والبربر إلاَّ فيما ندر ، فأبو المهاجر دينار خليفة عقبة بن نافع في المغرب يعمل جاهداً على ترغيب البربر وخاصة البرانس منهم لاعتناق الإسلام ، وتنجح جهوده نجاحاً طيباً فيسلم زعيمهم كسيله ومعه عدد كبير منهم (٢) .

ثم تظل المغرب حملة حسان بن النعمان الغساني لتبدأ معها صفحة بيضاء يعود الفضل فيها بعد الله له ولسياسته الحكيمة . وترجمت سياسته

---

(١) محمد العروسي المطرى : سيرة القيروان ورسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي ص ١٧، ٣٩ ومابعدها ، وص ٧٧ مابعدها .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ض ١٢٩–١٣٠ ، أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ٣٢–٤٣ .

تلك في صورة قرارات وأفعال مالت بالبربر إلى الإسلام . فلقد أشعرهم بالمساواة الكاملة مع العرب تلك المساواة المستمدة من روح الإسلام وتعاليمه (١) ، ولم يكتف بذلك بل أشركهم مع العرب في فتح المغربين الأوسط والأقصى (٢) ، وزاد في إطمئنانهم ، عد أرضهم مفتوحة صلحاً لا عنوة (٣) ،فأقرم على مابتحت أيديهم من أراض (٤) ، ومن الطبيعي والحالة كذلك أن تؤتي هذه السياسة أكلها ، فعادت للبربري عزته وأنفته ، وبات يطرد من حياته شعور النقص والإنتقاص التي عمقها في نفسه الغزاة من الرومان والوندال والبيزنطين ، فاندفع بتحمس لاعتناق الالإسلام واشرأب عنقه إلى ثقافته وتراثه .

وإلى جانب ذلك يعود الفضل لحسان بن النعمان في تعريب الدواوين في المغرب ، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، مثلما يعود الفضل له في إنشاء الأسطول الإسلامي البحري في المغرب ، وكذلك إنشاء مدينة تونس لدرء غارات النصارى (٥) .

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، ج١،ص١٥٩ .

(٢) حسن أحمد محمود : نفس المرجع والجزء والصفحة أعلاه .

(٣) حسن أحمد محمود : نفسه ، ص٥٩ .

(٤) في هذا الصدد يقول ابراهيم أحمد العدوي إن المورخ المصرى ابن عبدالحكيم كان أول من أشار إلى أن حسان بن النعمان اتخذ سياسته الخاصة تلك باعتبار أرض البربر فتحت صلحاً لاعنوة . تماماً مثلما حدث في مصر : ذلك لأن المسلمين اعتبروا أنفسهم أنهم كانوا في حرب مع الروم لامع البربر أهل البلاد الأصليين ، أنظر ابراهيم العدوي : ابن عبدالحكم رائد المؤرخين العرب ، ص١٤٧ .

(٥) أبو القاسم كرو و عبدالله شريط : عصر القيروان ، الطبعة الأولى ، ص١٦ .

أمـا مـوسى بن نصـيـر خلفـه ، فـقـد حظى بثناء المؤرخين قدامى ومحدثين على سياسته وجهوده في نشر الإسـلام والثقافة العربيـة . فهـذا ابن خلدون (١) مثلا يثنى على جهوده التي تمخضت عن ثبات البربر على دين الإسـلام . والواقع أن مـوسى بن نصـيـر جـهد على أن يتـابع سيـاسـة حسان بن النعمـان تجاه البربر ، فقربـهم له وولاهـم الأعمال جنباً إلى جنب مع العـرب ، وكـان يرى ضـرورة إفـهـام البـربر بـأن يعـتنقـوا الإسـلام دونما ضـغط أو إكراه ، وإنما يكون إعتناقهم له نابعاً من عقولهم وضمائرهم . (٢) وجـهـود مـوسى بن نصـيـر في نشـر الإسـلام فـي المغـرب الأقـصـى جـهـود لايمكن إنكارها ، ويكفى أن نشير إلى أن فتح الأندلس كان ثمـرة من ثمرات تلك السياسة (٣) .

غير أن ما تجب الإشارة إليه هو أن هذه السياسة الحكيمة من موسى بن نصير قد شابها بعض العنف والقسوة أحياناً (٤).

وسـار على سياسة موالاة البربر والتقرب إليهم أكثر الولاة الأمويين ، ولم يشـذ عنهـا إلاَّ نفر منهم (٥). فعلى سبيل المثال نجد المصادر والمراجع

---

(١) العبر ، الجزء السادس ، ص ١٣٥، ١٤٤، ٣٠٠ .

(٢) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ج١، ص ١٦٠ .

(٣) حسن أحمد محمود : نفسالمرجع السابق أعلاه والجزء والصفحة .

(٤) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٤٠ - ص ١٧١- ١٧٢ .

(٥) عن سياسـة تشـدد بعـض الولاة ومنهـم عبيـدالله بن الحبحـاب مع الـبربر، راجـع الرقيق القيرواني كتاريخ افريقية والمغرب ص ٩٩-١٠١، ص ١٠٧- ١٢٢-ابن عذارى : نفسه ، ج١، ص٤٨- ٥٨ .

تثنى على عبيدالله بن الحبحاب ، فعلى ما أرتكبه من سياسة الشدة تجاه البربر إلاَّ أنه عمل بالمقابل على ما ارتكبه من سياسة الشدة تجاه البربر إلاَّ أنه عمل بالمقابل على الإسهام في مسيرة الحياة الثقافية . فأسس على الأرجح (١) في مدينة تونس جامع الزيتونة الذي غدا بعد برهة من الزمن مركزاً مهماً للثقافة في المغرب ككل . وظلت جامعته أي جاه ع الزيتونة تقوم بدورها الثقافي حتى اليوم . (٢)

أما في عهد الولاة العباسيين ، فقد كان ليزيد بن حاتم المهلبي الذي ولاه الخليفة المنصور ولاية إفريقية والمغرب سنة ١٥٤هـ (٣) دور كبير في إضفاء جو ثقافي على إفريقية ، وذلك أنه بعد أن استقرت أموره في البلاد، استقدم من المشرق بعض الأدباء والشعراء ذائعي الصيت ، إلى جانب من قدم منهم بمبادرة فردية منه ، وأعطى وجودهم للأدب والثقافة دفعة قوية تأثر بها أبناء المغرب (٤) .

وثمة جانب آخر أدى إلى ازدهار الحياة العلمية في المغرب الأدنى ، وهذا الجانب هو البعثات العلمية التي أرسلها بعض الخلفاء إلى هناك . وفي الحقيقة أن هناك فيما يتعلق بهذا الجانب نوعين من البعثات ، فمنها ماهو

---

(١) عن الخلاف في هوية المؤسس الحقيقي لجامع الزيتونه ، راجع بعد ص ٣١١- ٣٢٠ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : عصر القيروان ، ص ١٦ -١٧ .

(٣) صدر الأمر من الخليفة المنصور بتوليته أواخر سنة ١٥٤هـ ، وكان وصوله إفريقية في عام ١٥٥هـ، راجع الرقيق القيرواني المصدر السابق ، ص١٤٦ - ابن عذارى : نفسه ، ص ٧٨- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٥٧- ٢٥٨ .

(٤) أنظر محمد طه الحاجري : دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي ، الطبعة الأولى ، ص ٤٩- ٥٣ .

فردى ومنها ما هو رسمي . أما البعث الفردى ، فقد جاء نتيجة شعور بعض العلماء بحاجة المغرب إلى التزود بالعلم والعلوم الدينية التي هي جوهر الثقافة الإسلامية وقتذاك . فتتابع مجيئهم إلي المغرب . وعقدوا هناك حلقات الدرس والمطالعة حيث أقبل عليها أبناء المغرب وكذلك أبناء الجند العرب المقيمين بالمغرب إقامة دائمة .

وإذا كانت المصادر قد سكتت عن تبيان الأثر العلمي الذي تركه مرور بعض الصحابة (١) ، رضوان الله عليهم ، في المغرب وخاصة أولئك الذين شاركوا في غزوة (٢) سبيطله التي وقعت عام ٢٧هـ، والتي تسمى بغزوة العبادلة أيضاً ، فيما عدا ذكر صحابي أو اثنين (٣) فقط ، فإنها - أي المصادر - قد أمدتنا بمعلومات لابأس بها عن بعض التابعين الذين أثروا الحياة العلمية في المغرب آنذاك لاسيما وإن كثيراً من أولئك التابعين قد

---

(١) مر على إفريقية عدد كبير من الصحابة ، فمنهم من جاء غازياً مع الحملات الإسلامية لفتح المغرب، ومنهم من جاء قائداً لتلك الحملات ، أوأميراً على إفريقية والمغرب . غير أن إقامة هؤلاء الصحابة لم تدم طويلا ، فعاد بعضهم إلى بلاده ، واستشهد النفر اليسير منهم في إفريقية وأدركت القليل جداً منهم المنية هناك . راجع المالكي : المصدر السابق الجزء الأول ، ص٤١-٦٣.

(٢) عن غزوة سبيطلة التي انتهت بإنتصار المسلمين أنظر ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء . ص ٨-١٣ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص١٤٧ - ومابعدها - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٦٦ ومابعدها .

(٣) من الصحابة الذين تركوا أثراً علمياً في إفريقيه : أبو زمعه عبيدالله بن آدم البلوي الذي أقام بإفريقية حتى توفي . أنظر المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص٥٤ - ٥٥ - ومن الصحابة كذلك المنيذر الإفريقي ، وقد دخل الأندلس كذلك . أنظر المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب منشورات دار الكتاب اللبناني تحقيق إحسان عباس الجزء الأول ، ص ٢٧٩ .

طاب لهم المقام بإفريقية حتى أدركتهم المنية هناك .

فمن أولئك التابعين نشير إلى اسم بارز كان له دوره في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية في إفريقية والمغرب ألا وهو عكرمة بن عبدالله مولى الصحابي المعروف عبدالله بن عباس ، وعكرمة بربري الأصل - وفي هذا مايؤكد ماسبق ذكره من تعلق البربر بالإسلام منذ وقت مبكر - وقد ساقته الظروف إلى الحجاز ، ويشاء الله أن يصبح مولى لابن عباس ، فيثابر على طلب العلم والمعرفة ، فيسمع من كبار الصحابة ومن بينهم مولاه حتى تعلو قدمه ،فيفوقه أقرانه ويرى فيه مولاه ابن عباس القدرة على الفتيا فيأذن له بذلك ويعلو شأنه وصيته في المشرق حتى كان التابعي الجليل الحسن البصري يمسك عن التفسير والفتيا إذا ماقدم عكرمة إلى البصرة ، ثم يعاوده الحنين إلى مسقط رأسه المغرب ، فيعود ويتخذ من القيروان مسكناً له ويتصدر هناك للتدريس والتعليم في جامعها الأكبر ، جامع عقبة بن نافع (١) .

ومن التابعين الذي كان لهم دور معروف في الدراسات الإسلامية في المغرب التابعي المعروف خالد بن أبي عمران التجيبي وقد جاء والده إلي المغرب في الحملة التي قادها حسان بن النعمان في سنة ٧٤هـ . وفي إفريقية أنجب ابنه خالداً الذي يعد مواطناً مغربياً ، وقد ترك خالد بن أبي

---

(١) أبو العرب التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص١٩ - ابن خلكان : نفس المرجع السابق الجزء الثالث ، ص ٢٦٥ - الداودي طبقات المفسرين ، منشورات مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، الجزء الأول ، ص٣٨١ .

عمران في إفريقية علماً غزيراً ، وانصب إهتمامه على دراسة الحديث وروايته . وتوفى سنة ١٢٥هـ أو ١٢٧ هـ (١) .

ومنهم أيضاً التابعي يحيى بن سعيد بن فهد الأنصاري الذي ولد بالمدينة المنورة ، ثم مالبث أن دخل إفريقية في نهاية القرن الأول للهجرة ومشارف القرن الثاني ، فنشر فيها علمه ومعارفه وتتلمذ على يديه الكثيرون. وقد إشتهر بدراسة الحديث وروايته أيضاً ، وظل كذلك حتى وافته المنية عام ١٤٣هـ (٢) .

وإلى جانب هؤلاء التابعين ، شهدت إفريقيه قدوم أعداد أخرى منهم ، وقد توسع المالكي (٣) في ذكرهم ، وذكر فضائلهم ، وتتبُّع سيرهم في مواطنهم الأولى ، ثم بإفريقية ، وذكر من دخل من طبقة التابعين المذكورين سابقاً ثم عاد لبلاده ثانية .

وهكذا تتضح الأهمية الكبرى لوجود هؤلاد الصحابة والتابعين في إفريقية ، فعن طريقهم إنتشرت العلوم والمعارف الدينية هناك ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت القيروان بوصفها عاصمة المغرب الروحية تشارك في العلوم هذه ، وتصبح أحد مراكز الثقافة العربية والإسلامية في العالم الإسلامي كما سنري بعد إن شاء الله .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الإمام المازري ، سلسلة نوابغ المغرب ، رقم ١، ص ١٦-١٧ .

(٢) حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ، ص١٤ - ١٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج١، ص ٧٧ -٨٩، وص ٨٩-٩٥ .

أما عن البعث الرسمي – وهو الذي أجَّلنا الحديث عنه – فالحقيقة أن المصادر والمراجع التي تناولت هذا الموضوع تكاد تتفق على أهمية البعثة العلمية التي أرسلها الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز في مشارف نهاية القرن الأول الهجري (١) . فقد عملت هذه البعثة على نشر الإسلام والدراسات الإسلامية بين البربر حسبما زودها بذلك الخليفة ، وقد توزع أفراد هذه البعثة في مدن إفريقية بجانب القيروان ينشرون علومهم ويشيعون بين الناس حب قرآءة القرآن وفهم السنة النبوية الشريفة ، زد على ذلك حرصهم علي بناء المساجد (٢) في المدن التي نزلوها، وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن أقبل البربر على الإسلام ، كما أقبلوا على دراسة علومه ، فظهرت تبعاً لذلك أجيال من أبناء إفريقية سواء أكانوا بربراً أم عرباً تسابقت في تحصيل العلوم الدينية وغيرها. ولم تقتصر نشاط تلك البعثة على إفريقية (المغرب الأدنى) فحسب، وإنما شمل المغرب كله والأندلس (٣).

---

(١) أنظر المالكي : المصدر السابق والجزء ص ٦٤– ٦٧ – الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، الجزء الأول ، ص ١٦٠، ٢١٣ – حسن حسنى عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر ، ص ٦٣ – ٦٤ حسن حسني عبدالوهاب ، الإمام المازري ، ص ١١ – ١٣ الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ١٤٨ –١٥٢ – عبدالسلام الكنوني ، المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الإسلامي إلي ابن عطية ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ٣٠ ٣٢ – الفرديل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمه عن الفرنسية عبدالرحمن بدوي ، ص ٩٦–١٠١ .

(٢) الطاهر أحمد الزاوي : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٤٨– ١٥٢ .

(٣) أنظر ، عبدالسلام أحمد الكنوني : المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الإسلامي إلى ابن عطية ص ٣١–٣٢ .

ويحسن بنا قبل أن نختتم الحديث عن هذا الجانب أن نشير إلى أسماء أفراد البعثة كما أوردها المؤرخون . والبعثة التي كانت تتكون من عشرة أشخاص كان يرأسها التابعي عبدالله بن يزيد المعافري الحبلي ، ويكنى بأبي عبدالرحمن ، وقد توفى سنه ١٠٠ هـ ، بالقيروان ، وخصة المالكي (١) بترجمة لابأس بها .

ومن أفراد البعثة أيضاً سعيد بن مسعود التجيبي وقيل إن اسمه سعد، ويكنى بأبي مسعود ، وقد أغفل المالكي ومن جاء بعده سنة وفاته (٢) . ومنهم أيضا أبو سعيد : جعثل بن عاهان أو هامان بن عمود وقيل عمير ، وكان بجانب إنتصابه للتدريس يتولى القضاء للجند بإفريقية (٣) . وقد توفى كما ذكر الطاهر الزاوي (٤) فيما ينقله من مصادره عام ١١٥هـ .

أما اسماعيل بن عبيد الأنصارى ، فان الروايات (٥) تثنى عليه كثيرا ، فهو بالإضافة إلى علمه الغزير ، فقد اشتهر بالفضل والورع ، ويدعى أيضا بتاجر الله لأنه أوقف ثلث ماله للنفقه في سبيل الله ، وقد أشار المالكي (٦)

---

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ٦٤-٦٥ .

(٢) نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٦٦- ٦٩ .

(٣) المالكي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٥- الدباغ : معالم القيروان ، ج١، ص ١٦٥ - الطاهر أحمد الزاوي تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٥٠ - عبدالسلام الكنوني : المرجع السابق ، ج١، ص ٣١ .

(٤) تاريخ الفتح العربي ، ص ١٥٠ .

(٥) أنظر المالكي : نفسه، ص ٦٥- ٧٢- الدباغ : نفس المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٦٧ ومابعدها .

(٦) نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٠ ويقول المالكي : عنه وهو الذي بنى المسجد الكبير بالقيروان الذي يعرف الآن بمسجد الزيتونية ، على هذا فالأمر واضح ، وليس ثمة لبس بين =

إلى أنه بنى مسجداً كبيراً في القيروان يعرف بمسجد الزيتونة . وقد توفى غازياً في صقلية سنة ١٠٧هـ .

ومن أفراد البعثه كذلك التابعي عبدالرحمن بن رافع التنوخي ، ويكنى بأبي الجهم أو أبي الجهل ، وقد توفى سنة ١١٣(٢) . وكذلك موهب بن حي المعافري ، وكان عالماً فاضلاً ولم يشر المالكي (٣) أيضاً ولا من جاء بعده إلى سنة وفاته . ومنهم أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي وقد روى عن جماعة من الصحابة كعقبة بن عامر الجهني وسهل بن سعد الساعدي وغيرهما ، ولم ترد سنة وفاته كذلك ، ومن أفراد البعثة أيضاً طلق بن جابان أو حابان أو جنان الفارسي . (٤)

أما حيان بن أبي جبلة القرشي ولاءً ، حيث (٥) كان ولاؤة في بني عبدالدار ، فقد كان من أبرز أفراد البعثة . وقد أدى دوراً مهما في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية في افريقية . .

ويخصه مؤرخو التراجم والطبقات بترجمة جيدة ، وهو تابعي مشهور، روى عن غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم كعبدالله ابن عباس ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وقد سكن القيروان ، ويقال له حيان أيضا .

= مسجد الزيتونة في القيروان وهذا وجامع الزيتونه في مدينة تونس .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٧٢- الدباغ : المصدر السابق أعلاه ، ص ١٦٩ .

(٣) نفسه ، ص ٧٣ .

(٤) المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٧٦، الدباغ : نفسه ، ص ١٧٠ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٧٣-٧٤ - الدباغ : نفسه ، ص ١٧١ - ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٢ -١٢٣ .

والغريب أنه في حين يشير المالكي إلى أن حيان بن أبي جبلة قد توفى سنة ١٢٥هـ ، يقول ابن الفرضى (١) إنه غزا مع موسى بن نصير حين افتتح الأندلس حتى إنتهى إلى حصن من حصونها يدعى قرقشونة فتوفى بها . والمعروف أن غزو موسى للأندلس كان في سنوات ٩٣-٩٥ هـ (٢) فكيف يستقيم هذا مع ما أورده المالكي ، ومن جاء بعده إلاَّ أن يكون حيانا قد بقى في الأندلس وبالتحديد في قرقشونه حتى أدركته المنية سنة ١٢٥ هـ .

أما عاشر أفراد البعثة فهو الأميراسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر القرشي ولاءً أيضا ، وكان ولاؤه في بنى مخزوم . وقد عينه الخليفة عمر بن عبدالعزيز والياً على أهل إفريقية بجانب أنه أحد أفراد البعثة . وقد أسهم في نشر الإسلام كثيراً في إفريقية بفضل وظيفتيه المهمتين ، وتوفى سنة ١٢٥هـ (٣) .

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ص١٢٣ .

(٢) أنظر مثلا ابن عذارى : نفسه ،ج١ ، ص ٤٣ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٧٥-٧٦- الدباغ : المصدر السابق والجزء ، ص١٦٨-١٦٩ .

قيام الدولة المستقلة

إن النهضة العلمية الكبرى التي شهدتها إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة إنما تدين في كثير من تقدمها وتطورها إلى تلك الدول المستقلة التي ظهرت هناك آنذاك . فلقد أوجد قيامها ومن ثم استقرارها تياراً ثقافياً نشطاً دفع العلماء والأدباء إلى إبراز مواهبهم دونما خوف أو وجل أو شعور بعدم الأمن ، فانطلقوا يبدعون ويملأون البلاد علماً وثقافةً وأدباً . ولم تكن الدول نفسها بمنأى عن ذلك ،فلقد أسهمت بما أولته للعلوم والمعارف من أهمية وما قدمته للعلماء من رعاية وتشجيع ، وما وهبته لهم من أعطيات في تقدم الحياة العلمية وازدهارها .ومامن ريب في أن بواعث تلك الدول في الاهتمام بالعلوم والمعارف إلي جانب ماذكر ، إنما يعود إلى رغبتها في إضفاء جو من الهيبة لها من جهة ، وارضاءاً لشعور ذاتي من جهة ثانيه : وايجاد حالة من الشعور بالاستعلاء والتفوق على الدول المجاورة وغيرها من جهة ثالثة .

وقبل أن نبرز دور تلك الدول المستقلة في هذه النهضة العلمية ، نرى لزاماً علينا الإشارة إلى جهود من سبقهم في عصر الولاة الأمويين والعباسيين . فلقد شهد عصر الولاة حكم أسرتين كان لهما تأثير في الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب الأدنى ، وأعنى بذلك الأسرتين : الفهرية التي تنتسب إلى القائد المشهور عقبة بن نافع والذي انتزى مؤسسها عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع على ولاية إفريقية وأقصى الوالي الأموى حنظلة بن صفوان الكلبي منها سنة ١٢٧هـ ودعا

لنفسه هناك . ثم مالبث أن انتهى وجود هذه الأسرة بمقتل ابنه حبيب سنة ١٤٠هـ (١) أما الأسرة الثانية فهى الأسرة المهلبية التي تنتمى إلى القائد العسكري الأموى : المهلب بن أبي صفرة ، وقد تولى بعض أفرادها ولاية إفريقية من قبل الخلافة العباسية في الفترة التي سبقت قيام الدولة الأغلبية.

أما دور الأسرة الفهرية في الحياة الثقافية ، فلم يكن واضحاً وسط ذلك التطاحن والتحارب مع الجند العرب في إفريقية من جهة ، ومع البربر من جهة أخرى . ولم نعثر على شيء ذي بال في هذا الخصوص فيما عدا ماذكر من جهود مؤسسها عبدالرحمن بن حبيب في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في غربى إفريقية وجنوبي المغرب الأقصى وقتذاك . (٢)

وأما دور الأسرة المهلبية فقد كان واضحاً وبارزاً ، وقد حظيت الحياة العلمية والأدبية على وجه الخصوص في عهدهم بالتقدم والانتشار . وقد مربنا دور يزيد بن حاتم المهلبي في ذلك . فيزيد بن حاتم الذي تولى ولاية إفريقية من سنة ١٥٤ حتي سنة ١٧٠هـ (٣) ، حاول أن يجعل بلاطه زاخراً بالعلماء والأدباء كما هو شأن الولاة الآخرين . فاستقدم عدداً كبيراً

---

(١) عن الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها إفريقية في عهد الأسرة الفهرية ، راجع الرقيق القيرواني : المصدر السابق ،ص ١٢٣ - ١٤١ - ابن عذارى : نفسه ، ج١ ، ص ٦٠-٧٠ سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٣١٣ - ٣٣٩ .

(٢) أنظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربيها ص ٤٩- ٥٠ .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٣٧١ .

منهم (١) . كما قدم إليه البعض منهم برغبة فردية ، وهناك نشروا أدبهم ونشروا علمهم وتتلمذ على أيديهم جيل كان النواة الأولى للأجيال القادمة بعد ذلك من أبناء المغرب الأدنى سواء كانوا عرباً أم بربراً .

وازدهر على وجه الخصوص في عهد خلفائه من أبناء أسرته الشعر بمجالاته المتعدده من فخر ، ومديح ، وهجاء ، وعتاب ، .. الخ . ولكن هذا الدور الذي رسمته لهم كتب التاريخ والأدب لم يأت في الحقيقة بقصد مباشر، بل جاء عفوياً عندما استمر الخلاف بينهم وبين أبناء الجند العرب الذين اعدوا أنفسهم أبناء البلاد الأصليين ، فاستخدم الطرفان سلاح الشعر الذي لم يخب أواره في توضيح وجهات نظرهما . (٢)

وأما الدول المستقلة ودورها في ازدهار الحياة العلمية في إفريقية ، فقد إبتدأ منذ اللحظة التي قامت فيها هناك دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه ، وهي أول دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً في تاريخ المغرب . (٣)

ولقد حرص أمراء هذه الدولة إبتداءً من عهد مؤسسها ابراهيم بن الأغلب ، وإنتهاداً بآخر أمير فيها ، على النهوض بافريقية والعمل على

---

(١) أنظر بعد ص ٦٦٦-٦٦٧ .

(٢) أنظر مثلا ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٧٤ ومابعدها ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٧٥ ومابعدها .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٨ -٢٩ – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٧٧ – ٢٧٨ .

تقدمها ، فتألقت الحياة العلمية في عهدهم أيما تألق ، وسنتبين لاحقاً من خلال أبواب الرسالة ، المدى الذي بلغته الحياة العلمية في عهدهم .

غير أن الأثر العلمي البارز الذي تجب الإشارة إليه هو تفوق الدراسات الشرعية وعلى وجه الخصوص الفقه ، لدرجة أنه أصبحت هناك مدرسة فقهية إفريقية هناك إلى جانب مدارس مكة والعراق والأندلس ، ويلي هذا أثر علمى آخر يعود الفضل إلى وجوده للأغالبة . وهو تأسيسهم لبيت الحكمة في مدينة رقادة بعد ذلك . وسنتبين ذلك الأثر في مكانة بعد إن شاء الله (١).

أما الدوله الفاطمية التي تمكن لها الأمر في عام ٢٩٧ / ٩٠٨م بالإطاحة بالدويلات المستقلة في المغرب عموماً ، وهي الأغلبية ، ودولة بنى رستم في تاهرت . وبنى المدرار في سجلماسة والأدارسة في فاس ، فقد كانت المسيرة العلمية فيها لاتقل عن مسيرتها في عهد الدولة الأغلبية - غير أن طبيعة اليحاةالعلمية في عهدهم إتخذت منحىً تمثل في اتجاهين : أولهما إتجاه يخدم الفكر والمعتقد الشيعي سواء كان ذلك عن طريق الدراسات الشرعية أو عن طريق الدراسات الأدبية . وثاني الاتجاهين هو الاتجاه السني المالكي الذي هدف إلى مقاومة المد الفكري الشيعي .

وعندما فكر الفاطميون في الرحيل إلى مصر ، وهو ماتحقق لهم فعلاً عام ٣٦٢هـ / ٩٧٢م ، ظهرت دولة مغربية جديدة هي الدولة الزيرية

---

(١) أنظر بعد ص ١٤٩ .

الصنهاجية (١) . وهذه الدولة ، وإن كانت مستقلة عن الدولة الفاطمية استقلالاً ذاتياً – فيما عدا الفترة الأخيرة من عمرها عندما قطعت صلتها بالدولة الفاطمية – إلا أنها تمتعت بحركة كبيرة وبأحوال إقتصادية ممتازة ، نجمت عن تحول خط التجارة بين البلاد الإفريقية والمشرق عن طريق بلاد النوبة إلى المغرب ، ومن بينها القيروان التي كانت عاصمة للدولة الزيرية (٢)

ولقد خطت هذه الدولة نحو التقدم والازدهار العلمي خطوات تعد من أعظم وأجل ماشهدته البلاد (٣) الإفريقية . وكانت عاصمتها القيروان تعد العاصمة الثالثة للثقافة الإسلامية والعربية بعد بغداد وقرطبة وأتاح هذا كله للدولة الزيرية أن تولى إهتماماً للعلم والأدب يفوق الوصف . فكان أن ظهر في عهدها أبعد الأدباء والقراء والكتاب الإفريقيين ذكراً مثل ابن رشيق ، وابن شرف ، وابراهيم الحصري ، وعلى بن عبدالغني الحصري كما سنعرف ذلك بعد في موضعه إن شاء الله .

ويتراء لي أن في هذا القدر من الحديث مايكفي للدلالة على أن إزدهار الحياة العلمية في إفريقية في الفترة موضوع الرسالة قد واكب ظهور الدولة المستقلة التي رعته وشدت من أزره حتى استوى عوده . أما الحياة العلمية وتفاصيلها في عهود تلك الدول ، فهو ماسيكون مادة حديث القسم الثاني من الرسالة إن شاء الله .

---

(١) عن الدولة الزيرية ، أنظر قبل ص ٧٢ .

(٢) الحبيب الجنحاني :المغرب الإسلامي- الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣٠٤هـ/٩-١٠م) ص ٢٤-٢٥ .

(٣) أنظر عبدالرؤوف عبدالعزيز مخلوف: ابن رشيق ونقد الشعر-دراسة نقدية تحليلية مقارنة،ص٧٤.

الرحلات العلمية

إذا كانت العوامل التي أشرنا إليها من قبل ، عظيمة الأثر في النهضة العلمية التي شهدتها إفريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة موضع الاهتمام فإنه لايمكننا أن نغفل الدور الكبير الذي أدته الرحلات العلمية في إثراء تلك النهضة . بيد أننا رغبنا في إفراد دور الرحلات العلمية بحديث طويل لا لأنه ليس بذي مساس بالعوامل الأولى ، وإنما لأنه نتيجة حتمية لها . فرحلات المغاربة ماكان يمكن أن تظهر إلي الوجود إلاَّ بفضل السمة التي تميزبها الفتح . وهي السمة أو الخصوصية العقدية والعلمية . هذه واحدة ، والأخرى أن الرحلات العلمية كانت وليدة الجو العلمي الذي أحدثته جهود الفاتحين والولاة ، ثم قيام الدول المستقلة هناك .

المسلمون والرحلة في طلب العلم :-

وفي الحق ، فلقد وعى المسلمون عامة مذ تفتحت مداركهم العلمية ، الأهمية الكبرى للرحلة في طلب العلم ، وما تشكله من قيمة في التحصيل والتكوين ، فأقبلوا على الارتحال والتنقل بين صقع وصقع رغبة في العلم وطلباً له حتى عدت الرحلات العلمية من أهم السمات أو الخصوصيات الثقافية الإسلامية . ولقد كان المسلمون يصدرون في ذلك من معرفتهم للفوائد التي تحققها الرحلة من التمكن من الجوانب والتيارات العلمية الزاخرة ، إلى الرغبة في نشر مكنون الرحلة العلمي المحصل ، إلى إتساع

الثقافة العامة ، وإلى تنمية الفضائل والكمالات في النفس ، وأخيراً كسب صداقات جديدة خالصة (١) .

وماكان المسلمون ليفيئون إلى ذلك إلاَّ من عدة توجهات ، بجانب الميل الفردي ، أهمها أن الدين كان يحض على طلب العلم والتنقل في سبيله . فلم يكن بعيداً عن أذهانهم صدى الآية الشريفة : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (٢) . وماكان غائباً عن إدراكهم رجع تلك الأحاديث النبوية التي تحث على العلم والتنقل في سبيله ، مثل : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » (٣) وغير ذلك من الأحاديث .

وجهود الصحابه وأقوالهم وأفعالهم التي ترغب في السفر والترحال على المشقة والعنت لم تكن كذلك لتغيب عن فطنتهم فهذا جابر بن عبدالله يبلغه عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثاً فيشد رحله ويسير شهراً حتى يصل الشام للتأكد من ذلك الحديث (٤) .

---

(١) أنظر الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث : حققه وعلق عليه نور الدين عتر ، الطبعة الأولى ، مقدمة المحقق ، ص٢٤- ٢٨ .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم وغيره . أنظر الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ، مقدمة المحقق ، الحاشية رقم (١) ص ١٧ .

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ٧٠ - صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ط١٥ ، ص ٥٤ .

وفي هذا الصدد يقول الشعبي (١) عالم الكوفة المشهور ، وهو أحد التابعين : (لو أن رجل سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ، ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره ضائع) (٢) .

وإزاء هذا فلم يعد غريباً ولا مدهشاً أن نرى قوافل العلماء ولأدباء والأطباء ، وغيرهم تتنقل من مكان إلى مكان في طول بلاد الدولة الإسلامية وعرضها لايثنيهم عن رغبتهم تلك نصب ولا مخمصة ولايدانيهم في ذلك أمة من الأمم . وليس عجيباً بعد هذا أن يؤلف مؤلف مصنفاً يتحدث فيه عن الرحلة في طلب الحديث ولم يكن هذا الطلب الحثيث للحديث إلاّ وهو واحد لاغير (٣) .

---

(١) الشعبي : عامر بن شراحيل وقيل عبدالله بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري (١٩-١٠٣هـ/٦٤٠/٧٢١) أحد مشهوري التابعين ، مولده ونشأته ووفاته بالكوفه ، وهو أحد رجالات الحديث الثقات المأمونين . راوية شديد الحفظ ، كان متصلا بالخليفة عبدالملك بن مروان ، وقد بعثه إلى ملك الروم رسولا في مهمة سياسية . واستقضى في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وهو بالاضافة إلي ذلك كان فقيهاً شاعراً معروفاً . أنظر الزركلي : الأعلام ، ج٣ ، ص٢٥١ (نقلا عن مجموعة من المصادر والمراجع المختلفة) .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ٧٠ .

(٣) نقصد بذلك الخطيب البغدادي الذي ألف كتابه (الرحلة في طلب الحديث) حيث تتبع فيه من رحل من الصحابه والتابعين في طلب الحديث الواحد عن رسول الله ﷺ في مختلف الأصقاع - للاستزادة عن هذا الموضوع ، أنظر الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ، مقدمة المحقق، ص ٥٨-٥٩ .

رحلة المغاربة إلى المشرق في طلب العلم :

ماكاد القرن الثاني الهجري يأذن بالإنتهاء إلا وكانت العلوم الإسلامية قد إنتشرت بين البربر في إفريقية خاصة وفي المغرب عامة ، فبدأت معالم الحركة العلمية تبرز شيئاً فشيئاً بتأثير عوامل الإزدهار العلمي . غير أن هذه الحركة كانت تتأرجح صعوداً وهبوطاً بسبب عودة التابعين وتابعيهم إلى المشرق ، وبسبب وفاة البعض الآخر منهم ، ثم وهو الأهم ندرة نزوح العلماء المشارقة إلى إفريقية . ولم يكن أمام الجيل الذي تعلم على يد التابعين وتابعيهم إلا تسلم المشعل ، ولاسيما وأن البلاد بلادهم ، فأوسعوا العلوم دراسةً وتمحيصاً على قدر كفائتهم . لكن هذا النفر والذين تلوه من العلماء المحليين كان يتطلع إلى مابذات يده من العلم والمعرفة فلايجد إلاَّ نزراً يسيراً . ويشرئب عنقه إلى المشرق فيلحظ تدفقاً دافقاً من النشاطات الثقافية المختلفة ، ثم يرجع البصر ثالثة ، فيرى ويعقل ما أهمية الرحلة - ما مداها - ما جاء فيها ؟ فيوطد النفس ويؤكد العزم على الارتحال للمشرق لتلقي العلم في مراكز المعرفة .

والمشرق وما أدراك ما المشرق وقتها؟ غليان علمى- إن جاز هذا- يعم ربوعه- نمت فيه العلوم، وازدهرت وتعددت في فترة قصيرة قياسية. فلم يكد يمر على وفاة الرسول ﷺ أكثر من قرن ونصف حتى غزرت العلوم والمعارف ، وتجاذبت أطراف المشرق تيارات ثقافية مختلفة المنزع والمشرب . سالت فيه القرائح وانثالت فيه الأفكار النيرة . وبالجملة فقد عرف المشرق وقتها نهضة علمية كبرى توجت بنشوء المذاهب الفقهية والمذاهب الكلامية آنذاك .

هذه المحصلة العلمية الكبرى لم تكن كل أقطار المشرق فيها سواء ، فالحجاز : مكة والمدينة ، مبعث الرسول ﷺ ومهاجره ، من الطبيعي أن تكون لها نهضة علمية شرعية المنزع كالإهتمام بالفقة والحديث والتفسير والقراءآت ، أو بمعنى آخر الاهتمام بالعلوم النقلية . وقد أثمر هذا الجو العلمي الديني عن نشؤ مذهب الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت١٧٩هـ)، الذي يعتمد الأثر أساساً في بناء أحكامه . وقد عرف بالمذهب المالكي نسبة إليه ، كما عرف بمذهب أهل المدينة لأن مالكاً ولد وعاش وتوفي بها ويعرف كذلك بمذهب أهل الحجاز تعميماً (١) .

والعراق بما شهده من أحداث سياسية ضخمة ، وبماجرى على ساحته من فتن وقلاقل ، وبما يعيش على أديمه من طوائف وأجناس ونحل مختلفة الأصل والمنزع كان من الطبيعي أن يولى العلوم النقلية إهتمامه ونشاطه . لكنه أولى العلوم العقلية إهتماماً شديداً ، وهو أمر طبيعي وسط هذه البيئة التي وصفناها ، على أنه قد نشأت في العراق كذلك ، المذاهب الفقهية ، كمذهب الإمام أبى حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ) الذي يعتمد القياس أساساً في بناء أحكامه فيما لم يرد فيه نص من الكتاب

---

(١) عن مدرستي مكة والمدينة ، ثم عن المذهب المالكي ، أنظر أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص١٧٠ – ١٧٦ و ص ٢٣٤ – ٢٥٠ ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ٧٣– ٧٥ ، ص ١٥١– ١٧٦–٢٠٦–٢١٥ – وأنظر كذلك محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، الجزء الثاني ، ص ٦– ١٠٠ – أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة : الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي ، وانتشارها عند جمهور المسلمين تقديم على حسن عبدالقادر ، ص١٢–٢٥ .

والسنة (١) . كما نشأ فيه مذهبان آخران ، هما : مذهب سفيان الثوري في الكوفة (٢) ، والحسن البصري (٣) في البصرة ، ثم توالى ظهور بقية المذاهب الفقهية الأخرى بعد ذلك (٤) . وتميز العراق أيضا بنشوء الفرق الكلاميه فيه (٥) ، وعدا هذا وذاك فقد تميز العراق بظهور مدرستين لغويتين فيه، هما : مدرسة الكوفة ، ومدرسة البصرة اللتان مافتئتا تتنازعان زعامة اللغة والنحو مدة مديدة من الزمن (٦) .

أما مصر (٧) ، فقد كانت تأتي ثالثة من حيث الأهمية العلمية وقتذاك. فلقد استطونها عدد من الصحابة والتابعين نشروا فيها العلوم الشرعية، ثم

---

(١) عن العراق ومدارسه العلمية وأحداثه ، وتأثير ذلك في مجمل الحركة العلمية ، ثم انتشار المذهب الحنفي ، راجع موسوعة أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٩٤ -٩٦ ، ١٢٥- ٢٤٥ - ضحى الإسلام ، الجزء الأول ، ص ١٦٢ - ٣٧٢ ، والجزء الثاني ، ص ١-١٩، ٧٧ - ١٨٥، ١٥١-٢٠٦، إلى غير ذلك فأحمد أمين هو من أفضل من كتب عن الحركة العلمية النقلية والعقلية .

(٢-٣) إندثر هذان المذهبان ولم يعد لهما ولالغيرهما من مذاهب أهل السنة فيما عدا المذاهب الأربعة المشهورة أي أتباع الآن . أنظر أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخيه في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة ، ص ١٢ .

(٤) أنظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ١٢٨ - ٢٣٧- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج ٢، ص ١٥٠ ومابعدها .

(٥) للتوسع حول هذا الموضوع يراجع أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٥٦- ٣٠٣- ضحى الإسلام، ج ٢ ، ص ١ - ٣٤٠ - ظهر الإسلام للمؤلف نفسه : الجزء الرابع الطبعة الخامسة ص ٧-٤٠ ، ص١٠٩-١٣٨ .

(٦) عن مدرستى الكوفة والبصرة اللغويتين وكذلك عن رجالهما أنظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص٧٧- ٨٥ ، ص ٢٤٣-٣١٨ .

(٧) عن مدرسة مصر العلمية ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٨٩-١٩٢- ضحى الإسلام ، ج٢، ص ٨٥- ٩٦ .

خلفهم تلامذتهم من بعدهم ، فحملوا مشعل العلوم والمعارف ، حتي أدى الأمر إلى ظهور مذهب فقهى لعالم محلي منها هو الليث بن سعد (١) فقيه مصر المبرز ، ثم ماجرى بعد ذلك من مجئ الإمام الشافعي إليها ، وما أحدثه من نهضة علمية كبرى آنذاك .

وتأتي بلاد الشام رابعاً في تسلسل المراكز العلمية بمدينتيها دمشق وبيت المقدس ، وإن كانت دمشق قد احتلت في وقت مبكر مكانة علمية مرموقة ، أفرزت مذهباً فقهياً كان يعتمد عليه ، هو مذهب الإمام الأوزاعي . غير أن مكانة بلاد الشام العلمية وخاصة دمشق مالبث أن قلَّت بفقدان دمشق مركزها كعاصمة للدولة الإسلامية . (٢)

وتطلع المغربي حوله ، فوجد المدينة ومكة تزهوان بالإهتمام بالعلوم الشرعية بشتى مجالاتها ، ثم رآها تفتخر بمذهبها الجديد . المذهب المالكي الذي فيه كثير من الخصائص التي تشد المغربي إليها والتي سنأتي على ذكر تفاصيلها بعد إن شاء الله . ثم أن لمكة والمدينة فوق هذا مكاناً أثيراً يحتل سويداء قلبه ، فإلى مكة قصده وتوجهه في الصلاة خمس مرات ، وإليها يرتحل الناس لإداء فريضة الحج ، وتحتضن مكة والمدينة الحرمين

---

(١) الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي (٩٣-١٧٥هـ) ولد بقرقشند ، وكان موسراً ، وأكثر البخاري ومسلم من الرواية عنه ، ووثقه الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما . وضع أسس مذهب فقهي مالبث أن أضمحل شأنه بعد موت صاحبه . للاستزاده عن أخبار الليث بن سعد ومذهبه أنظرعبدالرحمن الشرقاوي : أئمة الفقة التسعة ص ٩٥-١٢٠ .

(٢) عن مدرسة الشام العلمية ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ص١٨٧-١٨٩ ضحى الإسلام ج١ ، ص ١٧٢ - ١٧٤ ، ص ٩٦- ١٠٥ .

الشريفين ، وهما ما يعلم قدسية ومكانة . لكن المدينة لها مكانة عزيزة في نفسه ، ففيها قبره الشريف ﷺ ، وفيها بقية باقية من التابعين وأتباعهم ، ثم هي مستودع علم الرسول ﷺ ، وسلوكه وأفعاله .

ويتطلع إلى العراق ، فيجد تيارات فكرية متصارعة لاتستهويه كثيراً وإن كان ينظر للأمام أبي حنيفة ومذهبه وأتباعه نظرة إحترام وتقدير ، ولكنه لايميل إليه كثيراً قدر ميله للمذهب المالكي . أما فرقه الكلامية فلايقف عندها تقريباً ، ولاتستهوى تلك الفرق وبالتخصيص الخارجية منها إلاَّ من تمذهب من البربر بالدعوة الخارجية ، لكنهم أي المغاربة لم يروا حرجاً أبداً في الاخذ من مدرستي العراق اللغوتين .

أما مصر ، هذا الأقليم الذي يجاورهم ، فإن له شأناً عندهم ،ففيه مجموعة من العلماء المبرزين وفيه مجموعة من تلامذة الإمام مالك بن أنس الذين نشروا مذهبه في مصر .

كل هذه الدواعي ، جعلت المغاربة والأندلسيين كذلك يعقدون العزم على الرحلة للمشرق ، فقصدوه زرافات ووحداناً ، ينهلون ويكرعون من علومه ومعارفه وآدابه . غير أن رحلاتهم تلك لم تكمن على قدر متساوٍ من حيث القصد ، ولا من حيث الزمن ، ولا من حيث المحتوى .

فرحلاتهم للحجاز ، ماكان يرقى إليها أبداً كثرة للأسباب التي شرحناها آنفاً ، ولذلك فقد قصدوه بكثرة كاثرة يتلقون علومهم الدينيه على كبار علمائه من التابعين وتابعيهم ثم من صاحب المذهب المالكي لما رسخت

قواعد مذهبه ، ثم تلامذته الكثر في المدينة ومكة ، وإلى جانب علماء المذهب المالكي إرتحل المغاربة إلى علماء العلوم الشرعية الأخرى كعلماءالحديث والتفسير والقرآءآت . ولعل خير ما يوضح لنا مقدار إحترام المغاربة لمدرسة الحجاز العلمية بكل أوجهها ، وهو أنه قل أن تجد منهم أحداً يرتحل إلى المشرق ، فلا يعرج على الحجاز أولاً ، هذا فضلاً عن استحالة عدم قصده والإرتحال إليه أصلاً . ولعل أحدهم يكتفى بالرحلة إلى الحجاز وحده دون غيره .

أما المحطة الثانية التي إرتحل إليها علماء المغرب الأدنى فقد كانت مصر ، إذ أشتهرت مصر (كمركز للحركة العلمية الدينية) (١) التي ذكرنا طرفاً منها من قبل . فارتحلوا إلى مصر وقابلوا علماءها الكبار من أمثال الليث بن سعد ، وكبار تلامذة الإمام مالك ، فسمعوا منهم ورووا عنهم كما بادلهم المصريون ذلك . ولم يقتصر إرتحال علماء المغرب الأدنى إلى مصر على علمي الفقه والحديث فحسب ، وإنما إرتحلوا إلى علماء القرآءآت الذين اشتهرت بهم مصر فسمعوا منهم تفاسيرهم وقرآءاتهم ومؤلفاتهم ، كما أخذوا من علماء اللغة والنحو المصريين أيضاً . ولقد كان اهتمام المغاربة والأندلسيين بالمدرسة المصرية ناجماً عن أن مصر كانت الجسر أو المعبر الذي يوصلهم إلى المشرق ، حيث الحجاز ، والعراق والشام ، فكان لابد لهم من المرور به ثم العودة إلى بلادهم عن طريقه كذلك .

---

(١) محمود إسماعيل عبدالرازق : الأغالبة – سياستهم الخارجية ، ص ٨٩ .

والعراق كان المحطة الثالثة من حيث القصد الذي سلكه المغاربة والأندلسيون ، فلم يكن هناك إلا نزر يسير من علماء المغرب الذين إرتحلوا لأبي حنيفة النعمان (١) ، ومن ثم تلامذته ، فأخذواعنهم ورووا . ونفس الأمر يقال عن سفيان الثورى بل إن الملاحظ أن عدد الذي اخذوا عن سفيان الثوري يفوق عدد أولئك الذين أخذوا عن أبي حنيفة (٢) بيد أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا إلا عددداً قليلاً لايقارن بعدد الذين أخذوا عن مالك وتلامذته . ومامن ريب في أن ذلك يعود إلى ماسبق أن ذكرناه من دواع . وسنتبين عند حديثنا عن انتشار المذهب المالكي في المغرب تفاصيل واسعة لذلك .أما علماءالإباضية في طرابلس والجريد ، فقد ارتحلوا إلى البصرة حيث شيوخ فرقتهم ، فأخذوا عنهم وسمعوا منهم . أما رحلات علماء القرآءات والحديث واللغة والنحو إلى العراق ، فقد كانت مكثفة مافي ذلك ريب . وما يقال عن هذه العلوم، يقال أيضاً عن رحلة الشعراء إلى العراق .

أما بلاد الشام : دمشق وبيت المقدس فإننا وإن كنا لم نعثر على رحلات علمية مذكورة إليها، إلاّ أننا لم نعدم علماء من المغاربة قد قصدوهما وسمعوا من شيوخهما ورووا عنهم كما سنعرف بعد .

وأما من حيث الزمن الذي كان علماء المغرب وطلاب العلم يقضونه في المشرق ، فلم يكن الأمر سواء كان على صعيد المحطات العلمية ، أو الاشخاص أنفسهم . ففي الحجاز يلاحظ أن كثيراً من العلماء وطلاب العلم

---

(١) أنظر بعد ص ٣٣٢- ٣٣٣ .

(٢) أنظر بعد ص ٢٢٩ ومابعدها .

يترددون عليه مراراً . وفي كل مرة قد يقضى أحدهم فترة طويلة من الزمن تصل إلى ثلاث أو أربع أو خمس سنوات يؤدون خلالها شعيرة الحج لأكثر من مرة ، ثم لايغادره إلاّ بعد أن يستكمل علومه ومعارفه ، وتأتي مصر في المرتبة الثانية ، ثم العراق .

وفيما يتعلق المحتوى أو المحصلة فلاحاجة بنا إلى ذكر بنا علمية شرعية : فقه - حديث قرآءات ، تفسير ، حجازيه فمصريه فعراقية الترتيب ، ثم تأتي الدراسات الأدبية وخاصة اللغوية والنحوية ، وهذه يتفاوت فيها التسلسل الثقافي ، فيأتي العراق أولا ، ثم مصر ، ثم الحجاز ، لأسباب عديدة شرحها المختصون في مؤلفاتهم ممّا لاحاجة لنا هنا إلى تتبعها . وأما بقية المعارف ، فلم تكن تحظى من اهتمام المغاربة إلاّ بالقدر اليسير فعلم الكلام ماكان أحد من علماء المغرب يستسيغه - فضلا عن أن يتعلمه ويحمله إلى بلده والعلوم التجريبية نادراً ما كانت تشد أبناءالمغرب ومع ذلك لم ينعدم الرحيل من أجل تلقيها . وفي مجالي علم الكلام والعلوم التجريبية كان العراق يأتي أولا . والحجاز ومصر بعد ذلك .

هذه ملاحظات مهمة عن مقاصد الرحلات العلمية للمغاربة إلى المشرق، وثمة ملاحظات أخرى لاتقل أهمية عن سابقتها نوردها فيما يلي :

١- الأمر الأول : أن أول مايمكن استخلاصه من رحلات علماء المغرب الأدنى إلى المشرق هو كثرة تلك الرحلات طوال النصف الثاني من القرن الثاني وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى . فقد كان المغرب بحاجة إلى تلك الرحلات بالطبع لاستكمال ماينقصه من العلوم

والمعارف في شتى المجالات التي كان يفتقدها آنذاك .

٢- الأمر الثاني : تناقص الرحلات العلمية وقلتها خلال القرن الرابع الهجري ، وكان هذا شيئاً طبيعياً . فقد رسخت أقدام الدراسات كلها في المغرب وخاصة الشرعية منها بعد رسوخ المذهب المالكي هناك حسبما سنعرفه في مكانه إن شاء الله .

٣- الأمر الثالث : أن الرحلات العلمية ندرت تقريباً خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، حيث يقف بنا الأمر عنده .

٤- الأمر الرابع أنه على مافيما قلنا من قلة الرحلات العلمية للمغاربة إلي المشرق خلال الفترة التي أشرنا إليها إلاَّ أن الرحلة لم تنقطع أبداً ، فالمشرق كان ومازال يستهوى أفئدتهم ، فشخوص المغاربة إلى الحجاز لم ولن ينقطع ، لأن الحج لم ولن ينقطع ، ومادام أن هناك رحلة حج ، فلابد أن يكون هناك علماء يحجون فيتلقون علومهم على يد علماء الحجاز ، لاسيما وأن العالم الإسلامي كان يشكل آنذاك وحدة فكرية لها كيان فكرى واحد لايختلف . فالعقيدة صبغت كل نشاط المسلمين بصيغة واحدة ، فليس هناك اختلاف بينهم مهما نأت المسافات (١)

٥- الأمر الخامس : التعلق العاطفي بالمشرق . فالمغاربة والأندلسيون، كانوا يشعرون بأنهم يشكلون الجناح الغربي للدولة الإسلامية ،

---

(١) عن هذا الموضوع والتوسع فيه ، أنظر إبراهيم العبيدي التوزرى : تاريخ التربية بتونس ج١ ، ص ١٤٥ - ١٤٨ .

وهم يرون بالتالي أنه لابد للجناحين من الإلتقاء . ولما كان الجناح الشرقي أسبق علمياً وحضارياً من الجناح الغربي للظروف السياسية والجغرافية والاجتماعية .. الخ كما هو معروف ، فإن الجناح الغربي لايرى غضاضة في التأثر بالجناح الشرقي . بل وكان علماؤه يفتخرون بالإستماع إلى علماء المشرق وخاصة علماء الحجاز .

أما وقد بسطنا الحديث عن الرحلات العلمية من حيث أهميتها ومقاصدها . وموقف المغاربة من ذلك ، فإن من المستحسن هنا أن نعقد حديثاً واسعاً بعض الشيء عن أبرز الذين إرتحلوا في طلب العلم من علماء وأدباء وأطباء المغرب الأدنى في الفترة الزمنية التي تهمنا . وما يتبع ذلك من الحديث من مقاصدهم في رحلاتهم وشيوخهم .. الخ .

فمن أبرز العلماء من رجال القرن الثاني المتقدمين الذين رحلوا إلي المشرق ، أبو خالد : عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى السفياني قاضي إفريقية (في وقته (ت١٦١هـ) فقد رحل إلى المشرق طلباً للحديث ، فروى هناك عن جماعة من التابعين ثم سمع من سفيان الثورى أحد أشهر العلماء العراقيين في وقته وأحد أصحاب المذاهب السنية التي اندرست . وسمع منه سفيان ، وعدد من كبار أصحاب أبي حنيفه (١) .

ومن علماء افريقية المتقدمين ، أبو محمد عبدالله بن فروخ الفارسي

---

(١) أبو العرب التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص ٢٧، ٢٩ – ٣٠– المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٩٦ – ٩٧ – محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكيه في طبقات المالكية ، ص٦١ .

(ت١٧٥، أو ١٧٦هـ) أحد حفاظ الفقه والحديث ، إرتحل إلى المشرق ، فسمع من عدد من علمائه كزكريا بن أبي زائدة التابعي ، ومالك بن أنس ، وسفيان الثوري (١) ، ويقول المالكي (٢) (وكان إعتماده على مالك ، لكنه يميل إلى طريقه أهل النظر والاستدلال ، فربما مال إلى قول أهل العراق لظهور صواب عنده وكان مالك يكرمه ويرى له فضلاً ويقول لأصحابه هذا فقيه أهل المغرب ..) ولقد كان يحضر مجالس مالك بن أنس في المدينة ويفتى بها بطلب وحضور من مالك نفسه (٣) ، ثم رحل إلي العراق ، حيث سليمان بن مهران الأعمش في الكوفه للسماع عليه (٤) . ثم عرج على أبي حنيفة النعمان ، فسمع منه وذاكره ، و ذكر أنه كتب عنه عشرة آلاف مسأله فقهية، وبالإضافة إلى ذلك سمع منه كما ذكر ثلاثمائه حديث (٥). ثم عاد إلى بلاده إفريقية ، غير أنه مالبث أن رحل ثانية إلى المشرق ، فنزل مصر ، ثم غادرها إلى مكة حاجاً ، ثم عاد ثانية إلى مصر فتوفى بها (٦) .

---

(١) أبو العرب التميمي : نفس المصدر ، ص ٣٤ – المالكي : نفسه ، الجزء الأول ، ص ١١٣ – القاضي عياض اليحصبي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود : ج١ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

(٢) نفسه ، الجزء الأول ، ص ١١٣ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ١١٥ – عياض اليحصبي : ترتب المدارك ، ج ١ ، ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ١١٥-١١٦ عياض : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٣٤٤-٣٤٥ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ١١٦ – ١١٧ ، عياض : ص ٣٤٦- ٣٤٣ .

(٦) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٦ – عياض : نفسه ص ٣٤٦- ٣٤٧ .

ومنهم كذلك : علي بن زياد العبسي التونسي أبوالحسن أعجمي الأصل ، طرابلسي المنشأ ، تونسي السكنى (ت١٨٣هـ) . وهو أحد علماء إفريقية المتقدمين و كان له دور مهم في الداسات الفقهية ، وفي ادخال المذهب المالكي إلى إفريقية وهو معلم أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد أشهر فقهاء المغرب الأدنى وأكثرهم تأثيراً في الدراسات الشرعية . وقد رحل علي بن زياد إلى المشرق ، فسمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى ، وعبدالله بن لهيعة (١) . ويقول المالكي (٢) (وهو أول من أخل المغرب « جامع سفيان الثوري » وفسر لهم قول مالك ، ولم يكونوا يعرفونه ، وهو معلم سحنون ، دخل الحجاز والعراق) . ويقول القاضي عياض (٣) (وهو أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان المغرب) . وهو أحد النقاد من أصحاب ماللك بن أنس كما يقول عنه تلميذه أسد بن الفرات (٤) . أما تلميذه الأخر سحنون بن سعيد فيقول عنه : (ما أنجبت إفريقية مثل على بن زياد) (٥) ، وكان يثنى على غزارة علمه ولايعدل به أحداً من المصريين من أصحاب الأمام مالك . وممَّا قاله عنه (ولو أن التونسيين يسألون لأجابوا بأكثر من جواب المصريين) .يريد بذلك : علياً بن زياد وعبدالرحمن بن القاسم . وقال عنه مرة (لو كان لعلي بن زياد من الطلب ما للمصريين ما فاته منهم أحد ،

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥١ – المالكي : نفسه ، ص ١٥٨– عياض نفسه ، ٣٢٦ .

(٢) نفسه ، الجزء الأول ، ص ١٥٨ .

(٣) ترتيب المدارك ، الجزء الأول ، ص ٣٣٦ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٥) عياض : نفسه ، ٣٢٧ .

وما عاشره منهم أحد) (١) .

ومنهم : البهلول بن راشد الحجوي الرعيني ولاءً ، وكان من العباد المشهورين في وقته (ت١٨٣هـ) . وبجانب هذا فقد كانت له مكانة علمية في الفقه ، رحل فسمع من مالك بن أنس ، والليث بن سعد وسفيان الثوري وغيرهم ، وسمع منه جلة من العلماء بإفريقية (٢)

ومن نفس رجال هذه الطبقة ، أبو عبدالرحمن عبدالله بن عمر بن غانم بن شرحبيل بن ثوبان الرعيني ، قاضي إفريقية في وقته (ت١٩٠هـ) وهو ممَّن رحل إلى المشرق ، وممَّن كان له دور علمي بارز ، وقدسمع في رحلته عن كل من مالك بن أنس وسفيان الثوري وأبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة (٣) ، ويقول المالكي (٤) (روى عن مالك وعليه معتمده) وبالإضافة إلى الحجاز والعراق ارتحل إلي الشام (٥) ويقول عياض (٦) (وله سماع من مالك مدون ، إنقطع ، ومنه في المجموعة مسائل ، وسمع الموطأ) . ويذكر كذلك أن له رحلة إلى مصر ، سمع خلالها من عدد من تلامذة الامام

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٢ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٥٢ – المالكي : نفسه ، والجزء ، ص ١٣٢ – عياض : نفسه ، ص ٣٣٠ .

(٣) المالكي : نفسه ص ١٤٣ – ١٣٤ – عياض : نفسه ، ج١، ص٣١٦ – ٣١٧ – تراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضي عياض نفسه، تحقيق محمد الطالبي مع مقدمة وفهارس ص ٨-٩.

(٤) نفسه ، ص ١٤٣ .

(٥) المالكي : نفسه – عياض : نفسه ، ص ٣١٦ .

(٦) نفسه : الجزء الأول ، ص ٣١٧– تراجم أغلبية ،ص ٥ .

مالك المصريين . (١)

وممّن يلحق بهم من رجال القرنين الثاني والثالث ممّن رحل إلى المشرق ، أبو خارجه عنبسه بن خارجه الغافقي (ت ٢١٠هـ) فقد سمع في رحلته من مالك بن أنس وسفيان الثورى والليث بن سعد وعبدالله بن وهب والمغيرة بن أبي عبدالرحمن المخزومي وسفيان بن عيينة (٢) وغيرهم . وقد ذكر (٣) المالكي نقلا عن أبي العرب في طبقاته أن أبا خارجة عنبسة هذا ، هو الذي جاء بجامع سفيان الثوري الصغير إلى المغرب ،في حين جاء على ابن زياد بالجامع الكبير (٤) . وقيل إنه صاحب الامام مالكاً طويلاً ، ولذلك فهو (يروى عن مالك غرائب لم تكن عند غيره) (٥) . وممّا هو جدير بالإشارة إليه هنا أن أبا خارجة هذا ، تنبأ بإضمحلال شأن المذهب الحنفي في إفريقية ، فكان كثيراً مايردد: (لاتمر الليالي والأيام حتى تنمحي كتب أبي حنيفة من إفريقية) . ويعلق المالكي (٦) نقلا عن أحد مصادره الثقات بقوله (فكان كذلك ، فمحاه الله عزوجل بسحنون رضى عنهم أجمعين) .

لكن أبرز رحلات رجال القرنين الثاني والثالث وأعظمها تأثيراً رحلة أسد بن الفرات ورحلة سحنون بن سعيد ، فإليهما ينسب تقدم الدراسات

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٥٨٩ (في إطارترجمة سحنون بن سعيد) .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٧٢ – المالكي : نفسه ، ص١٦٣– عياض : نفسه ، ص ٤٨٦ .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ١٦٣ .

(٤) أنظر بعد ٣٢١ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ١٦٧ .

(٦) نفسه ، ص ١٦٥ .

الفقهية في إفريقية ورسوخ أقدامها هناك ، حتي أصبح للمغرب الأدنى مدرسة في الفقه – مالكية – لاتنافس ، بل هي أشهر مدارس المذهب المالكي الفقهية بعد مدرسة المدينة حسبما سنعرض له بعد إن شاء الله في مكانه .

وأسد بن الففرات بن سنان ، خراساني الأصل ،قيل إنه ولد هناك ، وقيل قدم أبوه إفريقية ، وأمه حامل به (ت١٢٣هـ) ، وأسد بن الفرات في الحقيقة من أعظم وأشهر الفقهاء في إفريقية تأثيراً في الحياة العلمية وخاصة الشرعية منها على وجه الخصوص ، وكان له كذلك دور كبير في انتشار المذهبين الحنفي والمالكي بإفريقية ، وهذا ماسنتبين واقعه بعد . ولعل أبرز وأخص مايهمنا من ترجمة حياة أسد بن الفرات الواسعة ، هو رحلاته العلمية إلى المشرق . والواقع أن أسداً لم يكفه ذلك القدر من العلم الذي تلقاه عن شيوخه في إفريقيه ، فتطلع إلى المشرق ، حيث أساطين الفقه والحديث في الحجاز والعراق ومصر ، فخرج من بلاده عام ١٧٢هـ قاصداً المدينة ، فمكث هناك ثلاث سنوات سمع خلالها من مالك بن أنس موطأه (١) ثم رغب في الزيادة لاسيما وأنه كان ميالاً إلى النظر والرأي ، فأشار عليه الإمام مالك بالرحيل إلى العراق (٢) . وبالفعل فقد رحل إلى هناك ، حيث قابل عدداً من أصحاب الامام أبي حنيفة النعمان وغيرهم ، كأبي يوسف

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٨٢ – المالكي : نفسه ، ص ١٧٣ – عياض : نفسه ، ص ٤٦٥ وهو الوحيد الذي حدد سماعه عن مالك بن أنس بثلاث سنوات ، وهو الوحيد كذلك الذي رد في ص ٤٦٨–٤٦٩ من نفس الجزء على من ينكر ، رحلته إلي مالك وسماعه الموطأ عليه .

(٢) المالكي : ننفسه ، ص ١٧٤ – عياض : ننفسه ، والجزء ، ص ٤٦٦ .

القاضي ومحمد بن الحسن ، وأسد بن عمرو ، ويحيى بن أبي زائدة وغيرهم (١) ، ولقد كان أكثر سماعه على محمد بن الحسن (٢) ، وذكر عياض (٣) ، أن أبا يوسف سمع منه الموطأ وكذلك محمد بن الحسن ، ثم غادر العراق متوجهاً إلى مصر للسماع من تلامذة مالك بن أنس المشهورين : عبدالله بن وهب ، وأشهب بن عبدالعزيز ، وعبدالرحمن بن القاسم (٤) وقد إنقطع أسد إلى ابن القاسم يسمع منه ، وكان قد أحضر معه من العراق مسائل فقهية ضخمة تنسب إلى أبي حنيفة النعمان ، ورغب من ابن القاسم أن يجيبه عليها على مذهب مالك بن أنس . فوافق ابن القاسم على ذلك ، فدون عنه : ستين كتاباً ، هي الأسدية كما سنعرف (٥) أيضاً . وممَّا يدل على مكانة هذه المجموعة الفقهية التي تنسب لأسد ، هو أنه أصبح المعول عليها في الفقه في مصر على المذهب المالكي فيما بعد . أما في إفريقية والمغرب ، فقد أنست مدونة سحنون ذكرها أي ذكر الأسدية ، وأصبح المعول في الفقه كذلك على مدونة سحنون كما سنعرف بعد . (٦)

ومما ينسب إلى أسد بن الفرات أنه كان مدلاً برحلاته العلمية تلك على غيره من العلماء ، وخاصة القاضي : أبو محرز محمد بن عبدالله بن قيس

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٨٢ – عياض نفسه ، س ٤٦٥ .
(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٧٥ – ١٧٨ – عياض نفسه ، ص ٤٦٧ – ٤٦٨ .
(٣) نفسه ، ج١ ، ص ٤٦٥ .
(٤) المالكي : نفسه ، ص ١٧٨ . ١٧٩ – عياض : نفسه ، ص ٤٦٨ – ٤٧٠ .
(٥) أنظربعد ص ٣٢٨– ٣٢٩ .
(٦) أنظر بعد ص ٣٢٩ .

الكناني القاضي ، شريكه في القضاء ، حيث ولاهما : زيادة الله بن ابراهيم ابن الأغلب قضاء إفريقية معاً (١) . فكان أسد كثيراً مايقول ويعرض به : (ضربنا في طلب العلم آباط الإبل ، وأغتربنا في البلدان ، ولقينا العلماء ، وغيرنا إنما طلب العلم خلف كانون أبيه ، ووراء منسج أمه ، ويريدون أن يلحقوا بنا) (٢) .

أما سحنون بن سعيد التنوخي الذي يعد أشهر شخصية فقهية مالكية على الإطلاق في إفريقية خلال الفترة موضع الاهتمام ومابعدها ، والذي سنترجم له ترجمه مستفيضة من خلال الحديث عن إنتشار المذهب المالكي ، وعن الدراسات الفقهية وتقدمها ، فقد كان له كذلك رحلة علمية عظيمة الأثر سنتبين أثرها لاحقاً ، وخاصة إلى مصر لأن رحلته تلك تعد نقطة تحول هامة في الدراسات الفقهية . وقد خرج سحنون في أول رحلة علمية له إلى مصر عام ١٨٨هـ ، وقيل عام ١٧٨هـ (٣) وسمع خلال رحلته إلي مصر والحجاز من عدد كبير جداً من العلماء ، أمثال ابن القاسم، وابن وهب ، وأشهب ، وطليب بن كامل ، وعبدالله بن عبدالحكم وسفيان بن عيينة ، ووكيع

---

(١) المالكي : نفسه ، ص١٥٨ - عياض : نفسه ، ص ٤٧٦ . وقد أشار وحده إلى تاريخ توليته للقضاء فقال إن ذلك حدث في سنة ثلاث أو أربع ومائتين .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٨٣ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٠٢ - المالكي : نفسه ، ص ٢٥٠ - عياض : نفسه ، ص٥٨٦ (وهو الذي أشار إلى القولين الآنفين في المتن عن سنة خروجه وقد ذكر عياض في ص ٨٥٧ أن الذي أشار إلى عام ١٧٨ هـ هو ابن سحنون محمد بن سحنون ، ويظهر أنه قد أخذ بهذا التاريخ وأن كان لم ينكر التاريخ الأول وهو عام ١٨٨هـ . ويقول بأنه ربما كان لسحنون رحلتان في التاريخين المذكورين في المتن) .

ابن الجراح وغيرهم من العلماء ممّا يطول بنا (١) ذكر تقصيبيهم . ولقد أقام سحنون في رحلته العلمية هذه خمس سنوات (٢) . وممّا ينسب إليه من مقدار شغفه بالعلم أنه قال ذات مرة (إنغلقت على مسألة حتى أردت الرجوع فيها إلى المدينة حتى اتضحت لي) (٣) . وقد رحل خلال ذلك إلى الحجاز في معية ابن القاسم وابن وهب وأشهب تلاميذ مالك المصريين وكان يحرص في كل وقته على تلقى المسائل من هؤلاء وخاصة ابن القاسم (٤) . ومما حفظ عن ابن القاسم في حق سحنون ترديده دائما قوله (ماقدم علينا من إفريقية ، مثل سحنون لا ولا ابن غانم) (٥) .

أما أبرز علماء القرن الثالث الذي كانت لهم رحلات علمية هامة فقد كانوا كذلك كثيرين ، غير أن أهم واشهر تلك الرحلات ، كانت رحلة محمد ابن سحنون ، ابن سحنون نفسه (ت٢٥٦هـ) عالم إفريقية المبرز أبيه ، والذي يهمنا الآن من ترجمته هو الإشارة إلى أنه كانت له رحلات علمية إلى المشرق ، قابل خلالها عدداً من ألمع العلماء المعاصرين له آنذاك كأبي المصعب الزهري صاحب مالك بن أنس ويعقوب بن حميد بن كاسب ، وسلمة

---

(١) عن العدد الكبير من العلماء الذين لقبهم سحنون في رحلته للمشرق ، أنظر أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٠٢ – المالكي : نفسه ، ص ٢٥٠ – عياض : نفسه ، ص ٥٨٦– ٥٨٧ .

(٢) قال عياض : نفسه ، ص ٥٨٧ عن سحنون نفسه : (.. وخرجت إلى ابن القاسم ابن خمس وعشرين ، وقدمت إفريقية ابن ثلاثين سنة) .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٥٨٨ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٢٥٠ – ٢٥٣ – عياض : نفسه ، ص ٥٨٥– ٥٩٢ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٢٥٣ – عياض : نفسه ، ص٥٨٩ .

ابن شبيب وغيرهم وكانت رحلته (١) تلك في عام ٢٣٥هـ .

ومنهم كذلك ، أبو العباس : عبدالله بن طالب بن سفيان بن سالم التميمي من أبناء عمومه الأمراء الأغالبة أمراء إفريقية وقتذاك (ت٣٧٥هـ) . له رحلة إلى مصر ، فسمع من عدد من العماء ومن أبرزهم : محمد بن عبدالحكم ، ويونس بن عبد الأعلى وغيرهما . (٢) .

ومن رجال هذا القرن كذلك عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج الإفريقي قاضي البلاد وقتها (ت٢٩٥هـ) . له رحلة إلى الشام ، حيث سمع من أحد علمائها وهو أبو جعفر الآيلي ، وبمصر من الحارث بن مسكين ، وأبي الطاهر ، محمد بن المواز ، ويونس الصدفي ، ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم (٣) ، وغيرهم .

ومن علماء هذا القرن - أي . الثالث - الآخرين ، أبو سهل فرات بن محمد العيدي (ت٢٩٢هـ) ، وكان عالماً فاضلاً ،فقيهاً محدثاً ، عارفاً بأسماء الرجال وأنسابهم له رحلة ، سمع خلالها من كبار أصحاب الإمام مالك بن أنس (٤) .

ومنهم كذلك زيدان بن اسماعيل بن زيدان الواسطي الأزدي السوسي (ت ٢٩٣ أو٢٩٢هـ) له رحلة إلي المشرق حيث سمع من هاشم بن عمار

---

(١) عن رحلاته وأخبارها الواسعه ، أنظر المالكي : أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٤٦، ٣٥٠ -٣٥٢- عياض : انفسه الجزء الثاني ، ص ١٠٧ - ١٠٨ -١١٣ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٣٧٥- عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٩٤ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص١٤٢ عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٢ .

(٤) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ص ٧٢ .

الدمشقي ، وابن أبي الحوارى ، وسلمة بن شبيب وعبدالوهاب ابن غياث وغيرهم . (١)

ومن رجال القرنين الثالث والرابع ممّن يلحق بهم ، أي بعلماء القرن الثالث الهجرى ، العالم الفقيه المحدث : لقمان بن يوسف الغساني (ت٣١٩هـ) له رحله إلى مصر ، وأخذ خلالها علىّ بن عبدالعزيز ، ويحيى بن أيوب الغالب وغيرهما . (٢)

أما علماء القرن الرابع الهجرى فقد تناقصت رحلاتهم إلى المشرق بفضل ماشاع من العلم في ربوع المغرب الأدنى ، ونقصد علم الفقه لأنه أهم ماميّز الدراسات الشرعية في الفترة موضوع الرسالة .

ولكن ومع تناقص الرحلات العلمية خلال هذا القرن ، إلاّ أنها لم تنعدم ولم تنقطع بفعل ماذكرنا من الأسباب آنفة الذكر، ثم لأن هذا القرن الرابع ، عرف علماء أقطاب في الفقه لهم مكانتهم التي حفلت بها كتب التراجم ، والفقه . فمن أبرز علماء هذا القرن عبدالله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي (ت ٣٤٦هـ) فلقد كانت له رحلة إلى مصر ومكة وجدة بالحجاز ، سمع خلالها من عدد من العلماء وخاصة المالكية منهم ، مثل محمد بن ابراهيم الوايلي . وابن الأعرابي ، وابن أبي مطر (٣) وغيرهم . ومن علماء هذا القرن أبو العباس عبدالله بن أحمد بن ابراهيم

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣١١ – محمد بن محمد مخلوف نفسه ، ص ٨١ .

(٣) عياض : نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٣٤١ – ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص ١٣٥ .

الابياني (ت٣٥٢هـ) (١) .

على أن أشهر وأبرز من رحل في طلب العلم من علماء هذا القرن ، كان أبو محمد عبدالله بن أبي زيد النفزي القيرواني ، وهو من علماء هذا القرن المتأخرين (ت ٣٨٦هـ) المعدودين ، وكان غزير العلم والمعرفة ، حتى أنه عرف بمالك الصغير ، وكانت له رحله حج وسمع خلالها من عدد من العلماء منهم ابن الأعرابي ، وابراهيم بن محمد بن المنذر ، وأبي هلال علي ابن أبي هلال (٢) وغيرهم .

وممّن يلحق بهم من رجال القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، ممّن له رحلة علمية مهمة أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري (ت ٤٠٣هـ) ، وهو واحد من أشهر فقهاء ومحدثي المغرب الأدنى وقتذاك . وقد سمع في رحلته تلك من عدد من العلماء المشهورين بمصر وغيرها مثل : أبو الحسن بن أبي هلال ، وأبو الحسن بن الطمان ، وحمزة بن محمد الكناني ، وأبو الحسن التلباني وغيرهم عدد (٣) آخر كثير.

ومن العلماء الذين قضوا شطراً من عمرهم في منتصف القرن الخاسم الهجري ، ممن كان له رحله : أبو الحسن على بن المنمر الطرابلسي (ت٤٣٢ هـ) وهو من أشهر علماء طرابلس في وقته وقد سمع خلال رحلته

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٤٧ ، ٣٤٩ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٤٩٣ – محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٦١٦ = الدباغ – نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٤ – ١٣٥ ، محمد بن محمد مخلوف : نفسه .

إلى مكة من عدد من العلماء منهم أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الجوهري (١) .

ومنهم كذلك العالم المشهور في المتأخرين في هذه الفترة التي تهمنا ، أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن (ت٤٣٢هـ) وهو شيخ فقهاء عصره . فلقد كانت له رحلة إلى المشرق ، سمع خلالها من أبي بكر محمد بن بكر العالي وأبي القاسم عبدالرحمن بن محمد الجوهري (٢) وغيرهما .

ونذكر كذلك أبا عمران ، موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي أصلاً القيرواني الدار والمسكن (ت ٤٣٠هـ) ، فلقد كانت له رحلة إلي مصر والعراق ، فسمع من عدد من علمائها مثل أبي الفتح بن أبي الفوارس ، وأبي الحسن على بن أبراهيم ، وأبي بكر الباقلاني ، وأبي ذر الهروي وغيرهم (٣) .

وفي اعتقادنا أن في هذا القدرمن تتّبع رحلات الفقهاء العلمية مايكفى ويغنى ، أما عن رحلات علماء الحديث إلى المشرق خلال تلك الفترة ، فلم تكن كثيرة ، كما لم تكن مقتصرة على الحديث وحده ، وذلك نظراً لأن هناك من جمع بين الفقه والحديث في رحلته ، وقد سبق أن ذكرنا بعضهم كعيسى بن مسكين ، ولقمان بن يوسف الغساني ، وأبي الحسن القابسي

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ،ص ١١٠،– على مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس – تراجم ودراسات ص ٢٣ ومابعدها .

(٢) المالكي : نفسه ، مقدمة المحقق ، ص ٤٧م – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص١٠٧ .

(٣) غياض : نفسه ، ص ٧٠٢ – ٧٠٣ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٦ .

قبل قليل ، ونشير الآن إلى غير هؤلاء ممّن أشتهر برحلاته العلمية في طلب الحديث . ويأتي على رأس من ذكر تخصيصاً أن له رحلة في طلب الحديث ، مالك بن عيسى القفصي (ت٣٠٥هـ) وهو من أشهر المحدثين في إفريقية في الفترة موضوع البحث (١) . ولقد بلغ من إهتمامة بالحديث أنه كاد يحول وجة الدراسات الشرعية في إفريقية من الفقه إلى الحديث كما سنعرض له بعد إن شاء الله .

أما علماء القرآآت ، فقد كانت لهم كذلك رحلات مهمة طلباً للقرآءات والتفسير . ولقد كانت أكثر رحلاتهم العلمية إلى مصر لاختصاصها بعدد من البارزين في علمي القرآءات والتفسير ، وسنكتفي بالإشارة إلي أشهرهم علماً ورحلة فمن أولئك ، ربيع بن سليما ن بن عطاء الله أبو سليمان القطان الذي كان من علماء القراءات المعدودين في حقل التأليف (ت٣٣٣هـ) فلقد كانت له رحلة إلى مصر ، حيث سمع من عدد من علمائها ، وبمكة من أبن شاذان الجلاب (٢) وغيره . ومنهم محمد بن سفيان القيرواني الفقيه المقرئ الحاذق (ت٤١٥ هـ) ، وقد كان من أبرز رجال القرآءات : قرآءةً وتأليفا ، ويذكر أنه أقام في رحلته الأخيرة إلى المشرق في مكة ثم المدينة حيث توفى بها (٣) . ثم مكي بن أبي طالب حموش بن أبي محمدبن مختار (ت٤٣٧هـ) أحد أشهر وأبرزرجالات القرآءَت لا في القيروان فحسب ، وإنما وفي

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفس ، ص ٨٠ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤ ، محمد بن محمد مخلوف : نفسه أعلاه ، ص ٨١٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٧١٢- ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص ٢٧١- محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

الأندلس التي استوطنها ، ولقد كانت له رحلات علمية طاف خلالها أقطار المشرق كالعراق ومصر والحجاز (١) . ويعد من أغزر رجال القراءات تأليفاً حسبما سنشير إليه مفصلاً في موضعه إن شاء الله . ومنهم كذلك مقرئ مشهور متأخر هو على بن فضال المجاشعي القيرواني (ت ٤٧٩هـ) ، كانت له رحلة كذلك إلى عدد من أقطار المشرق كالعراق وخراسان وغيرهما ، وقد ظل في رحلته إلي بغداد التي خرج إليها حتى أدركته الوفاة هناك (٢) .

ويحسن بنا قبل أن نغادر الحديث عن الرحلات العلمية للعلماء المغاربة ودورهم في تقدم الدراسات الشرعية ، أن نلقى الضوء على رحلات علماء الاباضية إلى المشرق . والواقع أن الدراسات الفقهية الإباضية كانت بحاجة سواء في جبل نفوسة أو في إقليم الجريد إلى رحلات علمية إلي المشرق وخاصة البصرة بالعراق للاستزادة والتبحر في الفقة الإباضي وأصوله وقواعده من أفواه شيوخ الإباضية اللامعين ولذلك فقد رحل إلى هناك عدد منهم خلال القرون موضع الاهتمام ، ثم عادوا إلي مساقط رؤوسهم يحملون علماً غزيراً هيأ لهم هناك مكانة عالية . وبجهودهم تلك ، نشطت الدراسات الفقهية نشاطاً كبيراً كما سنلمع إليه بعد ذلك .

وتمدنا المصادر بأسماء عدد كبير من أولئك العلماء الإباضية ، نكتفي

(١) القفطي : أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الجزء الثالث ، ص ٣١٣ - ٣١٤ - ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) الداودي : طبقات المفسرين الجزء الأول ، ص٤٢١ - السيوطي : طبقات المفسرين ، الجزءالأول ، ص ٢٣- ٢٤ .

بذكر أشهرهم وأبرزهم رحلةً وعلماً ، فمن أوائل من رحل إلى البصرة حيث قابل أشهر شيوخ الإباضية : محمد بن عبدالحميد بن مغطير النفوسي الجناوني ، وكانت رحلته قبل عام ١٣٥هـ (١) .

ومنهم كذلك اسماعيل بن ضرار (أودرار) الغوامسي ، فقد رحل إلى البصرة ، وتتلمذ على يد أبرز شيوخ الإباضية في وقته وهو أبو عبيده بن أبي كريمة ، وقد مكث هناك خمسة أعوام ، ومّمايذكر عن مقدار علوكعبه في الفقه الإباضي أنه ألقى على مسامع شيخه حوالي ٣٠٠ مسألة عويصه في الفقه الإباضي (٢) ثم نفات بن نصر النفوسي ، وهو من أبرز علماءالإباضية حتى نسبت إليه فرقة منهم . رحل إلى العراق ، وقابل كثيراً من شيوخ الإباضية وتلقى على أيديهم العلم ، ممّا جعل له مكانة علمية مرموقة (٣) .

أما فيما يختص بالدراسات الأدبية والرحلات التي تمت بصددها ، فإننا وإن كنا لم نعثر على رحلات علمية لأعلامها إلى المشرق . إلاّ أننا لانستبعد أن يكونوا قد رحلوا إلى هناك حيث النشاط الأدبي الواسع ، ولانستبعد كذلك ألاّ تكون البلاطات الأدبية المتناثرة في عواصم الثقافة بالمشرق قد استهوتهم .

---

(١) أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي ، ص ١٣٣ .

(١) أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا ، ص ١٣٣ .

(٢) أحمد مختار عمر : نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ - ١٣٥ - علي يحيى معمر : الأباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

وعلى أية حال فإننا لم نعدم إشارات عدة لبعض رحلات الأدباء واللغويين والشعراء المغاربة ، ولعل أول اسم يطالعنا هو اسم خالد بن ربيعة الإفريقي (كان حياً سنة ١٤٠هـ) الكاتب الذي كان له دور معروف في تقدم الكتابات الرسمية أو مايعرف بديوان الإنشاء ، إذ يذكر أنه ارتحل إلى المشرق وبالذات الشام حيث التقى هناك بعبد الحميد الكاتب زعيم كتاب الإنشاء وحامل لوائهم : فخالطة واستفاد من بلاغته (١) . ولا يعرف للأسف تاريخ ولادته ولاوفاته ، وإن كان حسن حسني عبدالوهاب يشير إلى أنه كان حياً عام ١٤٠هـ كما ذكرنا .

ومن علماء اللغة والنحو ، نجد رحلة لبكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي (ت٢٩٦هـ) أحد أشهر الأدباء والشعراء اللغويين في المغرب كله ، وهو وإن كان من أبناء المغرب الأوسط ، إلاّ أنه عاش لفترة طويلة في القيروان حتى عد واحداً من أهلها .وسنترجم له بعد إن شاء الله . والمهم أن له رحلة علمية إلى المشرق وخاصة بغداد ، حيث قابل هناك جمعاً عظيماً من علماء ولغوى وشعراء العراق المشهورين كالشاعر أبي تمام ، ودعبل الخزاعي وعلى بن الجهم ، وابن حاتم السجستاني وغيرهم (٢) .

ولدينا أيضا ذكر لرحلة شاعر آخر ، بل لغوى ونحوي في المقام الأول وهو أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز القيرواني

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، القسم الأول ، ص١٥١-١٥٢ .

(٢) محمد بن عمرو الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ص ٣٢ .

(ت٤١٢هـ) الذي سنترجم له بعد وقد رحل إلى العراق حيث قابل هناك عدداً من علماء اللغة وغيرهم ، وعلى رأسهم أبو على الحسين بن ابراهيم الآمدى وغيره . (١) .

وفي حقل الدراسات أو العلوم الاجتماعية فلا نتوقع أن تكون هناك رحلات علمية في مجاليها : التاريخ والجغرافيا ، بحكم الندرة الشديدة في المعلومات عنها كما سنشير إلى ذلك في مكانه إن شاء الله .

وأما العلوم التجريبية فلم تكن هناك ، رحلات كثيرة في حقولها المختلفة ، فقد إعتمدت النهضة العلمية للعلوم التجريبية على مجهودات العلماء من الأطباء والرياضيين والفلكيين الوافدين ، وكذلك العلماء المحليين الذين أخذوا عنهم كما سنتبين ذلك بالتفصيل لاحقاً .

بيد أننا لم نعدم ذكراً لبعض الرحلات العلمية التي قام بها بعض الأطباء والكيمائيين المغاربة ، مثل اسماعيل بن يوسف المعروف بالطلاء المنجم (٢)، وهو من مشاهير الكيميائيين المغاربة ، فقد كان له رحلة إلى العراق والشام ومصر طلباً للمزيد من العلم في حقل تخصصه الكيمياء ، وقد كانت له بعد ذلك جهود واسعة سنوضحها في مكانها إن شاء الله . ومن الأطباء الذين إرتحلوا إلى المشرق ، أحمد بن يونس وشقيقه عمر أبناء يونس الحراني كما أشار إلى ذلك ابن جلجل في كتابه :

---

(١) المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص٩ ، ٢٣-٢٤ ، ٣٣ .

(٢) الزبيدي الأندلسي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٤١ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات، القسم الأول ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

طبقات الأطباء والحكماء (١) .

وقيل أن نختتم الحديث عن الرحلات العلمية و أبرز رجالاتها في مختلف الحقول والتخصصات ، لابد لنا من التنبيه على أن كل هذه الرحلات العلمية كان لها دورها العظيم في تقدم الدراسات العلمية والثقافية ، ولكن هذا الدور في الحقيقة لم يكن وحده الذي أسهم في تقدم الحياة العملية في إفريقية خلال الفترة موضوع البحث ، وإنما كان لمجهودات العلماء الذين لم يرحلوا إلى المشرق – وهم كثيرون – دورها العلمي والثقافي جنباً إلى جنب مع عامل الرحلات العلمية هذا .

---

(١) ص ٢٠٧ .

الفصـــــــل الثـاني

المراكز العلميه الرئيسية في إفريقية (المغرب الأدنى)

- القيروان
- العباسية وصبرة
- رقادة
- تونس
- المهدية
- سوسة
- إقليم الجريد – قسطيلية (توزر – قفصه – نفطة – قنطرا)
- طرابلس

عمت النهضة العلمية بكافة أوجه معارفها - والتي سنأتي على ذكر تفاصيلها بعد - جل مدن إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، وأضحت الكثير من مدنها مراكز مهمة للثقافة والعلوم . ولقد تبارت تلك المدن في اهداء أنبغ علمائها وأدبائها وأطبائها إلى هذه البلاد . غير أن مدينة القيروان كانت تستأثر بالكثير منهم ، بحكم كونها مركز جذب عظيم ، استمدته من واقعها كعاصمة ، روحية وسياسية وعلمية ، بجانب كونها قاعدة عسكرية للبلاد أيضاً . علي أن نفراً من أولئك العلماء والأدباء والأطباء قاوم عوامل الإغراء والجذب التي كانت تشعها العاصمة القيروان ، فتحيزوا لمدنهم وآثروا البقاء فيها . وكان هذا من حسن الحظ ويمنه ، إذ ظل هؤلاء ينشرون علمهم وأدبهم بين الناس في مدنهم ، وشكلوا بالتالي روافد ثقافية أخري تصب بجانب رافد القيروان الثقافي المميز في قناة النهضة العلمية لإفريقية خلال تلك الفترة .

وثمة آمر آخر يقتضيه هذا التقديم ، وهو أن مدن إفريقية لم تكن كلها مراكز علمية بالضرورة ، فقد كانت هناك مدن وأقاليم قدر لها أن تكون دون غيرها مراكز مهمة للثقافة والعلوم ، أمّا بسبب موقعها الروحي ، أو الجغرافي ، أو السياسي ، أو المذهبي . وكانت هناك مدن أخرى جاءت مشاركتها ضئيلة في الحياة العلمية .

القـــــــــــيروان :

لقد تهيأ للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب كله والأندلس لفترة من الفترات . وقد بناها عقبة بن نافع عام ٥٠هـ كما هو معروف لتكون قاعدة لتثبيت الفتح ، والانطلاق غرباً لمواصلة الفتوحات ، ولكي تكون مركزاً لنشر الإسلام واللغة العربية ، وهو ماقاله عقبة بن نافع وهو يضع حجر أساسها من أنه يرجو أن تكون (عزاً للإسلام إلى آخر الدهر) (١) . والواقع أن هذا القائد الكبير لم يضع حجر الأساس لمدينة القيروان فحسب ، وإنما أسهم في تقوية أسس وحدة المغرب العربي ببنائه للمدينة ، نظراً للدور المهم الذي لعبته مدينة القيروان في تاريخ حضارة المغرب العربي (٢) .

ومنذ البدء ، أحيط بناؤها بالإجلال والتبجيل ، ونسبت إلى عقبة بن نافع أمور غيبية عدت بمثابة كرامات له ، مثل خروج السباع والحشرات ، والهوام من أماكنها ، عندما أزمع الفاتح الباني على تشييد مدينته على هذه الأرض المهجورة ، وكذلك عندما وفق في تحديد مكان القبلة لجامعها أو جامعة هو (٣) . ومع مرور الزمن تضخمت الرواية عند المغاربة بصفة خاصة ، فأصبح ينظر إلى عقبة بن نافع نظرة إجلال ارتفعت به إلى مصاف

---

(١) ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص١٩ .

(٢) الحبيب الجنحاني : القيرواني عبر عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي، ص ٣٣ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٦–٨– ابن عذارى : نفسه والجزء ، ص ١٩– ٢٠ – سعد زغلول عبدالحميد: نفسه ، ج٢، ص١٨٤ – ١٨٦ مع الحواشي – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ١١٦– ١٢٠ مع الحواشي .

الأولياء (١) .

وكما أحيط عقبة بهذه النظرة التبجيلية ، أحيطت المدينة نفسها بالنظرة ذاتها بسبب مشاركة أعداد من الصحابة في بنائها الأمر الذي أضفى على المدينة هذه النظرة ، فالدباغ صاحب كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (٢) يقول عن القيروان مانصه : (أما القيروان فهي البلد الأعظم ، والمصر المخصوص بالشرف الأقدم . قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب ، وقطرهم الأفخر الذي أصبح لسان الدهر ، عن فضله يعرب ، وبشرفه يغرب قرارة الدين والإيمان ، والأرض المطهرة من رجس الكافرين وعبادة الأوثان . فقبلتها أول قبلة رسمت في البلاد المغربية ، وسجد لله فيها سراً وعلانية . ناهيك بأرض كانت منازل أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومحط رحالهم ومعقلهم للإسلام ، المقصود إليها بسيرهم وأثقالهم ، والبقعة التي تخيروها مقراً للإسلام والمسلمين ، مصراً مؤسساً على التقوى إلى يوم الدين ، دار هجرة المغرب ... الخ) .

والشاعر أبو القاسم الفزاري الذي سنترجم له بعد يؤكد هو الآخر علي الطابع الديني لمدينة القيروان ، فهي المدينة التي بناها أصحاب الرسول ﷺ ، وحسبها بذلك فخرا (٣) .

---

(١) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٨٤-١٨٥ مع الحواشي - السيد عبدالعزيز سالم نفسه والصفحات والحواشي .

(٢) الجزء الأول ، ص ٦-٧ .

(٣) وردت تلك الأبيات التي يؤكد فيها الشاعر أبو القاسم الفزاري على طابع مدينة القيروان الديني ، ويتغني بفضائلها وأمجادها الروحيه وغيرها في القصيدة الرائية التي هجا فيها الفاطميين =

وهذا شاعر آخر ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري القيرواني الضرير - الذي سنترجم له بعد أيضا - يشير كذلك إلى هذا الطابع الديني لمدينته ، فنظم الشعر في ذلك مفتخرا بها (١) .

والواقع أن نظرة الاجلال والتبجيل التي أحاطت بالمدينة ، حدت إلى أن ينظر إليها أهلها على أنها تمثل في مكانتها الإسلامية المدينة الرابعة بعد مكة والمدينة ، وبيت المقدس . فالدباغ يقول أيضا (٢) نقلا عن أحد شيوخ مدينته قوله : (مازلت أبحث في الآثار والأخبار ، إلى أن وجدت أن القيروان رابعة الثلاثة : المدينة ومكة وبيت المقدس والقيروان ، وقد دعا لها كبار الصحابة ممَّن شهد بدراً وبايع بيعة الرضوان) . والشاعر الحصري القيرواني الضرير الذي أشرنا اليه آنفاً يشير في قصيدة له (٣) إلى نفس هذا المعنى الذي أشار اليه الدباغ وغيره .

= ومدح بها الثائر البربري الخارجي أبا يزيد بن مخلد بن كيداد الذي خرج على الخلافة الفاطمية . والقصيدة في الأصل تعتبر من قصائد الفخر . وقد افتخر فيها بالقيروان في معظم أبيات القصيدة . عن الأبيات تلك والقصيدة ، أنظر الدباغ : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٢-٢٣- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعراء المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٨٩-٩٢ - محمد البعلاوي : شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية . مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١٠ ، السنة ١٩٧٣م ، ص ١٢٢ - ١٢٥ .

(١) من القصيدة التي رثى بها مدينة القيروان عندما سقطت في يد بنى هلال ، وبني سليم عام ٤٤٩هـ ، عن الأبيات تلك والقصيدة أنظر محمد المرزوقي الجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني حياته عصره رسائلة دواوينه ، ص ١٢٥- ١٢٧ .

(٢) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، الجزء الأول ، ص ٦-٧ .

(٣) أنظر محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيرواني ، ص ١٢٦ .

وفي الحق فلو أن أولئك المؤرخين والعلماء والأدباء من أبنائها نظروا إلى الحقيقة التاريخية ، وهي أن القيروان كانت بدون ريب رابع مدنية إسلامية تؤسس للمحافظة على الفتوحات الإسلامية ، ونشر الإسلام والدراسات الإسلامية في الأمصار المفتوحة بعد الكوفة والبصرة والفسطاط لكان ذلك أصدق وأبلغ . فقد كانت القيروان تقوم بنفس الدور السياسي والعسكري والديني والعلمي الدي قامت به الكوفة والبصرة والفسطاط . بيد أن دور القيروان في الواقع كان أشمل وأعمق ، لأنها تفردت تقريباً بالدور العلمي في بلاد المغرب في الفترة الزمنية موضع الاهتمام .

ومهما يمكن من أمر ، فإن الشئ الدي لايمكن نكرانه ، هو أن تأسيس القيروان ، كان حدثاً من أجل الأحداث التي أثرت ليس في تاريخ وحضارة المغرب الأدنى ، وإنما والغرب كله .

ولقد أضحت القيروان منذ تأسيسها العاصمة السياسية للمغرب كلة والأندلس ، وظلت كذلك إلى أن بدأت خريطة المغرب والأندلس السياسية تتغير فانفصلت الأندلس عنها (١) ، وفي وقت لاحق : المغرب الأقصى بتأسيس الدولة المدرارية فالادريسية ، وانفصل كذلك المغرب الأوسط بتأسيس بتأسيس الدولة الرستمية في تاهرت ، كما أنها أخذت تفقد قيمتها السياسية بتأسيس العواصم السياسية المتلاحقة للدول المستقلة في إفريقية : العباسية – رقادة – المهدية – صبرة (المنصورية) . غير أنها

---

(١) بتأسيس الدولة الأموية عام ١٣٨هـ ، ٧٥٥ م على يد عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان ، المعروف بعبد الرحمن الداخل كما هو معروف .

مالبثت أن استردت مكانتها السياسية عندما عادت في وقت من الأوقات إبان حكم الصنهاجيين ، العاصمة السياسية لإفريقية والمغرب في الفترة التي أعقبت انتقال الفاطميين إلى مصر .

ولئن فقدت القيروان بعض إشراقها السياسي كعاصمة في خضم تلك الأحداث التي أفضت إلى تأسيس عواصم جديدة مع انفصال الأندلس والمغربين : الأوسط والأقصى عنها ، إلاَّ أنها مافقدت يوما مكانتها كعاصمة ثقافية ، ومركز علمي رئيسي في بلاد المغرب كلها . ذلك أنها أصبحت منذ تأسيسها وحتى سقوطها في يد قبائل بني هلال وسليم في منتصف القرن الخامس الهجري ، العاصمة العلمية الكبرى في المغرب الأدنى والمغرب كله . فلقد تبوأت مركزها العلمي الريادي قبل أن يقع فتح الأندلس ، وقبل أن تؤسس عواصم العلم والمعرفة في بقية أنحاء المغرب ، تونس ، وتاهرت ، وتلمسان ، وفاس ، ومراكش ، وحل بها بعض الصحابة وكثير من التابعين وتابعيهم ، ونشروا فيها العلوم الدينية في مجالاتها المختلفة ، وتوافد عليها كبار الأدباء واللغويين والنحاة حسبما سنعرف بعد لاحقا . ولقد بلغت من المكانة الفقهية ، أن أصبح لها مدرسة فقهية نافست غيرها من مداس الفقه المالكي ، وذلك عندما أنجبت عدداً من كبار الفقهاء الذين أصبح ينظر إليهم بوصفهم رموزاً علمية عالية ، مثل سحنون بن سعيد وغيره . وفي الأدب بمجالاته المختلفة أهدت إلى العربية أساطين الأدباء والشعراء واللغويين والنحاة الذين عدوا رموزاً لما أنتجته العبقرية الإسلامية، مثل ابن رشيق وابن شرف وابراهيم الحصري ، وعلى بن عبدالغني الحصري القيرواني

صاحب أجمل قصيدة غزلية وهي قصيدة : ياليل الصب ، التي عورضت ولاتزال حتي اليوم ، ومثل القزاز العالم اللغوي والنحوي المشهور الذي تعدت شهرته حدود القيروان وإفريقية ، وفي الطب مازال لاسم ابن الجزار نظرة احترام وتقدير حتي الآن .

ولقد تنامى دور القيروان العلمي في العصر الأغلبي ، وظهرت فيه بصفة خاصة خصائص المدرسة الفقهية القيروانية التي قاد نهضتها وقعَّد لها القواعد الفقيه سحنون بن سعيد . ويصف محمود اسماعيل عبدالرازق (١) دور القيروان في العصر الأغلبي بقوله (والحق أن القيروان في العصر الأغلبي حظيت بمكانة مرموقة في الحياة الثقافية ، حتى غدت مركزاً للحضارة الإسلامية في المغرب ، وأضحت كعبة بقصدها طلاب العلم والعلماء من الشرق والغرب على السواء ، وصارت همزة الوصل بين حضارة المشرق الإسلامي والأندلسي) .

وفي العصر الفاطمي لم تفقد القيروان اشعاعها الثقافي ، إذ تعاظم دورها وتنامى حين تصدى علماؤها لعلماء الإسماعيلية في المهدية الذين كانوا يستمدون قوتهم من الخلفاء الفاطميين ، وتصدى بعض أدبائها أيضاً لأدباء الفاطميين ، الذين كانوا يروجون لافكار الشيعة الإسماعيلية حسبما سنعرف بعد .

أما العصر الصنهاجي فقد كان بحق أزهى عصور الثقافة ، وزهت القيروان بمكانتها العلمية والسياسية التي استعادتها ، وظلت طيلة العصر

---

(١) الأغالبة – سياستهم الخارجية ، ص ٤٤ .

الصنهاجي الأول (١) تتزعم الحركة العلمية بكافة أوجه معارفها ، وإن كان قد غلب على الحياة العلمية وقتها النشاط الأدبي أو الدراسات الأدبية ، كما سنعرف لاحقاً بعون الله .ولقد دفعت المكانة العلمية هذه التي بلغتهاالقيروان في الفترة الزمنية موضوع الرسالة إلى أن يتعصب أبناؤها لها ، ويرون أن مدينتهم فاقت في قيمتها العلمية كثيراً من المدن والأمصار الإسلامية . إذ فاقت في نظرهم مصر وبغداد . فالشاعر أبو القاسم الفزاري ، الذي عرضنا له من قبل يقول في نفس القصيدة التي هجا فيها الفاطميين ، ومدح بها الثائر أبي يزيد ، وهو في الحقيقة لم يمدح سوى مدينته القيروان يؤكد على أن القيروان فاقت بغداد ، بل ان بغداد يجب أن لاتقارن بها ، ويتساءل بقوله كيف له أن يقيس بغداد عليها ، والشهور لاتقاس عادة بالسنين (٢) ؟ وشاعر القيروان المشهور ابن رشيق يقول من قصيدة يرثى بها مدينته القيروان بعد سقوطها على يد الهلاليين ، إن القيروان زهت في مكانتها العلمية على مصر وبغداد معا . (٣)

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة وتحيز ، فإنه لايمكن تجاهله ونكرانه في التدليل على مقدار مابلغته النهضة العلمية لهذه المدينة . وعلى

---

(١) أي حتي سقوط القيروان في منتصف القرن الخامس الهجري الذي به ينتهي العصر الصنهاجي الأول ، ليبدأ العصر الصنهاجي الثاني في مدينة المهدية بعد ذلك حتى سقوط الدولة الصنهاجية الفعلي نهائياً بيد الموحدين ، عن ذلك أنظر قبل ص ٧٤ ومابعدها .

(٢) أنظر قبل حاشية (١) ص١٤١ .

(٣) عن هذه الأبيات وتلك القصيدة ، أنظر عبدالعزيز الميمني السلفي الراجكوتي : النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف ص ٧٣- ٨٠ .

أية حال فإن مما يؤكد على عظم مكانة القيروان العلمية أنها كانت قمينة بأن يؤلَّف في نهضتها العلمية مصنفات عديدة حتى الوقت الحاضر . فالمالكي يصنف كتابه : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، وفيه تراجم لبضع عشرات من الفقهاء والعلماء بها . والدباغ يؤلف موسوعة بعنوان : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان . ويأبى أحد أبناء القيروان ، وهو أبو الفضل بن ناجي التنوخي إلاَّ أن يتقصى مافات الدباغ من تراجم ، فيكمل الكتاب ويزيد عليه تراجم من اختياره – ويزايد عليهما – إن صح هذا التعبير – أحد أبناء القيروان المتأخرين ، وهو محمد بن صالح القيرواني الكناني (ت١٣٠٢هـ) فيؤلف كتابا بعنوان : تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم القيروان ، يستدرك فيه تراجم فاتت الدباغ وابن ناجي ، مع تراجم لاحقة لهما .

وفي الأدب والمسيرة الأدبية والشعرية يؤلف ابن رشيق شاعر القيروان المشهور ، – الذي سنترجم له بعد – كتاباً بعنوان : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، يترجم فيه لبضع عشرات من شعراء القيروان المعروفين في وقته ، وفي العصر الحديث نجد بعضاً من الباحثين المحدثين يخصها بمصنفات تتحدث عن العلم والأدب بها . فهذا حسن حسني عبدالوهاب يصنف : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، وهذا أبو القاسم كرو وزميله عبدالله شريط يصنفان : عصر القيروان . وهذا محمد العروسي المطوي يصنف كتاباً بعنوان : سيرة القيروان – رسالتها

الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي . ويكتب الحبيب الجنحاني بدوره كتاباً بعنوان : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي إلى غير ذلك .

وقبل أن نغادر الحديث حول هذه النقطة يجدر بنا الإشارة إلى مقولة مأثورة ترددت كثيراً عند تتبع مسيرة الدراسات العلمية والشرعية منها على وجه الخصوص في الأمصار الإسلامية ، وهي أن (العلم كقمح نتج بالمدينة وصفِّيَ ببغداد ،وطحن بالقيروان ، وغربل بقرطبة ، وأكل بفاس) (١) . وعلى كل حال فإذا كان لنا من تعليق فهو أنه إذا كان حظ القيروان من العلم : الطحن فهو حظ غير مبخوس ، ويكفيها أنها كانت تطحنه لتقدمة لقمة سائغة للآخرين .

وكيفما كان الأمر ، فاننا لانجد في هذا الخصوص عبارة أبلغ من تلك التي أشار إليها أبو القاسم كرو وزميله عبدالله شريط ، ولانملك إلا أن نردد معهما قولهما : (لم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الإسلامي كما لمع اسم مدينة القيروان وازدهر عصرها الذهبي مدة أربعة قرون كامله ابتدأت من تأسيسها على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة ، وانتهت بانهيارها السياسي العلمي والإجتماعي على أيدي القبائل الزاحفة من صعيد مصر عام ٤٤٤هـ) (٢) .

---

(١) أنظر نص المقوله عند عبدالهادي التازي : جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس) الجزء الأول ص ١٠٥ (نقلاً عن غير واحد من المؤرخين)

(٢) عصر القيروان ، ص ٥ .

العباسية (١) وصبرة (٢) :-

لعل من الواجب أن نشير في البداية إلى أن هاتين المدينتين العباسية وصبرة توصفان كضاحيتين للقيروان أكثر منهما مدينتان . ولسنا ننكر أن هاتين المدينتين كانتا في وقت من الأوقات عامرتين بالسكان والأسواق والمرافق الأخرى شأن كل مدينة ، إلاَّ أنهما كانتا تستمدان جميع أسباب وجودهما من القيروان بحكم احاطتهما بهما أو لنقل ملاصقتهما لها ، فبدتا وكأنهما امتداد لها ، بل هما بالفعل كذلك حيث أصبحتا بمثابة ضاحيتين كبيرتين لها . ذلك أن هاتين المدينتين - الضاحيتين - إن صح هذا القول لم تكن تبعد أقصاهما، وهي مدينة العباسية عن القيروان سوى ثلاثة أميال ، أما مدينة صبرة فلم تكن تبعد عن القيروان سوى نصف ميل فقط ومن هنا نستطيع القول إنهما يشكلان مع مدينة القيروان : القيروان الكبرى على

١- هناك مدينتان في المغرب تعرفان باسم العباسية . العباسية هاتة (القصر القديم) التي تتحدث عنها في المتن ، والتي بناها ابراهيم بن الأغلب المؤسس للدولة الأغلبية . والعباسية الأخرى التي تقع في المغرب الأوسط بالقرب من مدينة تاهرت التي بناها حفيده : الأمير محمد بن الأغلب بن ابرا هيم بن الأغلب الذي تولى الإمرة بين سنتي ٢٢٦- ٢٤٢ هـ / ٨٤١/٨٥٦م . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ٨٥ مع الحواشي .

٢- هناك أيضا مدينتان في المغرب تعرفان باسم : صبرة ، الأولى صبرة هاتة التي نتحدث عنها في المتن ، والتي بناها الخليفة الفاطمي المنصور ، والثانية : صبرة الليبية ، وهي مدينة أزلية تكون مع مدينتي : ليتس مانيا (لبدة) وأويا أو أوية التي عربها العرب إلى اياس ، مدينة طرابلس وصبرة الليبية عرفت أيضاً بسبرت ، وهي صبراته - سبراته الحالية في ليبيا ، وصبرة الليبية هاته غير : صبروا أوواحة صبروا ، وهي احدى واحات ليبيا كما يقول البكرى . أنظر البكرى : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص١٥ ، عن صبرو و ص ١٧ عن صبرة . وأنظر كذلك سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ حاشية رقم ٢٢ ص ٦٦ .

غرار القاهرة الكبرى كما هو معروف .

والعباسية ورقادة وصبرة مدن سياسية وإدارية في المقام الأول ، فالعباسية التي كانت تعرف بالقصر القديم والتي تبعد ثلاثة أميال عن القيروان بناها (١) ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية نتيجة لشعوره بخطر الجند العرب الذين لمّا تهدأ ثوراتهم بعد ، وكان بناؤها في نفس العام الذي تولى فيه إمارة إفريقية عام : ١٨٤ - ٨٠٠ م ، مما يؤكد اتجاهه إلى إتخاذ الحيطة والحذر له ولبنيه من بعده في بناء هذه المدينة (٢) .

وما أن انتهى من بنائها حتى انتقل إليها بأهله ورجاله وجيشه ، وبانتقاله انتقلت الدوائر والدواوين الحكومية ، حيث أصبحت العاصمة السياسية والإدارية (٣) لإفريقية حتى عام ٢٦٣هـ/٨٧٦م ، عندما تحولت العاصمة إلى مدينة رقادة .

يبقى أن نشير إلى أنه مع التسايم بأن العباسية قد بنيت لغرض سياسي وعسكري ، إلاَّ أن هذا لاينفي أن يكون ابراهيم بن الأغلب قد رغب بالإضافة إلى ذلك في أن يخلد له أسما وذكراً بين مؤسسي الدول ببناء

---

(١) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٨- ٢٩ ، ص ٣٨- الرقيق القيرواني : نفسه ، ص٢٢٢ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٣، ص ٣١-٣٤ - حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس - مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر الجزء الأول ، ص ٧٨ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٣ ص ٣٣ -٣٤ .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٣٤- الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب ، ص ٦٠- ٦١ .

مدينة تضفي على دولته الناشئة (١) جواً من الأبهة والفخامة وقد سماها العباسية تيمنا بالعباسيين الذين وطأوا له ذلك الملك .

أما مدينة صبرة ، فقد بناها (٢) ثالث الخلفاء الفاطميين في المغرب ، الخليفة المنصور عام : ٣٣٧هـ/٩٤٩م ، احتفاءاً بانتصاره الكبير على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الذي مات متأثرا بجراحه بعد . ولاتبعد صبرة التي سميت بالمنصورية إما نسبة إليه ، وإما نسبة لانتصاره على الثائر أبي يزيد أو نسبه لهما معا ، سوى نصف ميل فقط عن مدينة القيروان ، ولقد ظلت منذ ذلك الوقت العاصمة السياسية للدولة الفاطمية وشطراً من الزمن عاصمة كذلك للدولة الزيرية وفي عهد المعز بن باديس الصنهاجي عندما أعاد بناء سور القيروان عام ٤٤٤هـ جعل السور ممّا يلي مدينة صبرة كفاصل بين المدينتين (٣) وقد نقل إليها دواوين الجيش والجباية والرسائل أو المراسلات (٤) .

هاتان المدينتان : العباسية وصبرة كانت أهميتهما الثقافية تكمن في

---

(١) أنظر مثلا سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣١ .

(٢) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٥ - ابن حوقل : نفسه ، ص ٧٣١- ٧٤ ابن حماد : المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١ (والغريب أن يجعل وحده عام بنائها سنة ٣٣٤هـ - حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ،ص ١٠٠، ١٠٤ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ،ص٥٤٤-٥٤٥ .

(٣) السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٤٥ - حسن حسني عبدالوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، ص ١٠٠ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، ص ٢٨-٢٩ .

واقعهما كعاصمتين سياسيتين وإداريتين . ذلك أنه يمكننا بداهة أن نقول بأنهما كانتا مركزين من مراكز الثقافة والعلوم في إفريقية طوال مده دورهما السياسي والإداري . والواقع أن الأدلة لاتعوزنا في التدليل على صدق هذا القول ، إذ ليس خافيا أن الحياة العلمية وخصوصا النواحي الأدبية منها كانت تسير في ركاب الأمراء والحكام . أينما ساروا ، وحيثما حلوا فمسيرة الحياة العملية كانت تزهو وتتقدم غالباً في ظل الأمراء والحكام الذين يشجعون العلم والعلماء والأدب والأدباء ، فكانوا يحيطونهم برعايتهم وتشجيعهم وعطاياهم ، وأحياناً بايجاد روح التنافس بين الأدباء والشعراء وغيرهم ، وكانوا ينطلقون في هذا من حب الكثيرين منهم للعلم والأدب أولاً ، ولرغبتهم ثانياً في إضفاء جو من الأبهة والذكر الخالد لبلاطاتهم ، لاسيما وأن العصر الذي نتحدث عنه آنذاك سواء في المشرق أو المغرب الإسلاميين كان عصر ازدهار العلم والفكر والأدب .

وفي الحقيقة فإن ذلك الأمر يعتبر ظاهرة عامة في الدولة الإسلامية سواء أكانت خلافة أم مملكة ، أم إمارة ، أم حتى إذا كانت ولاية . ثم أن بريق العاصمة كان دائماً يثير في نفوس العلماء ولاأدباء وغيرهم الرغبة في انتجاعها ، والعيش وسط ذلك المناخ العلمي والأدبي الذي يحوطها ، ومن ثم الاستفادة منه .

والعباسية وصبرة لم تكونا بدعاً في ذلك الأمر ، فكلتاهما ظلت عاصمة سياسية لإفريقية مدة زمنية طويلة ، وأنتجعهما انتجاع وفادة لاسكني كما يخيل إلى العديد من الأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم وهذا

في الحقيقة مادفعنا إلى اعتبارهما مركزين من مراكز الثقافة والعلوم وإلاّ فالحق فإن كثيراً من المراجع التي تطرقت إلى تتبع مراكز الثقافة في المغرب كانت تمر على ذكر دورهما مروراً سريعاً (١) - وهذا شيء طبيعي - بحكم ملاصقتهما للمدينة العلمية الكبرى أو الأم وهي القيروان كما ذكرنا ، وهذا يفسر لنا أيضا ملاحظة بدت لي وهي أن هاتين المدينتين ومعهما رقادة لم يتفق أن انتسب إليها أحد من العلماء والأدباء والأطباء وغيرهم وذلك كما يتضح من خلال استقراء كتب التراجم بمعنى أنه لم يطرق سمعي ذكر لعالم قصري الأصل نسبة إلى مدينة القصر القديم أي العباسية ، أو صبري أورقادي نسبة لصبرة أورقادة (٢) ، كما هو شأن المدن الأخرى ذات العرافة العلمية والثقافية . وعلى كل حال فان مانستطيع اختتام هذه النقطة به هو أن المدينتين قد استمدت مكانتهما العلمية كما ذكرنا من واقعهما السياسي ، فلما فقدتا أهميتهما السياسة ، فقدتا بالتالي تلك الأهمية الثقافية .

---

(١) أنظر مثلا عبد الرؤوف عبدالعزيز مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر ، دراسة نقدية تحليلية مقارنه ، ص ٧٤ - حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، ص ٢٨ ، ٣١ - الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ص ٦٠- ٦٢ ، ٩٦ -١١٢ - حسن إبراهيم حسن : المعز لدين الله بالإشتراك مع طه أحمد شرف ، ص ٩ ، ١٤، ١٤٤ ، ٢٢٤ - ٢٢٥، ٢٣٢- ٢٣٣ ، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٥٤- ٢٥٥ فيما يتصل بالمنصورية .

(٢) نقول هذا على سبيل التعميم ، ولاينفى هذا أن يكون ثمة من كان ينتسب إلى هذه المدن - الضواحي - وعلى أية حال فحتى إذا كان هناك من انتسب إلى تلك المدن ، ولم يقدر لنا الاهتداء إليه ، فإنه يبقى أمراً نادراً .

رقـــــــــادة :-

رقادة مدينة بناها : ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم ابن الأغلب عام : ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م ، وتقع على مسافة أربعة أميال أو ثمانية كيلومترات إلي الجنوب الغربي من القيروان . (١) وليس هناك خلاف في أن السبب الرئيسي لبنائها هو : رغبة الأمير ابراهيم بن أحمد هذا الذي يعرف كذلك بابراهيم الثاني أو الأصغر – للتفريق بينه وبين جده الأعلى ابراهيم – في أن يجارى عظماء الدول وكبار الحكام من منشئ الدول الذين يبادرون إلى تأسيس مدينة أو مدن تخلد مع الأيام ذكرهم (٢) ، لاسيما إذا عرفنا أن عصره أو السنين الأولى منه تمثل العصر الذهبي للأغالبة .(٣)

وللمؤرخين والجغرافيين عدة تفسيرات بشأن تسميتها برقادة منها ماذكر أن أسمها مشتق من الرقاد أو النوم (٤) ، وذلك أن الأمير ابراهيم ابن أحمد أصيب بارق منع النوم من عينيه فنصح بالخروج إلى البادية حيث

---

(١) البكرى : المصـدر السـابق ، ص٢٧ – ٢٩ ابن خلكان : نفسـه ، ج٣ ، ص١١٩– الكناني القيرواني : تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء الله – حاشية رقم ٥٦، ص ٣١١– ٣١٣– حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٨٩–٩٠سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص ٢١٦– ٢١٨ مع الحواشي .

(٢) الكناني القيرواني : نفس المصدر والحاشية والصفحه أعلاه – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١١٤.

(٣) الكناني القيرواني : نفس المصدر والحاشية والصفحة أعلاه سعد زغلول عبدالحميد : نفس ، ص ١١٤.

(٤) أنظر البكرى نفس المصدر السابق أعلاه ص ٢٧، الكناني القيرواني : نفس المصدر السابق أعلاه والصفحه – سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، الحاشية رقم ٣٦، ص ١١٦–١١٧ .

هذا المكان الذي بنيت عليه هذه المدينة التي داعب النوم فيها اجفانه ، فرقد فيه . ومن الأقوال أيضا ما قيل إن هذا المكان عرف برقادة نسبة إلى رقاد جثث الخوارج (١) من قبيلة ورفجومه الذين كانوا قد تغلبوا على القيروان في أعقاب مقتل حبيب بن عبدالرحمن الفهرى عام ١٤٠هـ .

وقد انتقل إليها الأمير ابراهيم بن أحمد فور إنتهاء بنيانها عام ٢٦٤هـ (٢) ، واستتبع هذا بالضرورة انتقال الدوائر والدواوين الحكومية ، ولقد قصدها الناس من كل حدب وصوب ، فعظم شأنها وعلا صيتها . وظلت عاصمة للدولة الأغلبية حتى سقوطها عام ٢٩٦هـ كما أنها ظلت كذلك عاصمة للخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي حتى انتقل منها إلى مدينته المهدية عام ٣٠٨هـ (٣) .

رقادة هذه اختلف شأنها عن مدينتي العباسية وصبرة ، رغم مايجمعهما واياهما من خصائص ، أي كونها ضواح للقيروان ، وواقعها كعواصم سياسية وإدارية كما ذكرنا . ذلك أنه خلد لها دور بوصفها مركزاً من مراكز العلوم والثقافة بإفريقية في كثير من المصادر والمراجع وهو دور لم يكن نتيجة حتمية لواقعها كعاصمة سياسية شأن ماذكرناه عن العباسية وصبرة ، ولكنه كان دوراً علمياً وثقافياً واضحاً .

١- البكري : المصدرالسابق ، ص ٢٨١ - سعد زغلول عبدالحميد - نفسه ، حاشية ٣٦٢ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

٢- ابن خلكان : نفسه ، المجلد الثالث ، ص ١١٩ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١١٧ .

٣- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١١٧ - ومابعدها - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٧١- ٣٧٢ حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٨٩- ٩٠ .

والواقع أن رقادة أضطلعت بدور ثقافي مهم في نشر وازدهار العلوم التجريبية على وجه الخصوص ، ذلك لأن الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) كانت قد تطورت كثيراً في عهد الأغالبة ، وكان أبرز ماميز الحياة العلمية في عهدهم : التقدم في الدراسات الشرعية ، وتلا ذلك ، التقدم في العلوم التجريبية التي بلغت غاية من الإزدهار آنذاك (١)، وكان الفضل في انتشارها وازدهارها يعود لبعض الأمراء الأغالبة ومنهم الأمير إبراهيم بن أحمد الذي كان شديد الولع بالعلوم الرياضية (٢) والحكمة . لذلك فما أن انتهى من بناء رقادة حتى بادر بإنشاء بيت الحكمة الذي قصد من إنشائه أن يأتي على غرار بيت الحكمة العباسي في بغداد . وقد وصفها علماء المغاربة المحدثون بأنها كانت بمثابة أول أكاديمية علمية في المغرب كله . (٣)

ولقد دأب الأمراء الأغالبة على تعهد بيت الحكمة بالرعاية والتشجيع

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية ، القسم الأول ، ص ٢٦-٣٠، ٧٣-٧٤، ١٩٣ - عثمان الكعاك : تاريخ الجزائر ، ١٥٩ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسيه ، القسم الأول ، ص ١٩٣ .

(٣) دأب جل من أشار من الباحثين المغاربة على وجه الخصوص إلى بيت الحكمة هذا على تسميته بالجامعة وعلى رأس هؤلاء حسن حسني عبدالوهاب في كتبه ، وخاصة الورقات (أنظر القسم الأول ، ص ٢٧، ٧٣ - الخ) ومنهم عثمان الكعاك في كتابه : تاريخ الجزائر ، ص ١٥٩ ، وابراهيم التوزري في المرجع السابق ، ص ١٦٢ ، والحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ، حاشية رقم ١٧٧ ، ص ١١١ . وهذه الحاشية مهمة جداً في توضيح ما ذكرنا اذا يقول فيها (في بعض الكتب الحديثة تقارن بيت الحكمة في تاريخ الثقافة الإسلامية بالجامعة ، ولكن نظام بيت الحكمة ودورها العلمي يجعلان مقارنتها بما يعرف اليوم بأكاديمية العلوم أقرب . وهو مانميل إليه في المتن) .

وهم : ابراهيم بن أحمد مؤسس رقادة ، وابنه عبدالله وحفيده زيادة الله بن عبدالله (١) وجهدوا في أن يقتفوا نهج الخلفاء العباسيين الذين أسسوا ورعوا بيت الحكمة البغدادي ، لذلك فقد عملوا على أن يزودوا هذا البيت برقادة بالمصنفات العلمية والفلسفية على وجه الخصوص وبذلوا الأعطيات الكبيرة في اقتناء تلك المصنفات من مظانها المختلفة ، وخاصة من بغداد ، وكانوا في الوقت نفسه يرغّبون ويمنُّون فطاحل العلماء للقدوم إلى بيت الحكمة برقادة (٢) . كما الحقوا ببيت الحكمة هذا قسماً للترجمة عن اللغة اللاتينية وغيرها . (٣)

والحقيقة أن دور بيت الحكمة برقادة لم يقتصر على العلوم الرياضية والطبية فحسب ، وإنما كانت رقادة وبيتها ذلك مجالاً للمناظرات الكلامية بين أهل السنة وغيرهم . ويأتي على رأس المتكلمين والفلاسفة الذين أموا رقادة الفقيه المتكلم سعيد بن الحداد والفيلسوف أبو بكر التمودي وغيرهما (٤) .

١- ينسب نفر قليل من الباحثين المحدثين إلى زيادة الله الثالث ابن عبدالله بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وهو آخر الأمراء الأغالبة فضل تأسيس بيت الحكمة ، مع أن الشائع والمعروف أن مؤسسة هوجده ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، الذي أسس مدينة رقادة ، أنظر عثمان الكعاك مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٢ ، وكل من ينقل عنه .

٢- حسن حسني عبد الوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٦، ١٩٣، ١٩٦ ابراهيم التوزري : نفسه ، ص ١٦٣ – عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٢ .

٣- حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم اعلاه ، ص ٢٧، ٢٠٠ – ٢٠٣ عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ص ٢٢١ .

٤- حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢١٣ – ٢١٧ .

ومما ساعد ازدهار العلوم العقلية هذه ، هو حب آخر الأمراء الثلاثة للدولة الأغلبية للعلم والعلوم العقلية على وجه الخصوص وقد ذكر أن هؤلاء الثلاثة الأمراء كانوا يجيدون التحدث باللغة اللاتينية (١) .

ويرى حسن حسني عبدالوهاب أن بيت الحكمة ، كان يحتل مكانه في أحد قصور الأمير ابراهيم بن أحمد مؤسسه ومؤسس رقادة كما عرفنا . وقد تتبع حسن حسني عبدالوهاب بيت الحكمة هذا ، ورسم له – تخميناً – تصوراً يوضح قاعدته وفصوله وخزائن كتبه وهيئته الإدارية ، مما يترك انطباعاً بأن هذا البيت يشبه تماماً مثيلة البغدادي (٢)

وممّا هو جدير بالذكر أن المراجع حفظت لنا اسم واحد من مشرفيه في عهد الأمير زيادة الله بن عبدالله بن ابراهيم ، وهو أبو اليسر الشيباني الذي قدم مهاجراً من بغداد . وسنتبين لاحقاً دوره ومكانته العلمية في موضعه بإذن الله .

يبقى أن نشير أخيراً إلى نقطة مهمة رافقت بيت الحكمة هذا ذلك أن حسن حسني عبدالوهاب وغيره يستخدمون أحيانا لفظ : بيت الحكمة القيرواني (٣) ، ممّا يستشكل معه الباحث في شأن نسبته إلى رقادة ، ولكن حسن حسني عبدالوهاب وغيره يؤكدون على أن هذا البيت أقيم

١- حسن حسني عبدالوهاب ، نفس المرجع ، والقسم السابق ص ٢٠٠ -٢٠١ .

٢- الورقات القسم الأول ، ص ١٩٤ – ١٩٩ .

٣- نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٢٧ . (بيت الحكمة القيرواني) ، عثمان الكعاك : تاريخ الجزائر، ص١٥٩ .

برقادة، وظل هناك طيلة مدة حكم الأمراء الأغالبة الثلاثة المذكورين وبعض من عهد الدولة الفاطمية ، وليس هذا فحسب ، بل يناقش مسألة أحقية رقادة به دون القيروان فيعقد فقرة بعنوان : التباس يؤكد فيها ذلك . (١)

فكيف نوفق بين ترديده لعبارة : بيت الحكمة القيرواني ، وبين ماثبت من أن كان في رقادة ؟ لعل مايبدو لي معقولا ، هو أن هذا القول هو من قبيل اطلاق الكل على الجزء ، فإفريقية كانت تعرف أيضاً ببلاد القيروان (٢) ، وكانت إفريقية ومازالت تعرف بالبلاد التونسية نسبة إلى مدينة تونس ، وهكذا صح أن يقال : بيت الحكمة القيروان ، أما إذا أريد التخصيص فيقال : بيت الحكمة الرقادي ، أوبيت الحكمة برقادة . ومما يدل على أن هذا المفهوم هو الذي جرى عليه العرف ، هو أن حسن حسنى عبدالوهاب نفسه أشار في بعض المواضع إلى بيت الحكمة برقادة بقوله : بيت الحكمة التونسي (٣) . ولاشك أن ذلك نسبة للقطر كله .

وأيا ماكان الأمر ، فقد ظل بيت الحكمة هذا برقادة يؤدي دوره في الحياة العلمية وبخاصة التجريبية منها كما سنعرف بعد طيلة مدة حكم الدولة الأغلبية ، وعندما سقطت الدولة الأغلبية وقامت الدولة الفاطمية ، ورث الفاطميون في جملة ما ورثوه ، بيت الحكمة هذا ، غير أنهم حاولوا تغيير طابعة التقليدي ، فأصبح في عهدهم وطيلة بقاء عاصمتهم في رقادة قبل

---

(١) نفس المرجع والقسم ، ص ١٩٢- ١٩٣ .

(٢) أنظر قبل ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٩٠، ١٩٩ .

بناء المهدية مكاناً لبث الدعاية للمذهب الإسماعيلي والترويج له (١) . ومما يذكر في هذا الصدد أنهم عندما رحلوا إلى مصر ، أخذوا معهم الكثير من المصنفات التي كان بيت الحلكمة يحتوى عليها . (٢)

تونـــــــس :-

وكما كانت القيروان أثراً خالداً من آثار المسلمين الإنشائية ومحدثاتهم في بلاد المغرب ، كانت مدينة تونس ومازالت كذلك . فهذه المدينة دون ريب من منشآت المسلمين في هذه البلاد ، وقد تهيألها أن تكون ذات شأن عظيم في تاريخ إفريقية (المغرب الأدنى) ، وخاصة منذ القرن السابع الهجري وحتى الوقت الحاضر ، ويكفى أن نشير إلى أنها هي الوحيدة تقريباً من مدن إفريقية التي أعطت اسمها للبلاد والسكان .

وقد التصق اسم مدينة تونس بحسان بن النعمان (٣) الغساني الذي ينسب إليه بناؤها وتمصيرها على الأرجح (٤) بعد تخريبه لمدينه

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم السابق ، ص ٢٠٥ - ٢٠٩- ٢١٠ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم السابق ، ص ٢٨ ، ١٩٦، ٢٠٦ .

(٣) أنظر البكرى : المصدر السابق ،ص ٣٧- ٣٨ ، المالكي : نفسه ، ص ٣٧- الرفيق القيرواني : نفسه ، ٦٦ - ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٥ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٤) وإذا كانت معظم المصادر والمراجع تشير إلى أن حسان بن النعمان هو باني مدينة تونس ، فإن بعضاً من المصادر تذكر أن زهير بن قيس البلوي قد افتتحها . (انظر ابن أبي دينار : =

قرطاجنة البيزنطية التي لاتبعد عنها سوى ١٠ أميال فقط وكان الغرض من بنائها تأمين قاعدة بحرية ، تطل منها افريقية على العالم الخارجي ويكون لها نفس الدور الإستراتيجي الذي كانت تؤديه قرطاجنة .

ومنذذلك الوقت أخذت المدينة تكبر وتتسع ، وتعهدها القادة والولاة ، ثم بعض أمراء خلفاء الدول المستقلة في إفريقية بالرعاية (١) حتي أصبحت في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ثاني مدينة إفريقية بعد القيروان . هذا وينسب المؤرخون للخليفة العباسي المنصور قولاً مأثوراً يدل على أهمية تونس التي أخذت تزداد ، وهو سؤاله لكل من يقدم عليه من الإفريقيين : كيف حال أحد القيروانيين ؟ (٢) ، يقصد مدينة تونس .

ويميل نفر كبير من المؤرين القدامى ، وبعض من الباحثين المحدثين إلى ترجيح القول بأن تسمية تونس بهذا الاسم ، إنما هي تسمية عربية

= نفس المصدر السابق ، ص ٩، لكن هذا غير معقول ، فحمله زهير كانت في العقد السادس من الهجرة، بينما بناء تونس كان في العقد الثامن من الهجرة ، وهو ماناقشة ابن أبي دينار في نفس الصفحة ، وبعض المصادر تغرب فتذكر أن الذي بناها هو عقبة بن نافع ، وهذا القول الذي أنفرد به المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، لم يشر إليه أحد من المؤرخين القدامي والمحدثين سواه .، أنظر محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، حاشية رقم (١) ص ٩ .

(١) عن جهود القادة والولاة العرب ثم بعض أمراء وخلفاد الدولة المستقلة في المغرب الأدنى في رعاية وتعمير مدينة تونس أنظر حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٩-٩٤ – محمد الهادي العامري ، المرجع السابق ص ٩-١١ .

(٢) أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٢٩٢ .

مشتقة من المعنى اللغوي للكلمة (١) بينما يرى عدد من الباحثين العرب والأجانب إلى أن تسمية تونس المدينة بتونس ، هو نسبة لقرية كانت تعرف بتونس "THNES" أوتينس " TYNE'S" (٢) وكانت مدينة تونس في الفترة الزمنية موضوع الرسالة مركزاً من مراكز الثقافة والعلوم ، فقد استوطنها عدد من العلماء والأدباء الذين لم يبهرهم بريق العاصمة الثقافية الكبرى : القيروان ، وغيرها من العواصم السياسية الأخرى . غير أن بعدها النسبي (٣) عن مدينة القيروان جعل منها مدينة مغلقة – إن صح هذا

---

(١) يرى بعض المؤرخين القدامى أن مدينة تونس بنيت في موضع قرية عرفت : ترشيش أو طرشيش ، وسميت تونس لأن المسلمين عندما فتحو إفريقية نزلوا بقرية ترشيش في أحدى غزواتهم وكان بجانب القرية صومعة للرهبان ، فكان المسلمون يتأنسون براهب كان فيها ، ويقولون هذه الصومعة تونس – ومن هنا جاء الاسم ، وقيل بل ان المسلمين كانوا يسمعون أصوات الرهبان المنبعثة من الصومعة فيتأنسون بها وكانوا يقولون هذه البقعة تونس ، وقيل إن العرب وجدوا زيتونه منفردة في الموضع الذي بقي به المسجد ، فقالوا هذه تونس ، وسمى المسجد بمسجد أوجامع الزيتونه . أنظر البكري :المصدر السابق ، ص ٣٧-٣٨ – ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٩- ١٠ – سعد زغلول عبدالحميد نفسه ، ج١ص ٢٣٣ مع الحواشي – محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ص ٩، حيث يقول دون أن يعلل لما قال (تونس تسمية عربية واضحة) .

(٢) أنظر حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٩٠، حيث يقول إن تونس THUNES قرية فينيقية الأصل ، وإن كان لم يبرهن على أنها هي نفسها التي أقيمت عليها مدينة تونس العربية ، وانظر كذلك سعد زغلول عبدالحميد نفسه ، ج١ ، ص ٢٣٣ حيث يميل إلي أنها نسبة إلى تونس أو تينس TYNE'S وأنظر الحاشية رقم ٢٩٩، من نفس الصفحة – الرقيق القيرواني : نفسه ، حاشية رقم ٢ ، ص ٦٦(فيما يؤكده المحقق للكتاب من أنها نسبة لقرية لاتينية تعرف بـ : TYNES) .

(٣) يقول ابن أبي دينار إن تونس تبعد عن القيروان بأربع مراحل (أي ١٥٧ ميل كما يذكر محقق ومعلق كتاب ابن أبي دينار

القول – لذلك فإن أثرها العلمي والثقافي لم يكن واضحاً ، مع كونها المدينة الإفريقية الثانية في الأهمية بعد القيروان .

والواقع أن تونس – على مايبدو من غرابة – لم تكن مركزاً رئيسياً من مراكز الثقافة والعلوم على الأقل في الفترة الزمنية موضوع البحث ، فهي لم تتسنَّم مركزها الريادي العلمي ، بل والسياسي والاقتصادي إلاَّ بعد سقوط القيروان في عهد الزيريين في منتصف القرن الخامس الهجري بيد العرب الهلالية، ثم سقوط مدينة المهدية في عهدهم أيضاً على يدي النورمانديين في منتصف القرن السادس الهجري . ومع ذلك فلم تتبوأ مركزها الريادي آنذاك لافي منتصف القرن الخامس الهجري ولا في منتصف القرن السادس ، وإنما في القرن السابع عندما قدر للحفصيين وهم أتباع الموحدين كما هو معروف أن يوسسوا لهم دولة في المغرب الأدنى فاتخذوا من تونس عاصمة لهم .

ومن ذلك الوقت أصبحت تونس وارثة القيروان وغيرها من العواصم السياسية والإداريه الإفريقية كالعباسية ورقادة وصبرة والمهدية (١) (وقد استفحلت حضارة تونس على عهود الحفصيين ، فهم أول من عنى بها كعاصمة ، وأشادوا المصانع والقصور ، والمدارس للعلم وطلابة وغرسوا بها الحدائق .. وأذاعوا صيتها في العالم الإسلامي) (٢) .

---

(١) عن المكانة التي بلغتها مدينة تونس ابتداء من قيام الدولة الحفصية ، أنظر ابن أبي دينار : نفسه ، ص ١٤- ١٦ محمد الهادي العامري : المرجع السابق ، ص ٩- ١٨٨ .

(٢) محمد الهادي العامري : نفس المرجع السابق ، أعلاه ص ١٠ .

ومايقال عن تونس المدينة ، يقال أيضاً عن جامعها العتيد : الزيتونه ، فلم يكن له ذكر في الفترة الزمنية موضوع البحث مع جامع عقبة ابن نافع في القيروان ، ولم يضطلع بدوره الثقافي والعلمي إلاَّ مع قيام الدولة الحفصية . ومنذ ذلك الوقت أصبح مهوى الأفئدة ، وأصبح يحمل مشعل العلوم الدينية لافي المغرب الأدنى فقط ، دائماً وفي المغرب كله والأندلس والأجزاء التي امتد إليها الاشعاع الثقافي الإسلامي من قارتي إفريقيا وأوروبا . غير أن هذا لاينفي البتة أهميته ودوره العلمي قبل ذلك ، لكن ذلك الدور لم يكن واضحاً بارزاً قبل قيام الدولة الحفصية .

وعلى أية حال فان مانود أن نؤكده هنا هو : أن مدينة تونس كانت تزخر بعدد لابأس به من العلماء والأدباء وغيرهم ممَّا هيأها لأن تكون مركزاً من مراكز الثقافة والعلوم الإفريقية في الفترة موضع إهتمامنا ، وأصبح لها بالتالي دور علمي آنذاك ، لكن ذلك الدور كان ضئيلاً ولا يتناسب مع مكانتها كمدينة إفريقية ثانية بعد القيروان . ولعل السبب أو الأسباب التي أدت إلى ذلك هو بعدها عن العاصمة القيروان ، كما قلنا ، ثم أثر طبيعتها البحرية والتجارية والأهم من هذا في تصورنا هو أنها لم تضطلع بدور سياسي آنذاك . غير أنه عندما أتيحت لها الفرصة كي تكون عاصمة للبلاد ، تنامى دورها وازدادت أهميتها ، واستعادت مكانتها كعاصمة للبلاد الإفريقية وكوريثة لقرطاجنة القديمة (١) .

(١) في هذا الصدد يذكر سعد زغلول عبدالحميد : أن تونس استعادت مكانتها كعاصمة للبلاد الإفريقية باعتبارها تمثل قرطاجنة الحديثة التي خلفت قرطاجنة القديمة وهو يرى أن ذلك =

ولئن ضنت كتب التاريخ والأدب بتوضيح مكانتها العلمية في الفترة التي تهمنا ، فإنها لم تضن علينا بذكر أعلام تزهو بهم تونس ، وخاصة من الذين كان لهم دور في الدراسات الشرعية ، مثل علي بن زياد التونسي ، أول من أدخل موطأ الامام مالك وجامع سفيان الثوري بلاد المغرب ، وعبد الرحيم بن أشرس ، ومحرز بن خلف ، وأبي إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي ، وأبي يزيد شجرة بن عيسى التونسي وغيرهم ممَّن سنترجم ونعرض لدورهم لاحقاً إن شاء الله .

وفي دنيا الأدب والشعر أهدت تونس إلى البلاد الإفريقية واحداً من أشهر شعراء القطر كله وقتذاك ، وهو علياً الأيادي التونسي وكثيرين غيره ممَّن سنعرض لذكرهم إن شاء الله .

= كان أمراً طبيعياً لأن القيروان كانت شبه مدينة اصطناعية نظراً لطابعها العسكري . لذلك فبعد أن عظمت وكبرت كمدينة أقليمية عادت بعد ذلك لوضعها الطبيعي ، فيما استردت تونس كما قلنا مكانتها ثانية . أنظر المرجع السابق ، ج١، ص١٨٤

المهـــــــدية :-

المهدية مدينة بناها الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله الملقب بالمهدي سنة ٣٠٣هـ ، وانتقل إليها فور إنتهاء بنائها سنة ٣٠٨هـ . ولقد سميت بالمهدية نسبة إليه (١) ، وهي عبارة عن شبة جزيرة تقع على رأس بارز من البحر (كهيئة كف متصل بزند والبحر محيط بها) (٢) وهي إلى الشرق من مدينة سوسة ، وتبعد عن القيروان مرحلتين . (٣)

ويعزو كثير من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين بناءها إلى عدة أسباب ، لعل آكدها هو شعور الخليفة عبيدالله المهدي بعدم القبول في القيروان ، ورقادة ، نظراً لجو العداء الذي كان محتدماً بين الشيعة الإسماعيلية ، وبين جل السكان السنة (٤) . ذلك أن الشعور بالخوف من السنة لم يقتصر على الانتقال من القيروان ورقادة وبناء المهدية بل تعداه إلى أن يفكر الخليفة في بناء بليدة صغيرة على بعد رمية سهم فقط عن المهدية تكون مقراً فقط لمصالح الناس التجارية من دكاكين وخلافة ، فيما تكون سكناهم في المهدية ، وبذلك يضمن لنفسه اشغال أذانهم بين مصالحهم

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٩- ٣١ - ابن حوقل : نفسه ص ٧٣ - ابن حماد : المصدر السابق ص ٤١-٤٣- حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس : ص ٩٧ .

(٢) الكتاني القيرواني : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٥٩ - ص ١٨٦ .

(٣) أنظر ابن حوقل ، نفسه ، ص ٧٣ - البكري : نفس المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٤) أنظر مثلا المالكي : نفسه ، ص ٢١٦ ، مقدمة المحقق السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥١٨-٥١٩.- الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ، ص ٩٢ - عبده بدوي : مع حركة الإسلام في إفريقية ، ص ٤٣ .

وأموالهم ، وبين أهاليهم عندما يضطرون إلى مفارقتهم ليلاً ونهاراً (١) ، وقد سميت هذه البلدة : زويلة (٢) . زد على ذلك ماكان يستشعره من تهديد القبائل البربرية في المغربين الأقصى والأوسط المناوئين له ولأتباعه من البربر الاخرين من قبيلتي كتامه وصنهاجة (٣) .م وينضاف إلى ذلك كله . كما يستنتج – عادة – الرغبة في السير على العادة التي اعتادها مؤسسو الدولة في بناد مدينة تخلد ذكرهم ، ومن ثم الابتعاد عن عاصمة خصومهم (٤) .

ويؤكد بناؤها في ذلك الموقع المشار إليه آنفا ، والخطوات التي اتخذها الخليفة مباشرة ، كاتخاذه مرسى طبيعياً للمدينة ، وبنائه لدار صناعة كبيرة وتحصينه لها على الطابع الحربي للمهدية، ويرى بعض الباحثين (٥) أن بناء المهدية في ذلك الموقع قصد منه العمل على بسط السيادة الفاطمية على حوض البحر الأبيض المتوسط ، والاستعداد لغزو مصر .

ومدينة المهدية تعتبر بكل المقاييس مركزاً مهماً من مراكز الثقافة والعلوم في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة موضع اهتمامنا فهي أولاً :

---

(١) كان السكان والرعية يعانون عنتاً من هذا التدبير وعندما قيل للخليفة (إن رعيتك في عناء من هذا ، قال لكن أنا في راحة لأني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم ، وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليهم ، فآمن غائلتهم) أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

(٢) وقد يقال لها زويلة المهدية واحدي المهديتين . أنظر ياقوت : نفس المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٠ . حسن حسني عبدالوهاب خلاصة تاريخ تونس ، ص ٩٨ .

(٣) أنظر البكري : المصدر السابق ، ص ٣٠ – السيد عبد العزيز سالم : نفسه ، ص ٥١٨ – الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٤) الحبيب الجنحاني : نفسه ، ص ٩٢ .

(٥) الحبيب الجنحاني : نفسه ،ص ٩٣ حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله ،ص ١٨٤ – ١٨٥ .

عاصمة سياسية وادارية محدثة ، وهذا رسم لها بالضرورة دوراً علمياً وثقافياً واضحاً ، تأسيساً على ماسلف ذكره من حتمية الدور الثقافي للعواصم السياسية المحدثة ، ولذلك فلن نبعد عن الحقيقة إذا ماقلنا إنها أصبحت مركز جذب كبير للعلماء و الأدباء والأطباء وغيرهم سواء من الذين ساروا في كنف الدولة الفاطمية طواعيه ، أو الذين اضطرتهم الظروف لسكني المهدية من المغاربة السنة .

وها نحن أولاء ، تطالعنا أنباء فئة لابأس بها من الشعراء الذين حاموا حول مؤسسها عبيدالله يمدحونه ويمدحونها ، فهذا أبو عبيدالله ابن حبوس الفاسي يمدح المهدي ، وقد اختط المدينة بطابع الأسد ، (١)

فيقول :

بطالع الأسد اختط البناء بها   لكنك الأسد الدامي الأظافر(٢)

وهذا شاعر آخر لم يرد له اسم يقول :

ليهنك أيها الملك الهمـــــــام   قدوم فيه للدهر ابتســـــام

---

(١) ينسب إلى عبيدالله المهدي بصر بعلم النجوم لذلك اختط بطابع برج الأسد ، لأنه كما قيل برج ثابت . ولذلك ثبتت (أنظر ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٤١) . غير أن هذا الأمر كما تعلم مخالف للإسلام ، وهو ما أشار إليه المحققان لكتاب ابن حماد هذا بقولهما : (كلام ابن حماد في هذا الشأن لايوافق الإسلام في قليل ولاكثير ، فليس برج الأسد سبب ثبات المهدية . وقد تعرضت المهدية لما تعرضت له سائر المدن ، وهي الآن مدينة شبه مغمورة في تونس ، أنظر المصدر السابق ، أعلاه ، حاشية رقم ٤، ص ٤١ . ومع معرفتنا الأكيدة لذلك ،إلا أننا أوردنا هذا للاستشهاد به في ذكر توافد الشعراء على المهدية أول بنائها .

(٢) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ١٤ .

حططت الرحل في بلد كريـــم رعته لك الملائكة الكـــــرام

لقد عظمت بأرض الغـرب دار بها الصلوات تقبل والصيام (١)

وذلك شاعر يدعى ابن بديل يقول عن المهدية :

بنيت لدى أقصى المغـارب دارا قطنت بها الأحـرار والأبرار (٢)

وثمة شاعر آخر مجهول الاسم أيضا يقول في المهدية :

خططت بارجــاء المغـارب دار دانت لها الأمصار والأقطار (٣)

والمهدية في ثاني اعتبار لأهميتها كمركز علمي وثقافي ، عاصمة لدولة اختلف توجهها السياسي والمذهبي والأدبي ، بل والحياتي عمَّا ألفه السكان من توجهات سياسية ومذهبية - وهو المهم - وأدبية قبل مجئ الفاطميين إلى المغرب . لذلك فمن الطبيعي وهى العاصمة والمقر لهذه الدولة أن تضطلع بهذا التوجه الفاطمي ، فيحتشد بها الأدباء والشعراء الذين كانو يشكلون مايمكن تسميته بأبواق دعاية متنقلة ، ويرفعون عقائرهم بأحقية هؤلاء الخلفاء الفاطميين بالأمر وهذا أحدهم يقول في حق الخليفة المهدي :

هذا الإمــام الفاطمي ومن به أمنت مغاربها من المحـــذور

والشرق ليس لشامه وعراقــه من يهرب من جيشه المنصور

---

(١) أحمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ ، ص ٦٦- ابراهيم الدسوقي سعد جاد الرب : شعراء المغرب حتي خلافة المعز ، ص ٦٠ .

(٢) أحمد الطيب الفقيه : نفس المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣) أحمد الطيب الفقيه : نفس المرجع والصفحة .

حتى يفوز من الخلافة بالمنى ويفاز منه بعدلــــه المنشـــور (١)

أما الدور الحقيقي الذي أضطلعت به المهدية ، فهو ذلك الذي قصد منه الدعوة للمذهب الإسماعيلي ونشره بين السكان ما أمكن ذلك . ولقد قدروا أنه لايتأتى لهم ذلك إلاَّ بجعل المهدية مركزاً للدعوة للمذهب الشيعي الإسماعيلي يدعو ويروج له ويوضح أسسه ، فكان أن هيأوا لذلك دعاة نشطين مزودين بحصيلة مذهبية كبيرة ، رتبوا الدعوة ترتيباً منظماً دقيقاً ، اضطلع به فيما بعد واحد من أشهر دعائهم على الإطلاق في دور الظهور وهو القاضي النعمان ، (٢) الذي سنعرض لدوره الخطير فيما بعد إن شاء الله .

وبالاضافة إلى هذا . غدت المهدية ساحة يحتدم فيها الجدل المذهبي بين دعاة الشيعة وأحيانا الخلفاء أنفسهم - كما حصل في عهد المهدي (٣) - وبين علماء المالكية الذين رأى العديد منهم في مقارعة أولئك الدعاة الشيعة بالحجة والأدلة الشرعية واللغوية والقياسية وغيرها واجباً دينياً يأثمون على تركه والتقاعس (٤) عن القيام به .

وهكذا فقد شهدت المهدية في ذلك الوقت المبكر من عمرها شيوع تلك

---

(١) أنظر ، رابح بونار : المرجع السابق ،ص ١٦٨ .

(٢) أنظر ، عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٥ .

(٣) أنظر ، بعد ص ٥٦١ .

(٤) عن هذه المجالس العلمية والمناظرات المذهبية وغيرها أنظر تعرضنا لها بالتفصيل بعد ص ٥٧٨ .

المناظرات والمساجلات العلمية بين ممثلي الأكثرية السنية الساحقة وهم علماء المذهب المالكي ، وبين ممثلي الأقلية الشيعية من الدعاة الذي فشلوا في توضيح وجهة نظرهم ، وكانت الغلبة من نصيب علماء المالكية كما سيتضح لنا بعد .

والمهدية في ثالث الاعتبارات التي تؤكد اهميتها كعاصمة علمية مميزه، لم تفقد قيمتها العلمية والثقافية هذه بالاستغناء عنها كعاصمة سياسية . فمع أن المدة الزمنية التي ظلت فيها مثل عاصمة من عام ٣٠٨ - ٣٣٧هـ ، قصيرة إلاَّ أنها احتفظت بأهميتها العلمية بعد ذلك ، ولم يؤثر فيها فقدها لمكانتها كعاصمة . ذلك لأنها ظلت تحتفظ بمكانتها كقلعة أولى للشيعة (١) حتى ساعة نبذ المعز بن باديس للدعوة والمذهب الشيعي على مشارف العقد الرابع من القرن الخامس الهجري . وبالإضافة لذلك ، فقد سكنها الكثير من أهل السنة ، ولمع بينهم عدد من العلماء والأدباء المرموقين في الفترة موضع اهتمام البحث ، وعلى رأس هؤلاء يأتي عالم القرآءات المشهور أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي ، والعالم الفقيه ابن عبدالجبار المعروف بابن الصائغ وغيرهما .

والمهدية في رابع الاعتبارات ، عادت وتسنمت دوراً سياسياً مهماً ، ترتب عليه بالضرورة دور علمي وثقافي كبير وذلك عندما تمخضت الأحداث التي تلت ترك المعز بن باديس للمذهب الشيعي والسيادة الفاطمية عند سقوط عاصمته القيروان وأجزاء من دولته بيد العرب كما هو معروف ،و كما

---

(١) أنظر ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٦٦ ، عبده بدوى ، مع حركة الإسلام في افريقية ، ص ٨٤ .

أشرنا إليه مراراً . فتقلصت دولته في المهدية التي لجأ إليها ، وفي بعض أحوازها . وهنا عادت المهدية بلاطاً سياسياً وعلمياً وأدبياً لدولة أو لنقل بقايا دولة واستمرت تقوم بدورها هذا حتى سقوطها بيد النورمانديين عام ٥٤٣هـ/ ١١٣٨ م ومايهمنا من هذا هو ماترتب على التجاء المعز بن باديس للمهدية من دور علمي للمدينة ، ذلك أنه قد قصده العلماء والأدباء ، يواسونه ويخففون عليه وقع الصدمة التي تعرض وتعرضت لها دولته حتى وافته المنية عام ٤٥٤/ ٤٥٥ هـ فرثوه أيضا (١) ، وهو مايقف بنا الحديث عنده كما رسمنا من منهج .

---

(١) أنظر ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ – ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٣– ٢٣٦ الميمني الراجكوني : النتف من شعر ابن رشيق وزميلة ابن شرف القيروانيين ، ص ١٧ ، ٥٧ ومابعدها – حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ٩٠–٩١ – الزركلي : المرجع السابق ، الجزء السابع ، ص ٢٦٩– ٢٧٠ . وعن بلاط المهدية في عهود خلفاء المعز ، وخاصة ابنه تميم ، انظر ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٩٨– ٣٠٤ – ابن خلكان : نفسه ، المجلد الأولى ، ص ٣٠٤ – ٣٠٩ .

سوســـــة :-

سوســة مدينــة ساحلية تحيطهــا المياه من جميع جهاتها ماعدا الغرب (١) وتقع على ساحل البحــر الأبيض المتوسط في جنوبي مدينة تونس (٢) ، وهي تبعد عن المهدية مسيرة ثلاثة أيام (٣) والمسافة بينهما وبين القيروان ستة وثلاثين (٤) ميلا .

ومدينة سوسة الأغلبية ، قائمة في نفس المكان الذي كانت تقوم عليه المدينة الفينيقية الأزلية : حضر موت التي حرف لفظها في عهود خلفاء الفينيقيين على أفريقية ، وهم الرومان والوندال الوبيزنطيين إلى هدرمات (٥) ويرى أحد الباحثين وهو حسن حسني عبدالوهاب أن تسميتها بحضرموت ليس فيه مايثير الدهشة ، إذا ما عرفنا أن الفينيقيين ، وهم من الكعنعانيين القادمين منذ عهود سحيقة من جنوب شبة الجزيرة العربية حيث إقليم حضرموت في اليمن (٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد كانت مدينة سوسة قائمة ومعروفة بهذا الاسم، زمن الفتح الإسلامي للمغرب ، وإن كان الفضل يرجع للأغالبة في

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٨١- ٢٨٣ .

(٢) الكناني القيرواني : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٣ ، ص ٧ .

(٣) ياقوت المدي : نفس المصدر السابق أعلاه ، ج٣ ، ص ٢٨٣ .

(٤) البكري : نفس المصدر السابق والصفحه أعلاه - ياقوت الحموي نفس المصدر و الجزء والصفحة أعلاه .

(٥) أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ص ١٥- ١٨ .

(٦) الورقات ، القسم الثاني ، ص ٥

تعميرها. أما تسميتها بسوسة فإن معظم المصنفات الجغرافية التي تناولت جغرافيتها لم تشر للأسف إلى سبب تسميتها بذلك ، ويرجح حسن حسني عبدالوهاب (١) وهو الذي كتب فصلاً مهماً عن مدينة سوسة أن اسم سوسة بربري الأصل ، بيد أنه لم يشر إلي مايعنيه هذا اللفظ البربري .

ومدينة سوسة تدين في تمصيرها وازدهارها وتطورها للأغالبة الذين وجهوا لها عنايتهم ، وجعلوا منها مدينة على درجة كبيرة من الأهمية ، فأحدثوا بها الكثير من المنشآت الدينية والمدنية والحربية . ولقد تعهدها بالرعاية أكثر من أمير أغلبي ، واستمرت في ازدهارها وتطورها حتى أفل دورها ببناد مدينة المهدية الفاطمية (٢) .

ومدينة سوسة مركز مهم للثقافة والعلوم في إفريقية في الفترة موضع اهتمامنا . والواقع أن أهميتها العلمية والثقافية قد جاءت من موقعها البحري الإستراتيجي ، ذلك أن الأغالبة اتخذوا من البقعة البحرية التي قامت عليها مدينة سوسة الحديثة مرفأ بحرياً لمدينتهم البرية الكبرى : القيروان ، بما في ذلك مدينتي العباسية ورقادة . ولقد فرضت عليهم الأحداث السياسية والعسكرية التي كانت توجهها الدولة البيزنطية في القسطنطينية والقوى المهيمنه على ايطاليا والجزر التابعة لها وأهمها صقلية

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب – نفس المرجع والقسم السابق ، ص ١٦ .

(٢) عن جهود الأغالبة في تمصير وأعمار سوسة وازدهار ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج ٢ ، ٢ ٧١– ٧٢ ، ٨٥، ١٠١ – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٥٧–٣٦٠، ٣٦٣–٣٦٥، ٣٦٧– ٣٦٨ – حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ، القسم الثاني ، ص ٢١ – ١٢٤ .

ضد السواحل الإفريقية ، أن يؤسسوا لهم مرفأ بحريا لايبعد كثيراً من السواحل الأوربية من جهة ، ولايبعد عن عاصمتهم البرية القيروان كثيراً من جهة أخرى ، فاستقر عزمهم على سوسة بوصفها المكان الأمثل ، فأسسوا فيها داراً لصناعة السفن ، أحاطوها بسور منيع وحصنوها بسلسلة من المحارس والأربطة (١) التي تشكل ظاهرة مغربية مميزة كما سنعرف بعد . وترتب على ذلك أن اضطلعت سوسة بدور عظيم في تاريخ الفتوحات الإسلامية وهو فتح صقلية الذي تم عبرها ، ونحن لايهمنا تتبّع تلك الأحداث والمواجهة مع البيزنطيين والفرنجة بقدر مايهمنا الإشارة إلى أهمية سوسة العلمية والثقافية ، ذلك أنها أصبحت بحكم كونها ثغراً بحرياً ومعقلاً من معاقل الدفاع عن الإسلام والمسلمين تستهوى أفئدة الراغبين في الجهاد في سبيل الله المتطوعين للمرابطة فيها ، وفي أحوازها . وهكذا فقد قصدتها أعداد كبيرة من المجاهدين لسكناها ، وسكنى رباطها ومحارسها ، وكان من بينهم الكثير من العلماء والأدباء والعباد الذي كانو بالإضافة إلى انقطاعهم للعبادة والمشاغرة علماء يشار إليهم بالبنان (٢) . ولقد أحدث هؤلاء بها نهضة علمية مهمة ، بالإضافة إلى عدد لابأس به ممّن أنجبتهم المدينة نفسها . غير أن وجه تلك النهضة في الحقيقة كان مقتصراً في الدرجة الأولى على الدراسات الشرعية ، وهذا شئ طبيعي لأن سوسة جزء

---

(١) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ج٢ ، ص ٧١ -٧٢ - السيد عبدالعزيز :نفسه ص ٣٦٣ - ٣٦٨ - حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والقسم ، ص ٢٤-٣٣، ٤٤ - ٤٦ ، ٨٨ - ٩١ ، ٩٥ - ٩٧ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٢٣٩ - ٢٤٨- ٢٢٠ - ٣٢٥ ، ٣٢٤ - ٣٢٧ .

من كل وهو إفريقية التي كانت الدراسات الشرعية أهم مايميز حياتها العلمية ، هذا من جهة ومن جهة إخرى لطبيعة المدينة الحربية والجهادية - إن صح هذا - إذ ليس غريباً أن تستحوذ على عدد من العلماء والعباد والعلماء أيضاً ممَّن يتحرقون شوقاً للمثاغرة والمرابطة في سبيل الله . وتسعفنا كتب التراجم والطبقات وكتب التاريخ والأدب أيضاً بذكر أسماء لامعة منهم مثل : يحيى بن عمر الكناني ، وزيدان بن اسماعيل الواسطي السوسي ، وأبو عبدالله محمد بن زيتون ، وسهيل بن عبدالله القيرواني وعبدالحميد الصائغ ، ويحيى بن خالد السوسي وغيرهم الذين سنترجم لهم لاحقا بعون الله .

وفي دنيا الأدب والشعر لم تخل سوسة من علماء وأدباء وشعراء كان لهم ذكر على مستوى القطر الإفريقي كله ، ومن بين أولئك محمد بن عبدون الوراق السوسي ، والصفار السوسي ، وأحمد بن أفلح السوسي وغيرهم ، ممَّن سنترجم لهم بعد إن شاء الله .

بلاد الجريد - قسطيلية : -

بلاد الجريد - قسطيلية - إقليم من أهم أقاليم البلاد التونسية بالأمس واليوم ويقع في الجنوب التونسي ، ويضم عدداً من المدن الهامة في تاريخ حضارة تونس القديمة والمعاصرة مثل : توزر ، قفصة ، نفطة ، نفزاوة، الحامة أو الحمة ، قنطرار، وغير ذلك (١) .

وهذا الإقليم كما يرى عدد من المؤرخين الجغرافيين المسلمين القدامى، يمتد طبيعياً إلى مايلاصقة من أراضى ليبيا والجزائر (٢) . وفي هذا الصدد يرى سعد زغلول عبدالحميد أن إقليم الجريد هو جزء من الأقليم الصحراوي ، وهو أحد الأقاليم الطبيعية الثلاثة التي تمتد أفقيا لتشكل المغرب العربي الواحد ، وهى بالإضافة للإقليم الصحراوي : الإقليم الساحلي وإقليم التل أو إقليم الجبال (٣) .

وتأسيساً على ذلك يعتقد سعد زغلول عبدالحميد (٤) فيما ينقله عن مصادره المختلفة ، أن لبلاد الجريد مفهومان : عام ويشمل (كل الشريط

---

(١) البكري : المصدر السابق ، ص ٤٨ ، ٧٥ - ياقوت : نفسه ، ج ٢، ص ٥٧ - ٥٨ ، ٢٠٦ ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ ، ٣٨٢ ، ج ٥ ، ص ٢٩٦- ابن خلدون : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٧٣ ، ج ٦، ص ١٣٢ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٧٥ مع الحواشي - صالح باجية : الإباضية بالجيريد في العصور الإسلامية الأولى ، ص ٦-٧ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبدالحميد (فيما ينقله عدد لابأس به من الجغرافيين المسلمين ،) ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٥ مع الحاشية رقم ٧٦من نفس الصفحة .

(٣) نفسه ، ص ٧٢- ٧٦ .

(٤) نفسه ، ص ٧٥ .

العظيم الممتد جنوباً « من المغرب إلى الشرق » من السوس الأقصى ، ومدينة تارودانت إلى سجلماسه على سمت فاس إلى فجيج على سمت تلمسان إلى سفوح جبل راشد جنوب تاهرت إلى وارجلا على قبلة بجاية ، وبالقرب منها وأدى ريغ إلى أقليم الزاب ومدينة بسكرة إلى بلاد الجريد (قسطيلية) إلى نفزاوة ، ثم فزان ، وودان ، وأخيراً واحات جنوب برقة) . أما المفهوم الخاص فهو إقليم قسطيلية الذي (١) حددنّا مدنه وموقعه آنفاً ، وهو الذي يهمنا من المفهومين لهذه البلاد بحكم اقتصار الحديث عن إفريقية (المغرب الأدني) فحسب .

بقي أن نشير في هذه العجالة الجغرافية الخاطفة ، إلى أن معظم الجغرافيين والمؤرخين المسلمين القدامى كانوا يطلقون على هذا الإقليم لفظ قسطيلية بمدنه التي سبق ذكرها ، وإن لم يخل الأمر من اختلاف ، فيما ينضم إليه ، وفيما يخرج (٢) عنه أما لفظ الجريد ، فهو تسمية رديفة للفظ قسطيلية ، وهي مأخوذة أي التسمية من الصفة التي تغلب على ذلك الإقليم

---

(١) نفسه ، ص ٧٠ .

(٢) أنظر البكري : المصدر السابق ، ص ٤٨ . حيث لم يضم قفصه ونفزاوة إلى مايراه من إقليم قسطيلية وهي مدن توزر ، نفطة الحمه) ابن حوقل : نفسه ، ص ٩٢ (وليس عنده تعريف واضح لقسطيلية وإن كان يعتبرها مدينة وليس إقليما . وعلى هذا فهي مدينة توزر فحسب) - ابن خلدون : المصدر السابق ، ج١، ص ٤٧٣، ج٦ ، ص ١٣٢ (وهو الوحيد تقريباً من بين المؤرخين والجغرالفيين القدامى الذي أشار إلي المفهوم الواسع لمفهوم قسطيلية إذ يضم عنده نقطة وتوزر وقفصه وبلاد نفزاوة) صالح باجيه : الإباضية بالجريد ، ص ٦-٧ (وعنده الجريد - قسطيلية وتشمل توزر وضواحيها ، نفطة وضحواحيها (قنطرار الحامة ، سدادة تيقوس) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٧٥ (قسطيلية ومدنها نقطة ، توزر قفصة ، بسكرة) ..

وهي كثرة أشجار النخيل به التي يتصاعد جريدها بكثافة كبيرة ، ومن هنا سيت بلاد الجريد (١) أو بلاد النخيل ، أوبلاد التمور ، وأحيانا شط الجريد (٢) ويبدو أن هذه التسمية قد غلبت على هذا الإقليم أكثر من تسميه قسطيلية . (٣) .

ويستدعى إقليم الجريد منا وقفة توضح وضعيته السياسية والمذهبية – لما لذلك من ارتباط وثيق مع ماسنقرره من أهمية علمية وثقافية له – فهذا الإقليم بحكم كونه يقع في أقصى الجنوب التونسي ، وغير بعيد عن ولايتي طرابلس والجزائر كما عرفنا ، كان في أغلب فترات التاريخ على الأقل في الفترة موضع بحثنا أقرب إلى هاتين الولايتين منه إلى إفريقية وكما نعرف أن الدولة الأغلبية كانت تبسط سلطتها على كل البلاد التونسية مع أجزاء من ولاية طرابلس وأجزاء من ولاية الزاب الجزائري ، بالإضافة لإقليم الجريد طبعا . غير أنه في المقابل كانت هناك الدولة الرستمية التي قامت عام ١٦١هـ في بلاد الجزائر كما نعرف أيضا .

---

(١) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٤٨ ، فيما يتعلق بكثرة نخيل قسطيلية) سعد زغلول عبدالحيمد (نقلا عن مصادره المختلفة) : نفسه ، ج١ ، ص ٧٥ مع حاشية ٧٦، اذ يقول أن قسطيلية تعرف باسم بلاد الجريد أوبلاد التمر أو جزائر التمر لكثرة نخيلة أو بلاد النخيل .

(٢) أنظر صالح باجيه : نفس المرجع السابق ، حاشية ٣، ص ١٠ – محمد التونجي : المرجع السابق ، ص ٨٥ حيث يستخدم في خارطة إفريقية لفظ شط الجريد ، وغيرها .

(٣) أنظر في هذا مثلا ابن خلدون ، الذي يستخدم لفظ الجريد للدلالة على قسطيلية في معظم الأجزاء التي ورد فيها ذكره . أنظر المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٦٢ ، ٤٣٣ ، ٥٢٩ ، ٨٣٦ ج ٦ ، معظم صفحات الجزء ، ج٧ ، ٥٦ ، ٥٧، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، وصفحات كثيرة أخرى .

بيد أن الحدود بين الدولتين لم تكن واضحة المعالم ، بل كانت متشابكة متداخلة بحكم احاطة الدولة الرستمية بالذات بالدولة الأغلبية من الجنوب والشرق والغرب (١) ، ولقد نجم عن هذا الوضع الحدودي أن أصبحت تبعية إقليم الجريد (قسطيلية) السياسية تخضع حيناً للدولة الأغلبية وأحيانا أخرى للدولة الرستمية (٢) . وعلى هذا فقد غدا إقليم الجريد يشكل أهمية كبرى للدولة الرستمية تنبع من ذاته بوصفه امتداداً للفكر والمعتقد الاباضي من جهة ، ولكونه همزة وصل بين دولة المذهب الإباضي الرئيسية وهي الدولة الرستمية من جهة ، وبين معقل الإباضية في ولاية طرابلس وهو جبل نفوسه الذي كان يتبع سياسياً ومذهبياً للدولة الرستمية من جهة أخرى وذلك بعد الإتفاق الذي تم بين عبدالله بن ابراهيم الأغلب خليفة والده المؤسس ، وبين عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رسم خليفة والده المؤسس أيضا للدولة الرستمية علي اقتسام ولاية طرابلس بين الدوليتن (٣) .

لكننا وبالرغم من أن الشواهد التاريخية تعوزنا لانعتقد بأن إقليم

---

(١) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة ، حاشية رقم ٢٣ص ٣٦ وانظر كذلك الخوارج : في بلاد المغرب ص ١٨٨ مع الحواشي – محمد على دبوز : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٥٠٠، ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٢) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة ص ١٠٣ مع حاشية رقم ٢٢ من نفس الصفحة – محمد على دبوز : المرجع السابق ، ج٣، ص ٥١٥– ٥١٦ (حسبما يفهم من كلامه) .

(٣) عن الإتفاق السياسي الذي قسمت بموجبه ولاية طرابلس بين الأغالبة والرستميين ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد (فيما ينقله عن مصادره) : نفسه ، ج٢، ص٤٠ مع الحواشي – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٩١– ٢٩٢– محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ١٠٤– ١٠٦ – وكذلك الخوارج في بلاد المغرب ، ص ١٨٩– ١٩٠ .

الجريد كله كان خاضعاً سياسياً وبالتالي مذهبياً للدولة الرستمية فعلى سبيل المثال مدينة قفصة وهي إحدى مدنه الكبرى لم تكن إباضية الهوى شأن نفطة مثلاً وقنطرار والحامة وغير ذلك ، فقد عاشت فيها أكثرية سنية لمع فيها منذ إتمام الفتح وحتى انتهاء الفترة الزمنية موضوع البحث عدد كبير من علماء المذهب المالكي كما سنشير بعد قليل . ولربما يعود هذا إلى قربها النسبي للقيروان وغيرها من المدن السنية المالكية (١) وبعدها بعض الشيء عن إقليم الجريد الذي تنتمي إليه جغرافياً ، وكذلك هناك مدينة توزر التي يشار إليها على أنها العاصمة السنية لبلاد الجريد (٢)، وقد لمع فيها هي الأخرى عدد كبير من علماء وأدباء القطر الإفريقي حسبما سنلمع إلى ذكره بعد قليل .

وكيفما كان الأمر ، فإن الحقيقة التي لامراء فيها ، أن إقليم الجريد - قسطيلية - كان من أهم المراكز العلمية الرئيسية في إفريقية في الفترة الزمنية موضوع البحث ، فالجريد بحكم تنائية عن العاصمة الثقافية الكبرى القيروان وغيرها من العواصم الثقافية الأخرى ، أضطر - كما يخيل إليّ - إلى الاعتماد على نفسه في إرواء حاجته من العلوم والمعارف وخاصة الدينية منها . وكان لتمركز البربر بحكم وجودهم الأصلي فيه ، وحماسهم للإسلام وتعاليمه ، الأثر الجليل في انتشار الإسلام ، والدراسات الشرعية بينهم .

---

(١) يقول البكري : إن فقصة على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان ، بينما مدينة نفزاوة على مسيرة ستة أيام أما توزر فهى آخر مدينة في اقليم قسطيلية . أنظر المصدر السابق ،ص ٤٧، ٧٥ .

(٢) صالح باجية : المرجع السابق ص ٩ .

ولقد أتاح له هذا أن ينجب علماء محليين ، لذلك فإن معظم الأسماء اللامعة من العلماء والأدباء في هذه المنطقة والذين سنترجم لهم كانوا ينسبون إلي مدن هذا الإقليم بالدرجة الأولى .

ولعل الأمر الثاني الذي جعل من الجريد مركزاً مهماً للثقافة والعلوم في إفريقية وقتذاك ، أنه أصبح بحكم تنائية أيضا عن العواصم السياسية الكبرى للمغرب الأدنى - كما يتراءئ لنا - ملجأً لكل من لايشعر بالأمان هناك من العلماء والأدباء وغيرهم سواء أكانوا من السنة أم الشيعة ، أم الإباضية (١) .

والأمر الثالث في تصورنا الذي جعل منه مركزاً مهماً للعلوم والثقافة، هو ماسبق أن ذكرناه عن وضعيته السياسية فالمذهبية . ذلك أنه بقيام الدولة الرستمية بالقرب من هذا الإقليم تسلل إليه المذهب الإباضي خاصة وأن البربر يشكلون كما ذكرنا جل سكانه ، ولما كان البربر يشعرون بأن الدولة الرستمية التي قامت على أساس دينى قويم من وجهة نظرهم يخلد ويحقق مبادئ الإسلام العادلة ، فقد استهوتهم الآراء الإباضية فاعتنقوها ، ويضاف إلى هذا أولئك الذين فروا بمعتقدهم الإباضي والصفرى نحو الجنوب هرباً

(١) اذا كان التجاء علماء وأدباء من السنة إلي إقليم الجريد يبدو أمرا مستغربا مع أننا لا نستبعده فإن احتواء الجريد على اتباع كثر لمذهب الشيعة والاباضية أمر لايدفع ولاينكر وبالتالي لابد أن نتوقع وجود علماد وأدباء ، وهذا معروف تاريخياً - من الشيعة والإباضية . فمدينة نفطه سّميت الكوفة الصغرى كما يقول البكرى نظراً لكثرة الشيعة فيها والجريد زخر بعدد كبير من علماء وأدباء الإباضية ، أنظر البكرى : المصدر السابق ص ٧٤-٧٥ صالح باجية : المرجع السابق ، ص ١٣ .

من الضربات المتلاحقة التي تعرضوا لها من قبل الولاة الأمويين فالعباسيين، فأمراء الدولة الأغلبية (١) . فلما قامت الدولة الرستمية شعر هؤلاء بوجودهم وأهمـيـتـهم ، وترتب على ذلك أن ارتبط مـعظم الجـريد بالولاء المذهبي للرستميين منذ قيام دولتهم وحتى سقوطها عام ٢٩٦هـ . (٢)

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن إقليم الجريد - قسطيلية عرف نهضة علمية عظيمة تعددت اتجاهاتها وتوجهاتها بتعدد انتماءات سكانه المذهبية ، واصطرعت به العلوم والآداب السنية بالشيعية بالإباضية ، وإن كانت الثقافة الإباضية هي الأكثر وضوحاً وبروزاً حسبما ألمعنا إلى أسباب ذلك . غير أن هذا لايعني البتة أن الجريد كان حكراً على الثقافة الإباضية . فهذه مدينة قفصة وهي من امهات مدنه تسكنها أغلبية سنية ، ونشأ فيها عدد كبير من العلماء والأدباء المشهورين ، ليس فيها فحسب وإنما في إفريقية كلها حتى أنه قد نشأت بها مدرسة في الحديث (٣) نافست مدرسة القيروان الفقهية السحنونية نسبة إلى سحنون بن سعيد أشهر علماء المذهب المالكي في إفريقية . ولقد كادت هذه المدرسة الحديثية التى أسسها مالك بن

---

(١) عن ثورات الخوارج وملاحقة ولاة الدولتين الأموية والعباسية لهم ، ثم بعض أمراء الدولة الأغلبية .
أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٦٦ ، ٣٩٦ ، ج٢ ، ص ٤٠ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ - السيد عبالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٠٧ - ٢٧٩ - ٤٥٢ محمود اسماعيل عبدالرزاق الخوارج في بلاد المغرب ،ص ٤٢ - ١٠٧ ، ١٨٩ - ١٩١ .

(٢) صالح باجية : المرجع السابق ، ص ١٣-١٤ .

(٣) عن هذه المدرسة الحديثية وعن النهضة العلمية في قفصة أنظر مجموعة من العلماء والأدباء : تاريخ قفصة وعلمائها ، ص ٨٩ ، ١٣٢ - وانظر كذلك بعد ، ص ٣٩١ .

عيسى القفصي الذي سنترجم له بعد أن تغلب على إفريقية لو أمتد به الأجل كما يقول محمد بن الحارث بن أسد الخشني (١) ، وقبل مالك بن عيسى القفصي أشتهر بها عدد من العلماء الذين كانوا من أوائل الطبقات المالكية التي استمدت علومها المذهبية من مؤسس المذهب المالكي نفسه : مالك بن أنس كالحارث بن أسد القفصي وغيره . (٢) وبجانب مدرسة قفصة الحديثية ، كانت هناك مدرسة فقهية من رجالها : مثل حمد يس بن ابراهيم القفصي وأبو اسحاق بن منصور القفصي وغيرها . (٣)

وهذه مدينة توزر التي كانت تعد عاصمة الجريد السنية وتولى وجهها جنوب القيروان تستزيد من علومها الشرعية على وجه الخصوص من علمائها الكبار ، مثل أبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن القابسي وغيرهما (٤) ، وهاهي تهدى مثلاً للقطر الإفريقي عدداً من العماء والأدباء نذكر منهم على سبيل المثال اثنين من أبرزهم وأشهرهم هما : يحيى بن على بن زكريا الشقراطيسي ، وابنه أبا محمد عبدالله بن يحيى بن زكريا الشقراطيسي الذي كان ومايزال من أشهر من أنجبتهم مدينة توزر حتى الوقت الحاضر . ويكفى أن نشير إلى أنه هو أول من نظم ملحَمة شعرية في

---

(١) كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص ١٤٧ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، والجزء ص ٢٠٥ - عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٩ .

(٣) أنظر مجموعة من العماء والأدباء : تاريخ فقصة وعلمائها ص ١١٦- ١١٩ وأنظر بعد ص ٣٤١ .

(٤) من الذين تتلمذوا على هذين العالمين الجليلين ، : يحيى بن زكريا الشقراطيسي والد عبدالله الشقراطيسي صاحب القصيدة الشقراطيسية أنظر الهادي مصطفى التوزري أعلام الافارقة (عبدالله الشقراطيسي) ص ١٧ ، ١١- ١٣ .

مدح الرسول ﷺ ، وظلت لأمد طويل مثالاً تحتذى تعارض وتشطر وتخمّس وتشرح ، وهي القصيدة اللامية الشقراطسية (١) التى سنتناولها بالحديث في مكانها بعد إن شاء الله . وممّا يجدر ذكره هنا أن أبا يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الذي شن ثورة ضخمة على الدولة الفاطمية في القرن الثالث الهجري ، قد تلقى علومه ودراسته الدينية والمذهبية في مدينة توزر هذه . (٢)

ومدينة نفطة التي تعد من معاقل الإباضية ، كانت تشتمل على عدد من العماء والأدباء الذين كانوا ينتسبون إليها ، وكانوا يختلفون في انتماءآتهم المذهبية عن الغالبية من سكانها ، فهذا أبو عبدالله محمد بن الحسن النفطي يتلقى علومه في القيروان ليعود لمدينته ثانية فينشر فيها علومه وإن كان قد نسب إليه شئ من التشيع (٣) وهذا أحد رجالها ويدعى البغلى يروج لأفكار شيعيه حتى قبل أن تقوم الدولة الفاطمية (٤) ومثله محمد بن رمضان الشاعر الذي كان يروج هو الأخر لأفكار شيعيه (٥) وهذاعالم مالكي من أبنائها وهو أبو الحسن بن اسماعيل يتلقى علومه في القيروان على عدد من علماء المالكية وعلى رأسهم سحنون بن

(١) أنظر الهادي مصطفى التوزري : نفس المرجع السابق ، ص ١٦ – ٤٢ نص القصيدة ، ص ٤٣–٦٠– وانظر كذلك : كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي ، الجزء الخامس ،ص ١٠٨–١١٢ .

(٢) أنظر صالح باجية : المرجع السابق ص ١١٥– ١١٦ .

(٣) صالح باجية : المرجع السابق ، ص ١١ ، وأنظر حاشية رقم (١) من نفس الصفحة .

(٤) صالح باجيه : نفس المرجع السابق ، ص١١ حاشيه رقم (٢) وأنظر ماذكره البكري عن نفطه من أنه يطلق عليها الكوفه ص ١٢٨ .

القيروان على عدد من علماء المالكية وعلى رأسهم سحنون بن سعيد وغيره (١) .

أما ازدحام مدن الجريد بعلماء الإباضية على وجه الخصوص وبالفقه والثقافة الإباضية فهو أمر معروف لاينكر . فلقد ازدحمت أغلب مدنه وخاصة مدينة قنطرار أو قنطرارة (٢) بشيوخ المذهب الإباضي الذين كانوا يؤلفون مؤلفات فقهية على أسس مذهبهم . وسنكتفي هنا بذكر عدة أسماء مشهورة من علمائهم من أبناء الجريد ، مؤجلين الحديث عن مكانتهم ومؤلفاتهم الفقهية في مكانة من الدراسات الشرعية ، فمن بين تلك الأسماء نجد أمامنا أسماء لامعة بارزة ، كأبي القاسم بن يزيد من مخلد الوسياني وأبي الربيع سليمان بن علي بن يخلف وابن سلام بن عمر ، وأبي خزر بن يعلي بن زلتاف الوسياني ، وأبي نوح سعيد بن يخلف المزاني وغيرهم . ممّن سنعرض له بعد كما ذكرنا إن شاء الله .

---

(١) صالح باجية : نفس المرجع السابق ، ص١١ ، حاشية رقم (٢) .

(٢) صالح باجية : نفسه ، ص ١١ .

طرابلـــــــــس :-

طرابلس إقليم ليبي يشكل مع إقليمي برقة وفزان : دولة ليبيا الحديثة الموحـدة ، ويلفظهـا مـعظـم الجـغـرافـيين والمؤرخين العـرب القـدامى : أطرابلس (١) ويبدو أن جل العرب والمسلمين قد استسهلوا لفظها هكذا : طرابُلُس بإهمال الهمزة . أما أهلها فإنهم يضبطونها أحياناً : طرابلس أو طرابلس ، وفي بعض الأحيان يلفظون : طرابلُس أطرابلس كما أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون (٢) العرب .

وولاية طرابلس أو الأجزاء الغربية منها (ومنها المدينة) بالتحديد تعد باتفاق عدد كبير من المؤرخين والجغرافيين القدامي والمحدثين داخله ضمن مفهوم إفريقية (المغرب الأدنى) (٣) وتضم بالإضافة لطرابلس العاصمة مدينتي : لبدة وسبراته ، كما تضم مدينة زويلة أيضا (٤) وطرابلس المدينة متصلة بجبل نفوسة الذي يحيط بمنطقة • مدينة طرابلس الساحلية كالهلال،

---

(١) أنظر ابن حوقل : نفسه ، ص ٧١ – البكري : المصدر السابق ،ص ٦، ٧، ٩، ١٠، ٨٥، ١٨٢– ابن عذاري : نفسه ، ص ٥، ٨ ومعظم الصفحات التي ورد فيها ذكر مدينة طرابلس – ياقوت : نفسه ، ج٤ ، ص ٢٥ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٦٦ مع الحاشية رقم ٢٢ من نفس الصفحه – الطاهر أحمد الزاوي : معجم البلدان الليبية ، ص ٢٣– ٢٥ .

(٢) معجم الطاهر أحمد الزاوي : نفس المرجع أعلاه ص ٢٤ .

(٣) أنظر قبل ص ٣٢– ٣٣ .

(٤) البكري : نفس المصدر السابق ص ١٢ ياقوت نفسه ، ج ٣، ص ١٦٠ وهناك في المغرب أكثر من مدينة تعرف بزويلة ، فهناك زويلة السودان مقابل مدينة إجدابية • في ليبيا الآن) ثم زويله المهديه التي بناها الخليفة المهدي كما ذكرنا من قبل . انظر ياقوت : نفسه ، ج٣، ص ١٦٠، ويقول ياقوت: نفسه ص ١٦٠ أن هناك محلة وباب في مصر يعرفان بزويلة .

ويفصل بينها وبين الصحروات الجنوبية في فزان وما وراءها . ولهذا تسمى الأقاليم الساحلية المنخفضة من طرابلس بالجفارة والأقاليم الداخلية المرتفعه بالجبل وبالظهر) . (١)

وجبل نفوسة عبارة عن سلسلة جبال صخرية تمتد من الغرب إلى الشرق ، وتبلغ طول مسافته حوالي ٢٠٠ كليومتر (٢) ، أو نحو ثلاثة أيام كما يقول ابن حوقل (٣) . وقد سميت نفوسه باسم قبيلة نفوسة البربرية التي كانت ومازالت تقطنه (٤) . ويحتوى الجبل على عدد من المدن والقرى يأتي على رأسها مدينتا : شروس أو شروس بإهمال الرسم ، وكانت عاصمة علمية للاباضية بالجبل ، ثم مدينة جادوا . (٥)

وولاية طرابلس أو ماهو داخل منها في مفهوم إفريقية كان بلا نزاع من أهم المركز العمية الرئيسية في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع البحث . وإذا ماذهبنا نقيم الدليل على صدق هذه الفحوى ، فإن الأدلة لاتعوزنا لحسن الحظ . فلقد تضافرت عدة عوامل ومسببات جعلت من هذه الأجزاء من ولاية طرابلس وخاصة المدينة نفسها ذات أهمية علمية وثقافية .

١- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٦٦ – ٦٧ .

٢- الطاهر أحمد الزاوي : معجم البلدان الليبية ، ص ٩٧ .

٣- صورة الأرض ، ص ٩٢ ، وانظر كذلك البكري ، المصدر السابق ، ص ٥ .

٤- الطاهر أحمد الزوي : نفس المرجع أعلاه ، ص ٩٧ .

٥- البكري : نفس المصدر السابق أعلاه والصفحة – ابن حوقل نفسه ، ص ٩٢ – ٩٣- الطاهر أحمد الزواي : نفسه ، ص ٩٨ .

ولعل أو مـايمكن الإشـارة إليـه من تلك العـوامل ، هـو الموقع الوسط لطرابلس (١) بين المشرق والمغرب الإسلاميين ، وإذا ماقلنا موقع طرابلس ، فإن القول لابد أن ينصرف بالضرورة لموقع ليبيا الذي تنتمي إليه . ولقد أتاح لها هذا الموقع دوراً ثقافياً مهماً . فهي من جهة تيمّم وجهها نحو المشرق الإسلامي فتغترف من أدنى أقاليمة لها : مصر الكثير من علومه وآدابه ، وهي من جهة أخرى تولي وجهها كذلك نحو المغرب الإسلامي فتنهل من أدنى عواصمه الثقافية لها : القيروان ، حظاً غير يسير من علومه وآدابه . وبدهي أن ذلك كان يتم من خلال الرحلات العلمية إلى هنا وهناك . وعلى هذا الأساس فإن ثقافتها منذ العصر الفينقي وحتى العصر العربي ذات انتماءآت ثلاثة : مشرقيه ومغربية ومحلية .

وأيا ماكان الأمر ، فإن الإشعاع الثقافي للقيروان في العصر الإسلامي وللمغرب عموماً ، كان هو الأكثر بروزاً ووضوحاً في ولاية طرابلس كما يقول عثمان الكعاك (٢) .

وقد هيأ الموقع الوسط لطرابلس ولليبيا عموماً في العالم الإسلامي دوراً علمياً إضافياً (٣) . فعبر أراضيها ارتحل المئات من علماء وأدباء بقية

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن أهمية موقع ليبيا الوسط الثقافي ، راجع أحمد مختار عمرو : النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي ، ص ٢٨٥ - ٢٩١ - عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ص ١١٥ - ١١٦ صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (رسالة ماجستير) مقدمة إلى كلية الأداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٢١٦ - ٢١٨) « لم تطبع » .

(٢) مراكز الثقافة في المغرب ، ص ١١٥ -١١٦ .

(٣) صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، =

المغرب والأندلس نحو المشرق الذي كان محط آمالهم بسبب المكانة العلمية التي كان يعيش ذروتها آنذاك ، وعبر أراضيها كذلك ارتحلت مجموعات من علماء وأدباء مشرقيين نحوها في بعض الأحيان ، ونحو بقية المغرب ، والأندلس كثيراً تحت وطأة دواعي زمنية وسياسية ومصلحية .. الخ .

وفي كلتا الحالتين كانت جموع معظم هؤلاء وأولئك من العلماء والأدباد تحط رحلها في ليبيا وفي طرابلس بصفة خاصة تتروح من وعثاء السفر . وقد يطيب المقام لبعضهم فيقيمون فيها بعض الشيء ولسنا في حاجة إلى كبير عناء لنستتنتج حدوث تفاعل ثقافي وعلمي مؤثر في كثير من الأحيان ، ومتأثر في آحايين قليلة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن لموقع طرابلس الوسط دور علمي وثقافي ثالث، وهو وقوعها على طرق الحج (١) للمغاربة والأندلسيين وقد أتاح لها هذا الإفادة من وجود العلماء والأدباء الذين كانو يحطون بها عصا التسيار مؤقتاً في طريقهم لأداء منسكهم وخاصة أولئك الذين كانت سمعاتهم العلمية تسبق أشخاصهم .

وثمة عامل آخر جعل من طرابلس والقطر الليبي عموما بيئة علمية ومركزاً ثقافياً مهماً ، وهو استيطان الأباضية فيها وفي جبل نفوسه على وجه الخصوص كما ذكرنا . ولذلك فقد سادت الجبل نهضة علمية وثقافية إباضية الملامح والسمات دون شك . والواقع أن ذلك الدور الثقافي لجبل

= ص ٢١٨- ٢١٩ .

(١) صالح مفتاح ، نفس المرجع أعلاه ، والصفحات .

نفوسه ، كان من أهم أدوار الثقافة الإباضية المبكرة ، وقد جاءت تلك الأهمية من أنه قد تأسست فيه ، أي جبل نفوسه أول إمامية . إباضية (١) ، أولت العوم وخاصة مايتفق مع المذهب الأباضي منها رعايتها . واضطلع جبل نفوسه كذلك بإثراء الحياة العلمية الأباضية بالعديد من المصنفات المذهبية . وفي هذا الصدد وغيره كان دور جبل نفوسه الثقافي الأباضي أوضح بروزاً مع دور إقليم الجريد الثقافي الأباضي والدليل على ذلك تركز نسبة كبيرة من علماء الإباضية فيه .

وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن جبل نفوسه كان يتبع سياسياً ومذهبياً للدولة الرستمية منذ قيامها وحتى سقوطها ، فإن هذا لايعنى مطلقاً أن الجبل كان خاملاً ثقافياً ومذهبياً . وقد رأينا قبل قليل مبلغ اسهاماته الثقافية والمذهبية . ويمكن القول ، إن النهضة العلمية في الجبل كانت توازي على أقل تقدير مثيلتها في الدولة الرستمية في المغرب الأوسط ، وأن جبل نفوسه كان يسهم ثقافياً ومذهبياً في مسيرة الحياة العلمية الرستمية . (٢)

وأخيراً لابد لنا من استعراض بعض الأسماء اللامعة لعلماء وأدباء ولاية طرابلس تحقيقاً لما سلف أن رسمناه من منهج تاركين الحديث عن أعمالهم ومجهوداتهم العلمية لموضعه المناسب فيما بعد . ومن بين أولئك

---

(١) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٢٩٥، ٢٩٩- ٣٠٠ ، أنظر كذلك ص ٣٢٦ ومابعدهما - صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ص ٥٧- ٦٧ .

(٢) أنظر مثلا سعد زغلول عبدالحميد : نفسه والجزء ص ٣٢٦- ٣٢٨- ٣٥١ .

هناك شخصيات عاصرت بواكير النهضة العلمية في طرابلس الذي رحل إلى المدينة وسمع من الإمام مالك بن أنس مباشرة . ومثل محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي ، الذي قابل مالكاً والليث بن سعد وغيرهما ، وهناك أسماء أخرى لامعة مثل موسى بن عبدالرحمن القطان الطرابلسي وعلي بن المنمر وعبدالله الشعاب وغيرهما من علماء المالكية ممن سنترجم لهم لاحقاً .

أما فيما يتعلق بالمدن الأخرى في الأجزاء الغربية من ولاية طرابلس كصبراته ولبدة وزويله وغيرها ، فإن المصادر لاتمدنا للأسف بتفاصيل الحياة العلمية بها وغاية مانعرف هو انتساب بعض العلماء لبعضها مثل عبدالرحمن بن محمد الحضرمي اللبيدي ، وأبو عبدالله محمد بن الحسن الزويلي السرتي ، وغيرهما .

أما عن علماء الإباضية في جبل نفوسه ، فقد برز واشتهر خلال تلك الفترة موضع اهتمامنا عدد كبير منهم نذكر منهم على سبيل المثال ك اسماعيل بن ضرار الغرامسي ، ومحمد بن عبدالحميد بن مغطير النفوس ، وعمر بن يمكتن ، ونفاث بن نصر النفوس ، وعمروس بن فتح النفوسي ، وأخرين غيرهم ممن سنترجم لهم في موضعه بعون الله .

الفصـــــــل الثالث

وسائط الثقافة في إفريقية

- المساجد : المسجد الجامع بالقيروان – جامع الزيتونة – المساجد الأخرى في مدن إفريقية .
- الكتاتيب .
- الرباطات .
- المكتبات العامة والخاصة .

وسائط الثقافة في أفريقية (المغرب الأدنى)

مدخـــــــــل : -

إذا كنا في الفقرة السابقة قد أبرزنا دور بعض المدن والأقاليم العلمي والثقافي في إفريقية (المغرب الأدنى) ، وإذا كنا قد بينا أن المكانة العلمية التي تبوأتها تلك المدن والأقاليم ، إنما كانت تعود إلى مكانتها الروحية والسياسية ، والمذهبية ، والجغرافية ، إلى غير ذلك فإن ماهو خليق بالتنبية إليه هنا هو الإشارة إلى أن تلك المكانة العلمية التي حظيت بها تلك المدن سالفة الذكر والتي هيأت تلك الأسباب السابقة لها التطور والانتشار كما تقدم ، كانت تمر عبر قنوات عديدة كفلت لها تلك المكانة . فالمساجد والكتاتيب والرباطات والمكتبات العامة والخاصة وغيرها من القنوات هي التى أبرزت الدور العلمي لهذه المدينة أو تلك . ولايخفى علينا أن تلك القنوات كانت هي الخيار الرئيسي الذي انتشرت عن طريقة العلوم والثقافة الإسلامية والعربية غالباً في العصور الإسلامية وحتى وقت قريب . ونقول غالباً لأن هناك وسائط ثقافية أخرى كقصور وبلاطات الملوك والأمراء ، والمنتديات العلمية في بيوتات الوزراء وعليه القوم ، وفي بيوتات العلماء والأدباء كذلك .

ولعل من يمن السعد أن تحظى إفريقية (المغرب الأدنى) بكل تلك القنوات العلمية ، بل إن بعضها وهي الرباطات مثلاً كانت إحدى الخصوصيات أو السمات الثقافية التي تفوق بها المغرب عن المشرق تقريباً .

ولقد تضافرت تلك القنوات ، ولنسمها منذ الآن الوسائط في تقدم الحياة العلمية في إفريقية المغرب الأدنى في الفترة موضع اهتمامنا حسبما سنوضح أبعادها بعد إن شاء الله.

١ - المساجد :

لعل من قبيل القول المكرر المعاد، الإشارة إلى أن المساجد والجوامع في العالم الإسلامي كافة كانت ومازال ذات رسالة تعبدية وعلمية خالدة ، ومنذ أن وضع الرسول ﷺ أساس مسجده بالمدينة المنورة ، إضطلعت المساجد ولاتزال بهذين الدورين الأساسيين : التعبدي والعلمي في المقام الأول ، كما أن من نافلة القول أيضاً الإشارة إلى أن المسجد كان في العصور الإسلامية الألوى وحتى وقت قريب المقر الذي تناقش فيه قضاياً ومشكلات المسلمين السياسية والأمنية والعسكرية وغيرها .

ومساجد وجوامع إفريقية (المغرب الأدنى) لم تكن بدعا في هذا ، فبجانب رسالتها التعبدية ، مافتئت تعمل طوال الفترة الزمنية موضوع الرسالة - وهو مايهمنا - على الوفاء برسالاتها ووظائفها الأخرى العلمية والثقافية والإجتماعية والسياسية .. الخ . وإذا كنا لسنا بصدد تناول أدوارها التعبدية والإجتماعية وغير ذلك ، فإن مانود أن نبسط الحديث عنه هو الدور العلمي والثقافي الذين إضطلعت بهما .

المسجـــد الجامـــع بالقـــيروان :-

لايختلف إثنان في التأكيد على أهمية المسجد الجامع بالقيروان ، أو جامـع عقبة بن نافع نسبة لمؤسسة كما يطلق عليه أيضا ، ليس في إفريقية (المغرب الأدنى) فحسب ، وإنما وفي المغرب كله وتأتي أهميته تلك من كونه أقدم مسجد في المغرب كله والأنلس ، هذا من جهة ومن أهميته العلمية والثقافية من جهة ثانية ومن ثم أهمية معالمة المعمارية الإسلامية من جهة ثالثة ، وبطبيعة الحال فإن مايهمنا هنا هو الإشارة إلى دوره العلمي والثقافي في افريقية .

وكما أحيطت القيروان بالإجلال والتبجيل العميقين من قبل المغاربة بصفة عامة ، وأهل المغرب الأدنى بصفة خاصة والقيروانيين بصفة أخص ، فقد أحيط جامع عقبة بن نافع كذلك بكل مظاهر ذلك الاجلال والتبجيل ، وما من ريب في أن مشاركة عقبة بن نافع وعدد من الصحابة والتابعين في تخطيط المسجد وتحديد قبلته هو الذي أضفى على المدينة والمسجد في نظر المغاربة طابعاً دينياً عميقاً . ولذلك فليس عجيبا أن نرى المدينه تستهوى الأفئدة والنفوس ، وأن يستهوى جامعها الأكبر بقدر أكبر وأعظم تلك الأفئدة والنفوس .

وكيفما كان الأمر ، فإن الشئ الذي لامراء فيه هو أن جامع عقبة بن نافع كان قلب القيروان النابض بالحياة ، وكان عقلها المفكر أيضا على الأقل في الفترة الزمنية موضوع الرسالة . فإلى جانب دوره الديني العلمي الثقافي ، كان دوره السياسي والاجتماعي خطيراً . وتاريخ مدينة القيروان

إرتبط – فيما يتراءى لي في أدقة وأعظمه – بمسجدها الكبير .

ومنذ اللحظات الأولى لتخطيطه شرع مسجد عقبة بن نافع يمارس دوره العلمي والثقافي بجانب وظيفته التعبدية . وكم هي صادقة تلك العبارة التي فاه بها عبدالهادي التازي في كتابه : جامع القرويين (١) سالف الذكر عندما كان يتحدث عن مدينة فاس وجامعها القرويين ، فهو يقول : (يخيل إلى أنه عندما يسأل المرء عن الوقت الذي بدأت فيه دراسة العلم بالقرويين فكأنما يسأل عن الوقت الذي بدأت الصلاة فيها ، لأن تلك من هذه لافرق بينهما إطلاقاً في نظر الإسلام) . ويقدر مافي هذه العبارة من مصداقية ، فإنها لاتخص جامع القرويين وحده ، وإنما هي عامة لكل الجوامع الكبرى ، بل ومساجد العالم الإسلامي كافة . أولم يكن المسجد هو الجامعة ، والمدرسة التي تعلم وتثقف وترشد ، وتنير؟ إن الأمثلة على هذا مبسوطة شائعة لاسبيل لتتبعها من فرط شيوعها ، وجامع عقبة بن نافع لم يكن بدعاً في هذا ، فهو الجامع الذي خطه القائد عقبة وعدد من الصحابة والتابعين الذين دخلوا إفريقية ، وبثوا فيها حلقات العلم والمعرفة .

ولئن سكتت المصادر عن التصريح بأسماء التابعين الذين ألقوا دروسهم الدينيه في جامع القيروان الأعظم (فيما عدا عكرمه مولى ابن عباس) (٢) فإن من غير المعقول ألاّ نعتقد أن أولئك التابعين وخاصة أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها عمربن عبد العزيز إلى إفريقية كانوا

---

(١) الجزء الأول ، ص ١٠٨ .

(٢) عن تصدى عكرمة للتدريس والإقراء في المسجد الجامع بالقيروان ، أنظر قبل ص٩٥ .

يلقون علومهم ومعارفهم فيه . ومع من أن أغلب المصادر التي أرخت لتلك الفترة قد أشارت إلى أن أعضاء تلك البعثة كانوا يلقون دروسهم في المساجد الأخرى التي أسسوها في القيروان (١) فإننا لانرى مايحول بينهم وبين التصدر للتدريس في أكبر الجوامع وأولها لافي القيروان وإفريقية فحسب ، وإنما في المغرب كله والأندلس .

ونفس الأمريمكننا باطمئنان أن نعممه على غير أعضاء البعثة العلمية المذكورة من التابعين الذين تقاطروا على إفريقية والمغرب والذين أشارت المصادر والمراجع إلى دورهم العلمي الملحوظ في التعليم والتثقيف (٢) .

ومايقال عن جموع التابعين ، سواء أكانوا من أعضاء البعثة المذكورة، أم غيرهم ، يمكن أن يقال عن الكثرة الكاثرة من علماء القيروان الذين ولدوا وترعرعوا فيها ، كما يمكن أن يقال عن أولئك الذين وفدوا إليها من بقية مدن إفريقية أو المغرب والأندلس أو المشرق منذ مطلع القرن الثاني الهجري، فمعظمهم كانوا يتخذون من الجامع الأعظم حلقة للتدريس .

ولقد أورد الدباغ في معالمه (٣) إشارة مهمة جدا تؤكد ماذهبنا إليه من إحتواء جامع عقبة بن نافع على السواد الأكبر من العلماء المحليين والوافدين ، فقد روى حديثا لأحد علماء وقضاة القيروان المبرزين ، وهو

---

(١) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٦٤-٦٥ - الدباغ : نفسه ، ج١، ص ٢٧ - ٣٢ .

(٢) أنظر أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٢- ٢٦ - المالكي : نفسه ، ص ٧٧-٨٩ الدباغ نفسه ، ص ٢٧-٣٢ .

(٣) الجزء الأول ، ٣١٠ .

القاضي عبدالله بن غانم (ت ١٩٠ هـ) الذي عاصر الولاة العباسيين وبالتحديد المهالبة منهم ، ثم عاصر قيام الدولة الأغلبية ومؤسسها ابراهيم ابن الأغلب بتلخص بأنه (إنصرف يوماً من جامع القيروان الأعظم بعد صلاة الجمعه ، فدخل عليه بعض أصحابه ، فسأله ابن غانم : حضرت اليوم الجامع ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيت ؟ قال : رأيت أصلحك الله به سبعين قلنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنسوه فقيه ، فترجع ابن غانم وقال : مات الناس) !!.

وحديث ابن غانم هذا مهم من ناحيتين : أولاهما تدلنا دلالة واضحة على أن جامع القيروان قد شهد قبل ذلك أعداداً كبيرة من القضاة والفقهاء والعلماء الذين لازموا أساطينه وأروقته وأنهم بلغوا من القلة في عهد ابن غانم حداً جعله يتحسر ويتألم ويقول عبارته تلك : مات الناس . وثانيهما أن في العدد الذي ذكره الرجل لابن غانم من العلماء والفقهاء في عصره الدليل على مكانه جامع القيروان ، مع أنه لايرقى إلى ماعهده وعلمه ابن غانم من قبل .

ومع تنامي مكانة القيروان السياسية والثقافية والعلمية ، تنامت أهمية جامعها الأعظم . فقد قصده العلماء من كل حدب وصوب يلقون فيه دروسهم ويحلقون فيه الحلقات مع تلامذتهم ، ولقد تصدى هؤلاء العلماء للإقراء والتدريس في الجامع الأعظم منذ القرن الثاني الهجري وحتى قيام الدولة الفاطمية عام ٢٩٦ هـ حين فضل أكثر علماء المالكية ترك التدريس في الجامع كارهين ، نظراً للإختلاف المذهبي مع الشيعة ، واقتصارهم على

بيد أن بقية المعارف غير العقائدية والمذهبية كعلوم اللغة العربية والنحو وغيرها لم ينقطع تحصيلها عن الجامع ، فقد واصل علماؤها التدريس في الجامع الأعظم . (١)

ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة هنا تأسيساً على ما ألمعنا إليه من إيضاح لدور الجامع العلمي والثقافي إلى أن العلوم الدينية بكافة فروعها من فقه وحديث وقرآءات وعقائد كانت هي التي صبغت دور الجامع العلمي والثقافي . ولعل علوم اللغة العربية في تصورنا تأتي في المقام الثاني . أما بقية العلوم والمعارف الأخرى ، فإنه لم يتسن لنا معرفة نشاطاتها في الجامع الأعظم نظراً لغياب التنبيه الصريح على ذلك في الكتب التي تناولت مسيرة تلك العلوم في المغرب الأدنى خلال الفترة موضوع الرسالة .

ومادمنا بصدد الحديث عن الجو العلمي الذي كان يشيع بين جنبات الجامع الأعظم ، فإن مما يقتضيه السياق هنا ، الإشارة إلى أن الجامع كان مقراً وموئلا للقضاة وخاصة قضاة المالكية ، ففيه وفي ساحاته كانت تقضى الأحكام وتفض المنازعات بين الخصوم (٢) .

ولقد شهد الجامع أيضاً في الفترة التي نشبت فيها المجادلات الكلاميه بين أتباع المذاهب والفرق المختلفة توافد أعدادٍ من أتباع تلك الفرق إليه ، ممّا حدا بعلماء المالكية إلى التصدى لهم بقوة (٣) ولقد حدت تلك

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٠٨ .

(٢) على سبيل المصثال أنظر المالكي: نفسه ، ص ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٨، ١٥٢ ، ٢٥٣ ، ١٩٢، ١٩٣، ٢٧٦ ، ٢٨٤، ٣٠٧ .. الخ .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ص ١٨٢ – عياض : نفسه ، ج١ ص ٤٧٤ .

بيوتهم ومساجدهم ، بل وأحياناً حوانيتهم ومصدر رزقهم (١) . فالقاضي عياض يروى في مداركه (٢) عن العالم القيرواني جبلة بن حمود بن عبدالرحمن الصدفي (٢١٠-٢٩٩ هـ) موقفه من الفاطميين بمانصه : (قال الفقية ابن سعدون القروي : لما دخل عبيدالله الشيعي القيرواني ، وخطب أول جمعه ، وجبلة حاضر . فلما سمع كفرهم قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ، وخرج يمشى إلى آخر الجامع ويقول : قطعوها قطعهم الله ، فما حضرها أحد من أهل العلم بعد هذا) . وهذا الموقف وإن كان متعلقاً بصلاة الجمعة إلاّ أننا نعتقد أن علماء المالكية قد تركوا حضور الجامع بالكلية كارهين .

ودليل آخر يرويه لنا القاضي عياض أيضاً في مداركه (٣) ، وهو قوله (كان أهل السنة بالقيروان أيام بنى عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة ..) وهذا القول ينطبق بالدرجة الأولى على علماء القيروان فضلاً عن عامتهم . ويورد الدباغ في معالمه (٤) موقفاً ثالثاً وهو أن ربيعاً القطان وهو أحد علماء السنة المالكية الذين وقفوا من الشيعة موقفاً متشدداً كان يلتزم الإقراء في حانوته الذي يبيع فيه القطن ، حيث يقدم عليه الطلبة وغيرهم من الذين يستشكل عليهم شأن من شؤون الفقه .

(١) أنظر في هذا الشأن : حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ١٠٨ .

(٢) الجزء الثاني ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٣) الجزء الثاني ، ص ٣١٨، ٣١٩ .

(٤) الجزء الثالث ، ص ٢٩ - ٣٠

التجمعات بعالم القيروان الأشهر وقاضيها المبرز سحنون بن سعيد إلى تفريق حلقاتهم عن الجامع (١)

وعندما قامت الخلافة الفاطمية في إفريقية (المغرب الأدنى)، جهدوا - أي الفاطميين - في بداية الأمر على أن يجعلوا من الجامع الأعظم منبراً يوضحون فيه موقفهم وأصول دعوتهم بل ويمارسون فيه تطبيق تلك الأصول سواء أكان ذلك فيما يتعلق بصيغة الآذان المختلفة عمّا تأخذ به المذاهب السنيه أم عن طريق منع صلاة التراويح حسبما سنفصله بعد في موضعه (٢) إن شاء الله ، ولقد دفع هذا الأمر علماء وفقهاء المالكية وهم الغالبية العظمى لعلماء السنة إلى اعتزال الصلاة في المسجد الجامع وخاصة صلاة الجمعة . وعندما نشبت الثورة ضد الفاطميين في المغرب الأدنى بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني ، انضمت إليه جموع حاشدة من أهل السنة بقيادة أبرز علماء المالكية وقتها ، وقد رغب هؤلاد أن يعلنوا موقفهم المؤيد لأبي يزيد من على منبر الجامع الأعظم وهو ماتحقق لهم بالفعل . ومن منبرجامع القيروان نفسه أعلن علماء المالكية تبرؤهم من دعوة أبي يزيد ومناصرته عندما تكشفت لهم نواياه واتحاهاته الخارجية التي كان يضمرها . (٣)

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ - عياض ، نفسه ، ص ٦٠٠ .

(٢) أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٢٩٤- ٢٩٥- المالكي : نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٣١ - ٣٣- ٤٣- ابن أبي دينار : نفسه ، ص ٥٥ ومابعدها حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٩٥- بعد ص ٥٢١- ٥٢٢ .

(٣) أنظر عياض نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٣١٨ - ٣٢١ .

ولم يكتف علماء المالكية بإعلان مواقفهم من الشيعة وأبي يزيد مخلد من على منبر الجامع الأعظم فحسب ، وإنما عارضوا كل إتجاه يرمي إلي التفريق في النظرة بين فرق الشيعة ، فعندما سئل أحد علمائهم – أي علماء المالكية – المعروفين وهو أبو اسحاق ابراهيم بن حسن التونسي في عهد المعز بن باديس الصنهاجي عن رأية في الشيعة ، أجاب بجواب أثار زملاءه من العلماء ،فطلبوا منه التبرء من موقفه علانيةً من على منبر الجامع الأعظم (١) بالقيروان .

وإضافة إلى هذا وذاك فقد غص المسجد الجامع بجانب العلماء والفقهاء واللغويين وغيرهم برهط من العباد والزهاد الذين كان لهم شأو كبير في إفريقية (المغرب الأدنى) . وليس بعيداً أن يمارس هؤلاء دوراً علمياً وثقافياً حتى ولو كان ضئيلاً (٢) .

أما وقد تهيأ لنا إبراز كثير من جوانب دور الجامع الأعظم العلمي والثقافي ، فإنه يجدر بنا أن نختتم الحديث عن الجامع بذكر بعض من صرحت المصادر والمراجع بتصديهم للتعليم والتدريس فيه . فإلى جانب عكرمه مولى بن عباس الذي أشرنا من قبل إلى دوره العلمى بالجامع ، هناك عدد من الفقهاء الذين وردت أسماؤهم صراحة ، فمن هؤلاء يزيد بن الطفيل أحد علماء القيروان المتقدمين ، ويذكر المالكي (٣) أنه كانت له حلقة

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٦٦–٧٦٧.

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٢٨ ، ١٣٠ – ١٣١، ٢١٦، ٣٩٨ .

(٣) نفسه ، ص ١١٠

عظيمه بالمسجد الأعظم . ومنهم كذلك أسد بن الفرات بن سنان أحد أبرز علماء القيروان آنذاك (١) . وأبو جعفر موسى بن معاوية الصمادحي الذي كان يفتي في جامع القيروان أزيد من ثلاثين عاماً (٢) ومن العلماء الذين درسوا في المسجد الجامع : أبو الوليد مروان بن أبي شحمة المسيلي الإفريقي (٣) ، ثم العالم المشهور : يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي وقد ذكر (أنه كان ليحيى بن عمر كرسي في الجامع السماع ، فيجلس عليه ويسمع عليه الناس لكثرتهم) (٤) . ومن الفقهاء المتأخرين أبو بكر عبدالله ابن محمد بن عبدالله المالكي صاحب كتاب : رياض النفوس ،فقد كان له مجلس بالجامع الأعظم يُجتمع إليه فيه ويُسمع كلامه) (٥) .

ومن علماء الحديث ، يرد اسم ربيع بن سليمان القطان ، كأحد علماء الحديث الذين كانت لهم حلقة بجامع القيروان ومن علماء القرآءات ، ابن برغوث المغربي الذي أمره أحد قضاة القيروان آنذاك ، وهو : عبدالله أحمد ابن طالب الذي سنترجم له من بعد ألاَّ يقرئ الناس إلاَّ بحرف ، نافع (٦) .

---

(١) أنظرالمالكي : نفسه ، ص ١٨٢ – عياض : نفسه ج١ ، ص ١٧٤ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٩٠ – عياض : ، نفسه ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣) المالكي نفسه ص ٣٠٣ – ٣٠٤ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٣٩٨– عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٣٤ – ٢٣٦ – الدباغ : نفسه ،ج ٢ ، ص ٢٣٣ – ٢٤٥ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص٧٣ .

(٥) أنظر المالكي : نفسه ، المقدمة التي كتبها المحقق، ص ٤٣ ، عياض : نفسه ج٢ ، ص ٣٢٣– ٣٢٥– الداودي : طبقات المفسرين الجزء الأول ، ص ١٧٠ – ١٧١ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه . ص ٧١ .

(٦) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٣٧٨ .

وكذلك منهم : ربيع بن سليمان القطان الذي مربنا ذكره قبل قليل ، ومنهم أيضا : أبو بكر القصرى إمام جامع القيروان . (١)

أما في اللغة والأدب فيأتي من علمائهما أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي المعروف بابن القزاز القيرواني كواحد من أشهر علماء اللغة الذين تتلمذوا في المسجد الجامع على يد شيوخ اللغة والأدب . ثم علت به همته بعد أن اشتد عوده إلي التصدي للتدريس تحت سوارى المسجد الجامع (٢) ومنهم أيضاً الأديب الشاعر المشهور : بكر بن حماد (٣) بن كلب الزناتي التاهرتي الذي تصدر لإملاء دروسه في العلم والأدب بجامع القيروان الأعظم .

جامع الزيتونه بتونس :-

كما كانت مدينة تونس تأتي في المرتبة الثانية من الأهمية بعد القيروان في إفريقية .(المغرب الأدنى) خلال الفترة موضوع البحث ، فإن جامعها الأعظم : الزيتونة يحل كذلك ثانيا بعد جامع القيروان الأعظم . وجامع تونس الأغظم المعروف بالزيتونة يعود تأسيسه إلى الوالي الأموي

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، عنى بنشره ج . برجستراسر ، الجزء الأول ، ص ١٨٥ ، ٢١١ .

(٢) أنظر المنجي الكعبي : القزاز القيرواني حياته وآثاره ص ١٦ - ١٩ .

(٣) عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتي منتصف العشرين ، ص ٥٤-٥٥ (نقلا عن كثير من المصادر والمراجع) .

المعروف عبيدالله بن الحبحاب (١١٦-١٢٣هـ / ٧٣٤/ ٧٤١م) على الأرجح . ونقول على الأرجح لأن هناك من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين اليوم من ينسب بناء الجامع الأعظم إلى القائد حسان بن النعمان الغساني (١) ، ويذكرون أن الذي جدده وزاد فيه هو : عبيدالله بن الحبحاب ، بل ورد أيضاً أن زيادة الله بن الأغلب هو الذي بنى جامع الزيتونية (٢) .وتردَّد كذلك أن أحمد بن محمد بن الأغلب هو الذي بناه . (٣) .

بيد أن كثيراً من المصادر التاريخيه المتقدمة - وجل المراجع الحديثة ،

---

(١) أنظر ابن أبي دينار : نفسه ،ص ١٦ - ١٧ . ويستبعد ابن أبي دينار القول ان الجامع لم يبن إلاّ في عهد عبيدالله بن الحبحاب ، ويتساءل كيف يمكن للمسلمين أن يمكثوا نيفاً وثلاثين عاماً بغير مسجد ؟ ولذلك فهو يعتقد بأن المسجد بني في عهد حسان ، ثم زيد فيه وفي ضخامته من قبل عبدالله بن الحبحاب ، وبذلك يرى أن الأشكال قد زال حول هذا الأمر . والواقع أن ابن أبي دينار قد أشار إلى جانب ذلك إلى الأقوال التي قالت بأن باني الجامع هو عبيدالله بن الحبحاب ، ولكنه يبدو أنه أراد الجمع بين الرأيين أي أن الجامع ربما يكون من بناء حسان بن النعمان ، والزيادة والتوسعة من نصيب عبيدالله بن الحبحاب . ومن الباحثين القلائل الذين تناولوا هذا الموضوع ، سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص١٠٢ (حديث ينسب بناء الجامع لحسان والزيادة لعبيدالله بن الحبحاب) - محمد الحسيني عبدالعزيز : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ص ١٣٦ .

(٢) أنظر ابن أبي دينار : نفسه ، ص ١٢ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٥١ .

(٣) أنظر الدباغ : نفسه ، الجزء الثاني حاشية رقم (٢) ص ١٤٨ (وقد علق المحققان على ذلك بقولهما : إن الأمير أحمد بن محمد بن الأغلب قد جدده بعمده وقبابه) .

(٤) أنظر الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ١٠٧- البكري : المصدر السابق ،ص ٢٣٧- ابن عذاري : نفسه ، ص ٥١ - ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج١، ص١١٢ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٥١- ٣٥٢ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٨٠ =

تشير صراحة إلى أن باني الجامع هو : عبيدالله بن الحبحاب (٤) أما حسان بن النعمان الذي يعود فضله تأسيس مدينة تونس إليه فقد بنى مسجداً صغيراً (١) بها ، ثم مالبث أن بنى المسجد الجامع بالقرب منه بعد ذلك .

على أن بعض المصادر التاريخيه وإن كانت قد أشارت إلى أن ابن الحبحاب هو الذي بنى المسجد الجامع إلاَّ أنها قد أوردت خطأ أن تأسيسه كان عام : ١١٤هـ (٢) . ولكن الواقع التاريخي ينكر ذلك ، فالجامع لم يبن إلاَّ في عام : ١١٦هـ أوبعده ذلك لأن عبيدالله بن الحبحاب لم يقدم إفريقيه والياً من قبل الخليفة هشام بن عبدالملك إلاَّ في عام : ١١٦هـ (٣) ، وذلك خلفاً للوالي السابق عبيدة بن عبدالرحمن السلمي (١١٠- ١١٥هـ- ٧٢٨-

= (وهذا خلاف قوله السابق في ص ١٠٢) - وأنظر الكتاب الذي أصدرته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً عي تأسيس الزيتونه ، الفصل الذي كتبه الشيخ محمد الشاذلي النيفر بعنوان : جامع الزيتونه في تاريخ تأسيسه ،ص ١٣ - ١٥ (حيث أثبت نفر كبير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن باني الجامع هو عبيدالله بن الحبحاب) .

(١) أنظر الفصل الذي كتبه الشيخ محمد الشاذلي النيفر في الكتاب الذي أصدرته وزارة التلعيم العالي والبحث العلمي التونسية المشار إليه أعلاه ص ١٤- ١٥.

(٢) أنظر البكري : نفس المصدر السابق ،ص ٣٧ - ابن أبي دينار : نفسه ص ٥- ١١ - ١٦ ،١٧ (نقلا عن مجموعة من المؤرخين) محمد الحسيني عبدالعزيز - نفس المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) أنظ مثلا ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع ، ص ٢١٩ - الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ١٠٧- ابن عذارى : نفسه ، ص ٥١- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٧٨ - كتاب وزارة التعليم العالي والبحث العلمي التونسيه - ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونه ،ص ١٥ - ١٦ .

٧٣٣م) . ومن الطبيعي إذاً أن يكون تأسيس المسجد الجامع بعد قدومه إلى إفريقية . ويرى أحد الباحثين المحدثين ، أنه كانت لعبيدالله بن الحبحاب أهداف سياسية ودينية وعلمية في اتخاذه مدينة تونس العاصمة ، وبناء جامعها العتيق (١)

ويميل الشاذلي (٢) النيفر إلى أن تسمية المسجد الجامع بتونس بالزيتونة ، هي تسمية محدثة وقعت في القرن السابع الهجري أي في عهد الدولة الحفصية التي حكمت المغرب الأدنى إبتداء من الثلث الأول من القرن السابع الهجري وحتى القرن العاشر الهجري ومنذ ذلك التاريخ أصبح الجامع يعرف بجامع الزيتونة حتى يومنا هذا .

أما لفظ الزيتونة نفسه الذي ألصق بالجامع ، فقد ورد فيه عدة تفسيرات تغلف الأسطورة بعضها ، ومن ذلك ماقيل من أن النبي نوح عليه السلام (لما كان في السفينة على الطوفان وقفت به يوماً وسط البحر : فأوحى الله إليه أن تلك بقعة يقال لها : جامع الزيتونة ، فلما دخلها الصحابة (أي مدينة تونس) وجدوا الرهبان في

---

(١) ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس الزيتونه ، الفصل الذي كتبه محمد الشاذلي النيفر بعنوان : جامع الزيتونة في تاريخ تأسيسه ، ص ٢١ .

(٢) أنظر الفصل السابق أعلاه من الكتاب ، ص ٢٢- ٢٩ (حيث أكد على أن كل المصادر التي ذكرت جامع تونس الكبير لم تلصق به لفظ : الزيتونة ، بل كانت تطلق عليه جامع تونس أو مسجد جامع تونس ، أو جامع مدينة تونس أو المسجد الجامع ، ولكن منذ القرن السابع الهجري بدأ يطلق عليه جامع الزيتونة حتي الآن ، أي منذ العهد الحفصي حتى الآن .

(٣) أنظر محمد الشاذلي النيفر : نفس الفصل السابق ، ص ٢٢ .

صومعتها ، لأن صومعة الجامع قديماً كانت للرهبان) (٣) وينقل ابن أبي دينار (١) عن ابن الشباط التمزري صاحب كتاب : صلة السمط أن المسلمين وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد ، فقالوا هذه تونس ، وسمى المسجد بجامع الزيتونة) . أما السيد عبدالعزيز سالم (٢) فيذكر أنه سمى بجامع الزيتونة نسبة إلى القديسة (زيتونة التي عاشت في زمن الوندال ، ونحن لانرى فيما ذهب إليه الشاذلي النيفر من رأي مايدفع إلى تجاهله . فهو يقول إن سبب التسمية : الزيتونة ربما يعود إلى ما اشتهرت به البلاد التونسية من كثرة أشجار الزيتون التي تشكل أهمية غذائية للسكان ، ومن هنا تفاءلوا بتسمية مسجدهم بمسجد الزيتونة (٣) . ومما يجد ذكره أن هناك مسجداً آخر يعرف بجامع الزيتونة ، ولكنه في القيروان وليس في تونس (٤) ، وقد كان له دور ثقافي وعلمي رصدته كتب التراجم والطبقات (٥) .

احتل جامع الزيتونه في نفوس المغاربة بصفة عامة وأهل المغرب الأدنى بصفة خاصة والتونسيين بصفعة أخص مكانة سامقة الذرى تضاءلت

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(٣) الفصل السابق من كتاب ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة ، ص ٢٦٥ .

(٤) أنظر مثلا المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٧٠ (حيث يشير إلي أن اسماعيل بن عبيد الأنصاري أحد التابعين من أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبدالعزيز إلى إفريقية قد بنى بها المسجد الكبير بالقيروان الذي يعرف الآن (أي في عصر المالكي) بمسجد الزيتونة) الكناني القيرواني نفسه ، ص ٤٦ ، ٩٨، ١٠١، ١٠٣ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٦٣، ٢٣٣ .

(٥) أنظر الكناني القيرواني : نفسه .

معها مكانه جامع القيروان الأعظم – حاشا الدينيه – نفسه . ذلك لأن الجامع ومنذ أن وضع أساسه وحتى الوقت الحاضر مابرح يضطلع بدوره العلمي الثقافي الريادي لاينافسه في هذا من المؤسسات العلمية القائمة سوى الجامع الأزهر بمصر والقرويين بالمغرب . ولئن تعثرت خطوات جامع القيروان العلمية بعد تعثر واقعها السياسي الناتج عن الزحف الهلالي على إفريقية كما هو معلوم . فإن جامع الزيتونة بات منفرداً بالإضطلاع بالدور الثقافي والعلمي الريادي وحده هناك . فغدا محط الأنظار وهوى الأفئدة ، وكيف لا ؟ وهو الجامع المعمور (الذي امتد شعاعه ، وخفق نوره ، وتواصل مدده ، فكان كعبة القصاد وأمل الرحالين ، وذخر الإسلام وعلومه ، بالنسبة للمغرب العربي ، وعددٍ من أقطار القارة الإفريقية) (١) ؟ وليس بدعاً بعد هذا أن (تتصل حياة الزيتونة بحياة تونس إتصالاً وثيقاً وترتبط حياتها بشتى نواحي الحياة فيها، ثقافية كانت أو اجتماعية أوسياسية) (٢) ومن أجل ذلك (كان تعلق الأمة التونسية بها تعلقاً جعلها ملء المسامع والأفواه والمقل عند التونسيين بدون تفرقة بين صنف وصنف ، فهي متجه الأنظار ومطمح الأفكار وقبله الواردين لمنهل المعارف) (٣) .

هذه المكانة العلمية الكبرى التي وصل إليها الجامع الأعظم بتونس يجب ألاَّ تصرفنا عن الحقيقة والواقع التاريخي فهذه المكانة لم تأت إلاَّ

---

(١) الطاهر المعموري : جامع الزيتونه ومدارس العلم في العهدين الحفص والتركي ص ٣ .

(٢) الطاهر المعموري : نفس المرجع والصفحه أعلاه .

(٣) محمد الشاذلي النيفر : نفس الفصل السابق٤ من كتاب وزارة التعليم العالي التونسية ، ص٨ .

متأخرة . فجامع الزيتونة لم يقدر له في الفترة موضوع الرسالة أن يتبوأ دوره العلمي الريادي الذي تميز به والذي أشرنا إليه آنفاً، كاملاً ، وغيره خاف أن هناك أسباباً حالت دون ذلك . لعل من أهمها وآكدها أن مدينة تونس وجامعها الأكبر لم يحظيا من أهل المغرب الأدنى بنفس الحظوة التي بلغتها القيروان وجامعها العتيق . والسبب الثاني أن مدينة تونس لم تتسنْم دورها السياسي كعاصمة إلاَّ بعد إنهيار الوحدة المركزية للمغرب الأدنى إثر الزحف الهلالي الذي قلَّص الدولة الصنهاجية وحجَّمها ، وذلك عندما اتخذها الخرسانيون (١) وهم أسرة إنفصالية خرجت على الصنهاجيين عاصمة ، ثم جاء الحفصيون بعدهم ، فكرسوا المدينة قاعدة وعاصمة للبلاد التونسية حيث لاتزال كذلك حتى اليوم ، ولسنا هنا في حاجة إلى القول بأن الجامع قد ناله من هذا القدر الأسمى . وثمة سبب آخر ، وهو في الحقيقة قدر مشترك بين جامعي القيروان وتونس وهو أن المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات لم تسعفنا بالإشارة إلى النشاط العلمي بالجامعين إلاَّ قليلاً ، على الأقل في الفترة موضوع الرسالة . غير أن النشاط العلمي بجامع الزيتونة مالبث أن نال حقه من الإشارة منذ القرن السابع الهجري وحتى الآن في معظم كتب التاريخ والتراجم والأدب ممَّالاحاجة لنا هنا إلى تبيانه وإبرازه .

بيد أنه ومع عظم تأثير تلك الأسباب سالفة الذكر في الحركة العلمية

---

(١) عن هذه الأسرة ، أنظر ابن عذارى ، نفسه ، ص ٣١٤ - ٣١٥ .

للمدينة والجامع ، فإن من غير المنطقي أن نجرد المدينة وجامعها العتيق من أي نشاط علمي ملحوظ . أما المدينة فلقد سبق لنا أن تحدثنا عن مكانتها العلمية ، وأما الجامع فإننا نتفق مع الطاهر (١) المعموري في أنه يعسر أن نتصور خلوه من حلقات العلم .

ذلك لأنه استقر بمدينة تونس عدد لابأس به من التابعين الذين قدموا إفريقية للتعليم والتدريس بجانب تصديهم للجهاد في سبيل الله . ومن الطبيعي أن ينشر أولئك العلماء علومهم ومعارفهم الدينيه بين أبناء المدينة وغيرهم من القادميين والوافدين إليها ، حتى إذا مابنى جامعها ، التحقوا به يلقون دروسهم الدينيه وغيرها . ومن الطبيعي كذلك أن تحظى المدينة إثر ذلك بأجيال من أبنائها الذين قدر لهم أن يصبحوا علماء وفقهاء بالإضافة إلى الوافدين من العلماء والفقهاد إليها من بقية مدن إفريقية أو من المغرب أو المشرق الإسلاميين .

ويحسن بنا قبل أن نختتم الحديث عن جامع الزيتونة أن نشير إلى أسماء بعض العلماء الذين ألقوا فيه دروسهم من الذين نُص صراحة في كتب التراجم على دورهم ذلك وإلى أولئك الذين يُظن أنهم قد تصدوا للتدريس فيه أيضاً ، فمن التابعين الذين سكنوا مدينة تونس وأثروا الحياة العلمية فيها: أبو محمد : خالد بن أبي عمران التجيبي (٢) وقد توفى بمدينة

(١) جامع الزيتونة ، ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ص ٤٩ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥، ٢٤٥- ٢٤٧- المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ١٢٥- ١٢٦ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥، ٢٤٥، ٢٤٧- المالكي : نفسه والجزء - ص ١٠٣ - =

تونس عام :١٢٥هـ، أو ١٢٧هـ، ومنهم أبو كريب : جميل بن كريب (٣) المعافري ، وقد تولى القضاء في إفريقية ، وكان من سكان مدينة تونس وتوفي عام ١٣٩هـ ومنهم كذلك يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري ، ويروى محمد بن حارث الخشني صاحب كتاب طبقات علماء تونس المدرج ضمن كتاب طبقات (٢) علماء إفريقية لأبي العرب التميمي ، أنه كان ليحى بن سعيد باب في الجامع الأعظم مغلق لايفتح إلاّ إذا جاء يحيى إلى المسجد، إلى غير ذلك ممَّا لم تصرح المصادر وكتب التراجم بذكرهم . والمظنون أن بعض هؤلاء التابعين قد تصدوا للتدريس في الجامع الأعظم بجانب تدريسهم في بيوتهم والمساجد الأخرى . ويروى المالكي (٣) في هذا الصدد أن (عمرو بن راشد بن مسلم الكناني التابعي ، ويقال له : عماره بن راشد وهو الغالب عليه ، نزل بمدينة تونس فسكنها واختط بها) ، ومعروف أنه يقصد بعبارة : اختط بها مسجداً ، أنه بنى بهاعلى ماسلفت به العادة من التابعين وكبار العلماء والفقهاء ، وقتذاك .

ولقد تلت هذه الصفوة من التابعين الأجلاء ، علماء مغاربة الأصل ، أي ولدوا ونشأوا في إفيرقية ومدنها ، وكان نصيب مدينة تونس من أولئك نصيباً عميماً . فهذا على بن زياد الطرابلسي وهو الذي استوطن تونس حتى أصبح يعرف بعلي بن زيادة التونسي والذي سنترجم له من بعد نشر

= حسن حسني عبدالوهاب ، ناالورقات ، القسم الأول ، ص ١٢٥– ١٢٦ .

(١) المالكي : نفسه ، ص ١٠٧ – ١١٠ حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ، القسم أعلاه ص ٢٥–٢٦ وانظر كذلك المالكي : نفسه ، ص ٩٣ – ٩٤ .

(٢) نفسه ، ص ٨٧ .

علومه الدينية التي تلقاها من علماء المدينة المنورة وعلى رأسهم الإمام مالك ابن أنس في مدينة تونس بصفة خاصة وفي موطنه إفريقية بصفة عامة حتى أن أبرز شيوخ المالكية في الفترة موضوع الرسالة كانوا يدينون له بالفضل والثناء العميقين . وغير بعيد أن يكون قد ألقى جزءاً من معارفة وعلومه في جامعها الأكبر بجانب حلقته في المنزل والمسجد . وتمدنا كتب التراجم والطبقات باسم علم آخر ألقى دروسه في الجامع الأعظم ألا وهو : أبو البشر زيد بن بشر (١) الأزدي الذي توفي عام ٢٤٠ أو ٢٤٢هـ . ومن الذين تصدوا للتدريس كما يُظن بجامع تونس الأعظم : أبو العباس عبدالله بن أحمد الأبياني (٢) المتوفي عام ٣٥٢هـ ولقمان بن يوسف الغساني (٣) الذي كان واحداً من العلماء التونسيين المعروفين آنذاك . وقد توفى عام ٣١٩هـ . هذا إلى غيرهم ممّن لم يسعفنا الحظ بالعثور على نصوص صريحة عن إلقائهم للعلوم والدروس بالمسجد الجامع خلال تلك الفترة موضوع الرسالة .

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٣٠١- ٣٠٢ - عياض : نفسه ، ج ٢، ص ١٠- ١١.

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٤٧ - ٣٥٢ حسن حسني عبدالوهاب الورقات ، القسم الأول ، ص١٢٧ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣١١- ٣١٣ .

المساجد الأخرى في مدن إفريقية :

لم يكن جامعاً عقبة بن نافع بالقيروان ، والزيتونة بتونس وحدهما ، المركزين اللذين إضطلعا بالدور أو النشاط العلمي الثقافي الريادي في إفريقية خلال تلك الفترة فحسب ، وإنما كانت معظم المساجد والجوامع تشاركهما في بث ذلك الاشعاع العلمي . وكم هي صادقة ملاحظة عثمان الكعاك وهو يتحدث في كتابه : مراكز الثقافة (١) ، التي يشير فيها إلى أن من بين الخصائص التي تميزت بها أقطار المغرب - والمغرب الأدنى على وجه الخصوص كما يتراءى لنا - هي ظهور المساجد الخاصة وكثرتها . فالمتتبِّع لكتب التراجم والطبقات المغربية تصادفه العشرات من الأمثلة التي تؤكد صدق تلك الملاحظة . فكتاب رياض النفوس مثلا ملئ بالإشارة إلى تلك المساجد الخاصة التي أسهم التابعون ممَّن قدموا إلي إفريقية في تأسيسها، ثم مالبثت أن غدت تقليداً متبعاً عند علماء إفريقية من بعد . ولقد كان الهدف من تأسيس تلك المساجد الخاصة بجانب وظيفتها التعبدية إتخاذها مدارس أو مراكز لنشر علومهم ومعارفهم الدينية على وجه الخصوص . ولعل مايلف النظر إلى جانب هذا ، أن تلك المساجد لم تنتصب في المدن الكبرى فحسب وإنما كانت متوفرة في كل مدن إفريقية . ولقد كان شائعاً هذا أيضاً في أقطار العالم الإسلامي ، إلاَّ أنه يبدو أنه في المغرب الأدنى أبرز وأوضح .

فلقد أسهمت تلك المساجد الخاصة ، بالإضافة إلى المساجد الجامعة

---

(١) ص ١٣ - ١٤ .

بكل مدينة في دفع مسيرة الحياة العلمية قدماً إلى الأمام . وفي القيروان مثلاً هناك المساجد التي أقامها عدد من التابعين وغيرهم لخدمة ذلك الهدف . فهذا اسماعيل بن عبيد الأنصارى أحد أفراد البعثة العلمية التي بعثها عمر ابن عبدالعزيز كما مربنا يؤسس (١) في القيروان مسجداً كبيراً، وهو الذي عرف فيما بعد بمسجد الزيتونة . وذاك أبو عبدالله على بن رباح بن نصير اللخمي أحد التابعين من غير العشرة ،يسكن القيروان ويختط (٢) بها داراً ومسجداً ويقول المالكي (وأنتفع به وتفقه على يديه أهل القيروان)(٣) ، ومنهم أبو رشيد حنش بن عبدالله السبأى الصنعاني ، سكن القيروان واختط بها مسجداً ينسب (٤) إليه . ومنهم كذلك أبو عطيف : جندب بن بشر أو حبيب بن بشر الذي سكن القيروان واختلط بها مسجدا (٥) ، ومن التابعين الذي اختطوا مساجد خاصة لهم بالقيروان بالإضافة إلي أولئك : زياد بن أنعم السفياني(٦) وعبدالله بن عبدالرحمن بن أشيفع (٧) بن وعلة الشيباني المعروف بابن وعلة المصري .

وإلى جانب هذه المساجد الخاصة التي زخرت بها القيروان ، هناك مسجدان كان لهما دور ملحوظ في تاريخ الحياة العلمية فضلاً عن تأثيرهما

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٧٠ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص٧٧ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٧٧ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٧٨ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٧٩ .

(٦) المالكي : نفسه ، ص ٨٣ .

(٧) المالكي : نفسه ، ص ٨٣ .

الصوفي وهما مسجد الخميس ، ومسجد (١) السبت اللذين كان يؤمهما عدد من العلماء والفقهاء بجانب الزهاد والمتصوفة .

ولم يقتصر الأمر على التابعين وحدهم ، فقد أقام عدد من العلماء والفقهاء ، المغاربة المعروفين مساجد خاصة نسبت في بعض الأحيان لهم ، وكانوا غالبا ما يلقون فيها دروسهم وللمرة الثانية يسعفنا كتاب رياض النفوس للمالكي بشواهد عديدة تؤكد صدق ما ذكرناه ، فهذا البهلول بن راشد أحد أبرزفقهاء وعلماء إفريقية (المغرب الأدنى) وقتذاك يختط مسجداً ينسب إليه من بعد . ومن العلماء الذين ذكر أنه كان لهم مساجد خاصة أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي ، وأبو محمد عبدالله بن أبي حسان اليحصبي ، ومحمد بن سحنون ، وعبد الجبار السرتي ، ومحمد بن أحمد بن معتب بن أبي الأزهر ، ويحي بن عمر ، ومحمد بن أحمد بن أبي سليمان الصراف ، وعمر بن يوسف الخزاعي ... الخ (٢) .

ومعظم هذه المساجد كما يتراءى لنا كانت بمثابة مراكز علمية ، تنشر العلوم والمعارف عن طريقها ، وتسهم مع جميع المراكز والوسائط في إثراء الحياة العمية في إفريقية آنذاك .

وإذا ما أجلنا النظر في بقية المساجد التي تأسست في المدن والأقاليم الأخرى من إفريقية ، فإننا سنجد لحسن الحظ الكثير من الشواهد والأدلة .

---

(١) أنظر بعد ص ٤٦٤ .

(٢) عن المساجد تلك ، أنظر المالكي : نفسه ،ص ١٢٧ ، ١٦٥، ٢٠٣ ، ٢٣٨، ٢٦٦، ٣٧٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧، ٤٧١ .

فمدينة سوسة مثلا غصت بعديد من المساجد الخاصة بالإضافة للمسجد الجامع الكبير بها ، ومن بين تلك المساجد التي كان لها دور علمي معروف مسجد أبي قطاطة الذي شيده الأمير الأغلب بن الأغلب عام ٢٢٣هـ ، وقد يطلق عليه أبو فطاطة أو فتاتة ، وهو أحد فتيان الأمير المذكور الذي عهد إليه بتشييده ، ومن المساجد الخاصة بسوسة كذلك مسجد أبي الغصن : نفيس السوسي ، ومسجد يحيى بن عمر كذلك ، ومسجد محمد بن بسطام الذي انتقل إلى السكنى بسوسة فشيد بها مسجده الذي نسب إليه (١) إلى غير ذلك .

وازدحمت مدينة طرابلس - بل والإقليم كذلك بالعشرات من المساجد الخاصة ، فضلاً عن الجوامع الكبرى . فقد ذكر بأن هناك مسجدين بناهما عمرو بن العاص في مدينة طرابلس كانا من المساجد التي عدت من مقار العلم (٢) ، وإلى جانب ذلك ، أنشأ الفاطميون إبان فترة حكمهم هناك جامع طرابلس الأعظم (٣) الذي بناه أحد رجال الدولة الفاطمية وهو خليل بن اسحاق (٤) ، وينسب للخليفة المعز لدين الله بناء مسجد في طرابلس أثناء

---

(١) عن مسجد أبي قطاطة وأبي الغصن السوسي ويحيى بن عمر ومحمد بسطام في مدينة سوسة أنظر حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص٦٥-٦٦، ٦٧- ٢٦٨، ٨١-٨٢ ، ١٤٢-١٤٣ .

(٢) عن هذين المسجدين، أنظر أحمد مختار عمر : المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، صالح مفتاح: برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ص ٢٢٦ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ - ، الطاهر أحمد الزاوي : معجم البلدان الليبية ، ص ٩١-٩٢ .

(٤) عن خليل بن اسحاق ، أنظر : ص ٢٠٧ .

مروره عبرها في طريقه إلى مصر عام ٣٦٢هـ . وقد عرف هذا المسجد بمسجد الناقة تيمناً بالناقة المحملة ذهباً التي أهداها الخليفة لأهل طرابلس (١)

وعلاوة على ذلك هناك مساجد خاصة أشادها عدد من علماء وفقهاء طرابلس مثل مسجد عبدالله بن الشعاب ومسجد خطاب الذي ينسب إلى الشيخ أبي نزار خطاب البرقي ، ومسجة الجدة أو مسجد الجدود ، ومسجد أبي سلم مؤمن بن خرج الهواري (٢) ... الخ . وفيما يتعلق ببقية المدن ، فمع افتقارنا إلى النصوص التي تشير إلى وجود مساجد خاصة بها ، فإننا نعتقد أنها لم تكن تخل من تلك المساجد . مثلها مثل القيروان وسوسة وطرابلس وغيرها .

---

(١) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٠٧-١٠٨ .

(٢) عن هذه المساجد الخاصة لهؤلاء العلماء وغيرهم ، أنظر أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٠٦-١٠٧ ، ١٠٨ ، صالح مفتاح : نفسه ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

الكتـــــاتيب :-

لا مراء في أن الكتاتيب من أقدم وأهم الوسائط الثقافية بعد المساجد والجوامع التي اسهمت في نشر العلوم والمعارف الإسلامية على وجه الخصوص . والكتاتيب ، جمع : كتاب ، وهو لفظ مشتق من التكتيب ، وتعليم الكتابة وقد يقال له : المكتب ، وهو موضع التعليم كمقعد (١) ، والجمع : المكاتب ، والظاهر أن (كلمة كتاب ، جمع كاتب ، فأطلق المكان على من يعمل به ، من باب إطلاق المظروف على الظرف) (٢) . ويرى الفيروز أبادي أن في قول من يشير إلى أن الكتاب و المكتب بمعني واحد خطأ لغوي (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الشئ الثابت أن الكتاب من أقدم المؤسسات العلمية التي عرفتها مهنة التعليم ، فدور الكتاب العلمي مذكور في العالم الإسلامي كله منذ عصور الإسلام الأولى وحتى يومنا هذا، فلم يخل منه شارع ولا حي من الأحياء في المدن والقرى بوصفه النواة الأولى في العملية التعليمية مع المساجد والجوامع ، وعن طريقه بزغت بواكير العلم والمعرفة .

ولقد شهدت إفريقية (المغرب الأدنى) ظهورر تلك الكتاتيب مبكراً فمنذ أن وطأت أقدام المسلمين أرض المغرب ، واستوطنوه وبنوا دورهم

(١) الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ .

(٢) ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٠٢.

(٣) القاموس المحيط ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ .

ومساجدهم ، دفعتهم الظروف والواقع إلى تثقيف أولادهم فأنشأوا الكتاتيب للقيام بتلك المهمة (١). وقوام الكتاب : معلم ، ومكان ، وصبيان .

ولقد كان الهدف الأسمى من إيجاد تلك الكتاتيب تنشئة أولئك الصبيان تنشئة دينية قويمة عن طريق البرنامج الدراسي الذي يقدم فيها والقائم على إقرائهم لكتاب الله وتحفيظهم إياه سواء كان كلاً أو جزءاً بالإضافة إلى ضرورة الإلمام بقواعد الكتابة والقرآءة وبعض المبادئ الدينية التي تتصل بالصلاة والصوم والحج مع شئ يسير من علوم اللغة والنحو ومبادئ الحساب . وغني عن القول أنه ليس هناك ثمة ازدواجية في هذا بين دور المساجد والجوامع ، وبين دور الكتاتيب ، فالمساجد والجوامع كان كيانها العلمي يعتمد على الحلقة والشيخ والمريدين ، بينما الكتاب كان مقتصراً على الصبيان عن طريق تقديم محصلة علمية متواضعة في حجمها توطئة للإلتحاق بالحلقة في الجامع . فالكتاب يمهد الطريق للصبي بعد بلوغه السن والتحصيل الملائمين إلى الانتظام في حلقات الشيوخ في الجوامع والمساجد التي تعد مرحلة علمية متقدمة (٢) .

وكما ذكرنا من قبل ، فقد شهدت إفريقية (المغرب الأدنى) ظهور الكتاتيب فيها مبكراً ، وهذا الدباغ يروى في معالمه (٣) عن غياث بن أبي

---

(١) انظر محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، ص ٣٣ – عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٥٢– أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١١٥ – ١١٦ – ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص١٠٥ –١٠٧ – عبدالسلام أحمد الكنوني : المدرسة القرآنية في المغرب إلى ابن عطية ، ص ٦٣ .

(٢) أنظر المادة الواسعة التي كتبها ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ٩٨ –١٠١ .

(٣) الجزء الأول ، ص ١٥١ .

شبيب أن سفيان بن وهب أحد الصحابة الذين دخلوا إفريقية في خلافة عبدالملك بن مروان كان يمر عليه وعلى زملائه من التلاميذ في الكتاب ، فيسلم عليهم .

والكتاتيب كانت تنتصب إما في المساجد ، وإما في أماكن خاصة (١) . وفي المغرب عموماً كانت الكتاتيب في البادية ملحقة غالباً بالمساجد . أما في المدن فقد كانت إمًّا ملحقة بها وإماً مستقلة (٢) عنها . وقد عرفت إفريقية الكتاتيب الخاصة (٣) والكتاتيب العامة ، فالخاصة هي التي كانت تنتصب في قصور الأمراء والوزراء وعلية القوم ، والعامة هي التي كانت تنتشر في زوايا وأركان المدينة ، ويقوم على هذه الكتاتيب وتجهيزها معلم أو مؤدب له حظ يسير من العلم الديني ، وليس شرطاً أن يكون عالماً مبرزاً في العلوم الدينية وغيرها وإنَّما يشترط فيه حفظ كتاب الله وتجويده ... الخ .

ولقد كان المؤدب يلقى ترحيباً وتكريماً من قبل السكان ، ومن قبل أولياء الأمور ، فهو (الرجل المرغوب فيه الذي تتخاطفه العشائر البربرية ليكون المؤدب والإمام والمرشد والكاتب والحكيم والعريف ... الخ) (٤) .

---

(١) ابن سحنون : المصدر السابق ، ص ٣٨-٥٨ - الرصاع : فهرست الرصاع ، حاشية رقم٦، ص ١٣٢ - عبدالسلام أحمد الكنوني : المرجع السابق ص ٣٦- ٣٧ - أحمد مختار عمر : ص١١٥ .

(٢) عبد السلام الكنوني : المرجع السابق ،ص ٣٦-٣٧ .

(٣) ابن سحنون : المصدر السابق ،ص ٣٤- ٣٥ ، ٣٨ - الرصاع : المصدر السابق والحاشية والصفحة - ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٢٥ .

(٤) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٥٢ .

ويقول الكعاك إن قاعدة ، الاحترام والاكرام للمؤدب مازالت مرعية في دول المغرب العربي حتي اليوم (١) . ويحسن بنا أن نسرد الآن موقفاً مهماً للتدليل على مكانة الكتاب والمؤدب وهو موقف القاضي عبدالله بن غانم إذ يروى أن (ابنه دخل عليه وقد انصرف من المكتب ، فسأله عن سورته ، فقال له الصبي : حولني المعلم من سورة الحمد ، فقال : « اقرأها ، فقرأها ، فقال له : » تهجها ، قال (أي راوى القصة) : فتهجاها ، فقال هل : ارفع ذلك المقعد ، فرفعه فإذا تحته دنانير كثيرة ، قال : وأبو عثمان شاك في عددها (أي الراوي) ، إلاّ أنها أكثر من العشرة ودون العشرين ، قال : فحملها إلى معلمه فدفعها له ، فأنكر المعلم ذلك وأتى بها إلى ابن غانم وأخبره أن الصبي أتاه بها ، فقال له ابن غانم كالمعتذر : « لم يحضرني غيرها يامعلم ، أتدري ماعلمته ، علمته « الحمد لله رب العاملين » بحرف واحد ممَّا علمته خير من الدنيا ومافيها ») (٢) .

ولا تسعفنا كتب التراجم والطبقات ولاكتب الأدب والتاريخ للأسف بذكر شئ ذي بال عن الكتاتيب من حيث أماكنها في المدن وأعدادها ، والمعلمين والمؤديين القائمين على إدارتها . فجل مانعرفه هو أنه كانت هناك بالقيروان وتونس وطرابلس وبلاد الجريد كتاتيب كان لها دور علمي ملحوظ (٣) ، أمَّا عن المعلمين والمؤدبين فلم تذكر لنا تلك المصادر إلاّ عدداً

(١) نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، ص ١٤٥-١٤٦ .

(٣) أنظر ابن سحنون : المصدر السابق ، ص٣٣ - ٣٨ ، ٦٨- ٦٩ - عبده عبدالعزيز قلقيلة : النقد الأدبيي في المغرب العربي ، الجزء الأول ص ٢٢ - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١١٥-١١٧ - صالح باجية : نفسه ، ص ١٧٩ .

يسـيـراً منهم ، وفي يقيننا أنهـا أهملت ذكـر عـشـرات منـهم ، فلم تحـفل إلاّ بالتنبيـه إلى أولئك الذين كانو بـالإضـافـة إلى أنهم فـقـهـاء وعلمـاء بـارزين قد امتـهنوا التـعليـم والتـأديب فـي الكتـاتيب أو المكاتب . ومن أولئك العلمـاء المؤديين ، أبو على شقـران بن على الهمذاني العالم الذي ألف في الفرائض كتاباً لم (١) يولف مثله في إفيرقية (فقد كان يقرئ الناس مجاناً في كتاب منسـوب إليـه في القيـروان) (٢) ، وكان إلى جانب ذلك من أشـهـر العبـاد والزهـاد في إفريقية وقتذاك (٣) ، ومنهم الصالح والواعظ المشهور محرز بن خلف بن أبي رزين البكري ، فقد عمل معلمـاً للصبيان في تونس واشتـهر بذلك ، حتى كان يطلق عليه : المربي محرز (٤) . ويروى أنه طلب من عالم القيروان المبِّرز في وقتـه محمـد بن أبي زيد المعروف بمالك الأصـغر والذي سنتـرجم له من بعد ، تحـرير مـوجـز يوضـح الشئ الضـروري للصبيـان من أمـور الدين ، فكتب له رسالة في الفـقه، اشـتـهرت وذاعت ، وممّـا جـاء في مقـدمتـها يخاطبـة : (... أما بعـد ، أعاننا الله واياكم على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ، فانك سـألتني أن ، أكتب لك مجلة مختصرة من واجب أمور الديانه بما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعلمه الجوارح

---

(١) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٢٢٢ (ويسميه أبو على : شقران بن على الفرضي).

(٢) ابن سحنون : نفس المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٢٢٢- ٢٢٩ .

(٤) أنظر ابن سـحنون : نفس المصـدر السـابق ، ص ٦٨-٦٩ - الرصـاع : المصـدر السـابق ،ص ١٧٣- ١٧٥ - ابن السـراج : الحلل السندسـية في الاخبـار التـونسـية ، الجـزء الأول ، القسم الرابع، ص ٨٧٤- ٨٧٨- الزركلي : نفسه ، ص ٢٨٤ .

وشيء من الآداب عنها ، وجمل من أصول الفقه ،و فنونه على مذهب مالك بن أنس – رحمه الله تعالى – لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان ، كما تعلمهم حروف القرآن ، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركاته ، وتحمد لهم عافيته ، فأجبتك إلى ذلك لما وجدته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله ... الخ (١) .

وممَّا هو جدير بالذكر أن المؤدب محرز ابن خلف (٣٤٠-٤١٣هـ) إلى جانب اشتغالة بالتعليم في الكتاب ، كان عالماً فقيهاً واعظاً زاهداً نحريراً . تعلقت به قلوب التونسيين منذ ذلك الوقت وحتي الآن حيث يحظى بتقدير كبير إلى الدرجة التي وصف بها بالشيخ الأستاذ الإمام محرز بن خلف(٢). ومن المعلمين المعروفين أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن على بن مسلم الجبنياني البكري (٣) (ت٣٩٩هـ) أحد أشهر العباد والزهاد المغاربة بجانب غزارة فقهه وعلمه ، وبزهده وعبادته يضرب المثل ، وفي زهده يقول عالم القيروان المشهور : محمد بن أبي زيد : لو فاخرنا بنو اسرائيل بعبَّادها لفاخرناهم بالجبنياني (٤) . وقد كان له كتاب في قريته يعلم الصبيان (٥) ، ومن المعلمين الذين ورد لهم ذكر : أبو محمد عبدالله بن محمد المكفوف

(١) ابن سحنون : نفسه ،ص ٦٨.

(٢) أنظر ابن سحنون : نفسه ، ص ٦٨-٦٩- الرصاع : نفس المصدر السابق ص ٧٣-٧٥- ابن السراج : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٤ – ٧٨ .

(٣) أنظر الترجمة الواسعة التي حلاه بها القاضي عياض : نفسه ، ج٢، ص٤٩٧- ٥١٧ .

(٤) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٠٠ .

(٥) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٠١ – ٥١٦ .

النحوي الذي كان له مكتب يؤمه الصبيان (١) . ويعتبر الأديب الوزير أبو الحسن على بن أبي الرجال من المؤدبين الخصوصيين الذين كانوا يؤبون أولاد الأمراء والوزراء فقد ذكر بأنه كان مؤدباً للأمير المعز باديس (٢) . ولايغيب عن بالنابأن أبا الحسن على بن أبي الرجال تنسب إليه أقوال بأنه السبب في تغيير وجهة نظر المعز بن باديس بشأن المذهب الشيعي حتي أدى الأمر في النهاية إلى نبذ الدعوة الشيعية وخلع الطاعة الفاطمية (٣) . وفي مدينة طرابلس اشتهر عمر بن يمكتن بأن كان له كتاب لتعليم القرآن الكريم (٤) .

لكننا نشعر بالحيرة عندما نرى تراثاً تربوياً واسعاً خلفه بعض من أشهر علماء وفقهاء وأطباء إفريقية آنذاك ، يدرو كله حول الكتاتيب ومعلميها، اذ كيف نوفق بين هذا التراث التربوي الضخم وبين الندرة في المعلومات عن الكتاتيب ومعلميها - اللهم إلاَّ ماسمحت الظروف بايضاحه كما مر بنا. لعل الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في إن إفريقية قد عرفت أعداداً لاحصر لها من الكتاتيب أو المكاتب ، وبالتالي عرفت جموعاً كثيرة

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٣٦- ٢٣٧ - القفطي : إنباه الرواة على أنباه النجاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج٢ ، ص ١٤٧ -١٤٩ - الفيروز أبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة : تحقيق محمد المصرى ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) أنظر ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ٢٧٣ .

(٣) أنظر ، بعد ٥٣٥ .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١١٦ - ١١٧ - عبده عبدالعزيز قلقيلة : المرجع السابق، ص٢٢ .

من المعلمين والمؤدبين ، لكن المصادر وكتب الطبقات أغفلت ذكرها . وأن تلك المكاتب أو الكتاتيب قد بلغت وقتها حداً كبيراً من الإهتمام الزائد ، الأمر الذي حدا إلى أن يولف ثلاثة من أشهر علماء وفقهاء وأطباء إفريقية مؤلفات تربوية ، تشرح وتفصل مهمة الكتاب وبرامجه وأغراضه وأهدافه ، وقد كان هذا تطوراً كبيراً بلغته الحياة التعليمية على وجه الخصوص ، إذ أن تلك المصنفات التربوية هي أول المصنفات التي ألفت في التربية في العالم الإسلامي كله . ولعلنا لانبعد عن الحقيقة إذا ماقلنا في العالم كله آنذاك . ولقد فتح أولئك الرجال الذين يمكن عدهم بكل اطمئنان رجال تربية أو تربويون الباب على مصراعية للتأليف والتصنيف في هذا المجال البكر (١)

وأول أولئك التربويين الأجلاء : محمد بن سحنون بن سعيد الذي لايقل شهرة وسمعة عن ابيه سحنون . وقد كان عالماً فقيهاً جدلياً أديباً تربوياً صنف العشرات من المصنفات الفقهية والعقائدية ثم تناهت به محصلته العلمية وثقافته الغزيرة المتنوعة إلى ولوج باب علم لم يفتح من قبل، فألف كتابه : آداب المعلمين تناول فيه مسائل تربوية شتى مستشهداً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال أئمة المذهب المالكي وخاصة الإمام مالك إلى غير ذلك ، ثم لايكتفي بذلك وإنما يورد كثيراً آراء ووجهات نظر تربوية

---

(١) عن مكانة هاته المصنفات التربوية وخاصة كتابي ابن سحنون والقابسي أنظر التقريظ الواسع لهما في كتاب آداب المعلمين لابن سحنون نفسه التصدير والمقدمة التي حلى بها حسن حسني عبدالوهاب الكتاب ، ص ٥ - ١٣- وأنظر ابراهيم العبيد التوزري : نفسه ، ص ١٠٤- ١٧٥ الحسن السائح : المرجع السابق ،ص ٣٥١ - ١٦٠- رابح بونار : المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

خاصة به . وقد ترك الباب بعده مفتوحاً ليلجه اثنان من أبناء قطره اللذين سارا على منهجه ورسمه بالإضافة إلي اجتهادهما الشخصي ، فهذا الطبيب المؤرخ ابن الجزار : أحمد بن ابراهيم بن خالد ، المعروف بابن الجزار والذي سنترجم له بعد (ت ٣٦٩هـ) ، يتلقف الفكرة من ابن سحنون، فيكتب مصنفاً تربوياً بعنوان : سياسة الصبيان وتدبيرهم ، وهو كتاب جاد فيه المؤلف بعدد من النظريات التربو ية الحسنة ، ثم جاء على أثرهما ابن قطرهما الثالث ، هو الشيخ أبو الحسن : على بن خلف المعافري المعروف بالقابسي (ت٤٠٣هـ) ، والذي سنترجم له كذلك ، فألف رسالة تربوية لاتقل أهمية عن سابقيها من المصنفات التربوية ، وعنوان رسالته : (الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين ، وأحكام المعلمين والمتعلمين) . ويتضح من عنوانها الدقيق أهميتها في عالم التربية ، فلم يكتف القابسي بترديد النظريات التربوية التي توصل اليها محمد بن سحنون وابن الجزار فحسب وانما زاد عليها مما توصل إليه بفكرة التربوي النير وهو إن كان قد نقل عن ابن سحنون كثيراً ، وإن كان لابن سحنون السبق في التأليف ، فان للقابسي (مزية التوسع والإفاضة في أبوابه ، والأول (أي ابن سحنون) قد سجل ملاحظاته حول التعليم في القرن الثالث، والثاني كتب عن القرن الرابع (١).

ومن المهم أخيراً أننشير إلى أن تلك المصنفات التربوية التي ذكرناها كان لبعضها الحظ في النشر والظهور ككتاب محمد بن سحنون الذي حققه

(١) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

ونشره : حسن حسني عبدالوهاب بنفس عنوانه : آداب المعلمين (١) .
وكذلك رسالة القابسي التي نشرها أحمد فؤاد الأهواني ضمن رسالته للدكتوراه التي أعدها عن رسالة القابسي والتي نال بها درجة الدكتوراه (٢)
أما كتاب : سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار ، فقد طبع (٣) بتحقيق وتقديم أحد الباحثين التونسيين، وهو محمد الحبيب الهيلة (٤) .

---

(١) راجع : ابن سحنون : نفسه ، التصدير والمقدمة ، ص ٥ -١٣- ٢٧ (ويرى حسن حسني عبدالوهاب أن اسم الكتاب الصحيح تخميناً هو : كتاب آداب المعلمين والتعلمين) .

(٢) أنظر ابن سحنون : نفسه ، التصدير ، ص ٦- ابراهيم العبيد التوزري : نفسه ،ص ٩٤ - الحسن السائح والمرجع السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٣) أنظر فرحات الدشراوي : سياسة الصبيان وتدبيرهم ، مقال بهذا العنوان ، في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثالث ، السنة ١٩٦٦م نشر، تونس ، ص٢٩ - ٣٣ .

(٤) نشرته دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١، ١٤٠٤/١٩٨٤م .

٣- الرباطـــــــات :

تأتي الرباطات في المرتبة الثالثة من الأهمية في تسلسل الوسائط أو المؤسسات العلمية والثقافية في إفريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة موضوع الرسالة . فعبرها انتشرت علوم ومعارف دينية على وجه الخصوص أسهمت في المحصلة والانتاج العلمي الذي تميزت به الحياة العلمية هناك آنذاك ، ولعل من المناسب أن نتحدث عن الرباط من حيث معناه اللغوي والاصطلاحي ، والتسلسل التاريخ لظهوره في العالم الإسلامي ، قبل أن نشير إلى الرباطات المغربية .

فالرباط : (ما ربط به جمع ربط والفؤاد والمواظبه على الأمر ، وملازمة ثغر العدو وكالمرابطة ، وواحد الرباطات المبنية أو المرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره وكل معد لصاحبه ، فسمى المقام في الثغر رباط ومنه قوله تعالى : ﴿ وصابروا ورابطوا ﴾ ، أو معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة لقوله ﷺ : « فذلكم الرباط » (١) ، ومعنى ذلك أن كلمة الرباط قد اشتقت من كلم : ربط المأخوذة من القرآن الكريم كما جاء في الآية السابقة أعلاه ، وكما في الآية التالية : ﴿ وأعدوا لهم ماستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ (٢) ، ثم تطورت الكلمة إلى أن أصبحت تعنى المقام أو المكان الذي يتجمع فيه المتطوعة لمدافعة العدو وللتعبد (ثم أصبحت عبارة عن منشأة علمية ذات صبغة دينية وحربية بل صبغة

(١) الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٤ .

(٢) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٠ .

دفاعية للذود عن حوزة الإسلام (١)

ولقد ظهر هذا اللفظ الذي يعنى مدافعة الأعداء في العالم الإسلامي منذ أن استتبت الأمور في بلاد الشام للمسلمين وتاخمت حدودهم حدود الدولة . البيزنطية في آسيا الصغرى . ولقد حدا هذا الأمر بالبيزنطيين إلى تنظيم نوع من المقاومة المسلحة للوجود الإسلامي بجوارهم عن طريق شن غارات عسكرية مفاجئة على القرى والمدن الحدودية ، ودفع هذا المسلمين بالتالي إلى الموافقة سواء عن طريق المدافعة الرسمية التي تصدت لها الدولة الإسلامية وخاصة العباسية ، أو عن طريق المدافعة الفردية لأفراد المسلمين الذي تطوعوا للمرابطة لمقاومة تلك الهجمات عن طريق مرابطة دائمة في تلك القرى والمدن الحدودية دفاعاً عن الإسلام والبيضة (٢) . وقد عرفت تلك المواقع بالثغور جمع ثغر الذي يعنى لغويا (كل جوية أو عورة متفتحة)(٣) واصطلاحياً : (مايلي دار الحرب وموضع المخافة من خروج البلدان كالثغر) (٤) .

وقاد هذا الأمر كله المسلمين إلى أن بنوا في تلك المواقع الحدودية حصوناً أوثكنات عسكرية لها طابعها العسكري المعماري الخاص الذي

---

(١) الحسن السائح : المرجع السابق ، ص١٠٦ .

(٢) عن هذا الموضوع اأنظر محمد عبدالهادي شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة . بحث ألقى في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو آيار ، ١٩٦٣م . ،ص ٤٣٩- ٤٤٣ .

(٣) الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، الجزد الأول ،ص ٣٩٧.

(٤) محمد عبدالهادي شعيرة : نفس البحث أعلاه ،ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

تميزت به من بعد (١) . هذا إلى جانب أن تلك القرى والمدن الحدودية كانت هي نفسها بفضل التحصينات التي خضعت لها عبارة عن رباطات تمثل خطوط دفاع متقدمة ولقد غصت تلك المدن والقرى والحصون الرباطية بالعشرات من المرابطين الذين كانت تنفق عليهم الدولة خاصة العباسية ، بجانب المتطوعة الذين يحتسبون أجرهم عند الله وحده (٢) .

ولئن كان المشرق الإسلامي قد دفعت به تلك الغارات البيزنطية إلى تأسيس الرباطات والثغور ، فإن المغرب العربي أصبح منذ أن استتبت أموره للمسلمين (بلد الرباط والمرابطين) (٣) ، فهو في مجمله (أعتبر ثغراً يعد الرباط فيه جهاداً في سبيل الله وقربةً إليه) (٤) . ذلك لأن المغرب العربي الذي كان ومازال يتميز بسواحل طويلة على البحر المتوسط ، تجاور سواحله الدولة البيزنطية والفرنجة في جنوبي إيطاليا والجزر المتناثرة مثل صقلية وسردينا وكرسيكا وغيرها . ومن الطبيعي أن تكون تلك السواحل الطويلة معرضة للغارات البحرية المفاجئة (وكانت سواحل إفريقية (تونس) أكثر تعرضاً للخطر من غيرها لقربها من مصادر الغارات كلها ، فنشأت الرباطات على ساحلها من أول الأمر عند سوسة ولمطة وتونس والمنستير ، وأبتنيت «الحصون » يقوم فيها المرابطون بحراسة المسلمين والتعبد لله، ومن تونس انتشرت الرباطات فيما بعد على

(١) محمد عبدالهادي شغيرة : نفس البحث السابق ، ص ٤٤١ .

(٢) محمد عبدالهادي شعيرة : نفس البحث السابق ، ص ٤٤٠ .

(٣) المالكي : نفسه ، ج١ ، مقدمة المحقق ، ص٢٥م .

(٤) المالكي : نفسه ، ج١ ، المقدمة ، ص ٣٥ م .

الساحل المغربي كله) (١) . ولقد فرض هذا إلى أن يكون الرباط ذا نظام عسكري في عمارته كما ذكرنا، ثم تدرجت به الأوضاع والظروف إلى أن أصبح بجانب طابعه العسكري ، معهداً ومركزاً دينياً لبث الدعوة الإسلامية ونشر العلوم والمعارف في صفوف المتطوعة) (٢) . وبالإضافة إلى هذا كان ملجأً يؤمه (السكان المسلمون المجاورون له في حالة هجوم العدو) (٣) ، وعلاوة على هذا وذاك كان ينقطع فيه للعبادة العباد والزهاد بارشاد شيخ زاهد منهم ويتلقون فيه تعليماً إسلامياً (٤) .

ومن المناسب هنا أن نذكر أن الجهد الفردي في إنشاء الرباطات والمحارس قد سبق الجهد الرسمي في إفريقية وقتذاك (٥) . وذلك عندما اشتدت وطأة البيزنطيين والفرنجة على السواحل التونسية في منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً على أثر سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . وعندما استتب الأمر للدولة الأغلبية ، شرع أمراؤها في القيام

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٢٥ م .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٥م ، ٢٢٧ – عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ،ص ١٦ – ٣٨، ١١٩– ١٢٢– عبدالسلام الكنوني : المرجع السابق ،ص ٣٦ – ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ٦٩ – ٧١ – الفرديل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتي اليوم ،ص ٩٩–١٠٠ – محمد الفاضل بن عاشور : بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨–٢٩ مايو آيار ، ١٩٦٣م ، ص ٢٥٢– ٢٥٣.

(٣) الغردبل : نفس المرجع أعلاه ، ص ٩٩ .

(٤) الغردبل : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٥) أنظر صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ – ٢٣٠ .

بحملات عسكرية بحرية لصد غارات النصارى ، فكان غزوهم لجزيرة صقلية في سنة ٢١٢ هـ ، وتلا ذلك غزوهم للجزر الأخرى في الحوضين الأوسط والغربي للبحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا (١) . وإبتداءً من ذلك الوقت أخذ أمراء إفريقية في بناء الرباطات والقصور (٢) والمحارس والإهتمام بها علي ماسنتعرض له بعد قليل .

على أن الرباطات البحرية لم تكن وحدها التي انتصبت في إفريقية خاصة والمغرب كله عامة وإنما كانت هناك الرباطات الصحراوية التي غرست في المناطق الصحرواية المتاخمة لبلاد السودان تحقيقاً للهدف من الرباط والمرابطة الذي يفرض حماية منافذ ومعابر البلاد الإسلامية من الأخطار التي تواجهها (٣) ، وليس خافيا أن أهم مظهر سياسي تمخض

---

(١) عن غارات النصارى على السواحل التونسية ، وعن الفتح الأغلبي لجزيرة صقلية وغيرها ، أنظر سعد زغلول عبدالمجيد : نفسه ،ج ٢ ، ص ١٩٤٣– ١٩٦ ، ص ٢١٠ – ٢١٥ .

(٢) ليس هناك اختلاف بين الرباط والقصر أو القصور ، وغاية مافي الأمر أن الرباط أكبر شأناً وعظمة وبناءً من القصر ، عن هذا أنظر البكري : المصدر السابق ، ص ٢٠، ٣٤، ٣٥، ٤٥، ٤٦، ٨٤، ١٠٤ – محمد الفاضل ابن عاشور : الأثار الحفصيه في المرسى ص ٦٥٢– ٦٥٣ – الحسن السائح : المرجع السابق ،ص ١٠٥ – حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٨٢ – ٣٥٥، القسم الثاني ، ص ٢٤ –٢٨ ، ٨٢ – ٩٣ ، ١٠٥ ، القسم الثالث ، ص ٢٠٠ ، ٢١٩ ، ٢٥٥ – ٢٥٧ ، ٣٣٠ – ٣٣٥، ٤٠٤، ٤٠٥ – صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ١٩٦ . وأما المحارس ومفردها محرس ،فهي كذلك فيما يبدو لا تختلف عن القصر أو الرباط في طبيعة عملها . فالبكري مثلا : المصدر السابق ، ص ٣٦ لايفرق بين القصر والرباط والمحرس ، فيطلق عليها كلها : محرس وان كان في مواضع أخرى يعود لاستخدام لفظي الرباط والقصر بمعناهما الذي اشرنا إليه آنفا .

(٣) أنظر المالكي : نفسه : ج١ ، مقدمة المحقق ، ص ٢٥م – ٢٦ م – عثمان الكعاك : مراكزالثقافة في المغرب ،ص ٣٦–٣٨ ، ١١٩– ١٢٢ .

عن هذه النشاطات الرباطية الصحراوية ، هو قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري التي استمدت اسمها من المعنى اللغوي للرباط ، وهي بهذا الاعتبار أول دولة رباط في العالم الإسلامي (١) ، ثم تلتها الدولة الموحديه التي يمكن اعتبارها كذلك دولة رباط (٢) في هذا الصدد يرى حسين مؤنس (٣) - ونحن نتفق معه - أن الدور الرئيسي لأهل المغرب في التاريخ العام للإسلام هو : دور رباط وحماية لجناحه الغربي كله، ويقرر أنه (إذا كانت المالكية هي العصب الأول لتاريخ المغربي ، فإن الرباط هو العصب الثاني ،بل يكاد يكون علة وجوده).

وأياً ماكان الأمر ، فان الجلي والواضح هنا أن الرباطات قد انتشرت في المغرب الإسلامي وخاصة إفريقية منذ القرن الثاني الهجري على كل السواحل التونسية . وبالإضافة إلى تلك الرباطات نشأت محارس وقصور بالقرب منها نزلها العباد والزهاد ، الذين كانوا يقومون بواجب الدفاع الحربي من جهة ، والانصراف إلى العبادة والتعليم (٤) من جهة أخرى ، وتبعاً لهذا فقد أصبحت هناك مدن ثغرية تقوم بجانبها تلك الرباطات والقصور والمحارس ، هذا بالإضافة إلى صفة تلك المدن نفسها الثغرية . ومن بين تلك المدن : المنستير ، وسوسة ولمطة ، التي كانت تحظى جميعها بشعور عميق من الإكبار والتقدير نظراً لمكانتها الثغرية الرباطية .

---

(١) المالكي : نفس ج١ ، مقدمة المحقق ، ص ٢٦ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٦م .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٢٦ .

(٤) انظر عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ، ص ١٩ .

يطعمه فراخه ، فسقط من فم العصفور ماكان فيه ، فخرج من خلف الحصير فأر فأكل ماسقط من فم العصفور ، فخاطب نفسه بأن قال لها : إن كان فأر خلف الحصير قيَّض الله من رزقه كما قد رأيت ولم يضيعه فكيف أضيع أنا ؟ . لله على أن لا أدع مدينة الرباط إلى غيرها أبداً فأقام بمدينة سوسة واشتهر بها حتى مات رحمه الله تعالى) . وهناك موقف آخر برويه المالكي (١) ، وهو أن الأمير الأغلبي ابراهيم بن أحمد (ت ٢٨٩هـ) ، كان يداوم على زيارة أحد العباد والزهاد في سوسة ، فمر به وسأله عن حاجته ، فقال له مانصه : (هذا البلد (يعنى سوسة) قد عمر وهو ثغر ، وأهل إفريقية يهددهم العدو، فإليه مقصدهم وهو مرابطهم ، والقرويين في ليلة كل جمعة يترابطون إليه والجامع يضيق بهم ، وأحب أن تزيدهم فيه .. الخ) ومن حسن الحظ أن هناك العديد من الأمثلة التي رصدت مكانة مدينة سوسة ، فقد روى المالكي(٢) كذلك عن أحد عباد إفريقية وهو عمرون ابن مسرور الغسال (ت بعد ٣٤٦هـ) قوله : (وسوسة طرسوس (٣) المغرب) . وكان عباد وعلماء سوسة يحرصون كل الحرص على إضفاء طابع المرابطة والمثاغرة علي المدينة ، وكانوا يقاومون في سبيل ذلك كل محاولة تجعل المدينة تفقد ذلك الطابع ، حتى كانوا يفضون برغبتهم تلك إلي بعض الأمراء بإصرار

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٣٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٢ – ٣٩٣ .

(٣) عن مكانة مدينة طرسوس الثغرية أنظر محمد عبدالهادي شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة ، ص ٤٣٩ – ٤٤١ .

فمدينة المنستير مثلاً كانت ذات مكانة كبيرة في نفوس أبناء المغرب الأدنى من علماء وزهاد وغيرهم فقصدوها للسكنى والمرابطة بها كما سنشير بعد قليل ، وفضلاً من أن كثيراً من المسلمين (كانوا يعتقدون أن الإقامة في الرباطات والحياة في الثغور ، نوع من الجهاد ، ومن يمت بها فهو شهيد) (١) ، فقد وضعت في المنستير عدة أحاديث نبوية (٢) تنوه بمكانتها وأهميتها ، فمن الطبيعي إذاً أن تستهوى المدينة الأفئدة تبعاً لذلك.

ولم تكن مدينة سوسة بأقل حظوة ومكانة من المنستير . وهذه مواقف يمدنا بها أبو بكر المالكي عند ترجمته لأبي الأحوص أحمد بن عبدالله المتعبد بسوسة (ت٢٨٤هـ) . قال المالكي (٣) عنه : (وكانت بداية أبي الأحوص ولزومه مدينة سوسة ، أنه أتى إليها مرابطاً ، فأقام بها مدة ، حتي نفقذت نفقته وأراد الرجوع إلى بلده بالمغرب ،فأتى إلى جامعها ليركع فيه ويتصوف ، فبينما هو راكع إذ رأى عصفوراً دخل الجامع وفي فمه شئ

---

(١) أنظر عبدالسلام الكنوني : المرجع السابق ،ص ٣٦ .

(٢) من تلك الأحاديث ، ماروى (عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : من رابط في المنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة ، قال أنس بخ بخ يا رسول الله) ، وكذلك الحديث التالي : (عن مطرف ابن عبدالله بن الخير ، يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال : بالمنستير باب من أبواب الجنة يقال له: « الأنف » دونه قنطرة من قناطر الأولين) . إلى غير ذلك . انظر المالكي : نفسه ، ص ٤-٥- الدباغ : نفسه ،ج١ ، ص٥ . وهذان الحديثان يغلب على الظن أنهما من جملة الأحاديث الموضوعة التي وضعت لتحبيب بلاد المغرب ومدنه لساكنيه ، وهو ما أشار إليه ابن ناجي مكمل ومعلق كتاب المعالم ، الجزء الأول ،ص ٦ . وانظر كذلك الحاشية رقم ٧ص ٥٠٤ من الجزء الأول من الرياض اللمالكي .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ٣٩٠ .

كبير (١) ، ويعلق المالكي في نهاية روايته لهذه المواقف بقوله : (وكانت مدينة سوسة في ذلك الوقت ليس بها شئ من المنكر : لاخمر ولا لهو ولاعزف ، وإنما كان أهلها مشتغلين بالحرب والحرز على المسلمين والمسلمات وقيام اليل وصيام النهار) .

هذه المكانة التي بلغتها مدينة سوسة بالدرجة الأولى وغيرها من المدن أدت إلى تكاثر الرباطات والقصور والمحارس من حولها . وكانت في معظمها تقوم بواجبيها : الجهادي ، والعلمي على خير وجه . وتجمع المصادر والمراجع التاريخية الشرقية والمغربية على أن أول رباط أنشئ في المغرب عموماً هو رباط طرابلس ، ثم رباط المنستير (٢) الذي بناه والي إفريقية من قبل الخلافة العباسية : هرثمة بن أعين عام ١٨١هـ (٣) . وقد أدى رباط المنستير دوراً مؤثراً في تاريخ تونس السياسي والعسكري والثقافي ، وما زال قائماً حتى اليوم بعد الزيادات التي زيدت به على مر التاريخ (٤) . وفي هذا الصدد يرى أحد الباحثين المحدثين أن رباط شاكر

---

(١) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٩٣ – ٣٩٤ .

(٢) أنظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، الجزء الخامس ،ص ٩٦ – البكري : المصدر السابق ،ص ٣٦ – محمد عبدالهادي شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية ،ص ٤٤١– ٤٤٢ – عثمان الكعاك : مراكز الثقافة الإسلامية في المغرب ، ص١٦ – الحسن السائح : المرجع السابق ،ص ١٠٥ – تقرير للجمهورية التونسية في المؤتمر الرابع للآثار بالبلاد العربية الذي نظمته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية في تونس : ١٨ – ٢٩ ، مايو آيار ، ١٩٦٣م ، ص ١٢٧ .

(٣) عند ابن الأثير والبكرى بناؤه كان عام ١٨٠هـ .

(٤) أنظر محمد عبدالهادي شعيرة : نفس البحث السابق أعلاه ،ص ٤٤١ – ٤٤٢ تقرير الجمهورية التونسية المشار إليه أعلاه ، ص ٣٧ .

أوسيدي شكير ، كما يطلق عليه أحيانا جنوبي مدينة مراكش بالمغرب الأقصى ، هو أقدم رباط عرفه المغرب كله ، لأنه قد تأسس في القرن الأول الهجري على يد شاكر ، وهو أحد أتباع عقبة بن نافع (١) .

وأيا ماكان الأمر ، فإن رباط المنتسير كان أشهر وأبرز الرباطات في المغرب كله ، لأنه قام بواجبه الجهادي مذ تأسس . وكان بالإضافة إلى ذلك مهوى أفئدة العلماء والعباد الذين أموه من كل حدب وصوب ، قد حبسوا أنفسهم فيه للعبادة ولنشر العلم ؛ وكان رباط المنستير علاوة على ذلك محاطاً بمحارس معمورة بالصالحين (٢) .

ويلي رباط سوسة المعروف بقصر الرباط ، رباط المنستير في الشهرة والأهمية ، بل كان يفوقه مكانه عند المغاربة ، وقد أسسه الأمير زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية عام ٢٠٦هـ . ويعد هذا الرباط مفخرة معمارية من مفاخر الدولة الأغلبية ، ولازال قائماً حتى اليوم (٣) ، وقد التحق به العشرات من المرابطين المتطوعة . ويذكر أن عددهم وصل في فترة من الفترات إلى مائة مرابط . (٤) ومن القصور التي بنيت بمثابة رباطات . قصر لمطة وهي مدينة صغيرة من أحواز سوسة ، وقصر طارق ، وقصر زياد ، وقصر سهل ، وقصر ابن حبشي ، وتنسب هذه القصور إما

---

(١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، ص ٦٩- ٧٠ .

(٢) البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٦ - الحسن السائح : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) عن هذا الرباط : أنظر المادة الواسعة التي كتبها حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٣٤ - ٢٨ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٦٣- ٣٦٥ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق أعلاه ، والقسم ص ٢٧ .

إلى الذين أسسوها كابن حبشي ، وهو أحد أمراء الأغالبة ، وقد أسس القصر المعروف باسمه ، وإمّا باسم البلدة أو المدينة كقصر لمطة ، وإما باسم من سكنه كقصر سهل وقصر طارق . (١) .. الخ .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى أنه قد تعددت الرباطات البحرية والصحراوية في المغرب الإسلامي كله ، وأصبح مجموعها يربو خلال الفترة موضوع الرسالة والتي تليها على أكثر من ألف رباط تمتد من سبته في المغرب الأقصى إلى مشارف الأسكندرية (٢) بمصر ، ومّما يذكر أن المسافة التي كانت تفصل بين كل رباط ورباط هي ستة أميال . (٣) .

بقي أن نشير في عجالة خاطفة إلى عدد من العلماء والعباد ، الذين سكنوا ورابطوا بتلك الرباطات والقصور والمحارس ، وما أحدثوه من حركة علمية مهمة ، ثم الإشارة إلي بعض من وفد إلى تلك الرباطات من علماء المدن الذين قدموا فارين بأنفسهم من مطاردة بعض الحكام لهم .

فمن العلماء الذين رابطوا في المدن الثغرية ورباطاتها كالمنستير وسوسة ، عالم المغرب الأدنى المشهور : سحنون بن سعيد التنوخي فقد كان يرابط بالمنستير في شهر رمضان من كل عام وينشر علمه وفقهه بجانب

---

(١) عن هذه القصور ، أنظر حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ص ٨٢- ٨٤ - ٨٨- ٩٠ ، ٩١ - ٩٣، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٥ - ١٠٧ ، ١٣٥، ١٤٥ . إلى غير ذلك .

(٢) أنظر عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ، ص ١٨ - عبدالسلا م الكنوني : المرجع السابق ،ص ٢٦.

(٣) أنظر عثمان الكعاك : نفس المرجع أعلاه والصفحة - عبدالسلام الكنوني : نفس المرجع أعلاه والصفحه - صالح مفتاح : المرجع السابق ،ص ١٩٤ (وقد نقل عن المقدسي أنه كان على كل فرسخين رباط ، والفرسخ كما نقل عن ابن رسته في الأعلاق النفسية يساوي ٣ أميال) . أنظر الحاشية رقم ٣ من نفس الصفحة أعلاه .

قيامه بواجبه الجهادي (١) ومنهم كذلك ابنه محمد بن سحنون الذي كان يقدم من القيروان إلى سوسة للمرابطة في قصر الطوب (للعبادة والحرس على المسلمين) (٢) . ومن الطبيعي أن يمارس دوره التعليمي هناك وهو العالم الفقيه المتبحِّر الذي أشرنا إليه سابقا، وقد سكن سوسة سكنى دائمة، وكان كثيراً مايحث على سكناها، وقد ذكر المالكي (٣) حديثاً عن أخ يحيى ابن عمر ، وهو قوله (كان أخي يحب سوسة ، ويحض على سكناها ، ويقول اللهم لاتكسبني ذنباً استحق له الخروج من سوسة، وكان يقول : « إنما هي عندي مثل الأسكندرية وعسقلان وهذه المواضع التي ذكر فضلها في الكتب ») وكان يحيى بن عمر بالإضافة لمرابطته في سوسة، كان يرابط في شهر رمضان كل عام بالمنستير (٤) فكان يرابط ويلقي دروسه العلمية ومن العلماء الذين فضلوا سكنى سوسة كذلك لمكانتها : محمد بن بسطام بن رجا الضبي الذي كان له فضل جلب مجموعة من كتب كبار المالكية بالمشرق لم تكن قد وصلت إفريقية من قبل ، فقد استقر بسوسة نهائياً (وسمع منه الناس بجامعها ، وانتفعوا بواسع علمه ، ونسخ بخطه كتباً عديدة) . (٥)

ومن العلماء العباد ، نذكر عبدالمؤمن بن المستنير الجزري وقد قال المالكي (٦) نقلاً عن أبي العرب في طبقاته (قال أبو العرب : روى عن مالك

---

(١) المالكي : نفسه، ج١ ، ص ٢٩٤ .

(٢) المالكي : نفسه، ج١ ، ص ٣٤٨ .

(٣) نفسه ، ص ٤٠٤ .

(٤) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٠٢ .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٦) نفسه ، ص ٢٠٥ .

وأصحابه ، وكان عبد المؤمن رجلاً صالحاً كثير الرباط كثير الرواية لغرائب الرباط) . ومنهم أبو عمرو بشير بن عمورسي المتعبد بالمنستير – قال المالكي (١) : (قال ابن الحداد : وكانت له قريحة في العلم وكان يحسنه ، إلاّ أن العبادة غلبت عليه) . ومن العلماء العباد كذلك المبرزين : عبدالرحيم ابن عبد ربه الربعي الزاهد المعروف بعبد الرحيم المستجاب ، فقد كان عالماً قبل أن يكون زاهداً متعبداً ، سمع على مجموعة من أشهر علماد المغرب الأدنى مثل سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات ، وقد كان يسكن قصر زياد بل هو الذي تولى بناءه (٢) وكان قصره الرباطي هذا موئل إهتمام العلماء والفقهاء ، وفيه أقام سحنون بن سعيد فترة من الوقت لدى عبدالرحيم ، سمع عبدالرحيم خلالها من سحنون كتب ابن وهب أحد تلاميذ الإمام مالك بن أنس من المصريين (٣) .

أما العباد الزهاد الذي انقطعوا عن الحياة ومظاهرها في تلك الرباطات والقصور والمحارس ، فقدكانوا كثيري العدد ، والفضل في ذلك يعود في حفظ ترجماتهم إلى أبي بكر المالكي ، الذي كان كتابه رياض النفوس يعنى يتتبع تراجم العلماء والعباد والزهاد والنساك في إفريقية منذ الفتح الإسلامي حتى عصره هو في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . ونحن لايهمنا من تراجم أولئك العباد والزهاد إلاّ ماكان متصلاً

---

(١) نفسه ، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٣٢٧ – ٣٢٨ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٣٠ .

بدورهم العلمي والثقافي ، فقد زخر بذكرهم كتاب المالكي . ولابأس هنا من الإشارة إليهم في هذا العجالة الخاطفة . فمن المتعبدين الذين سكنوا المنستير أبو عثمان الجزري (١) ، ومن عباد قصر الطوب في سوسة : حمدون بن عبدالله العسال (٢) ، ومنهم محمد بن عبدالكريم المسوحي (٣) ، ومكرم المتعبد (٤) من علماء القصر الكبير بالمنستير ومن عباد قصر لمطة باحواز مدينة سوسة أبو السرى واصل (٥) بن عبدالله اللخمي ، وكان بالإضافة لذلك ينزل قصر الطوب في سوسة .

ومن عباد سوسة المشهورين أبو الأحوص أحمد بن عبدالله المتعبد ، الذي مر بنا ذكره من قبل (٦) ، ومنهم أبو هارون الأندلسي المتعبد الذي سكن مدة من الزمن في قصر لمطة (٧) . ومن المحارس التي نزلها بعض المتعبدين : محرس سفاقس ، قد نزله أبو عقال غلبون بن الحسن بن غلبون الأغلبي ، وكذلك نزله أيوب بن هارون المتعبد معه (٨) .. الخ

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٢٣٨ ومابعدها .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٣١٧ ومابعدها .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٢٠ ومابعدها .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٣٢٤ ومابعدها .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٣٣٤ ومابعدها .

(٦) المالكي : نفسه ، ص ٣٩٣ ومابعدها .

(٧) المالكي : نفسه ،ص ٤١٦ ومابعهدا .

(٨) المالكي : نفسه ، ص ٤٢٧ ومابعدها .

المكتبات العامة والخاصة : -

لاخفاء في أن المكتبات كانت من أهم الوسائط الثقافية التي اسهمت في نشر الثقافة والعلوم في الدولة الإسلامية . وقد لقيت المكتبات على يد المسلمين من الحظوة والمكانة والإهتمام بعداً فاق ماكان للشعوب الأخرى في هذا المضمار في العصور القديمة والوسيطة ومن الطبيعي أن المكتبات قد استمدت مكانتها تلك من الوعاء الذي شمل المعرفة والعلم ، ذلك هو الكتاب الذي اشتق منه اسمها. ولامراء في أن الكتاب كان يشكل أهمية بالغة عند المسلمين ، فالإسلام دين جاء بكتاب وثقافة المسلمين ومحصلتهم العلمية ، إنما هي ثقافة كتاب ، وفي البدء كان القرآن الكريم ، ثم توالت الكتب تترى بعد ذلك .

ولقد اعتنى المسلمون بناءً على ذلك بالكتب والمكتبات ، وكتب التاريخ والأدب والتراجم والسير مافتئت تترصد الأدلة والشواهد الواسعة التي تعكس هذا الاعتناء وذلك الاهتمام مما لاسبيل إلى ذكره هنا ، فهو مبسوط مذكور .

وإفريقية (المغرب الأدنى) لم تكن لتقل إهتماماً بالكتب والمكتبات عن غيرها من الأمصار والأقاليم - ولعل ممَّا لاخلاف فيه هو أن المغرب الأدنى قد دخل ميدان التأليف والتصنيف مبكراً فقد تصدى علماؤه وأدباؤه وأطباؤه ومقرؤوه للتأليف في كل مجالات العلم وفي تخصصاتهم على وجه الخصوص، فتكونت خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة مجموعات ضخمة من مصنفاتهم ، لاسيما وأن البعض من المؤلفين قد فتح له باب في التأليف

عريض وبلغت مصنفات البعض منهم العشرات من الأجزاء . بل إن بعضهم عد من كبار المصنفين على مستوى الدولة الإسلامية كأبي العرب التميمي الذي قيل إنه ألف كتباً تقدر بالمئات (١) . وتتملك الدهشة الباحث وهو يتتبع سير وتراجم علماء وأطباء وقرآء وأدباء إفريقية خلال الفترة موضوع الإهتمام ، إذ قل مانجد واحداً منهم إلاَّ وله مصنف أو مصنفين . أما الغالبية منهم فمصنفاتهم تصل إلى بضعه مؤلفات في شتى الموضوعات .

وكان المظنون إزاء هذا أن تكون هناك مكتبات استوعبت ذلك الكم الوافر من المؤلفات الشرعية والأدبية والطبية وغيرها ، بيد أننا نفاجأ بعدم العثور على مباحث توضح احتواء إفرقية على تلك المكتبات ، سواء الخاصة أو العامة خلال تلك الفترة اللهم إلاَّ بضع إشارات لاتروى ظمأً ولاتشفى غلة. فالواقع أننا لايمكن أن نتصور خلو إفريقية من المكتبات التي هي نتيجة مباشرة لكثرة التأليف وغزارة العطاء الذي أشرنا إليه ذلك لأن الكتب والمكتبات هي المظهر المادي للنهضة العلمية الثقافية ليس في إفريقية فحسب، وإنما في كل العالم الإسلامي . وعدم وجود الإشارات التي توضح دور ومكانة المكتبات في إفريقية . على خلاف الأندلس أمر يدعو للغرابة والدهشة . غير أننا نستطيع أن نفترض أن إفريقية عرفت المكتبات العامة والخاصة لاكما أشارت إليه تلك الإشارات الخاطفة ، ولكن باعداد كبيرة . ذلك لأن هناك عوامل عديدة تؤيد صحة هذا الفرض ، فأولها هو ما أشرنا إليه من غزارة التأليف الذي تميزت به البلاد ، وثانيها أن المغرب كان يقتفي

---

(١) أنظر بعد ص ٣٤٦ .

أثر المشرق في كل منحى ، والإهتمام بالمكتبات وإنشاؤها كان من أبرز اهتمامات المشرقين ، وثالثها هو رغبة الأمراء والخلفاء الذين تعاقبوا على حكم المغرب في مجارات أقرانهم في المشرق في كل تطلعاتهم . هذا فضلاً عن الميل الغريزي للعلوم والمعارف الذي تميز به بعضهم .

وعلى أية حال فلا مناص في ظل غياب التنصيص على وجود المكتبات وأماكنها من تتبع تلك الإشارات الخاطفة التي أمدتنا بها بعض كتب التاريخ والتراجم ، فمن المكتبات التي أدت دوراً علمياً لابأس به ، تلك التي أنشأها الأغالبة في المسجد الجامع بالقيروان ولقد حفلت تلك المكتبه بأمهات المصنفات النفيسة ، وقد زادت محتوياتها بسبب ولوع الأمراء والعلية من القوم بتحبيس ووقف الكتب الجليلة عليها . وهذه المكتبة التي عرفت ببيت الكتب ، كانت تحتل آنذاك الجزء المجاور للمحراب في المسجد الجامع . وتذكر بعض المصادر والمراجع أن إحدى نساء بني زيري ، تبرعت بمجموعة من المؤلفات الجليلة للمكتبة من مصاحف وخلافه . وقد أوقفتها على تلك المكتبة (١) . ويقول حسن حسني عبدالوهاب (٢) إن العناية بهذه المكتبة قد استمرت حتى القرن الخامس الهجري ، ثم أصابها بعد ذلك من التلف والضياع ماقلل قيمتها ومكانتها . ومع ذلك فإن بعضاً من تلك المؤلفات القيمة كما يشير عمر رضا كحالة (٣) مازال شاهداً على ذلك حتى الآن ،

---

(١) أنظر حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ٦٢- ٦٣ - عمر رضا كحالة : أعلام النساء، الجزء الرابع ، ص ٣٨- ٣٩ .

(٢) بساط العقيق ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) أعلام النساء ، الجزء الرابع ، ص ٣٨- ٣٩ .

وخاصة تلك المصاحف المخططة بالذهب المذاب والمكتوبة بالخط الكوفي . وفي حق هذه المكتبة ينقل أحد مختار عمر (١)، عن العبدري صاحب الرحلة المعروفة باسمه قوله : (دخلت بيت الكتب بالقيروان ، فأخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقي ، ومنها ماكتب عليه بالذهب ، وفيها كتب محبسة قديمة من عهد سحنون وقبله ورأت مصحفاً يقال إنه مصحف عثمان ، وأنه بخط عبدالله بن عمر رضى الله عنهما) .

أما جامع الزيتونة ، فقد حظى هو الآخر بمكتبة كبيرة حوت أنفس المصنفات والمخطوطات من المصاحف وكتب الحديث والتفسير وغير ذلك (٢) ومن أشهر المكتبات العلمية التي كان لها دور ثقافي مؤثر ، مكتبة بيت الحكمة برقادة ، الذي أسسه كما سبق أن ذكرنا الأمير ابراهيم بن أحمد المعروف بابراهيم الثاني ،فقد ضمت مجموعات كبيرة من المجلدات في شتى أنواع العلوم والمعرفة وخاصة العلوم الدينية والتجريبية . (٣) ، ويعتقد حسن حسنى عبدالوهاب (٤) أن مكتبة بيت الحكمة احتوت كذلك على كثير من المؤلفات التي ترجمت عن اللغات الأعجمية كاليونانية والفارسية والسريانية ، كما يعتقد أيضاً أنها كانت عبارة عن (مكتبة منضدة في خزائن من خشب ، كل خزانه منها تحتوى على عدد من الكتب المختارة

---

(١) النشاط الثقافي في ليبيا ، ص ١١٠ .

(٢) محمد الحسيني عبدالعزيز : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ٣٦ .

(٣) أنظرحسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٩٤- ٢٠٩ ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٦١ - ١٦٥ .

(٤) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٩٥ .

المنسوخة على الرق أو الكاغذ) (١)

ومن المكتبات ذات الأهمية البالغة في مدينة صبرة (المنصورية) ، مكتبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي . ولقد كان الخلفاء الفاطميون شغوفين بالعلم والمعرفه ، وكانوا بجانب ذلك علماء وأدباء ، فقد أسهموا في الحركة التأليفيه كما سنرى بعد . ولذلك فقد حرص المعز على أن ينشئ في قصره خزانة ضخمة للكتب تدل ضخامتها على مقدار ثقافته وغزارة علمه . فلقد (بلغ من شغفه بهذه المكتبة أنه كان يعرف مواضع مافيها من الكتب وماتحويه من المعلومات . وقد قيل إن المعز أمر خازن كتبه أن يحضر له كتاباً ، فلم يحضره على الفور ، فقام المعز وبحث عن هذا الكتاب ، ثم قرأه كما قرأ غيره من الكتب واستهواه الإطلاع ، حتى صرف معظم هذه الليلة في القرآءة وهو واقف على قدمية ، ولاغرو فقد كان يقول والله ما تلذذت بشئ تلذذي بالعلم والحكمة) (٢) وممّايدل على شدة اهتمام المعز بالثقافة والعلوم أنه فتح أبواب قصره للعلماء والمشايخ وغيرهم (وأباح لهم جميعاً الإطلاع على الكتب المختلفة ودراستها وانتساخها والتعلم منها والتفقه فيها) (٣) .

واحتوت مدينة طرابلس كغيرها من المدن على المكتبات العامة لاسيما وأن هناك طائفة من السكان في جبل نفوسه تتمذهب بالمذهب الإباضي .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق أعلاه والقسم والصفحة .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع السابق ،ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

وكان الفكر الإباضي قد بلغ درجة عالية من الظهور والكثافة آنذاك ، حتى وصل الاجتهاد بالإباضية هناك إلى تأسيس فرق إباضية داخل المذهب نفسه ، لها فكرها ولها تنظيرها ممَّا سوف نعرفه بعد في مكانه . ومن الطبيعي والحالة كذلك أن تكثر المؤلفات الرياضية على وجه الخصوص . ولقد أشارت بعض المراجع التي تهتم بالتاريخ والثقافة الإباضية إلي أن قرى ومدن جبل نفوسه كانت تزخر بالعشرات من الخزائن المملوئة بالمصنفات ، وإن كان قد أتت النار على معظمها خلال الفتن التي لحقت بجبل نفوسه بعد ذلك . (١) وبجانب هذا فقد حفظ لنا التاريخ ، ذكر مكتبة نص على أنها (خزانة نفوسة) (٢) ، وقد كان مقرها في مدينة شروس عاصمة الجبل ، وقد غصت بالألاف من الكتب في عهد ثالث الأمراء الرستميين : أفلح بن عيد (٣) الوهاب . ولقد وصل الإهتمام بالكتب والمكتبات أرقى مستواه بسبب النهضة العلمية التي بلغتها إفريقية في عهد الزيريين كما سنعرف بعد . وقد مر بنا أن بعض نساء الزيريين قد تبرعت بمؤلفات عظيمة لمكتبة المسجد الجامع بالقيروان . ويهمنا أن نشير هنا إلى

(١) أحمد مختار عمرو : نفسه ، ص ١١٠ .

(٢) أحمد مختار عمرو : نفسه .

(٣) أفلح بن عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم (١٩٨- ٢٤٧هـ / ٨١٤ - ٨٦١م) ثالث الأئمة الرستميين في تاهرت ، وأطول الأمراء حكماً . وقد اشتهر بكل صفات رجل الدولة الناجح ، وبالإضافة إلى ذلك كان عالماً في الفقه الإباضي لايشق له غبار وله مؤلفات قيمة وعلاوة علي ذلك كان له ديوان شعر قد ضاع . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج ٢، ص ٣٣٧- ٣٥٥ - عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ، ص ٥٢ ، نقلا عن مجموعة من مؤرخي الإباضية وغيرهم) وعنده أن توليته كانت سنة ١٩٠ هـ ووفاته كانت سنة ٢٤٠هـ / ٨٠٥ - ٤- ٨٥٤ م) .

أن تلك الأميرة لم تكن وحدها التي قامت بهذا العلم الجليل ، بل ذكر أن عمة الأمير المعز بن باديس المعروفه بأم ملال (١) (ت ٤١٤هـ) ، وكذلك الأميرة أم العلو شقيقته (٢) ، وزوجته الأميرة زليخا أهدين - لمكتبة القيروان أنفس المصنفات . (٣)

وللمعـــزين باديس نفســه ينسب فضــل تأسيس وإنشـــاء مكتبة عـامرة إجتـهـــد في (توفـيرها وإثرائهـا بأنفس المصنفـــات، فكـــانت تضـــم عشرات الآلاف من الكتـــب النفيسة)(٤) وهناك نص أورده ابراهيم العبيدي التوزري (٥)، حـول تحبيس أي وقف بعض الكتب جاء فيه (ت : ٢٥٦هـ) وأبو العرب التميمي (٦)(ت٣٣٣هـ) ومحمد بن حارث الخشنى(٧)

---

(١) أم ملال أميرة صنهاجية ، عرفت باسم السيدة بنت المنصورين بلكين بن زيري ، وهي أخت باديس بن المنصور والد المعز وقد كان لها دور سياسي كبيرا إبان وفاة أخيها باديس عام ٤٠٦هـ فقد نصبت وصية على ابنه الناصر المعز ، الذي لم يتعد التاسعة من عمره ، وتولت تدبير المملكة في حسن تدبير مشهور ، حتى بلغ المعز سن الرشيد ، وتأهل لاستلام الدولة ، وكانت إضافة إلى مهارتها السياسية من ربات الأدب والعم والرأي . أنظر الزركلي : المرجع السـابق ، ج٣ ، ص ١٤٨-١٤٩ - عمر رضا كحاله : أعلام النساء ، ج ٢، ص ٢٧٦ - ٢٧٨ .

(٢) لم يرد للأميرة أم العلو والأميرة زليخا ترجمة عند من إهتم بالتعريف بنساء الزيريين ويبدو أنه لم يكن لهما دوربارز ولذلك فلم يترجم لهمـا ، وإن كان قد ورد ذكر لهما عرضاً عن ابن عذارى وغيره، أنظر ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٧٠ ، ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) أنظر ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٢ .

(٤) ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٢ .

(٥) نفسه ، ص ١٥٣ .

(٦) أنظر حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيقي ، ص ٦١-٦٢ .

(٧) أنظر عياض نفسه ، ج٢ ، ص ٥٣١- ٥٣٢ - الذهبي : تذكره الحفاظ : ط٤، ص ١٠٠١-١٠٠٢- ابن القرضي : تاريخ علماء الأندلس ،ص ١١٠ - ١١١ .

(ت ٣٦٦هـ) والطبيب المشهور ابن الجزار (١) (ت٣٦٩هـ) والقاضي عيسى مسكين (٢) ، الذي كان له بمدينة رقادة مكتبة عامرة بالمصنفات المتنوعة .

ومنهم كذلك محمد بن بسطام (٣) ، وحمدون بن مجاهد ، (٤) وأحمد القصري (٥) ، الذي أضطر ذات مرة إلى بيع ثيابه لشراء ورق نسخ كتاب وجده عند أحد شيوخه ، وغيرهم ممَّن لم نوفق في التعرف على خزائنهم الخاصة .

وقبل أن نترك الحديث عن المكتبات ، ينبغي التنبيه إلي المكتبات التي كانت توجد في الرباطات المتناثرة في أنحاء إفريقية . فالرباط كان بجانب دورية الديني والجهادي ، اللذين أشرنا إليهما من قبل كان ثقافياً وبه مدرسة للرجال ومدرسة للنساء ، ومعمل لصنع الورق ودار وراقة لنسخ الكتب وبثها احتساباً لوجه الله تعالى ، ولاسيما المصاحف ومجامع الحديث وكتب الفقه) (٦) .

---

(١) أنظر سن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٧-١٨ - ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٣-١٥٤ .

(٢) راجع ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٣ .

(٣) راجع حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ١٤٢- ١٤٣- ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٣ .

(٤) ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٣ .

(٥) راجع حسن حسني عبدالوهاب : البساط ، ص ٦١- ٦٢ .

(٦) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ، ص ١٧ .

القسم الثاني

النشاط العلمي في إفريقية

المغرب الأدنى

الفصـــــل الأول

الدراســـات الشرعية

(١)

إنتشار المذهب المالكي ومكانته في إفريقية

- فكرة تاريخيه لنشوء المذهبية الفقهية

- حالة الدراسات الشرعية في إفريقية قبل دخول المذهب المالكي .

فكرة تاريخيه لنشؤ المذهبية الفقهية :

لم يكد يمر القرن الثاني الهجري ، حتي كان المذهب المالكي يغمر بسناه المغرب الأدنى . والواقع أن لم يغمر المغرب الأدنى وحده فحسب ، وإنما المغرب كله والأندلس ، وإذا كان ليس من مهمة بحثنا تتبع انتشار المذهب في بقية المغرب والأندلس - إلاَّ مافيه صلة للبحث - فإن إنتشاره وظهوره ظهوراً مطلقاً على غيره من المذاهب الفقهية الأخرى وكذا السياسية في المغرب الأدنى ، يحتاج منا بحثا مستقصياً عن أسباب ذلك ، لأن المذهب المالكي في المغرب الأدنى والمغرب عموماً والأندلس - هو الذي صبغ الدراسات الشرعية بصبغته وكانت تعتمده محوراً في توسعها وتوجهها كما هو معلوم .

بيد أن الحديث عن انتشار المذهب المالكي في المغرب الأدنى لايستقيم له معنى ، ولايطرد له سياقاً إلاَّ إذا استوجبنا عقد استقراء تاريخي موجز لنشوء المذهبية الفقهية في الدولة الإسلامية . ونحن هنا بطبيعة الحال لايهمنا من أسباب نشأة المذاهب الفقهية والخطوات التاريخيه التي مرت بها إلاَّ مايوضح ماهية المذهب المالكي ، الذي ارتضاه المغاربه وحده تقريباً مذهباً فقهياً لهم .

أفاض المؤرخون ومتتبعو النشاطات العلمية الإسلامية في الحديث عن أسباب حدوث المذاهب الفقهية ، بل وغيرها من المذاهب السياسيه والمذهبية والكلامية ، وتضافرت جهود المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين في تتبَّع تلك المذاهب الفقهيه جوهراً ومحتوى ماناً ومكاناً ، صعوداً وهبوطاً ،

أصحاباً ومريدين طبعا ، ممّا هو شائع مبسوط في المؤلفات العامة والخاصة . ولعل غاية مانستطيع قوله هو إن الحاجة إلى الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة . كان الأرهاص الذي أدى إلى تكوين المذاهب الفقهية تلك . فغنى عن القول أنه قد واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ ، الكثير من القضايا الشائكة سواء كانت مالية أو اجتماعية أو اقتصادية ، ممّا لم يرد فيه نص قطعى لاسيما بعد حركة الفتوحات العظيمة في عهود الخلفاء الراشدين وماتبع ذلك من دخول أجناس مختلفة تحمل ثقافات متنوعة في حظيرة الدولة الإسلامية فنشأت أثر ذلك قضايا مختلفة المنازع الإقتصادية والمالية والإجتماعية ، كما قلنا لم ينص في القرآن والسنة على كيفية مواجهتها - وهذا بعلم الله سبحانه وتقديره بلاشك - فدفع هذا كبار الصحابة إلى الاجتهاد في حل تلك المعضلات بما يهديهم إليه رأيهم وقياسهم طلباً لتحقيق المصلحة العامة والمقصد العام للشريعة . ولقد تأتي من ذلك ظهور مصدر تشريعي مهم ، هو الرأي الذي نظم بعد ، وعرف بالقياس (١) .

على أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا كما يذكر محمد أبو زهرة (٢) في الإجتهاد بالرأي سواء ، فمنهم من اجتهد بالرأي عن

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٥- ٣٣ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٢٥- ٢٥٠ (بتوسع) ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٥١ - ١٧٦ (بتوسع كذلك) - محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج٢ ، الفصل الخاص بدواعي نشأة المذاهب الفقهية ، ص .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج٢ ، ص١٦ - ١٧ .

طريق المصلحة العامة التي هي التي أقرب للمقاصد العامة للشريعة (١) ومنهم من اجتهد بالرأي على منهاج القياس بمعناه الذي عرف به .(٢) وكلا الفريقان اضطرتهما الوقائع إلى اللجوء لهذين النوعين من الإجتهاد . (٣)

وبإنتقال بعض من أولئك الصحابة من المدينة إلى بعض الأمصار المفتوحه انتقلت اجتهاداتهم القياسية التي حفظت عنهم إلى الأمصار التي استوطنوها ، ولقد ترتب على ذلك أن أصبح كل قطر نزله الصحابه رضي الله عنهم يتلقى اجتهادات من نزل فيه منهم غير أن الحجاز وخاصة المدينة، والعراق وخاصة الكوفة ، اشتملا على معظم تلك الآراء الاجتهادية لوجود غالبية الصحابة في الحجاز ثم في العراق بنسبة أقل . (٤)

وفي عصر كبار التابعين الذي هو موصول بعصر الصحابة ، شهدت الدولة الإسلامية انقسامات خطيرة بين المسلمين بسبب الفتن السياسية التي نشبت آنذاك كما هو معروف والتي أفرزت مذاهب سياسية أهمها المذهب الخارجي والشيعي . ولقد سعت هذه المذاهب السياسية إلى تأييد

---

(١) هذا هو التعريف الجامع للقياس في رأي محمد أبو زهرة ، فهو يرى (أن الإجتهاد بالرأي تأمل وتفكر في تعرف ماهو الأقرب إلى كتاب الله تعالى وسنه نبيه ﷺ ، سواء أكان يتعرف ذلك الأقرب من نص معين ، وذلك هو القياس أم الأقرب للمقاصد العامة للشريعة وذلك هو المصلحة)، محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج٢ ، ص ١٦ .

(٢) تعريف القياس (هو الحاق أمر غير منصوص على حكمة بأمر آخر منصوص على حكمه لاشتراكهما في علة الحكم ، أو القياس ثبوت الحكم في غير المنصوص على حكمه لاشتراكه في عله الحكم المنصوص على حكمه) . محمد أبو زهرة : نفس المرجع السابق ، ج٢ ، ١٦ .

(٣) محمد أبو زهرة : نفس المرجع والجزء أعلاه ، ص ١٧ – ١٨ .

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٣٤– ٢٤١ محمد أبو زهرة : نفسه ص ص ٣٢ – ٤١ .

وجهة نظرها السياسية ثم العقائدية إلى اختلاق أحاديث منسوبة للرسول ﷺ (١) ، ممَّا أوجد شعوراً بالفزع لدى كبار العلماء وغيرهم . (٢) هذا بالإضافة إلى المستجدات من الأقضية التي تزايدت كماً ونوعاً بسبب تتابع موجه الفتوحات، ودخول أجناس أخرى ذات ثقافات ومشارب متنوعه (٣) . ومن هنا ظهر آنذاك أي في أواخر القرن الأول ، ومطلع القرن الثاني الهجري تياران فقهيان رئيسيان تيار يؤثر الرواية ويتمسك بها ، ويرى فيها الاعتصام من الفتن التي ظهرت وتيار آخر يسعى للبت ببيان الأحكام الشرعية لما ظهر من كثرة الكذب على الرسول ﷺ ، ولمواجهة ما استجد من قضايا. هذان التياران عرفا في الفقه : بفقه الأثر، وعرف أهله بأهل الحديث ، وفقه الرأي ، وعرف أهله بأهل الرأي والقياس ، (٤) وقد اختصت المدينة بفقه الأثر ، الذي تمخضت عنه مدرسة فقهية مدنية

---

(١) أنظر محمد أبو زهرة نفسه ، ص ٣١ -٣٢ - الحجوى الفاسي الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، ج٢ ، ص ٢٠٧ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢١١- ٢١٣ ، من ألمهم الإشارة هنا إلى أن الخوارج ، مع مخالفتهم لمذاهب أهل السنه ، إلاَّ أنهم لم يضعوا أو يختلقوا أحاديث على لسان الرسول ﷺ بخلاف الشيعه أو بعض فوقهم المتغالية التي لجأت إلى ذلك تأييداً لوجهة نظرها ، كما جاء في المتن .

(٢) وينسب في هذا الصدد إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز سعيه إلى تدوين السنة الصحيحة ، غير أن وفاته حالت دون تحقيق ذلك . أنظر أحمدأمين نفسه ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ - محمد أبو زهره : نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) تناول أحمد أمين بتحليل دقيق وعميق معظم تلك القضايا المستجده في موسوعته فجر الإسلام ، ص ٢٣٤- ٢٤١ ، وفي ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٤) أحمد أمين فجر الإسلام ، ص ١٥٧ - ١٦٢ - محمد أبو زهره : نفسه ، ص ٣٢- ٤١ - الحجوى الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، ح٣١٠ - ٣١٥ .

واختصت الكوفة بفقه الرأي أو القياس الذي تمخضت عنه هو الآخر مدرسة فقهية كوفية . ولقد أفاض المؤرخون في ذكر الأسباب التاريخية والموضوعية بجانب ماذكر من قبل التي أدت إلى ظهور هذين المدرستين في الحجاز ، والعراق كما هو معروف معلوم (١) .

وفي عصر تابعي التابعين بعدت الشقة بين هاتين المدرستين الفقهيتين: مدرسة الحديث ومدرسة الرأي . وفي هذا العصر ظهر الإمام أبو حنيفة النعمان بوصفه ممثلاً لمدرسة الرأي ، والإمام مالك بن أنس بوصفه مثلاً لمدرسة الأثر، وبهما إبتدأ تكون المذاهب الفقهية ، فأبو حنيفة يعد شيخ القياس في وقته (٢) ، ومالك بن أنس يعتبر أمير المؤمنين في الحديث (٣) ، وفي عصرهما أيضاً ظهر الإمام الأوزاعي في بلاد الشام كصاحب مذهب له اجتهاداته ،غير أنه مالبث أن إندثر (٣) وكذلك ظهر الليث بن سعد في مصر الذي كان له هو الآخر مذهب فقهي مالبث أن أندثر كذلك (٤) . ومعاصر

(١) أنظر مثلا أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٤١ –٢٤٥ – ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٥١ – ١٦٦ – محمد أبو زهرة نفسه ، ص ٣١١ – ٣١٦ – أحمد تيمور : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي وانتشارها عند جمهور المسلمين ص ٢٩ –٣١ – عبد الرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ، ص ٥٥ – ٩١ .

(٢) محمد أبو زهرة : نفسه ص ٥٦ .

(٣) هذا هو نعت محمد بن الحسن الشيباني لمالك . ومحمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) هو ثاني تلامذة الإمام أبي حنيفة النعمان بعد القاضي أبي يوسف ، أنظر مالك بن أنس : موطأ مالك ، رواية محمد بن الحسن الشيباني ، تحقيق وتعليق محمد عبدالوهاب عبداللطيف ، ص ٩ .

(٤) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧– أحمد تيمور : نفس المرجع أعلاه والصفحة – أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٢ ، ص ١٧٣– عبالرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ، ص ٩٥ – ١٢٠ .

آخـر لهمـا بل هو ند وهو سـفيـان الثـوري في الكوفـة الذي إندثر مـذهبـه أيضـاً (١) . ثم تعـددت المذاهب التي تذهب طرائق قـددا فـي الاجـتـهـاد ، فبجانب هذه المذاهب التي عرفت في القرن الثاني ، تتابع تكوين المذاهب فيه وفي القرنين اللذين تلياه : أي الثالث والرابع فظهرت مذاهب جديدة نسبت إلى مجتهدين بارزين : فظهر مذهب سفيان بن عيينة ، ومذهب الشافعي ، ثم مـذهب اسحـاق بن راهوية ، ومـذهـب أبي ثور ومـذهـب أحـمـد بن حنبل ومـذهب داوود الظاهرى ، ومـذهب ابن جـرير الطبري (٢) .. الخ . غيـر أن الغلبة أصبحت بعد لآي للمذاهب الفقهية الأربعة المعروفة حتي اليوم : وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي كما هو معلوم (٣) ، والتي لم يخل منها قطر إسـلامي ، وإن كـانت الغلبـة في كل قطر كـانت لمذهب من هذه المذاهب الأربعة دون غيره لعدة أسباب بسطها المؤرخون في كتبهم (٤) .

الأمـور الجزئيـة التي لم يثبت بدليل قطعى الحكم فيـهـا ، بمعنى أن الاختلاف كان فقط . في فهم بعض النصوص الشرعية وفي تطبيق كلياتها على الفروع (٥) .

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧ - أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ١٢ - أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٧٣ .

(٢) راجع محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧ - أحمد تيمور : نفسه ، ص ١٢- ١٣ - أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٧٣ .

(٣) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧ - ٣٣ - أحمد تيمور : نفسه ، ص ١٢، ١٣، ١٥ .

(٤) أنظر أحمد تيمور : مقدمة الكتاب التي كتبها على حسن عبدالقادر ص ١-٦ ثم ماورد في تضاعيف كتاب من انتشار المذاهب الأربعة في الأمصار الإسلامية امتداداً وانحساراً .

(٥) محمد أبو زهرة : نفسه ، ص ٥٦ - ، ٥٧ - ٥٨ ، ٧٩ .

أما وقد سقنا هذه الفذلكة التاريخية لنشوء المذهبية الفقهية فإن من ضرورات المنطق ومقتضيات الأشياء أن نسلط الضوء على المذهبين اللذين تمخضت عنهما مدرستا الرأي والحديث ، وهما بداهة المذهبان : الحنفي والمالكي . فالمذهب الحنفي ينسب للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي الفارسي الأصل (٨٠ –١٥٠هـ) والأمام أبو حنيفة النعمان أشهر من أن يعرف ، ولن نضيف جديداً إلى ماحلاّه به المؤرخون قدامى ومحدثين من ترجمة واسعة مستفيضة ، وكذا الشأن فيما يخص الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي (١) (٩٣ – ١٧٩ هـ) . فغاية مايهمنا من ترجمتيها الواسعة هو منحاهما الاجتهادي الفقهي ، لِما لذلك من ارتباط مع ماتصدينا له من الحديث عن انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى ، ولاسيما وأن المذهب الحنفي قد انتشر في إفريقية (المغرب الأدنى) وكان له تلامذة واتباع حسبما سنعرف بعد .

أما مذهب الامام أبو حنيفة ، الذي شاع وانتشر في أقطار عديدة من الأمصار الإسلامية ، كالعراق أولاً ومصر وبلاد فارس وبخاري وفرغانة وأكثر بلاد الهند والسند وبعض بلاد اليمن (٢) وغيرها ، فإن قوام منحاه الاجتهادي الفقهي هو : الاعتماد على القرآن الكريم ، وهو مسلك سلكه كل

---

(١) يبدو أن مولده سنة ٩٣ هـ هي السنة الأكثر ترجيحاً من سنة ٩٤ أوسنة ٩٧ أو سنة ٩٧هـ كما ورد أيضا . أنظر عياض : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١١٠– ١١١– مالك بن : أنس موطأ الإمام مالك ، مقدمة المحقق ، ص ١٠ – أحمد تيمور : نفسه ، ص ٢٧ – أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ٢٠٦ .

(٢) أنظر أحمد تيمور : نفسه ، ص ١٦–٢٦ .

الأئمة (وإن اختلفوا في شئ فيه ، فاختلاف في فهم مدلوله وإشاراته وطرق الاستنباط منه) (١) . أما الحديث ، فقد كان له فيه اتجاه خاص (وهو التشدُّد في قبوله والتحرى عنه وعن رجاله حتى يصح ، وكان لايقبل الخبر عن رسول الله ﷺ ، إلاَّ إذا رواه جماعة من جماعة ، أو كما يعبرون هم إذا كان خبر عامة عن عامه ، أو كان خبراً اتفق فقهاء الأمصار على العمل به ، أو روى واحد من الصحابة الحديث عن رسول الله ﷺ في جمع منهم ، فلم يخالفه أحد ، لأن هذا يدل على إقرارهم له ، ولو كانوا يخالفونه لردوا عليه ، فكان هذا بمثابة الحديث يرويه جماعة) (٢) . ولعل تشدده في الأخذ بالحديث قد أضطره إلى التوسع في القياس والاستحسان فيما لم يرد فيه نص من كتاب ولاحديث صحيح . (٣) ومن مناحيه الاجتهاديه كذلك : إعمال العقل (فيما إذا ماروى في المسألة قولان أو أكثر للصحابة فيختار منها أعدلها أو أقربها إلى الأصول العامة ، وعدم الاعتداد بأقوال التابعين إلاَّ أن يوافق اجتهاده) (٤) وهذه الأمور جعلت من القياس أساساً مهماً من أسس التشريع في فقهه (٥) . ومن أسس مذهبه الفقهي كذلك : الفقه التقديري الذي يقوم (على افتراض مسائل غير واقعية أو خيالة ، ووضع أحكام لها) ، وهو يرى ضرورة ذلك لأنه يجب على العلماء في رأيه ان

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٨٥ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج٢ ، ص ١٨٥ –١٨٧ .

(٣) أحمد أمين : نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ١٨٧ .

(٤) أحمد أمين : نفسه ، ص ١٨٧ .

(٥) أحمد أمين : نفسه ، ج٢ ، ص ١٨٧ ، ١٩٠ .

يستعدوا للبلاء ويتحسبون له قبل وقوعه (١) . وأخيراً فإن أسس مذهبه الفقهي أيضاً : الحيل الشرعية التي غدت بعد ذلك تشكل باباً واسعاً من أبواب الفقه الحنفي (٢) . ويرى أحمد أمين (٣) (أن الحيل التي أفتى بها أبو حنيفه ليست من نوع التحايل على إبطال الحق أو أكل الأموال بالباطل ونحو ذلك ، وإنما هو أستخراج فقهي للخروج من مأزق ، ومع عدم التعدي على أحد في ماله وفي نفسه) .

أما مذهب الإمام مالك بن أنس ، الذي شاع كذلك وانتشر في عديد من الأمصار الإسلامية كالحجاز والمغرب والأندلس وغير ذلك (٤) ، فإن قوام منحاه الإجتهادي الفقهي : الاعتماد على القرآن الكريم أولاً ثم الاعتماد على الحديث . ويقول أحمد أمين في هذا الصدد (كان مالك لايشترط في الحديث ما أشترطه أبو حنيفه من الشهرة وغيرها ، بل يعمل بخبر الواحد إذا صح أو حسن) . وهذا المبدأ يجعل الأحاديث التي ينبني عليها مذهبه أكثر عدداً فلا يتطلب في الحديث شهرة ، وإنما يتطلب صحة السند ونحوها ، ولايفهم من هذا تساهله في قبول الحديث من غير تحرٍ أو تدقيق ، بل هو شديد التحري ، ولكن لايشترط شهرة الحديث وعمومه)(٥).

---

(١) أحمد أمين : نفسه ، ١٨٧ – ١٨٨ .

(٢) أحمد أمين : نفسه ، ص ١٩٠ – ١٩٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٢ .

(٤) أنظر أحمد تيمور : نفسه ، ص ٢٧ – ٢٩ .

(٥) أحمد أمين ، نفسه ، ج٢، ص ٢١٠ .

ومن أسس مذهبه الرئيسية قوله يعمل أهل المدينة ، ورأيه في هذا ينبع من تأكيده على أن (أهل المدينة إذا اتفقوا على عمل مسألة واتفق مع العمل علماؤها ، فهذا العمل حجة يقدم على القياس بل ويقدم على الحديث الصحيح ، أما إذا لم يكن عملاً اجماعياً ، بل عمله أكثرهم ، فهذا أيضاً حجة على خبر الواحد لأن العمل بمنزله الرواية . فعمل الأكثر بمنزلة رواية الأكثر ، فإذا جاء خبر واحد يخالفهم كان الراجح أنه منسوخ) (١) .

ومن أسس مذهب الإمام مالك الفقهي كذلك : (العمل بقول الصحابي إن صح نسبته إليه ، وكان من أعلام الصحابة الخلفاء الراشدين مثل معاذ بن جبل ، وابن عمر ، وكان لم يرد في المسألة عينها حديث عن النبي صحيح) (٢) . بيد أن الإمام مالكاً لم يطرح الرأي البتة وخاصة فيما لم يرد فيه نص من كتاب أوسنة . فمال إلى القول بالمصالح المرسلة أو الاستصلاح) . (٣)

وقبل أن نغادر الحديث عن مذهب الإمام مالك بن أنس نشير إلى كتابه الأشهر الذي كان له دور عظيم وعميق في المغرب والأندلس بصفة خاصة وغيرها بصفة عامة ، ألا وهو كتاب الموطأ ، وكتاب الموطأ كذلك أشهر من أن يعرف ، وحسبنا أن نلخص ماجاء فيه . فهذا الكتاب الذي ألفه الإمام مالك ، جمعه في نحو ٤٠ عاماً ، وهو كتاب حديثي فقهي معاً وقد

---

(١) أحمد أمين : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١١ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج٢ ، ص ٢١٢ .

(٣) أحمد أمين : نفسه ، ص ٢١٢ .

جمع فيه حوالي ١٠ آلاف حديث وقيل ٩ آلاف (ثم لم يزل ينتقى منه ، حتى رجع إلى سبعمائه) . ولهذا فهو يعد من أشهر كتب الحديث (١) .

والموطأ كذلك كتاب فقهي ، فقد رتبه ترتيب الفقه ، فكان يذكر الأحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد ككتاب الصلاة أو الصوم . . الخ ، ثم بجمع المسائل المتشابهة حول مايتعلق بالصلاة ، وقد يزيد على الحديث ما استنتجه فقهياً منه ، كما كان يقوم أحيانا بشرح بعض الكلمات اللغوية وتفسيرها .. الخ (٢) .

وكتاب الموطأ حظى بشروحات عديدة تصدى لها بعض تلامذته وغيرهم ، فشرحه الكثيرون في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية ولخصوه ، وأشتهرت من بين تلك الشروحات والتلخيصات عدة نسخ أشار إليها مؤرخو الفقه . (٣) كما أشتهرت أيضاً نسخ من الموطأ سمعها منه بعض تلامذته المصريين والأندلسيين والعراقيين ، ثم من غير تلامذته ومن غير المعاصرين له كذلك . (٤) هذا ومعنى الموطأ في اللغة : الممَّهد ، المنقح ، ويذكر أنه لم يسبق مالكاً أي انسان إلى هذه التسمية لأي مصنَّف (٥)

---

(١) أنظر مالك بن أنس : موطأ الإمام مالك ، مقدمة المحقق ، ص ١٢، ١٣- ١٥ أحمد أمين : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج٢٢ ، ص ٢١٤ .

(٣) أنظر مالك بن أنس : نفس المصدر السابق أعلاه والمقدمة ، ص ١٦ - ١٩ .

(٤) أنظر مالك بن أنس ، نفسه ، ص ١٩ -٢٢ .

(٥) مالك بن أنس : نفسه ، ص ١٣ .

حالة الدراسات الشرعية في إفريقية قبل دخول المذهب المالكي :-

قبل أن نناقش أسباب دخول المذهب المالكي بلاد المغرب الأدنى ،علينا بادئ ذي بدئ أن نلقي نظرة خاطفة إلى حالة الدراسات الشرعية فيها آنذاك . الواقع أن الدراسات الشرعية ، وهي المظهر الرئيسي للحياة العلمية آنذاك في إفريقية - لم تبدأ بالظهور إلاَّ في مطلع القرن الثاني الهجري ، وهذا شئ طبيعي إذا ما عرفنا أن الفتح الإسلامي للمغرب لم يتم إلاَّ في عام ٩٠هـ ، وفي هذا الصدد نعتقد أنه ليس ثمة تناقض بين قولنا بأن الدراسات الشرعية والحياة العلمية اقتضاءً لم تبدأ إلاَّ في مطلع القرن الثاني الهجري وبين انتشار الإسلام السريع في المغرب كله أثناء وبعد الفتح. فصحيح أن الإسلام انتشر آنذاك انتشاراً واسعاً بين البربر عندما تبين لهم حقيقة الدين الذي جاء به الفاتحون العرب ، ولذلك أقلعوا عن مقاومته فاعتنقوه بسرعة ملفتة للنظر ، ولكنها طبيعية بسبب مافي الإسلام من مثالية ماعهدوها من قبل ، وبسبب ضيقهم من استبداد الشعوب التي تعاقبت على بلادهم ، وبسبب جهود الفاتحين التي أشرنا إليها من قبل ثم أخيراً بسبب ما تميز به البربر من أنهم من أقوى الشعوب حماسة وحرارة في تدينهم (١) .

كل هذا صحيح ، ولكن الدراسات الشرعية التي هي المظهر الرئيسي للحياة العلمية في إفريقية كما ذكرنا آنفاً ، كانت أقل انتشاراً في هذه

(١) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ١١٨ .

الفترة الأولى من إنتشار الإسلام نفسه ، وهذا شيء طبيعي آنذاك ، فالعرب الفاتحون لإفريقية كان اهتمامهم منصباً على نشر الإسلام بين البربر عن طريق إرشادهم إلى الكليات والمبادئ العامة له مع نشر شئ من قواعد اللغة العربية ، وهي لغة التعبد كما هو معروف فحسب ، وحتى البعثات العلمية الرسمية والفردية التي قدمت إلى افريقية في مطلع القرن الثاني الهجري ، والتي ذكرنا من قبل أنها كانت إحدى الأسباب التي دفعت إلى تنشيط الدراسات الشرعية ، كان أثرها العلمي متواضعاً – على أهميته – ، بل إننا نمضي فنقول إنه حتى الرحلات العلمية المبكرة للمغاربة التي تمت في النصف الأول من القرن الثاني الهجري لم تكن ذات أثر كبير في تنشيط الدراسات الشرعية . (١)

ولكن ما أن إنتصف القرن الثاني حتي تبدل الحال ، فنشطت الدراسات الشرعية وخاصة الفقهية نشاطاً عظيماً ؛ وبدا كما لو أن تلك الدراسات التي كانت تتحسّس طريقها في النصف الأول من القرن نفسه قد قفزت قفزات ضخمة في النصف الثاني منه ، ولسنا في حاجة إلى القول بأن الدافع الرئيسي وراء ذلك الإزدهار هو ظهور المذهبية الفقهية في المشرق التي إتخذت طريقها عبر المذهب المالكي إلى المغرب ، فأحدثت ذلك

---

(١) نورد على هذا مثلاً فرحلة عبدالرحمن بن زياد بن أنعم أو رحلتاه إلى المشرق ، وكانت إحداها في العصر الأموي والثانية في العصر العباسي لم تكن ذات أثر علمي واضح . فلم يورد لنا أبو العرب التميمي الذي ينقل عنه المالكي في كتابه الرياض ، والدباغ في كتابه : المعالم أنه كان له تلامذه عديدون تلقوا عنه على عدم تحديد تاريخ رحلته الأولى للمشرق ، أما الثانية فقبد كانت عام ١٤٠ هـ ، وتوفى ، ابن انعم عام : ١٦١ هـ .

الإزدهار ، ومن ثم ذلك التحول المذهبي الذي سنأتي على ذكر تفاصيله بعد قليل ، وعلى ذلك فبإمكاننا أن نؤكد أن الدراسات الشرعية في إفريقية لم تتبلور ولم تبدأ تتبوأ مكانتها التي غدت عليها إلا بظهور المذهب المالكي في المغرب على يدى أولئك العلماء المبرزين الذين سنشير إلى دورهم في نشر المذهب المالكي ، ثم إلى دورهم العلمي بعد ذلك إن شاء الله .

انتشار المذهب المالكي في المغرب الأدنى ، أدواره وأسبابه :

أولاً : الأدوار: أشرنا إلى أنه ما أن انتصف القرن الثاني للهجرة حتى نشطت الدراسات الشرعية في المغرب الأدنى بفضل دخول المذهب المالكي ، وفي الحقيقة فإن الفضل في دخول المذهب المالكي يعودإلى تلك الطبقة من أبناء إفريقية الذين رحوا إلى المدينة وقابلوا شيخ المذهب نفسه ، وسمعوا عنه وتأثروا به كما ذكرنا من قبل (١) . ثم عادوا إلى بلادهم ينشرون مذهب مالك هناك ولم يمت الإمام مالك (ت ١٧٩هـ) حتي كان قد عرف انتشار مذهبه في المغرب والأندلس (٢) .

ومنذ أن أسهم هؤلاء في ادخال المذهب المالكي إلى بلادهم تتابعت جهود العلماء من تلامذتهم وتلامذة تلامذتهم .. الخ في تثبيت أقدام المذهب حتى كتبت لها الغلبة والتمكين المطلق النهائي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وحتي الآن ، وإذا ما ألقينا نظرة على أدوار انتشار المذهب المالكي منذ البداية وحتى انتهاء الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فإننا سنكبر الجهود التي بذلها أولئك العلماء الذين مكنوا للمذهب البقاء والديمومة وسط كل الأعاصير التي جابهها المذهب من ابتعاد الأمراء الأغالبة عنه الذين كانوا يتمذهبون بالمذهب الحنفي ، (٣) إلى العداء الشديد

(١) أنظر قبل ١١٨ .

(٢) انظر المالكي المصدر السابق والجزء ومقدمة المحقق ، ص ١٢م وإن كان حسين مؤنس يجعل وفاة مالك عام ١٧٠هـ / ٧٨٦م ، بينما المشهور هو عام ١٧٩ هـ .

(٣) أنظر المالكي : نفسه : المقدمة ص ١٣- ١٥ م - عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، ص ١١٣ - ١١٥ ، ١٢٩ - ١٣٢ - السيد محمد أبو =

الخطير له الذي جاء مع مجيء الفاطميين (١) ، إلى الاضطهادات التي شنها البعض من أمراء الدولة الزيرية ضد علماء المالكية (٢) ، إلى غير ذلك، حتى كتب للمذهب الثبات والديمومة بعد لأي كما أسلفنا .

وعلى أيه حال ،فقد مر انتشار المذهب المالكي والتمكين له كما يتراءى لنا في أدوار سبعة تمثله سبع طبقات من علماء إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة . وهذا التقسيم يبدو لنا منطقيا متفقاً مع الواقع الذي عاشه المذهب المالكي وسط كل ما أشرنا إليه من صعوبات .

ولعل أول أدوار انتشار المذهب المالكي تبدو معقودة للطبقة الأولى التي أسهمت في دخول المذهب ومبادئه ، ومن ثم انتشاره ، ويأتي عبدالله بن فروخ الفارسي (ت١٧٥هـ) على رأس هذه الطبقة فلقد كان له دور في نشر المذهب تأتي من صحبته الطويلة للإمام مالك بن أنس ، بل واشتهاره بها ثم والأهم من هذا فقد أسهم في الترويج للمذهب في بلاده عن طريق مكاتبته للإمام مالك التي تدور حول عدد من الأسئلة الفقهية للعمل بها في إفريقية ، وهذا أمر أدى إلي تمهيد الأمر في البلاد لدخول المذهب ومن ثم انتشاره (٣) .

= العزم داود : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ص ١٢٢– ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٥ – ١٤٦ .

(١) أنظر بعد ، ص ٥٢٥ ومابعدها

(٢) المالكي : نفسه ، المقدمة ، ص ٢٠م – ٢١م ، ٤٠م – ٤٥م – ٤٦م – ٤٧م ، ٤٩م – ٥٢م .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ١١٣– ١١٥ – عياض : نفسه ، ص ٣٤٠ – ٣٤٤ – ٣٤٥ .

ومن أفراد هذا الدور التأسيسي الأول علي بن زياد التونسي (ت١٨٣هـ) وكان لادخاله موطأ الامام مالك كما أشرنا من قبل (١) أثر في نشر المذهب المالكي دون شك لاسيما وأنه أول من فسر لأهل بلده قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه من قبل كما يشير إلى ذلك بعض من مؤرخي التراجم والطبقات (٢) ، وإضافة إلى هذا فقد جهد في ترسيخ أصول المذهب المالكي ومبادئه في نفوس تلاميذه وخاصة أسد بن الفرات وسحنون ابن سعيد وغيرهما . (٣)

ومنهم : البهلول بن راشد الرعيني (ت ١٨٣هـ) ، وهو أحد من أسهم بمواقفه المتشددة من أهل البدع والأهواء في تثبيت المذهب المالكي (٤) ، وكان لايكتفي بذلك بل يطلب من طلبته البعد عنهم ، ويصل به الأمر إلى مقاطعة طلبته إذا ما أحس أنهم خالفوا أمره . (٥) ومنهم كذلك عبدالله بن غانم القاضي (ت١٦١هـ) وكان ممَّن أسهم في نشر المذهب المالكي وتثبيته

---

(١) أنظر قبل ، ص ١٢٠ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥ - ٢٦ - المالكي : نفسه ، ص ١٥٨ - عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥ - المالكي : نفسه ص ٥٨ - عياض : نفسه ، ص ٢٣٦ ، وقد أجمعوا على أن أهل العلم كانوا إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد ليخبرهم بالصواب فيها ، وأشاروا كذلك على أنه معلم أسد بن الفرات الذي كان يقول فيه : علي بن زياد من نقاد أصحاب مالك ، وأشاروا أيضاً إلى أنه معلم سحنون الفقه .. الخ .

(٤) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٥٢ - المالكي : نفسه ، ص ١٣٣ - ١٣٤ - عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٢٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ - ٣٣٣ .

(٥) أنظر المالكي : نفسه ، ص ١٣٤ .

في بلاد المغرب بالتصدي لتدريس قواعده وأصوله ، وكان بالإضافة إلى هذا أحد المتعصبين للإمام مالك ومنهجه . (١)

ثم جاءت الطبقة الثانية وتمثل الدور الثاني من أدوار انتشار المذهب المالكي . والواقع أن دورها كان عظيماً ، فلقد ثبتت هذه الطبقة أقدام المذهب ، واكتسحت به البلاد . ، ويأتي على رأس هذه الطبقة من حيث الوفاة لامن حيث الأهمية في انتشار المذهب : أسد ابن الفرات بن سنان (ت٢١٣هـ) ، ودوره في نشر المذهب المالكي وتثبيته في المغرب الأدنى أشهر من أن يذكر ، ويكفي أن نشير إلى أن جهوده التأليفية الفقهية على أساس المذهب المالكي ، كانت خير سبيل إلى انتشار المذهب المالكي ، والتمكين له هناك (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان مدافعاً عن المذهب المالكي ضد أهل الأهواء والبدع وغيرهم . (٣)

أما الشخص الأكثر أهمية والأعظم دوراً في نشر المذهب المالكي من بين علماء هذه الطبقة فهو بلا أدنى ريب الإمام سحنون بن سعيد التنوخي (ت ٢٤٠هـ) وفي الحقيقة فإن فضله في انتشار المذهب المالكي الذي خلده له المؤرخون قدامى ومحدثون لايمكن لنا أن نحيط به هذا الحيز ، ولعل غاية مانستطيع قوله هنا هو الإشارة إلى بعض الأقوال لنفر من مؤرخي التراجم

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ١٤٣- ١٤٥ .

(٢) أنظر بعد ص ٣٢٢ ومابعدها .

(٣) أنظر بعد ص ٤٥٠ ومابعدها .

والطبقات إلى توضح دور سحنون في نشر وتثبيت المذهب في المغرب الأدنى. نقل عياض (١) عن محمد بن حارث الخشني في كتابه طبقات علماء إفريقية قوله : (كانت إفريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس ، لأنه قد رحل إليها أكثر من ثلاثين رجلا ، كلهم لقي مالك بن أنس وسمع منه ، وإن كان الفقه والفتيا إنما كان في قليل منهم ، كما كان ذلك في علماء البلاد ، ثم قدم سحنون بذلك المذهب واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والإنقباض ، فبارك الله فيه للمسلمين ، فمالت إليه الوجوه وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدئاً قد أمحى ماقبله ، فكان أصحابه سرج أهل القيروان .. الخ) . ونقل عياض (٢) كذلك وابن السراج عن أحد تلامذة سحنون ، وهو سعيد بن الحداد (٣) . قوله (كان أبو سعيد (كنية سحنون) عاقلاً (٤) بمرة ، ورعاً بمرة عالماً بمذاهب المدنيين بمرة) ويمضي عياض (٥) كذلك فينقل عن الشيرازي صاحب

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٥٩١ .

(٢) نفسه ، ج١ ، ص ٥٩١ – ابن السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ،الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٧٧ .

(٣) في الأصل سعيد بن الحارث ، وقد علق محقق الحلل السندسية بقوله : إنه وجده في الأصل كذلك ، ولكنه صحح الاسم فقال لعله : سعيد بن الحداد (أنظر حاشيه رقم ١، ص ٧٧ من الجزء الأول ، القسم الأول من الحلل) . والحقيقة فإن محمداً الحبيب بن الهيلة محقق الحلل على حق في ذلك . ويؤيد ماذهب إليه من أن الرواي هو سعيد بن الحداد ، ما أورده أبو العرب التميمي في كتابه الطبقات ، ص ١٠٤ .

(٤) صحح محمد الحبيب بن الهيلة في تحقيقة للجزء الأول، القسم الأول من كتاب الحلل في الحاشية رقم١٢ من ص٧٧ العبارة كما وردت في المتن، وأصل عبارة عياض :كان أبو سعيد عقلا . . الخ

(٥) المدارك : ج ١ ، ص ٥٩١ – ٥٩٢ .

كتاب : طبقات الفقهاء قوله (إليه انتهت الرئاسة في العلم بالمغرب ، وعلى قوله المعول (١) به ، وصنف المدونه وعليها يعتمد أهل القيروان ، وحصل له من الأصحاب مالم يحصل لأحد من أصحاب مالك ، وعنه انتشر علم مالك في المغرب) . أما الدباغ في معالمه (٢) فيقول متحدثاً عن رحلة سحنون إلى المشرق وعودته (... ثم قدم إلى القيروان سنة إحدى وتسعين ومائة ، فأظهر علم أهل المدينة بالمغرب ، وكان أول من أظهره) . وإذا كنا نوافق الدباغ في أنه أظهر علم أهل المدينة بالمغرب ، فإن مالايمكن موافقته عليه هو قوله إنه أول من أظهره هناك ، ذلك لأن السياق التاريخي لأولية انتشار المذهب المالكي حسبما أجمع معظم من تناول ذلك يسند الأولية والأسبقية لعلي بن زياد التونسي والبهلول بن راشد وغيرهما . وهذا ما أشار إليه كذلك ابن ناجي (٣) مكمل كتاب المعالم ومعلقة حرفياً بقوله : (قلت : وماذكر من أنه أول من أظهر علم أهل المدينة لايقال ، وفيه نظر لسبقية علي بن زياد بذلك والبهلول بن راشد وغيرهم (٤) . وممّا يذكر لسحنون من دور في نشر المذهب المالكي ، أنه كان حريصاً . على الأخذ (بمذهب أهل المدينة في كل شئ ، حتى في العيش (٥) .. الخ) أي حتى في معيشته وسلوكه . وفي

١- التصحيح من ابن السراج ، (انظر ص ٧٨) وإلاّ فالعبارة عنه عياض : (وعليه قوله ، الموصل به).

٢- الجزء الثاني ، ص ٧٩ - ٨٠ .

٣- نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٨٠ .

٤- (كذا بدل وغيرهما .

٥- عياض : نفسه ، ص ٥٩٣ .

الواقع فإن هذا القول صحيح أيده كلام سحنون وأفعاله ، وفي هذا الخصوص يروى عياض (١) عن محمد بن سحنون ابنه قوله : (٢) (قال لي أبي : إذا أردت تقدم أطرابلس وكان فيها رجال مدنيون ومصر بها الرواة ، والمدينة عش مالك (٣) ومكة، فاجتهد جهدك ، فإن قدمت عليَّ بلفظة خرجت من دماغ مالك ليس عند شيخك أصلها ، فأعلم أن شيخك كان مفرطا) .

ولعل في هذا القدر مافيه كفاية لتوضيح دور سحنون في نشر المذهب ، أما دوره في تثبيت أقدام المذهب بمؤلفاته ، فهو ماسوف نعرفه في مكانه إن شاء الله ، وعلاوة على ذلك فإن لسحنون دوراً آخر في نشر المذهب يتمثل في مواقفه من المذاهب الكلامية ، ومن الخوارج وغيرهم حسبما سنعرفه في موضعه إن شاء الله .

ثم جاءت الطبقة الثالثة وتمثل الدور الثالث من أدوار انتشار وتثبيت المذهب ، وهذا الدور تمثله طائفة من كبار تلامذة سحنون ، كان لها دور مذكور في مواصلة ترسيخ قواعد المذهب وتثبيته في إفريقية سواءً كان ذلك بوساطة مؤلفاتها الفقهية أو بوساطة مواصلة الوقوف المتشدد بل

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٥٩٠ .

(٢) أورد المالكي : نفسه ، هذه العبارة بنفس النص ، ولكنه ذكر أن القائل للعبارة هو : سليمان بن سلام أحد طلبته .أنظر ، نفسه ، ص ٢٥٥ - وأنظر كذلك حاشية رقم (٢) من نفس الصفحه حيث أشار محقق الكتاب إلى ماذكره عياض من أن قائل العبارة هو : محمد بن سحنون وكذلك فعل كما يقول محقق الرياض : الدباغ في (معالمة ج٢ ، ص ٥٢) .

(٣) في الأصل : والمدينة غير مالك) والتصحيح من ابن السراج المصدر السابق، ج١ ، ق١ ، ص ٧٨ .

والإصطدام بعلماء المذهب الحنفي الذين كانوا يستمدون نفوذهم من الأمراء الأغالبة الأحناف على غرار ساداتهم العباسيين ، وهذا الجانب في الحقيقة بدأ منذ عهد سحنون بن سعيد ، ولكنه تعاظم في عهد تلامذته من أمثال محمد بن سحنون بن سعيد ، ومحمد بن عبدوس ، ويحيى بن عمر وعبدالله ابن طالب ، وعيسى بن مسكين وخلافهم .

فمحمد بن سحنون (ت ٢٥٦هـ) بجانب دوره التأليفي الموسع في الدراسات الفقهية التي سنتطرق إليها في مكانها ، عرف أنه (كان عالماً بالذب عن مذهب أهل المدينة) (١)، وفي موضع آخر أشار مؤرخو التراجم الذين ترجموا له بأنه (كان يحسن الحجة والذب عن السنة والمذهب) (٢) ، ومما قيل فيه أيضاً أنه كان (إمام عصره في مذهب أهل المدينة بالمغرب ، جامعاً لخلال قل ما اجتمعت في غيره من الفقه البارع ، والعلم بالأثر والجدل ، والحديث والذب عن مذهب أهل الحجاز .. الخ) (٣) . وفيما يتعلق بمواقفه من أهل البدع والأهواء ، وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية ، فقد كانت له جولات مهمة ولاسيما وأن اشتهر بالجدل والمناظرة حسبما سنعرفه في موضعه إن شاء الله .

ومن أفراد هذه الطبقة ممّن مكن للمذهب وأعان على تثبيته وانتشاره محمد بن ابراهيم بن عبدوس بن بشير (ت ٢٦١هـ) ، وهو من أجل تلامذة

---

(١) عياض : نفسه ، ص ١٠٤ .

(٢) أنظر مثلا : عياض ، نفسه .

(٣) عياض : نفسه ، ص ١٠٥ نقلا عن ابن الجزار) .

سحنون ، وكان إضافة إلى دوره في مقاومة البدع وأهل الأهواء ، ثم دوره في مد المذهب المالكي بمؤلفاته الفقهية التي سنعرفها بعد ، من المذكورين في الذب عن المذهب والمحافظة عليه (١) ، ومما ينسب إليه أنه كان (عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة وما اجتمعوا عليه) . (٢) .

ومن أفراد هذا الدور الثالث المذكورين عبدالله بن طالب ابن سفيان التميمي القاضي (ت٢٧٥هـ) : ويؤثر عنه أن كان كغيره من طلبة سحنون حريصاً على الذب عن مذهب مالك) (٣) ، هذا بالإضافة إلى إسهامه في التمكين للمذهب عن طريق مؤلفاته الفقهية وهذا ماسنذكره في موضعه بعد – ومن أفراد الطبقة هذه من المشهورين يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني (ت٢٨٩هـ) وهو من كبار أصحاب سحنون ، ومواقفه في نشر المذهب وتثبيته أتضحت في كثرة مؤلفاته (٤) التي كان يوضح فيها أصول المذهب ، بل ويدافع عنه كتصديه لتأليف كتاب أسماه الرد على الشافعي (٥) ولقد واصل في الوقت نفسه تصديه لأتباع المذاهب الكلاميه باللسان والقلم حسبما سنعرف بعد في موضعه .

وأخيراً نذكر من أبرز أفراد هذا الدور الثالث ، القاضي عيسى بن

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٣٣ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٧٦ .

(٤) ذكر أنها بلغت أربعين جزء ا ، أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٥) عياض نفسه ، ص ٢٣٤ .

مسكين بن منصور بن جريح بن محمد الإفريقي (ت٢٩٥هـ) (١) . ويعد أيضاً من كبار طلبة سحنون بن سعيد ، وممّن مكن للمذهب بلسانه (٢) وقلمه .

ثم جاءت الطبقة الرابعة ، وتمثل الدور الرابع وهي من صغار تلامذة سحنون وهذه الطبقة هي التي شهدت سقوط الدولة الأغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وهي نفسها التي شهدت عنفوان المد الشيعي والمقاومة العنيفه له ممّا سنعرفه في موضعه .

ولم يستجب أفراد هذه الطبقة لكل وسائل الترغيب والترهيب التي لجأ إليها الفاطميون لإثنائهم عن مذهبهم المالكي ، وقد دفع بعضهم حياته ثمناً لامتناعه عن تبديل مذهبه ، ويأتي على رأس أفراد هذه الطبقة جبلة بن حمود بن عبدالرحمن الصدقي (ت٢٩٩هـ) ، وهو من صغار تلامذة سحنون، وممّن وقف وقفة شديدة في سبيل نصرة المذهب المالكي والتمكين له ، تجلى ذلك في مواقفه من علماء الأحناف المدعومين من الأمراء الأغالبة

---

(١) ذكر عياض في ترجمته له ، ص ٢٢٨ ، أن وفاته كانت عام (٢٧٥هـ) . غيرأن السيد محمد أبو العزم داود في كتابه السابق قد حقق هذه النقطه ، فاستبعد أن تكون وفاة عيسى بن مسكين عام ٢٧٥هـ ، الذي كان قد طلب اعفاءه من القضاء من الأمير الأغلبي ابراهيم بن أحمد عام (٢٨٩هـ) بعد أن أعلن هذا الأمير توبته ، كما نقل السيد أبو العزم عن ابن عذارى : نفسه ، الجزءالأول ، ص ١٣١ ، كما استبعد رواية أحمد بكير محقق المدارك في شكه في تحديد سنة وفاة عيسى بن مسكين ، والخلاصة أن السيد محمد أبو العزم يذهب إلى أن وفاة عيسى بن مسكين كانت عام ٢٩٥هـ لا ٢٧٥هـ . أنظر السيد محمد أبو العزم داود : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ، هامش ص ١٥٣ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٢٣ ، ٢٢١ .

في وقتـه (١) ، ثم تجلى بوضوح موقفه من نصرة المذهب وترسيخه في نفوس المغاربة بمقاومته الشديدة للفاطميين (٢) ؛ وهو ماسنعرفه بعد في موضعه ، ومنهم أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حسين الضبي المعروف بابن البرذون (ت٢٩٩هـ) ، وهو وإن لم يتلق علومه على يد سحنون فقد أخذ عن كبار أصحابه ، وقد دافع عن المذهب في أيام الأغالبة (٣) ثم لما قدم الشيعـة إلى إفريقيـة راودوه في ترك مذهبـه ، فأبى ممّا جعلهم يأمرون بقتله (٤) هو وزميل له حسبما سنعرف بعد ، ومنهم محمد بن محمد خيرون المعافري الأندلسي (ت ٣٠١هـ) وقد دفع حياته ثمناً لنصرة المذهب والتمكين له (٥) . ومنهم أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحداد (ت ٣٠٢هـ) وقد كان أشد فقهاء وقته مناصرة للمذهب والعمل على تثبيته ومقارعة خصومه سواء من الأحناف في عهد الأغالبة (٦) ، أو من الشيعة ودعاتهم الذين عقدوا معه سلسلة من المجالس لمناظرته في مذهبه ومحاولة التأثير عليه لترك مذهبه (٧) وهي مناظرات مهمة في توضيح بعض اتجاهات المذهبين المالكي والإسماعيلي في بعض الأمور العقائدية وغيرهما حسبما سنعرف بعد إن شاء الله .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٢٤٧ - ٢٥٢ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٤١ - ٢٥٢ .

(٣) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٤) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦٢- ٢٦٣ .

(٥) الدباغ : نفسه ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٦) الخشني : المصدر السابق ، ص ٢٥٧ - الدباغ : نفسه ، ص ٢٩٥ .

(٧) الخشنى : المصدر السابق ،ص ٢٥٨ ومابعدها - الدباغ : نفسه ، ص ٢٩٦ ومابعدها .

ثم حل الدور الخامس وتمثله كما يتراىئ لنا طبقة خامسة من فقهاء إفريقية عاشت أغلب فترات حياتها في ظل الدولة الفاطمية ولقد إضطلعت هذه الطبقة بالدفاع عن المذهب المالكي والتمكين له ، والعمل على إنتشاره بشتى السبل من مقاومه ، ورفض للمذهب الشيعي إلي غزارة في التأليف الفقهي المالكي وغيره إلى التضحية بالنفس من قبل بعض أفرادها ، ومن أبرز أفراد هذا الدور ، أبو بكر بن محمد بن محمد وشاح اللباد (ت٣٣٣هـ) وكان بالإضافة إلى تأييده ونصرته للمذهب بمولفاته الفقهيه المتنوعه (١) ، ذاباًعن المذهب بمعارضته المستمرة للفاطميين (٢) ، ومنهم أبو الفضل العباس بن عيسى المسمى (ت٣٣٣هـ) وكان (مالكياً محضاً) كما يقول عياض (٣) ، وعلاوة على ذلك فقد كان ورعاً حافظاً للفقه والحجة لمذهب مالك) (٤). كما قاوم ربيع القطان (ت : ٣٣٣هـ) الفاطميين وكان معروفاً وكان معروفاً بالالتزام بمذهب (٥) مالك ومناصرته ولقد آلى على نفسه (أن لايشبع من طعام ولانوم ، حتى يقطع الله دولة بنى عبيد) (٦) ؛ وهو كذلك أحد من دفع حياته ثمناً للدفاع عن المذهب كما سنعرف في موضعه

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ – الكتاني القيرواني : تكميل الصلحاد والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان ، تعليق رقم ٢٠٥ ، ص ١٤٦ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ – ٣٠٨ .

(٣) نفسه : ج٢ ، ص٣١٣ .

(٤) نفسه : ج٢ : ، ص ٣١٣ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤ .

بعد . ومن أفراد هذا الدور أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم التميمي (ت٣٣٣هـ) وقد سمع من كبار أصحاب سحنون ، وأوقف شطراً من حياته في نصرة مذهبه بتآليفه الغزيرة (١) ، وهو ممّن قتل كذلك دفاعاً عن المذهب والسنة مع زميلية : الممسي ، وربيع القطان في الموقعة التي حدثت بين أهل القيروان بزعامة أبي يزيد مخلد بن كبيداد وبين الشيعة عام ٣٣٣هـ حسبما سنعرف بعد إن شاء الله .

ومنهم أبو الحسن محمد بن حسن الخولاني الكانشي (ت٣٤٧هـ) وهو من عباد إفريقية العلماء ، وكان له مواقف مشهورة في نصرة المذهب . وقد ذكر عياض (٢) أنه كان صارماً في مذهبه مجانباً لأهل الأهواء ، ومن يخالف مذهب أهل المدينة) ؛ وعدد القاضي عياض مواقفه المتشدّدة ضد الشيعة وأعوانهم نصرةً للمذهب المالكي وتمكيناً له (٣) . ومن هذه الطبقة أيضاً أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد السبأى (ت ٣٦٣هـ) ، وهو من العباد العلماء كذلك ومّما ينسب إليه أنه كان (مجافياً لأهل البدع ،

---

(١) يقول عياض : (نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥) إن مؤلفاته بلغت ٣٥٠٠ كتاباً ، والمقصود بالكتاب في عرف المؤرخين وكتاب الطبقات والتراجم القدامى هو الجزء من أبواب الكتاب كالحديث مثلاً في الفقه عن كتاب الصلاة والصوم ، الزكاة الحج .. الخ . ومع ذلك فإننا نعتقد أن في الأمر مبالغة واضحة حتى ولو كان المقصود هو هذه الأجزاء من الكتب . عن هذا المعنى الدقيق للكتاب ، أنظر المالكي : نفسه ، ج ١ ، حاشية رقم (١) ص ٣٤٥. وقد أشار المحقق حسين مؤنس إلى تعريف ابن ناجي مكمل ومعلق معالم الأيمان للكتاب الذي يعنى الجزء لا السفر .. وأنظر كذلك محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب ، المقدمة ص ٢٥ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

شديد الغلظة عليهم قليل المداراة لهم) (١) . وكان شديد البغض للفاطميين لدرجة أنه عقد العزم على الخروج عليهم . (٢) كما يروى عنه - أنه عندما كان يقوم برقى المرضى - وكان مشتغلاً بذلك يدعو الله ويقول في آخر دعائه (ببغض عبيد وذويه) .. أشف كل من رقيته) (٣) وسنتبين لاحقاً الكثير من مواقفه هو طبقته من الشيعة .

ثم حل الدور السادس من أدوار التمكين للمذهب ، وتمثله الطبقة السادسة ، وهي التي شهدت ، رحيل الفاطميين إلى مصر (عام٣٦٢هـ) وانتصاب الزيريين في حكم المغرب الأدنى ، الذين تابعوا وخاصة الامراء ، الأول منهم الدفاع عن المذهب الشيعي ، والواقع أن أبرز أفراد هذه الطبقة- وقد عاش أكثرهم فترة طويلة من حياته بعد رحيل الفاطميين - قد انحصرت جهوده في التمكين للمذهب والنصرة له في ملء البلاد تأليفاً وتصنيفاً مع المحافظة على الدفاع عن المذهب ومناصرته .

ولعل من أبرز أفراد هذه الطبقة أبو محمد عبدالله بن اسحاق المعروف بابن التبان (ت ٣٧٧هـ) وقدبلغ من المكانة العلمية أن (ضربت له أكباد الأبل من الأمصار لعلمه بالذب عن مذهب أهل الحجاز ومصر ومذهب مالك) (٤) ولقد وصفه أحد معاصريه ، وهو أبو الحسن القابسي ، بأنه كان

---

(٤) عياض : المدارك ، ج٢ ، ص ٣٧١ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٧٢ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٨٢ .

(٤) عياض : نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٥١٧ - ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، وإن كان من غير المفهوم ان يكون ذاباً عن مذهب أهل الحجاز وفي نفس الوقت ذاباً عن مذهب مالك =

يغار على المذهب ويذب عن الشريعة (١) ، ولذلك فليس مستغرباً أن يكون (من أشد الناس عداوة لبني عبيد) (٢) وممّا يؤثر عنه إنه كان قد ناظر بعض علماء الشيعة بعد رحيل الخليفة المعز لدين الله إلى مصر مناظرة أفحمته ، وقد طلب منه مناظره التخلي عن مذهب مالك ، والدخول في مذهبه، فرفض بالطبع (٣) .

ومنهم ، أبو عبدالله محمد بن أبي زيد (عبدالرحمن) النفزي القيرواني (ت٣٨٦هـ) وهو من أبرز وأشهر أفراد هذه الطبقة علماً وفقهاً وتأليفاً . ولقد إتفقت كلمة معاصرية على تفضيله وتقديمه ، ونحن بالطبع لايهمنا إلا التنويه بدوره في نشر المذهب والتمكين له . أشار عياض إلى أن ابن أبي زيد (كان إمام المالكية في عصره ، وقدوتهم ، وجامع مذهب الإمام مالك ، وشارح أقواله) (٤) . وذكر عياض (٥) كذلك في موضع آخر أن ابن أبي زيد ، كان (فصيح القلم ذا بيان ومعرفه بما يقول ، ذاباً عن مذهب مالك ، قائماً بالحجة عليه ، بصيراً بالرد على أهل الأهواء) . وفي موضع آخر أشار عياض إلى أنه (هو الذي لخص المذهب وضم كسره ، وذب عنه

= فمذهب أهل الحجاز بصفة عامة تقريباً هو مذهب مالك . أما أنه كان ذاباً عن مذهب مصر ، فلربما يقصد به المذهب المالكي بمصر . ومع ذلك فالعبارة غير مستقيمة النهج .

(١) عياض : نفسه ، ص ٥١٧ – ٥١٨ ابن فرحون : نفسه ، ص ١٣٧ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥١٨ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٥٢١ – ٥٢٢ .

(٤) نفسه ، ج٢ ، ص ٤٩٢ – وأنظر كذلك الدباغ : نفسه ، الجزء الثالث ، ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٥) نفسه ، ج٢ ، ص ٢٤٩ – الدباغ : نفسه ، ص ١١٠ .

وملأت البلاد تواليفه) . (١)

ونقل عياض عن الشيرازي في كتابه طبقات الفقهاء ، أن ابن أبي زيد كان يعرف بمالك الصغير .

ومن بين كتبه المعروفه التي ألفها والتي سنتطرق إليها في مكانها ، كتاب الذب عن مذهب مالك (٢) ، وكتاب الإقتداء بأهل السنة (٣) ، كما ألف العديد من الكتب للرد على أهل الأهواء والبدع وغيرهم (٤) .

ومن أفـراد هذه الطبـقـة وهذا الدور السـادس من أدوار الظهـور والتمكين للمذهب المالكي ، أبو الحسن على بن محمد بن خلف المعافري القابسي (ت ٤٠٣هـ) وهو كما يلاحظ من فقهاء المالكية المتأخرين ، وأبو الحسن القابسي هذا له مكانة علمية مرموقة ، فهو محدث وفقيه وأصولي وعالم تربية ، وقد ذكر أنه (ضربت له آباط الإبل من أقصى المغرب) (٥) ، وهو ممّن ناصر المذهب بقلمه ؛ فكثرت تآليفه الفقهيه الحديثيه وغيرها (٦) ، كما أنه ممّن ناصر المذهب بلسانه ومواقفه ضد بعض تصرفات أمراء الدولة

---

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٤٩٢ – ٤٩٣ – وراجع الدباغ : نفسه ، ص ١١٠ – ١١١

(٢) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٩٢ – ٤٩٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٤٩٤ – ابن فرحون : نفسه ، ص١٣٨ الكناني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٢٩ ، ص ٧١ . إلا أنه أي محقق الكتاب محمد العناني : ذكر أن اسم الكتاب عنده هو الإقتداء بمذهب مالك ، وليس الإقتداء بمذهب أهل السنة – كما ورد عند عياض وابن فرحون في المتن .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٤٩٤ – ٤٩٥ – ابن فرحون : نفسه ص ١٢٨ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٦١٨ .

(٦) عياض : نفسه ، ٦١– ٦١٩ ، وأنظر بعد ص٣٦٥، ٣٩٠ ومابعدها .

الزيرية المعاصرين له . (١)

وأخيراً جاء الدور السابع وتمثله الطبقة السابعة من علماء المالكية ، وهو الدور الذي شهد النزع الأخير للمذهب الشيعي في المغرب الأدنى ، والذي تم على مراحل في عهد الأمير المعز بن باديس (٤٠٧ -٤٥٣) كما شهد هذا الدور بعض المضايقات التي واجهت علماء المالكية من الأمير المعز ابن باديس هذا ، ولقد استمر هذا الدور حتى كتب للمذهب المالكي التمكين المطلق بعد نبذ الدعوة الشيعية حسبما سنعرف بعد ، وذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجري ، وحتى الآن وقد تمثلت نصرة المذهب والتمكين له لدى أفراد هذه الطبقة في مقاومة بعض تصرفات الأمير المعز ضدهم ، وتمثلت كذلك في مواصلة نصرة المذهب بالتأليف والتصنيف . فمن أفراد هذا الدور أبو علي بن خلدون (ت٤٠٧هـ) ، وكان من الفقهاء الذين ذبوا عن المذهب المالكي وناصروه . وروى أنه (كان شديداً على أهل البدع والروافض مغرياً بهم ، يستند منه أهل السنة إلى ملجأ ووزر) . (٢) وعندما بطش أهل السنة بالشيعة عام ٤٠٧هـ ، على أول حكم المعز أفزع هذا المعز (فدبر قتل زعيم السنة وشيخ هذه الدعوة) ، أي الشيخ أبو علي ابن خلدون، وذلك في عام ٤١٧ هـ ، فارتجت البلاد لمقتله (٣) .

ومن أفراد هذا الدور كذلك ، أبو عمران ، موسى بن عيسى بن أبي

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٦١٩ - ٦٢٠ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٦٢٤ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٦٢٦ .

حاج الفاسي الأصل ، القيرواني الوفاة (ت ٤٣٠هـ) ، وكان عالماً مشهوراً، ومما يذكر عنه أنه جمع مع حفظ المذهب المالكي (حفظ حديث النبي ﷺ ومعرفه معانيه) (١) . وقال فيه أبو بكر الباقلاني شيخ المالكية في العراق في القرن الخامس الهجري، إن الإمام مالكاً لو رأى أبا عمران الفاسي لسرَّبه (٢)، وهو أحد من تعرض كذلك للمضايقات من قبل المعز بن باديس (٣) .

ومنهم أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الخولاني (ت٤٣٢هـ) وهو من شيوخ القيروان المعدودين في وقته . وممَّا قيل في مكانته العلمية ، أنه (مازال الذكر ورئاسة الدين له في وقته مع صاحبه أبي عمران الفاسي في المغرب ، حتى لم يكن لأحد معهما اسم يعرف) (٤) . وقد جالد في حياته أعداء المذهب وخصومه ، ووقف في وجه المعز بن باديس هو الآخر كثيرا . (٥) وممَّايدل على مقدار اتباعه لإمام مذهبه مالك بن أنس أنه روى لبعض أصحاب رؤيا رآها في المنام (مفادها كأن أحداً يقول له اكتب أسمك في ذلك اللوح ، الذي فيه أسماء العلماء ، فانظر إلى اسم مالك ، فاكتب اسمك تحته) (٦)

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٠٣ – ٧٠٤ .

(٢) عياض : المصدر السابق والجزء ،ص ٧٠٤ .

(٣) المالكي : نفسه ، مقدمة المحقق ، ص ٢٤٧ .

(٤) المالكي : نفسه ، المقدمة ، ص ٢٤٨ .

(٥) المالكي : نفسه ، المقدمة ، ص٥٠ . – ٥١ م .

(٦) على مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس – تراجم ودراسات ، ص ٣٣– ٣٩ .

ونذكر أيضاً أبا الحسن علي بن المنمر الطرابلسي (ت٤٣٢هـ) . فإلى جانب أنه من العلماء المشهورين في بلاده آنذاك . كانت له مواقف دافع فيها عن المذهب المالكي ضد خصومه من الشيعة وأعوانهم .

وكذلك أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الحضرمي ، المعروف باللبيدي (ت٤٤٠هـ) وهو من مشاهير علماء وفقهاء إفريقية المتأخرين ، وقد كان لمؤلفاته الفقهيه الغزيرة ذات الأهمية الفائقة في المذهب أثر كبير في تثبيت المذهب المالكي والتمكين له في هذا الوقت المتأخر (١) .

ثانياً : الأسباب :

والآن وبعد أن استعرضنا أدوار انتشار المذهب المالكي في إفريقية منذ دخوله إليها وحتى استقراره النهائي المطلق بها ، فإنه يجدر بنا توضيح أسباب ذلك التمكين المطلق للمذهب هناك . فمن المؤكد أن هذا الظهور ، وذلك التمكين المطلق للمذهب لم يكن وليد جهود ومواقف أولئك العلماء الذين ذكرناهم فحسب - على مافي ذلك من أهمية بالغة - ، بل كانت هناك أسباب أعمق مست كيان كافة طبقات المجتمع ، وجعلته - ترسماً لخطى علمائه - يميل إلى المذهب المالكي ويتمذهب به ولايرتضى عنه بديلا . والواقع أن كثيراً من المؤرخين القدامى والمحدثين تناولوا تلك الأسباب التاريخيه والموضوعيه بالتعليل والتحليل ، فصادف التوفيق بعضاً منهم ،

---

(١) عياض : نفسه ، ص٧٠٧ - ٧٠٨ - الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١٧٦ - محمد - بن محمد بن مخلوف : نفسه ، ص ١٠٩ - (وعنده أن وفاته كانت عام ٤٤٦ هـ على خلاف عياض والدباغ) .

وجانب الصواب البعض الآخر ، وقبل أن نناقش تلك الآراء ونخضعها لسدة البحث ، نود الإشارة إلى أن المذهب المالكي انتشر في الأندلس في وقت متقارب مع انتشاره في المغرب الأدنى - والمغرب عموماً - ولَّما كان الكثير من ظروف انتشار المذهب المالكي في الأندلس لاتختلف عن مثيلتها في المغرب ، فإن الذي تصدوا لتعليل ظاهرة انتشار المذهب في الأندلس والمغرب ينظرون إلى ذلك من منظور واحدٍ تقريبا. (١)

ومهما يكن من أمر ، فإن تعليلات أولئك المؤرخين القدامى والمحدثين تتلخص في أن هناك أسباباً إقليمية ، وعنصرية ، وسياسية ، ودينيه سياسية ، دينية فحسب كانت هي السبب الرئيسي في إنتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس .

فأما العامل الإقليمي فقد أشار إليه ابن خلدون ، وهو يجمع بين الأندلس والمغرب معاً في حديثة - فهو يقول (وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس ، وإن كان يوجد في غيرهم إلاَّ أنهم لم يقلدوا غيره إلاَّ في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده . فرجع إليه أهل المغرب

---

(١) أنظر أحمد تيمور : نفسه ، ص ٣٥ -٣٦ - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص٥٨٦ - انخل جنثالت بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله إلى العربية حسين مؤنس ، ص ٤١٥ -٤١٩ .

والأندلس وقلدوه دون غيره ممَّن لم تصل إليهم طريقته) (١) .

وليس ثمة شك في أن لهذا الرأي الكثير من الوجاهة والصواب ، فالرحلات العلمية إلى المشرق وخاصة الحجاز وبصفة أخص المدينة ، كانت عاملاً رئيسياً في ازدهار الحياة العلمية وخاصة الشرعية منها كما ذكرنا سابقاً . أما عن أثر تلك الرحلات الرئيسي في دخول المذهب المالكي إلى المغرب والأندلس ، فهو مالايتطرق الشك إليه مطلقاً حسبما رأينا عند حيثنا عن دخول المذهب إلى المغرب . ونخلص من هذا إلى أننا نتفق مع ماذهب إليه ابن خلدون من تأثير رحلات المغاربة والأندلسيين في موضوع ادخال المذهب المالكي إلى القطرين من الحجاز .

ولاتستقيم الإشارة إلى رأي ابن خلدون دون ذكر الشق الثاني من تعليله لأسباب انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس . فهو يقول : (وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب) (٢) .

وفي الحق فإن ابن خلدون جانبه الصواب في هذا الشق الثاني من رأيه ، فلقد رمى الأقطار الثلاثة الحجاز والأندلس والمغرب بالبداوة . وهو اتهام لايستند إلى وقائع ثابتة ، فالحجاز لم يكن آنذاك بالصورة التي

---

(١) المقدمة ، الجزء الأول ، ص ٥٦٨ .

(٢) المقدمة ، الجزء الأول ، ص ٥٦٨ .

وصفها ابن خلدون من غلبة البداوة ، بل كان على النقيض يتمتع بتمدن ورقى في كافة ضروب الحياة العلمية والإجتماعية (١) .. الخ . ولئن كانت العراق قد فاقت الحجاز في العلوم العقلية للظروف التي هيأت لها ذلك كما ذكرنا من قبل ، وكما هو مبسوط في كتب التاريخ والأدب ، فإن الحجاز كانت لها الصدارة في العلوم النقلية ، على إسهامات العراق المذكوره فيها .

وثمة تفسير إقليمي أوبيئي آخر آشار إليه أحد الباحثين وهو على حسن عبدالقادر في مقدمته لكتاب أحمد تيمور : نظرة تاريخيه في حدوث المذاهب الأربعة (٢) ، الذي مربنا ذكره . فهو يرى أن للأقاليم التي ظهرت ، أووفدت إليها المذاهب الفقهية تأثيراً على المذاهب (من ناحية المسائل المتجدده ، أو التفريعات أو الترجيح ، أو التعقيد) . وبمعنى آخر ، فهو يعتقد أن مناهج المذاهب الفقهيه قد تأثرت بالطابع المحلي للأقاليم التي انتشرت واستقرت بها فالمذهب المالكي مثلاً أصبحت له طرائق قدداً، تختلف باختلاف الأقاليم : (فهناك طريقة للعراقيين ، وطريقة للمغاربة ، وأخرى للقرطبيين بالأندلس ، وطيقة رابعة لإقليم مصر ، ممزوجه من الأقاليم الأخرى ، ولكل طريقة منها مصنفات في المذهب ، وكل ذلك مختلف ، فطريقة أهل العراق من المالكية أشبه بالحنفية من ناحية مايغلب عليها من اجماع الرأي واثبات الاستدلال ، وطريقة أهل المغرب يغلب عليها مراعاة

---

(١) عن مظاهر الحضارة الحجازية بكافة أوجهها أنظر مثلا أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٧٠ – ١٧٩ – ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ٧٣ – ٧٤ .

(٢) ص ٢– ٥ وأنظر كذلك ص ١٠ ، حيث أثنى عبدالسلام شهاب باسم لجنة نشر المؤلفات التيمورية في استهلال الكتاب على رأي على حسن عبدالقادر وأمتدحه .

العمليات وتكيف الأحوال في النوازل) (١)

والواقع أنه إذا لم يكن في مقدورنا منافشته من الوجهة الفقهية لعدم التخصص بداهة ، فإن مانوافق على حسن عبدالقادر عليه ، من خلال استقرائنا لانتشار المذهب المالكي في إفريقية هو أن للمحلية المغربية دور في تثبيت المذهب المالكي في المغرب الأدنى والمغرب عموماً ، بمعنى أن المذهب المالكي قد استطاع فعلاً من خلال تتبع حركته أن يوائم العادات والملابسات النفسية والإجتماعية والسياسية المغربية .

وإضافة إلى العامل الإقليمي ، فإن هناك من الباحثين المحدثين من يرى أن انتشار المذهب المالكي في المغرب كان نتيجه لرد فعل دينى ذي صبغة سياسية . (٢) فالأحداث التي شهدتها بلاد المغرب من انتفاض البربر على الولاة العرب وتمذهبهم بالمذهب الخارجي رداً على سياسة بعض أولئك الولاة الخاطئة كما مرينا ثم معارضة البربر لبعض الأسر العربية ، التي عاشت في المغرب وطمحت في تأسيس كيان خاص بها ، مثل الأسرة الفهرية ، وما تبع من تطلع الأسرة المهلبية إلى نفس الأمل ، ثم جهود خصوم البيت الأموى ، الذي أضطروا إلى الفرار إلى الأماكن النائية ضد الدولة ثم ماتلى من فرار العلويين إلى المغرب هرباً من بطش أبناء عمومتهم العباسيين . (٣) كل هذه الأحداث خلقت بلبلة وفوضى سياسية أثرت علي

---

(١) علي حسن عبدالقادر : مقدمة كتاب نظرة تاريخيه في حدوث الذاهب الأربعة ، ص ٣ -٤ .

(٢) أنظر حسين مؤنس : مقدمة الجزء الأول من رياض النفوس ص ٧-٩ .

(٣) حسين مؤنس : مقدمة الجزء الأول من الرياض ص ٩ .

الواقع الديني . وقد دفع هذا كله الجمهرة الكبرى من أبناء المغرب إلى التطلع نحو الإسلام النقي الصافي الذي يعتمد الكتاب الكريم وصادق الحديث - وهو التيار الذي تمثله مدرسة المدينة الفقهية كما رأينا من قبل .

لذا فقد ارتحلوا في سبيل ذلك إلى المدينة حيث الإمام مالك بن أنس الذي توج تلك المدرسة . وكان مذهبه ترجمة صادقة لمبادئ هذه المدرسة الفقهية السنية الأصولية .

والواقع أنه ليس مايمنعنا من موافقة حسين مؤنس فيما قاله . فواقع الأوضاع منذ العقد الثاني من القرن الثاني الهجري وحتى قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤ هـ كان ينبيء بذلك ، ولم يكن أمام المغاربة إلاَّ الرد على تلك الأوضاع بالتمذهب بالمذهب الذي اختارته مدينة الرسول الأكرم ﷺ ، وهم عندما يتمذهبون بمذهب المدينه ، فلأنهم يعرفون أنه سياج أمن لهم يبعدهم من غلواء الرأي والعقل وثورتهما التي هبت رياحها آنذاك .

ومامن ريب في أن التفسير الديني أو التفسير الديني ذا الصبغة السياسية لانتشار المذهب المالكي هو كما يتراءئ لي عصب الموضوع الأساسي ولبه ، فلقد رأينا مقدار تعلق المغاربة بالحجاز موئل العلم النقلي كما تركه الرسول وصحابته ، ثم رأينا ماعاناه المغاربة من انتشار المذاهب السياسية والدينية في أرضهم فقادهم ذلك أي قاد الفئة التي لم تتلبس بالدعوة الخارجية - ، إلى نبذ تلك المذاهب السياسية الدينيه سواء كانت متطرفة أومعتدلة ، والتمسك بالمذهب المالكي والعض عليه بالنواجذ .

وكان يغذى هذا الشعور بجانب ماذكر تلك المجهودات الحثيثة التي

كانت جموع التابعين في إفريقية والذين وفدوا عليها تعمل على بثها بين أهل المغرب ، وكانت تحرص على أن تهيأ أجيالاً من الطلبة المغاربة (توقظ في قلوبهم الميل إلى الفقه والرغبة في الدراسة والتوسع ، ونشأت حول كل تابع من التابعين من هؤلاء جماعة متفتحه القلب والذهن تمشى في طريقة وتحاول إذا استطاعت أن تستزيد من العلم من المشرق ، وائتلفت جهود هؤلاء جميعا في اتجاه واحد . ينحو نحو الاستمساك بالعقيدة البسيطة والاستناد في كل رأي إلى آية قرآنية أو حديث نبوي مسند ، أو تفسير أو تخريج مأثور عن واحد من التابعين وتلاميذهم الموثوق فيهم) (١) .

ويرى حسين مؤنس – ولعلنا لانخالفه – أن هذا الأمر – أي ماكان من تردي الأوضاع السياسية في إفريقية ، ثم ماطبع به الرعيل الأول من الذين أدخلوا المذهب من نشأة أصولية سنية خالصة – قد خلق حالة نفسية (٢) لدى الكثير منهم ومن الذين اتبعوهم بإحسان ، مالت بهم إلى الإنزواء والبعد عن أي محاولات اجتهادية في التشريع وغيره . ويصف حسين مؤنس (٣) تلك الحالة النفسية بتحليل تاريخي عميق قائلاً (فتربى في نفوسهم – أي الفقهاء المغاربة المبكرين – نفور من كل تخريج أو تأويل ولو كان معقولا ، وأصبح جهد الواحد منهم قاصراً على مجرد السير على النهج الصحيح الظاهر الصحة ، وأصبحوا ينظرون إلى كل انحراف نحو التأويل والتخريج والتفسير كأنه خروج على الإسلام ، وبلغ من تشددهم في التزام

---

(١) حسين مؤنس ، مقدمة الرياض ، ص ١٠ م .

(٢) أنظر مقدمة الرياض ،ص ١٠ م .

(٣) مقدمة الرياض ، ١٠ – ١١ م .

هذا الصراط الدقيق أن ابتعدوا عمَّن اشتهر بالتخريج والاحتكام إلى العقل من المشارقة نفوراً من أصحاب الرأي في العراق ، ولم يقبلوا على أبي حنيفة وفقهه ، لأن نفوسهم تربى فيها خوف من الرأي ، والابتداع والابتكار، نتيجة لما تعرضت له بلادهم من المتاعب بسبب أصحاب الآراء والتأويلات من دعاة الآراء المتطرفه التي أشرنا إليها ، ونفرت نفوسهم نفوراً شديداً ممَّا لقيهم في طريقهم من آراء الاعتزال والتخريج والتأويل و « الكلام » في الدين ومسائلة . وكان هذا النفور » حالة نفسية » اختص بها أهل المغرب بسبب فتن الخوارج التي أشرنا إليها وما أصاب المغرب من الويلات بسببها واستقر في نفوسهم أن الدين ، إنما هو القرآن والسنة ولاشيء بعد ذلك ، حتى القياس البسيط أنصرفوا عنه وترددوا في قبول الكثير من الأحكام التي صدرت عن (الاجماع) زيادة منهم في الحرص على دينهم والتمسك بأصوله ، وخوفاً من الانزلاق في مهاوى الضلالات) .

ويضيف حسين مؤنس (١) بعداً دينياً آخر له مظهر سياسي ، وهو أن المغاربة قد أعجبتهم سيرة الإمام مالك بن أنس وتلاميذه في الابتعاد عن ذوي السلطان والمناصب ، بل وأدهشهم موقفه من تولى القضاء ، وراعهم في الوقت نفسه ألا يكون كثير من أتباع مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان كذلك في إفريقية ، فهم لايرون حرجاً في غشيان ذوي السلطان (٢) ،

---

(١) مقدمة ، الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١٣ .

(٢) إذا جازلنا هنا من تعليق ، فهو ذكر مقارنة بين تصرف بعض علماء الأحناف في إفريقية وبين موقف علماد المالكية فهذا المالكي ك نفسه ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، يروى عن محمد بن سحنون أنه قال لأبيه مرة : (إن فلاناً لايأتي الوالي ولا القاضي إلاّ بالليل ، فكتب اليه بعض أخوانه إن =

بل كانـو يفتشـون لهـم عن الرخـص والتـأويلات المبنيـة على القياس البعيد (١) ولذلك فقد جذبتهم هذه الأفعال إلى مذهب مالك جذباً شديداً ، وكأنما كان لسان حالهم لايرى كما يذكر حسين مؤنس (٢) : الإسلام إلاّ اسلام مالك وحده ، فهو النموذج وهو القدوة .

ويعتقد ابراهيم العدوي (٣) - فيما يمكن عده سبباً سياسياً خفياً -

---

= الذي يراك بالنهار هو يراك في الليل والسلام فأعجب سحنون بما كتب إليه ، وقال على أثر هذا ما أقبح بالعالم أن يؤتى إلى مجلسة فلا يوجد فيه ، فيسأل عنه ، فيقال هو عند الأمير ، هو عند الوزير ، هو عند القاضي لأنه بلغني أنهم كانو يلقونهم من الرخص بما يحبون مّماليس عليه العمل ويتركون أن يلقوهم بما عليه العمل وفيه النجاة لهم ، كراهة أن يستثقلوهم . ولعمري لوفعلوا ذلك لربحوا ولوجب أجرهم على الله عز وجل فوالله لقد أبتلت بهذا الفضاء وبهم (يقصد تولية القضاء للأغالبة) ، فوالله ما أكلت لقمة ، ولاشربت لهم جرعة ، ولا لبست لهم ثوباً ، ولا ركبت لهم دابةً ، ولا أخذت لهم صلة ، ولإني لأدخل عليهم فأكلمهم بالتشديد ، وبما عليه العمل وفيه النجاة ، ثم أخرج من عندهم فأنظر في أمري فأجد عليّ الدرك ، مع ما ألقاهم به من الشدة والغلظة ، وكثرة مخالفتي لهم ووعظي لهم ، فوددت أني أنجو مما دخلت فيه كفافاً لا على ولا لي). والأمثلة التي توضح ممانعة علماء المالكية الشديدة في تولى القضاء متناثرة في الواقع في كل المصادر والمراجع التي تؤرخ للداسات الشرعية والأمثلة التي تعطى الدليل على شدة مقاومة القضاة الذين قبلوا بإلحاح تولى القضاء في تطبيق حدود الله كثيرة ومتناثرة كذلك في تلك المصادر والمراجع .

(١) نجيز لأنفسا هنا التعليق كذلك ، فهذا المالكي يروى أيضاً أن أحد أمراء الأغالبة المعاصرين لسحنون أرسل يسأله في مسألة ، فلم يجبه بشئ ، ولما عوتب من تلامذته في ذلك ، قال له سحنون (أفتجيب إنساناً إنما يريد أن يتفكه يريد أن يأخذ قولي وقول غيري ولو كان شيئاً يقصد به الدين لأجبته) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٢) مقدمة الرياض ، ص ٢١٣ .

(٣) المجتمع المغربي ، مقوماته الإسلامية والعربية مع مدخل عن بلاد الجزائر ، ص ٢٣٦ .

أن انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى . قد ساعد في التمكين له، عدم اصطدام الإباضية في المغرب الأوسط به ، نظراً لسياسة التعايش السلمي التي انتهجتها الدولة الرستمية . وهذا الإعتقاد كما يتراءى لنا لايمكن تغافله ، فالرستميون ربما لم يصطدموا بالمذهب المالكي تنفيذاً لسياستهم السلمية كما ذكر العدوي ، وربما نكاية في الأغالبة الذين كانوا حنفي المذهب ، وبالإضافة إلى ذلك فقد نظر الأدارسه في المغرب الأقصى إلى المذهب المالكي على أنه مذهبهم هم كذلك (١) . وهذا الرأي في تصورنا لايمكن الدفع ببطلانه كذلك ، فالصلة بين الإمام مالك بن أنس والبيت العلوي صلة قوية . ولقد تلقى مالك جزءاً من علومه على يد عُبدالله الكامل بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب والد أدريس مؤسس الدولة الإدريسيه . (٢) ثم أن مالكاً كان يناصر محمداً النفس الزكية شقيق إدريس (٣) ، ولذلك فلم يعارض الأدارسة وجود المذهب المالكي في المغرب الأقصى ، بل أقروه هناك ، لاسيما وأن ادريس بن عبدالله نفسه كان يصرح بأنه أولي بالمذهب المالكي في المغرب دون غيره . (٤) .

ولعلنا بعد ذلك لانغفل أن ثمة أسباباً أخري أدت إلى إنتشار المذهب

---

(١) ابراهيم العدوي : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ،ص ١٦٦ ، مع الحاشية رقم (١) من نفس الصفحة

(٣) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ١١٦ .

(٤) أنظر عبدالهادي التازي : جامع القرويين ، ج١ ، ص ١١٨ – السيد محمد أبو العزم داود – نفسه ، ص ١١٦ .

في المغرب الأدنى – وهو مجال بحثنا – والمغرب كله . فغير خافٍ أن المذهب المالكي قد اتصف بالتلقائية من نحو والتشدد في أحكامه وقضاياه من نحو آخر كما هو معروف في كتب الفقه المالكية العديدة – وهذا تطابق مع خصائص الشعب المغربي الذي يتميز بالتلقائية وعاطفة التصلب للدين (١).

ومن الأسباب القوية المباشرة في التمكين للمذهب كذلك ما قيض الله للمغرب الأدنى من وجود الإمام سحنون بن سعيد ، وفي الواقع فإن مسيرة إفريقية المذهبية والفقهية ربما لم تكن كماأصبحت عليه لولم يقيض الله بظهور سحنون بن سعيد على أرض المغرب الأدنى ونحن نقول هذا نظراً للأثر الكبير الذي أحدثه ظهور سحنون في ترسيخ المذهب المالكي من جهة ، وفي تطور الدراسات الفقهية من جهة أخري . وقد مربنا إشارة معاصرية ومن جاء بعدهم به وبدوره في نشر المذهب ، ممّالا حاجة إلى إعادته هنا.

وقبل أن نترك الحديث عن هذه النقطة لايفوتنا أن نذكر بأن هناك سبباً آخر له مظهر عصبي (عنصري) وهو الذي أشار إليه أحد الباحثين المغاربة وهو أحمد محمود بكير محقق كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض ، وذلك في سياق تعليله لأسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب ، هذا التعليل يقول بأن هناك ميلاً عصبياً من العرب اليمنية المقيمين بالمغرب للإمام مالك بن أنس ، بوصفه يمينياً مثلهم ، ومن هنا فقد مالوا إلي مذهبه . (٢)

---

(١) أنظر مثلا عباس الجراري : وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، ص ٣٧ ، أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : شخصيات أدبيه من المشرق والمغرب ص ١١٩ – سعدي أبو حبيب : سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ط١ ، ص٨١ – ٨٢ .

(٢) أنظر مقدمة كتاب المدارك ، الجزءالأول ، ص ٨-٩ .

وفي الحق فإن هذا الرأي لايمكن رفضه كليه . فمع أن العصبية القبلية العربية والبربرية ، قد أدت فعلا إلى التفرقة السياسية والإجتماعية والعسكرية ، كما أشار محي الدين عزوز (١) في رده على أحمد بكير ، إلاَّ أن هذا لايمنع تعلق أغلبية عرب المغرب – وهم من اليمنية – ، بعرب الحجان، وهم يمنيه أيضاً . غير أن مالانوافق غليه أحمد بكير هو تعميمه فحسب ، وإلاَّ فإنه بلاشك لايمكن أن ينسى أن جموع الكثرة الساحقة من السكان في المغربآنذلك ، وهم البربر قد تمذهبوا بالمذهب المالكي أيضاً انطلاقاً من قناعات دينيه في المقام الأول (٢) .

هذا شيء والشيئ الآخر أن القبائل اليمنية قد تناثرت مساكنها في معظم الأقطار الإسلامية والأخرى كالشام والعراق ومصر ، ومع ذلك لم يتمذهبوا بالمذهب المالكي – لأن مالكاً يمني – ولكنهم تمذهبوا أيضاً بالمذاهب السنية الأخرى ، ومن هنا وجب التخفظ في قبول كلام أحمد بكير وتفسيره .

---

(١) التطور المذهبي بالمغرب ، دراسة قصة حي بن يقظان ، ص ٢٣ .

(٢) أنظر في هذا الصدد أيضاً محي الدين عزوز : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٣ ومابعدها .

مكانة المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى :-

مذ دخل المذهب المالكي وانتشر في المغرب الأدنى بفضل جهود أولئك العلماء الذين أشرنا إلى أدوارهم في نشر وتثبيت المذهب من جهة ، وبفضل الأسباب التي أدت إلى نشره بين المغاربة والتي مكنت له البقاء هناك من جهة أخرى ، مذ وقع ذلك ، وكأنما المذهب المالكي قد دخل المغرب ليبقى - على ما واجهه - من صعاب - وكانت النتيجة أن تعلقت به نفوس المغاربة جيلاً أثر جيل ، وأفتتنوا به وبأعلامه بدءً بصاحب المذهب نفسه ، ومروراً بتلامذته الكثيرين في المشرق والمغرب ، وانتهاءً بعلماء عصرهم ، ومن هنا ، فإن ماقاله المقدسي من أن أهل الأندلس - وأهل المغرب الأدنى بالأولى - لا يعرفون إلاّ كتاب الله وموطأ مالك (١) .لم يتعد الحقيقة . ولئن قلنا إن المذهب المالكي قد مس كيان المجتمع المغربي بطوائفه المختلفة فإننا بذلك لا نتجنى على الصواب .

وفي تتبعنا لمكانة المذهب المالكي في المجتمع المغربي لابد أن نلحظ في البدء أن المغاربة أعجبهم سلوك الإمام مالك نفسه المثالي (فأفتتنوا به ، وأتخذوا منه قدوة لهم في كل شيء : حتى أحواله في معاشه من لباسه وطعامه ، وكيفية جلوسه للسماع وطريقته في الحديث ، كل ذلك أصبح عند الأفارقة المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذيه المسلم الصحيح) (٢)

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ص ٢٣٦ .

(٢) حسين مؤنس ، مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١١ .

ويدعم سعدى أبو حبيب (١) أحد الباحثين هذا الرأي بقوله (إن شخصية مالك الفذة بكل جوانبها تركت أثراً في المغرب العربي مانزال نرى أخاد يده بارزه في نفسية أهلنا هناك لم يبلها كر السنين) ، ويضيف إلى ذلك قائلاً (والذي نجده لمالك في المغرب هو نسيج وحده . فما أعرف صحابياً ، أو إماماً ، أوعالماً من علماء المسلمين ترك في سلوك اتباعه أثراً خالداً ماتركه مالك في نفوس أهل المغرب) (٢) . وينقل في هذا الصدد عن أحد كبار علماء المغاربة المحدثين وهو محمد المنتصر الكناني إشارته إلى أن سيرة الإمام مالك بن أنس قد استهوت قلوب المغاربة في الماضي والحاضر، وكانت لهم القدوة والأسوة على مر القرون وتتابع الأجيال من صلابة في الحق واعتزاز باللغة والتصلب في التمسك بنصوص القرآن والسنة ومن صرامة في الحكم والفتوى ، وزهد في المناصب وذوى السلطان .. الخ مافي شخصية مالك من مثل) ، (٣) كما ينقل عنه أيضاً قولة إن (ما اشتهرت به الشخصية المغربية في ماضيها وحاضرها من عنف وحده في نفسها ، وصلابة في تمسكها بالإسلام دولة وديناً ، وبالعروبة لغة ونسباً إن هو إلاَّ أثر لمذهب مالك الذي عايش الحياة المغربية : أسرة ومجتمعاً ، شعوباً وحكومات، وتغلغل فيها حتى الأعماق) (٤) .

(١) سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ص ٨١ .

(٢) نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٣) سعدى أبو حبيب : نفس المرجع أعلاه ، ص ٨١ – ٨٢ .

(٤) نفس المرجع أعلاه ، ص٨١ .

ولقد انتقل إعجاب المغاربة بمالك إلى تلامذته من المشارقة والمغاربة كذلك ، فأما المشارقة فلقد أصبح للرعيل الأول من طلبة مالك احترام وتقدير عميقين في نفوس المغاربة ، سواء كانوا من المصريين أو المكيين (١) . وأما تلامذته من المغاربة ، فلا يكاد عائدهم يعود من المشرق سواء ممّن تتلمذ عليه مباشرة أو تتلمذ على أصحابه ، إلاّ وكان ينظر إليه على أنه قد تشرب المذهب وقواعده وأصوله ، وأضحى ينظر إلى العائد منهم من المشرق على أنهم (فقهاء مالكين كوامل يؤلفون للناس كتباً في الفقه ويفتون الناس في مسائلهم متبعين قياس مالك ، ومتأسين فيجميع أمورهم ظاهرها ، وباطنها بما كان عليه إمام دار الهجرة (٢) ولذلك كان من الطبيعي كما يرى حسين مؤنس (٣) – وهو على حق – أن يقبل أهل المغرب على أولئك العائدين إقبالهم على رسل العقيدة الصحيحة والسائرين على منهاجها) ، ومن الطبيعي كذلك أن تصبح (كتب مالك وتلاميذه ، وكتب أتباعه وأتباع أتباعه من أهل المغرب هي الإسلام ولا إسلام غيرها) (٤)

والمتتبِّع لكتب التراجم والطبقات المالكية المغربية سيكتشف صدق هذا التحليل الدقيق الذي فاه به حسين مؤنس على أنه ليس العلماء والفقهاء المغاربة وحدهم هم الذين كانوا يحظون بذلك الإعجاب الكبير والتقدير العميق من طبقات المجتمع ، فقد كان إلى جانب هؤلاء العباد الزهاد العلماء

(١) حسين مؤنس ، مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٢م – ١٣م .

(٣) مقدمة الرياض ، ص ١٣ م .

(٤) مقدمة الرياض ، ص ٣م .

الذين ضربوا أروع الأمثلة بزهدهم وعبادتهم . هؤلاء حظوا كذلك بذات نظرة الإعجاب والتقدير العميقة ، ولم يكن هؤلاء إلا مالكيين مغرقين في مالكيتهم ، وبنظرة فاحصة على سيرهم وتراجمهم في كتاب رياض النفوس مثلا نجد الأمثلة والشواهد على صدق ماتذهب ، إليه لايكاد يحصيها عدد ، فالأمثلة الحية التي تعكس إعجاب أولئك بمالك ومذهبه ما تنفك تترى سلوكاً وحياة وعبادةً وعقيدةً ، والملفت للنظر حقا ، ألاَّ نجد من كل أولئك العباد والزهاد من كان يتمذهب بغير المذهب المالكي .

ومهما يكن من أمر فإن تأثير المذهب المالكي في التاريخ الإجتماعي لإفريقية لايمكن فهم أبعاده بجانب ماذكرنا إلاَّ إذا عرفنا أن الشخصية المغريبة السمتقلة قد ظهرت عبر المذهب المالكي (١) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إلاَّ إذا عرفنا أن المذهب المالكي ، هو الذي وحد المجتمع المغربي ،وحده معنوية وعرقية (٢) - إلى جانب الوحدة المذهبية - ، وهذا الأمر في الحقيقة بالغ الدلالة فمع دخول المذهب المالكي لم نعد نلحظ أي إنقسامات عنصرية بين فئات المجتمع المغربي ، وحتى تأييد بربر كتامة للشيعة وتمذهبهم بمذهبهم لايدل على أنقسام في عناصر المجتمع بقدر مايدل على حقيقة مهمة ، وهي أن بربر كتامة كانوا يطمعون من خلال تمذهبهم وتأييدهم للشيعة الفاطميين إلى أن تكون لهم اليد الطولى في الدولة الفاطمية قبل أي قبيلة أخرى التي يرون أنه يجب أن تكون بربرية

---

(١) عبدالله العروي : تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ، ترجمة ذوقان قرقوط ، س١ ، ص ١٠٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٨ .

المنزع والمظهر (١)

وإلى جانب تأثير المذهب المالكي في التاريخ الإجتماعي للمغاربة ، فإن تأثيرة في التاريخ السياسي للبلاد خلال الفترة موضوع البحث أشد وأعمق. فالمذهب المالكي في الواقع كما يتراءى لنا هو الذي كان يوجه التاريخ الإفريقي ، وهو الذي كان يحركه وقتذاك ، ويمكن للباحث المحقِّق أن يلحظ الكثير من الإشارات التي تدلل على صدق ماذهب إليه. ففي البداية نستطيع القول : إن تأثير المذهب المالكي في الحياة السياسية الإفريقية خلال عصري الولاة ، والأغالبة عن طريق مشاركتهم في تولى مناصب القضاء وتصديهم للفتيا على قلة عددهم (٢) ، كان مؤثراً إلى الدرجة التي يصح معها القول بأن (مالكاً كان يحكم إفريقية في هذه الفترة عن طريق « موطئه » وتلاميذه)(٣) ولعل مثلا واحداً نسوقه هنا يدل على ذلك ، فعندما توفى الفقيه عبدالله بن غانم عام ١٩٠هـ أى في أثناء حكم الأمير ابراهيم بن الأغلب ١٨٤ - ١٩٦هـ) . قام خال الأمير إبراهيم يرثى القاضي ويبكيه فأنتهره الأمير قائلاً (والله ماولينا إفريقية ، ولا أمنا حتى مات) (٤) ولنا أن نقدر مقدار تأثيرهم في مجريات الأحداث السياسية بعد ذلك ، سواءً في عهد الأغالبة أو الفاطميين أو الزيريين ولاسيما إذا عرفنا أن المذهب المالكي في أيام ابن غانم لمَّا تستقر أقدامه بعد ، ولم يظهر أثر سحنون وغيره

---

(١) أنظر حسن مؤنس ، مقدمة الرياض ، ص ١٥م .

(٢) أنظر السيد محمد أبو العزم ، نفسه ، ٥٨١ - ٦٠ .

(٣) حسين مؤنس : مقدمة الرياض ، ص ١٢م .

(٤) عياض : نفسه ، الجزء الأول ، ص ٣٢٥ .

آنذاك. ومن هنا جاز أن نوافق عبدالله العروي فيما ذهب إليه من رأي وهو أن كل فعل سياسي في المغرب ، إنما هو من جوهر ديني (١) ولمَّا كان المذهب المالكي في اعتقادنا هو واجهة الجوهر الديني في إفريقية آنذاك ، فإنه يمكننا القول بأن كل فعل سياسي في المغرب الأدنى هو من جوهر مالكي وبناءً على هذا ، فإن المالكية أصبحت كما يقول حسين مؤنس (٢) : قومية مغربية في نظر المغاربة ، وتعتبر عنصراً من عناصر الكيان الشخصي لكل منهم . ومن هنا كان المذهب المالكي هو العصب الأول من أعصاب التاريخ المغربي الإسلامي (٣) ، كما يلاحظ حسين مؤنس (٤) - وليس ثمة ما يمنع من موافقته - أنه كان للمالكية دولة في إفريقية يصح أن تكون الحقيقة والجديرة بالتاريخ ، لأنها هي التي وضعت أسس القومية المغربية أو الإفريقية وتاريخها هو التاريخ الحقيقي لإفريقية .

(١) تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ،ص ١٠٦ .

(٢) مقدمة الرياض ، ص ١٣م - ٢٣ .

(٣) حسين مؤنس : نفس المقدمة ، ص ٢٦م .

(٤) نفس المقدمة : ص ٣٤ م .

انتشار المذهب الحنفي وغيره من المذاهب السنية في المغرب الأدنى :

يكاد يكون محل اتفاق بين معظم المؤرخين القدامى ومن جاراهم من الباحثين المحدثين ، ممّن تناول انتشار المذاهب الفقهية في إفريقية والمغرب عموماً ، على أن المذهب الحنفي كان أسبق في الظهور هناك من المذهب المالكي (١) . وكما أجمع أولئك المؤرخون القدامى والمحدثون على أسبقية المذهب الحنفي في إفريقية ، أجمعوا على أن السبب في ذلك هو أنه أصبح مذهب الدولة العباسية التي تمذهبت به والتي كانت إفريقية ولاية من ولاياتها المتعددة ، ثم قيام الدولة الأغلبية في إفريقية ولاية من ولاياتها المتعددة ، ثم قيام الدولة الأغلبية في إفريقية التي تمذهبت بالمذهب الحنفي من جهة أخرى (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فإن الشئ الجلي ، هو أن المذهب الحنفي كان معروفاً بإفريقية منذ العقد السابع من القرن الثاني الهجري ، عندما عاد عبدالله بن فروخ من العراق بعد مقابلته للإمام أبي حنيفة النعمان وتلامذته ، ثم قدم بحمل كثيراً من المسائل الفقهية الحنفية (٣). ولم يكن عبدالله بن

(١) أنظر مثلا المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ - المالكي نفسه ، ج١ ، ص ١٨١ - أحمد تيمور: المرجع السابق ، ص ١٩ - محمد أبو زهره : المرجع السابق ، ص ٧٣ - السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٥٧ - عبدالعزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية ص ٥٦ ، ٦٢ (نقلا عن مخطوط المدارك رقم ٣) .

(٢) أنظر السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٥٧ وص ٥٨ - ٥٩ ، ٦١ عبدالعزيز المجذوب : نفس المرجع أعلاه ، ص ٦٣- سعدى أبو حبيب : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٣) أنظر بعد ، ٣١٨ ومابعدها .

فروخ وحده من قابل أمام المذهب الحنفي ، بل قام بذلك مواطنه عبدالله ابن المغيره الذي تلقى الكثير من العلوم على يد الإمام أبي حنيفة ثم عاد بها إلى بلاده (١) ثم تتابع انتشار المذهب في العهد الأغلبي ، حتى إذا قامت الدولة الفاطمية ، تضاءل عدد اتباعه إلى أن انقطع وجوده تقريباً قبيل رحيل الفاطمين إلى مصر (٢) .

وعلى أية حال ، فإن مايهمنا الإشارة إليه هنا هو أن المذهب الحنفي في إفريقية كانت له صولات وجولات عن طريق أتباعه الذين سنعرض لهم سواء عند الحديث عن الدراسات الفقهية أو عند الحديث عن علاقة علماء المالكية بهم . غير أن مانود ختم الحديث به حول هذه النقطة هو أن علماء الأحناف عرفوا بجانب هذا الاسم الذي سموا به بالكوفيين أو العراقيين من جانب أبناء بلدهم من المغاربة ، وكذلك من قبل مؤرخي التراجم والطبقات لعلماء إفريقية فلقد جرت هذه التسمية على ألسنة كل من ترجم لعلماء المغرب الأدنى من أمثال أبي العرب التميمي ، ومحمد بن حارث الخشنى والمالكي ، والقاضي عياض والدباغ ، و ابن ناجي وغيرهم ، ويعتقد عبدالعزيز المجذوب (٣). أن سبب إطلاق لفظ الكوفيين أو العراقيين على علماء الأحناف إنما يعو إلى سببين : الأول أن يكون نسبةً إلى مكان ظهور المذهب الحنفي وشيوعه ، والثانية إشارة عنصرية ، لأن معظم من تمذهب

---

(١) أنظر بعد ، ٣١٩ ومابعدها .

(٢) عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٣) الصراع المذهبي بإفريقية ،ص ٦٣ . المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

بالمذهب الحنفي في إفريقية كان من أصل عراقي أو فارسي .

وفيما يتعلق بالمذهب الشافعي ، فإن الأمر الذي يكاد يكون محل اجماع أيضاً ، هو أن انتشاره كان انتشاراً ضئيلاً جداً في المغرب الأدنى والمغرب عموماً . (١) ولم نجد في الحقيقة مايعلل أسباب انصراف المغاربة عن المذهب الشافعي تعليلاً منطقياً اللهم إلاَّ ماورواه المقدسي (٢) من رواية ليست هي كل المنطق ، بل هي جزء يسير منه ، وهو أن المغاربة رفضوا التمذهب بالمذهب الشافعي تعصباً منهم لمالك لأنه ساءهم أن يخرج الشافعي عن مذهب شيخه بمذهب جديد ، وهو الذي أخذ العلم عنه ، وروى المقدسي (٣) كذلك فيما يمكن اعتباره سبباً خفياً له شئ من الموضوعيه ، أن المغاربة لم يكونوا يرون من المذاهب الفقهية ما يستحق الإهتمام سوى مذهبين فقط : المالكي والحنفي ، وعلى ذلك فليس سائغاً ترك هذين المذهبين أو البحرين من العلم كما يذكر المقدسي والانشغال بالساقية وهو تعبير المقدسي كذلك .

وكيفما كان الأمر ، فقد عرفت إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة بعضاً ممَّن تمذهب بالمذهب الشافعي أومال إليه وهذا ماتشير إليه

---

(١) أنظر أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ٤٥ وما بعدها . السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٦٩ -٧١ - عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ، ص ٨٧- ٩٠ - آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصر النهضة في الإسلام : ترجمة محمد عبدالهادي أبوريده الجزء الأول ، ص ٣٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

كتب التراجم (١) . وسنعرف بعد شيئاً عن هؤلاء عند حديثنا عن الدراسات الفقهية إن شاء الله .

أما عن دخول المذهب الشافعي إلى المغرب وكيفيته ، فلم تذكر لنا المصادر والمراجع شيئاً عن ذلك اللهم إلاَّ ما أشار إليه السيد محمد أبو العزم داود (٢)، من أنه لايبعد أن يكون المذهب الشافعي قد دخل المغرب عن طريق رحلات الحجاج الذين وفدوا على المشرق فقابلوا الشافعي وأعجبوا به ، أوعن طريق بعض المارين بإفريقية من الأندلسيين القادمين من المشرق بعد أن قابلوا اتباع المذهب الشافعي هناك .

---

(١) أنظر مثلا عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣،٤٧ – الدباغ : نفسه ، الجزء الثالث ؛ ص١٨٣ – ١٨٤ – السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٦٩ – ٢٠ عبدالعزيز المجدوب : المرجع السابق ، ص ٨٨–٨٩ .

(٢) نفسه ؛ ص ٧١ .

الفصـــــل الثـــاني

الدراســــــات الشرعيــــــة

(٢)

الفقـــــــــه

الحــــــديث

علوم القـــــرآن

الفقــــــــــــه

- مدخـــــــــــــــــــل
- الفقــه في عصــــر الولاة
- الفقــه في عصـر الأغالبـة
- الفقه في عصر الفاطميـين
- الفقه في عصــــر الزيريين

الفقـــــــــــــــه :

مدخل : علينا بادئ ذي بدء أن نشير بداهةً إلى أننا لسنا معنيين هنا بتتبُّع نشأة علم الفقه ، وماتشعب منه من علوم كعلمي أصول الفقه والخلافيات وغيرهما ، كما أننا لسنا معنيين بالطبع بتتبُّع الأدوار التي مرَّبها علم الفقه حتى تقَّعدت قواعده وتأصلت أطره ممَّاهو معروف معلوم ، ولكن مايعنينا حقيقة هو تتبُّع مسيرة الفقه في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة التي حددناها رحاباً زمنياً للرسالة .

ذكرنا في غير ما مرة أن الدراسات الشرعية تعد المظهر الرئيسي للحياة العلمية في إفريقية وقتذاك . وغنى عن القول بأن ثمة أموراً أدت إلى أن تحتل الدراسات الشرعية المحل الأول في مسيرة الحياة العلمية إجمالاً ، كما أن من نافلة القول الإشارة إلى أننا قد أتينا على ذكر أسبابها من قبل في القسم الأول ممالا حاجة إلى إعادة ذكره ، أضف إلى ذلك أن الدراسات الشرعية احتلت المكانه الأولى في تاريخ الثقافة الإسلامية بفضل العوامل الدينيه والتاريخية والموضوعية التي سجلها المؤرخون والباحثون من خلال متابعتهم الحركة العلمية والثقافية الإسلامية على مر أدوار التاريخ الإسلامي .

وإذا كانت الدراسات الشرعية تأتي أولاً في مسيرة الحياة العلمية ، فإن الفقه والدراسات الفقهية تأتي في مقدمة حقول الدراسات الشرعية بلا جدال ، ليس في إفريقية فحسب بل في العالم الإسلامي كله . ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة إلى أن الأسباب الملحة التي حتمت على المسلمين

ضرورة فهم طبيعة الدين الإسلامي في مجالي العبادات والمعاملات – وهما قوام الفقه – كانت السبب الرئيسي في التعجيل بظهور علم الفقه (١) ، كما أن من الأمور المسلم بها أنه ارتبط بظهور علم الفقه علوم شرعية أخرى كعلم أصول الحديث والجرح والتعديل للتأكد من مصداقية الأحاديث متوناً وأسانيد بحكم أن الحديث هو المصدر التشريعي الإسلامي الثاني كما هو مفهوم معروف . (٢)

ومن المؤكد أن الدراسات الفقهية تقعيداً وتأصيلاً لأطر إنما توافق مع نشأة المذاهب الفقهية ، ولذلك فإن التأريخ للدراسات الفقهية في أي قطر إسلامي إنما هو تأريخ للمذهب الفقهي الذي يسير عليه ذلك القطر سواء بسواء ، وفي إفريقية (المغرب الأدنى) تجلي هذا الأمر بوضوح كبير ، فانتشار المذهب المالكي هناك ، تبعه بالضرورة انتشار تيار فقهي مالكي بالضرورة . ومن هنا نستطيع أن نقول بأن مراحل انتشار المذهب المالكي التي كنا قد أشرنا إليها في مكانها ، إنما تعنى كذلك مراحل التوسع في الدراسات الفقهية المالكية هناك جوهراً ومحتوى ، توسعاً وانكماشاً .

وكما كان هناك ارتباط عضوي بين المذاهب الفقهية والدراسات الفقهية المبنية عليها ، أقتضى الأمر بالضرورة كما يتراءى لنا أن تمر

---

(١) عن الفقه ونشأته ، أنظر محمد بن الحسن الحجوى الثعالبي الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، ج١ ، ص ٣٠٧ – ٣٠٨ ، ٣١٠ – ٣١٥– ٣٢٥ – ٣٢١ – أحمد أمين فجر الإسلام ، ص ٢٢٧ – ٢٤٨ .

(٢) عن هذا أنظر : الحجوى الفاسي : نفس المرجع أعلاه ص ٣٠٧ ، ٣١٥ – أحمد أمين : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٠٨ – ٢٢٤– وأنظر كذلك : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٠٦ – ١٤٢ .

الدراسات الفقهية موضوعياً بكل أو جل الأطوار التي مرت بها المذاهب الفقهية - فيما عدا أولوية التأسيس المعقودة لصاحب المذهب - اجتهاداً مطلقاً داخل اطار المذهب ، فمقيداً بعد فمحدوداً ، ثم تقليداً ومحاكاة ، ثم اقتصاراً واختصاراً وشرحاً بعد لآي . (١)

ولقد تجلى هذا الأمر في إفريقية (المغرب الأدنى) وقتذاك بوضوح كبير إذا شهدت الدراسات الفقهية كل تلك المراحل التاريخية التي مربها علم الفقه من البداية إلى التوسع والإزدهار ، ثم إلى التراجع والإنكماش حتى دخل الفقه مرحلة الاقتصار والاختصار والحفاظ على كتب الشروحات وشروحات الشروحات التي واكبت الفقه منذ القرن الخامس الهجري وحتى وقت قريب (٢) . وكانت دراسة الفقه في إفريقية في هذا لاتختلف البتة عما وصلت إليه الدراسات الفقهية في كل أقطار الدولة الإسلامية .

وأيا ماكان الأمر ، فالموقف يقتضى منا الآن بعد الإنتهاء من تلك الفذلكة التاريخية والموضوعية للفقه ، تتبّع مسيرة الدراسات الفقهية في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة . وهنا تجب الإشارة إلى أن التأريخ لنشأة الدراسات الفقهية وتوسعها هناك يقتضى أن يمر عبر عصور زمنية أربعة عاشها المغرب الأدنى آنذاك كما هو معلوم ، وهى : عصر الولاة ، والعصر الأغلبي والعصر الفاطمي والعصر الصنهاجي

---

(١) الحجوى الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، ج١ ، ص ٢٢١ - ٣٢٢ والجزء الثاني ، ٤٨ - ٥١ ، ١٤١ -١٤٥ ، ١٦٣.

(٢) الحجوى الفاسي : نفس المرجع أعلاه ، ج٢ ، ص ١٦٣- ٢٤٣ - ٢٤٥ ، ٢٩٨ - ٣٠٤ .

أو الزيري ، ذلك لأن مسيرة الدراسات الفقهية ، قد اختلفت كماً ونوعاً بتعاقب هذه العصور . وسنتبين بعد قليل أثر كل من هذه العصور الأربعة على الدراسات الفقهية .

يبقى أن نشير في ختام المدخل المنطقي للدراسات الفقهية هذا إلى أننا لن نغفل في غمرة تأريخنا للفقه المالكي - بحكم كونه يشكل معظم المحتوى الفقهي آنذاك - تتبُّع مسيرة الدراسات الفقهية للمذاهب الفقهية الأخرى كالحنفي ، أو تلك التي للمذاهب الدينية السياسية كالشيعي والخارجي الإباضي ماوسعنا الجهد إن شاء الله .

الفقــــه في عصــــــــر الـــولاة :

المتتبِّع للفقه والدراسات الفقهية في إفريقية خلال عصر الولاة لن يفاجأ إذا مارأها تبدو بداية متواضعه وخاصة في مطلع القرن الثاني الهجري وحتى منتصفه . ولسنا في حاجة إلى القول بأن ذلك يعد أمراً طبيعياً لعدة أسباب يأتي في مقدمتها : جدة علم الفقه نفسه على مستوى الدولة الإسلامية ، ثم أن الفتح الإسلامي للمغرب لما يمضى على انتهائه سوى وقت قصير لايتعدى العقدين أو الثلاثة ، والسبب الرئيسي الثالث أن المغرب في النصف الأول من القرن الثاني الهجرى خاصة شهد تلك الانتفاضات العارمة التي قام بها البربر ضد ولاة الدولتين الأموية والعباسية. ولذلك كان من الطبيعي أن تمضي مسيرة الفقه والدراسات الفقهية في شئ من البطء الشديد ، ولم تسعفنا كتب التراجم والطبقات

المختصة في مدنا بأكثر من بضعة أسماء لفقهاء محليين ، نذكر منهم عبدالرحمن بن زياد بن أنعم (١) وأبا كريب جميل بن كريب المعافري (٢) ، وعبدالله بن عبدالرحمن المعروف بيزيد بن الطفيل القاضي (٣) . هذا إلى جانب عكرمة مولى بن عباس الذي ذكرنا في غيرما موضع أنه بربري الأصل وكان يلقى دروسه في الفقه والحديث في مؤخرة الجامع الأعظم بالقيروان .

على أن اهتمامات المغاربة بالفقه ومسائله لم تتوقف رغم تأثير الأسباب التي ألمعنا إليها آنفاً ، أي في النصف الأول من القرن الثاني الهجري . فلقد كانوا يتعجلون استيضاح كثير من المسائل الفقهية وكانوا

---

(١) أبو خالد عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري ، من علماء وفقهاء إفريقية المبكرين ، ذكر أنه أول مولود في الإسلام بعد فتح إفريقية ، وتلقى علومه على يد علماء بلده من التابعين ، ثم رحل إلى المشرق . فروى عن جماعة من التابعين ، وقد روى عنه بعض من علماء المشرق كسفيان الثوري وغيره . وتولى قضاء إفريقية مرتين . مرة في عهد الدولة الأموية ، ومرة في عهد الدولة العباسية ، وتوفي بالقيروان سنة ١٦١هـ . أنظر ترجمته عند المالكي : نفسه ، ص ٩٦ – ١٠٣ محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٦١– ٦٢ ، ابن السراج : المصدر السابق ، ج١، قسم١ ، ص٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٢) أبو كريب جميل بن كريب المعافري ، ويقال إن اسمه عبدالرحمن من فقهاء وعلماء المغرب الأدنى المبرين ، وقد سمع من عدد من أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبدالعزيز وروى عنه عدد من العلماء كذلك ، وتولى قضاء إفريقية في عهد عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيده بن عقبة بن نافع ، توفي مقتولاً في عام ١٣٩ هـ ، وقيل عام ١٤٠هـ في لقاء ابن حبيب مع الخوارج الصفريه ، أنظر المالكي ، نفسه ص ١٠٧ – ١١٠ مع الحواشي

(٣) عبدالله بن عبدالرحمن ويعرف بيزيد بن الطفيل التجيبي ، روى عن عدد من التابعين في بلده ، وكان عالماً مشهوراً ، وتولى القضاء في إفريقية ، ولم يزل قاضياً حتى عزله الأمير يزيد ابن حاتم المهلبي . أنظر المالكي : نفسه ، ص ١١٠ – ١١١ .

يتطلعون إلى الحجاز والمدينة بالذات حيث كبار التابعين ، وتروى لنا بعض كتب التراجم أن أحد من استوطنوا إفريقية ، وهو خالد بن أبي عمران التجيبي (١) (ت١٢٥ أو ١٢٧ هـ) ، وهو من صغار التابعين ، ذهب إلى المدينة المنورة حاملا مسائل فقهيه ، سمع الإجابة عنها من اثنين من كبار التابعين وهما : سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق . (٢)

ومن المؤكد أنه في ظل عدم الإشارة إلى وجود مؤلفات فقهية لفقهاء هذا الطور من عصر الولاة ، أن الفقه كان محفوظاً في الصدور ولم يدخل مرحلة التأليف والتدوين بعد . وهذا في الواقع شئ طبيعي إذا ماعرفنا أن علم الفقه نفسه في الدولة الإسلامية خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري (كان محفوظاً في الصدور ومضبوطاً بالحفظ لامحفوظاً مضبوطا بالتدوين) ، كما يذكر محمد بن الحسن الحجوى الثعالبي الفاسي (٣) .

غير أن الفقه خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عرف خطوات موفقه ودخل خلال هذا الطور مرحلة التدوين كما سنذكر بعد قليل . ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة إلى أن هناك عدة عوامل أدت إلي هذا التقدم في مجال الدراسات الفقهية ، مثل وضوح أثر معظم عوامل ازدهار الحياة العلمية التي أشرنا إليها من قبل ومثل بروز أثر الرحلات العلمية

---

(١) ترجمته موجوده عند أبي العرب التميمي : نفسه ، ٢٤٥- ٢٤٧ - المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ ، في سياق ترجمته لخالد بن أبي عمران التجيبي .

(٣) تاريخ الفكر السامي في الفقه الإسلامي ، ج١ ، ص ٣٢١ .

بصفة خاصة فيها . وفوق هذا وذاك دخول المذهب المالكي إفريقية وأثره في الدراسات الفقهية كما سبق وأن ذكرنا .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، كانت أحوال بلاد المغرب السياسية وماكان يتمخض عنه من فتن متلاحقة تدفع بعلمائه إلى تلمس السبل لمواجهة ذلك الطوفان من البدع والضلالات، بالتأسي بمقاصد الشريعة السمحة وحدها (١) في جانبي العبادات والمعاملات وهما قوام الفقه كما هو معروف

ولذلك كله قفزت الدراسات الفقهية في إفريقية آنذاك قفزات طيبة ، وبدأ يظهر على الساحة فقهاء كبار (كانوا طلائع لجمهرة من العلماء أتوا بعدهم) (٢) ، وتروى لنا المصادر تأكيداً لما ذهبنا إليه أن عبدالله بن فروخ الفارسي (٣) (ت : ١٧٥هـ) وهو أبرز فقهاء ومحدثي افريقية المبكرين ، دفعته الفتن وتفشى البدع والضلالات في إفريقية آنذاك إلى مكاتبه الإمام مالك بن أنس في كثير من المسائل الفقهية والعقائدية فأجابه الإمام مالك عليها بإجابات واضحة (٤) . ولقد بلغ من مكانة عبدالله بن فروخ الفقهية أنه كان يسأل في المسائل فيجيب فيها بالأقاويل المختلفة (٥) .

---

(١) أنظر عن تلك الأحداث السياسية والفتن والبداع والضلالات وموقف علماء المالكية منها : السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٤٢– ٥١ ، ٨٥– ١٠٩ .

(٢) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٣) ترجمته وردت في أكثر من مصدر ومرجع ، على أن أهم الترجمات له هي التي أوردها : أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٤ – ٣٥ – المالكي : نفسه ، ص١١٢– ١٢٢– عياض : نفسه ، ص ٣٤٠ – ٣٤٧ – الدباغ : نفسه ، ج١ ، ص ٢٤ –٢٤٢ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ١١٣– ١١٤ عياض : نفسه ، ص ٣٤٠– ٣٤٤ – ٣٤٥ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٤٠ .

وعرف هذا العصر شخصية إفريقية فقهية كان لها دورها المؤثر في دخول المذهب المالكي إلى إفريقية ، وكان لها دورها المؤثر كذلك في تقدم الدراسات الفقهية . هذه الشخصية هي شخصية على بن زياد العبسي التونسي (١) (ت : ١٨٣هـ) الذي كنا قد أشرنا إلى دوره في انتشار المذهب المالكي من قبل . وأما دوره في تقدم الدراسات الفقهية في إفريقية فقد كان لايقل أهمية عن دوره في إدخال المذهب المالكي . فعندما قدم علي ابن زياد بموطأ الإمام مالك وجامع (٢) سفيان الثوري كما ذكرنا من قبل ، أحدث ذلك تياراً فقهياً زاخراً أدى إلى تكاثر التآليف الفقهية المغربية . ولقد كان من جرَّاء تأثر الإفريقيين بموطأ الإمام مالك أن ألف علي بن زياد نفسه كتاباً فقهياً عرف باسم : كتاب خير من زنته ، وهذا الكتاب تضمن الحديث عن ثلاث قضايا فقهية هي : البيوع والنكاح والطلاق . (٣)

---

(١) وردت ترجمته في أكثر من مصدر ومرجع وأهم الترجمات له أوردها أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥١ – ٢٥٣ – المالكي : نفسه ص ١٥٨ – ١٦٠ – الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٢٩ – عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ – ٣٢٩ .

(٢) كان لسفيان الثوري (ت : ١٦١ هـ) كتابان في الفقه يطلق على كل منهما الجامع فهناك الجامع أو جامع سفيان الثوري الكبير ، وقد قدم به إلى افريقية علي بن زياد التونسي كما ذكرنا في المتن ، ثم هناك جامع سفيان الصغير، وقد جاء به إلى أحد علماء إفريقية المبكرين كذلك ، وهو أبو خارجه عنبسه بن خارجه الغافقي (أنظر ترجمته عند : المالكي : نفسه ، ص١٦٣ –١٦٤) ولقد أفاد المغاربة من هذين الكتابين معا. أنظر عن أولية قدوم علي بن زياد بجامع سفيان الكبير، المالكي : نفسه ، ص ١٥٨ –١٦٠ – عياض : نفسه ، ص ٣٢٧ وعن أولية ابن خارجه في جلب جامع سفيان الصغير ، أنظر نفسه ، ص ١٦٣ عياض : نفسه : ص ٢٣١ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ – ٣٢٧ الشيرازي : نفسه ، ص ١٢٩ – وعنده أن اسم الكتاب خير من دينه ، ولاشك أن هذا خطأ والصواب هو ما أوردناه عن غيره في المتن .

وحـذا حذو علي بن زيـاد في تصنيـف المؤلفـات الفقهيـة ، فقيـه افـريقي آخر ، هو البهلـول بن راشد الرعيني (١) (ت : ١٨٣هـ) الذي ألـف ديـوانـاً في الفـقـه ، كـان مـحل التـقـدير والإعجـاب (٢)

وفي خلال الفترة التي كـان الإمام مالك بن أنس حياً فيها مـاانفك علماء وفقهاء إفريقية عن مراسلته وسؤاله عمًّا ينزل بساحتهم من القضايا . فعبدالله بن غانم الرعيني (٣) (ت : ١٩٠هـ) الذي عـاصـر عصر الولاة وبضع سنوات من عصر الأغالبة ، كان وهو قاض كثيراً مايراسل مالكاً بالأسئلة الفقهية ، وكان يتلقى منه الرد مع مبعوثيه . (٤)

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهيه الحنفيه في إفريقية في عصر الولاة ، فإنهما كانا أقل نشاطاً من الدراسـات الفقهية المالكية . وكان ذلك يعد شيئاً طبيعياً ، لجدة علم الفقه نفسه من جهة ، ولاتجاه المغاربة إلى التمذهب بالمذهب المالكي من جهة أخرى .

---

(١) ترجمة البهلول بن راشد ، موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ، ص ٥٢ - ٦٢ المالكي : نفسه، ص٣٣٠- ٣٣٩ - محمد بن محمد مخلوف نفسه ، ص٦٠- ٦٢ - الزركلي : نفسه ، ج٢ ، ص ٧٧ .

(٢) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٦١- الزركلي : نفسه ، ج٢ ، ص ٧٧.

(٣) وردت لعبدالله بن غانم الرعيني ترجمة مستفيضة عند كل من : المالكي : نفسه ، ص ١٤٣ - ١٥٥ - عياض : نفسه ج ١ ، ص ٣١٦ - ٣٢٥ - تراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضي عياض تحقيق محمد الطالبي مع مقدمة وفهارس ص ٨-٢١ - الدباغ : نفسه ، ج١ ص ٢٨١ - ٣١٣ (مطولا جداً) .

(٤) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٣١٨ .

وأيا ماكان الأمر ، فإن غاية مانعرفه عن نشاط الدراسات الفقهية الحنفية في إفريقية ، هو أن عبدالله بن فروخ الفارسي الذي عرفنا دوره في نشر المذهب المالكي والدراسات الفقهية المالكية ، كان له دور كذلك في نشر الدراسات الفقهية الحنفية ، مع أنه لم يكن يتمذهب الحنفي ، فهو إلى جانب أنه (اشتهر بصحبة مالك وبه تفقه) (١) ، إلاَّ أنه (كان يميل إلى النظر والإستدلال فربما مال إلى قول أهل العراق فيما يتبين له من الصواب)(٢)، ويروى أنه سمع من الإمام أبي حنيفه النعمان مسائل فقهية مدونه ، بلغ تعدادها نحواً من عشرة آلاف مسألة (٣) .

ولقد اسعفتنا المصادر لحسن الحظ كذلك بمعلومة مفيدة أخرى لفقيه مالكي هو الآخر ، كان قد سمع خلال رحلته إلى المشرق من تلامذه الإمام أبي حنيفة النعمان ، هذا العالم الفقيه هو عبدالله بن غانم الرعيني الذي أشرنا إلى دوره في نشر الدراسات الفقهية المالكية قبل قليل . فيروى أنه كان يتصدى لتدريس كتب أبي حنيفه على طلبته كل يوم جمعه (٤) ، هذا مع أنه كان مالكياً متعصباً للامام مالك (٥) ، وكان أثيراً

(١) المالكي : نفسه ، ص ١١٣ - عياض : نفسه : ج١ ، ص ٣٤٠ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١١٣ .

(٣) المالكي : نفسه ص ١١٦ - عياض : نفسه ، ص ٣٤٤ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣١٧ .

(٥) ممَّا يدل على ذلك ماروواه المالكي : نفسه ، ص ١٤٥ عن سحنون قال (قرأ علينا ابن غانم كتاباً من الموطأ ، فقال له رجل : يا أبا عبدالرحمن أيعجبك هذا من قول مالك ؟ فقام ابن غانم وألقى الكتاب من يده ، وقال : أوليس وصمة ملى ديني وعقلي أن أرد على مالك قولة قالها ؟ والله لقد تركت العباد الذين يتورعون عن الذر فما فوقه سفيان ودون سفيان ، فما رأيت بعيني أورع من مالك) .

عنده (١) . ومن فقهاء الاحناف المبكرين في هذا العصر عالم حنفي آخر وهو عبدالله بن المغيرة ولايعرف للأسف تاريخ ولادته ولاوفاته ، وقد تتلمذ على يد الإمام أبي حنيفة نفسه . وروى أن له تأليفاً قيماً في الفقه (٢) .

أما الفقه والدراسات الفقهية الإباضية في إفريقية في عصر الولاة سواء في إقليم الجريد أو في جبل نفوسه بطرابلس ، فقد كان شأنه شأن الدراسات الفقهية الحنفية ضئيل الإشارة والتنبيه ولعل غاية ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد أن النشاط الفقهي الإباضي في إقليم الجريد ، لم يكن قد انفصل بعد عن الجانب التنظيري لمعتقد المذهب الإباضي ، مع أنه كانت هناك بدايات متواضعه منذ القرن الثاني الهجري للنشاط الفقهي التأليفي المحض ، ولكنها لم يتجاوز البحث عن إجابات لبعض المسائل الحياتيه (٣) .

بيد أن الدراسات الفقهية الإباضية في طرابلس في عصر الولاة ، كانت أنشط حالاً من مثيلتها في إقليم الجريد ، وذلك منذ أن أستقر المذهب الإباضي في جبل نفوسة في منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً . فلقد شهدت الدراسات الفقهية آنذاك ظهور عدد من الفقهاء الإباضية ، منهم : عمر بن يمكن (٤) واسماعيل بن درار أو ضرار الغوامسي ، الذي ارتحل

---

(١) حتى أنه عرض عليه أن يزوجه ابنته عندما جاء إلى المدينة طالباً تلقى العلم منه ، وعندما تولى ابن غانم القضاء سر بذلك مالك كثيراً .

(٢) عبدالعزيز المجذوب : ص ٦٢ .

(٣) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٣ .

إلى البصرة ، حيث قابل عدداً من شيوخ المذهب الإباضي (١) ومنهم كذلك محمد بن عبدالحميد بن مغطير النفوسي الجناوي ، وهو ممّن ارتحل كذلك إلي البصرة ، فقابل عدداً من شيوخ المذهب (٢) . ومنهم كذلك عاصم (٣) السدراتي وهو من قبيلة سدراته التي تسكن في جبال أوراس بالجزائر . إلاَّ أنه قدم طرابلس فاستقر بالجبل يلقى علومه ومعارفه ، ثم رحل إلى البصرة، فقابل شيوخ المذهب هناك ، ثم عاد ينشر علمه في جبل نفوسه حتى توفي مسموماً في القيروان إبان حصار الإباضية قبل ولاية محمد بن الأشعث .

الفقــــــه في عصـــــر الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) :

كان انتصاب الدولة الأغلبية في إفريقية (المغرب الأدنى) مؤذناً بتحول سياسي واجتماعي وعلمي وثقافي ، أنعكست آثارة الإيجابية على المجتمع الإفريقي آنذاك . وإذا كان ليس من مهمتنا التأريخ للدولة الأغلبية سياسياً وحضارياً - إلاَّ بالقدر المرتبط بالحياة العلمية الذي يعنينا - فإن مجمل مايمكن قوله هو أن قيام الدولة الأغلبية ومن ثم استقرارها خلال تلك الفترة الزمنية ، إضافة إلى مجهودات أمرائها في العناية بالعلم والعلماء ، قد أوجد تياراً ثقافياً قوياً ، وأوجد نهضة علمية مزدهرة شملت أكثر حقول الحياة العلمية ، إلاَّ أن الأثر العلمي البارز الذي طغى على غيره في عهدها

(١) أحمد مختار عمر : نفس المرجع والصفحة .

(٢) أحمد مختار عمر : نفسه .

(٣) علي يحيى معمر : الإباضية في الجزائر - الإباضية في موكب التاريخ : ص ١٢٩ -١٣٣ .

هو ازدهار الدراسات الشرعية وعلى وجه الخصوص ، الفقه الذي نشط نشاطاً مذهلاً نوضحه بعد قليل .

وإذا مضينا نتتَّبع الأسباب التي أدت إلى أن يكون نشاط العلوم الفقهية خاصة والدراسات الشرعية عامة في عهد الأغالبة هو الذي كان يطغى على غيره من المعارف ، فإننا نراه يندرج في الآتي :

١- اتمام تعريب إفريقية وتأكيد إسلام أهلها في عهدهم .

٢- تزامن دخول المذهب المالكي إلى إفريقية مع قيام الدولة الأغلبية تقريباً . ونقول تقريباً لأن دخول وانتشار المذهب المالكي قد تم قبل قيام الدولة الأغلبية ، إلاَّ أن عصرهم شهد التمكين المطلق للمذهب، ولابد أن نعيد إلى الأذهان القول بأن انتشار المذهب الفقهي المالكي ، إنما هو انتشار وتوسع للفقه الذي اقترن به .

٣- نجاح الأغالبة في تكريس الوحدة والتجانس بين طبقات المجتمع (١) .

٤- جهودهم الحثيثة في تشجيع الثقافة والعلم عن طريق الاهتمام بوسائط الثقافة من مساجد وأربطة وكتاتيب ومكتبات عامة خاصة (٢) ، هذا من جهة ، وجهودهم في تشجيع العلماء من جهة أخرى .

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ج١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) أنظر قبل ، ص الفصل الخامس - وسائط الثقافه من العصر الأغلبي .

٥- إن حكم الأغالبة لإفريقية كما يقول رابح بونار (١) - وهو على حق في ذلك - قد أقترن في نفوس المغاربة بالشعور بالاستقلال وسريان روح الوطنيه في صفوفهم .

٦- إن ازدهار الحياة العلمية ، والفقه على رأسها قد ارتبط من غير شك بالمناخ السياسي والحضاري الذي تحقق في إفريقية على يد أمراء الأغالبة .

٧- إن شخصية أسد بن الفرات ، وسحنون بن سعيد كانتا عاملاً رئيسياً في التطور الفقهي الذي عرفته إفريقية في عهد الأغالبة .

وكيفما كان الأمر ، فإن الدراسات الفقهية التي خطت خطوات طيبة في عصر الولاة ، وخاصة مع بداية النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، كانت الأساس المتين الذي إعتمدت عليه الدراسات الفقية في العصر الأغلبي وماتلاه من عصور . ولقد وضع أولئك الفقهاء الرواد الذين كانوا شيوخاً لمن جاء بعدهم ، النواة التي تمخضت عنها فيما بعد النهضة الفقهية التي صبغت الدراسات الشرعية بصبغتها . وفي الحقيقة لقد قيض الله للدراسات الفقهية في المغرب الأدنى أن يكتب لها النجاح والتوسع والتقدم بعد ذلك الجيل من الشيوخ على يد فقيهين كبيرين هما ، أسد ابن الفرات وسحنون ابن سعيد .

---

(١) المغرب العرب ،تاريخه وثقافته ، ص ١٨ .

أما أسد بن الفرات بن سنان (١) (ت: ٢١٣هـ)(٢) الذي ذكرنا من قبل أنه أحد فقهاء وعلماء إفريقية المشهورين آنذاك . فقد تلقى علومه على يد كبار العلماء في إفريقية ، ومنهم علي بن زياد التونسي ، ثم ارتحل إلى المشرق طلباً للمزيد من العلم فقابل هناك في المدينة الإمام مالك بن أنس ، ثم ذهب إلى العراق ، فسمع من القاضي أبي يوسف (٣) (ت : ١٨٢هـ) ، ومحمد بن الحسن الشيباني (ت : ١٨٩هـ) تلميذي الإمام أبي حنيفة النعمان ، ثم رحل إلى مصر حاملاً مسائل فقهية مجردة على المذهب الحنفي (٤) واتصل هناك بالإمام أبي عبدالله عبدالرحمن بن القاسم العتقي (٥) (ت : ١٩١هـ) ، الفقيه المصرى المشهور الذي يعد من أشهر مريدي الإمام مالك على الإطلاق فعرض عليه تلك المسائل وتلقي عنه أحكامها على مذهب الإمام مالك بن أنس ، ثم قدم بها بلده القيروان ، وهي التي عرفت بالأسدية نسبةً إليه – وهي أصل المدونة كما سنعرف بعد قليل .

---

(١) ترجمة أسد بن الفرات موجوده عند : أبي العرب التميمي نفسه ، ص٨١ – ٨٣– المالكي : نفسه ، ص ١٧٣ – ١٨٩ – عياض : نفسه ، ص ٤٦٥– ٤٨٠ وغير ذلك .

(٢) هذا التاريخ هو الأرجح والمشهور ، أنظر ابن عذارى : نفيسه ، ج٢ ، ص١٠٤ – الزركلي : نفسه، ج١ ، ص ٢٩٨ . وهناك بعض من المؤرخين القدامي كأبي العرب التميمي : نفسه ، ص ٨٣ يقول إن وفاته كانت عام ٢١٤ ، بينما يقول عياض : نفسه ، ص ٨٠ إن وفاته كانت في سنة ٢١٣هـ أو ٢١٤ أو ٢١٧ هـ .

(٣) عن ترجمته واتجاهاته الفقهيه ، أنظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ص ١٩٨– ٢٠٣ .

(٤) الحجوي الفاسي : المرجع السابق ، ج٢ ص ٩٤ – ٩٥ .

(٥) ترجمة عبدالرحمن بن القاسم العتقي موجـوده عند : عياض نفسه، ج٢ – ص٤٣٣ –٤٤٦ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٤٦ –١٤٧– الحجوى الفاسي : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٤٣٩–٤٤٢ كارل بروكلمـان : تاريخ الأدب العربي الجزء الثالث ، ص ٢٨٠– ٢٨١ ، وغير ذلك .

والأسدية هي التي هيأت لأسد بن الفرات في بلاده رياسة في العلم كما يذكر القاضي عياض (١) وهي تتكون من ستين كتاباً تحتوى ماجموعه : ستة وثلاثين ألف مسألة فقهية (٢) .

غير أن سحنوناً بن سعيد التنوحي الذي أشرنا إلى دوره العظيم في نشر المذهب المالكي مراراً ، والذي كان معاصراً لأسد ابن الفرات ، وإن كان أصغر منه سناً ، حمل الأسدية خفيةً إلى ابن القاسم بمصر ، فعرضها عليه ، فرأى ابن القاسم أنها فيها مسائل وأمور تحتاج إلى اعادة تفسير وتهذيب واستدراك ، نظراً لأنه كان قد أملاها على أسد من حفظه ، فراجعها وطلب من أسد عبر سحنون أن يعارض كتبه بكتب سحنون التي حملها ، غير أن أسداً رفض ذلك ، ممّا حدا بابن القاسم إلى أن يستاء منه ويدعو الله أن يجانب التوفيق والبركة الأسدية . (٣)

هذه الكتب التي عاد بها سحنون منقحة ومزيدة ، هي التي عرفت في الفقه المالكي المغربي بالمدونة أو المدونة الكبرى (٤) . وقبل أن نشرح أبعاد هذا العمل نشير إلى قول الشيرازي في كتاب : طبقات الفقهاء (٥) ، وهو يفسر ما استقر عليه أمر الدراسات الفقهية . في افريقية عموماً . يقول : (واقتصر الناس على التفقه في كتب سحنون ، ونظر فيها سحنون نظراً

---

(١) نفسه : ج١ ،ص ٤٧٠ .

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : ص ٣٩٥ .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ص ١٣٢ ، عياض : نفسه ، ج ١ ، ص ٤٧١ - ٤٧٣ .

(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ، ص ٢٨١ .

(٥) ص ١٣٢ .

آخر ، فهذبها وبوبها ودونها ، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره ، وذيل أبوابها بالحديث والآثار ، إلاَّ كتباً منها مفرقة بقيت على أصل اختلاطها في السماع ، فهذه كتب سحنون : المدونة والمختلطة وهي أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة وإيَّاها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم ، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم) .

ولقد ظهر أثر ذلك التحول الفقهي بعد ذلك واضحاً في شدة اعجاب واعتماد المغاربة لافي المغرب الأدنى وحده بل وفي بقية المغرب والأندلس على المدونة وحدها . فكأن المدونة قد وطأت الطريق لمدرسة فقهية إفريقية ، بل إنها بالفعل كذلك ، لأن سحنوناً بعمله ذلك أسس مدرسة فقهية إفريقية مالكية لها خصوصيتها التي تتواءم مع التركيبة البشرية والنفسية والثقافية للمغاربة .

ونحن بالطبع ليس من مهمتنا أن نتوسع في دراسة الفقه توسع المختص في الدراسات الشرعية ، غير أن أهمية ذلك التحول الفقهي على الدراسات الفقهية قد تجيز لنا أن نتجاوز مهمتنا وهي التأريخ للفقه إلي التحدث عنه كمنحى شرعى بالقدر الذي يوضح الموقف فقط ، أي يوضح الأسباب الحقيقية التي دفعت بالمغاربة إلى إهمال أسدية أسد بن الفرات والإهتمام بمدونة سحنون بن سعيد والاعتماد عليها .

والواقع أننا في هذا الصدد نميل إلى موافقة بعض الباحثين الذين تناولوا هذه القضية ، لما يغلب عليها من تحليل دقيق للأسباب تلك . يرى عبدالعزيز المجذوب في كتابه الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة

الزيرية (١) المذكور سابقاً (أن أسد بن الفرات بأخذه بالمنهج العراقي (أي الحنفي) في تفصيل المسائل وتأصيلها ، ثم تطبيق أحكام المذهب المالكي عليها قد أدخل المذهب المالكي في دور جديد من التدوين المؤصل المرتب) . والمجذوب في رأية هذا يتفق تماماً مع محمد بن الفاضل بن عاشور في كتابه : أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي .

ويذهب عبدالعزيز المجذوب إلى موافقة محمد بن الفاضل بن عاشور كذلك في أن طريقة أسد هذه قد اعتراها النقص من وجهين (الأول : هو أنه لما بنى ادراج مذهب على منهج مذهب آخر ، فقد وقع فيه من الاختلاط في الأقوال ، والاختلال في عزوها أمور جاءت قادحه فيما يطلب في كتب الأحكام من الصحة المطلقة) . (الأمر الثاني : هو أن فقهاء المالكية قد اعتادوا بناء الفقه على الأحاديث والآثار كما هي طريقة مالك في الموطأ ، وقد سلك أسد في كتابه طريقة فقه خالص مبنى على صريح الإجتهاد) (٢) .

ويؤكد المجذوب ، أن سحنوناً أدرك بذكائه مافي الأسدية من نقص ، وأنه أدرك كذلك ماتجره طريقة أسد على الآثار السنية من الأندثار نتيجة لما تذهب إليه من الاحتمالات والفروض والتخمينات كما أن المجذوب يؤكد أن سحنوناً شعر بالخطر على أهل الحديث من أن (يغزوهم أهل الرأي العراقيون . فرجع بكتاب : الأسدية إلى أصله ، مراجعاً فيه ابن القاسم ،

---

(١) ص ٥٠ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

مصححاً وإياه ما اختل فيه من أحكام ، بانياً المسائل على مسند الأخبار والآثار النبوية) (١) وبمعنى آخر أن سحنوناً رد (الفقه المالكي إلى طريقته المدنيه الأولى مع الحفاظ على ما أفاده أسد من لقاح جديد بطريقة العراق ، وأرجع فقه مالك إلى موطئه ، وأورد من مسائله شيئاً صحيحاً مضبوطاً لايوصم بوهم ولا اشتباه) (٢) .

ومن المهم في هذه القضية أن نشير كذلك إلى أن عبدالعزيز المجذوب يؤكد - ولعلنا لا نخالفه بناءً على ما اتضح من متابعة ذلك الموضوع - أن ماحدث بين أسد وسحنون لم يكن صراعاً مذهبياً ، ولكنه (صراع منهجي فقط ، واختلاف في طريقة الاستدلال وأسلوب التدوين . فالقضية لاتخرج عن مجرد تباين بين منهجين أو طريقتين : تحرري في الأسدية ، مالكي محافظ في المدونة) : (٣)

وفي هذا الصدد نشير إلى أننا لانذهب إلى ماذهب إليه السيد محمد أبو العزم داود في كتابه المذكور سابقاً في التفريق بين أسدية أسد بن الفرات ومدونة سحنون ، فهو يرى أن المدونة (تأثرت يكتب العراقيين في تفريع المسائل وتوليدها وافتراضها، ممَّا كان له أكبر فائدة في تفتيق الفقه المالكي وتوسيعه وجعله أكثر مرونة ، كما قرب بين الفقه المدني والعراقي ..) (٤) ذلك لأن المغاربة عندما رفضوا الأسدية ، فقد رفضوها

---

(١) نفسه : ص ٥١ .

(٢) عبدالعزيز المجذوب : نفسه، ص ٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٥٦-٥٧ .

(٤) نفسه ، ص ٣٩٩ .

لما فيها من اتجاهات تغلب جانب الرأي الذي يراه المغاربة خطراً على الآثار والسنة ومن هنا قالوا لأسد منكرين : إجئتنا بإخال وأظن وأحسب ، وتركت الآثار وماعليه السلف ، كما أشار مؤرخو التراجم والطبقات (١) وكما أشار السيد محمد أبو العزم نفسه (٢) ، ثم أن السيد محمد أبو العزم أشار إلى أن الأسدية اختلفت عن المدونة (٣) وبالطبع فإن الاختلاف لابد أن يكون في اتجاه كل من الأسديه ، والمدونة الفقهي ومن هنا نستبعد أن تكون المدونة قد تأثرت بكتب العراقيين التي تمثل الأسدية اتجاهاتها وإلاّ فما هو داعي سحنون بن سعيد وابن القاسم إلى اجراء ذلك التغيير المنهجي في الأسدية ؟

وعلى أية حال ، فلم تزد الأيام المغاربة إلاّ بعداً عن الأسدية فلم يعد يؤخذ بها بعد أن عاد سحنون بالمدونة من مصر ، ولم يكن لها حظ من الانتشار إلاّ في مصر عندما أخضعها بعض المصريين للدراسة والاختصار (٤)

أما المدونة ، فقد أصبحت منذ أن عاد بها سحنون إلى إفريقية ينظر إليها نظرة تقدير وتبجيل عميقين ، فقد أصبح المعول عليها في كل الدراسات الفقهية ، فضلاً عن الأخذ باتجاهاتها في التطبيق الواقعي للحياة

---

(١) أنظر مثلا المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٨٠ - عياض : نفسه : ج١ ، ص ، ٤٧٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٥ .

(٣) نفسه ، ص ٣٩٧ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ - ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، ص ٧٤٨ - ٧٤٩ .

كما نظن . ولقد أكد صاحبها نفسه منذ البدء على ما تمثله المدونة من مكانة، فكان يقول لأتباعه (.. عليكم بالمدونة ، فإنها كلام رجل صالح وروايته، وكان يقول : إنما المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن من القرآن تجزى في الصلاة عن غيرها ولايجزى غيرها عنها ، أفرغ الرجال فيها عقولهم وشرحوها وبينوها ، فما اعتكف أحد على المدونة ودارسها إلاّ عرف ذلك في ورعه وزهده ، وما عداها أحد إلى غيرها إلاّ عرف ذلك فيه) (١) .

ويرى ابن رشد – وهو أحد أشهر رجال الأندلس – في كتابه : المقدمات والممهدات فيما ينقله عنه السيد محمد أبو العزم (٢) داود ، أن المدونة ، حوت أصل علم المالكية ، وتأتي في مقدمة الدواوين الفقهية المالكية على الإطلاق بعد الموطأ ، (وأنه مابعد كتاب الله أصح من موطأ مالك رحمه الله ولابعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة ، والمدونة هي عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وككتاب أقليدس عند أهل الحساب .. الخ) . ولذلك كله ، فمن الطبيعي أن تصبح للمدونة تلك المكانة العظيمة لا في المغرب الأدنى ، بل وفي المغرب كله والأندلس حسبما أشرنا من قبل ، ولم يكن يدانيها أي مؤلف فقهي مالكي على الإطلاق حاشا المؤطأ . ومن هنا كانت كذلك محط رغبات الفقهاء في المغرب والأندلس اختصاراً وشرحاً وتعليقاً . والواقع أن المجال يضيق بنا لوتتبعنا اختصاراتها وشروحاتها

(١) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٧٣ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٧ – ٣٩٨ .

وتعليقاتها منذ وفاة سحنون وحتى عصور متأخرة من الزمن ، فقد تناولها العشرات من المغاربة والأندلسيين بالشرح والاختصار والتعليق (١) ، وسنشير خلال حديثنا عن الدراسات الفقهية في العصر الأغلبي والعصر الفاطمي والعصر الزيري إلى من قام بذلك من أبناء المغرب الأدنى إن شاء الله .

وبعد فلن نتجنى على الحقيقة إذا ماقلنا إن سحنوناً بن سعيد التنوخي (٢) (١٦٠ –٢٤٠هـ) يعتبر أهم شخصية فقهية مالكية في المغرب الأدنى في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فإلى جانب جهوده في نشر المذهب المالكي التي عرفنا أبعادها ، فإن جهوده في نشر الداسات الفقهية– وقد رأينا أعظمها وأهمها – جهود عظيمة الأثر بعيدة الغور . وقد أحدث وجوده في إفريقية وقتذاك نهضة فقهية شاملة ، كما أجمع معاصروه ومن جاء بعدهم ومعظم من تناول التأريخ للدراسات الشرعية الإفريقية على أنه

---

(١) أنظر كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي الجزء الثالث ، ص ٢٨٠– ٢٨٤) لمعرفة من قام باختصار وشرح والتعليق على المدونة من المغاربة الأندلسيين .

(٢) ترجم لسحنون كل مؤرخي التراجم والطبقات المغربية تقريباً ثم غيرهم ممن ترجم لعلماء المالكية ، وكلهم خصة بترجمة واسعة . ومن أولئك : أبو العرب نفسه ، ص ١٠١ – ١٠٤ – الشيرازي ، نفسه ص ١٣٢ – ١٣٣ – المالكي : نفسه والجزء ص ٢٤٩ – ٢٩٠ (٥١ صفحة) – عياض : نفسه ، ص٥٨٥ – ٦٢٤ الدباغ : نفسه ، ج ٢، ص٧٧– ١٠٤ – ابن فرحون : نفسه ، ص١٦٠ – ١٦٥ – ابن السراج : نفسه ، ج١ ، القسم الأول ،ص ٧٦٩ –٨٠٧ (وهي ترجمة طويلة جداً للغاية). واختصه بكتاب مستقل من القدامى : أبو العرب التميمي أحد تلامذته . ومن المحدثين اختصه : سعدى أبو حبيب بكتاب عنوانه : سحنون ، مشكاة نور وعلم وحق .

أفقه رجالات المغرب الأدنى إطلاقاً (١) ، وهو حقيق بذلك كما أنه حقيق بما وسمه به أحد الباحثين المحدثين (٢) من أنه (عالم المغرب وأستاذه دون منازع) ومن أنه يمثل (قمة الدولة المالكية الإفريقية ، وعلم القومية الأفريقية كذلك) .

وإلى جانب أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد ، عرف العصر الأغلبي كذلك فقهاء أجلاء كان لهم دور مرموق في تقدم الدراسات الفقهية ويأتي على رأس أولئك الفقهاء : محمد بن سحنون بن سعيد (٣) التنوخي (٢٠٢ - ٢٥٦هـ) ابن الفقيه سحنون نفسه ، فلقد كان فقيهاً مرموقاً بجانب كونه محدثاً ، وعالم جدل أيضاً .. وفي الحقيقة أن ثقافته الواسعه وعلمه الغزير الموروث عن أبيه ، قد أهلاه إلى أن يحتل مكانه أبيه في إفريقية وقتذاك وأتفقت كلمة معاصرية كذلك على أنه كان إماماً في الفقه (٤) ، والواقع أنه أحدث في المغرب الأدنى آنذاك جواً علمياً زاخراً . وفوق هذا فقد فتح له باب في التأليف الغزير (٥) ففي الفقه وهو مايهمنا هنا ألف

---

(١) أنظر عياض : نفسه ، ص ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٢ (حيث أورد أقوال معاصرية وغيرهم فيه) .

(٢) حسين مؤنس في مقدمته للجزء الأول من رياض النفوس للمالكي : ص ٢٤م .

(٣) ترجمته موجوده باستفاضة عند الخشني : طبقات علماء أفريقية ، ص ١٧٨ - ١٨٢ - الشيرازي : نفسه ، ص ١٣٤ - المالكي : نفسه ، ص ٣٤٥ - ٣٦٠ (وهي ترجمة مفيدة مهمه) عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ١٠٤ - ١٠٧ - الدباغ : نفسه ، ج٢ - ص ١٢٢ - ١٣١ - الزركلي : نفسه ، ج٦ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ وغير ذلك .

(٤) أنظر عياض نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ - (حيث استعرض أقوال المعاصرين لمحمد بن سحنون من الإفريقيين وغيرهم) .

(٥) مقدمة تحقيق حسن حسني عبدالوهاب لكتاب محمد بن سحنون كتاب : آداب المعلمين ، ص ٢٨-٣٥ .

مؤلفات جمّة منها : كتابه الكبير : الجامع ، جمع فيه فنون العلم والفقه ويتكون من نحو ستين كتاباً أو جزءاً ، ثم كتاب تفسير الموطأ في ٤ أجزاء وكتاب : الإباحة والاشربة ، وتحريم المسكر ، ثم كتاب آخر وهو شرح الأربعة كتب من مدونة أبيه ، واخيراً كتاب فقهي آخر لأسئلة كان قد سئل عنها . (١)

ومن تلامذة سحنون ومن رجال العصر الأغلبي الذين أوسعوا الدراسات الفقهية تأليفاً وتصنيفاً ، محمد بن ابراهيم بن عبدوس بن بشير المشهور بابن عبدوس (٢) (ت : ٢٦٠هـ) ، فلقد كان هو الآخر (إماماً في الفقه ، عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة . وما اجتمعوا عليه) (٣) . له مؤلف فقهي كبير يدعى بالمجموعة على مذهب الإمام مالك بن أنس (٤) . ولقد حذا حذو رصيفة محمد بن سحنون ، فألف أربعة أجزاء في شرح مسائل المدونة . (٥)

أما عبدالله بن أحمد بن طالب ، أبو العباس القاضي (٦) (ت :

---

(١) عياض نفسه ،ص ١٠٦ – ١٠٧ – مقدمة حسن حسني عبدالوهاب لكتاب آداب المعلمين ، ص ٢٥– ٢٧ .

(٢) مترجمته موجوده عند الخشني : نفسه ص ٢٣٧ – ٢٣٨ – الشيرازي : نفسه ، ص ٣٤ (باختصار شديد ٩ المالكي : نفسه ، ص ٣٦٠ – ٣٦٣ – عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٧ – ١٠٩ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ١٣٧ – ١٤٤ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ،ص ٧٠ (وعنده أن وفاته سنة ٢٥٠ وهو خلالف للمشهور) .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٨ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ١٠٨ .

(٥) عياض : نفسه .

(٦) الخشني كتاب نفسه ، ص ١٨٦ – ١٨٨ – الشيرازي : نفسه ، ص ٣٤ (باختصار) . =

٢٧٥هـ) ، فهو وأن لم يسهم في انتشار الدراسات الفقهية تأليفاً بكثرة ، فقد أسهم في تشجيع الدراسات الفقهية عن طريق المناظرة ، إذ يروى أنه كان (يجمع في مجلسه المختلفين في الفقه ، ويغرى بينهم ليظهر الفائدة ، ويبين لهم عن لبسه ويسامرهم ، فإذا تكلم أحيا وأبان حتى يود السامع ألاَّ يسكت) (١)

ومن فقهاء العصر الأغلبي المبرزين كذلك : يحيى بن عمر ابن يوسف ابن عامر الكناني (٢) (٢٨٩هـ) وهو أندلسي الأصل واستوطن إفريقية وتتلمذ على يد سحنون بن سعيد وغيره ، ثم سكن في آخر حياته مدينة سوسة . ويحيى بن عمر يعد أيضاً إماماً في الفقه حسبما يذكر أبو العرب التميمي (٣) ، ومن مولفاته الفقهية : كتاب : الرد على الشافعي ، وكتاب اختصار المستخرجه المسمى بالمنتخبة ، وكتاب فضل الوضوء والصلاة وكتاب اختلاف ابن القاسم وأشهب .. (٤) الخ .

ويعد عيسى بن مسكين القاضي (٥) (ت : ٢٩٥هـ) أحد الجلَّة

= المالكي : نفسه ، ص٣٤ (باختصار) . المالكي : نفسه والجزء ، ص٣٧٥ – ٣٨٧ عياض : نفسه ، ص ١٩٤، ٢٠٠ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ١٥٩ – ومابعدها – الزركلي : نفسه ، ج ٤، ص ٦٥ ، ٩٢ (وعنده أن وفاته كانت عام ٢٧٦هـ) .

(١) المالكي : نفسه ،ص ٢٧٦ .

(٢) الخشني : نفسه ،ص ١٨٤ – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص ١٨٤ – المالكي : نفسه ، ج ٤ ص ٣٩٦ – ٤٠٤ عياض : نفسه الجزء الثاني ، ص ٢٣٤ – ٢٣٦ – الزركلي : نفسه ، ج٨ ، ص ١٦٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٣٤ .

(٤) عياض : نفسه ، ج٢ ص ٢٣٤ .

(٥) ترجم له أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٤٢ – ١٤٣ . الخشني : نفسه ص ١٩٣ – ١٩٤ – =

البارزين من تلامذة سحنون ، فقد كان (كثير الكتب في الفقه والآثار .. متفننا في كل العلوم : الحديث والفقه ..) (١)

ومن الفقهاء الذين كان لهم دور في تنشيط الدراسات الفقهية في هذا العصر ، كذلك : أبو جعفر أحمد بن سليمان بن داوود المعروف بالصواف (٢) (ت : ٢٩١هـ) وأبو سهل فرات بن محمد العبدي (٣) (ت: ٢٩٢هـ) .

ولم تكن المرأة في هذا العصر الذي ازدهرت فيه الحياة العلمية بمنأى عن المشاركة في العلوم وخاصة الشرعية منها . فتروى لنا بعض المصادر والمراجع أن هناك بعضاً من النسوة اللائى شاركن في الدراسات الفقهية ، غير أنها للأسف لم تسعفنا بالتصريح باسمائهن فيما عدا ثلاث نساء كان لهن شهرة في وقتهن ، وهن : أسماء بنت أسد بن الفرات (٤) (ت: ٢٥٠هـ) وأشتهرت برواية الفقه والحديث على المذهب الحنفي ، وخديجة بنت سحنون ابن سعيد التنوخي (٥) (ت : ٢٧٠هـ) واشتهرت كذلك برواية الفقه على

= عياض : نفسه ج٢ ، ص ٢١٢ – ٢١٤ .

(١) عياض : نفسه ، ص ٢١٢ .

(٢) ترجمته موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ، ص١٣٩ – ١٤٠ – المالكي : نفسه ، ص٤٠٧ – ٤١٣ (مطولة) – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٧١ وغير ذلك .

(٣) ترجمته موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ص ١٤١ – محمد بن محمد بن مخلوف : نفسه ، ص ١٧٢ وغير ذلك .

(٤) عمر رضا كحاله : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، الجزء الأول ، ص ٤٥١ ، والجزء الخامس ، ص ٣٠٤ (نقلا عن كتاب شهيرات التونسيات لحسن حسني عبدالوهاب) .

(٥) عمر رضا كحالة : نفس المرجع أعلاه ، ج١ ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ وج ٥ ، ص ٣٣٠ =

المذهب المالكي ، ثم مهربة الأغلبية (١) .

ومن فقهاء بقية مدن إفريقية المالكيين في هذا العصر الأغلبي ممَّن أدوا دوراً في تنشيط الدراسات الفقهية : أبو عبدالله محمد بن معاوية (٢) الحضرمي وهو من علماء طرابلس المبكرين ارتحل إلى المشرق وخاصة الحجاز حيث لقى في المدينة الامام مالكاً بن أنس ، ونذكر كذلك محمد بن ربيعة (٣) الحضرمي الطرابلسي ، وهو من علماء وفقهاء طرابلس المبكرين أيضاً ، وممَّن تلقى كذلك بعض علومه على يد علماء المشرق مثل مالك ابن أنس وغيره .

ولايفوتنا ذكر سعيد بن عياض السرتي (٤) (ت : ٢٠٠هـ) أحد علماء طرابلس ، وعبدالوهاب القيسي المتوفى بطرابلس (٥) . (عام ٢٠٠هـ) وعبدالله بن الشعاب (٦) (ت بطرابلس سنة : ٢٤٣هـ) .

=(نقلا عن حسن حسني عبدالوهاب في كتابه : شهيرات التونسيات) .

(١) عثمان الكعاك ، المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ، ص ٣٦ .

(٢) ترجمته موجوده عند المالكي : نفسه ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، مع الحاشية رقم ٢، ص٢٠٤ - عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٣) ترجمته عند : المالكي : نفسه حاشية رقم ٢، ص ٢٠٤ - عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٩٠ .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٢ .

(٥) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ، ص ١٣٧ .

(٦) حسن سليمان محمود : نفس المرجع أعلاه والصفحة - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٥ - ٢٣٦ صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

ومن فقهــاء طرابـلس المذكورين : عبدالجبار بن خالد السرتي (١) (ت - ٢٨١ هـ) وهو أحد تلامذة الإمام سحنون بن سعيد المعدودين - ومنهم : ابراهيم بن محمد الغافقي (٢) قاضي طرابلس (ت : ٢٥٣هـ) وغيرهم .

ومن فقهاء مدينة قفصة بإقليم الجريد : حمد يس بن ابراهيم بن أبي صخر اللخمي (٣) (ت : ٢٩٩هـ) أي بعد قيام الدولة الفاطمية بثلاث سنوات وكان علماً من أعلام المدرسة السحنوية في قفصة وألف كتاباً في اختصار المدون ، وبعمله هذا يعد أول من اختصر المدونة من فقهاء المغرب الأدنى . (٤)

أما وقد أتينا على توضيح حالة الفقة المالكي في العصر الأغلبي فإن الحاجة ماسة هنا إلي توضيح حالة الفقه الحنفي والإباضي خلال هذا العصر .

أما الفقه والدراسات الفقهية الحنفية ، فقد مربنا خلال حديثنا عن الفقه في العصر الأغلبي ، أنها كانت موجودة على كل حال ، بيد أننا لانعدم أن نلاحظ في هذا العصر الذي نؤرِّخ له وهو العصر الأغلبي كما ذكرنا أن معرفتنا قد ازدادت توسعاً عن طريق معرفتنا لشخصيات حنفية عديدة .

---

(١) عياض : نفسه ج٢ ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢ - ٢٦٢ أحمد مختار عمر، نفسه ، ص ١٣٦.

(٢) صالح مفتاح : نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٥٩ - مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة ، وعلمائها ص ١١٧ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٢٥٩ .

والواقع أنه كان لتشجيع أمراء الأغالبة الذين يتمذهبون بالمذهب الحنفي أثر في ظهورهم (١) واشتداد سواعدهم ، على أننا مع ذلك لم نحظ ، أمام أغفال مؤرخي التراجم وطبقات الفقهاء والمحدثين بالإشارة إلى أعدادهم ومجهوداتهم بالتحديد ، فالنزر اليسير للعلماء الذين أورد ذكرهم المؤرخون الذين ترجموا لعلماء وفقهاء إفريقية ، لايوضح حقيقة النشاط الفقهي الحنفي ، كما أنه من الإيجاز وعدم الوضوح بحيث لايسمح بتوضيح الصورة بالقدر المطلوب .

ومهما يكن ، فإن كثيراً من المؤرخين القدامى يعدون أسد بن الفرات إماماً للعراقيين (٢) ، يمعنى أنه حنفى المذهب ، وخاصة بعد أن انصرف الناس عن كتابه الأسدية إلى مدونة سحنون كما مربنا . غير أن عبدالعزيز المجذوب يؤكد – وهو رأي وجيه نتفق معه فيه – أن أسداً لم يكن حنفياً ، بل هو مالكي المذهب، على بعض اتجاهاته واستقلالاته عن المذهب المالكي (٣). ولقد مضى عبدالعزيز المجذوب يسوق الأدلة على أن أسداً لم يكن حنفياً ، ولكن فاته أنه يدعم وجهة نظره بأن يشير إلى أن موقف أسد من المذهبين المالكي والحنفي يشبه إلى حد كبير موقف عبدالله بن فروخ ، فعبدالله بن فروخ كان مالكياً مافي ذلك شك ، بيد أنه له اتجاهاته الاستقلالية بعض

---

(١) أنظر في هذا الصدد حسين مؤنس ، مقدمة الرياض ، ص ٢١٥ – حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، ص ١١٦ – ١٧٠ – عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٦١ – ٨٧ السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص١١٧ – ١٢٦ .

(٢) أنظر عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٥٢ –٥٤ ، ٥٦ .

(٣) نفسه ، ص ٥٢ – ٥٣ ، ٥٤ – ٥٦

الأحيان عن المذهب المالكي كما عرفنا .

وعلى أيه حال ، فإن افريقية عرفت خلال العصر الأغلبي ، فقهاء أحناف ، نذكر منهم : عباس الفارسي ، وهو أحد الغلاة في مذهبه ، وبلغ به تعصبه لمذهبه ، أن أحرق (كتب المدونة وغيرها من كتب المدنيين) ممَّا حدا بأسد بن الفرات إلى ضربه والتشهير به (١) ، ثم معمر بن منصور ، وقد كان له موقف فيما يقال في إثناء أسد بن الفرات عن الإنصياع لرأي ابن القاسم عندما طلب منه أن يعرض كتبه على كتب سحنون ، وهو كذلك أحد تلاميذ أسد المشهورين (٢) ، ومن فقهاء الأحناف المشهورين آنذاك (سليمان بن عمران (٣) (ت : ٢٧٠ هـ) وهو من طلبة أسد أيضا ، وكذلك منهم القاضي ابن أبي الجواد (٤) ، وعبدالله بن الأشج (٥) ، وابن أبي المنهال (٦) ، وابن عبدون (٧) وكلهم تولوا القضاء في العصر الأغلبي ، ثم (يحيى بن محمد بن قادم وهو من أعيان علماء الأحناف آنذاك ويذكر أنه هو وأهل بيته : بنو قادم كانوا مشهورين بالعلم والفقه على مذهب ابي حنيفة النعمان) (٨)

---

(١) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٧٣ .

(٢) المالكي : نفسه ، ج١ ، حاشية رقم ٢ ، ص ٤٤٩ - ٥٠٠ .

(٣) الخشني : نفسه ، ص ١٨٠ -١٨٣ .

(٤) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٦٠١- ٦٠٢، ٦٠٥ .

(٥) الخشني : نفسه ، ص ١٩٣ .

(٦) الخشني : نفسه ، ١٩١ .

(٧) الخشني : نفسه ، ص ١٨٧ - ١٨٩ .

(٨) الخشني : نفسه ، ص ١٩٧ ، حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، حاشية رقم ٢، ص ٣٦٤ .

أما فيما يخص فقهاء المذهب الشافعي - وقد ذكرنا من قبل أن إفريقية عرفت بعضاً منهم (١) ، فقد أسعفتنا بعض المصادر والمراجع بذكر بعضهم ، فمن هؤلاء الذين عاشوا في العصر الأغلبي : أبو عبدالله محمد ابن علي البجلي (٢) . ولايعرف شيء لسؤ الحظ عن تاريخ ولادته ووفاته ، غير أنه عاش في العصر الأغلبي وعرض عليه أبو العباس عبدالله بن ابراهيم بن الأغلب (١٩٦ - ٢٠١ هـ) القضاء فامتنع . وقد كانت له رحلة إلى المشرق قابل خلالها تلاميذ الإمام الشافعي، ومن مؤلفاته الفقهيه : كتاب الرد على الشكوكية وكتاب الحجة في الشاهد واليمين في أربعة أجزاء (٣) ، ومنهم كذلك ابن العباداني (٤) وكان معاصراً لمحمد بن سحنون وعبدالله بن طالب القاضي ومنهم ابن المشاط (٥) الذي مال إلى مذاهب عدة ومنها المذهب الشافعي ومنهم أيضاً عبدالملك (٦) بن محمد أو محمود الضبي ، وكان له صولة في المناظرة والجدل عن مذهبه بالإضافة إلي فقهه وهو من أصحاب أبي عبدالله محمد بن علي البجلي .

وفيما يختص بدراسات الفقه الإباضي في العصر الأغلبي في إقليم

---

(١) أنظر قبل ٣٠٥ ومابعدها .

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ،ص ٦٩ - عبدالعزيز المجذوب ، نفسه ، ص ٨٨ .

(٣) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٧٠ .

(٤) عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٨٨ .

(٥) عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٨٨ .

(٦) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٧٠١ (وعنده أن اسمه هو محمد) عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٨٩ وعنده اسمه محمود .

الجريد وجبل نفوسة بطرابلس فقد توسعت بالطبع ، وبدأت تظهر في إقليم الجريد قواعد فقهية إباضية (١) كاملة ومن بين المؤلفات الفقهية التي ظهرت هناك آنذاك : مسند الربيع (٢) . وهو أحد فقهاء الإباضية المعروفين بالجريد وقتذاك ومدونة أبي غانم بشر بن غانم (٣) الخراساني الأصل ، وهي وإن لم تكن نتاجاً محلياً إلاَّ أنها أحدثت في الجريد دون شك أثراً علمياً . ومن بين الفقهاء الإباضية الذين عاشوا في الجريد في العصر الأغلبي ، يطالعنا اسم أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم (٤) السدراتي المعروف بالمطرفي ، الذي ألف كتاباً عرف بكتاب العدل والإنصاف ، وأبو الربيع سليمان بن يخلف (٥) ، وقد دون في الفقه ديوانين ، وابن سلام (٦) بن عمر وكان فقيهاً ومؤرخاً أيضاً ، وقد ذكر أنه سكن مدينة توزر وكتب فيها تآليفه بعد سنة ٢٦٠ هـ . (٧)

وفي جبل نفوسة تطالعنا بعض أسماء لامعه في الفقه الإباضي منهم نفاث بن نصر النفوسي الذي كانت له اجتهادات فقهية مشهورة على مذهبه، وقد رحل إلى المشرق للسماع من شيوخ

---

(١) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٤ .

(٢) صالحباجيه نفسه .

(٣) صالح باجيه : نفسه ،ص ٥٤ .

(٤) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٥ ، (ويدعوه هنا بأبي يوسف بن ابراهيم) ص ١٦٨ - ١٦٩ مع الحواشي (ويدعوه بأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي المعروف بالمطرفي) .

(٥) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٥١ .

(٦) صالح باجيه : نفسه ، ص ٢٠٦ .

(٧) صالح باجيه : نفسه ، ص ٢٠٦ .

المذهب الإباضي (١) وأبو عبيده الجناوني (٢) وكذلك مهدي النفوسي ، ثم عمروس بن فتح النفوسي (٣) (ت : ٢٨٣هـ) وكان فقيها مبرزا له عدة مؤلفات فقهية ، منها الكتاب المعروف بالعمروسي ، وممّا ينسب إليه أنه باشر وضع موسوعة علمية فقهية مستمدة أحكامها من مصادر التشريع الإسلامي الأربعة . (٤) وأخيراً هناك أبو الفضيل العباس بن محمد الصواف الغدامسي (ت : ٣٠٩هـ) وهو وإن توفى بعد سقوط الدولة الأغلبية ، إلاّ أنه عاش ستة وتسعين عاماً ، عاش منها في العصر الأغلبي ثلاثة وثمانين عاماً (٥) ومنهم مجموعة ذكر على يحيى معمر اسماءهم . ولكنه لم يورد شيئاً آخر أكثر من ذلك (٦) .

---

(١) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٤ – ١٣٥ – علي يحيى معمر : الأباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، ص ٢٦٤ – ٢٧١ .

(٢) أحمد مختار عمر ، نفسه ، ص ١٣٨– ١٣٩ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ،ص ١٣٩ .

(٥) صالح مفتاح : المرجع السابق ،ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

(٦) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ص ١٣٢ ومابعدها .

الفقة في عصر الفاطميين (٢٩٦ - ٣٦٢هـ) :-

مثلما كان انتصاب الدولة الأغلبية في إفريقية مؤذناً بتحول سياسي واجتماعي وعلمي وثقافي فقد كان قيام الدولة الفاطمية هنا كذلك . بل إن العلوم والآداب – وهي ماتهمنا قد تطورت وتقدمت أوجهها تقدماً كبيراً أكثر من ذي قبل .

وفي الحقيقة فقد اقترن قيام الدولة الفاطمية بتغير جذري في الأوضاع السياسية والمذهبية ، ورابح بونار في كتابه (١) المذكور سابقاً على حق فيما ذهب إليه من أن عصر الدولة الفاطمية يصح أن يكون فارقاً جذرياً بين عصر ثقافي وآخر ، ذلك لأن المغرب على أيدى الفاطميين – وإن كان قد تحقق له وحدة شبه تامة – ، فإنه في ظل هذه الوحدة تحقق للمغرب استقرار نسبي آثر من غيرشك على الحياة العلمية هناك في هذه الفترة . (٢)

غير أن ازدهار العلوم والمعارف في عهد الفاطميين قد صاحبه تحول في المفهوم المعتقدي ، فغدت الحياة الفكرية والعلمية في عهدهم تهدف إلى (إشاعة تيارات فكرية مختلفة كالدعوة إلي التشيع وتثبيت فكرة المهدوية في النفوس ، ونصرة التعاليم الفلسفية المشوبة بضروب السحر لخدمة ذلك وتسخير الشعر والأدب لهذه الغاية ، كما أن الحكومة عملت على تنظيم الدعايات الدينية والسياسية تنظيماً دقيقاً وإحداث مناصب مهمة كداعي

---

(١) المغرب العربي ، تاريخ وثقافته ، ص ٦٩ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط ، المرجع السابق ص ١١٣ .

الدعاة وأعوانه ، وتعزيز ذلك ببيت الحكمه ، ومحاولة القضاء على المذهب السني لإحلال المذهب الشيعي الإسماعيلي محله ودراسة تفاريق النحل وغيرها) (١) .

ولقد ترتب على هذا التعسف المذهبي من قبل الفاطميين ثورة المالكية وتصديهم للمقاومة فيما يرونه زيفاً وانحرافاً بكل ما أوتوا ، وإذا كنا سنرسم من بعد أبعاد ذلك الصراع وانعكاسات تلك المقاومة ، فإن مايمكن ملاحظته ممَّا نعكس على الدراسات الفقهية من جراء مواقف الفاطميين واتساع دائرة البحوث الفقهية المالكية ، ونشاط المناظرات وأغلبها عقدي بين علماء الشيعة والسنة ، كما ظهرت مؤلفات شيعية عقدية في الأغلب وفقهية في الأقل القليل .

على أن الدراسات الفقهية المالكية ما فقدت زخمها وزعامتها لكل قنوات العلوم والمعارف في هذا العصر ، فقد شهدت الدراسات الفقهية آنذاك توسعاً في الكم والكيف .وعلى أية حال ، فإذا مضينا نتتبع مسيرة الفقه والدراسات الفقهية خلال العصر الفاطمي ، فإننا لن نفاجأ إذا عرفنا أن زعامة الفقه ما انفكت معقودة اللواء لتلاميذ سحنون ، بل وتلامذة تلامذته والواقع أن هذا القول ، هو أحد الحقائق الرئيسية في مسيرة الدراسات الشرعية عموماً في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة، فالشيخ والأستاذ هو سحنون ، ولاشيخ أو أستاذ غيره . وكل من جاء بعده ، فهو تبع له .

---

(١) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

ومن فقهاء المالكية المبكرين في هذا العصر الذين عاصروا في السنوات الأخيرة من عمرهم الفاطميين حماس بن مروان بن سماك الهمداني (١) القاضي (ت ٣٠٣هـ) ، وقد ذكر أنه كان عالماً مبرزاً في فقهه ، حتى قيل إن الفقه كان أكبر شأنه (٢) ومنهم محمد بن بسطام (٣) ابن رجا الضبي (ت : ٣٠٣هـ)، وهو عراقي الأصل إفريقي المستوطن . وقد أحدث نهضة علمية فقهية في إفيريقية، ومِمَّا يؤثر عنه أنه أدخل إلى إفريقية، كثيراً من المؤلفات لكبار علماء المالكية المشارقة ، لم تكن قد دخلت البلاد من قبل (٤) . ومنهم أبو جعفر أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي القيرواني (٥) (ت : ٣١٩هـ)، وقد تلقى علومه الدينية على يدي كبار تلامذة سحنون من أمثال ابن عبدوس ، وعيسى بن مسكين وغيرهما ، ومن مؤلفاته الفقهية : أحكام القرآن في عشرة أجزاء وكتاب مواقيت الصلاة وغير ذلك (٦) ومن الفقهاء المشهورين بإفريقية وقتذاك ، أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف باللباد (٧)، (ت: ٣٣٣هـ) ، وكان ذا جلالة

(١) ترجمته وردت عند كل من الخشني : نفسه ، ص ٢٠٧ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص٣٢٠– ٣٣٠ ، ابن فرحون نفسه ، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٢) الخشني : نفسه ، ص ٢٠٧ – الدباغ : نفسه ، ج٢، ص ٣٢٠ .

(٣) ترجمته وردت عند كل من الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٤ – حسن حسني عبدالوهاب الورقات ، القسم الثاني ، ص ١٤٢ – ١٤٣ وغير ذلك .

(٤) الحجوى الفاسي : نفس المرجع السابق ، والجزء أعلاه ص ١٠٤ .

(٥) ترجمته موجودة عند : محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ،ص ٨١ – ٨٢ .

(٦) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨١ .

(٧) عياض : نفسه ، الجزء الثاني ، ص٣٠٤ – ٣١٠ ، ابن فرحون : نفسه ، ص ٢٤٩ – محمد بن +

في الفقة والتفسير ، وهو ممَّن وقت وقفه شديدة ضد الفاطميين كما سنعرف بعد . وكان من فقهاء إفريقية المكثرين تأليفاً، وله عدة مؤلفات فقهية منها : كتاب الطهارة ، وكتاب الآثار والفوائد في عشرة أجزاء (١)، وكتاب كشف الرواق عن الصروف الجامعة للأوراق في أوزان الصرف الشرعية والأواقي (٢) ، وغير ذلك . وأبو الفضل العباس بن عيسى الممسي (٣) (ت : ٣٣٣هـ) كان عالما مشهوراً في أكثر من فن وهو أحد الذين قتلوا على يد الفاطميين كما سنعرف (٤) . وله مؤلفات فقهيه منها : (كتاب تحريم المسكر وكتاب قبول الأعمال ، وكتاب : اختصار كتاب محمد بن المواز (٥) . ومن أولئك الفقهاء المبرزين كذلك ، أبو سليمان ربيع بن عطاء الله المعروف بالقطان (٦) (ت: ٣٣٣هـ) وهو من أشهر علماء وعباد وزهاد إفريقية آنذاك، وكان بالإضافة إلى ذلك عالماً بالفقه والحديث والقرآءات (٧) ، غير أنه كان مقلا في التأليف، ولم نجد ذكراً لأي مؤلفات له ، وهو كذلك ضحية من ضحايا الموقعة (٨) ضد الفاطميين عام ٣٣٣هـ ، ومنهم أبو العرب محمد بن

= محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ – الكناني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٢٠٥ – ص ١٤٦ .

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٤ – الكناني القيرواني : نفسه ، نفس التعليق والصفحه أعلاه .

(٢) الكناني القيرواني : نفسه .

(٣) ترجمته مفصله ومتسعه عند عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٣ – ٣٢٠ .

(٤) أنظر بعد

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٦) له ترجمه موسعة عند عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢٣ – ٣٣٢ .

(٧) عياض : نفسه ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٨) أنظر بعد ص ٥٥٠ – ٥٥١ .

أحـــمــد بن تميم بن تمام بن تميم التــمـيــمي (١) (ت : ٣٣٣ هـ) ، وهو أحدفقهاء هذا العصر المشهورين وله مشاركات كذلك في أكثر من فن ، وإن كان الحديث هو الغالب عليه كما يقــول عيــاض (٢) ، وهــو من المشهورين بغزارة التـأليف، فذكــر أنه له ٣٥٠٠ كتـــاباً (٣) حســـب مـفـهوم الأولين لمعنى الكتاب بالطبع (٤) - مع مافـيه من مبـالغة شـديدة - ومن مؤلفـاته الفقهية كتاب الوضوء والطهارة ، وكتاب الجنائز وذكر الموت وعذاب القبر ، وكتاب في الصــلاة وغير ذلك (٥) . وهــو كذلك أحد الذين قتلوا في الموقعة ضد الشيعة (٦) . ومن فقهاء العصر المشهورين عبدالله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي (٧) ، المعروف بابن الحجاج أو الحجام (ت : ٣٤٦هـ) وهو ممَّن سمع من كبار أصحاب سحنون بن سعيد ، وممَّن رحل إلى المشرق

---

(١) له ترجمة موسعة عند عياض : نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٦ - ابن بشكوال ك الصلة ص ٨٣- ٨٤- الصفدي : الوافي بالوفيات ، الجزء الثاني ، ص ٣٩ - الذهبي تذكرة الحفاظ ، الجزء الثالث ، ص ٨٨٩ - ٨٩٠ - السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣٦٣- ٣٩٧ - الكتاني القيرواني : تعليق رقم ٥ ، ص ٤ .

(٢) المدارك ، ج٢ ، ص ٣٣٥ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٣٤ - ابن العمادالحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المجلد الثاني ، ص ٣٣٤ .

(٤) أنظر قبل ص٢٧٩ ، (وحيث وضحنا مفهوم الكتاب في عرف المؤرخين القدامى) .

(٥) عياض نفسه ، ص ٣٣٥ .

(٦) أنظر بعد ٥٥٠ - ومابعدها .

(٧) ترجمته موجوده عند : عياض نفسه ، ص٣٤٠ - ٤٤٣ (عنده أنه ابن الحجاج) - ابن فرحون المصـدر السـابق ، ص١٣٥ - ١٣٦ (وعـنده أن اسمـه هو عبدالله بن أبي هشام بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام .

وقابل عدداً من الشيوخ حسبما أشرنا من قبل . وكان واسع التأليف والتصنيف وقد ذكر أنه ترك مامجموعة سبعة قناطير كتب بخطه (١) ، وذكر ابن فرحون أنها تسعة وليست سبعة وسمى منها كتاباً واحداً وهو كتاب المواقيت ومعرفة النجوم والأزمان (٢) ومن فقهاء المالكية أيضاً أبو العباس عبدالله بن أحمد بن ابراهيم بن اسحاق المعروف بالأبياني (٣) (ت : ٣٥٢هـ) ، الذي تفقه على يد طلبة سحنون أيضاً ، وقيل إنه مع حفظه لمذهب مالك إلاَّ أنه كان ذا ميل لمذهب الشافعي (٤) ، وهو ممَّن له رحلة مشهورة كما قد عرفنا (٥) . وممَّا يؤثر عنه ميله إلى القاء المسائل الفقهية ومدارستها (٦) . وقد ذكر أنه كان يفصل المسائل كتفصيل الجزار الحاذق اللحم (٧) . ونذكر أبا القاسم بن زياد بن يونس (٨) (ت٣٦١هـ) وهو أحد علماء وفقهاء هذا العصر المشهورين . ويذكر أنه أول من أدخل كتاب محمد ابن المواز إلى إفريقية (٩) .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٤١ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٥ .

(٣) ترجم له عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤٧ – ٣٥٢ . ترجمة موسعة بعض الشئ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٤٧ .

(٥) أنظر قبل ١٢٨ وماقبلها .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٣٤٨ .

(٧) عياض : نفسه ، ص ٣٤٨ .

(٨) الدباغ : نفسه ، ص ٧٩ .

(٩) ابن المواز : هو أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الاسكندراني : كان من علماء وفقهاء المالكية في مصر المشهورين وقد أخذ عن كبار علماء عصره من المالكية ، وهو ممَّن أثر في المغاربة بمؤلفاته ومن بينها كتاب : الموازية الذي أدخله زياد بن يونس إلى إفريقية كما قلنا في المتن ، وهو من =

ومن فـهـاء بقية أقاليم ومدن إفريقية في عصـر الفاطميين نجد عدداً لابأس به ، وإن لم تكن تراجمـهم مسهبة كي نستطيع تفهم عطائهم العلمي أكثـر فـأكثـر، وأغلبهم بالإضـافة إلي أنه فـقـهاء كانوا مـحـدثين وأهل مناظرة وجدل . فمن الفقـهاد المبكرين في إقليم طرابلس : أبو العباس اسحـاق بن ابراهيم الأزدي الصايغ المعروف بابن بطريقة (١) (ت : ٣٠٣ أو ٣٠٥ هـ) وهو من فـقـهـاء طرابلس الثـقات المأمـونين . ومن فـقـهـاء طرابلس كـذلك أبو الأسـود موسى بن عبـدالرحمن بن حـبيب القطان (٢) ، (ت ٣٠٦هـ) ، وهـو من الثقـات في مذهـب مـالك وكـان يحسـن الكـلام في الفقـه على مذهـبه ، وله كتاب احكام القرآن في أثني عشر جزءاً (٣) ، ومن علمـاء مدينة تونس ، أبو جـعفـر أحـمـد بن مـوسـى التمـار (٤) (ت : ٢٢٩هـ) وأبـو البـشـر مـحـمـد بن أحـمـد بن يونس السـوسـي (٥)(ت : ٣٣٢هـ) وهـو من فـقـهـاء هذه المدينة المعروفين آنذاك . ومن علمـاء وفـقـهاء مـدينة باجة أبو عبـدالله بن مـحـمـد بن غلبـون الصنهاجي المعروف بالوقاد (٦) (ت: ٣٢٩هـ) وكـان الفقـه والمناظرة

= أجل كتب المالكية وأصحها وأعبها وأبسطها ، وتوفى ابن المواز سنة ٢٦٩ هـ ،.أنظر ، الحجوي الفاسي : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠١ .

(١) الدباغ : نفسه ، ص ٣٣٠- ٣٣١ .

(٢) ابن فرحون : نفسه ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص١٣٨ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه .

(٤) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٣٣٨ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٣٤٦ .

وجـودة الـعـزيمة أغلب عليـه من الـحـفظ (١) ومن مـدينة قـفـصـة يـوسـف بن عبدالله القفصي التميمي (٢) (ت ٣٣٦هـ) أما علماء مدينة سوسة فقد عرف آنذاك منهم أبو على الحسن (٣) بن نصر السوسي (ت : ٣٤١هـ) وكذلك عبدالله بن حمود السلمي السوسي المعروف بابن (٤) الحفنه (ت : ٣٥٧هـ)

وفيما يتعلق بالفقه والفقهاء الأحناف ، فقد كان لهم دور مؤثر في إفريقية خلال حكم الفاطميين ، ولقد استعان بهم هؤلاء في تولى مناصب القضاء في دولتهم نكاية في المالكيين . (٥) غير أن النشاطات العلمية لهم وخاصة الفقهية لانعرف للأسف شيئاً عنها . ولعل أقصى مانعرفه من الفقهاء – وقد أغفل مؤرخو التراجم عمدا ذكرهم – ، هو عدة أسماء ماكان ليمكن أن نعرفها لولا أن ذكرها أولئك المؤرخون عرضاً في حديثهم عن المضايقات التي واجهها بعض المالكية من الفاطميين وأتباعهم .

وعلى أيه حال فقد عرف عدد من أولئك الفقهاء الأحناف ، نذكر منهم محمداً بن الكلاعي (كان معاصراً للخليفة عبيدالله المهدي) ، وقد ألف كتاباً يرد فيه على من لايقول بخلق القرآن (٦) ولقد كان له موقف ضد بعض علماء المالكية ، وسعى بهم عند عبيدالله المهدي الذي قضى عليهم كما

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٤٦ .
(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٥٦ .
(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٦٣ – ٣٦٦ .
(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٧٥ – ٣٨٦ . .
(٥) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٨٩ ، ومابعدها .
(٦) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٦٣ – ٢٩١ .

سنعرف في مكانه بعد . ومن أولئك العلماء محمد بن سيرين (كان معاصراً كذلك (١) لعبيدالله المهدي) وجعفر بن أحمد بن وهب (٢) ، ومنهم كذلك أبو اسحاق بن المنهال (٣). وقد تولى القضاء في عهدهم ، وأحمد بن بحر (٤) ، ومحمد بن عمران النفطي (٥) الحنفي ، والقاضي المروذي (٦) وغيرهم .

وفيما يختص بالفقهاء الشافعية ، فلقد ندر وجودهم في هذا العصر، ولانعرف عن أسمائهم فضلاً عن نشاطاتهم إلا نزراً يسيراً جداً من المعلومات، ومن الذين نص على ذكرهم : أبو العباس (٧) بن السندي ، وقد تعرض لمحنة في أول دخول الفاطميين على يد داعيتهم أبي عبدالله ، ومنهم أبو ابراهيم اسحاق بن النعمان (٨) ، وهو وإن لم يذكر أنه عاصر الفاطميين صراحة ، إلاَّ أنه تلقى بعض علومه على يد يحيى بن عمر المتوفي (٢٨٩هـ) تلميذ سحنون ، ومن هنا جاز أن نعده من رجال العصر الفاطمي (٩) .

ولقد ذكر الخشني أن مذهبه مذهب الشافعي وكان من قبل مالكياً

---

(٦) السيد محمد أبو العزم داود ، نفسه ٢٨٩ .

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٣) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ،ص ٢٩٠ .

(٤) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٥) السيد محمد أبو العزم : نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٦) السيد محمد أبو العزم : نفسه ، ص ٢٦٣ ، ٢٩١ .

(٧) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ،ص ٧٠ .

(٨) الخشني : نفسه ، ص ٢١٤ .

(٩) أنظر الخشني : نفسه .

ومتشدداً (١) . أما ماذكر عن أبي عثمان سعيد بن الحداد ، من أنه كان شافعياً فمسألة لم تثبت بالدليل القاطع ويكفى أنه ألف كتاباً انتقد فيه الشافعي . ولم يستطع اتباعه من المصريين الرد عليه (٢) .

وفيما يختص بالفقه والدراسات الفقهية الإباضية سواء في الجريد أو في جبل نفوسة في العصر الفاطمي فيبدو أنها كانت أفضل حظاً في الإشارة إليها على ضآلتها - من الدراسات الحنفية ، ومن أهم الأسماء التي ورد ذكرها عن علماء الجريد ، أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي ، وكان عالماً إباضياً لامعاً وامتدحه الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣) . وكانت له آراء تربوية جيدة كذلك في نقد بعض سلوكيات مجتمعه الإباضي هناك (٤). ومنهم أبو خزر يعلا بن أيوب ، وأبو نوح سعيد بن زنفيل (٥) .

ومن علماء وفقهاء الإباضية بالجريد وقتذاك العلامة يخلف بن يخلف النفوسي (٦) التمجاري وأبو الحسن علي بن يخلف (٧) ، وأبو القاسم يزيد بن محمد الوسياني ، وكان له مكانة عالية عند الخليفة المعز لدين الله

---

(١) نفسه ، ص ٢١٤ .

(٢) أنظر بعد ٥٤٧ ومابعدها .

(٣) صالح باجيه : نفسه ، ص ١٩٨ .

(٤) صالح باجية : نفسه ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ (وعنده أن اسمه هو أبو نوح سعيد بن زنغيل) - علي يحيى معمر : الإباضية في الجزائر ، ص ١٦٣ .

(٥) علي يحيى معمر : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٦٣ - ١٧٤ .

(٦) صالح باجية : نفسه ، ص ٢٠١ .

(٧) صالح باجية : نفسه .

الفاطمي (١) .

أما علماء وفقهاء الإباضية في جبل نفوسه آنذاك فقد عرف منهم أبو يحيى سليمان بن ماطوس (٢) ، وأبو هارون موسى بن يونس الجلاطي (٣) وأبو نصر زار بن يونس التيفسني (٤) ، وورا سفلان بن مهدي وكان أحد المهتمين بالمسائل الفقهية (٥) .

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهية الشيعية المحضة علينا أن نشير في أسف إلى أننا لم نعثر على معلومات شافية عن مسيرتها خلال العصر الفاطمي الذي امتد في إفريقية إلى أكثر من نصف قرن ، ولعل من البدهي الاَّ ننتظر من مؤرخي الطبقات والتراجم المغربية وكلهم مالكي المذهب أن يشرحوا لنا أبعاد تلك الدراسات ، وهم الذين غضوا الطرف عمَّن يشاركوهم مذاهبهم الفقهية السنية أعني الأحناف والشافعية وعندما تصدى المؤرخون المتأخرون من المصريين كالمقريزي وابن تغرى بردى وغيرهما ، ثم من تبعهم من المحدثين للتاريخ للدولة الفاطمية لم يعنوا كثيراً بالحديث عن الدور الحضاري المغربي من تاريخ الدولة الفاطمية وهو لايتناسب البتة مع الدور المصري مع أننا لاننسى الفارق الزمني بين الدورين بالطبع ، ولذلك فإن معلوماتنا عن الدراسات العلمية الشيعية ومنها الفقهية جد ضئيلة وليس

---

(١) صالح باجيه : نفسه ، ص ١٢٦ – ١٢٨ .

(٢) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٢٤ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٤ .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٢٥ – ١٢٦ .

(٥) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٢٤ .

أمامنا من معلومات عن الفقه الشيعي إلاّ ماورد في ترجمة أشهر شخصية (تشريعية) شيعية في بلاد المغرب ، بل وفي كل دور الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلي هذه الشخصية : - هي شخصية القاضي النعمان بن حيون ، والقاضي النعمان بن حيون هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبدالله محمد بن أحمد بن حيون التميمي المغربي (١) (ت : ٣٦٣هـ) . ولقد كان النعمان في بداية أمره مالكي المذهب ، إلاّ أنه انتحل بعد ذلك المذهب الإسماعيلي فأخلص له حتى أصبح دعامة من دعاماته (٢) . ولقد عاصر النعمان بن حيون كل خلفاء الفاطميين في المغرب : المهدي والقائم ، والمنصور والمعز ، وكان طيلة التصاقه بهم سنداً قوياً رئيسياً لهم، ولقد ولوه القضاء في بداية، أمره وخاصة في عهدي القائم والمنصور ثم رئاسة القضاء بعد ذلك في عهد المعز لدين الله (٣) . ولقد بلغ النعمان من المكانة والنفوذ في الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر بلوغاً لم يصل إلى مثيله إلاّ قلائل جداً من رجالات الدولة . ولذلك فلقد كان يعرف عند الإسماعيلية بسيدنا القاضي النعمان للتفريق بينه وبين الإمام أبي حنيفة كما كان يسمى باسم سيدنا الأوحد ، وأحيانا القاضي الأجل ، وعرف كذلك بأبي حنيفة الشيعة (٤) وقد وصل إلى مرتبة الحجة المعلومة المعروفة عند الشيعة كما يظن

---

(١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٥٨ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع أعلاه والصفحه .

(٣) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٨

(٤) حسن ابراهيم حسن : نفسة

حسن ابراهيم حسن (١) . كما أطلق عليه الداعية أيضاً . وقد وصفه بعض المؤرخين كابن خلكان (٢) بأنه (كان عالماً بوجوه الفقه وعلم آختلاف الفقهاء) إلى غير ذلك من العلوم والفنون . ولقد انفتح له باب عريض في التأليف في شتى الموضوعات وقيل بلغ عددها بضعة وأربعين كتاباً (٣) .

ونحن هنا لن نتحدث إلاَّ عن مؤلفاته الفقهية فقط مؤجِّلين الحديث عن بقيه كتبه في مكانها بعد إن شاء الله . ولعل أهم كتاب فقهي له ، بل للشيعة الإسماعيلية على الإطلاق ، هو كتاب : دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام (٤) وكتاب دعائم الإسلام هذا أهم كتاب فقهي إسماعيلي كما ذكرنا ، وهو في مجلدين – وقد طبع – ويشتمل على سبعمائة صفحه ، وقد ألَّفه بطلب من الخليفة المعز لدين الله . ولقد ذهب النعمان نفسه إلى القول بأن المعز هو (الذي أصل أصوله وفرع فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله ﷺ) (٥) ويقول حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (٦) بأن كتاب دعائم الإسلام مازال أهم مرجع للإسماعيلية في اليمن والهند عند طائفة البهرة ، كما كان طوال عهد الدولة الفاطمية سواء في المغرب أوفي مصر مرجعاً للإسماعيلية

---

(١) حسن ابراهيم : نفسه

(٢) وفيات الأعيان ، الجزء الخامس ، ص ٢١٥ .

(٣) حسن ابراهيم : نفسه ، ص ٢٥٨ .

(٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٥) حسن ابراهيم حسن : نفسه .

(٦) المعز لدين الله ، ص ٢٥٩ .

في أحكامهم بتشجيع من الخلفاء الفاطميين أنفسهم (١) ومن مؤلفاته الفقهية كذلك كتاب الطهارة ، وكتاب الإيضاح وهو طويل بلغ عدد كراساته أزيد من مائتين وعشرين كراسة ، ثم مختصره ، أي مختصر الإيضاح وكتاب كيفية الصلاة وكتاب منهاج الفرائض (٢) وكتاب الاقتصار ويشتمل على مسائل فقهية مستمدة من أئمة آل البيت (٣) وغير ذلك .

ومن الدراسات الفقهية الشيعية التي ظهرت في المغرب الأدنى ، تلك التي ألفها جعفر بن منصور اليمن ، وهو أحد أشهر الدعاة الإسماعيلية وأخطرهم ، وقد وصل إلى رتبة (باب الأبواب) في مصر بعد رحيل الفاطميين إليها (٤) ومن مؤلفاته الفقهية : كتاب تأويل الزكاة . وهو كتاب فقهي معتقدي (٥) ، وله كتاب فقهي آخر ، هو كتاب تأويل الفرائض ، وقد يسمى بكتاب : الفرائض حدود الدين (٦) ، أما كتبه في التأويل التي هي من أهم كتب الإسماعيلية في هذا الشأن فسنعرض لها بعد في مكانها إن شاء الله

ومن الكتب الفقهية الشيعية في المغرب الأدنى ، ذكر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف كتاب : الروضة ، وهو كتاب فيه كثير من الجوانب

---

(١) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٩

(٣) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٦٨ .

(٥) حسن ابراهيم حسن : نفسه .

(٦) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٦٩ .

الفقهية ، وينسب للخليفة المعز لدين الله نفسه ، كما ينسب إليه كتاب المناجاة كذلك (١) وممّا ينسب للمعز لدين الله وابنه العزيز بالله أنهما أمليا كثيراً من المسائل الفقهية على وزيرهما يعقوب بن كلس ، وقد رتبه هذا على أبواب الفقه ، فبلغ حجمه نصف حجم كتاب البخاري (٢) . وهذا يدل دلالة واضحة على أنه كانت بجانب ماذكرنا من دراسات فقهية ، نشاطات فقهية مبعثرة لم تدون .

ويمكننا أن نضيف إلى هذا ، ماظهر من مؤلفات فقهية شيعية في إقليم طرابلس التي حمل لواءها ، أبو جعفر أحمد بن أبي عبدالله محمدد بن خالد بن عبدالرحمن ، وهو وإن توفى سنة ٢٧٦هـ أي بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، إلاَّ أنه عاش مدة طويلة في كنفهم في إقليم طرابلس ، وهو عراقي الأصل إلاَّ أنه قدم المغرب الأدنى صغيراً فنشأ به وعاش حتى توفى ، وله من المؤلفات : تفسير الأحاديث والأحكام ، ثواب القرآن ، اختلاف الحديث وغير ذلك . (٣)

---

(١) حسن ابراهيم حسن : نفسه ،ص ٢٢٥ – ٢٢٦ .

(٢) رابح بونار : نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٣) أحمد مختار عمرو : نفسه ، ص ١٤١ .

الفقه في عصر الزيريين (٣٦٢ - ٤٥٠ هـ) :-

يبدو لأول وهلة للمتتبِّع للدراسات الفقهية في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة أنه ليس ثمة مايجيز فصل الدراسات الفقهية في العصر الزيري وحتى الانفصال السياسي والمذهبي عن الفاطميين على يد المعز بن باديس عن عصر الفاطميين الذي يعتبر العصر الزيري موصولاً به فقهياً وعقائدياً ومذهبياً . لكن المتعمق المحلل لمسيرة الدراسات العلمية وخاصة الشرعية ، والفقه بصفة أخص سيخرج باقتناع مفادة ، ضرورة التفريق في الحديث بين العصريين ، ذلك لأن الخلافة الفاطمية برحيلها عن إفريقية قد أحدثت وضعاً علمياً مغايراً فلم تعد الظروف المذهبية - والفقهية اقتضاءا - تفرض ذلك التوسع في الدراسات الفقهية تأليفاً ومناظرةً كما كان من قبل ذلك لأن فقهاء المالكية في إفريقية في العصر الفاطمي كانوا مجندين لمعالجة كثير من القضايا التعبدية والفقهية الحياتية من المنظور السني ، كصفة بعض الصلوات والصيام ، والأعياد ومواقيتها ، إلى غير ذلك . ومن هنا كانوا ينبرون إلى تأليف مؤلفات فقهية تعالج هذه القضايا ، ولذلك كثرت تلك المصنفات خلال عصر الفاطميين كثرة ظاهرة . بيد أنه عندما رحلت الخلافة الفاطمية إلى مصر ، زال عن كاهل علماء وفقهاء المالكية معالجة هذا الشق من الفقه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه ينبغي ألاَّ ننسى أنه على ولاء الزيريين للفاطميين السياسي والمذهبي إلاَّ أنهم ظهروا بوصفهم حكاماً وطنيين وكان همهم أن يجاروا الروح الوطنيةلدى المغاربة ومن ثم كانت غيرتهم على المذهب الشيعي وتطبيق اتجاهاته الفقهية

وغيرها لاتصل إلى مستوى اهتمامات الخلفاء الفاطميين بذلك أما بعد الانفصال السياسي والمذهبي عن الفاطميين فمن الطبيعي أن يختلف الأمر عن ذي قبل من حيث التوجهات المذهبية والفقهية .

والأمر الثاني أن إفريقية وخاصة في أواخر القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس منه ، قد وصلت من الحافة التي بلغها الفقه في الدولة الإسلامية من تراجع وانكماش في العطاء النوعي ، بل والكمي . على أننا نستدرك فنقول بأن الفترة الممتدة من مغادرة الفاطميين إفريقية إلى قبل إطلالة القرن الخامس الهجري ، كانت مزدهرة ولاينطبق عليها ماقلنا آنفا .

والأمر الثالث أننا في هذا العصر عدمنا الاحتكاكات المذهبية الفقهية التي كانت تحدث في إفريقية بين علماء المالكية والحنفية ، فالمذهب الحنفي أضمحل شأنه في إفريقية قبيل انتصاف القرن الرابع الهجري شيئاً فشيئاً . ولن ندهش إذا ماقلنا بأننا لم نعثر خلال عصر الزيريين على تراجم لعلماء أحناف ، إذ أن كل ما أمكن معرفته عن نشاط للمذهب الحنفي آنذاك لم يتعد الحديث عنهم بصيغة الجمع .

وكيفما كان الأمر ، فإذا مضينا نتتبّع حالة الدراسات الفقهية المالكية في إفريقية خلال هذا العصر ، سنجد أن توسعها وازدهارها كان معقوداً لعدد من العلماء ، الذين عايشوا الدولة الفاطمية لفترات طويلة من عمرهم . غير أن وفياتهم - وهو ماسرنا عليه من منهج تنظيمي بجانب المنهج الموضوعي - كانت في بداية العصر الزيري . ومن هؤلاء الفقهاء أبو محمد

عبدالله بن اسحاق المعروف بابن التبان (١) (ت٣٧١هـ) وكان واحداً من علماء إفريقية المشهورين في القرن الرابع ، وقد ضربت له أكباد الأبل (٢) . وعلى الرغم من دوره في نشر المذهب المالكي ، إلاَّ أنه كان مقلاً في التأليف، إذ لم نجد له أثراً تأليفياً يذكر .

ومنهم محمد بن حارث الخشني (٣) (ت بعد ٣٦٦) (٤) وهو من المبرزين من أبناء إفريقية ، وقد رحل إلى الأندلس (٥) ، فسمع من علمائها، ثم استقر به المقام هناك . ومحمد بن حارث كان واحداً ممَّن نالوا حظاً كبيراً من التأليف ، فقد ألف عشرات الكتب ، نذكر منها في الجانب الفقهي : كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك وكتاب الفتيا ، وكتاب في

---

(١) ترجمته موجوده عند عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٥١٧ - ٥١٨ - ابن فرحون : نفسه ، ص١٣٨ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥١٧ .

(٣) له ترجمة واسعة عند عياض : نفسه ، ص ٥٣١ - ٥٣٢ - ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١١٠ - ١١١ - الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ٨١ - ٨٣ -. الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٣ ، ص ١٠٠١ - ١٠٠٢ - ابن فرحون : نفسه ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٤) أشار مؤرخو ترجمة ابن حارث ماعدا الذهبي إلى أن وفاته كانت ٣٦١هـ - وقيل ٣٦٤ هـ مع أنهم ذكروا جميعا بأن التحق في الأندلس بخدمة الحكم المستنصر إلى أن توفى عام ٣٦٦هـ ، فالمعقول بناءً على ذلك أن تكون وفاة محمد بن حارث بعد عام ٣٦٦هـ ، أو فيها على أقل تقدير ، وهذا ماتنبه له الذهبي فقال : ربما يكون المقصود عام ٣٧١هـ وليس عام ٣٦١ هـ . وهو رأي سليم أيضاً . ولقد فات حسين مؤنس في مقدمته للجزء الأول من الرياض ، ص ٣٥ م ، هذه الحقيقة ، فذكر أن محمداً بن حارث توفي عام ٣٦٤هـ .

(٥) نحن نستبعد أن يكون ابن حارث قد قدم الأندلس : حدثاً وعمره ١١ عاماً - وهو ما يقوله عياض أو ١٢ عاماً ، وهو مايقوله ابن فرحون - ، وهو الذي كان في حلقة أحمد بن نصر (ت : ٣١٩هـ) بالقيروان يتوقد شعلة وذكاد في المناظرة ونعتقد أنه ارتحل إلى الأندلس ، وهو أكبر سنا ممَّا ذكر دون شك .

التخاصر والمغالاة . (١)

وأيضا أبو القاسم أو أبو سعيد وهو الأشهر ، خلف بن أبي القاسم المعروف بالبراذعي (٢) (ت قريباً من ٣٧٢هـ) (٣) والبراذعي من أشهر رجالات القرن الرابع الهجري في إفريقية ، وهو من كبار حفاظ مذهب مالك، ويعد من الذين أوتوا نصيباً طيباً من التأليف والتصنيف ، فله عدة مؤلفات أشهرها كتاب التهذيب في اختصار المدونة ، وقد جاء به على نسق مدونة سحنون في الترتيب ، وخالف فيه اختصار محمد بن أبي زيد لها حسبما سنعرف في ترجمه ابن أبي زيد ، ولقد لقى هذا الكتاب شهرة داخلية وخارجية في بقية المغرب والأندلس ، وحصلت لصاحبه به مكانه علمية (٤) . ويؤكد ابن ناجي مكمّل ومعلق كتاب (٥) المعالم أن قيمة كتاب التهذيب للبراذعي قد ازدادت أهميته في عصره هو ، فقد أصبح المعول عليه في المشرق والمغرب – لعله يقصد شرق وغرب المغرب والأندلس لبعضهما –

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٥٣١ – ابن فرحون : نفسه ، ص ١١١ .

(٢) ترجم له بتوسع كل من عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٧٠٨ –٧٠٩ – الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص١٤٦– ١٥٠ – ابن فرحون : نفسه ، ص ١٧٢ – الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، ج ٢ ، س ٢٠٩ – ٢١٠ – الزركلي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١١ .

(٣) لم يحدد عياض ومن نقل عنه كالدباغ وابن ناجي ، وابن فرحون سنة وفاته ، في حين ذكر الحجوى الفاسي ، نفسه ، ج٢ ، ص ٢٠٩ أنه عثر على أنه فرغ من تأليف كتاب التهذيب عام ٣٧٢هـ هـ . ومن هنا صح هذا التاريخ . أما الزركلي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١١ . فيقول إن وفاته كانت عام ٣٧٢هـ ، وذلك بناءاً على وجود سجل قديم في مكتبة القيروان يدل على ذلك .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٧٠٨ – الدباغ : نفسه ، ص ١٤٦ .

(٥) الجزء الثالث ، ص ١٤٧ .

وكتاب التهذيب حظى باهتمام واسع من علماء المغرب الأدنى والأقصى والأندلس المتأخرين ،فتناوله بعضهم بالشرح والاختصار والتعليق (١) ، وللبراذعي كتب أخرى فقهية منها كتاب : تمهيد وسائل المدونة ، وكتاب اختصار الواضحة (٢) ، وكتاب الشرح والتحامات (٣) وغير ذلك ومّما يذكر أن العلماء المعاصرين له قد وقفوا منه موقفاً عدائياً ممّا أضطره إلى مغادرة المغرب الأدنى ، واللجوء إلي صقلية ، (٤) وأرجع المؤرخون ذلك إلى عدة أسباب ، منها ما ذكر من أن البراذعي كان مؤيداً للفاطميين في إفريقية، حتى أنه ألف كتاباً في (تصحيح نسب بنى عبيد) وقيل السبب في ذلك هو تعاطفهم مع الفقيه محمد بن أبي زيد الذي كان مخاصماً للبراذعي (٥) ، ولقد قاطع الإفريقيون كتب البراذعي ولم يأذنوا بقرآتها ومطالعتها سوى اختصار المدونة لشهرته (٦) .

---

(١) أنظر كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ، ص ٢٩٠ - ٢٩١- ٢٩١ حيث ذكر من قام من الأندلسيين والمغاربة بشرحه واختصاره .

(٢) الواضحه كتاب فقهي من أجل الكتب الفقهية ، التي كان لها شأن عظيم في الأندلس والمغرب ، ومؤلفها هو عبدالملك بن حبيب بن ربيع السلمي (ت ٢٣٨ أو ٢٣٩ هـ) أنظر عياض : نفسه ، ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٧ .

(٣) عن مؤلفات البراذعي ، أنظر عياض : نفسه ، ص ٧٠٨- ٧٠٩ الدباغ : نفسه ، ص ١٤٦ -١٤٧.

(٤) يقول ابن ناجي مكمل ومعلق المعالم ، ج٣ ، ص ١٤٩ ، إن البراذعي ربما قد عاد إلى بلده القيروان وتوفى بها ، وربما ظل في صقلية غير أن الزركلي : نفس ، ج٢ ص ٣١١ ينفرد دون غيره بالقول بأن البراذعي رحل من صقليه إلى أصبهان فكان يدرس فيها الأدب حتى مات ، لكننا نعتقد أنه قد استشكل عليه الأمر فالبراذعي ليس هو الذي ذهب إلى أصبهان ولكنه عالم القرآءات القيرواني :علي بن فضال المجاشعي الذي سنترجم له بعد إن شاء الله .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٧٠٩ ، الدباغ : نفسه ، ص ١٤٨ ، الزركلي : نفسه، ص ٣١١ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٧٠٩ -الدباغ : نفسه ، ص ١٤٨ .

ومن فقهاء هذا العصر أيضاً عبدالرحمن بن محمد بن رشيق (١) (ت : ٣٨٠هـ) (٢) وكان متعدد المواهب ،فهو فقيه ومحدث ومؤرخ ،وله مؤلفات فقهية منها كتاب : المستوعب لزيادات مسائل المبسوط ممّا ليس في المدونة (٣) .

على أن أبرز فقهاء هذا العصر هو أبو محمد عبدالله ابن أبي زيد عبدالرحمن النفزي القيرواني (٤) (ت : ٣٨٦ هـ) ومحمد بن أبي زيد كنا قد وضحنا دوره المؤثر في نشر وتثبيت المذهب المالكي ، وذكرنا من قبل كذلك أنه بلغ من المكانة العلمية ماجعل بعض كتاب الطبقات يطلق عليه مالكاً الصغير أو الأصغر (٥) . وفي الحقيقة فإن مكانته العلمية متفق عليها عند معاصريه وعند المؤرخين قدامى ومحدثين ، ولقد وصفه عدد من مؤرخي الطبقات بأوصاف تدل على سعة علمه وكثرة حفظه ، وروايته ، والرئاسة في

---

(١) ترجمته موجودة عند : الدباغ نفسه ، ص ١٨٦ – ١٨٧ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١١٠ – الزركلي ، نفسه : الجزء الثالث ، ص ٣٢٥ .

(٢) لم يحدد الدباغ سنة وفاته وكل ماذكره هو أن لعبد الرحمن بن رشيق رحلته إلى المشرق حج فيها عام ٣٧٦هـ ، لكن الزركلي في ترجمته له يقول : إنه توفى نحو ٣٨٠هـ.

(٣) الدباغ : نفسه ، ص ١٨٧ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ص ١١٠ – الزركلي : نفسه ،ص ٣٢٥ .

(٤) ترجمته موجودة باستفاضه عند عياض : نفسه ،ص ٤٩٢ – ٤٩٧ الدباغ : نفسه ، ص ١٠٩ – ١٢١ – الكتاني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٢٩ ، ص ٧ ، الرصاع : فهرس الرصاع ، تحقيق وتعليق محمد العناني : برقم ٥ ص٥٨ – ٥٩ – الحجوى الفاسي : نفسه ، ج٢ ، ص ١١٥ – ١١٧ – عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية الجزء الأول ، ص ٢٨ – ٢٩ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ،ص ٢٨٦ – ٢٨٩ .

(٥) أنتظر قبل ص ١٨١ ومابعدها .

العلوم والفتيا . يقول عياض (١) : (.. حاز رئاسة الدين والدنيا ، وإليه كانت الرحلة من الأقطار ، ونجب أصحابه ، وكثر الآخذون عنه ، وهو الذي لخص المذهب ، وضم كسره وذب عنه . وملأت البلاد تواليفه ، عارض كثير من الناس أكثرها ، فلم يبلغوا مداه ،مع فضل السبق وصعوبة المبتدأ ، وعرف قدره الأكابر .. الخ) .

ولقد كان ابن أبي زيد حقيقاً بذلك بالفعل لأنه بالإضافة إلي ماذكرناه عنه كان محط الثناء من معاصريه من المغاربة والمشارقة (٢) بل إن المشارقة استجازوه فأجازهم (٣) . ولقد أخذ عنه الكثير ممَّن حصلت له شهرة عريضة في العلم سواء من المغاربة أو الأندلسيين (٤) ويرى الحجوى الفاسي أن ابن أبي زيد يعد هو وأهل طبقته آخر المتقدمين ، وأول المتأخرين، كما يعتقد الحجوى أيضا أنه يمكن عده من مجددي أمر الدين الذين يبعثهم الله على مشارف انتهاء كل قرن ، ذلك لقطر المغرب (٥).

وأبو محمد بن أبي زيد ، اشتهر بكثرة التأليف ، ومن مؤلفاته الفقهية التي تهمنا هنا : كتاب النوادر والزيادات على المدونة وهو مشهور جداً ، ويقع في أكثر من مائة جزء . ثم كتاب مختصر المدونة ، وهو مشهور كذلك وقد اعتمد عليه في الفقه في المغرب ، إلاَّ أن كتاب التهذيب للبراذعي مالبث

---

(١) نفسه ، ج٣ ، ص ٤٩٢ – ٤٩٣ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٤٩٣ – الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١١٠ .

(٣) عياض : نفسه .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٤٩٤ .

(٥) نفسه ، الجزء الثاني ، ص ١١٥ – ١١٦ .

أن غطى على شهرة كتاب مختصر المدونة هذا ، فأصبح المعول عليه كما ذكر أبن ناجي فيما نقلناه عنه من قبل في المشرق والمغرب . ومن كتب ابن أبي زيد أيضاً كتاب الإقتداء بأهل السنة أو أهل المذهب في قول آخر ، ثم كتاب ، تفسير أوقات الصلوات وكتاب رد المسائل (١) ، ثم كتاب الرسالة وهو مشهور جداً في شهرة كتابه : النوادر . وكتاب الرسالة عبارة عن شرح ميّسر للمسائل الفقهية على مستوى أذهان الطلبة المبتدئين ، وقد وجهه إلى المؤدب ، محرز بن خلف عدنما طلب منه هذا أن يكتب له كتاباً فقهياً ميسراً يضمنه مايجب أن يتعلمه أبناء المسلمين (٢) . فكتب له تلك الرسالة .

ولقد حظيت الرسالة بالإهتمام الشديد ، فأخضعها الكثيرون في المغرب الأدنى والأندلس وحتى مطلع العصور الحديثة للشرح والاختصار والتعليق (٣) ويقول بروكلمان إن شروحاتها وتعليقاتها ومختصراتها بلغت ٢٨ شرحا ومختصرا وتعليقاً (٤) ويقول الحجوي الفاسي إنه لازال المعمول عليها حتى عصره . (٥)

---

(١) عن مؤلفات ابن أبي زيد وكثرتها ، أنظر عياض : نفسه ، ج ٢ ص ٤٩٤ – ٤٩٥ – الدباغ : نفسه ، ص ١١٠ – ١١١ – الكتاني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٢٩ ، ص٧ الرصاع : فهرست الرصاع : تعليق رقم ٥ ، ص ٥٨– ٥٩ – عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية ، ج١ ، ص ٢٨ – ٢٩ .

(٢) الرصاع : نفسه ، تعليق رقم ٥ ، ص ٥٨– ٥٩ .

(٣) أنظر كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ج٣ ،ص ٢٨٦ – ٢٨٩ – عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعه المغربية، ج١ ،ص ٢٨ – ٢٩ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ، ص ٢٨٧ .

(٥) نفسه ، ج٢ ، ص ١١٦ .

ومن فقهاء عصر الزيريين المعدودين أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بالقابسي (١) (٣٢٤- ٤٠٣ هـ) والقابسي ممن برع في فنون شتى ومن بينها الفقه ، ومن مؤلفاته فيه ، - الممهد في الفقه ، وكتاب أحكام الديانه ، وكتاب مناسك الحج ، وكتاب الذكر والدعاء وغير ذلك . (٢) .

ومن الفقهاء المعروفين أيضاً في مطلع القرن الخامس الهجري ، أبو علي بن خلدون (٣) (ت : ٤٠٧ هـ) وقد عرفنا من قبل أن أحد الذين كان لهم دور في تثبيت المذهب المالكي بإفريقية ، كما عرفنا أنه تعرض للاضطهاد نتيجة لموقفه ذلك ، ممَّا أفضى إلى مقتله في عهد المعز بن باديس (٤) وأبو علي ابن خلدون من الفقهاء المعروفين مع أنه لم يكن له حظ من التأليف ومنهم أبو حفص عمر بن محمد العطار (٥)(ت قبل ٤٣٢هـ) (٦) وهو من فقهاء إفريقية المشهورين وقتذاك ، وكان معاصراً لأبي بكر بن

---

(١) عن ترجمته ، أنظر بعد ص ٣٩١ ومابعدها .

(٢) عياض : نفسه ، ص٦١٨ ومابعدها الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص١٣٦ - الكناني القيرواني : نفسه ، تعليق ، رقم ٣٠ ص ٧ .

(٣) ترجمته موجوده بتوسع عند عياض : نفسه ، ص ٦٢٤ - ٦٢٦ الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١٥١- ١٥٥ .

(٤) أنظر قبل ص ٢٨٣ .

(٥) لم نجد له ترجمه سوى عند الدباغ : نفسه ، ج٣، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٦) لم يحدد الدباغ سنة وفاته غير أنه قال إنه توفى قبل وفاة الشيخ أبي بكر بن عبدالرحمن الخولاني معاصره ، ولما كان أبو بكر الخولاني قد توفى عام ٤٣٢ كما هو ثابت فقد قلنا إن أبا حفص عمر العطار توفى قبل ٤٣٢ هـ على الأكثر أو في نفس العام .

عبدالرحمن الخولاني الذي سنترجم له بعدقليل ، ولأبي حفص عمر العطار تعليق على مدونة سحنون مشهور مذكور (١) .

ومن فقهاء إفريقية في هذا العصر ، أبو عمران موسى بن موسى بن أبي حاج الفاسي (٢) (ت : ٤٣٠هـ) وكان له دور علمي وثقافي مشهور في القيروان ، ولقد سبق وأن عرفنا من قبل دوريه : في الرحلات العلمية و في نشر وتثبيت المذهب المالكي بإفريقية (٣) ، وأبو عمران ممَّن برع في علوم شتى كالحديث بالفقه والقرآءات ومن مؤلفاته الفقهية كتاب تعليق على المدونه (٤) .

ومن الفقهاء المشهورين أيضاً أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الخولاني (٥) (ت ٤٣٢ هـ) ، وقد تلقى علومه على أيدي مجموعة من كبار علماء إفريقية مثل محمد بن أبي زيد ، وأبي الحسن القابسي وغيرهما . وتمتع أبو بكر الخولاني هذا بشهرة عريضة في بلده ، وحصل له اجماع في تقديمه وفضله وعلمه (٦) وممَّا يؤكد علو كعبه في العلم أنه كان يقول : (لو عدمت المدونة لكتبتها من صدرى) (٧) ، ويقول تلميذه

---

(١) الدباغ : نفسه ، ص ١٦٥ .

(٢) عن ترجمته أبي عمران الفاسي أنظر بعد ص ٣٩٢ .

(٣) أنظر قبل ص ١٣٠- ٢٨٣ ومابعدها .

(٤) عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية ، ج٣ ، ص ٤٩ .

(٥) ترجمة أبي بكر الخولاني موجودة بتوسع عند عياض : نفسه ، ١- ٧ -٢- ٧ - المالكي : نفسه ، مقدمة المحقق ص ٤٧م - ٥٠ م - (نقلا عن الدباغ في معالمه) .

(٦) أنظر مقدمة الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ٤٨ م - ٤٩ .

(٧) مقدمة الجزء الأول - الرياض ، ص ٢٤٨ (نقلا عن الدباغ في المعالم) .

ومعاصره عبدالخالق السيوري الذي سنترجم له بعد قليل : (ما رأيت أبا بكر بن عبدالرحمن أخطأ في مسألة واحدة من المدونة) (١) ، وفي هذا القول والذي قبله دليل بالغ على مقدار عظم مكانة المدونة في نفوس المغاربة. وأبو بكر الخولاني عرفناه من قبل في حديثنا عن نشر المذهب المالكي ذاباً ومدافعاً عنه ، وعرفنا كذلك أنه كانت له مواقف من المعز بن باديس (٢) غير أننا للأسف لم نعرف له جهداً تأليفياً يذكر في الفقه . ومن علماء المغرب الأدنى المتأخرين عالمان مشهوران هما أبو القاسم محرز بن خلف القيرواني (٣) (ت : ٤٥٠هـ) وكان ممّن يحفظ المدونة وله عليها تعليق ، وأبو بكر عبدالله بن محمد بن عبدالله المالكي (٤) صاحب كتاب رياض النفوس المشهور . (ت ٤٥٣هـ) .

وأخيراً نذكر عالمين ، وهما وإن كانا قد ماتا بعد منتصف القرن الخامس الهجري حيث تقف الرسالة ، إلاّ أن دوريها كانا كبيرين في الفقه لاسيما وأنها عاشا فترة طويلة من حياتها في الفترة التي نؤرخ لها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تدلنا ترجمتها على القدر الخطير من الأهمية التي بلغتها مدونه سحنون .

---

(١) نفس مقدمة الرياض ، ص ٤٨ م (نقلا عن الدباغ في معالمه) .

(٢) أنظر قبل ص ٢٨٤ .

(٣) عبدالرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ٢٣٢ (نقلا عن الدباغ في معالمه) .

(٤) الدباغ : نفسه ، ج٣، ص ١٧٠ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٨ – حسين مؤنس : مقدمة الرياض ، ص ٢١م – ٢٢م – ٢٨م – ٤٧م – ٥١م – ٥٣م .

فالأول منهما هو : أبو القاسم عبدالخالق السيوري (١) (ت٤٦١هـ أو ٤٦٢هـ) ، وقد قال عياض (٢) عنه ، (هو خاتمة علماء إفريقية وآخر شيوخ القيروان ذوى الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب .. الخ) . وكان له عناية بجانب الفقه بالحديث والقراءآت (٣) . وله تعليق على المدونة ، وفي هذا الصدد يقول ابن ناجي مكمل ومعلق المعالم (٤) (إن الواردين لقراءة العلم بالقيروان من محبتهم في المدونة أكثروا في ثمنها ، فاشتروا بالقيروان منها حتى عدمت منها ، فأتوا إلى الشيخ أبي القاسم السيوري ، وعرفوه فأملاها عليهم من رأسه ثم وجدت نسخة بالقيروان ، فقابلوا ما أملى عليهم الشيخ بها ، فوجدتا سواء) .

وثانيهما هو أبو محمد عبدالحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي (٥) (ت٤٦٦هـ) ، وكان عالماً مشهورا وله مؤلفات مهمة في الفقه منها : كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة ، وقد ألف للناشئة ، ثم رجع مؤلفه عبدالحق عن كثير من تعليلاته واختياراته واستدرك عليه - وله كذلك كتاب كبير في شرح المدونه المسمى بتهذيب الطالب ، وقد نبه فيه على ما

---

(١) ترجمته موجوده عند عياض : المصدر السابق ، والجزء ص ٧٧٠- ٧٧١- الدباغ : المصدرالسابق والجزء ، ص ١٨١ ومابعدها مخلوف : المصدر السابق ص ١١٦ .

(٢) المدارك ، ج٢ ،ص ٧٧٠ .

(٣) الدباغ نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ١٨١ - مخلوف نفس المصدر السابق والصفحة أعلاه .

(٤) ج٣ ، ص ١٨١ .

(٥) ترجمته عند عياض : نفسه ، ص ٧٧٤- ٧٧٦- ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص ١٧٤- مخلوف : نفسه ، ص ١١٦ .

أستدركه على كتابيه النكت . والفروق ، وله كذلك استدراك لمختصر (١) البراذعي الذي عرفناه قبل .

أما عن الفقه في بقية مدن وأقاليم إفريقية خلال العصر الزيري ، فإن البلاد لم تخل في الحقيقة منه ، فمن أبرز أولئك الفقهاء : - أبو جعفر أحمد ابن نصر الداودي الأسدي (٢) - (ت : ٤٠٢ هـ) (٣) وهو من علماء مدينة المسيلة المعروفة بالمحمدية أو مدينة بسكرة بإقليم الزاب ، ويعد من العلماء المعدودين في هذه المدينة ممّن جمع بطرف أكثر من علم مثل الحديث والفقه وغير ذلك . ومن مؤلفاته في الفقه : كتاب القاضي في شرح الموطأ ، وكتاب الداعي في الفقه وكتاب الأموال (٤) . ومن فقهاء مدينة تونس أبو إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي (ت: ٤٣٠هـ) ، وهو ذو اهتمامات علمية فقهية وعقائدية ، ولقد كان له موقف تجاه الفاطميين ، تعرض بسببه إلى معاداة زملائه من فقهاء البلاد حسبما سنعرف بعد إن شاء الله وذكر أن له تعليقاً على المدونة (٥) ومن علماء مدينة طرابلس المشهورين في هذا العصر ، أبو

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٧٥ - ابن فرحون : نفسه ، ص ١٧٤ .

(٢) ترجمته موجوده بتوسع عند عياض : نفسه ، ص ٦٢٣ - ٦٢٤ ابن فرحون : نفسه ، ص ٣٥ ، مخلوف : نفسه ، ص ١١٠- ١١١- الحجوى الفاسي : نفسه ، ج٢ ، ص ١٢١ .

(٣) هذا ما أورده عياض : بل ورجحه ، بعد أن استبعد أن يكون قد توفي عام : ٤١١هـ كما ذكر في نفس الترجمة أيضا ، لكن محمداً بن محمد مخلوف يذكر أن وفاته كانت عام ٤٤٠هـ ، ويبدو أن هذا بعيد ، فقد عاصر الداودي كثيراً من علماء القيروان المتقدمين وهم من علماء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٦٢٣ - ابن فرحون نفسه ، ص ٣٥ .

(٥) أنظر الدباغ : ننفسه ، ج٣ ، ص ٢٠٠-٢٠١ في ترجمته لابن الصائغ المتوفي سنة ٤٨٦ هـ ، =

الحسن علي بن المنمر (١) (ت : ٤٣٢هـ) وهو فقيه محدث وعالم فرائض في آن واحد ، وقد عرفنا من قبل دوره في نشر المذهب المالكي في بلده (٢) ولأبي الحسن علي بن المنمر مؤلفات فقهية منها : الكافي في الفرائض أو المواريث ، وهذا الكتاب يعد عمدة في بابه ، وقد اعتمد عليه كثير من المشارقة والمغاربه (٣) ومن علماء طرابلس المتأخرين أبو القاسم عبدالرحمن ابن محمد الحضرمي اللبيدي (٤) نسبة إلى لبيدة قرية ساحلية جنوب مدينة طرابلس (ت: ٤٢٠هـ) وقال عياض (٥) (هو آخر طبقته موتاً ، وقد نال صيتاً واسعاً في بلده وفي إفريقية) وللبيدي مؤلفات فقهية كثيرة ، منها كتاب جامع في المذهب ، ويقع في أكثر من مائتي جزء كبار في مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها . وكتاب زيادات الأمهات ونوادر الروايات وكتاب في اختصار المدونة يسمى الملخص (٦) وغير ذلك .

= فقد ذكر أن ابن الصائغ أكمل التعليق الذي بدأه شيخه أبو اسحاق التونسي ك وأنظر كذلك : المصدر والجزء نفسه ، ص ٣١٠ في ترجمته الدباغ ، لأبي عبدالله محمد بن سعدون ابن بلال المتوفي سنة ٤٨٥ ، فقد ذكر أيضاً أنه أكمل تعليق شيخه التونسي على المدونة هو الآخر .

(١) ترجمته موجودة عند مخلوف : نفسه ، ص١١٠ ، ويسميه أبو الحسن بن على بن محمد المنتصر- الزركلي : نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٣٢٧ ، ويطلق عليه ابن المنتصر أيضاً - علي مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس ، تراجم ودراسات ص ٢٢- ٢٦ بتوسع .

(٢) أنظر قبل ص ٢٨٥ .

(٣) علي مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس ، ص ٢٨ .

(٤) ترجمته موجودة باستفاضة عند : عياض ، نفسه ، ص ٧٠٧- ٧٠٨- الدباغ : نفسه ، ص ١٧٦ ، ابن فرحون نفسه ، ص ١٥٢ - مخلوف : نفسه ، ص ١٠٩ .

(٥) نفسه ، ج٣ ، ص ٧٠٧ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٧٠٨ - الدباغ : نفسه ، ص ١٧٦ .

ومن علماء قفصة أبو اسحاق بن منصور القفصي (١) (ت بعد ٤٦٠هـ) ولانعرف عنه شيئاً أكثر من هذا .

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهية الحنفيه في عصر الزيريين ، فالواقع أننا لم نعثر على أي ذكر لنشاطات فقهية لهم فضلاً عن أننا لم نتعرف على تراجمهم ، ولعل أقصى مانستطيع قوله هو إن الأحناف بعد رحيل الفاطميين إلى مصر استكانوا إلى الدعة والعلم ، وخاصة بعد أن بدأت الأمور تعود لصالح المذهب المالكي ابتداءً من القرن الخامس الهجري ، فالتقى هؤلاء مع إخوانهم العلماء المالكية في تصاف وتحاب طيلة عصر الزيريين (٢) . أما عن فقهاء الشافعية ، فلم نعثر البتة على مايدل على أي نشاطات علمية لهم خلال هذا العصر ، ناهيك عن ذكر أسمائهم .

ويبدو أن قلة المعلومات وندرتها هو حال كل الدراسات الفقهية الأخرى، فمعلوماتنا عن الدراسات الفقهية الإباضية في هذا العصر ليست بأحسن حال من معلوماتنا عن الفقه عند الأحناف والشافعية ، فالفقه في إقليم الجريد لم تسعفنا المصادر في تتبع دوره وكل الذي عرفناه عن الفقه الإباضي هناك أنه قد ضعف شأنه في أواسط القرن الخامس الهجري (٣) أما عن فقهاء الإباضية فقد عرفنا بعضاً منهم نذكر أشهرهم

---

(١) مجموعة من العلماء والأدباء في تونس : تاريخ قفصه . وعلمائها ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٢) أنظر السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٦١، ٣٩١ .

(٣) صالح باجية : نفسه ، ص ٥٧ .

وهو أبا الربيع (١) سليمان بن على بن يخلف المتوفى سنة ٤٧١هـ ، وقد اشتهر بغزارة عمله في علم الفرائض أو المواريث ، كما أن له في الفقه ديوانين كبيرين (٢) . ونذكر أيضاً أبا محمد عبدالله بن جابر (٣) ، وقد عاش فترة بعد سقوط الدولة الزيرية .

ومن أولئك كذلك أبو محمد ماكسن بن الخير ، وهو من جربة في جنوب إقليم الجريد ، وقد تنقل في جل مدن إفريقية والجنوب الجزائري ، وكانت له مكانه عظيمة بين أهل مذهبه ، وكان له العديد من الاجتهادات الفقهيه . (٤)

أما عن الفقه في جبل نفوسة ، فيبدو أنه لم يكن كذلك أوسع انتشاراً من الفقه في الجريد وغاية مانستطيع ذكره من خلال اسماء الفقهاء التي طالعتنا في هذا العصر الفقيه الإباضي المشهور أبو عبدالله محمد بكر (٣٤٥- ٤٤٠هـ) الذي كانت له سمعة علمية مدوية في جبل نفوسه وفي إقليم الجريد وفي تجمعات الإباضية بالجزائر . ويعزى إليه وضع نظام يتولى جميع القضايا والشئون الخاصة والعامة بالإباضية في يد مجلس مكون من العلماء فيما عدا القضايا الخاصة بالإمام نفسه ، كإقامة الحدود

---

(١) صالح باجية ، نفسه ، ص٢٠٠ - ٢٠٢ - على معمر : الإباضية في الجزائر ، ص١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) صالح باجية : ننفسه ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) علي يحيى معمر : نفسه ، ص ١٥٨ .

(٤) ترجم له وتتبع نشاطاته العلمية والإجتماعية ، على يحيى معمر في كتابه : الإباضية في الجزائر ، ص ١٩٣ - ٢٠١ .

وغيرهـــا ، وعرف هذا النظام بنظام العزابة ، الذي يعتبر عند الإباضية بديـــلاً لنظام الإمامة (١) . ومن علماء الإباضية المشهورين بالجبل أبو محمد عبدالله بن العاصم اللداتي (٢) .

(١) عن أبي عبدالله محمد بن بكر وعلمه ونشاطاته وآرائه الإجتماعية ونظام العزابة ، أنظر علي يحي معمر ، نفس المرجع السابق ،ص ١٧٦ - ١٩٢ - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٤٧- مع الحواشي ، عن نظام العزابة .

(٢) أحمد مختار عمر : نفسه .

الحـــــــــديث

- الحديث في عصر الولاة
- الحديث في عصر الأغالبة
- الحديث في عصر الفاطميين
- الحديث في عصر الزيريين

الحـــــــــديث :

توطئه : لعل أهم ملاحظة يخرج بها المتتبِّع للدراسات الشرعية في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضع الإهتمام ، أن دراسة الحديث لم تواكب الإزدهار والتقدم الذي عرفته الدراسات الفقهية والذي فرضته عدة أسباب . وأول هذه الأسباب هو أن أوضاع المغرب الأدنى في مطلع القرن الثاني الهجري كانت تحتم الاهتمام بالفقه بالدرجه الأولى ، لاستجلاء غموض كثير من القضايا التعبدية والعقائدية التي كانت تواجه المغاربة والذين كانوا يتطلعون إلى معرفة حلولها ، ولعل فيما ذكرناه عن مراسلة خالد بن أبي عمران التجيبي للتابعين في المدينة ، ومراسلة عبدالله بن فروخ وابن غانم لمالك بن أنس بالمدينة ، مايفسر ويؤكد صدق ماذهبنا إليه ، وثاني هذه الأسباب هو أن المغرب لم يعرف ، بل لم يعش ماعاشه المشرق من فترات عصبيه ظهر خلالها الوضع في الحديث والكذب على الرسول ﷺ . فالمذاهب السياسية والكلامية التي تكونت في المشرق آنذاك سعى الكثير من رجالها إلى تأييد وجهات نظرهم بوضع الأحاديث المكذوبة عن الرسول ﷺ التي تخدم آراءهم ولقد تلى ذلك تصدى الغيورين على السنة لهؤلاء ، ونفى الكثير من تلك الأحاديث التي وضعوها . وهذا السبب في تصورنا كان له دوره في أنه لم يظهر من المغاربة ممَّن اعتنى بالتصدى لتلك الموجة من الوضع . وأما ثالث هذه الأسباب فهو أنه في غمرة انشغال المغاربة في الخلوص إلى الطريق أو المنهج الفقهي الملائم لهم ، والذي تمثل في ماثار من خلاف حول الأسدية ، ثم ما استقر عليه الأمر من الأخذ بمدونة سحنون، كان علم

الحديث في الدولة الإسلامية قد قطع خطوات مهمة في وضع قواعده وأسسه، إذ لايخفى أن الحديث في النصف الأول من القرن الثاني الهجري قد تخطى مرحلة الرواية الشفهية إلى التدوين الذي حصل ابتداء من منتصف القرن الثاني الهجري ، كما أن المشرق قد عرف وقتها استقلال دراسة الحديث عن الفقه بظهور المصنفات الحديثية عن طريق كتب المجموعات والمسندات . ثم ماتلا ذلك من ظهور المصنفات الحديثية الصرفة المتمثلة في كتب الصحاح المبنية على تمييز الصحيح وتجريح الرجال والحكم عليهم (١) . كما أن المشرق قد عرف مع كتب الحديث البحته مانشأ من علوم متعلقة بالحديث اقتضاءً كعلم مصطلح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل (٢) .

كل هذه الخطوات التي خطاها علم الحديث لم يسهم فيها المغاربة بجهد يذكر بسبب ماذكرناه من تأثير تلك الأسباب ومن هنا كانت إسهامات المغاربة في علم الحديث لاتتعدى جمع الحديث وتدريسه ووضع المؤلفات التي تتمشى مع نهج المشارقة أو لنقل تقليد منحى المشارقة . هذا شئ ، والشئ

---

(١) عن مراحل نشأة علم الحديث في الدولة الإسلامية ، أنظر مخلوف : نفسه ، ص ٢١- ٣٦- الحجوى الفاسي : نفسه ، ص ٣٣٣ -٣٨٥ أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٠٨ - ٢٢٤ ، ضحى الإسلام ، ج٢ ،ص ١٠٦ -١٣٣ - أحمد علي الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ، ص ٤٠- ٤٤- صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، الباب الأول ، ص١-١٠٤ ، الباب الثاني ، ص ١٠٥ -١١٤ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٠٦-١١١، ١٢٧ - ١٣٤ أحمد علي الملا ، نفس المرجع السابق ، ص ٤٢ - ٤٦ عمر فروخ ، العرب في حضارتهم وثقافتهم ، إلى آخر العصر الأموي ، ط٢، ص ٩-١١ .

الآخر ، هو أن المغرب الأدنى لم يشهد ظهور محدِّثين خلص ، فكل الذين برعوا من المغاربة في الحديث كانوا فقهاء في نفس الوقت كما أن نسبة المحدثين الخلص منهم كانت قليلة جداً أو تكاد تكون نادرة .

وكيفما كان الأمر ، فسنمضي في تتبُّع دراسة الحديث في إفريقية (المغرب الأدنى) بتقسيمها إلى عصور زمنية أربعة ، لا لأنه قد صاحبت مسيرته العلمية متغيرات اختلف عطاؤها باختلاف هذه العصور كما عرفنا عند دراستنا للفقه ، ولكن للحفاظ على الناحية التنظيمية المحضه التي راعيناها في دراستنا هذه .

على أننا قبل أن نستعرض دراسة الحديث في إفريقية (المغرب الأدنى) خلال هذ العصور الأربعة علينا أن نشير إلى أننا لم نعثر على أي نشاطات في دراسات الحديث لعلماء المذاهب الأخرى غير المالكي كالأحناف والشافعية والإباضية والشيعة .

الحديث في عصر الولاة :-

ليس من شك في أن من الطبيعي أن يحرص التابعون الذين جاءوا إلى إفريقية سواء أولئك الذين قدموا طواعية ، أو الذين بعثهم عمر بن عبدالعزيز على نشر الإسلام والدراسات الإسلامية من فقه وحديث وتفسير . ولهذا فليس بدعاً أن نعد أولئك التابعين الطبقة المبكرة من المحدِّثين الذين أسهموا في نشر دراسة الحديث في المغرب الأدنى ، مع أن كتَّاب الطبقات لم يوضحوا ذلك الجهد بجلاء واضح ، وإنما أشاروا إليه ضمنا (١) .

على أن ذلك الجهد المتعلق بالحديث ودراسته مالبث أن أخذ يتضح في كتب كتَّاب الطبقات كأبي العرب التميمي ، وأبي بكر المالكي ، وغيرهما ، عندما بدأوا يتحدثون عن الطبقة التالية لتلك الطبقة الأولى من التابعين ، فأخذنا نلحظ ابتداءً من الطبقة هذه إشارات واضحة تدل على اهتمامات المترجم له سواء كانت فقهية أوحديثية أو فقهية حديثية معا .

ومن أول رجالات هذه الطبقة من عصر الولاة ، أبو محمد خالد بن عمران التجيبي الذي عرفنا دوره في تقدم الدراسات الفقهية . ولعل ممَّا يدل على علو شأنه في الحديث ، هو قول أبي العرب التميمي (وكان خالد ثقة مأموناً) (٢) . وهذه العبارة كانت غاباً ماتلصق بالمحدِّث على لسان المؤرخين وغيرهم . ومن محدثي إفريقية المعروفين كذلك خلال هذا العصر ،

---

(١) أنظر أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٠ – ٢٦ ، المالكي : نفسه ، ص ٦٤– ٧٦، ٧٧– ٨٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٥ .

عبدالملك بن أبي كريمة وقد عاش في مدينة تونس يثرى حياتها العلمية (١) .

ومن المحدثين المذكورين أيضاً ، أبو خالد عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري . وعبدالرحمن بن زياد اتضحت لنا بعض مجهوداته العلمية عند حديثنا عن الرحلات والدراسات الفقهية لكن ابن زياد لم يكن فقيهاً فحسب، بل كان محدثاً بل لعل الحديث قد غلب عليه ، فأدخله المؤلفون لعلم الحديث - في كتبهم (٢) ولقد عرف أهل المشرق ومنهم سفيان الثوري الذي كان يجل عبدالرحمن بن أنعم ذلك الفضل له ، غير أنهم أخذوا عليه روايته لبضعة أحاديث مرفوعه إلى النبي ﷺ ، لم يروها أحد من أهل العلم (٣) ويقول مخلوف (٤) نقلاً عن ابن عبدالبر الحافظ الأندلسي المشهور إن أهل مصر وإفريقية والمغرب أثنوا عليه بالفضل والدين والعقل ، ثم قال ابن عبدالبر معقباً : (وهم أعلم من سواهم) .

على أن ابن السراج ، (٥) وهو المؤرخ الإفريقي المعروف ، يشير إلى أن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم كان متروك الحديث ، وذكر أن كثيراً من أهل العلم قد ضعفوه ، ومنهم مغاربة كانوا معاصرين له كالبهلول بن راشد وغيره ونحن بالطبع ليس من مهمتنا البحث في هذه القضية ، لكننا أوردنا

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٤٧ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٩٦ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ المالكي : نفسه ، ص٩٦ -٩٧ - مخلوف : نفسه ، حاشية رقم ١ ، ص٦١- ٦٢ - ابن السراج : نفسه ، ج١ . قسم ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٤) نفسه ، حاشية رقم ١ ، ص ٦١- ٦٢ .

(٥) نفسه ، ج١ ، ق١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

ذلك لنوضح جهد ابن أنعم في دراسة الحديث .

على أن أشهر محدِّثي هذا العصر ، هو عبدالله بن فروخ الفارسي المتوفي عام ١٧٤هـ ، وعبدالله بن فروخ كان ذا أثر عميق في مجمل الدراسات الشرعية في إفريقية كما عرفنا في حديثنا عن الرحلات العلمية ، وفي حديثنا عن دوريه في نشر المذهب المالكي والفقه المالكي والحنفي ، ويكاد دور ابن فروخ في دراسة الحديث يكون أوضح من دور من سبقه من محدِّثي عصر الولاة والذين تحدثنا عنهم ، فلقد أشار مؤرخو التراجم والطبقات الذين ترجموا له صراحة على تلقيه علوم الحديث على يد عدد من المحدثين كزكريا بن أبي زائدة ، وعبدالملك بن جريج ، والأعمش ، وهم من أقطاب الحديث في المشرق آنذاك . (١) ولقد مدحه أبو العرب فقال (وكان ثقة في حديثه) (٢) ، ويذكر المالكي وعياض أنه سمع من أبي حنيفة النعمان آحاديث كثيرة أثناء طلبه العلم عليه في الكوفه . (٣)

وفيما يتصل بمسيرة دراسات الحديث في بقية مدن وأقاليم إفريقية ، فإننا في الواقع لم نعثر على مايدل على اهتمامات حديثية اللهم إلاَّ ماروى

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٤ – ٣٦ – عياض :نفسه ، ج١ ، ص ٢٣٤– ٣٤٣– ٣٤٤ – المالكي : نفسه ، ص ١١٣ – ١١٥ ١١٦ – الدباغ : نفسه ، ص ٢٤٠ – ٢٤٢ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤

(٣) ذكر عياض : نفسه ، أن ابن فروخ سمع من أبي حنيفة ٣٠٠ ألف حديث . ولاشك أن هذا مبالغ فيه جداً ، بينما ذكر المالكي : نفسه ،ص ١١٦ والدباغ نفسه ،ص ٢٤١ أنه سمع منه ٣٠٠ حديث فقط ويبدو أن هذا أقرب للصواب . رغم ما اشتهر عن أبي حنيفة من تشدد في قبول الأحاديث إلاَّ الصحيحه الثابته منها .

عن محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي ومحمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي اللذين ذكر أنهما رويا كثيراً من الأحاديث عن عدد من علماء ومحدِّثي المشرق . (١)

الحـــــديث في عصـــــر الأغالبـــة :-

ليس من ريب في أن الدراسات الحديثية ، قد عرفت في العصر الأغلبي تقدماً وتوسعاً في الكم والنوع ، وبدأنا نعرف في هذا العصر علماء يكاد يكون الحديث فنهم الوحيد بالدرجة الأولى . ومن أوائل الأسماء التي تطالعنا من المحدثين في هذا العصر ، محمد بن علي الرعيني (ت أواخر القرن الثاني الهجري) وهو ممَّن رحل إلي الحجاز فتلقى علومه على يد علمائه ، ثم عاد إلي بلده ينشر فيه علمه (٢)

ومن علماء الحديث المشهورين والمبكرين في عصر الأغالبة أبو زكريا يحيى بن سلام أو السلام بن أبي ثعلبه البصري التميمي بن ربيعة الإفريقي (٣) (١٢٤- ٢٠٠هـ) وأبو زكريا يحيى بن سلام أحد المشارقة الذين استوطنوا المغرب الأدنى وأحدثوا به أثراً علمياً معروفاً ، لاسيما وأنه كان ذا مكانة مرموقة في المشرق ، فقد ذكر أنه تلقى علومه على يد عدد من العلماء كبير يفوق الثلاثمائه من تابعين

(١) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٩٠ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية ، القسم الثاني ، ص ٣٩١ .

(٣) عن ترجمته أنظر بعد ص٤٠٧ ومابعدها .

وغيرهم (١) ، ولقد كان الحديث هو أغلب شأنه بالإضافة إلى التفسير (٢) .

ومنهم أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي (٣) (ت : ٢١٠هـ) وهو من محدِّثي إفريقية ممَّن سمع من مالك بن أنس وسفيان بن عيينه وغيرهما من رجالات الحديث في المشرق .

ويأتي أبو الوليد عباس بن الوليد الفارسي (٤) (ت: ٢١٨هـ) على رأس محدِّثي البلاد في العقد الثاني من القرن الثالث الهجري وهو ممن أشتهر بالحديث وكان موضع ثناء من معاصريه وغيرهم من كتاب الطبقات . ويقول عنه أبو العرب التميمي (٥) (كان ثقةً مأموناً حافظاً للحديث ، لقى جماعة ، من المحدِّثين منهم ابن عيينة وحماد بن زيد والفضيل بن عياض ، وبشراً كثيرين من محدثي الأمصار .. الخ) .

ويذكر أبو العرب (٦) أن إمامته في الحديث بالطبع - قد انتشرت بالمغرب وبالمشرق .

وممَّن أشتهر كذلك بميله للحديث خلال عصر الأغالبة ، أبو محمد عبدالله بن أبي حسان اليحصبي (ت٢١٩هـ) وهو من كبار المحدثين آنذاك ،

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ١٢٢ - الداودي : طبقات المفسرين ، ص ٦٨٥ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٧- ٣٨- المالكي : نفسه ،ص ١٢٢ - ١٢٣ - الداودي : طبقات المفسرين ، ص ٨٦٥. وعن دوره الواسع في التفسير أنظر بعد ص٤٠٨ ومابعدها .

(٣) ترجمته موجوده عند أبي العرب : نفسه ، ص ٧٢، المالكي : نفسه ، ص ١٦٣- ١٦٤ .

(٤) ترجمته موجوده عند أبي العرب : نفسه ، ص٢٥٤ - ٢٥٥ - المالكي : نفسه ،ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٥) نفسه ، ص ٢٥٤ .

(٦) نفسه ، ص ٢٥٤ .

وقد تلقى علومه على علماء المشرق وعلى رأسهم مالك بن أنس (١) .

وممّن جمع بين الفقه والحديث وقتذاك محمد بن سحنون بن سعيد التنوخي المتوفي سنة ٢٥٦هـ ، وقد مرت بنا ترجمته من قبل وعرفنا من شخصيته العلمية ملامح عديدة ، سواء مايتصل فيها برحلاته أو لدوره في نشر وتثبيت المذهب ، أو نشاطاته الفقهية العلمية المؤثرة . غير أن ماجعلنا نؤجل الحديث عن ترجمته العلمية الواسعة هو مكانته في الدراسات الحديثية التي اشتهر بها أيضا . ومن مؤلفاته في دراسة الحديث كتاب المسند في الحديث ، وهو كتاب كبير ، وكتاب غريب الحديث في ثلاثة أجزاء .(٢)

ومن محدّثي العصر الأغلبي المشهورين أبو الربيع سليمان ابن سالم القطان (٣) المعروف بابن الكحالة (ت : ٣٨٩هـ) (٤) ، وقد غلبت عليه دراسة الحديث والتقييد والرواية كما يذكر مخلوف (٥) في كتابه السابق .

ومنهم أيضاً ، أبوسهل فرات بن محمد العبدي (ت :٢٩٢هـ) كما ذكرنا من قبل ، فلقد جمع إلى براعته في الفقه براعة في الحديث

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص٧٥ - ٧٦ - المالكي نفسه ، ص ٢٩٩ - ٢٠١ - عياض : نفسه ، ص ٤٨٠ - ٤٨٤ .

(٢) محمد بن سحنون : كتاب أداب المعلمين ، ص ٢٦ - عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

(٣) ترجمته موجوده ، عند عياض : نفسه ، ج٢ ، ٢٣٣ - ٣٤ - مخلوف : نفسه ، ص٧١ - مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصه وعلمائها ، ص ١١٢ .

(٤) أشار عياض إلى أنه توفى سنة ٢٨٩هـ كما في المتن غير أن مخلوفاً : نفسه ، ص ٧١، يقول إنه توفى سنة ٢٨٢هـ ، أو ٢٨٣هـ .

(٥) مخلوف : نفسه ، ص ٧٢ .

وأسماء الرجـــال وأخبـارهم ، غير أنه كان منسوباً إلي الكذب في كثير من أخباره (١) .

ومن المحدثين الذين كان لهم شهرة كبيرة في نهاية العصر الأغلبي ، عيسى بن مسكين بن جريج المتوفي عام ٢٩٥هـ ، فعيسى بن مسكين بالإضافة إلى أنه كان فقيهاً معروفاً كما رأينـا من قبـل ، كان من علماء الحديث المذكورين ؛ وممّن أشتهر بمعرفة الرجال وكناهم وقويهم وضعيفهم (٢) .

ثم سعيد بن اسحاق (ت :٢٩٥هـ) الذي اشتهر وعرف بكثرة الرواية والجمع للحديث (٣) ، وغيره .

أما عن علماء الحديث في بقية مدن وأقاليم المغرب الأدنى فلم تسعفنا كتب الطبقات وغيرها بتوضيح ذلك . وعلى كل حال ، فذلك شئ طبيعي ، فدراسة الحديث نفسها في إفريقية بصفة عامة كانت أقل انتشاراً من الفقه في البلاد كما ذكرنا .

على أنه لدينا بعض المعلومات عن دراسة الحديث ورجالاته في بعض المدن الإفريقية ، خاصة مدينة قفصة التي اشتهرت بتخريج عدد من المحدثين من أبنائها . ومن أبرز هؤلاء ، محمد بن تميم العنبري القفصي (ت٢٦٠هـ) ، وقد أشتهر بالحديث وحده تقريباً وتلقى علومه على أيدي أشهر

---

(١) مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ .

(٢) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(٣) مخلوف : نفسه ، ص ٧٢ .

علماء الحديث في المشرق من أمثال : أنس بن عياض ، عبدالله بن وهب ، ويحيى بن عبدالله بن بكير المخزومي وغيرهم من أقطاب الحديث هناك (١)، ويعتقد بعض الباحثين المحدثين من التونسيين (٢) ، أن محمداً بن تميم العنبري قد مهد لمدرسة حديثية مالكية المذهب ، تعتمد الأثر وحده ، وتختلف عن مدرسة عبدالرحمن بن القاسم العتقي ، التي قامت عليها المدرسة السحنونية ، ولقد تلا محمد بن تميم ابنه هبة الله (ت قريبا من ٢٦٠هـ) الذي اقتفى أثر والده في سيره على النهج السابق . (٣)

وفي مدينة سوسة ، نجد ذكراً لاسم لامع من رجالات الحديث هو زيدان بن اسماعيل بن زيدان الواسطي الأزدي السوسي (٤) (ت٢٩٢هـ) .

---

(١) مجموعة من الأدباء والعلماء ، تاريخ قفصة وعلمائها ، ص ١١٠ – ١١١ .

(٢) تاريخ قفصة وعلمائها ، ص ١١ .

(٣) مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة . وعلمائها ص ١١١ .

(٤) مخلوف : نفسه ، ص ٧٢ .

الحديث في عصر الفاطميين :-

الواقع أنه ليس ثمة مايميِّز دراسات الحديث في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة إلاَّ وضوح معالم مدرسة حديثية كادت أن تطبع الدراسات الشرعية بطابعها كما سنعرف بعد قليل ، هذا بالإضافة إلى الوفرة في الدراسات الحديثية نفسها وفي رجالاتها كذلك كما سنلحظ ، وهو ماانعكس أثره في وجود ثروة طيبة من المؤلفات الحديثية أكثر من ذي قبل .

ومن أوائل المحدثين في هذا العصر ، أبو سعيد بن أخت يزيد سنان، المعروف بالوكيل ، وقد مدحه الخشني فقال عنه (كان من أهل العناية بالحديث ، كان يحفظ أربعة آلاف حديث ظاهراً) وقد توفى في صدر دولة الخليفة عبيدالله المهدي (١) .

وتألق بين علماء هذا العصر في دراسة الحديث لقمان بن يوسف الغساني (٢) (ت : ٣١٩هـ)(٣) ، وقد أثنى الخشني على معرفته الكبيرة بالرجال والأسماء . (٤)

على أن اشهر محدثي هذا العصر هو أبو العرب محمد بن أحمد التميمي المتوفي سنه ٣٣٣هـ كما عرفنا من قبل ، وأبو العرب مثلما كان

---

(١) الخشني: نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٢) ترجمته موجودة عند الخشني : نفسه ، ص ٢٢٣- ٢٢٥- عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١١ - ٣١٣ - مخلوف نفسه ، ص ٨١ .

(٣) هذا مارجحه عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٣١٣ ، وذكر أقوالاً أخرى ، فقال : ٣١٨ ، وأورد عن أبي العرب أنه توفى في نيف وعشرين وثلاثمائه .

(٤) نفسه ، ص ٢٢٤ .

مبرزاً في الفقه ، فقد أوتى حظاً عظيماً من المعرفة بعلم الحديث والبراعة فيه، وكذلك في علم الرجال ، وهذا عياض يثنى عليه فيقول (وغلب عليه الحديث والرجال) (١) ، ويسميه جلال الدين السيوطي : الحافظ محمد بن أحمد بن تميم ، ويذكر أنه أخذ الحديث من أصحاب (٢) سحنون . ولأبي العرب مؤلفات في الحديث ، عرف منها : كتاب مسند حديث مالك ، وكتاب عوالي الحديث . (٣)

ومن أنداد أبي العرب ومن طبقته في العلم والمعرفة ، ربيع بن عطاء الله القطان المتوفي سنة ٣٣٣هـ ، كما عرفنا من قبل . وربيع القطان كان (حافظاً للحديث ، عالماً بمعانية وبعلله ، ورجاله وغريبة (٤)) مثلما كان عالماً بالفقه ومناحيه .

وفيما يتعلق بالحديث في بقية مدن وأقاليم إفريقية ، فإن الملاحظ أن مدينة قفصة دأبت كما ذكرنا على مد المغرب الأدنى بعدد لابأس به من علماء الحديث ، غير أن أهم ماأسهمت به مدينة قفصة ، هو أنه انبثق منها وعنها مدرسة في الحديث لها اتجاهاتها المخالفة للمدرسة السحنونية كما أشرنا إلى ذلك من قبل . وإذا كان محمد بن تميم العنبري وابنه هبة الله قد

---

(١) نفسه : ج٢، ص ٣٣٤ .

(٢) طبقات الحفاظ : ص ٣٦٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٣٤- ٣٣٥ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ص ٨٩٠- الكتاني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ١٥ ، ص ٤٠ .

(٤) عياض : نفسه ص ٣٢٣ - ٣٢٤ - مخلوف : نفسه ، ص ٧١ .

مـهد الطريق لظهور تلك المدرسة حسبما عرفنا ، فإن تكريس وجود تلك المدرسة وبروزها بشكل مؤثر يعود لعالم قفصى آخر هو مالك بن عيسى القفصى (١) (ت٥٠٣هـ) . فمالك بن عيسى القفصي يعد من أشهر رجالات الحديث لافي مدينته قفصة فحسب بل في إفريقية كلها . فلقد اشتهر بالحديث وحده ، ولم يخض أي مجال آخر غيره ، وقد أثنى عليه معاصره الخشنى (٢) فقال : (كانت له رحلة في طلب الحديث ، وكان به بصيراً وفي علمه نافذاً ، وأخذ منه جماعة من الناس) .

وتأتى أهمية دور مالك بن عيسى في دراسة الحديث من أنه عمل جاهداً على التوسع في دراسته إلي الحد الذي كاد أن يغلب علم الحديث على أهل إفريقية لو طال الأجل بمالك كما يقول الخشني (٣) .

وممّا يدل على انفراده بمنحى مالكي معين في الحديث أن أحد أقرانه من علماء القيروان وهو أبو العباس الأبياني الذي كنا قد ترجمنا له من قبل، جاءه مرة قائلاً له (حدثني ، ولاتحدثني إلاَّ بما يوافق مذهبي ، فعطف مالك ابن عيسى على الناس ، فقال لهم : هذا رجل لايحب أن يكون عالما) (٤) ويبدو أن منحى مالك بن عيسى هذا ، لم يكن يلقى القبول من علماء المالكية في المغرب الأدنى ، فإلى جانب موقف أبي العباس الأبياني من مالك بن

١- ترجمة موجودة عند الخشني : نفسه ، ص ٢٢٨- مخلوف : نفسه ، ص ٨٠ - مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ، ١١٣- ١١٤ .

٢- نفسه ، ص ١٢٨ .

٣- نفسه .

٤- الخشني : نفسه ، ص ١٢٨ - مجموعة من الأدباء والعلماء : المرجع السابق ،ص ١١٤ .

عيسى أنبرى واحد من أبرز العلماء المالكية وهو سعيد الحداد يعترض على مالك في شيء من التهكم بقوله : (لو علمت أن يقظة مالك بن عيسى أنبه من نومي لأزريت على نفسي) (١) .

لكن هذه المدرسة الحديثية ، لم يكن لها بعد موت صاحبها أي اتباع يحملون اتجاهها ويرسخون نهجها في إفريقية ، ولم تذكر لنا كتب التراجم أي ذكر لمن تأثر بهذه المدرسة ، سوى مايمكن قوله عن يوسف بن عبدالله التميمي القفصي (٢) ، الذي كان إلي جانب براعته في الفقه ، محدثاً جيداً نهج نهج ماللك بن عيسى مواطنه (٣) .

وشهدت الدراسات الحديثية في إفريقية في هذا العصر إسهاماً علمياً آخر من بعض الوافدين من علما"ء الحديث من المشرق ، وإن كان هذا الأثر محدوداً في عالمين فقط ، فأولهما أبو الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح الكوفي المعروف بالعجلي وقد نزل مدينة طرابلس ؛ فأحدث بها أثراً علمياً لابأس به ، وللعجلي كتاب معروف في الجرح والتعديل كما يذكر السيوطي . (٥) والعالم الثاني هو : الوليد بن بكر بن محمد الغمري

---

(١) الخشني : نفسه ، ص١٢٨ – مجموعة من الأدباء والعلماء : نفس المرجع السابق والصفحه.

(٢) ترجمته موجوده عند عياض : نفسه ، والجزء ص ٣٥٦– مجموعة من الأدباء والعلماء ، المرجع ، ص ١١٥ .

(٣) هذا مايقوله عياض عن سنة فاته ، غير أنه في كتاب : تاريخ قفصة في هامش ص ١٥ جاء مايشير إلى أن يوسف القفصي توفى في سنة ٣٣٢هـ و بالتحديد في شهر رمضان ، كما هو مثبت على لوحة فوق قبره ، وكما في الجزء الثاني من رياض النفوس .

(٤) مجموعة من الأدباء والعلماء : نفس المرجع أعلاه والصفحه .

(٥) طبقات الحفاظ ، ص ٢٤٢ .

الأندلسي السرقسطي وقد دخل إفريقية في أيام الفاطميين ، أثر في حياتها العلمية باسهاماته في علم الحديث (١) .

الحـــــديث في عصــــر الزيريـين -

لعل أول مايلفت النظر بشأن دراسة الحديث في عصر الزيريين أنها كانت أوسع انتشاراً في هذا العصر، منها في عصر الفاطميين ، ولقد ظهر خلال عصرهم علماء أقطاب في علم الحديث كان لهم مكانتهم في المغرب وخارجه كما ظهرت فيه العديد من المؤلفات الحديثية المهمة حسبما سنعرف بعد قليل .

ونذكر من أوائل المشتغلين بعلم الحديث في هذا العصر ، محمداً ابن حارث الخشني المتوفي بعد سنة ٣٦٦هـ كما ذكرنا من قبل . ولئن عرفنا بعضاً من إسهاماته في علم الفقه ، فإن اسهاماته في الحديث لاتقل عنها شأناً ، لاسيما وقد اشتهر بعلمه الواسع بأسماء الرجال (٢) . وممَّا يدل على أنه كان ذا شأن في الحديث أن الذهبي الذي ألف كتابه : تذكرة الحفاظ (٣) - وهو خاص بالمحدثين في الدولة الإسلامية - ترجم له مع القليلين من الإفريقيين أمثاله كأبي العرب التميمي ، وأبي الحسن القابسي .

وممَّن جمع بين الفقه والحديث في عصر الزيريين ، عبدالرحمن ابن

---

(١) طبقات الحفاظ ، ص ٤٢٠ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥٣١- ٥٣٢ .

(٣) الجزء الرابع : ص ١٠٠١ - ١٠٠٢ .

رشيق المتوفي سنة ٣٧٦هـ كما أشرنا سابقاً ، وممّا ذكر عنه أنه كانت (له عناية كاملة بتقيد السنن والأحاديث المشهورة) (١) .

على أن هذا العصر عرف واحداً من أقطاب علم الحديث في إفريقية في كل الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، ذلك العالم هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بالقابسي (٢) المتوفى سنة ٤٠٣هـ حسبما عرفنا سابقاً . ولئن كنا عرفنا القابسي فقيهاً معروفاً ، فإن مايجب أن نعرفه عنه الآن أنه كان محدثاً مشهوراً بل لعل الحديث هو العلم الذي غلب عليه . ولقدأبرز كل من ترجم له هذا الجانب العلمي من شخصيته ذات الاتجاهات العلمية المتعددة . فلقد ذكر ابن خلكان بأنه كان (إماماً فيه، وفي فنونه وأسانيده ، وجميع مايتصل به) (٣) ، وذكر كذلك أن له رحلة إلى المشرق في طلب الحديث ، فابل خلالها شيوخ الحديث هناك (٤)، وممّا يؤثر عنه أنه كان أول من أدخل رواية الإمام البخاري ومسنده ومسند عالم الحديث المكي المشهور أبي ذر الهروي إلى إفريقية (٥)، ولأبي الحسن القابسي في الحديث مؤلفات مهمة ، منها كتابه المعروف بالملخص جمع فيه

---

(١) الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١٨٦ .

(٢) ترجمته موجوده بتوسع عند : عياض نفسه ، ص٦١٦- ٦١٩ الدباغ : نفسه ، ج٣، ص١٣٤ - ١٤٦ - ابن القاضي جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، الجزء الأول ، حاشية رقم ٩ص ١٣ الكتاني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٣٠، ص ٧- مخلوف : نفسه ، ص ٩٧- الزركلي : نفسه ، ج٤، ص ٢٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٢٠ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٦١٦- ٦١٧ .

(٥) مخلوف : نفسه ، ص ٩٧ .

مـــا اتصل إسناده من حـــديث مـــالك بن أنس في كـــتـــاب الموطأ ، رواية عبدالرحمن العتقي (١) ، ويذكر أن النطق الصحيح كما يقول (٢) ابن خلكان لكتاب الملخص هو : الملخص بكسر الخاء ، أي الذي يلخص المتصل من حديث مالك للمستحفظين .

ومن علمـــاء الحديث المشهورين في هذا العصر ، أبو عمران موسى ابن عيسى بن أبي حـــاج الغفجـــومي الفاســـي (٣) المتـــوفى سنة ٤٣٠هـ كمـــا عـــرفنـــا . وأبو عـــمـــران الفـــاسي أصله من فـــاس (٤) ، ومن بيوتات العلـــم فيها ، ثم رحل إلى القيروان واستوطنها حتى مات ، ولقد عرفنا من قبل شيئـــاً عنه ونحن نتحدث عن الرحلات العلمية وكذلك عند الحديث عـــن إنتشـــار المذهب والفقه المالكي بالمغرب الأدنى . أبو عمران الفاسي ...الخ . ممَّـــن أوتى حظـــاً في الجمـــع بين علوم شرعيـــة شتى كالفقـــه والحديث والقـــراءات ، ويقـــول عنه عـــيـــاض (٥) إنه كـــان (ذا مـــعـــرفـــة بالرجـــال

(١) عياض : نفسه ، ص ٦١٩ - ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٣،ص٣٢٠ وهو الذي أعطانا توضيحاً عن الكتاب واسمه بالكامل .

(٢) وفيات الأعيان ، مجلد ، ٣ ، ص ٣٢٢ .

(٣) ترجمته موجودة بتوسع عند عياض : نفسه ، ص ٧٠٠ - ٧٠٦ الدباغ : نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٤ ابن القاضي : جذوة الاقتباس القسم الأول ، ص٣٤٤-٣٤٥- ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٧٢- ٢٧٣- عبدالهادي التازي : جامع القرويين ، المجلد الثالث ، ص ١٥٧- ١٥٨ - عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية ج٣ ، ص٤٩ .

(٤) ابن القاضي : نفس المصدر والقسم السابقين ، ص٣٤٤- مجهول : بيوتات فاس الكبرى ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، ص٤٤-٤٥ عبدالهادي التازي : نفس المرجع والجزء أعلاه ، ص ١٥٧ .

(٥) نفسه : ج٢، ص ٧٠١ .

وجـرحـهم وتعديلهم ، وخرَّج عن عوالي (١) حديثة نحو ورقة) .

ومَّما يجدر ذكره أن لأبي عمران الفاسي دوراً كبيراً في قيام دولة المرابطين ، وذلك عندما وجَّه زعيم الملثمين من قبيلة جدالة الصنهاجية التي تعيش في جنوب المغرب الأقصى إلى أحد تلاميذه هناك وهو وجاج بن وزللو ببعث أحد طلبته إلى مواطن قبيلة جدالة لتفقيههم في الدين كما هو مبسوط مشتهر في كتب التاريخ والأدب .

ومن علماء الحديث الإفريقيين المتأخرين ممَّن رحل إلى الأندلس وأثرى فيها الحياة العلمية ، عبدالله بن محمد بن على بن شريف ، المعروف بالباجي (٢)، وهو من باجة القيروان (ت ٣٧٨هـ) ومن الفقهاء والمحدثين المكثرين ، وقد رحل إلى الأندلس كما ذكرنا ، فعاش فيها حتى توفي. ومن علماء الحديث الإفريقيين ، ممَّن رحل إلى الأندلس كذلك محمد بن الحسن الطبني (٣)(ت :٣٩٠هـ) وهو فقيه محدث ، رحل صغيراً إلى الأندلس، وبقى فيها إلى أن توفي ، ومنهم كذلك محمد بن القاسم بن أبي حاج القروي (٤)

---

(١) عالى الحديث ، مصطلح حديثي يعني علو درجة الإسناد وقربها من النبي ﷺ وينقسم إلى قسمين : الإسناد العالي المطلق ، وهو ماقرب رجال سنده من رسول الله ﷺ بسبب قلة عددهم ، وإذا قيسوا بسند آخر يرد في ذلك الحديث نفسه بعدد كثير . وأما الإسناد العالي النسبي فهو ماقرب رجال سنده من إمام من أئمة الحديث كمالك والأعمش وغيرهما ، أو قربوا من كتاب من الكتب المعتمده المشهورة كالكتب السته والمطأ . وسمى نسبياً لأن العلو فيه إضافي لاحقيقي . أنظر صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٢٣٦– ٢٢٧ .

(٢) الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، ص ٣٣١ .

(٣) عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين ، ص ٢٣ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٥٩٦ – ٥٩٧ .

(كان حياً عام ٤٠٠هـ) ، وهو محدث ذو رواية واسعة . وقد بقى هناك حتى توفي .

ومن بين الذين رحلو إلى الأندلس ، اسحاق بن الوليد بن موسى بن اسحاق بن ابراهيم بن عبدوس القروي الذي لا نعرف سنة وفاته ، وهو فقيه محدث وقد سمع في بلده القيروان عن محمد بن أبي زيد القروي . ويذكر ابن بشكوال عنه ، أنه ذو علم بالحديث وبصر بالرجال . (١)

وأخيراً هناك عالم حديث إفريقي مشهور ، سكن الأندلس وهو أبو عمرو (٢) السفاقسي ، من أشهر المحدثين الذين سكنوا الأندلس وأثروا فيها الدراسات الشرعية ، وممَّا يؤثر عن سعة علمه بالحديث (أنه من حفاظ الحديث المشهورين به وبطرقه ، وبأسماء رجاله منسوباً إلي معرفته وفهمه ، وكان يملي الحديث من حفظه ويتكلم عن أسانيده ومعانيه ، ذاكراً الغريب ، والآداب ، ممَّن عنى بالرواية ، وشهر بالفهم والدراية) (٣) .

---

(١) ابن بشكوال : نفس المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ١١٢.

(٢) ترجمته عند ابن بشكوال : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٠٨ – مخلوف : نفسه ، ص ١٠٩ .

(٣) ابن بشكوال : نفسه ، ج٢، ص٤٠٨– ٤٠٩ .

علـــــوم القـــــرآن

- علوم القرآن في عصر الولاة .
- علوم القرآن في عصر الأغالبة .
- علوم القرآن في عصر الفاطميين .
- علوم القرآن في عصر الزيريين .

علـــــوم القــرآن

توطئـــــة :-

لعل من الواجب قبل أن نتحدث عن علوم القرآن في إفريقية خلال الفترة موضع الاهتمام ، أن نعطى نبذة مختصرة لعلوم القرآن من حيث بدايتها وفروعها وبعض أمورها في المشرق الإسلامي ، لارتباط ذلك بحديثنا عن دراسات علوم القرآن في إفريقية .

غنى عن القول بأنه لم يكد القرن الثاني الهجري ينته ، حتى كانت العلوم الشرعية قد استقرت أسسها، وتقننت قواعدها المختلفة . ومن بين تلك العلوم : علوم القرآن الكريم التي انبثقت منه وحده ، كالقرآءآت والتفسير وغير ذلك . ومن المعروف أن علم القرآءآت الذي يعنى كيفية النطق بالقرآن ووجوهه المحتملة (١) كان أسبق في الظهور من التفسير وغيره من العلوم الأخرى . ونحن بالطبع لايهمنا من هذا إلاّ الإشارة إلى أن علم القرآءآت قد استقرت أسسه في الدولة الإسلامية على يد سبعة من العماء أصبح المعول على قرآءآتهم في الأمصار الإسلامية ، ولقد مثل كل واحد من أولئك العلماء السبعة ، مدرسة خاصة به في القرآءآت متواترة عن النبي ﷺ (٢) .

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٨ – محمد الفاضل بن عاشور التفسير ورجاله ، ط٢ ، ص ٣٦- ٣٨ .

(٢) ابن الجزرى : غاية النهاية في طبقات القراء وماورد في جزئيه عن طبقات القراء وأسمائهم وشيوخهم – مخلوف : نفسه ، ص ١٨ – ١٩– عبدالسلام الكنوني : المدرسة القرآنية في المغرب ، ص ٥٣- ٥٤ .

ولقد ظهرت هذه المدارس السبع في كل من الحجاز والشام والعراق ، وأصبح لها شهرة عريضة (١) في كل العالم الإسلامي ، وإلى جانب هذه المدارس نشأت ثلاث مدارس أخرى ، فأصبح عددها عشر مدارس ارتبط بها علم القرآءات (٢) .

وإلى جانب علم القرآءات ، عرف المشرق علوماً أخرى استخلصها المسلمون من القرآن العظيم كالتفسير ، وعلوم أخرى مثل : ناسخ ومنسوخ القرآن ، وأحكامه وإعرابه ، وإعجازه، وفضائلة ، وقصصه وغريبه (٣).. الخ .

وفي هذا الوقت الذي شهد فيه المشرق ذلك الإزدهار العلمي في علوم الشريعة ومنها علوم القرآن ، كانت إفريقية توالي جهودها العلمية في الاهتمام بالفقه للحاجة العظمى إليه في الناحيتين : التعبدية والدنيوية . وبالطبع فقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً . غير أن أهل إفريقية مالبثوا بعد لأي أن أخذوا يولون علوم القرآن العناية التي تستحقها ، وسنرى من خلال حديثنا عن دراسات علوم القرآن ، أن هذه العلوم قد لقيت من الإهتمام والعناية والعطاء مالم تلقه أي علوم شرعية أخرى فيما عدا الفقه طبعاً ، وليس من شك في أن تلك العناية وذلك العطاء الثر الذي ستأتي على ذكر

---

(١) مخلوف : نفسه ، ص ١٨-١٩ - عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٣ .

(٢) عن هذه المدارس أنظر عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ج٣، ص ٥٣- ٥٤.

(٣) عن علم التفسير ورجاله ومناهجه أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٩٥ - ٢٠٦ - ضحى الإسلام ، ج٢، ص ١٣٧ - ١٥٠ - ظهر الإسلام ، ج١ ، ص ٣٥ -٤٩ - محمد الفاضل بن عاشور : التفسير ورجاله ،ص ١٥ -٣٣ ، وغير ذلك ..

أبعاده ، قد جاء من احترامهم العميق لكتاب الله والشغف بكنوزه العظيمة .

وفي الحقيقة ، فإنه إذا فات المغاربة ، شرف تأسيس مدارس القرآءآت تلك التي أشرنا إليها ، وإذا فاتهم كذلك شرف الإسهام في علوم القرآن الأخرى من تفسير وخلافه ، فإن ممّا يؤثر ويذكر لهم أنهم أسهموا بعد ذلك في إثراء علوم القرآن دراسة ومذاكرة وتأليفاً و إثراءاً إعترف فيه لهم المشارقة كما سنعرف بالإمامة والمشيخة في علوم القرآن . وسيلمس المتتبِّع لدراسة علوم القرآن في إفريقية من جهة أخرى أن المغاربة لم يتركوا جانباً من جوانب علوم القرآن ، إلاَّ وقد اهتموا به دراسة ومذاكرة وتأليفاً .

على أننا لاحظنا في متابعتنا لعلوم القرآن في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، بأن علماء المذاهب الفقهية ، والمذاهب الدينية السياسية ، الذين عاشوا في إفريقية وقتذاك ، لم يكونوا سواء في إهتماماتهم بعلوم القرآن . فالواقع ، أنه فيما عدا علماء المالكية ، لم نعثر على مايدل على اسهامات أتباع بقية المذاهب الفقهية كالحنفي والشافعي ، أو أتباع المذهبين الإباضي ، والشيعي ، اللهم إلاَّ ماهو ثابت من إهتمام بعض علماء المذهب الشيعي بالتفسير أو التأويل .

وثمة أمر آخر ، لاحظناه كذلك ، وهو أنه باستثناء إهتمام علماء مدينة القيروان بعلوم القرآن ، لم تتضح لدينا أي إسهامات لعلماء بقية مدن وأقاليم إفريقية في علوم القرآن ، هذه . ونستثنى من ذلك العصر الزيري ، الذي ظهر فيه علماء من بقية مدن إفريقية في تلك العلوم .

علوم القرآن في عصر الولاة :-

علينا بادئ ذي بدء أن نشير إلى أننا لانملك معلومات توضح لنا بجلاء مسيرة دراسات علوم القرآن في هذا العصر . غير أن ماهو مؤكد هو أنه حيثما حل المسلمون ، كان يحل معهم كتابهم الخالد : القرآن الكريم ، وعندما جاء المسلمون إلى المغرب فاتحين ، كان من الطبيعي أن يحرصوا علي نشر القرآن الكريم في هذا القطر . وما من ريب في أن الفضل في دخول القرآن الكريم وقد جاء عبر مسارين : محفوظاً في الصدور ، ومكتوباً في المصاحف ، يعود لطالعة الفاتحين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين تصدوا لنشره بين أبناء البلاد الأصليين (١) .

أولاً : القـــرآءآت :

ليس لدينا ثمة شك في أن تلك الجموع من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين تقاطروا على المغرب فاتحين ومعلِّمين ، يمكن النظر إليهم بمثابة بعثات قرآنية ، جهدت في تلاوة القرآن الكريم على مسامع السكان ، وإرشادهم إلى تعاليمه العظيمة ، ونحن نتفق مع عبدالسلام الكنوني في أن المغاربة – وقد إنجذبوا للدين الجديد بعد أن تبينت لهم حقائقة – قد حاولوا تقليد المسلمين الفاتحين وغيرهم ، محاكاةً لهم من جهة ، وتأثراً وانفعالاً بالقرآن الكريم حتى ولم تكن قد صحت بعد لغتهم العربية من جهة

(١) أنظر عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ٢٩-٣٣ .

أخرى (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإنه فيما يتعلق بمدارس القرآءات التي عرفتها إفريقية خلال عصر الولاة ، فإننا لا نعرف شيئاً عنها ، وإن كان يغلب على الظن أن إفريقية قد عرفت خلال هذا العصر كل أو معظم القرآءات المعروفة آنذاك ، فلم يقتصروا على حرف أو مذهب واحد في القرآءة . ونحن بالطبع لم نشر إلى هذا الاحتمال ، إلاَّ لأن المغرب بعد ذلك عرف الاقتصار على حرف واحد أو مدرسة في القرآءة واحدة كما سنعرف بعد قليل .

أما عن علماء أو أعلام القرآءات في هذا العصر ، فإننا للأسف لم نوفق في العثورعلى مايشير إليهم تنصيصاً ، بيد أن مايمكن قوله هو أن كل التابعين الذين وفدوا على إفريقية سواء من استقر منهم فيها أو رحل ، وسواء أفراد البعثات العلمية الرسمية أو الفردية يمكن عدهم أئمة وقراء مبكرين ، ولعل المقرئ الوحيد الذي يظن أنه قد عاش في عصر الولاة ، هو كروم بن خالد المغربي التونسي المكنى بأبي خالد . وقد يقال كروم بن خليد أو خليد ، فقد رحل إلى المدينة فقابل الإمام نافعاً بن عبدالرحمن بن أبي نعيم ، وقرأ عليه (٢) . ولم يشر ابن الجزرى إلى سنة وفاة كروم بن خالد ، لكننا نعرف أن نافعاً بن عبدالرحمن بن أبي نعيم قد توفى سنة ١٦٩هـ (٣) ومن هنا غلب على ظننا أن يكون كروم قد عاش في عصر الولاة .

---

(١) نفسه ، ص ٢٢ .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج٢، ص ٣٢ .

(٣) هذا مايقوله ابن الجزري : نفسه ، ج٢، ص ٣٣٣ - ٣٣٤- وإن كان قد أورد كذلك بعض الأقوال عن وفاة نافع ،فقال : قيل سنة ١٧٠ وقيل ١٦٧أو ١٥٠ أو ١٥٧هـ ولكنه أورد أولاً سنة ١٦٩هـ =

ثانيـــاً : التفســـير :

أما عن التفسير ، وهو أحد أهم جوانب علوم القرآن الكريم ، فلاشك أنه قد لقى عناية هامة في إفريقية بوصفه مرتبطاً بكتاب الله الكريم نفسه، لتدبر معانيه ومقاصده وفهمه . ومع أننا لانستبعد أن يكون المغاربة قد عرفوا خلال عصر الولاة حلقات التفسير بمجرد انتهاء الفتح ، فإننا في الواقع لم نعثر على أي دلالات واضحة ترشدنا إلى مفسرين بعينهم ، أي اقتصروا على علم التفسر وحده . ويصدق هذا على التابعين الذين قدموا إفريقية سواء من استوطن منهم إفريقية ، أو الذين رحلوا عنها فيما عدا ماذكر عن تصدى عكرمة مولى ابن عباس للتدريس في جامع القيروان عندماجاء إفريقية واستوطنها لبعض الوقت (١)، وما من شك أن من بين تلك العلوم الشرعية التي كان يلقيها عكرمة في الجامع ، علم التفسير، لاسيما وأن عكرمة ممن اشتهر باهتماماته في التفسير الذي تلقاه عن أستاذه ومولاه عبدالله بن عباس (٢). وأما عن أبناء البلاد الأصليين . فلم نعرف أي ذكر لمفسرين في هذا العصر، حاشا ما يمكن عدهم من مفسرِّي عصر الأغالبة الذين عاشوا فترات طويلة من عمرهم في عصر الولاة، إلاَّ أن وفياتهم كانت في عصر الأغالبة كما سنعرف عند حديثنا عن علوم القرآن في عصر الأغالبة ، وذلك بالطبع تمشياً مع ماسرنا عليه من منهج تنظيمي وموضوعي لسيرة الدراسات الشرعية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة

= كما هو في المتن .

(١) أنظر قبل ص ٩٥ .

(٢) أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ،ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

وفيما يتعلق بعلوم القرآن الأخرى ، فلم نعثر على أي مجهودات توضح لنا أبعاد دراسة علوم القرآن .

علوم القرآن في عصر الأغالبة :

وإذا كانت مسيرة دراسات علوم القرآن لم تتضح صورتها تماماً في عصر الولاة ، فإنها في عصر الأغالبة كانت على النقيض من ذلك . فلقد شهد هذا العصر ازدهاراً متعلقاً بتلك العلوم في الكم والنوع .ففيه اقتصرت إفريقية على حرف ووجه واحد في القرآءة حسبما سنعرف بعد هنيهة ، وفيه عرفت إفريقية مصنفات متخصصة في جوانب علوم القرآن . ومن ناحية الكم ، فقد طالعتنا بعض المصادر المتخصصة في علوم القرآن وغيرها بأسماء عدد من القرآء والمفسرين ، ممّن تخصص في فرع واحد من علوم القرآن ، أو جمع بين علوم القرآن وغيرها من العلوم الشرعية .

أولاً : القراءات :-

وعلى أية حال ، ففيما يتعلق بالقرآءات ، نجد لدينا ذكراً لمقرئ مبكر خلال هذا العصر ، هو حسنون الدباغ ، ولانعرف عنه أكثر من هذا ، قال أبو العرب التميمي (١) إنه من قراء القرآن المعروفين بالقيروان ، وإليه

---

(١) نفسه ، ٦٤ .

تنسب طريقة معينة في ترتيل القرآن أو مايطلق أبو العرب عليه اللحن (١)، فذكر أنه ينسب إليه اللحن الحسنوني .

ومن علماء القرآءات في إفريقية كذلك أبو يحيى زكريا بن يحيى بن ابراهيم بن عبدالله المعروف بالوقار (٢) ، وهو مصرى الأصل ، قدم إفريقية في سنة ٢٠٥هـ . وذكر ابن فرحون (٣) أنه قرأ القرآن على نافع المدني ، وعنه أخذ أبو عبدالرحمن المقرئ حرف نافع بن أبي نعيم ، وأن محمداً بن برغوث القروي روى عنه القرآءة ، وذكر كذلك أنه توفى في سنة ٢٥٤هـ ، وقيل ٢٦٣هـ .

ومن قرآء عصر الأغالبة ، أبو عبدالله محمد بن برغوث القروي (٤) ، فقد أخذ القراءة عن عدد من العلماء ، وروى عن نافع بن أبي نعيم (٥) ، وروى القرآءة عنه أبو العرب محمد بن أحمد التميمي ، ويذكر المالكي (٦) أن أبا العباس عبدالله ابن أحمد بن طالب المتوفي سنة ٢٧٥هـ أو ٢٧٦هـ كما عرفنا من قبل ، طلب في أيام توليه القضاء في إفريقية من محمد بن

---

(١) نفسه .

(٢) ابن فرحون : نفسه ، ص ١١٨.

(٣) نفسه ، ص ١١٨ .

(٤) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٤ .

(٥) لاشك أنه روى القراءة عن نافع بن أبي نعيم بطريق غير مباشر ، وإلا فلا يعقل أن يكون بينه وبين أستاذه نافع أكثر من مائة سنة ؟ وقد عرفنا من قبل أن نافعاً توفى على الأشهر سنة ١٦٩هـ بينما توفى محمد بن برغوث سنة ٢٧٣هـ .

(٦) نفسه ، ج١ ، ص٣٧٨. ولاشك أن ذلك قد حدث في ولايته الأولى للقضاء ، وليس في الثانية التي توفى على اثرها وهي المؤرخة بعام ٢٧٥هـ .

برغوث المتصدر للقرآءة في جامع القيروان ، ألاّ يقرئ الناس إلاّ بحرف نافع وقد توفى ابن برغوث كما يذكر ابن الجزري عام ٢٧٢هـ (١) . ومنهم أبو عبدالرحمن المقرئ (٢) الذي أشرنا إليه في حديثنا عن أبي يحيى زكريا الوقار ، وذكرنا عن ابن فرحون أنه تلقى القرآءة بحرف نافع عن أبي زكريا الوقار (٣) المذكور.

والآن وقد استعرضنا أسماء من أسعفتنا الظروف بذكرهم من القرآء نود الإشارة إلى موضوع مهم ، وهو انتشار قرآءة نافع بن أبي نعيم المدني في المغرب الأدنى ، بل في بقية المغرب . ولعل السبب في ذلك هو ماثار حول هذا الموضوع من خلاف في دخول القرآءآت إلى المغرب والأندلس وتاريخ ذلك ، ثم دخول قرآءة نافع والإختلاف في أولية من قام بذلك ، يقول عبدالسلام أحمد الكنوني (٤) : إن ابن المجزري صاحب كتاب : النشر في القراءات العشر يذكر أن أهل الأندلس وأهل المغرب لم يكونوا يعرفون شيئاً عن القراءات المختلفة حتى جاء أحمد بن محمد بن عبدالله الطلمنكي وهو أحد كبار علماء قرآء الأندلس (٥) (ت :٤٢٩هـ) ، فأدخل القرآءآت إلى الأندلس وبالتالي المغرب بعد ذلك ، ونحن بالطبع يهمنا الإشارة إلى أنه فيما

---

(١) ابن الجزري : نفسه .

(٢) ابن فرحون : نفسه ، ص ١١٨ .

(٣) انظر نفسه .

(٤) نفسه ، ص ٥٤ – ٥٥ .

(٥) ترجمته عند عياض : نفسه ، ج٢، ص٧٤٩ – ٧٥٠ – السيوطي : طبقات المفسرين، ص٥ ، وكلاهما يرجح أن وفاته كانت سنة ٤٢٩هـ، وليس سنة ٤٤٠هـ كما ذكر الكنوني في ، ص ٥٤ .

يختص بالمغرب الأدنى وهو مايهمناهنا عرف التخصص في قرآءة معينة ، وهي قرآءة نافع المدني ، وقد عرفنا عند حديثنا عن القرآء الذين عاشوا في عصر الأغالبة ، أنهم كانوا يقرؤون بحرف نافع ، مع أننا لاننكر أنه كانت هناك قراءات أخرى - وما ذكرناه عن أحمد بن طالب القاضي لابن برغوث بأن يقرئ الناس بحرف نافع فقط ، دليل على صدق مأأشرنا إليه ، ثم لدينا دليلاً آخر على أن المغاربة عرفوا القرآءات المختلفة ، ولكنهم كانوا يركزون على قرآءة نافع ، ورد في كتاب آداب المعلمين (١) لمحمد بن سحنون عندما كان يتحدث عن التعليم بالكتاتيب ما نصه : (ويلزمه (أي المعلم) أن يعلمهم ماعلم من القرآءة الحسنة ، وهو مقرأ نافع ولابأس أن أقرأهم لغيره إذا لم يكن مستبشعا، مثل « يبشرك » و« ولده » و« جرم على قرية » ، ولكن يقرئها « يبشرك » و« ولده » و« حرام على قرية » وما أشبه هذا ، وكل ما قرأ به أصحاب رسول الله ﷺ) .

وهكذا فإن أهل المغرب الأدنى عرفوا معظم القرآءات ، ولكنهم اقتصروا على قرآءة نافع لأن نافعاً كما هو معروف إمام قراء المدينة المنورة وقد عرفنا من قبل شدة تعلق المغاربة بأرض الحرمين : مكة والمدينة، ثم لأن نافعاً كما ذكرنا شيخ الإمام مالك بن أنس إمام المذهب المالكي في القرآءة ، وكان يصلي خلفه ،بينما كان نافع يأخذ عن مالك موطأه (٢). ومن هنا كان من الطبيعي أن يهتم أهل إفريقية بقرآءة أو مدرسة نافع في قرآءة القرآن الكريم .

(١) ص ١٠٢ - ١٠٣ ، وأنظر الحواشي في الصفحتين السابقتين .

(٢) انظر مخلوف : نفسه ، ص ١٩ - الكنوني : نفسه ، ص ٥٥ .

على أننا مالبث أن نفاجأ في ترجمة لأحد قرآء العصر الفاطمي ، من أنه هو الذي قدم بقرآءة نافع على أهل إفريقية . فقد ذكر عن أبي عبدالله محمد بن خيرون المعافرى الأندلسي الذي استوطن القيروان وتوفى بها سنة ٣٠٦هـ (١) ، أنه قدم بقرآءة نافع على أهل إفريقية ، وأن الغالب عليهم قبل مجيئه قرآئتهم لحرف حمزة بن حبيب الزيات الكوفي ، وأن حرف نافع لم يكن يعرفه آنذاك سوى خاصة من الناس حتى قدم ابن خيرون به (٢) . هذا مايقوله من ترجم لابن خيرون ، لكننا ونحن لانملك ماندفع به هذا القول سوى ماقلناه سابقا ، لانستبعد أن يكون ابن خيرون صاحب الأولوية في نشر قرآءة نافع في افريقية بشكل واسع ، صاحب الأولوية في ادخاله (٣) ، ومهما يكن فقد عرف المغرب الأدنى قرآءة نافع في عصر الأغالبة ، سواء كان ابن خيرون هو الذي جاء بها ولاسيما أنه قضى مدة طويلة من عمره في عصرهم ، ولم يشهد من عصر الفاطميين إلاّ عقداً واحداً فقط ، أو أن المغرب الأدنى عرف حرف نافع بجهود من سبقه ممّن أشرنا إليهم سابقا .

---

(١) عن سنة وفاته والإختلاف في ذلك انظر بعد ص٤١٣ مع الحاشية رقم (١) .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٧ - عبدالسلام الكنوني ، نفسه ، ص ٥٥ .

(٣) أنظر رد عبدالسلام الكنوني الموضوعي : نفسه ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ثانيــاً : التفســـيــر :-

لعل أهم ماميز مسيرة دراسات التفسير في عصر الأغالبة ، أنها عرفت عدداً من المفسرين الذين كانوا يتصدون لدراسته ومذاكرته في حلقات العلم في الجوامع وغيرها ، كما أنها، أي مسيرة دراسات التفسير - قد عرفت مصنفات في التفسير - كان لها أهمية في المغرب الأدنى ، وفي بقية المغرب والأندلس ،

ويأتي في مقدمة المفسرين المشهورين لا في هذا العصر فقط ، بل وفي كل عصور فترات الرسالة أبو زكريا يحيى بن سلام بن ثعلب أو ابن أبي ثعلب التيمي ولاءً من تيم ربيعة البصرى الإفريقي (١) (ت ..٢هـ) . وأبو زكريا يحيى بن سلام من أبناء المشرق الذين استوطنوا إفريقية وعاشوا بها مدة مديدة من عمرهم حتى أصبحوا ينسبون إليها . وقد عرفنا من قبل شيئًا عن دوره في إثراء الدراسات الحديثية لكن العلم الذي اشتهر به هو التفسير . على أننا نستدرك فنقول بأن من حق الأمانه والإنصاف أن نشير إلى أننا فيما عدا كتابه في التفسير لانعرف أي نشاط آخر له ، والمؤكد أن شهرته كمفسرٍ جاءت من تصنيفه لكتابه : التفسير المشهور باسمه (٢)

---

(١) ترجم له كل من أبو العرب التيمي : نفسه ، ص٣٧ - ٣٩ - المالكي : نفسه ، ص١٢٢- ١٢٥ - الداودي : طبقات المفسرين ج٢، ص ٣٧١ - الزركلي : نفسه ، ج٨ ،ص ١٤٨ . ويرى في حاشيته رقم (١) من نفس الصفحة أن ضبط ابن سلام بالتشديد أولى حسبما رجحته المصادر التس نقل عنها كما أنه رجح أن ينطق ابن سلام بدون أل التعريف لأنه هو الأصوب .

(٢) الــدوادي : نفس المصدر والجزء والصفحة أعلاه - الزركلي : نفسه أعلاه - محمد الفاضل بن=

ومهما كان الأمر ، فإذا مضينا نطالع ما ذكر عن كتابه : التفسير ، أمكننا أن نحكم على مكانة ابن سلام العلمية في المغرب بل وفي المشرق ، والواقع أن تفسير يحيى بن سلام كانت له وما تزال أهمية كبيرة بين الكتب التي ألفت في التفسير ، فهذا الكتاب يعد كما يقول محمد الفاضل بن عاشور (١) : حلقة مهمة في تسلسل تطور علم التفسير بين المصنفات التي صنفت في منتصف القرن الثاني الهجري ، والتي تنتهج التفسير بالأثر أو المأثور ، والتي يمثلها تفسير عبدالملك بن جريج (٢) المتوفي سنة ١٥٠هـ ، وبين المصنفات التفسيرية التي ظهرت في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري والتي تنتهج التفسير بالأثر وبالنقد في آن واحد معاً ، والتي يمثلها تفسير محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ (٣) ، ذلك لأن تفسير يحيى بن سلام يقوم على إبراز الأخبار المسندة ، ثم التعقيب عليها بالنقد والاختيار المبني على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي على حرف واحد في القراءات ، وهو قراءة ابن مدينته البصرة : أبو عمرو ابن العلاء البصري (٤) .

= عاشور : التفسير ورجاله ، ص ٤٣ .

(١) التفسير ورجاله ، ص ٤٢- ٤٣ .

(٢) عن تفسير عبدالملك بن جريج ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٠٥ - ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ٤٢ - محمد الفاضل بن عاشور : نفس المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) عن تفسير محمد بن جرير الطبري أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٠٦ ، ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٢٩ - ١٥٠ - محمد الفاضل بن عاشور : المرجع السابق أعلاه ، ص ٤٢ -٤٣ .

(٤) محمد الفاضل بن عاشور : المرجع السابق أعلاه ، ص ٤٢ -٤٣ .

وتفسير يحى بن سلام مهم من ناحية ثانية ، ذلك لأنه يعتبر من أقدم التفاسير المحفوظة ، التي لم تعبث بها الظروف منذ عصر صاحبها ، فلقد بقى منها أجزاء عديدة بتجزئة مؤلفها نفسه ، وممّا هو جدير بالذكر أن تفسير ابن سلام يقع في ٣٠ جزءاً ، أي مايعادل ٣ مجلدات ضخمة بعرف اليوم (١) .

وتأتي أهمية تفسير يحى بن سلام من ناحية ثالثة ، من أنه أقدم مجهودات علماء إفريقية العلمية في التفسير ، فهو في هذا الشأن يعد فاتحة بواكير مصنفات التفسير هناك ، ولقد أفسح هذا المصنف الطريق إلى تكاثر مصنفات التفسير فيما بعد .

وكيفما كان الأمر ، فقد نال هذا الكتاب شهرة عريضة في المغرب الأدنى والأندلس ، والمشرق . ولقد قال فيه ابن الجزري (٢) : إنه ليس لأحد من المتقدمين مثله . أما أثره في الأندلس ، فلقد حرص علماؤها على إدخاله إلى بلادهم كما فعل محمد بن وضاح الصدفي (٣) ، بل واختصاره لابرازه إلى أبناء بلده سهلا ميسراً ، كما فعل العالم الأندلسي الآخر أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى بن أبى زمنين المتوفى سنة ٣٩٩هـ (٤) .

---

(١) محمد الفاضل بن عاشور : نفسه ،ص ٤٣- ٤٤ .

(٢) محمد الفاضل بن عاشور : المصدر السابق ،ص ٤٣ - الزركلي : المرجع السابق ، ج ٨، ص ١٤٨ .

(٣) أنظر عبدالسلام الكنوني : المرجع السابق ،ص ١٢٥- ١٣٥ .

(٤) أنظر عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ١٣٢ ، ١٦٥ - ١٧٠ .

ومادمنا لانزال نتحدث عن تفسير يحيى بن سلام ، فإننا نود الإشارة إلي أننا لانتفق مع الطاهر المعمورى (١) فيما ذهب إليه من أن التفسير لم يحتل بأفريقية مكانة مهمة كغيره من العلوم ، لعدم الحاجة إليه من جهة ولضعف استعداد الإفريقيين من جهة أخرى . كما أننا لانتفق معه كذلك فيما يراه من أن أشهر من كتب في التفسير من الإفريقيين إبتداءً من يحى ابن سلام ، ومروراً بمكى بن أبي طالب ، وانتهاءً بأحمد بن عمار المهدوي اللذين سنترجم لهما بعد في موضعه ، لايعتبرون إفرازاً علمياً في التفسير ممَّا أنتجته البيئة الإفريقية . ويقول صراحة أن إفريقية لم تكن هي التي دفعتهم إلى وضع تفاسير اشتهرت بنسبتها إلى افريقية ، بل الأجواء الخارجية من مشرقية وأندلسية هي التي بعثت تلك الهمة . فأما عما ذكره من أن التفسير لم يلق الاهتمام المطلوب في إفريقية ، فإن ظهور أعداد من المفسرين فيها ، سواء في عصر الأغالبة ممن سنتطرق لذكرهم بعد قليل ، أو غيرهم في عصري الفاطميين والزيريين دليل واضح على مقدار الاهتمام بالتفسير ، وصحيح أن التفسير في إفريقية لم يرق إلى المكانة التي بلغتها علوم شرعية أخرى كالفقه والحديث ، وكذلك لم يرق إلى مابلغته القراءآت من اهتمام في إفريقية ، إلاَّ أن ذلك لاينفى عدم وجود مفسرين كما لايجيز لنا اتهام المغاربة بضعف الاستعداد العلمي في التفسير .

وفيما يتعلق بالشق الثاني من رأيه فيما يختص بأصول وتكوينات

---

(١) جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي في تقديمه لعلم التفسير ، ص ٣٢-٣٣ .

المفسرين المشهورين كيحيى بن سلام ومكي بن أبي طالب وأحمد بن عمار المهدوي فإننا وإن كنا نتفق معه في أن ابن سلام مشرقي الأصل والنشأة والتكوين العلمي ، غير أن الأثر العلمي الذي تركه في إفريقية وعلى رأسه التفسير ، قد أسبغ على البلاد تقدماً علمياً معروفاً . فلايمكننا أن نغفل دور تفسير ابن سلام وتأثيره في الأجيال الإفريقية ، أما مكي بن أبي طالب وأحمد بن عمار المهدوي ، فإن الاتفاق على أنهما ولدا وعاشا في إفريقية مايدل على أنهما أصلاء هذا القطر على مع أنهما قد عاشا بعد ذلك في الأندلس كما سنعرف .

وبالإضافة إلى ابن سلام، فإن أسداً بن الفرات المتوفى سنة ٢١٣هـ كما عرفنا يمكن عده من المفسرين أيضاً في عصر الأغالبة ، فلقد ذكر عنه أنه كان يقرأ بعض التفاسير في دروسه على طلبته ومريديه (١) ، ومن المفسرين كذلك في هذا العصر أبو داود العطار (٢) (ت: ٢٤٤هـ) وقد ذكر أنه هو الذي روى تفسير شيخه يحيى بن سلام عنه ، وأن محمداً بن وضاح الصدفي ، الذي ذكرنا أنه أدخل تفسير ابن سلام إلى الأندلس أخذ رواية تفسير ابن سلام عنه .

ومن المفسرين أيضاً محمد بن يحى بن سلام ابن القيه المحدث يحى ابن سلام نفسه ،فقد روى أن له زيادات على تفسير والده أفردت باسناد

---

(١) عياض :نفسه ، ج١ ، ص ٤٧٣-٤٧٥ - ابن السراج : نفسه ، ج١، ق١، ص٧٤٩ مع الحواشي .

(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٤ ، ص ١٠ - عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ١٣٥ .

عنه، ويذكر ابن خير الأندلسي (١) في فهرسته أنه – أي ابن خير – ، قد تلقى زيادات محمد بن يحيى على تفسير أبيه من عدد من شيوخه في الأندلس ، الذين تلقوها عن يحى بن محمد بن يحيى بن سلام عن أبيه محمد بن يحى .

ثالثا : علوم القران الأخرى :

ليس لدينا في الواقع مايشير إلى إسهامات المغاربة في علوم القرآن الأخرى ، سوى ماذكر عن تأليف الفقيه المشهور محمد بن سحنون المتوفى ٢٥٦هـ لكتاب كبير في أحكام القرآن (٢) .

علوم القرآن في عصر الفاطميين :

تابعت علوم القرآن جملة تطورها وازدهارها في عصر الفاطميين ، فقد توسعت المصادر والمراجع في ذكر العديد من القرآء ، وكذلك في ذكر مصنفات البعض منهم في القرآءات ، أما التفسير ، فقد عرف في عصر الفاطميين مصنفات عدة ، ولكنها شيعية الإنتماء ، ويمكن أن نقول بإن الإزدهار قد مس كذلك بقية علوم القرآن الأخرى .

---

(١) وهي فهرسة ، مارواه عن شيوخه ، تحقيق فرانسسكو كوديرا وخليان ريباره ، ط٢ ، ص٥٦-٥٧.

(٢) محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين بتحقيق حسن حسني عبدالوهاب ص ٢٧- عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ١٤٧ -١٤٨ .

أولاً : القرآءآت :

لعل أشهر القرآء في هذا العصر ، هو محمد بن عمر بن خيرون المعافري الأندلسي القروي المكنى بأبي عبدالله (١) (ت : ٣٠٦هـ) ، ومحمد ابن عمر بن خيرون ، قدم إفريقية واستطونها وبث فيها علمه . ولقد أتفق على إمامة ابن خيرون في علم القرآءآت ، وأشار معظم من ترجم له على أنه أخذ القرآءآت عن كثير من علماء المشرق المشهورين ، وقد عاد إلى القيروان فنشر بها علم القرآءآت بين طلبته (٢) . وذكر ابن الجزري (٣) عن الداني المقرئ الأندلسي المشهور – وهو أحد رجالات القرن الرابع الهجري – ، أن

---

(١) أبو عبدالله محمد بن عمر بن خيرون المعافري الأندلسي مقرئ مشهور (ت٣٠٦هـ) في القيروان ، وله ابن يسمى محمد أيضا – وقد ترجمنا له في المتن كما سيأتي بعد قليل – ومن هنا وقع الخلط لدى معظم المصادر بين أبي عبدالله محمد بن عمر بن خيرون الأب ، وبين الابن أبي جعفر محمد ابن محمد بن عمر بن خيرون (ت مقتولا عام ٣٥١هـ على يد الشيعة) ، وممّا زاد في وقوع المصادر في الخلط هذا بين الأب وابنه بالإضافة إلى تشابه التسمية ، اشتغال الأب والابن بعلم واحد ، هو القرآءآت . أنظر هامش ص ٥٣٠٥٢ من الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس الذي حققه بشير البكوش ، وعلى كل حال ففيما يتعلق بالأب محمد بن عمر بن خيرون فقد ترجم له مجموعة من المؤرخين منهم المالكي : نفسه ، ص ١٣٥– ١٣٦ ، (وعنه أنه توفي عام ٣٠٥هـ ، وهو الوحيد بين كل المؤرخين الذي ترجموا لابن خيرون ، الذي قال ذلك) – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج٢، ص ١٠ –١١ (ويخلط بين محمد بن عمر خيرون هذا وبين ابنه أبي جعفر محمد) – الضبي : بغية الملتمس : ص ٧٣– ٧٤ (وهو يخلط كذلك بين الأب وابنه) – الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٥٤ – ابن الجزرى : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٧ (وهو يسميه باسمه الدال عليه محمد بن عمر بن خيرون) – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨١ .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق والجزء ،ص ١٠ – ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ – مخلوف : نفسه ، ص ٨١ .

(٣) نفسه ، ج٢، ص٢١٧ .

ابن خيرون أقرأ الناس بقرآءة نافع من رواية ورش ، كما ذكر أيضاً أنه كان (يأخذ أخذا شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش (١) وسلك أصحابه في ذلك طريقه ، وكذلك من أخذ عنهم إلى اليوم (٢) ، ولقد سبق لنا أن ناقشنا رأى ابن الجزري الذي يقول فيه بأن ابن خيرون هو الذي قدم بقرآءة نافع إلى المغرب الأدنى ، وقد كانت تغلب عليهم قرآءة حمزة ، وقلنا إن ابن خيرون ربما كان أو من نشر قرآءة نافع بشكل واسع وهو مايدل عليه قول ابن الجزرى (إجتمع عليه الناس ، ورحل إليه القرآء من الآفاق) (٣) . وعلى أية حال فقد ترك ابن خيرون كتباً في القرآءآت منها : كتاب الابتداء والتمام ، وكتاب الألفات واللامات (٤) .

ومن القرآء في هذا العصر ممَّن وردت أسماؤهم عرضاً في ترجمة محمد بن خيرون المعافري : محمد بن محمد بن عمر بن خيرون ، وشقيقه علي بن محمد ابنا المقرئ محمد بن عمر بن خيرون نفسه (٥) . وكذلك أبو

---

(١) ورش : هو أبو عثمان بن سعيد ، وقيل سعيد بن عبدالله بن عمرو بن سليمان بن ابراهيم ، وقيل سعيد بن عدي ، أبو سعيد ، وقيل أبو القاسم وقيل أبو عمرو القرشي بالولاء ، القبطي المصري الملقب بورش . وهو من شيوخ القرآء المشهورين ، وقد أخذ القرآءة عن نافع ، وهو رواية مدرسة نافع في القرآءة ، بجانب معاصره أبي موسى عيسى ابن مينا الملقب بقالون . وبهمامعا اشتهرت مدرسة نافع المدينة . وتوفي ورش عام ١٩٧ هـ . انظر ابن الجزري : نفسه ، ج١، ص ٥٠٢ – ٥٠٣ .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ .

(٣) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ص ٢١٧ .

(٤) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ،ص ٢١٧ .

(٥) ابن الجزري : المصدر السابق ،ص ٢١٧ .

بكر الهواري المعلم ، وعبد الحكيم بن ابراهيم ، وعلي بن محمد البجائي ، وكلهم قدسمع وتلقى القرآءة بحرف نافع برواية ورش عن محمد بن عمر بن خيرون ذاته (١)

ومن قرآء عصر الفاطميين المعروفين : أبو جعفر بن محمد بن عبدالرحمن القصري (٢) (ت : ٣٢١هـ) وهو في الحقيقة فقيه ومحدث ومقرئ في الوقت نفسه ، ولعله هو نفسه أبو جعفر أحمد بن أبي بكر الذي أشار إليه ابن الجزرى على أنه واحد ممَّن تلقى القرآءآت عن ابن خيرون المعافري (٣) .

وممَّن جمع بين علوم شتى ومنها القرآءآت من علماء هذا العصر ، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي المتوفى سنة ٣٣٣هـ كما عرفنا سابقاً ، وأبو العرب تلقى علومه في القراءات في عصر الأغالبة (٤) .

ومن هؤلاء أيضاً أبو سليمان ربيع بن سليمان بن عطاء الله القطان المتوفى سنة ٣٣٣هـ ، والذي أشرنا مراراً إلى أدواره في نشر المذهب المالكي والدراسات الشرعية ، فقد ذكر الدواودي (٥) أن ربيعاً القطان كان ذا علم بالقرآن : تفسيراً ومعنى . ولقد سمع خلال رحلته من المشرق لعدد من علماء القرآءآت بجانب سماعه لعلماء الفقه والحديث

---

(١) ترجمة ابن خيرون عن ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ .

(٢) الزركلي : نفسه ، ج١ ص ٢٠٦ .

(٣) ترجمة ابن خيرون عن ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ .

(٤) ابن الجزري : نفسه ، ص ١٠٤ .

(٥) طبقات المفسرين : ج١ ، ص ١٧٠ -١٧١ .

هناك (١) . ومن القرآء العلماء الذي ورد ذكرهم ضمن ترجمة ربيع القطان ، أبو محمد بن يزيد المقرى (٢) والحقيقة أننا لانعرف عنه أكثر من اسمه فقط .

ومن علماء القرآءات المتأخرين في عصر الفاطميين ، محمد بن الحسين بن محمد بن ابراهيم بن النعمان المقرئ (٣) ، وقال ابن الفرضي (٤) عنه أنه ممَّن كانت له عناية بالقرآن وقرأ على عدد من العلماء بمصر . ولقد غادر محمد بن الحسين النعمان القيروان بعد عام ٣٦٠هـ إلى الأندلس ، حيث بقي هناك حتى توفي سنة ٣٧٨هـ (٥) .

ومنهم كذلك أبو جعفر عمر بن مثنى ، الذي نجهل تاريخ وفاته ، غير أن المعروف عنه أنه عاش في عصر الفاطميين ، لأنه عاصر جملة من علماء إفريقية المشهورين وقتذاك مثل أبي اسحاق الجبنياني (٦) . وقد ذكر عياض أن ابن مثنى اشتهر بالقرآءة برواية ورش ، كما أنه كان ذا معرفة بعلوم القرآن الأخرى كالناسخ والمنسوخ والإعراب والخاص والعام (٧) ... الخ .

---

(١) الداودي : طبقات المفسرين : ج١ ، ص ١٧١ .

(٢) الداودي : نفسه ، ص ١٧١ .

(٣) ترجم له كل من : ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ١٣٢ - ابن القرضي نفسه ، ج١ ، ص ١١٣ .

(٤) نفسه ، ج١ ، ص ١١٣ .

(٥) هذا ما أشار إليه ابن الجزري : نفسه ، ص ١٣٢ - أما ابن الفرضي : نفسه ، ص ١١٣ فقد قال إن وفاته كانت عام ٣٧٨هـ .

(٦) انظر عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٦٢٧ .

(٧) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٦٢٧ .

ثالثاً : التفسير :

ليس لدينا حقيقة مايشير إلى التفسير ورجاله في عصر الفاطميين فيما يخص علماء المالكية ، سوى ماورد باقتضاب في بعض المصادر المتخصصة ومع ذلك فلم نعثر إلاّ على ذكر لأربعة علماء فقط هم : أبو الأسود موسى بن عبدالرحمن القطان ، وأبو جعفر أحمد بن زياد ، وأبو سليمان ربيع القطان وأبو جعفر عمر بن مثنى . فأبو الأسود موسى القطان المتوفى سنة ٣٠٦هـ كما مر بنا سابقاً : عرفناه مدافعاً قوياً عن المذهب المالكي ، كما عرفناه فقيهاً من الفقهاء المعدودين ، لكنه بالإضافة إلى ذلك يعد مفسراً، وقد ترجم له الداودي في كتابه طبقات المفسرين (١) . ومعلوم أن هذا الكتاب لايترجم إلاّ للمفسرين فقط ، ومن هنا جاز أن نقول عن موسى القطان إنه كان مفسرا . وهذا الأمر ينطبق أيضاً على أبي جعفر أحمد بن زياد (٢) (ت : ٣١٩هـ) ، وأبي سليمان ربيع القطان (٣) المتوفي سنة ٣٣٣هـ اللذين أشرنا إليهما سابقاً . فهما متعددا المواهب في الفقه والحديث والتفسير ، وقد وردت لهما ترجمتان عند الداودي .

ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء الأربعة أبو جعفر عمر بن مثنى ، فهو بجانب كونه مقرذاً ، فقد كان عالماً بالتفسير كما يقول عياض (٤) .

---

(١) الجزء الثاني : ص٣٤١- ٣٤٣ .

(٢) مخلوف : نفسه ، ص ٨١١ .

(٣) الداودي : المرجع السابق ، ج٢، ص ١٧٠ – ١٧١ .

(٤) نفسه : ج٢ ،ص ٦٢٧ .

بيد أن عصر الفاطميين قد شهد توسعاً في علم التفسير الشيعي ، على يد عالمين من أبرز علماء المذهب الإسماعيلي آنذاك ، وهما : قاضي القضاه أبو حنيفة النعمان بن أبي عبدالله محمد بن حيون المتوفى سنة ٣٦٣هـ ، حسبما عرفنا من قبل ، وباب الأبواب جعفر بن منصور اليمن الذي أشرنا إلى دوره في الفقه الإسماعيلي من قبل ، فلقد ألف كلاهما كتباً في علم التفسير أو التأويل كانت ذات أهمية كبرى في خدمة المعتقد الشيعي الإسماعيلي .

فأبو حنيفة النعمان بن حيون كان منظراً شيعياً بلغة اليوم ، وألف في سبيل خدمة مذهبة كتباً جمة ، وقد أشرنا في حديثنا عن الفقه الإسماعيلي إلى بعض كتبه ، ولقد شارك في التأليف في جوانب شتى ، ومن بينها علم التفسير أو التأويل كما يعرف عن الشيعة . ولعل أهم كتاب له هو كتاب : أساس التأويل الذي يعتبر أساس المذهب الباطني الذي تعتمد عليه الدعوة والفكر الشيعي الإسماعيلي (١) .

وللتأويل عند الشيعة الإسماعيلية في الواقع دور خطير ، لأنه العلم الذي يعنى (بباطن المعنى ، أو رمزه ، أو جوهره ، وهو حقيقة مستورة وراء لفظة لاتدل عليها ، وماسى التأويل تأويلاً ، إلاَّ أنه رجوع إلى المآل والمرجع ، من أل الشئ يؤول إذا رجع وعاد ، كما ينقل عبدالسلام الكنوني في كتابه (٢) عن مقدمة عامر تامر لكتاب أساس التأويل لأبي حنيفة

(١) عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ١٧٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٣ .

النعمان بن حيون نفسنه .

ولقد اختص الأئمة من الفاطميين بالتأويل وقصروه على أنفسهم ، لأنهم ورثة علي بن أبي طالب الذي يعد عند الشيعة صاحب التأويل أو الباطن ،ذلك لأنه كما يقولون قد اختصه الرسول ص ، وهو صاحب التنزيل بعلم التأويل والحقيقة وتعاليمها وما ترمز إليه ، وقد تناقل أبناؤه من الأئمة هذا العلم عنه وأختصوا به (١) .

ومع أنه ليس من مهمتنا الخوض في هذا الموضوع ، إلاَّ أننا نرى بعض أتباع الفاطميين مثل النعمان بن حيون ، وجعفر بن منصور اليمن يؤلفان كتباً في التأويل باقرار واطلاع من الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتاب أساس التأويل للنعمان بن حيون قام على أساس تفسير أو تأويل بعض الآيات من القرآن الكريم وليست كلها ، خاصة الآيات التي اعتقد الإسماعيلية أنها تؤيد مذهبهم وما يدعون إليه (٣) على أن كتاب أساس التأويل لم يأت كما يقول حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (٤) متطرفاً في التأويل الذي عرفه كتاب جعفر بن منصور مثلا، أو غيره من كتب التأويل اللاحقة .

---

(١) عبدالسلام الكنوني : نفسه .

(٢) أنظر حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٤ – ٢٣٥ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ .

(٣) عبدالسلام الكنوتي : نفسه ، ص ١٧٣ – ١٧٤ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦٢ .

لكن التأويل نحى بعد ذلك عند جعفر بن منصور اليمن معاصر أبي حنيفة النعمان بن حيون والذي اكتنفه الخليفة المعز لدين الله بحبه ورعايته منحى مغرقاً في التأويل لدرجة الغلو . وذلك في كتبه التي ألفها ، مثل كتاب تأويل الزكاة وكتاب الكشف ، وكتاب الفترات والقرانات ، وكتاب أسرار النطقاء ، ففي كتابه تأويل الزكاة ، غالي كثيراً في تأويل بعض آيات القرآن الكريم ، بل قد ذهب كما يقول حسن ابراهيم حسن وطه شرف (١) إلى تأليه بعض الأئمة . ونفس الشئ يمكن أن يقال عنه كتبه التي أشرنا إليها آنفا ، وهذه الكتب على أنها تعد كتب مناظرات وسير وتاريخ ، إلاَّ أنها لم تخل من تأويلات خطيرة لبعض ماورد فيها من آيات قرآنية (٢) .

---

(١) نفسه ، ص ٢٦٨ – ٢٦٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٦٩– ٢٧٢ .

ثالثاً : علوم القرآن الأخرى :

الواقع أن هذا الجانب من العلوم القرآنية هو أقل الجوانب بروزاً خلال عصر الفاطميين ، شأنه في ذلك شأن العصور السابقة ، ولعل أقصى مانستطيع قوله هنا ، هو أن أبا الأسود موسى القطان الذي أشرنا إليه في حديثنا عن التفسير في هذا العصر ، ألف كتاباً في أحكام القرآن ، جاء في ١٢ جزءاً (١) .

ثم لدينا عالم القرآءات الآخر : هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن زياد القيرواني المتوفى سنة ٣١٩ هـ كما عرفنا ، وقد روى أنه ألف هو الآخر كتاباً في أحكام القرآن جاء في ١٠ أجزاء (٢) .

وأخيراً أبو جعفر عمر بن مثنى الذي عرفناه مقرئاً من مقرئي هذا العصر ، وهو وإن لم يترك لنامؤلفات في علوم القرآن ، إلاَّ أنه كان ذا معرفة واسعة بها وخاصة الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والغريب (٣)... الخ .

---

(١) الدوادي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤٢ – مخلوف : نفسه ، ص ٨١– الزركلي : نفسه ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ .

(٢) مخلوف : نفسه ، ص ٨١ – مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة ،ص ١٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٦٢٧ .

علوم القرآن في عصر الزيريين :-

في تتبعنا لعلوم القرآن في عصر الزيريين ، كانت الملاحظة الأولى التي لفتت انتباهنا هي أن إفريقية شهدت وقتذاك توسعاً كبيراً في علوم القرآن في الكم والنوع . ففي الكم ظهر خلال هذا العصر العشرات في القرآء سواء الذين اختصوا القرآءآت وغيرها من علوم القرآن بالدراسة والتعليم والتلقين ، أو الذين اختصوها - أي علوم القرآن -، بالدراسة والتعلم والتأليف والتصنيف ، أما من حيث النوع ، فقد ظهرت خلال هذا العصر مصنفات في علوم القرآن ضخمة كان لها تأثير كبير في إفريقية وفي خارجها كذلك . ويمكننا أن نقول في اطمئنان إن ماعرفه هذا العصر من تقدم في علوم القرآن وتوسعها يفوق كل ماعرفته إفريقية في العصور السابقة .

وفي الحقيقة ليس لدينا مايعلل هذا الإهتمام بهذا الفرع من علوم الشريعة ، إلاَّ إذا عددنا الجمود الذي أصاب الدراسات الفقهية في هذا العصر ، كان الدافع وراء الإهتمام بعلوم القرآن التي كانت في منتصق القرن الرابع والقرن الخامس الهجريين قد ازدهرت في كل الدولة الإسلامية

والملاحظة الثانية التي خرجنا بها من تتبعنا الأحوال علوم القرآن من خلال هذا العصر ، هي أنه زادت فيه فرص الاحتكاك بعلماء القرآءآت وغيرها في مصر بدرجة أولى ، ثم في الأندلس من بعد ، فلقد تأثرت مدرسة القرآن القيروانية بمدرسة مصر تأثراً كبيراً ، وهو ما أكدته رحلات جل

علماء القيروان المغاربة إلى مصر للنهل من شيوخ علوم القرآن المشهورين بها من أمثال أبي الطيب عبدالمنعم بن غليون وغيره .

والأمر نفسه يمكن أن يقال - ولكن مع الفارق - ، عن الأندلس فقد تأثر علماء القيروان بعلماء الأندلس المختصين في علوم القرآن ، ولكن ذلك التأثير لم يكن مطلقاً ، فقد أثروا هم أيضاً في رفقائهم الأندلسيين عندما فضل البعض منهم استيطان الأندلس .

أولاً : القـــــــــرآءآت :

أشرنا إلى أن هذا العصر شهد العشرات من علماء القراءات وخلافهم ، ونحن بالطبع لن نمض في تقصيهم فرداً فرداً ، وحسبنا أن نشير إلى بعضهم وخاصة مَّن كانت له مجهودات تأليفية في القرآءآت ، وعلى أية حال فإن من الأسماء اللامعه التي تطالعنا من قرآء هذا العصر : أبو ابراهيم اسماعيل بن أحمد القروي ، ويعرف بالمهدي (١) (ت :٣٨٠هـ) ، وقد كان قارئاً حاذقاً متصدراً ، وله رحلة إلي مصر ، سمع خلالها لعدد من علمائها ، وعاد إلى بلاده ، فسمع منه الكثيرون ومن أبرزهم محمد بن سفيان الهواري الذي سنترجم له بعد قليل ، ومن العلماء القرآء الذين تصدوا للإقراء والتدريس ، أبو حفص عمر بن مهران القروى (٢) (ت بعد ٣٩٠هـ) فقد كان قارئاً عارفاً حاذقاً كما يصفه ابن الجزرى ، وممن

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص ٩٨ .

تصدى للتدريس والإقراء في نهاية القرن الرابع أبو علي الحسن بن علي الجلولي القيرواني (١) .

ويعد أبو عبدالله محمد بن أبي زيد الفقيه القيرواني المشهور المتوفي سنة ٣٨٩هـ الذي أشرنا إلى أدواره في نشر المذهب المالكي والدراسات الفقهية والحديثية من القرآء المعروفين في القيروان كذلك ، وهو ممَّن كان يقصد الأندلسيون لتلقي القرآءة عنه . ومن أولئك الذين أخذوا القرآءة عنه العالم الأندلسي المشهور أحمد بن محمد المعافري الأندلسي الطلمنكي (٢). ولأبي محمد عبدالله بن أبي زيد في القرآءآت مؤلفات منها : رسالة فيمن تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة ، ورسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن (٣) .

وممَّن جمع بين علوم شتى ومنها القرآءآت : أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن على الجبنياني المتوفي سنة ٣٩٩هـ الذي كنا قد عرفنا بعضاً من سيرته من قبل وكان لأبي اسحاق الجبنياني في القرآءآت حظاً طيباً ، ويقول الداودي (٤) عنه أنه كان (حسن القرآءة للقرآن ، يحسن تفسيره ، وإعرابه وناسخه ومنسوخه) .

ويعد أبو الحسن على بن خلف المعافري القابسي العالم القيرواني المبرِّز المتوفي سنة ٤٠٣هـ ، في عداد القرآء المعروفين أيضاً. فأبو الحسن

(١) ابن الجزري : نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٢) السيوطي : طبقات المفسرين ، س ٥١ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢، ص٤٩٤ .

(٤) طبقات المفسرين ، ج١ ، ص١-٢ .

القابسي لم تقف به همته العلمية على علمي الفقه والحديث فضلاً عن علم التربية ، بل كان مبرزاً في علوم أخرى ومن بينها القرآءات ، بل إنه آشتهر في البداية بالقرآءات وكانت له رحلة إلى المشرق سمع فيها من بعض المقرئين ، ثم عاد إلى بلاده - (فأقرأ الناس بالقيروان دهراً ، ثم قطع الإقراء لما بلغة أن بعض أصحابه استقرأه السلطان فقرأ عليه) (١) .

ويأتي أبو عبدالله محمد بن سفيان الهواري (٢) (ت : ٤١٥هـ) على رأس القرآء المشهورين والمبرِّزين في العقد الثاني من القرن الخامس الهجري ، وتأتي مكانته وأهميته من اقتصاره على علم القرآءات وحده ، فأوسعه دراسة ومذاكرة ، ليس هذا فحسب ، بل وقد ألف فيه مؤلفات قيمة . ويقول عنه عياض (٣) ما نصه (محمد بن سفيان الهواري المقرئ قيرواني، أبا عبدالله ابن محمد ، أخذ عن القابسي ورحل إلي عبدالمنعم بن غليون ، وكان الغالب عليه علم القرآن) ، وفي موضع آخر (٤) قال أيضاً: (قال حاتم الطرابلسي ، كان رجلاً عاقلاً فهماً ، حلواً متقللاً أشهر من في المغرب في وقته بالقرآءات وأبصرهم بها) . أما ابن الجزري (٥) فقد تناول فيما

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ،ص ٥١٧ .

(٢) ترجمته موجودة باستفاضة عند عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٧١٢ - الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص١٥٦ - ١٥٧ - ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ١٤٧ - ابن فرحون : نفسه ، ص ٢٧١ - مخلوف : المصدر السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) نفسه ، ج٢، ص ٧١٢ .

(٤) نفسه ، ج٢ ، ص ٧١٢ .

(٥) نفسه : ج٢ ،ص ١٤٧ .

يأخذه جمعه عن مصادره المختلفة ، معظم أحواله وشؤونه ، وأعطى تفصيلات واسعة عن شيوخه في مصر كابن غلبون وغيره ، ثم طلبته في إفريقية . وقد أشاركما ذكر عياض إلى أن محمداً بن سفيان الهواري قد غادر بلاده إلى مكة قاصداً الحج عام ٤١٣هـ ، فحج وجاور هناك ثم انتقل إلى المدينة ، فتوفي بها سنة ٤١٥هـ (١) . ولمحد بن سفيان الهواري في القرآءات كتاب مشهور هو كتاب الهادي الذي كان له سمعة طيبة في الأندلس وغيرها (٢) وكتاب اختلاف قرآءة الأمصار في عدد أي القرآن . وكتاب الإرشاد في مذهب القرآءة وكتاب التذكرة في القرآءات (٣) .

وممّن اختص بالقرآءة وحدها من علماء إفريقية في عصر الزيريين أبو جعفر أحمد بن علي الأزدي القيرواني (٤) (ت : ٤٢٧هـ) ، وهو ممّن رحل كذلك إلى مصر ، فقرأ على أبي الطيب عبدالمنعم بن غلبون ، ثم عاد إلى بلاده ، فقرأ عليه عدد من القرآء المعروفين آنذاك .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧١٢ – ابن الجزري : نفسه ، ص ٤٧ بينما شذ ابن ناجي مكمل ومعلق كتاب المعالم بقوله إن محمداً بن سفيان توفى سنة ٤٠٨هـ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٧١٢– ابن الجزري : نفسه ، ص ١٧ (وقد أشار فقط إلى كتاب الهادي وحده) .

(٣) ابن خير : فهرسة مارواه عن شيوخه : ص ٢٥، ٣٨ – ٣٩ – مخلوف : نفسه ، ص١٠٦ .

(٤) ابن الجزرى : نفسه ، ج١ ، ص ٩١ .

وممَّن اشتهر بالقرآءات من علماء العقد الثالث من القرن الخامس الهجري ، أبو عمران : موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي (١) المتوفي سنة ٤٣٠هـ ، وأبو عمران الفاسي عرفناه رحالة في طلب العلم ، وعرفناه كذلك مدافعاً بلسانه ، وقلمه عن المذهب المالكي ، وبيَّنا جهوده في دراسات الفقه والحديث أيضاً ، غير أن مالم نعرفه عنه آنذاك ، هو إنه كان من القرآء المشهورين في القيروان بجانب ماذكر ، بل انه في رحلته التي رحل فيها إلي المشرق تلقى القرآءات عن عدد من علمائها في الحجاز والعراق ، ويقول عنه ابن الجزرى (٢) بأنه عندما عاد إلى القيروان (أقرأ الناس بها مدة ، ثم ترك الإقراء ، ودارس الفقه وأسمع الحديث إلى أن مات) ، وفي مكان آخر (٣) يقول عنه إنه (كان يقرأ بالقرآءات ويجوِّدها مع معرفة بالجرح والتعديل) .. ويذكر (٤) مخلوف فيما ينقله عن مصادره إنه كان عالماً بالقرآءات السبع ويجوِّد القرآن) . ومن علماء هذه الفترة كذلك أبو الطيب عبدالمنعم بن محمدالكندي (٥) (ت : ٤٣٥هـ) وهو ممَّن جمع بين

---

(١) ترجمته موجودة بتوسع عند : عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٧٠٢ - ٧٠٦ - الدباغ : نفسه ،ج٣ ، ص ١٥٩ - ١٦٤ - ابن القاضي : جذورة الاقتباس ، القسم الأول ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ - ابن الجزرى : المصدر السابق ،ج٢ ، ص ٣٢١ - ٣٢٢- ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٧٢- ٢٧٣ - مجهول : بيوتات فاس الكبرى ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، ص ٤٤- ٤٥ - عبدالهادي التازي : جامع القرويين ،ج٣ ، ص١٥٧ - ١٥٨ - عبدالعزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية ، ج٣، ص ٤٩ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢١- ٣٢٢ .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢٢ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٦ .

(٥) الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١٨٤ - ١٨٥ .

علوم شتى ، ومن بينها القرآءات ، وقد قرأ على أبي عبدالله محمد بن سفيان الهواري الذي ترجمنا له من قبل .

على أن أشهر شخصية إفريقيَّة على الإطلاق في علوم القرآن عامة ، والقراءآت خاصة ليس في عصر الزيريين فقط ، بل وفي كل الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، هو أبو محمد مكي بن أبي طالب : حموش بن محمد بن مختار القيسى القيرواني ، ثم الأندلسي (١) (٣٥٥- ٤٣٧هـ) .

ولقد أجمع كل من تعرض لمجريات الحياة العلمية في إفريقيَّة على أن مكياً بن أبي طالب ،كان واحداً من أبرز أقطاب العلوم الشرعية والعربية في إفريقيَّة ثم الأندلس وقتذاك ، وهذا الاجماع جاء من التتبُّع الشديد لتفاصيل حياته العلمية الحافلة . والواقع أن معظم متتبعى سيرته العلمية قد أمدونا بشئ غير يسير من أحواله وشؤونه بصورة لم نعهدها إلاَّ لقليل من العلماء مثل سحنون بن سعيد مثلا ، بل لعلنا نقول بأننا لم نعثر على ترجمة مالعالم تُقصَّى تاريخ ولادته ووفاته ساعه ويوماً يوماً وشهراً شهراً وسنة سنة (٢) . وما من ريب في أن ذلك دليل واضح على مقدار ما تعكسه مكانة

---

(١) لمكي بن أبي طالب ترجمة واسعة جداً عند أكثر من ١٠٥ مؤرخاً تقريباً وعلى كل فإن أوسع ترجمة له رأيناها موجودة عند : القفطى ، (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي) : إنباه الرواة على أنباه النحاة تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج٣ ،ص ٣١٣ - ٣١٩ ، وقد أشار المحقق في هامش ص٣١٣ إلى حوالى ١٤ مصدراً وردت فيها ترجمة مكي بن أبي طالب - ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس ، ص٢٧٤ - ٢٧٧ - ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ١٦١٤ - ٢١٧١ - ابن الجزري : نفسه ، ج٢، ص٣٠٩ - ٣١٠ - الداودي : نفسه : ج ٢ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ - الزركلي : نفسه ، ج٧ ، ص ٢٨٦ . وغير ذلك .

(٢) قال المؤرخون عند ولادته (ولد بالقيروان عند طلوع الشمس أو قبل طلوعها لسبع بقين =

هذا العالم العلمية من تقدير واحترام .

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد فقط ، وإنما طافوا مع مكي بن أبي طالب البلدان التي نزلها والشيوخ الذين أخذ عنهم في القيروان ومصر ومكة كل ذلك مؤرخا(١) . كما أشاروا إلى تلاميذه الكثر من الإفريقيين والأندلسيين (٢) ورصدوا ما حكاه نفسه عن مؤلفاته ومواقع التأليف لبعضها في مكة وقرطبة وبيت المقدس (٣) . ثم ذكروا تأليفه ، غير أنهم لم يكونوا في ذلك سواء ، فمنهم من أشار إلى بعضها (٤) ، ومنهم من أشار إلى الكثير منها (٥) ، ومنهم من تقصَّاها جميعها بما فيها من أجزاء وهي التي تبلغ أكثر من ثمانين مصنَّفاً في علوم القرآن جملةً (٦) ، منها ما اتيح

= من شعبان سنة خمس وخمسين وثلثمائة) وقيل سنة أربع وخمسين وثلثمائة) . وقالوا عن وفاته (وتوفى مكي بن أبي طالب رحمه الله يوم السبت عند صلاة الفجر) ، ودفن ضحى يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقرطبة) . أنظر ابن خلكان : نفسه ، ج٥، ، ص ٢٧٧ – القفطي : إنباه الرواة على أنباه النحاة ، ج٣ ،ص ٣١٥ . وغيرهما.

(١) أنظر ابن خلكان : نفسه ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ – القفطي : المصدر السابق والجزء ، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

(٢) أنظر ابن خلكان : نفسه ،ص ٢٧٤ – ٢٧٥ – القفطي : نفسه ، ص ٣١٤ – ٣١٥ – ابن الجزري: نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣) راجع مثلا ابن الجزري : نفسه ، ص ٣١٠ .

(٤) الدوادي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٣٧– ٣٣٨ – ابن الجزري : نفسه ص ٣١٠ – الزركلي : نفسه ، ص ٢٨٦ .

(٥) كابن خلكان مثلا : نفسه ،ص ٢٧٥-٢٧٦ – وقد أشار إلى الكثير منها ، ثم قال معقباً : ولولا خوف التطويل لاستوعبت ذكرها) .

(٦) كالقفطي مثلاً : نفسه ، ص ٣١٥– ٣١٩، حيث سرد كل تلك المصنفات بأجزائها .

لنا احصاؤه في القرآءات ، حيث بلغت أكثر من أربعين كتاباً ، والبقية في التفسير وعلوم القرآن الأخرى . ومن هنا فليس غريباً أن نفهم سرَّ ذلك الإهتمام بمكي بن أبي طالب ، وهو الذي أثرى علوم القرآن على مستوى الدولةالإسلامية ، هذا مع ماتمتع به من سيرة شخصية فاضلة ، فهو حسن الخلق والفهم ، جيد الدين والعقل ، مجوداً للقرآن ، خيراً فاضلاً ، متواضعاً ديناً ، مجاب الدعوة ومشهوراً بالصلاح (١) .

وفيما يتعلق بمصنفاته في علم القراءات التي تبلغ أكثر من أربعين كتاباً فإن من العسير أن نوردها كلها ، غير أننا نكتفي بالإشارة إلى أكثرها شهرة وأهمية محيلين القارئ إلى بقيتها في كتب التراجم والطبقات التي أشارت إلى ذلك وهذه المصنفات هي (٢) :

١- كتاب التبصرة في القرآءات ، ٥ أجزاء ، وقد نص على أنه ألفه في القيروان (٣) .

٢- كتاب الرعياة لتجويد القرآن ، ٤ أجزاء .

٣- كتاب شرح التمام والوقف ، ٤ أجزاء .

٤- كتاب الكشوف على وجوه القراءآت وعللها ، ٢٠ جزءاً .

---

(١) ابن خلكان : نفسه ، ج٥، ص ٢٧٤ - القفطي : المصدر السابق ج٣ ، ص ٣١٤ - ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ،ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) عن هذه المصنفات وغيرها من مصنفات علم القرآءات ، أنظر القفطي : نفس المصدر السابق ، ج٣، ص ٣١٥- ٣١٩ .

(٣) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٠ .

٥- كتاب الموجز في القرآءآت ، جزءان .

٦- كتاب التنبيه على أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه ، جزءآن.

٧- كتاب الوقف على كلاً وبلى في القرآن ، جزء واحد .

٨- كتاب التذكرة لاختلاف القرآء السبعة ، جزء واحد .

٩- كتاب شرح الإدغام الكبير في الخارج ، جزء واحد .

١٠- كتب الاختلاف بين قالون وكل من القرآء الآتيين : أبو عمر بن العلاء وابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم ، والكسائي وحمزة ، وكل كتاب يقع في جزء واحد .

ولعل في هذا مايوضّح بعض مكانة مكي بن أبي طالب العلمية .

ويبقى أن نشير هنا بشئ من الإسهاب إلى ماسبق أن ذكرناه من رأى الباحث التونسي الطاهر المعمورى ، الذي يرى بأن عطاءات ابن أبي طالب العلمية ليست وليدة البيئة الافريقية ، ولكنها تعود لتأثير البيئة المشرقية والأندلسية .

في البدء نشير إلى أننا لا ننكر بأن مكياً بن أبي طالب قد تأثر بالبيئة العلمية في المشرق ، وكذلك في الأندلس ، لكننا نود أن نقول وبناء على أقوال مؤرخي سيرته ، إنه قد ولد عام ٣٥٥هـ في القيروان وقض فيها طفولته وشبابه ، وقد تلقى آنذاك علوم القرآن وخاصة القرآءآت على يد ابن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن

القابسي (١) ، ولعل في هذا مايدل على أن تكوينه العلمي في القراءات ،قد انبنى على أيدى علماء القيروان . ثم غادر القيروان وعمره ١٣ عاماً كما أشار المؤرخون بعد أن أكمل القراءآت إلى مصر حيث اختلف إلى بعض المؤدبين بالحساب وهي عبارة القفطي (٢) بنصها ثم عاد إلى القيروان ليستكمل بها علومه ، ثم ذهب ثانية إلى مصر (بعد أن أكمل القراءآت بالقيروان)(٣) وذلك في سنة ٣٧٧هـ ، ومن مصر اتجه إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج ، ثم رجع إلى القيروان (وبقي عليه شئ من القرآءآت ، فعاد إلى مصر ثالثة في سنة اثنتين وثمانين ، فاستكمل مابقى عليه) (٤) ، ثم عاد إلى القيروان في سنة ٣٨٣هـ ، وأقام هناك يقرئ الناس الناس حتى سنة ٣٨٧هـ ، حيث غادر بلده إلى مكة وظل فيها حتى سنة ٣٩٠هـ ، ثم عاد إلى مصر في سنة ٣٩١هـ وظل فيها بعض سنة ٩١هـ ، ثم غادرهاإلى بلاده عام ٣٩٢هـ (٥) . وأخيراً غادر بلاده نهائياً في عام ٣٩٣هـ إلى الأندلس حيث استوطنها إلى أن توفى سنة ٤٣٧هـ (٦) .

هذا هو ما يقال عن تأثير البيئة المشرقية والأندلسية في ابن أبي طالب . وبعملية حسابية نرى أن مكيا ابن أبي طالب لم ينقطع عن بلده

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٢) انباه الرواة ، ج٣ ، ص ٣١٣ .

(٣) القفطي : نفسه ، ص ٣١٤ .

(٤) القفطي : نفسه ص ٣١٥ .

(٥) ابن خلكان : نفسه ، ج٥ ، ص ٢٧٤ - القفطي : نفسه ، ص ٣١٥ .

(٦) ابن خلكان : نفسه ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - القفطي : نفسه ، ص ٣١٥ - ابن الجزري : نفسه ، ص ٣١٠ .

القيروان البتة . فمنذ عام ٣٦٨هـ عندما غادر بلاده لأول مرة وعمره ١٣ عاماً لم ينقطع عن بلده سوى ثلاث سنوات متتاليات فقط . ولَّا كان قد ولد عام ٣٥٥هـ ، وغادر القيروان نهائياً إلى الأندلس عام ٣٩٣هـ ، فإنه قد أمضى في بلده دون ريب معظم هذا الشطر من عمره الذي يبلغ وقتها ٣٧ عاماً . وهذه المرحلة من السِّن في تصورنا جزيلة العطاء ، فهي تمثِّل شرخ الشباب لاسيما وأننا قد عرفنا أن نبوغه قد بدأ مبكراً في سنٍ لم يتعد فيها الثالثة عشر من عمره .

وإذا كان مكي بن أبي طالب قد ألَّف معظم تآليفه في الأندلس كما صرح هو (١) نفسه ، فإن من غير المعقول ألاَّ يكون ذلك العطاء قد جاء وليد البيئة التي نشأ فيها وترعرع ، وكانت ذات أثر في تخصصه في علوم القرآن بشكل أساسي .

وقبل أن نختتم الحديث عن علماء القرآءات في القيروان خلال العصر الزيري ، نرى لزاماً علينا أن نشير إلى عالمين مشهورين في القرآءات بصفة خاصة وغيرها من العلوم بصفة عامة ، وهما علي بن فضال المجاشعي ، وأبي الحسن علي بن عبدالغني الحصرى ، ولعل وجه ختم الحديث عنهما من جهة ، وذكرهما معاً هنا من جهة أخرى راجع إلى أنهما وإن كانا من علماء القرآءات بالقيروان في عصر الزيريين إلاَّ أنهما قد عاشا فترة من الزمن بعد منتصف القرن الخامس الهجري ، ولم يكن في الإمكان أن نغفل دورهما وهما اللذان أثريا علوم القرآن بعلمهما

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ص ٣١٠ .

الغزير ومؤلفاتهما القيمة في القراءات .

فعلي بن فضال بن علي بن غالب بن جابر المجاشعي الفرزدقي التميمي القيرواني (١) (ت : ٤٧٩هـ) أحد علماء المشرق الذين قدموا القيروان فأقام بها مدة من الزمن . ولئن كنا لانعرف مقدار تلك المدة التي قضاها في القيروان إلا أننا لانستبعد أن يكون قد أحدث في البلاد أثراً علمياً كبيراً . لاسيما وأنه أحد المشهورين بالتصنيف في كل علوم القرآن. ونحن بالطبع لانعرف متى غادر القيروان . وكل الذي نعرفه أن قد توفى في بغداد سنة ٤٧٩هـ (٢) .

على أن حظَّنا من المعلومات القيمة عن علي الحصري القيرواني (٣) ، كان بلا شك أفضل حالاً من معلوماتنا عن ابن فضال المجاشعي ، فالحصري أولاً قيرواني الأصل بإتفاق جميع من ترجم لهم ، كما أنه ابن خالة ابراهيم الحصري الأديب القيرواني المشهور والذي سنترجم له . ثم أنه عاش أغلب سنوات عمره في القيروان قبل أن يغادرها بعد سقوطها على يد عرب بنى هلال في منتصف القرن الخامس الهجري .

وكيفما كان الأمر فإننا نقول بإطمئنان إن علياً الحصرى القيرواني (ت: ٤٨٨ هـ) هو أحد علماء القيروان المتأخرين ممَّن كانت له شهرة عريضة في القراءات أجمع على ذكرها والإشادة بها كل من ترجم له (٤) .

(١) السيوطي : طبقات المفسرين ، ص٢٣ -٢٤- الداودي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٢١ - ٤٢٢

(٢) الداودي : نفسه ، ص ٤٢٢ .

(٣) عن ترجمته أنظر بعد ص ٧٢٤ ومابعدها .

(٤) الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص٢٠٢ ومابعدها - ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص٥٥٠ - ٥٥١ - =

ويكفي أن نذكر بأن القرآءات هي المادة التي تخصص فيها وقضى جل عمره في تدريسها وألّف فيها القصيدة الرائية المشهورة في قرآءة نافع التي تجاوزت مائتي بيت ، والتي عُنى المختصون بشرحها والتعليق عليها (١) .

ولقد بلغ من شغف علي الحصرى القيرواني بالقرآءات أنه كان يقتبس قواعدها ومصطلحاتها في شعره ، كما كان يضمّن العديد من آيات القرآن في شعره أيضاً (٢). وبلغت مكانته في علم القرآءآت أنه يقوم بتوجيه الأسئلة المتعددة إلى مشاهير القرآء في المغرب طالباً إجابتهم عليها (٣) . وهذا في الواقع ليس غريباً على الحصري ، فقد (كان إماماً في القرآءآت السبع)(٤)، كما كان شاعراً مبرزاً مشهوراً حسبما سنعرف في موضعه .

فمن علماء مدينة تونس المبكرين : علي بن حجاج التونسي (ت : ٣٨٩) ، وهو كما يقول ابن الجزري (٥)) امام مقرئ مصدّر معروف ، رحل إلى مصر ، فقرأ على أبي الطيب عبدالمنعم بن غلبون ، وتصدّر بتونس ، فقرأ عليه أبو بكر بن عتيق أبو عبدالله وفتاح بن عبدالله بن البابوسي) . ومن علماء القرآءآت في مدينة تونس كذلك فتاح بن عبدالله بن البابوسي : أبو عبدالله بن أبي محمد التونسي ، وهو من مشائخ الإقراء بالمغرب كما

= محمد المرزوقي والجيلاتي بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيرواني ، ص ٣٣- ٣٤ - الزركلي : نفسه ، ج٤، ص ٣٠-٣١ .

(١) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ،ص ٣٣ -٣٤، ٦٧.

(٢) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ،ص ٣٣- ٣٤ .

(٣) ابن الجزري : نفسه ،ج ١ ، ص٥٥٠ .

(٤) الدباغ : نفسه ، ج٣ ،ص٢٠٨ .

(٥) نفسه ، ج١، ص ٥٢٩ .

يقول ابن الجزري (١) ، وقد مر بنا قبل قليل انه أحد من تلقى القراءآت على، علي بن حجاج التونسي .

ومن علماء القراءآت بمدينة المهدية ، يطالعنا ، اسم أبي الحسن علي ابن أبي غالب المهدوي ، كواحد من علمائها المختصين بالقرآءآت وحدها . وهو أحد الذين رحلوا إلى مصر ، فأخذوا عن أبي الطيب عبدالمنعم بن غلبون (٢) .

ومن أبناء مدينة المهدية : هناك عالم قراءآت ثان هو أبو عمر بن حسين المقرئ المعروف بابن النفوسي : وقد عاش حياته بالمهدية ولقد تلقى ابن خير (٣) العالم الأندلسي المشهور بعض تآليفه عنه في حدود عام ٤٣٢هـ .

بيد أن أشهر من انجبتهم مدينة المهدية من علماء علوم القرآن وخاصة القراءات ، هو أبو العباس أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي (٤) (ت : بعد ٤٣٠هـ)(٥) وأبو العباس أحمد بن عمار المهدوي سمع في بلده إفريقيَّة

---

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٦ .

(٢) ابن الجزرى : نفسه ، ج١ ،ص ٥٦٠- ٥٦١ .

(٣) فهرست مارواه عن شيوخه ، ص ٢٤-٢٥ ، ٣٨- ٣٩ .

(٤) ترجمته موجوده بتوسع عند : ابن بشكوال : الصلة ، ص٨٦- ٨٧ - ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص٩٢ - السيوطي : طبقات المفسرين ، ص٥١ - الداودي :نفسه ، ج١ ، ص٥٦- مخلوف ، نفسه ، ص١٠٨ - الكنوني : نفسه ، ص٦٧-٧٢ .

(٥) لم يحدد ابن بشكوال سنة وفاته ، في حين ذكر ابن الجزري أنه توفى بعد الثلاثين و أربعمائة نقلاً عن الذهبي أما السيوطي فقد قال بأنه توفى في حدود سنة ثلاث وأربعمائة. ولا شك أن هذا وهم من السيوطي، وسكت الداودي عن ذكر سنة وفاته في حين أشار مخلوف إلى أنه توفى =

من عدد من شيوخه القراءآت كأبي الحسن القابسي ، ومحمد بن سفيان الهواري وغيرهما (١) . ولا تذكر لنا المصادر التي ترجمت له أي معلومات إضافية أخرى عن ولادته ونشأته ، وكم قضى من الوقت في موطنه إفريقية ، قبل أن يغادرها إلى الأندلس في حدود عام ٤٣٠هـ ، على أن الشيء المؤكد هو أن أحمد بن عمار المهدوي إفريقي الأصل قلباً وقالباً . وأن أقصى مدة قضاها في الأندلس لم تزد عن ١٠ سنوات ، حيث ذكرت بعض المصادر أنه توفي عام ٤٤٠هـ هذا إذا طرحنا ماتردد من أقوال عن أنه توفي بعد ٤٣٠هـ وهو العام الذي دخل فيه الأندلس ، ولعل في هذا مايقلل من قيمة رأي الطاهر المعمروي الذي يعد أحمد بن عمار المهدوي أحد الذين أثَّرت فيهم البيئة الأندلسية .

ومهما يكن من أمر ، فإن أحمد بن عمار المهدوي بلغ مكانة مرموقة في بلده إفريقيَّة وفي الأندلس ، وقد ألف عدداً من المؤلفات في القراءآت والتفسير فمن كتبه في علم القراءآت كتاب الهداية إلى مذاهب القراء السبعة (٢) ، وكتاب شرح الهداية نفسه ، وكتاب الكفاية في شرح مقاري الهداية (٣) ثم كتاب الموضح في تعليل وجوه القراءآت (٤) .

= سنة ١٤٠هـ. أما الكنوني فقد ذكر أنه توفي سنة ٤٣٢هـ. من هنا رجحنا أن تكون وفاته بعد ٤٣٠هـ.

(١) ابن بشكوال: نفسه ، ص ٢٨٦– ابن الجزري : نفسه ، ص ٩٢ .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص ٩٢ – الكنوني : نفسه ، ص ٦٧.

(٣) ابن خير : فهرست ماارواه عن شيوخه ، ص ٣١، ٤٣، ٤٤ .

(٤) الكنوني : نفس المرجع السابق ، ص ٦٧– ٧٣ .

ومن علماء مدينة باغاية أو باغا بأقصى إفريقية ، أبو العباس أحمد ابن علي بن أحمد بن محمد بن عبدالله الربعي الباغائي المقرئ (١) (٣٤٥-٤٠١هـ) وعلي بن أحمد الباغائي عاش في بلده إفريقية مدة ثلاثين عاما ، ثم غادرها عام ٣٧٦هـ إلى الأندلس فظل بها إلى أن توفى (٤٠١هـ) كما ذكرنا . ولقد رحل في مدة بقائه في إفريقية إلى مصر حيث قابل هناك عالم القراءآت المشهور عبدالمنعم بن غليون . وقد أثنى عليه الداودي في كتابه ، فقال إنه (لا نظير له في حفظ القرآن : قرآءاته وإعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه) (٢) .

ثالثاً : التفســـير :

لم يكن حظ علم التفسير من الانتشار في عصر الزيريين كحظ علم القراءات الذي شهد ذلك الازدهار الذي عرضناه آنفا . ولكن مع ذلك فلم تخل الساحة من مفسرين كانت لهم مكانتهم سواءً في المذاكرة أو المدارسة - كما نظن - ، أوفي التأليف والتصنيف كما هو مؤكد .

ومهما يكن فإن أبا محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني ، أضاف إلى التفسير في هذا العصر أثراً علمياً تمثّل في كتابه : تفسير أوقات الصلوات (٣) ، وكذا الأمر عن أبي الحسن علي بن خلف المعافري القابسي

---

(١) له ترجمة عند الداودي : نفسه، ج١، ص٥٣- عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر: ص٢٧-٢٨ .

(٢) طبقات المفسرين ، ج١ ، ص ٥٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢، ص ٤٩٤ .

الذي ألف كتابه : المنقذ في شُبه التأويل (١) .

على أن أشهر من ألَّف في التفسير في هذا العصر : مكى بن أبي طالب الذي ألَّف بضع مؤلفات مهمة قيِّمة منها مثل : كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه ، ويقع في ٧٠ جزءا ، وكتاب المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره في ١٠ أجزاء ، وكتاب الاختلاف في الذبيح من هو ؟ وكتاب تفسير مشكل المعاني والتفسير في ١٥ جزءاً وغير ذلك (٢) .

ومن علماء التفسير المتأخرين في القيروان ، أبو الحسن علي بن عبدالغني الحصري ، وقد كان شديد الاهتمام بتفسير يحيى بن (٣) سلام الذي أشرنا إليه سابقاً .

وفيما يتعلق بالتفسير والمفسرين في بقية مدن وأقاليم إفريقية ، فلم تشر المصادر إلاَّ إلى أبي العباس أحمد بن عمار المهدوي ، الذي ألف كتاباً مهماً في التفسير (٤) ، وكتاباً آخر يدعى التحصيل في مختصر التفصيل (٥) .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٦١٩ .

(٢) القفطي : نفسه ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ .

(٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني ص ٣٤ .

(٤) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص٩٢– الدوادي : نفسه ، ج١، ص٥٦– الكتوني : نفسه ، ص ٣٧ .

(٥) الكتوني : نفسه ، ص ١٩٩– ٢٠٤ .

ثالثاً : علـوم القـرآن الأخـــرى :

كـانت علوم القـرآن الأخـرى تحـتل المرتبـة الثـالثـة في تسلسل علوم القرآن جملة ، والمصنفات التي ألفّت فيـها شحيحة لاتّوضح لنا المدى الذي بلغته هذه العلوم آنذاك .

وعلى أية حال فـإن مـالدينا من معلومـات حول هـذه العلوم لاتتـعدى الإشارة إلى ماصنَّفه ابن أبي زيد القيرواني و مكي بن أبي طالب من كتب نذكر منهـا : كتاب اختصر احكام القرآن في ٤ أجزاء ، وكتاب الايضـاح لناسخ القرآن ومنسوخه ، في ٣ أجزاء (١) وغير ذلك .

ثم ماصنفه أحمد بن علي الربعي الباغائي من كتاب في أحكام القرآن على مذهب الإمام مالك بن أنس (٢) .

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٩٤ .

(٢) القفطي : نفسه ، ج٣ ، ص ٣١٥ – ٣١٧ .

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية
مركز البحوث الدراسات الإسلامية
مكة المكرمة



سلسلة بحوث الدراسات الاسلامية



الحياة العلمية في إفريقية

« المغرب الأدنى » منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري

« ٩٠ / ٤٥٠ هـ »

الجزء الثاني

د / يوسف بن أحمد حواله
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

ⓗ جامعة أم القرى ، ١٤١٩ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

حوالة ، يوسف أحمـــد

الحياة العلمية في افريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري : ٩٠/٤٥٠ هـ ـ مكة المكرمة .

٤٤٨ ص ٢٤×١٧ سم .

ردمك : ٨ ـ ٣٨٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

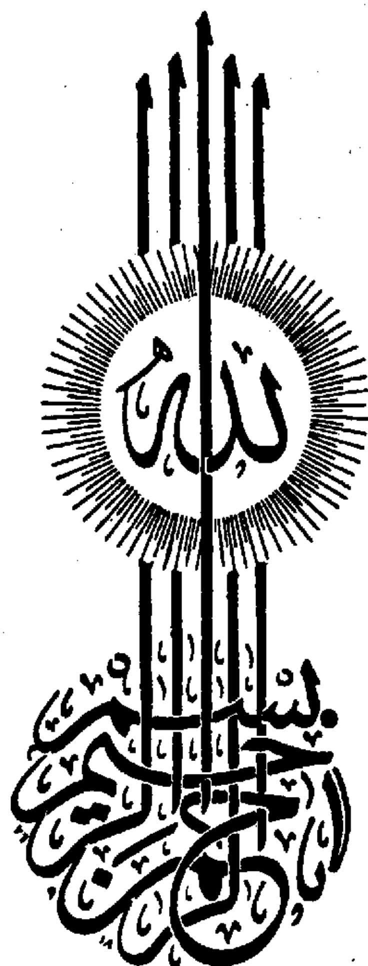
١ ـ التاريخ الإسلامي ٢ ـ الحضارة الإسلامية ٣ ـ أفريقيا الشمالية ـ تاريخ أ ـ العنوان

ديوي ٩٥٣,٠٧٢ ١٩ / ٠٥٠٤

رقم الايداع : ٠٥٠٤ / ١٩

ردمك : ٨ ـ ٣٨٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

الطبعـــة الأولـــى


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الثالث

الدراسات الشرعية

(٣)

الأثر العلمي للصراع المذهبي في إفريقية

- بين المالكية وأتباع المذاهب الكلامية
- بين المالكية والإباضية
- بين المالكية والشيعة

الأثر العلمي للصراع المذهبي في إفريقية بين المالكية وأتباع المذاهب الكلامية

أ- نبذة عن دخول المذاهب الكلامية إفريقية وأهم معتقداتها :

لعل من الضروري هنا أن ننبّه باديء ذي بدء إلى أننا نقصد بالمذاهب الكلاميةّ تلك التي تعارف المؤرخون وكتاب الفرق الإسلامية على أنها تعني المذاهب الكلامية العقائدية البحتة ، والتي تأتي على رأسها فرق المعتزلة والمرجئة والجبرية.. الخ . أما المذاهب الدينية الساسية كالخوارج والشيعة – وللكلام جانب كبير في معتقداتها – ، فإن الحديث عنها كان مستقلاً دائماً عند المؤرخين وكتاب الفرق . ولذلك فقد اختصيناها أي المذاهب الدينية السياسية – الخوارج والشيعة – بفصلين مستقلين .

ومنذ أن تمذهب المغاربة بالمذهب المالكي كما عرفنا سابقاً (١) ، لم ينفكوا يقاومون أي اتجاه يؤثر علي الشريعة الصافية الواضحة . ولقد كانوا يترسمون في ذلك خطي زعيم مذهبهم الإمام مالك الذي لم يكره شيئا كرهه للجدل والتنظير . كيف لا وهو الذي كان يعتقد أن الجدل في الدين مفسدة للدين ؟ . وكيف لا وهو الذي كان يتساءل كثيراً عن جدوي البحث في قضايا عقائدية مبتدعة عن ذات الله وصفاته ، والجبر. والاختيار وخلق القرآن .. الخ؟، وكيف وهو الذي كان يحض أتباعه على الاهتمام بالكلام الذي تحته عمل من الدين فقط ، أي الفقه ، الذي يضبط أعمال الناس ويحكمها ويرد

١– أنظر قبل ، ص ٢٦٧ ومابعدها .

الفروع على الأصول (١) ... الخ ؟

ومن هنا فقد كره أتباعه وتلامذته الكثيرون في الحجاز ومصر والمغرب تلك التيارات الفكرية التي طم سيلها وقتذاك في المشرق ابتداء من نهاية القرن الأول الهجري . ولقد كان نصيب اتباعه المغاربة من ذلك الكره النصيب الأوفى والقدر الأعلى .

ولذلك فلن ندهش إذا عرفنا بأن المغاربة – وقد حددوا موقفهم النهائي بالتمذهب بالمذهب المالكي – ، قد اختاروا الابتعاد عن العلوم العقلية النظرية والاهتمام بالعلوم النقلية من فقه وحديث وعلوم القرآن . ولذلك فلم يعد مثيرا للدهشة أن تتكون في إفريقيّة مدرسة فقهية متميزة ، ولمّا يمض سوى أقل من قرن على دخول المذهب المالكي بلاد المغرب .

بيد أن المغاربة مالبثوا أن فوجئوا ببعض التيارات الكلامية الخطيرة تقتحم حياتهم – كما اقتحمت حياة زعيم مذهبهم من قبل – ، ويظل أوارها يهب بين الفينة والفينة ، ممّا يجبرهم على التعامل معها والرد عليها بشتى الواقف ، سواء بالمعارضة الصامتة أو المواقف المتشددة أو بالمواجهة العلمية تأليفاً ومناظرة والتحلي بالجدل والنظر – وهو سلاح المذاهب الكلامية – إذا لزم الأمر علاوة علي مقاطعة أتباعها وعدم ممالئتهم . ولقد أدى هذا الأسلوب إلى مقاطعة بعض فقهاء المالكية أنفسهم ، بعد أن أحست غالبية الفقهاء مجرد احساس في ميل بعض الفقهاء لبعض الآراء الكلامية ،

(١) حول هذه المواقف للإمام مالك من المذاهب الكلامية أنظر عبدالرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ،ص ٧٨-٧٩ .

حسبما سنعرفة في موضعة .

وكانت أهم التيارات الكلامية التي اقتحمت حياة المغاربة ، وتواصلت توسعاً وانكماشاً في فترات زمنية متفاوتة ، هي آراء التيار الاعتزالي ، أو معتقدات المعتزلة ، وهي القضايا العقائدية التي شغلت العالم الإسلامي آنذاك .

على أن وجه الحق هنا هو أن إفريقية لم تعرف وقتذاك كل قضايا الأصول الخمسة التي يقوم عليها مذهب المعتزلة ، وهي التوحيد ، والعدل ، الوعيد ، المنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) ، فقد عرفت أهم القضايا التي تشعبت عن الأصل الأول ، وهو التوحيد ، كمسائل خلق القرآن ، والأسماء والصفات ، وكقضية الجبر والاختيار التي تفرعت عن الأصل الثاني وهو العدل .

وإذا مارحنا نبحث عن السبل التي تسرَّب مذهب المعتزلة إلى إفريقية عن طريقها . لوجدناها تندرج تحت سبل مباشرة وأخرى غير مباشرة :
فأما السبل المباشرة فقد ذكر المؤرخون أن واصل بن عطاء زعيم مذهب المعتزلة وأحد مؤسسية (٨٠ - ١٣١هـ) بعث أحد دعاته إلى بلاد المغرب ويدعي عبد الله بن الحارث الذي أفلح في جذب كثير من البربر إلى مذهبه

---

(١) عن مذهب المعتزلة وأصوله الخمسة وما تشعب عنها ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٨٣- ٣٠١ ، ضحى الإسلام ، الجزء الثالث ، ص ٢١ - ٢٠٧ ظهر الإسلام ، الجزء الرابع ص ٧-٤١، ٧٤- ٨٣ . فقد عالج هذا الموضوع معالجة تاريخية بموضوعية ودقة - محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ج١، ص ١٦٧-١٧٩ .

وخاصة في المغرب الأقصى (١) . وقد ظهرمذهب المعتزلة نتيجة للجهود تلك في المغرب الأوسط ، حيث كان له وجود كثيف هناك (٢) . وليس ببعيد أن يكون قد عُرف في المغرب الأدنى .

أما السبل غير المباشرة التي أدت إلى تسرب مذهب المعتزلة ، ومن ثم التمكين له فهي متعددة . ولعل أهمها هو أن كثيراً من الأحناف في المشرق قد مالوا إلى تعاليم المعتزلة ، وخاصة بعد أن أصبح الاعتزال المذهب الرسمي لبعض خلفاء الدولة العباسية (٣) . ومن هنا فقد مكن فقهاء الأحناف في إفريقية الذين كان لهم وجود كبير فيها حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل لمبادئ الاعتزال أن تنتشر هناك . وسبيل آخر أدى إلى شيوع آراء مذهب الاعتزال ، وهو تمذهب معظم أمراء الأغالبة به ، وما من ريب أن أولئك الأمراء الأغالبة كانوا يصدرون في ذلك من ميلهم إلى تقليد من تعصب لمذهب المعتزلة من خلفاء بني العباس ، وهم المأمون والمعتصم والواثق ، كما هو معروف (٤) .

غير أن الغريب في الأمر أنه في الوقت الذي نبذ خلفاء بني العباس ابتداءً من الخليفة المتوكل مذهب المعتزلة ، واصل الأمراء الأغالبة تأييد

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٣٠٠ – السيد محمد أبو العزم داود: نفسه ، ص ٢٥٤.

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٥٤ –٢٥٥ .

(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٣، ص٧١، ١٦٣– ١٦٥، ١٩٦ ومابعدها سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ،ص ٦٩ .

(٤) أنظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٣ ،ص ١٦٣ – ١٨٢ – محمد أبو زهرة : نفسه ، ج١ ، ص ١٦٧ – ١٧٤ .

مذهب المعتزلة ورجالاته وعكفوا كذلك على تأييد الفقهاء الأحناف في صراعهم ذي الشقين : الحنفي والاعتزالي ضد خصومهم المالكية ، حتى السنوات الأخيرة من عهد الدولة الأغلبية .

والسبيل الثالث غير المباشر ، كان بالطبع ذلك الذي ترفده وحدة الثقافة الإسلامية ، فغير خاف أن ما كان شائعاً وقتذاك في المشرق من اختلافات مذهبية ، وصراعات بين العقليين والنقليين . كان يتردد صداه في كل الأقاليم الإسلامية الأخرى . والأدلة والشواهد أوضح من أن نحددها ونحصرها ، فالرحلات المتبادلة للعلماء بين صقع وصقع ، ورحلات الحج للمغاربة بصفة خاصة والاستيطان المؤقت ، أو الدائم ، كل ذلك كان كفيلاً بأن تنتشر عن طريقة التيارات والآراء المختلفة .

وإلى جانب مذهب المعتزلة ، عرفت إفريقية تياراً كلامياً آخر . وهو الإرجاء ، أي مذهب المرجئة (١) . وهي قضية لاكتها الألسن كثيراً ، غير أن أخطر مافيها أنها أدت إلى اختلاف شديد ، ليس ببين دعاتها والمنتحلين لها وبين المالكية ، وإنما بين فقهاء المالكية أنفسهم .

كما عرفت إفريقية تياراً كلامياً آخر بجانب تيار الإرجاء ، بل هو حقيقة متولّد عنه ، لكنه تيار إفريقي محلي ، أي أنه لم يكن قادماً من المشرق ، وإنما انبثق من إفريقية ، ذلك التيار تمثّل في اختلاف وقع بين فقهاء المالكية في عصر الأغالبة حول قضية عرفت بمسألة الإيمان

---

(١) عن المرجئة وآرائهم المختلفة ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٧٩-٢٨٢، ضحى الإسلام ، ج٣ ،ص ٣١٦ - ٣٢٩ .

والاستثناء فيه ، وقد وقعت بين فقيهين من أشهر فقهاء إفريقية وقتذاك ، هما محمد بن سحنون بن سعيد ، ومحمد بن عبدوس . ولقد استمرت هذه القضية تثور لفترة طويلة من الزمن بين مؤيديهما حسبما سنعرف بعد .

على أن قضية الإيمان مالبثت أن ظهرت ثانية خلال العصرين الفاطمي والزيري . وبتأثير خارجي بين فقهاء المالكية كذلك . وقد قادت إلى نفس النتيجة التي تكشّفت عن القضية الأولى كما سنعرف بعد كذلك .

وإلى جانب هذا كله ثارت بعض القضايا الكلامية ، وخاصة في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري مثل قضية الكفار ، وهل يعرفون الله عز وجل أم لا ؟ وثارت بين فقهاء المالكية كذلك ، كما سنوضحه بعد .

وعلاوة على هذا وذاك ، فقد أثيرت بعض القضايا الفقهية بين فقهاء المالكية وفقهاء الحنفية ، مثل مسألة الوجه الشرعي في النبيذ وشربه . وقد وقف بعض فقهاء المالكية يوضّح وجهة نظر المالكية في ذلك سواء كان ذلك عن طريق المناظرة أو التأليف .

هذا إلى جانب بعض القضايا البدعية التي وقف حيالها بعض فقهاء المالكية موقفاً متشدداً ، وشرعوا يواجهون ذلك التيار البدعي بالمقاومة الشديدة تارة ، وبالتأليف والتصنيف تارة أخرى .

---

(١) عن كل هذه القضايا أنظر بعد موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية وغيرهم .

ب - موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية وغيرهم :

إذا مضينا نستطلع مواقف فقهاء المالكية من المذاهب الكلامية من أهل البدع والأهواء ، في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فلن تأخذنا الدهشة بناء على كرههم العميق للجدل والتفلسف والتنظير العقائدي أو غيره إذا عرفنا بأنهم قد قاوموا كل من رفع وجاهر بتلك الآراء البدعية ، وعاملوه بكل عنف وقسوة ، واستخدموا معهم كل مواقف الخصومة من مواجهة مباشرة ، إلى مقاطعة سلبية ، إلى مواجهتهم بنفس سلاحهم ، أي الجدل والمناظرة ، إلى غير ذلك من المواقف .

ففي عصر الولاة ، هبَّ الفقيه المشهور عبد الله بن فروخ المتوفى علم ١٧٥هـ كما عرفنا سابقاً ، يعلن رأيه بصراحة وعنف في المعتزلة ، فيرميهم (باللعنات) ، بل ويستجيز ذلك لهم (١) . وكان عبد الله بن فروخ يرد بذلك على من اتهمه بأنه من المعتزلة (٢) . وقد أصر على أن ينفي عن نفسه كل تهمة ترميه بالميل للمعتزلة ، فرفض ذات مرة أن يصلي علي جنازة أحد المعتزلة المعروفين آنذاك (٣) .

---

(١) المالكي : نفسه، ج١ : ص ١٢٠-١٢١ - عياض : نفسه ، ج١ ،ص ٣٥٤ -٣٤٦- ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الأول ،ص ٧٢٣- ٧٢٤ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٢٠ - عياض : نفسه ، ص ٣٤١ .

(٣) وهو المعروف بابن صخرة المعتزلي ، وكان مع ابن فروخ صديقاه عبدالله بن غانم القاضي والبهلول بن راشد . وقد طلبوا من ابن غانم أن يصلى عليه ، فقال : (كل حي ميت ، قدموا دابتي) وقالوا لابن فروخ ذلك ، فقال مثل ما قال صديقه . كذلك فعل صديقهما البهلول =

وكان قرينه الآخر ، وهو علي بن زياد التونسي المتوفى سنة ١٨٣هـ كما أشرنا إلى ذلك من قبل يشاركه نظرته تلك في المعتزلة ، وكثيراً ماكان يجابه رجالاتها في إفريقية ويقرّعهم ، ويسفّه آرآءهم الإعتزالية (١) .

وجاراهما معاصرهما الثالث البهلول بن راشد المتوفى عام ١٨٣ هـ كما عرفنا كذلك من قبل ، وكان شديداً في ذلك ، بل إن شدته كانت تتعدى إلى تلامذته حينما كان يشك بأنهم قد يبادلون رجالات المعتزلة الحديث .

ولعل في هذا الموقف الذي نرويه عنه مايدل على ذلك . روى المالكي (٢) عن بعض أصحاب البهلول أنه قال : (كنت جالساً عنده ومعه رجل عليه لباس حسن وهيئة فقال له البهلول « أحب أن تذكر لي ماتحتج به القدرية . فسكت الرجل حتى تفرق الناس ، ثم قال له « يا أبا عمرو ، إنك سألتني عما تحتج به القدرية وهو كلام تصحبه الشياطين ، لأنه سلاح من سلاحهم ، فتزينه في قلوب العامة وفي مجلسك من لايفهم ما أتكلم به من ذلك ، فلا آمن أن يحلو بقلبه منه شئ ، فيقول : سمعت هذا الكلام في مجلس البهلول ، فقال له : « والله لأقبلن رأسك ، أحييتني أحياك الله ») .

أما في عصر الأغالبة ، فقد كانت المواجهة شديدة بين فقهاء المالكية والمعتزلة من فقهاء الأحناف (٣) الذين كنوا مدعومين من قبل بعض الأمراء

= ابن راشد . أنظر عياض : نفسه ، ص ٣٤٦ .

(١) المالكي : نفسه ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(٢) نفسه .

(٣) لانعتقد أن كل فقهاء الأحناف في إفريقية وقتذاك كانوا معتزلة ، وعلى أية حال فقد عقد الخشني في كتاب : قضاة قرطبة وطبقات علماء إفريقية فصلا تحدث فيه عن فقهاء الأحناف المتمذهبين =

الأغالبة ، بالإضافة إلى مقاومتهم لأهل الأهواء والبدع الآخرين الذين كثر عددهم في هذا العصر .

فبينما الفقيه المشهور يحيى بن سلام يملأ البلاد فقهاً وحديثاً وتفسيراً كما ذكرنا من قبل ، يفاجأ بأنه قد اتهم بالإرجاء أي الميل لمبادئ المرجئة ويفاجأ كذلك بوقوف زملائه الفقهاء ضده موقفاً عدائياً ، فيحزنه ذلك ويقسم أشد الأيمان بأنه ماعبد الله على شئ من الإرجاء قط ، ويستغرب كيف صدق الفقهاء عنه ذلك ، وهو الذي كان يحدثهم عنه أنه بدعة (١) ؟ .

ولم يكن فقهاء المالكية بإفريقيَّة وحدهم الذين وقفوا ذلك الموقف العدائي من يحيى بن سلام ، وإنما كان فقهاء المالكية بمصر مثل عبد الله ابن وهب وغيره يقفون ذلك الموقف منه . وعند ماتبين لهم حقيقة موقف يحيى بن سلام، زال غضبهم منه . ورفعوا عنه العزل - إن جاز هذا القول - وذلك بعد ماوثقوا من أن رأي يحيى بن سلام في مسألة الإيمان قد نقل عنه محرفاً .

أما الفقيه المالكي المبرز : أسد بن الفرات المتوفى حسبما عرفنا عام ٢١٣ هـ فقد كان شديداً مع أهل البدع والمذاهب الكلامية ، وخاصة المعتزلة وقضيتهم الأشهر والأبرز ، وهي خلق القرآن . فممَّا حفظ عنه أنه كان يسفِّه آراءهم في مسألة خلق القرآن (٢) ، حتى إنه واجه معتنقي ذلك الرأي من

= بمذهب المعتزلة . أنظر الخشني : نفس المصدر أعلاه ، ص ١٨٠ - ١٨٣ ، ١٨٧ - ١٩٧ ، ٢١٩-٢٢٢، (الوارد ضمن كتاب طبقات علماء إفريقية لأبي العرب التميمي) .

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) أبو العرب : نفسه ، ص ٨٢ - المالكي : نفسه ، ج١، ص ٨١- ١٨٢ (ولقد روى أن أسداً كان =

الفـقـهـاء الأحناف بالعنف ، بل بالضـرب (١) . والغـريب في الأمـر أن مع موقفه ذلك ، يرمى بالقول بخلق القرآن ، ممَّا جعل سحنون بن سعيد ينتفض وينفي ذلك بشدة (٢) .

ويقف معاصره عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى على الأرجح عام ٢٢٧هـ من قضية خلق القرآن مواقف شديدة ، ومن ذلك موقفه من أحد فقـهاء الأحناف في حـضـرة الأمير الأغلبي : الأغلب بن ابراهيم بن الاغلب (٢٢٣-٢٢٦هـ) حتى أنه كان يغضب الأمير بصراحته الشديدة (٣) .

ويبدو أن رحلات بعض فقهاء الحنفية إلى العراق وقتذاك كانت سبباً في تحريك قضايا الكلام ، بما يقدمون به من أفكار اعـتـزالية ، أو مؤلفات مذهبية اعتزالية ، كانوا يبادرون إلى طرحـها في إفريقَّية وينادون بها ، بل ولايستتروا في ذلك . ولعل في هاتين الواقـعتين مايؤيد ذلك . فسليمان بن عصفور المعروف بالفراء ، أحد فقـهاء الأحناف في العصر الأغلبي ، رحل إلى العراق ، ثم عاد يطرح مبادئ مذهب الاعتزال على شكل مؤلفات تتناول قضايا القرآن وغيرها (٤) .

= يبدع من يقول بأن القرآن مخلوق ، وقد تناول بالهجوم أحد رجالات المعتزلة المشهورين في المشرق وهو بشر المريسي ، وتوعده) .

(١) أبو العرب : نفسه – المالكي : نفسه ، ص ١٨٢ .

(٢) أنظر أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٨٢ .

(٣) أبو العرب : نفسه ، ص ٨٢– المالكي : نفسه ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٤) الخشني : قضاة قرطبة وعلماء إفريقية – تصحيح عزت العطار الحسيني ص ٢٨٦– ٢٨٧ .

والفقيه الحنفي الآخر عبد الله بن الأشج - لم يذكر المؤرخون وفاته - ارتحل إلى العراق ، ثم عاد إلى القيروان . وقد تساءل فيما كان يشغل أهل القيروان من القضايا ؟ . ولما قيل له : في الأسماء والصفات ، قال : لقد تركت الناس بالعراق (يتوافقون في مسألتين : مسألة القدر ، ومسألة الوعد والوعيد) (١) .

وتتوالى مواقف فقهاء المالكية ضد القائلين بخلق القرآن والإرجاء وغير ذلك من القضايا حتى أننا نرى فقيهاً مالكياً معروفاً وهو عون بن يوسف الخزاعي (ت٢٣٩هـ) يُستفتي في رجل من القائلين بخلق القرآن ، مات ، فقال لسائليه (إن وجدتم من يكفيكم مؤونته فلا تقبروه ، فسكتوا ، ثم سألوه ثلاثاً كل ذلك يجيبهم بمثله ، فقالوا : لانجد ، فقال : اذهبوا فواروه من أجل التوحيد) (٢) ومهما كان في فعل عون هذا من رأي ، فإننا لم نورد ذلك إلاّ لتوضيح ماهية العلاقة بين فقهاء المالكية وأهل المذاهب الكلامية .

أما الفقيه الأبرز والأشهر على الإطلاق : سحنون بن سعيد المتوفى عام ٢٤٠هـ فقد كان القدوة في المواقف المتشددة مع المعتزلة وأهل البدع ، والأهواء . وقد حمد له المؤرخون مواقفه تلك وأكبروها . وفي الحق لقد تعددت مواقفه ، فمن مواجهة شديدة وتقريع ، إلى مقاطعة وصد ، إلى مناظرات علمية ، وغير ذلك . وسنكتفي بذكر أشهر مواقفه فقط .

---

(١) الخشني : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٨٧ .

(٢) عياض : نفسه ، ج١، ص ٦٢٩ - ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، ص ٨٠٩ .

فقد ترك صلاة الجماعة في جامع القيروان ، لأن الامام به كان أحد القائلين بخلق القرآن (١) ، وكادت السياط أن تلهب ظهره ، عندما رفض الصلاة وراء القاضي الحنفي عبد الله بن أبي الجواد ، الذي شكاه إلى الأمير الأغلبي محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢هـ) ، فأمر الأمير بضربه خمسمائه سوط لو لم يتدخل وزيره ، فيمنع ذلك بحسن تدبيره . ولقد تعرض في عهد هذا الأمير أيضاً لمحنة طويلة بسبب مسألة خلق القرآن، وقد ناظر فيها القاضي الحنفي ابن أبي الجواد - وسنعرف ذلك في موضعه - ، إلى درجه أن الأمير أمر بقتله ، لو لم يتدخل وزيره في الأمر أيضاً.

والموقف التالي الذي نرويه عنه يمثّل رأي فقهاء المالكية في القضايا العقائدية والسياسية التي كانت مثارة وقتذاك . ذكر المالكي (٢) عن الفقيه يحيى بن عون الخزاعي الذي تحدثنا عنه قبل قليل أنه قال : (دخلت مع سحنون على ابن القصار ، وهو مريض وكان من أصحابه ، وأصابه في علّته قلق ، فقال له : يا ابن القصار ، ماهذا القلق الذي أنت فيه ؟ قال : الموت والقدوم على الله عز وجل ، فقال له سحنون : ألست مصدقاً بالرسل أولهم وآخرهم والبعث والحساب والجنة والنار ؟، وأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها ﷺ أبو بكر ثم عمر ؟ وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ؟ ، وأن الله تعالي يُرى يوم القيامة ؟ وأنه ﴿ على العرش استوى ﴾ ، ولاتخرج على

---

(١) أنظر سعدي أبو حبيب : سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ص٤٢ .

(٢) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٦٦ .

الأئمة بالسيف وإن جاروا ؟ ، قال : أي والله الذي لا إله إلاّ هو . فضرب سحنون بيده على ضبعيه ، وقال له : مت إذا شئت ، مت إذا شئت ، وخرج عنه) .

ويواصل طلبة سحنون وتلامذته النجباء الوقوف بشدة ضد أهل الكلام والمتكلمين فيتصدى ابنه محمد بن سحنون المتوفى سنة ٢٥٦ هـ كما عرفنا من قبل لكل من يتجاسر على المناداة بآراء المعتزلة ، ويخوض معهم مناظرات يغلب عليها الجدل وهو الذي دفعته تلك الأمور إلى أن يتحلى بالجدل والمناظرة (١) ، ليجابه المعتزلة بنفس سلاحهم . وإذا كنا سنرجئ الحديث عن المناظرات العلمية إلى مكانها بعد ، فإن ماهومناسب هنا ذكر بعض مواقفه من الفقهاء الأحناف ، ومن زميله ورفيق دربه محمد بن عبدوس . ففيما يتعلق بموقفه من الفقهاء الأحناف الذين كانوا يجاهرون بآرائهم الاعتزالية من حيث مسائل خلق القرآن ، ورؤية الله سبحانه وتعالى، وقضايا الجبر والاختيار ، روى أنه كان على خلاف مع قاضي إفريقية وقتذاك سليمان بن عمران (ت ٢٧٠هـ) ، وقد ضايقه هذا القاضي مضايقة شديدة جعلته يستغيث بالأمير محمد بن أحمد بن محمد الأغلبي (٢٥٠-٢٦١هـ) فأغاثه الأمير وأمّنه ، ثم مازال بالأمير حتي وافق على عزل إمام جامع القيروان المعين من قبل القاضي سليمان بن عمران ، وتولية الفقيه عبد الله بن طالب المتوفى سنة ٢٧٥هـ كما ترجمنا له سابقاً على

---

(١) ذكر أن محمداً بن سحنون أول من ألف في الجدل من المالكية . أنظر الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، ج٢ ، ص١٢٩ -١٣٠ .

الصلاة . فلما خان يوم الجمعة انتصب ابن طالب على المنبر يقول : (الحمد لله الذي يشكر علي مابه أنعم ، والحمد لله الذي عذب علي مالو شاء منه عصم ، والحمد لله الذي على عرشه استوى ، وعلى ملكه احتوى ، وهو في الآخرة يُرى) (١) . وبالطبع فقد أغضب هذا الأمر القاضي الذي حاول أن يثني الأمير عن قراره دون جدوى .

بيد أن القضية الخطيرة التي شجر الخلاف عليها بين فقهاء المالكية بعضهم بعضاً ، كانت هي مسألة الإيمان التي تعد أصلاً رئيسياً من أصول المرجئة العقائدية . وخلاصة هذه القضية التي ثارت بين محمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس زميلة ورفيق دربه العلمي المتوفي عام ٢٦١ هـ ، ثم بين أصحابهما ومن تعصب لهما من فقهاء المالكية ، أن محمداً بن سحنون دفع إليه بأن محمداً بن عبدوس كان يستثنى في مسألة الإيمان . وكان يقول : أنا مؤمن عند الله . ولذلك عارض محمد بن سحنون ذلك الاعتقاد الذي يوافق مذهب المرجئة ، فكان ينكر على محمد بن عبدوس ذلك ويقول إن (المرء يعلم اعتقاده ، فكيف يعلم أنه يعتقد الإيمان ، ثم يشك فيه ؟ وقد جرى بينهما تنازع شديد ، وانقسم معظم فقهاء المالكية وقتها إلى فريقين ، فريق يعاضد محمد بن سحنون ، حتى أنهم سموا بالمحمدية والسحنونية ، وفريق عرف بالعبدوسية والشكوكية – زيادة في توسع شقة الخلاف – نسبة إلى محمد بن عبدوس (٢) . ولقد استمرت ذيول هذه المسألة وقتاً غير يسير

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢، ص ١١١-١١٢ .

(٢) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص١١٣- ١١٦ ، ص ١٢٣ -١٢٤ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ص ٤٣٩-٤٤٠ مع الحواشي .

تثور بين فقهاء المالكية بعضهم بعضا ، حتى أن منهم لم يكتف بأن يؤيد أحد الرجلين : محمد بن سحنون ، أو محمد بن عبدوس (١) ، بل امتدت الخصومة إلى معارضة بعضهم بعضاً (٢) وقد شغلت هذه القضية فقهاء المالكية من يومها حتى إنتهاء العصر الأغلبي ، ثم تجدَّدت ثانية بين فقهاء المالكية أيضاً في العصر الفاطمي حسبما سنعرفه بعد قليل .

وكيفما كان الأمر ، فإن اللغط حول تلك القضية ماكان ليظهر لولا سوء الفهم الذي رافقها . وقد ذكر مؤرخو الطبقات المغربية أن ما حدث لم يكن سوى مجرد تحريف في نقل رأي محمد بن عبدوس في مسألة الإيمان تلك . ولقد رووا عنه أنه لم يكن يرى مسألة الاستثناء في الإيمان بدعة فحسب ، كما يقول محمد ابن سحنون ، وإنما إنه كان يخاف أن تصل إلى حد الكفر (٣) .

وعلى أية حال ، فقد أفادت هذه المسألة ، الناحية العلمية عندما تمخض عنها انبعاث حركة تأليفية حسبما سنعرفه في موضعه بعد . وما من ريب في أنها أسهمت في تثبيت إعتقاد الناس من منظور يخالف منظور فرقة المرجئة .

---

(١) كان الفقيه ابراهيم بن عتاب الخولاني (ت ٢٦١هـ) ، يقف مؤيداً لمحمد بن سحنون في مسألة الإيمان ولايكتفي بذلك بل كان مغالياً جداً ، حتى انه لم يصل على جنازة ابن عيدوس عصبيه منه . أنظر الخشني : نفسه ، ص٢٠٥-٢٠٦- عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٢٧٠ - ٢٧١ .

(٢) مثل خصومة الفقيه جمديس (ت : ٢٨٩هـ) الذي يؤيد محمد بن سحنون للقاضي حماس بن مروان (ت : ٣٠٣هـ) المؤيد لمحمد بن عيدوس . أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٥٤-٢٥٥ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص٢٠٣- ٢٠٥ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ١٢٤- الدباغ : نفسه ، ج٢، ٣٦٢- ٣٦٣ .

وفي عهد الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ) عادت مسألة خلق القرآن تطل برأسها ثانية ، ويستمد دعاتها من نفوذ الأمير نفوذاً واستطالة شديدين . وكان الفقية الحنفي الذي يدين بالاعتزال محمد بن عبدون (ت٢٩٧هـ) ، والذي تولى قضاء إفريقية عام ٢٧٥ هـ الموجّه لتلك القضية واثارتها . وينسب للفقيه المالكي المشهور سعيد بن الحداد (٣٠٢هـ) ، الفضل في التصدي لتلك القضية سواء بمؤلفاته في ذلك ، أو بالمناظرات العلمية التي ناظر فيها المعتزلة في مجلس الأمير ابراهيم بن أحمد ، حسبما سنعرف بعد (١) .

ثم عادت القضية ، أي قضية خلق القرآن ، تثور من جديد في عهد الأمير أبي العباس عبد الله بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٨٩-٢٩٠هـ)، وهو ابن الأمير المذكور سابقاً . ولقد عمد أبو العباس إلى انتهاج أسلوب مغاير لأسلوب أسلافه في تأييدهم لمسألة خلق القرآن . فلم يكتف بالتأييد الاعتقادي العلني ، بل أمر بكتابة منشورات تدعو إلى القول بخلق القرآن بالقوة والإكراه ، الأمر الذي آثار علماء المالكية وأغضبهم (٢) . وكان الذي تولى عظم هذا الأمر وأقنع الأمير بذلك هو الفقيه الحنفي ذو الميول الاعتزالية محمد بن شعيب الصديني الذي ولاّه أبو العباس القضاء في نفس العام ، الذي تولى هو فيه الإمرة ، أي عام ٢٨٩ هـ (٣) .

---

(١) أنظر بعد ص ٤٧٢ .

(٢) الخشني : طبقات علماء إفريقية الوارد ضمن كتاب طبقات وعلماء إفريقية لأبي العرب ،ص ٢٣٨ .

(٣) أنظر عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ،ص ٢١ .

وعندما قتل الأمير أبو العباس عام ٢٩٠ هـ عزل ابنه زيادة الله (٢٩٠-٢٩٦هـ) القاضي محمد بن شعيب الصديني ، وولى بدلاً عنه الفقيه المالكي حماس بن مروان (ت ٣٠٣هـ) ، وكتب مخاطباً الخاصة والعامة قائلاً (إني عزلت عنكم الجافي الجلف المبتدع ووليت حماس بن مروان لرأفته ورحمته وطهارته وعلمه بالكتاب والسنة . فرضيت الخاصة والعامة ، وسروا بذلك) .

وعندما قامت الدولة الفاطمية عام ٢٩٧هـ لم نعد نرى في تراجم العلماء والفقهاء المالكية ، أي إشارات لصراعات مذهبية مع المعتزلة . بل عدمنا أي ذكر للمعتزلة في عصرهم . وهكذا اختفت المسألة التي كان يثور الخلاف حولها كقضايا خلق القرآن والأسماء والصفات والجبر والاختيار لتحل محلها قضايا خلاف مذهبي بين المالكية والشيعة ، وهي وإن كانت ذات مساس بجوانب عقائدية وفقهية وسياسية ، إلاّ أنها تختلف مذهبياً بالطبع عن مذهب أهل الكلام كثيراً .

لكن عصر الفاطميين تميز بالخوض في مسألة الإيمان والاستثناء فيه، وقد شجر الخلاف في هذه المسألة بين فقهاء المالكية أنفسهم كما ذكرنا من قبل ، إذ وقف القاضي حماس بن مروان الذي أشرنا إليه قبل قليل ، يؤيِّد موقف محمد ابن عبدوس شيخه في تلك المسألة . وقد وقف يشايعه في موقفه هذا الفقيه أبو الفضل المسي (ت ٣٣٣ هـ) ، في حين وقف الفقيه أبو ميسرة أحمد بن نزار (ت ٣٣٧هـ) يخاصمهما خصومة شديدة . ولقد وصل الأمر بأبي ميسرة أنه طلب من أبي الفضل المسي أن يتوب عن قوله،

بل وعول على أن يأخذ عليه محضراً بذلك ، ممّا حدى برفقائهما الفقهاء إلى التدخل والإصلاح بينهما (١) .

على أن الخلاف حول مسألة الإيمان مالبث أن شجر ثانية بين فقهاء المالكية وخاصة بين الفقيه أبي محمد بن التبان (ت ٣٧١ هـ) والفقيه أبي محمد عبد الله بن أبي زيد (ت ٣٨٩هـ) (٢) . ولقد جد حول مسألة الإيمان تلك جديد ، إذ روي أن الفقيه أبا الحكم محمد بن حكمون الربعي الزيات ، قد جاء بمسألة الإيمان فألقاها على مسامع فقهاء إفريقية المعاصرين له . وأدى الأمر إلى اشتعال الخلاف حولها بين الفقهاء وخاصة ابن التبان وابن أبي زيد كما ذكرنا آنفاً (٣) . ويبدو أنه ليس هناك كبير اختلاف بين هذه المسألة وبين المسألة التي دار الخلاف حولها في عصر الأغالبة شطراً من الوقت في عصر الفاطميين .

أما خلال العصر الزيري المتأخر ، فلم نعد نسمع شيئاً عن أهل الكلام وقضاياهم ، وكل ماذكر هو أنه أثيرت في الثلث الأول من القرن الخامس الهجري مسألة (الكفار هل يعرفون الله تعالى أو لا ؟) . وقد نشب حولها خلاف بين فقهاء المالكية ، حتي وضع الفقيه أبو عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ) حداً لتلك المسألة (٤) .

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢، ص ٣١٣ – ٣١٤، ص ٣٦١ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥٢٣ ، ٥٢٧ – ٥٢٨– الدباغ : نفسه ، ج٣، ص٧٧–٧٨ .

(٣) عياض : نفسه ،ص٥٢٧–٥٢٨، ٥٣٥–٥٣٦–الدباغ : نفسه ، ص٧٨ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٧٠٥ –٧٠٦ .

جـ - الأصداء العلميـة للصراع المذهبي بين المالكيـة وأتبـاع المذاهب الكلامية :

إذا كنا قد تعرفنا على بعض صور مشرقه لأوجه مقاومة المغاربة لأتباع المذاهب الكلامية ، فإن الجانب العلمي من تلك المواقف لايقل إشراقاً ووضوحاً عنها . ولقد مرت المقاومة العلمية - إن جاز هذا القول - عبر قناتين أو وسيلتين ، هما : الجانب التأليفي ، تأليف المؤلفات للرد على أهل المذاهب الكلامية والجانب الآخر ، جانب المناظرات العلمية . وهذان الجانبان اثنان من ثلاثة سبل انتهجها فقهاء المالكية بعد مع الشيعة كما سنعرف في موضعه إن شاء الله .

الحركـــة التأليفيـــة :

كان من الطبيعي أن لايكتفي فقهاء المالكية بمجرد المقاومة والمقاطعة لأتباع المذاهب الكلامية ، وإنما حرصوا على مواجهة الفكرة بالفكرة والحجة بالحجة في كل مايتعلق بالقضايا التي كانوا يثيرونها وقتذاك ، وهي مسألة خلق القرآن ، ومسألة الأسماء والصفات والجبر والاختيار ، ومسألة الإيمان بصفة خاصة .

وإذا كان عصر الولاة لم يشهد حدوث جهود تأليفية للرد على أتباع المذاهب الكلامية ، فإن عصر الأغالبة حفل بصورة خاصة بظهور مؤلفات عديدة قبل فقهاء المالكية ،ومن قبل المعتزلة حول تلك القضايا الآنفة الذكر .

فالفقيه محمد بن سحنون بن سعيد يؤلف العديد من الكتب التي توضح وجهة النظر الصحيحة حول القضايا الاعتقادية ، مثل كتاب : الحجة على القدرية ، وكتاب الرد علي الفكرية ، وكتاب الرد على أهل البدع في ثلاثة أجزاء ، ورسالة في أدب المناظرة في جزئين (١) ... إلى غير ذلك .

وفقيه مالكي آخر يخوض غمار الرد على أتباع المذاهب الكلامية ، فيكتب عدّة كتب ، ذلك هو الفقيه يحيى بن عمر الكناني الأندلسي المتوفى سنة ٢٨٩ هـ . ومن تلك الكتب نذكر : كتاب الرؤية ، أي كأنما هو رد على المعتزلة الذين ينكرون رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وكتاب الرد على المرجئة إلى غير ذلك (٢) .

والحقيقة أن مسألة خلق القرآن ، هي أهم القضايا التي كان يثور النزاع حولها ، والتي كانت قطب الرحى في الحركة التأليفية كما نظن ، رغم أننا لم نعثر إلاّ على إشارات يسيرة جداً عن تلك المؤلفات . وعلى أية حال فإن فقهاء الأحناف المعتزلة كانوا حسبما تشير أكثر المصادر السبّاقين إلى التأليف في تلك المسألة ، ثم شرع فقهاء المالكية يردون عليهم .

فمن أولئك الفقهاء الأحناف سليمان بن أبي عصفور ، المعروف بالفراء فقد ذكر الخشني (٣) أنه كان (له كتب في مذهبه في : خلق القرآن) ، وإن لم يذكر أسماء تلك الكتب صراحة . ومنهم كذلك الفقيه محمد بن الكلاعي

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ص ٣٥٢ .

(٣) نفسه ، ص ٢٨٦ .

الذي صنف كتاباً يؤكد فيه القول بخلق القرآن . ويبدو أن السبب في ذلك هو أن الفقيه المالكي سعيد بن الحداد المتوفى سنة ٣٠٢هـ ، صنف كتاباً يرد فيه على القائلين بخلق القرآن . وأثار هذا التصارع العلمي بين الرجلين فقيهاً مالكياً آخر ، وهو ابراهيم بن محمد الضبي المقتول لاحقاً في عصر الفاطميين عام ٢٩٧ هـ فصنَّف كتاباً يناقض فيه الكلاعي ، ويسفِّه ماجاء في كتابه آنف الذكر، ممّا دفع الفقيه محمد بن عبدون - الذي كنا قد أشرنا إلى دوره في التآليب على من ينكر خلق القرآن ، إلى أن يستغل الفرصه لاحقاً بالتنسيق مع الكلاعي في الوشاية بالضبي عند عبيد الله المهدي أثناء دخوله القيروان (١) .

وعندما ثارت مسألة الإيمان والاستثناء فيه بين محمد بن سحنون ومحمد بن عبدوس ، وانقسم قطاع كبير من فقهاء المالكية إلى سحنونية وشكوكية ، كان هذا مدعاة للإنبراء إلى التأليف حول تلك المسألة .

وفي الحق ، لقد تزعم محمد بن سحنون ومن وقف معه من فقهاء المالكية وقتذاك ، ذلك الاتجاه ، على ماعرفناه من نفي الفقيه محمد بن عبدوس لما أُتهم به . وهكذا نرى محمداً بن سحنون يؤلف كتاباً بعنوان : كتاب الإيمان والرد على أهل الشرك (٢) . وأتبعه فقيه مؤيِّد له ، وهو الفقيه عبد الله بن غافق التونسي (ت ٢٧٥هـ) (٣) فوضع رسالة في مسألة

---

(١) الخشني : نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) هكذا رجح عياض : نفسه ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ ، وإن كان قد ذكر الأقوال الأخرى ، فقال قيل سنة ٢٧٧هـ ، وقيل ٢٧٣هـ .

الإيمان كان لها صدى طيباً في إفريقية وقتذاك (١) .

ويتعصب فقيه ثالث لمحمد بن سحنون ، وهو الفقيه يحيى بن عمر الكناني ، فيؤلِّف كتاباً حول تلك المسألة ويسميه - فيما يدل على مغزاه العميق - كتاب الرد على الشكوكية (٢) . ويتبعه الفقيه أبو عبد الله محمد بن علي البجلي الذي أشرنا إليه أنه أحد من مال إلى المذهب الشافعي (٣)، فيصنف كتاباً بعنوان : الرد على الشكوكية (٤) أيضاً .

وحظيت الخلافات الفقهية بين المالكية والحنفية فيما يتصل بالوجه الشرعي في مسألة النبيذ ودرجته ، ومسألة شربه (٥) ، بالعديد من المؤلفات من قبل فقهاء المالكية . وكان لمحمد بن سحنون أيضاً دور معروف في ذلك . فقد صنَّف كتاباً بعنوان تحريم المسكر وهو الكتاب الذي طالبه فيه والده أن يتحرى الدقة والموضوعية في ردِّه على القائلين بعدم التحريم (٦) . ومن كتبه كذلك : كتاب الإباحة ، وكتاب الأشربة (٧) .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) الخشني : نفسه ، ص ٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٣) أنظر قبل ص

(٤) الخشني : نفسه ، ص ٢٧٨- ٢٧٩ .

(٥) لايفهم من هذا أن الأحناف يبيحون شرب الخمر فهو محرم دون شك عند كل المذاهب الإسلامية ، غير أن لهم رأياً في النبيذ ، فهم يفرقون بين نيئ العنب ومطبوخه ، ويبيحون شربه مالم يبلغ بشاربه عدم التمييز) ، وهذا ما لايذهب إليه المالكية إطلاقا . أنظر عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ، حاشية رقم٤ ص٧٢ (نقلاً عن القاضي عياض في كتاب المدارك) المخطوط والمحفوظ بالمكتبة الوطنية بتونس ، العدد ٤٨١٧ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٧) عياض : نفسه ، ص ١٠٧ .

وفي عصر الأغالبة ثارت قضية بين الفقيه يحيى بن عمر الكناني الذي مر بنا ذكره ، وبين عدد من فقهاء المالكية أصحابه ومؤيديهم ، وهي قضية حضور مجلس مسجد السبت . ومسجد السبت هذا كان أحد المساجد المعروفة آنذاك في القيروان ، وكان يغص بالعباد والزُّهاد ، ويشاركهم بعض فقهاء القيروان ، وكانوا يتخذون من كل يوم سبت فرصة للالتقاء هناك وتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم ، ثم تُتداول حكايات الصالحين ، ومن ثم يقف أحد المنشدين فيلقي أشعاراً ملحنة تحث على الزهد والعبادة تعرف بالرقائق . ولقد رأى الفقيه يحيى بن عمر في ذلك بدعة ، فأخذ يشدِّد النكير بعدم حضوره حتى أنه أوذي في سبيل ذلك (١) .

ونحن لايهمنا بالطبع إلاّ ماانعكس من أثر علمي على الدراسات الشرعية من جراء الخلاف ، وذلك عندما وقف يحيى بن عمر معارضاً ذلك ، ومؤلفاً كتاباً (في النهي عن حضور مسجد السبت) (٢) . ولسنا في حاجة إلى القول بأن ذلك قد أفاد العلم ومسيرة الدراسات الشرعية دون شك .

المناظرات العلمية :

وإلي جانب خوض غمار التأليف للرد على أتباع المذاهب الكلامية في القضايا التي كانوا يثيرونها ، وقف فقهاء المالكية يعقدون المناظرات العلمية

---

(١) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٣٩٩ - ٤٠١ ، وأنظر الحاشية رقم ١، ص ٩٩م - الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص٢٣ - ٢٣٩ .

(٢) المالكي : نفسه ، ج١ ،ص ٤٠١ - الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٣٨.

مع فقهاء المعتزلة . بيد أن وجه الحق هنا ، هو أن معظم تلك المناظرات كانت بمبادرة أولية من فقهاء الأحناف المعتزلة ، ومن بعض الأمراء الأغالبة الذين شايعوهم في تلك القضايا .

فمن أوائل هذه المناظرات ، تلك التي جرت بين الفقيه المالكي المشهور أسد بن الفرات والفقيه الحنفي المعتزلي سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء والذي أشرنا إليه سابقاً . وذلك أن أسداً كان يحدِّث يوماً بحديث رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، فأنكر سليمان ذلك ، الأمر الذي أغضب أسد بن الفرات فقام إليه فضربه ضرباً شديداً (١) .

وموقف (٢) علمي آخر لايرقى إلى مستوى المناظرة ، وهو أن أسداً كان يفسر القرآن ، فتلى القارئ :﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ (٣) . فقال له أحد فقهاء الأحناف المعتزلة : إن المقصود بالنظر الانتظار ، ففهم أسد غرضه ، وهو نفي رؤية الله سبحانه وتعالى ، فقام إليه مهدداً بضربه ، وآمراً اياه بالاعتراف بالرؤية البصرية المجردة ، ممّا دفع الرجل إلى الإذعان قائلاً : (نعم ننظره) (٤) .

---

(١) أبو العرب التميمي : المصدر السابق ،ص ٨٢ - المالكي : نفسه ، ص ١٨٢ .

(٢) يبدو أن هذه الحادثة لا تختلف كثيراً عن الحادثة التي قبلها ، فالتشابه كبير بينهما ، حتى في اسمي الرجلين المعتزليين ، ففي الأولى عرفنا أن اسمه سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء ، وفي الحادثة الثانية أشار المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ١٨٢، إلى أن اسم الرجل سليمان ابن حفص ، غير أننا مع إيراد الحادثتين معاً نميل إلى أن الحادثتين جرت مع شخص واحد فقط .

(٣) سورة القيامة : آية رقم ٢١ ، ٢٢ .

(٤) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ١٨٢ .

وكثيراً ماكان أسد بن الفرات يقرّع المعتزلة ويسفّه آرآءهم ، إذ يروي أنه كان مرة يفسّر قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فاستمع لما يوحى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ (١) . فقال أسد عندها (ويل لأهل البدع ، هلكت هوالكهم يزعمون أن الله عز وجل خلق كلاماً ، يقول ذلك الكلام المخلوق : لا إله إلا أنا) (٢) .

وفي عصر الأمير الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٣-٢٢٦هـ) جرت مناظرة في مجلسه بين بعض فقهاء المالكية وبعض فقهاء الأحناف المعتزلة ، حول مسألة خلق القرآن . وذلك أنه روى أن الفقيه المالكي عبد الله بن أبي حسان اليحصبي المتوفي عام ٢٢٧هـ - كما عرفنا من قبل - ، دخل على الأمير الأغلب فوجد فقيهين أحدهما مالكي والآخر معتزلي يتناظران في مسألة خلق القرآن وكلاهما يصر على رأيه . وقد وقف عبد الله بن أبي حسان ينكر بالطبع مسأله خلق القرآن بشده ، حتى أنه لم يتورع من تجريح الأمير نفسه عندما حاول المعتزلي أن يحصل على مساندته في مناظرته لابن أبي حسان اليحصبي ، مما أغضب الأمير (٣) .

وكانت هذه المسألة، أي مسألة خلق القرآن أهم مثار النزاع بين الفريقين كما ذكرنا من قبل. وفي هذا الخصوص روى أبو العرب التميمي (٤) ، أن مجلساً ضم الفقيه المالكي موسى بن معاوية الصمادحي

---

(١) سورة طه : آية رقم ١٢ ، ١٣ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص٨٢ - المالكي : نفسه ، ص ٨٢ .

(٣) أنظر أبو العرب : نفسه ، ص ٨٩- ٩٠ - المالكي : نفسه ، ص ٢٠١ -٢٠٢ .

(٤) كتاب المحن ، ص ٤٦٢ .

والفقيه الحنفي المعتزلي عبد الله بن أبي الجواد - والذي كان قاضياً وقتذاك - ، فأثيرت تلك المسألة ، فقال موسى : سمعت فلاناً وفلاناً ، وذكر جماعة من أهل العلم يقولون : من قال : القرآن مخلوق فهو كافر . فقال له ابن ابي الجواد : لقد أعمى الله قلبك كما أعمى عينيك . وكان موسى بن معاوية قد كف بصره) .

وعندما استبد الأمير أحمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب ولي عهد أخيه محمد (٢٢٦-٢٤٢هـ) بالأمر دونه ، وفوّض له الأمر والنهي (١) ، شرع يرفع ثانية مسألة خلق القرآن . ودعا بها على المنابر في المساجد . ولقد كان حريصاً على معرفة رأي الفقيه الأشهر سحنون بن سعيد ، بل على موافقته للقول بخلق القرآن كرها . ولذلك وجَّه في طلبه للحضور للمناظرة . وبالفعل جاء سحنون إلى مجلس الأمير ، وهناك أخذ القاضي الحنفي المعتزلي ابن أبي الجواد يوجِّه له الأسئلة حول تلك المسألة . فكان جواب سحنون له : (أصلح الله الأمير ، أما شئ أبتديه من نفسي فلا ، ولكن الذي سمعت ممّن تعلمت منه وأخذت ديني عنه أنهم كانوا يقولون : إن القرآن كلام الله ، وليس بمخلوق (٢) . فقال له ابن أبي الجواد : أيها الأمير إنه قد كفر فاقتله ودمه في عنقي ، وقال مثل ذلك نصر بن حمزة القائد

---

(١) عاد الأمير محمد بن الأغلب فاسترد سلطانه وامرته من أخيه أحمد بعد أحداث كبيرة ، ثم نفاه إلى مصر ، ومن مصر توجه إلى العراق حيث بقي إلى أن توفي هناك . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : تاريخ المغرب العربي ،ج١ ، ص ٨٢ - ٨٣ الحواشي .

(٢) المقصود به محمد بن سحنون الذي روى القصة عن أبيه . أنظر أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٤٦٢ .

وغيره . فقال لداود بن حمزة (١) : ماتقول ياداود . قال : أصلح الله الأمير، قتله بالسيف راحة له، ولكن اقتله قتل الحياة ، يؤخذ عليه الحملاء (٢) ، وينادى عليه بسماط القيروان لايفتي ولايسمع أحداً ، ويلزم داره ، ففعل ذلك أبو جعفر (٣) ، وترك قول من أشار عليه بقتله وأمر بأحد عشر حميلاً ، فكان ممّن تحمل به ابن علاقة وغيره ، ومنع الله عز وجل القوم من قتله) (٤) .

ويبدو أن قضايا خلق القرآن وقضايا القضاء والقدر وغيرها التي كانت شائعة آنذاك ، كانت تدفع ببعض فقهاء المالكية إلى التصدي لها حتى قبل وقوعها، حماية لمعتقدات الناس من البلبلة والتشويش.. ومن هنا نري فقيهاً مالكياً معروفاً، وهو الفقيه عون بن يوسف الخزاعي المتوفى عام ٢٣٩هـ يملي على طلبته إجابة لمناظرة محتملة مع القدرية ، تقفل عليهم الطريق . ذكر المالكي (٥) عن عون بن يوسف قوله : (إذا أردت أن تكفر القدري فقل له : ما أراد الله عز وجل من خلقه ؟ فإن قال : « أراد منهم الطاعة » ، فقد كفر ، لأن منهم من عصى وكل إله لاتتم طاعته ، فليس بإله .

---

(١) أحد قواد الأمير أحمد بن الأغلب ، أنظر أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٤٦٤ .

(٢) المقصود بذلك : الضمناء ، وهو ما أشار إليه صراحة الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٩٦ – في رواياته لأحداث تلك المناظرة .

(٣) كنية الأمير أحمد بن الأغلب : أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٧٩ وما بعدها .

(٤) أبو العرب التميمي : المحن ، ص ٤٦٢ – ٤٦٥ – عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٦١٠– ٦١١ مع شئ من الاختلاف – الدباغ : نفسه ، ص ٩٤– ٩٦ ، مع اختلاف يسير في الرواية .

(٥) نفسه ، ج١ ، ص ٢٩٨.

وإن قال : أراد منهم المعصية ، فقد كفر لأن منهم من أطاع ، وكل إلهٍ لاتتم ارادته فليس بإله . قال : فإن قال لك المسؤول : ما أراد منهم ؟ فقل : أراد منهم الذي أراد لهم والذي كان لهم . - يريد ماسبق لهم (١) عنده في اللوح المحفوظ) .

على أن الفقيه محمداً بن سحنون تحمل عبئاً كبيراً في مسألة المناظرات مع المعتزلة سواءً بمحضر الأمير الأغلبي أبي الغرانيق محمد بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٥٠-٢٦١هـ) الذي عاش محمد بن سحنون في عهده ، أو مع فقهاء الأحناف المعتزلة . وفي كل تلك المناظرات كان محمد بن سحنون العلم المجلى .

ولنبدأ بمناظرته مع الأمير أبي الغرانيق . فقد روى أن الأمير وجَّه في طلب محمد بن سحنون ، وعندما قدم عليه ، سأله الأمير عن قوله في يزيد (٢) بن معاوية بن أبي سفيان . ففهم محمد بن سحنون المغزي الذي يرمي إليه الأمير ، بحكم كونه معتزلياً ، أي أنه عرف مقصد الأمير الذي يريد أن يحمله علي معتقده في مرتكب الكبيرة ، وهي إحدى الأصول الخمسة التي يقوم عليها المذهب

---

(١) جملة اعتراضية من المالكي يوضح فيها ماقصده عون بن يوسف من كلامه ذلك .

(٢) في أصل النص ، لم يرد حقيقة أنه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، فالواقعة روت أن الأمير سأله ما تقول في (يزيد) فحسب ، لكن المعقول أنه يقصد هنا يزيد بن معاوية بن أبي سفيان لأن السياق يدل على ذلك ، فالأمير كان يريد معرفة رأي محمد بن سحنون في أعمال يزيد التي أفاض المؤرخون وبعض الفقهاء في ذكرها كما هو معروف .

الاعتزالي (١) . فكان من جواب محمد بن سحنون له : (أصلح الله الأمير، ما أقول ماقالت الإباضية ولا ما قالت المرجئة . قال : وما قالت ؟ . قال : قالت الإباضية : إن من أذنب ذنباً فهو من أهل النار ، وقالت المرجئة : لا تضر الذنوب مع التوحيد . أما يزيد (٢) عظيماً جسيماً ، ويفعل الله في خلقه ما أحب ثم انصرف) (٣) .

ولمحمد بن سحنون موقف مناظرة آخر مع أحد المعتزلة في مجلس أحد وزراء الأغالبة الذين لايميلون إلى رأي المعتزلة ويدعى ابن حميد . وكان ذلك المعتزلي المدعو بأبي سليمان النحوي قد قدم من المشرق ، وكان يقول بخلق القرآن . فطلب الوزير من محمد بن سحنون أن يناظر هذا المعتزلي ، فكان ممّا قاله له ابن سحنون : (تقول أيها الشيخ أو تسمع ؟ فقال له الشيخ : قل يابني ، فقال محمد : أرأيت كل مخلوق هل يذل لخالقه ؟ ، فسكت الشيخ ولم يحر جواباً ، ومضى وقت طويل وانحصر ولم يأت بشئ .

---

(١) نعتقد أن هذا هو المغزى الحقيقي من سؤال الأمير لمحمد بن سحنون عن يزيد بن أبي سفيان . لأن المعتزلة لهم رأى في مرتكب الكبيرة ، وأنه في منزلة بين المنزلتين ، وفي هذا الصدد نعتقد أيضاً أن التوفيق جانب سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ،ص ١٠٩ عندما فسر سؤال الأمير لمحمد بن سحنون على أنه قصد به امتحان محمد بن سحنون في موقفه من الأمويين والعباسيين فإذا وقف محمد بن سحنون إلى جانب الأمويين من خلال قوله في يزيد فإنه سينكشف موقفه السياسي المعادي للعباسيين ، ونحن نستبعد أن يكون السؤال ذا مغزى سياسي ، ونرجح أنه ذوى مغزى مذهبي بدليل أن السياق كله يدل على ذلك .

(٢) هكذا وردت في النص ، وقد علّق محقّق المدارك أحمد بكير محمود في الحاشية أن المقصود بها ربما : (فكان ذنبه) وأما يقارب ذلك ، لكن نعتقد أن الكلمة الأنسب ، ربما هي : أتى يزيد عظيما جسيما ويفعل الله ... الخ) .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١١٢-١١٣ .

فقال له محمد : كم سنة أتت عليك أيها الشيخ ؟ ، فقال له : ثمانون سنة ، فقال ابن سحنون للوزير ابن حميد : قد اختلف أهل العلم في الصلاة على الميت بعد سنة من يوم موته – وفي نسخة : إذا دفن ولم يصل عليه ، وهذا الشيخ له ثمانون سنة ميت في عداد الموتى ، فقد سقطت الصلاة عليه بإجماع ، ثم قام فسر بذلك على بن حميد وأهل المجلس (١) .

وليس من شك في أن مناظرة محمد بن سحنون تلك تدل على مقدرة جدلية تعتمد على زاد لاينفد من التشبّع بالثقافة الدينية . ولقد طُلب – من بعد – من محمد بن سحنون أن يوضّح لهم ماذا يعني بسؤاله للمعتزلى ، فقال لهم : (إن قال ان كل مخلوق يذل لخالقه ، فقد كفر ، لأنه جعل القرآن ذليلاً لأنه يذهب إلى أنه مخلوق . وقد قال الله عز وجل : ﴿ وإنه لكتاب عزيز لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾ (٢) وإن قال إنه يذل فقد رجع إلى مذهب أهل السنة لأنه لايذهب (في هذه الحالة)(٣) إلى أنه مخلوق ، الذي هو صفة من صفاته) (٤) .

وثمة مناظرة أخرى مع الفقيه المعتزلى سليمان بن أبي عصفور المعروف بالفراء ، والذي مربنا ذكره من قبل . وقد سأل محمد بن سحنون

---

(١) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٣٥٠ .

(٢) سورة فصلت : آية رقم ٤١– ٤٢ .

(٣) زيادة اقتضاها السياق ، وقد وضعها على ذلك النحو محقق الجزء الأول من رياض النفوس حسين مؤنس .

(٤) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص٣٥٠ – ٣٥١ .

سؤالاً له مغزاه ، فقال له : (يا أبا عبد الله . الله سمى نفسه) ؟ فأجابه محمد بن سحنون قائلاً : الله سمى نفسه لنا ، ولم يزل ، وله الأسماء الحسنى) (١) . وقد علق محمد بن حارث الخشني (٢) على سؤال سليمان الفراء لمحمد بن سحنون أنه سؤال قصد به الإفحام والإسكات . لأن محمداً ابن سحنون لو أجاب بالقول : نعم ، فقد أثبت على نفسه الإقرار بحدوث الأسماء والصفات . لكن محمداً أفسد عليه تدبيره .

ومن المناظرات العلمية المدوية ، والتي دارت حول مسألة خلق القرآن تلك التي خاضها الفقيه المالكي المشهور سعيد بن الحداد مع أحد فقهاء المعتزلة وهو القاضي عبد الله بن الأشج قاضي الأمير الأغلبي ابراهيم الثاني المتوفى عام ٢٨٩هـ . وهي مناظرة عميقة الأثر ، دلت على قدرة جدلية منطقية كبيرة لدى سعيد بن الحداد . فقد تصدى لابن الأشج وللأمير معاً ، ووضّح لهما خلال تلك المناظرة بأدلة نقلية وعقلية منطقية استحالة أن يكون القرآن مخلوقاً . ولم يكن أمام الأمير إلاّ أن يسلم بهزيمته وهزيمة قاضيه ، غير أنه قال له أخيراً : أنت لا تضطرني إلى مذهبك وأنا أضطرك إلى مذهبي) (٣) .

---

(١) الحشني : نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٢) نفسه .

(٣) المالكي : نفسه ، ج٢ ،ص ٧٠ – ٧٥ .

الأثر العلمي للصراع المذهبي في إفريقية بين المالكية والأباضية :

أ - نبذة عن دخول المذهب الخارجي بلاد المغرب :

قبل أن نتصدى للحديث عن الانعكاسات العلمية للخلاف المذهبي بين المالكية والإباضية في إفريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة الزمنية موضع اهتمامنا ، تستدعي ضرورة السياق التاريخي أن نعقد نبذة تاريخية عن كيفية دخول المذهب الخارجي بلاد المغرب والأسباب التي أدت إلى انتشاره بين البربر ، وما رافق ذلك من أحداث سياسية وعسكرية ، ثم الأماكن التي استقر بها ... الخ .

يرى كثير من المؤرخين قدامى ومحدثين أن بلاد المغرب العربي لم تعرف من فرق الخوارج سوى فرقتين فقط ، هما الفرقة الإباضية والفرقة الصفرية (١) . وفي هذا الصدد يشير محمود اسماعيل عبد الرازق (٢) إلى أن ماتردد من أقوال عند بعض المؤرخين تشير إلى انتشار آراء بقية فرق

---

(١) السلاوي : الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، ج١، ص١٣٤ - ١٣٥ سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ج١ ، ص ٢٨٧ مع الحواشي (نقلا عن عدة مصادر) - محمود اسماعيل عبدالرازق الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٤٤ مع الحواشي (نقلا عن مصادر مختلفة) - رفعت فوزي عبدالمطلب : الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغالبة ص٢٠ -٢٤ ، ٢٧-٣٠ ، (نقلا عن مصادر واسعة) - الحبيب الجنحاني : المغرب الإسلامي - الحياة الإقتصادية والإجتماعية (قرن ٣-٤هـ / ٩ - ١٠م) ص ١٩٠ - ١٩٢ نقلاً عن عدد من المصادر الإباضية) .

(٢) الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٤٣ -٤٤ مع الحواشي .

الخوارج الأخرى في المغرب أمر « مشكوك فيه » (١) وعلى أية حال فإن ماتمخّضت عنه مجريات الأحداث السياسية والعسكرية للخوارج في المغرب العربي منذ أن تسربت إليه آراء الخوارج لاتتحدث إلاّ عن فرق : الإباضية والصفرية فحسب .

أما عن التحديد الزمني لتسرب المذهب الخارجي إلى بلاد المغرب ، فالواقع أن المصادر والمراجع التي تعرّضت لذلك . لم تستطع تحديد زمن دقيق واضح ، بيد أنها أشارت إلي أن المذهب الخارجي قد ظهر في المغرب بفرقتيه : الإباضية والصفرية في وقت متقارب أو متزامن وذلك في أوائل العقد الأول من القرن الثاني (٢) الهجري .

فلقد تتابع تقاطر دعاة الخوارج الصفرية إلى المغرب لنشر تعاليم فرقتهم الخارجية بين قطاع كبير من البربر وخاصة بربر المغرب الأقصى موطنهم الأصلي (٣) . كما انتشرت تعاليم الفرقة الصفرية بين الأفارقة

---

(١) رد محمود اسماعيل عبدالرازق : نفس المرجع السابق والصفحات ، على تلك الأقوال التي قالت بإنتشار آراء بقية الفرق الخارجية الأخرى كما ناقش الآراء الأخرى التي شككت في انتشار فرقتي الإباضية والصفرية في بلاد المغرب ، ورد عليها بموضوعية مهمة .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٨٦ - محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص٤٧، ٥٤ (نقلا عن مصادر متعددة كذلك) - فوزي عبدالمطلب : نفس المرجع السابق ، ص٢٩- عوض خليفات : نشأة الحركة الإباضية، ص ١١ ، ١٣٣- ١٣٤ - الحبيب الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٨٢ (وفيها ذكر صراحة دون ان يشير لمصادره أن مذهب الخوارج قد دخل إفريقية عام : ١٥٠هـ ، ص ١٥٧ ، وفيها دون أن يشير لمصادره كذلك أن المذهب الإباضي ، دخل إفريقية في أوائل المائة الثانية من الهجرة سنة ١٢٠هـ ومابعدها تقريباً .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع الساق ، ص ٤٨ - عوض خليفات نشأة الحركة الإباضية ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

الذين كـانوا يشكلون عنصـراً سكانيـاً مسـتقـلاً آنذاك في المغـرب ، وذلك بوساطة زعيمهم عبد الأعلى بن جريـــج الافـريقي (١) . وبالإضـافة إلى المغرب الأقصى تغلغلت مبادئ الدعوة الصفرية في جنوبي المغرب ، أي بلاد السودان (٢) ، وفي بعض أجزاء المغربين الأدنى والأوسط (٣) .

أما مبادئ الفرقة الإباضية ، فقد ظهرت في المغرب في وقت متقارب مع مبادئ الفرقة الصفرية كما ذكرنا آنفاً . وإلى سلمة بن سعيد الحضرمي تحديداً يعود أمر ظهورها وانتشارها في بلاد المغرب . ولقد ذكر المؤرخون أن سلمة بن سـعيد ، وفد إلى بلاد المغرب للدعوة للإباضية تنفيذاً لأوامر زعيم المذهب آنذاك أبي عبيدة مسلم بن كريمة التميمي الذي كان يقيم في مدينة البصرة (٤) .

ولقد اتخذ سلمة بن سعيد من المغرب الأدنى ميداناً لنشاطاته ، حيث أفلح في اكتساب أنصار لدعوته في إقليم طرابلس ، وخاصة بين القبائل التي تقيم في جبل نفوسه ، كما أفلح في تدريب بعض أبناء طرابلس وغيرها، لتولي أمر الدعوة للمذهب بين أبناء جلدتهم (٥) .

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٠١ .

(٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٠١ .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص٥٠ رفعت فوزى عبدالمطلب : نفس المرجع السابق ، ص ٦٠ –٦١ – الطاهر أحمد الزاوي ، تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ١٨٢ .

(٤) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص٥٤–٥٥ – رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص٢٧–٢٨– عوض خليفات : نفسه ، ص١١، ١٣٦ (وقد أشار إلى أن سلمة بن سعيد قدم القيروان قبل عام ١٠٤هـ) .

(٥) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٥٤– ٥٥ – رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٢٧ =

وإلى جانب جهود سلمة بن سعيد في الدعوة للإباضية تابع أبو عبد الله محمد بن عبد الحميد بن مغيطر وهو أحد أبناء افريقية الذين تلقوا علومهم على يد شيخ المذهب بالبصرة ، مواصلة نشر تعاليم ، المذهب الإباضي بين بربر قبيلة نفوسة بالجبل ممّا جعل الجبل بعد ذلك (دار هجرة)(١) ، ولم يقتصر انتشار المذهب الإباضي على قبيلة نفوسة وحدها ، وإنما انتشر بين القبائل الآخرى كذلك (٢) .

ولقد قدر للمذهب الإباضي أن تستقر قواعده بعد ذلك على أيدي الطلبة الذين ذهبوا إلى البصرة عام ١٣٥هـ ، ثم عادوا في سنة ١٤٠هـ لينشروا ويثبتوا دعائم المذهب في بلادهم ، أي المغرب الأدنى وأجزاء من المغرب الأوسط (٣) ، وأما عن انتشاره في المغرب الأقصى ، فإننا في الواقع لم نعثر لدى المؤرخين قدامى ومحدثين على مايشير إلى ذلك .

وكيفما كان الأمر فقد انتشرت آراء وتعاليم الفرقتين الخارجتين : الإباضية والصفرية ، في كل بلاد المغرب على النحو الذي أشرنا إليه آنفاً . ولقد أدت الظروف والأحداث التاريخية الداخلية التي تعرّض لها المغرب

= ٣٠ - عوض خليفات : نفسه ، ص ١٣٦- ١٣٧ .

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص١٥٤ .

(٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص٥٥ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص٥٣ - ٦١ .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : المرجع السابق ، ص٥٥- رفعت فوزي : المرجع السابق ص٢٧ - ٢٨ - عوض خليفات : نفسه ، ص١٣٦ - ١٣٧ - صالح باجية : نفسه ، ١٦، ٣٤، ٣٥ - على يحى معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ص٢٣٢ - صالح مفتاح - برقة طرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ص٥٠ - ٥١ .

وقتئذ والتي سنطرق بابها بعد قليل إلى انتشارها انتشاراً واسعاً بين البربر. كما سهلّت الظروف الخارجية التي تعرَّضت لها الدولة الأموية من فرص تمذهب البربر بالمذهب الخارجي بل والثورة على الدولة الأموية نفسها، ثم العباسية .

ويمكن للمتتبِّع للأحداث السياسية في المغرب آنذاك أن يقرِّر أن البربر الخوارج هم الذين شكَّلوا الأحداث السياسية العسكرية للمغرب منذ أوائل القرن الثاني الهجري - حيث تسرَّبت الدعوة الخارجية - وحتى العقد الثامن منه تقريبا . وكانوا وقتها هم السلطة المهيمنة على شئون المغرب واحداثه .

على أن الشئ الجدير بالتنبيه هنا هو أن المذهب الخارجي بفرعيه : الإباضي ، والصفري لم ينتشر بين كل القبائل البربرية ، فقد أحجمت بعض القبائل عن التمذهب به (١) كما أن بعض القبائل البربرية التي كانت قد مالت إليه من قبل ، لم تستمر على خارجيتها فقد انسحبت منه كما هو ثابت تاريخياً (٢) .

أما وقد أتينا على ذكر كيفية دخول المذهب الخارجي والتحديد الزمني لذلك والمناطق التي انتشر بها ، فإن الحاجة تستدعي كذلك أن نذكر الأسباب والبواعث التي دفعت البربر إلى التمذهب بالمذهب الخارجي ، بل

---

(١) أنظر رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٦٠- ٦١ - ويضرب المثل بقبيلتي صنهاجية وأوربة ، فصنهاجة ظلت في غالبيتها بعيدة عن المذهب الخارجي وكذلك أوربة في المغرب الأقصى .

(٢) أنظر رفعت فوزى عبدالمطلب : نفسه ، ص ٦١ -٦٢ .

والتمسك به إلى الدرجة التي جعلتهم يثورون على الدولتين الأموية والعباسية في سبيل نصرة مذهبهم .

لقد قيل الكثير عن تلك الأسباب التي تعددت مناحيها واتجاهاتها . ونحن بالطبع ليس من مهمتنا تفنيد تلك الأسباب واخضاعها للتحليل والتدقيق التاريخيين للوقوف على الأصوب فيها ، بقدر مايهمنا الإشارة إلى أهمها والتي لقيت إجماعاً من قبل المؤرخين قدامى ومحدثين على السواء .

ومهما يكن من أمر ، فإن غاية مانستطيع قوله هنا ، هو إن ثمة أسباباً عديدة ، أدت إلى أن يلقى المذهب الخارجي القبول لدى البربر . ويأتي في مقدمة تلك الأسباب : عوامل دينية وسياسية واقتصادية تلازمت جميعها في دفع البربر للأخذ بالمذهب الخارجي ، وتعاليمه وشعاراته (١) . فلقد راع البربر أن ينظر إليهم – على إسلامهم – ، بذات النظرة التي ينظر بها لغير المسلمين وذلك في الحقوق والواجبات . فمن الناحية الدينية فوجئوا بالتفريق في المعاملة بينهم وبين العرب ، لاسيما وهم الذين استهواهم في الدعوة الخارجية ، المبدأ الذي يجعل من أعلى السلطات السياسية في الدولة الإسلامية فضلاً على غيرها حقاً متاحاً لكل مسلم دون النظر إلى جنسه أو لونه ، أو وضعه الاجتماعي .. الخ . كما ساهم التشكيك في إسلامهم

---

(١) عن تلك الأسباب الدينية والسياسية والاقتصادية المتلازمة : أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص ٢٦٨– ٢٦٩– ٢٨١ – ٢٨٦ – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٠٨– ٢١٦ – محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٦٧–٧٢ و قد أشار هؤلاء إلى منقولاتهم عن المؤرخين القدامى وماهداهم أنفسهم إلى التحليل التاريخي للبواعث أو الأسباب التي دفعت بالبربر للتمذهب بالمذهب الخارجي .

والاعتداء على أعراضهم وأموالهم ، ومن الناحية السياسية البحتة ، ساهم التفرقة في المعاملة بينهم وبين العرب في الحروب والمغانم (١) .

ومن الناحية الاقتصادية وهي القضية التي اشعلت الثورة الكبرى ودفعت بهم إلى الارتماء في ظل المذهب الخارجي - بحكم أن الباعث الاقتصادي كان وثيق الارتباط بالباعثين الديني والسياسي - من هذه الناحية أغضبتهم السياسة المالية الخاطئة التي انتهجتها بعض ولاة الدولة الأموية ، مثل الاشتطاط في جمع الأموال من البربر بشتئ الطرق والوسائل، حتى تلك التى تشكّك في اسلامهم ، وتعتبرهم وأرضهم فيئاً لابد أن نطلق عليها قواعد الفيئ من التخميس وخلافه كما هو معروف (٢) .

كل هذه الأسباب متداخلة أدت إلى أن يلقى المذهب الخارجي تجاوباً هائلاً بين البربر في مدة زمنية قصيرة ، ليس هذا فحسب بل وخوض ثورات متلاحقة ضد العرب كما هو ثابت تاريخياً وكما سنتطرق إليه بعد قليل بإيجاز ، فلقد بدت لهم الدعوة الخارجية الوسيلة التي تحقّق لهم وجودهم وحقوقهم وتحفظ لهم كيانهم . ولقد تزامن ذلك مع حدثين مهمين أولهما : ضعف الدعوة الخارجية

---

(١) أنظر ابن الأثير : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٤٥ (لمعرفة القضايا التي كان يشتكي منها المغاربة كما عبروا هم عن ذلك قبل أن يثوروا على الدولة الأموية) .

(٢) عن السياسة المالية الخاطئة من حيث دواعيها ومن قام بها من الولاة ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٦١، ٢٨٢، ٢٨٣ - السيد عبدالعزيز سالم ، نفسه ، ص ٢٠٧، ٢١٣-٢١٤- رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٦٩ .

في المشــرق بسـبب ماتلقـته مـن ضـربات قـاصـمـة من الأمويين (١) والأمـر الثاني ، ضـعف الدولة الأموية وتردّي أوضاعها منذ وفاة الخليفة هشـام بن عبد الملك (٢) ، ولذلك فلقد تضافرت كل تلك الأسباب جميعها إلى أن يعلن البربر ثورتهم الضخمة ضد الدولة الأموية ، فالعباسية بعد ذلك .

وقـبل أن نخـتـتم الحديث عن الأسـبـاب التي أدت إلى تمذهب البـربر بالمذهب الخارجي ، لايفوتنا أن نشير إلى أن هناك تفسيرات أخرى جاءت على أقلام بعض المستشرقين وهي التي تفسِّر سبب إقبال البربر على المذهب الخـارجي ، بالرغـبـة في الغنائم والطمع بـهـا والتي لم تتـحـقَّق لهم عندمـا أسلموا . وليس الأمر أمر عقيدة . هذا ولمّا لم تتحقق لهم تلك الرغبة تمردوا باسم المذهب الخـارجي (٣) ولقد انبرى رفعت فوزي عبد المطلب (٤) الذي أشار إلى ذلك لتفنيد تلك التفسيرات ، موضحـاً عدم وجاهتها وصوابها . كـمـا أن فـريقـاً آخـر من المسـتشـرقين وخـاصـة الفرنسـيين ، قـد ربطوا بين انتشار المذهب الخارجي في بلاد المغرب ، وبين نحلة الدوناتية المسيحية التي عاشت في المغرب من قبل في ظروف مشـابهة لظروف البربر في ظل حكم الولاة في عــهــد الدولة الأمــوية . ذلك الارتبــاط الذي ينطوي على دوافـع سياسية واجتماعية بالدرجة الأولى ، في حين يشكّل الدافع أو العامل الديني

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٢٤ .

(٢) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٢٤ .

(٣) رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ٣٢- ٣٣ .

(٤) الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، ص ٣٣ – ٣٧ .

أهميـة ثانوية (١) . ولقـد تصدى محـمود اسمـاعيل عبـد الرازق (٢) الذي أشار هـو الآخر إلى هذا التفسير لتفنيد تلك الآراء ، موضحاً عدم تمشيها مع الوقـائع التاريخـية من جـهة ، ومسـتعـيناً بالرد عليـها بانتـقادات بقـية المستشرقين الآخرين لها ، ومن جهة أخرى .

أما التـفسير الآخير الذي صادفنا ونحن نستطلع تلك الأسباب فـهو ماجـاء على ألسنـة بعض البـاحثين العرب وخاصـة المغاربة منهم ، الذين يرون – في مبالغة واضحة دون شك – أن تمذهب البربر بالمذهب الخارجي ، إنما جاء كرد فعلٍ قومي ضد العرب الذين أساءوا إليهم (٣) .

وأياً مـا كـان الأمـر ، فـإن الشئ الذي لايمكن دفـعـه هو أن مـبـادئ الخوارج قد انتـشرت بين مـعظم البـربر انتـشـار النار بين الهـشيـم في تلك الفتـرة ، أي في العـقـدين الأولين من القرن الثـاني الهـجري . ولقـد أدى ذلك إلى إعـلان البـربر الثـورة الكبـرى ضـد العـرب وولاة الدولة الأمـوية . وقـد استمرت ثوراتهم مايقارب نيفاً وخمسين سنة أو أكثر .

وفي الواقـع لقـد تزعـم البـربر الصـفـرية الثـورة أولاً ، فـخـاضـوا ضد الدولة الآموية حروباً ومعارك ضخمة كان النصر حليفهم في موقعتين مهمتين هما : موقعة الأشراف عام ١٢٢ هـ أو أوائل ١٢٣ هـ وموقعة بقدورة

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، حاشية ، رقم ٢١٧، ص ٥٦ –٥٧ .

(٢) نفسه ، حاشية ٢١٧ ، ٥٧ .

(٣) أنظر مثلا عبدالله العروي : تاريخ المغرب محاولة في التركيب ، ص١١٤– ١١٥ – صالح باجية : نفسه ، ص٢٣ وجارهما محمود اسماعيل عبدالرازق رغم عدم كونه مغربياً في ذلك : نفسه، ص٤١ .

عام ١٢٣ هـ ثم قدّر للجيوش الأموية أن تفلّ بعض قوتهم في عدة معارك أهمها معركتا القرن عام ١٢٥ ثم الإصنام في نفس العام أيضاً (١) .

بيد أن نتيجة هاتين المعركتين لم تقض على ثورتهم فقد واصلوا الثورات ضد الدولة الأموية ، ثم الأسرة الفهرية التي حكمت المغرب معترفة بالخلافة الأموية فالعباسية ، ثم مالبثت أن خلعت طاعتها بعد . وعندما زالت هذه الأسرة تولت الدولة العباسية عن طريق ولاتها المتعاقبين على المغرب محاربة الصفرية (٢) ، ممّا اضطرهم في النهاية إلى الانكفاء في دولتهم التي أقاموها في المغرب الأقصى في مدينة سجلماسة عام ١٤٠ هـ ، وهي الدولة التي ظلّت قائمة حتى تسنى للفاطميين القضاء عليها ٢٩٦ هـ (٣) .

أما الخوارج الإباضية ، فقد دخلوا حلبة الصراع السياسي والعسكري متأخرين عن الخوارج الصفرية . ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يعيشون في طرابلس وبقية المغرب الأدنى كإقليم الجريد . وبالطبع فقد

---

(١) عن ثورات الصفرية والمعارك التي خاضوها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ،ص ٢٨٦- ٣٣٩- السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٢٥- ٢٢٩ ، ٢٥٤ - ٢٥٧ - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٦٢- ٨١ - رفعت فوزى عبدالمطلب : نفسه ، ص ٧٣- ٨٠ ، ٩٥- ١٠٩، ١١٥- ١١٩ .

(٢) سعد زغلول : نفسه ، ٧٥-٨١ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص١٥٦ -١٥٨ ، ١٦٦-١٧٢ .

(٣) عن الدولة المدرارية ، ظروف قيامها وشؤونها السياسية والاجتماعية ، ثم سقوطها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد نفسه ، ج٢ ، الفصل الرابع ، ص ٤٠٧ - ٤١٦ ، محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ص ٢١٢ - ١٤٣ ، ٢١٠ - ٢٢٨ حيث أرخا لهذه الدولة وكل ماجاء عنها في كتب المؤرخين القدامى والمحدثين والمستشرقين .

كانت هذه المناطق قريبة من القيروان العاصمة من جهة ، ثم قرب المغرب الأدنى النسبي للخلافة وقاعدتها الأمامية مصر ، التي كانت تجيِّش الجيوش ضد الخارجين على الدولة سواء الأموية أو العباسية من جهة أخرى (١) . وعلى أية حال فقد خاض الإباضية الثورات منذ عام ١٢٦ هـ عندما اصطدموا بالأسرة الفهرية ، ثم تتابعت اصطداماتهم العسكرية مع الأسرة نفسها في عامي ١٣١ - ١٣٢هـ (٢) .

غير أن ثورتهم الكبرى التي كانت نقطة تحول مهم كانت عام ١٤٠ هـ عندما نجحوا لأول مرة في إعلان إمامة الظهور في جبل نفوسه بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري . حيث نجح في ضمّ أجزاء عديدة لدولته الإباضية ومنها إقليم الجريد ولقد خاض الإباضية عدة معارك ضد ولاة الدولة العباسية كانت نتائجها سجالاً بين الفريقين . ولئن سقطت بعد ذلك إمامتهم في جبل نفوسه بمقتل أبي الخطاب (٣) المعافري ودخولهم طور الكتمان وإمامة الدفاع كما كانوا (٤) يعبّرون . فقد استطاعوا بعد أقل من عقدين من الزمن أن يستغلوا الظروف التاريخية المناسبة ، فيقيموا دولتهم

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٨٢ - ٨٣ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ١٢٠- ١٢١ .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٣١٨- ٣٢٤ - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٨٢ - ٨٥ - رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ١١٩-١٢٤ .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣٤- ٣٤٧ - ٣٥٥ - ٣٦١ - محمود اسماعيل عبالرازق : نفسه ص٨٢- ٩٥- رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص١٣٧-١٤٥ - ١٥١-١٥٨، ١٥٣- ١٨٠ .

(٤) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ،ص ٨٩- رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ١٦٣ .

ثانية في المغرب الأوسط في مدينة تاهرت عام ١٦١هـ بزعامة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية ، وهي الدولة التي ظلّت قائمة حتى أسقطها الفاطميون عام ٢٩٧هـ فيما اسقطوه من دول بالمغرب كما هو معروف تاريخياً (١) .

وبقيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤ هـ كانت قد استقرت خريطة توزيع القوى السياسية والمذهبية في المغرب كله . فلقد قامت في المغرب الأدنى : الدولة الأغلبية نفسها ، وقامت في المغرب الأوسط الدولة الرستمية الإباضية، وقامت في المغرب الأقصى دولتان هما : الدولة الإدريسية السنية والدولة المدرارية الخارجية الصفرية . والظاهرة السياسية المهمة التي صاحبت قيام الدولة الأغلبية هي أن الخوارج ركنوا إلى الموادعة والمسالمة لاسيما وقد تحقَّق لهم تطبيق حلمهم بقيام دولتين في المغربين الأوسط والأقصى ، كانتا تعبّرا عن أمانيهم وعن نظرتهم السياسية والدينية ، ثم رأوا وخاصة الإباضية ، في الدولة الأغلبية تعبيراً للشعور (٢) بالاستقلال فانكفأوا في المناطق التي استقروا فيها يعيشون حياتهم وفق مذهبهم الإباضي الذي اختاروه .

---

(١) عن الدولة الرستمية بتاهرت ، ظروف قيامها ، وأمرائها وشؤونها السياسية والاجتماعية والعسكرية) ، ثم سقوطها أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٢٨٩- ٤٠٦ - (الفصل الثالث) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ١٤٤- ٢٠٨ ، ٢٢٩- ٢٣٤ - فقد تناولا كل ماجاء عن هذه الدولة من أقوال المؤرخين القدامى والمحدثين بما فيهم مؤرخي الإباضية ، ثم أقوال المستشرقين كذلك .

(٢) أنظر ، قبل ص٦١ .

يبقى أن نشير إلى أن الخوارج الإباضية - وهم الذين سيقتصر حديثنا عنهم ، لأنهم عاشوا في المجال الجغرافي الذي نؤرخ لحياته العلمية وهو المغرب الأدنى - كانت تبعيتهم السياسية سواء في إقليم الجريد أو جبل نفوسه تتناقل بين الدولة الأغلبية حيناً الدولة الرستمية حيناً آخر وإن كانت في كثير من الأحيان لصالح الدولة الرستمية ، أما من الناحية المذهبية فلا نزاع على انتمائها للدولة الرستمية (١) .

وأخيراً فإن ممَّا هو جدير بالتنبيه إليه هنا هو أن كل مؤرخي الإباضية القدامى والمحدثين ينفون عن أنفسهم صفة الخارجية ، ويرون أن مذهبهم مخالف عقائدياً وفقهياً للمذهب الخارجي ، بل إنهم يرون أنفسهم يشكّلون المذهب الخامس بين مذاهب السنة ، ويصرون في كل مناسبة على أن رميهم بالخارجية إنما هو خطأ تاريخي عظيم ارتكب بحقهم (٢) .

ويبدوا أن عدداً من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين يوافقون

(١) أنظر ماقلناه قبل ١٧٩ عن تبعية جبل نفوسه وإقليم الجريد السياسية والمذهبية .

(٢) نكتفي بكتاب واحد فقط ، يعكس كل أقوال المؤرخين القدامى والمحدثين من الإباضية في بعد مذهبهم الإباضي عن الخارجية وذلك الكتاب ألفه علي يحيى معمر وهو مؤرخ وعالم أباضي محدث بعنوان : الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث . والكتاب كما يفهم من عنوانه ، قام على مناقشة هوية المذهب الإباضي مع كتاب المقالات عند المؤرخين القدامى وكتاب المقالات من العرب والمستشرقين في العصر الحديث . والواقع أنه يصعب علينا الإشارة إلى كل الصفحات التي أوردها علي يحيى معمر والتي تؤكد أن المذهب الإباضي بعيد كل البعد عن الخوارج والخارجية أنه مذهب إسلامي من ضمن المذاهب الإسلامية المعروفة . وعلى سبيل المثال أنظر الباب الثالث ص ٢٤٣ - ٢٤٩ - الباب الخامس ص ٣٥٢- ٣٦٠ ..... الخ .

الإباضية في نظرتهم تلك ، بناءً على مالاحظوه من الاعتدال الذي صبغ في النواحي العقائدية والفقهية والسياسية (١) .

---

(١) أنظر تقديم محمد حمد الحارثي (سفير سلطنه عمان لدى تونس عام ١٩٧٦م) لكتاب صالح باجية : نفسه ، حيث يذكر بعضاً من المؤرخين القدامى الذين شهدوا للإباضية (بأنهم على السنة) كالمبرد في الكامل وابن حزم ، وابن حجر ، والعلامة السندوبي في حاشيته على البيان والتبيين للجاحظ في الجزء الثاني ، وأنظر علي يحي معمر : الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص ٦ (حيث يورد نص كلام المبرد في الكامل بشأن المذهب الإباضي) . أما عن الباحثين المحدثين ، فقد وافقهم عدد منهم : محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ص ٨٥ – ٨٦– أحمد أمين : فجر الإسلام : ص ٢٦٠– ٢٦١ – عز الدين التنوخي : في مقدمته لكتابي : ديوان أبي بكر بن أحمد بن سعيد الستالي الإباضي ، (أنظر علي يحيى معمر : نفس المرجع السابق ، ص ١٣٣) وكتاب مسند الربيع بن حبيب الإباضي في مقدمته للكتاب ، أنظر باجية : نفسه ، تقديم محمد بن حمد الحارثي) الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص١٥٩ – ١٦٠ ، وغير ذلك .

ب - الأصـداء العلمـيـة للصـراع المذهبي بين المالكيـة والإباضية :

لعل السؤال الطبيعي الذي يطرح نفسه هنا هو : لم حصرنا الأصداء أو الانعكاسات العلمية للصراع المذهبي في المالكية والإباضية وحدهما ، مع أن المذاهب المالكي لم يظهر في المغرب إلاّ بعد منتصف القرن الثاني الهجري ، هذا من جهه ، ومع أن المذهب الإباضي لم يكن وحده في الميدان من جهة أخرى ؟ هذا التساؤل في الواقع له وجاهته التي لاتنكر ، غير أن ماانجلت عنه الأمور : مذهبياً وجغرافياً في المغرب الأدنى ، هو الذي دفعنا إلى طرح مسألة الأصداء العلمية بالصورة التي جاءت بعاليه . ذلك لأن المذهب المالكي قد أصبح ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري مذهب الأغلبية السكانية ، ليس في المغرب الأدنى وحده ، بل وفي بقية المغرب والأندلس كما عرفنا من قبل . هذا من الوجهة المذهبية ، كما أن المذهب الإباضي قد استقرّ من الوجهة الجغرافية في المغرب الأدنى ، وهو المحيط أو الإطار الجغرافي الذي نؤرخ لحياته العلمية كما هو مفهوم .

على أن ذلك يجب أن لاينسينا أنه توجد ثمة إشارات محدوده لأصداء علمية برزت نتيجة للصراع أو إن شئنا الدقة للخلاف المذهبي بين الخوارج بفرعيهم : الإباضية والصفرية ، وبين جمهرة أهل السنة في إفريقية والمغرب كله أحياناً . وهذه الإشارات على قلتها قد تفيدنا في توضيح بعض معالم هذه الفقرة .

وفي الحق ، فإن تلك القلة في الانعكاسات العلمية هي نتيجة طبيعية لعدم وضوح معالم الصراع المذهبي بين الفريقين آنذاك . فنحن في الحقيقة لم نلمس من خلال متابعتنا لكتب التاريخ العام ، ولكتب التراجم والطبقات التي أرّخت للحياة العلمية الإفريقية والمغرب وقتذاك أي صراعات مذهبية علمية بين جمهرة أهل السنة وبين الخوارج . بيد أن مانستطيع أن نؤكده هو أنه كان هناك نفور بين الفريقين ضد بعضهما البعض . ولدينا بعض مايثبت بأن فقهاء السنة في إفريقية قد ناصروا الخلافة الأموية فالعباسية ضد خصومهما من الخوارج ، مع أنهم لم يكونوا على وفاق دائم مع ولاة الدولتين في المغرب آنذاك (١) .

ولعلنا نستطيع تفهم ذلك الموقف من علماء السنة تجاه الخوارج والذي جاء نتيجة للإختلاف المذهبي بين الفريقين من جهة ، ولما احدثته معظم ثورات الخوارج المتعاقبة من آثار سيئة على الأمن والاستقرار . في ربوع المغرب من جهة أخرى (٢) .

وكيفما كان الأمر فقد ظفرنا ببعض الإشارات للأصداء العلمية التي نجمت عن الخلاف المذهبي بين جمهرة أهل السنة وبين الخوارج ، روى المالكي أن الوالي حنظلة بن صفوان (١٢٤-١٢٧هـ) لما ثار عليه الخوارج ، وخاصة في مدينة طنجة ، جمع علماء إفريقية ، وخاصة أفراد البعثة العلمية

---

(١) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص ٩٠ - ٩٤ .

(٢) أنظر مثلا مافعلته قبيلة ورفجومة التي لايعدها الكثير من المؤرخين من الخواج الصفرية ، من أعمال سيئة في القيروان عندما دخلوها من تنكيل وتعذيب بالسكان وربط دوابهم في جامع القيروان . راجع : رفعت فوزي عبدالمطلب : نفسه ، ص ١٢٨ - ١٣٢ .

التي أرسلها عمر بن عبد العزيز ، وطلب اليهم كتابة رسالة إلى أهل طنجه (ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا مافيها) (١) فكان أن أملى العلماء رسالة مهمة نوردها بنصها : (من حنظلة بن صفوان إلى جميع أهل طنجه . أما بعد فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنة نبيه ، محمد ﷺ، (قالوا) إنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات : آمرة ، وزاجرة ، ومبشرة ، ومنذرة ، ومخبرة ومحكمة ، ومشتبهة ، وحلال ، وحرام ، وأمثال ، فآمرة بالمعروف ، وزاجرة عن المنكر ، ومبشرة بالجنة ، ومنذرة بالنار ، ومخبرة بخبر الأولين والآخرين ، ومحكمة يعمل بها ، ومتشابهة يؤمن بها ، وحلال أمر أن يؤتى ، وحرام أمر أن يجتنب ، وأمثال واعظة . فمن يطع الآمرة ، وتزجره الزاجرة ، فقد استبشر بالبشرة وأنذرته المنذرة ، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام ، ويروا العلم فيما اختلف فيه الناس الى الله ، مع طاعة واضحة ونية صالحة ، فقد أفلح وأنجح ، وحيا حياة الدنيا والآخرة ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » (٢) .

وصدى علمي آخر نجم عن الخلاف المذهبي نذكره الآن فقد ذكر أن خالداً بن أبي عمران التجيبي (ت : ١٢٥ أو ١٢٧ هـ) الذي كنا قد ترجمنا له من قبل ، قدم المدينة المنورة فأتى القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب بمسائل معينة . (فأبيا عليه أن يجيباه ، فقال لهما خالد : (إنا بموضع جفاء في هذا المغرب ، وأنهم حملوني هذه

(١) كما عبر بذلك : المالكي : نفسه ، ج ١، ص ٦٧ .

(٢) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٦٧ .

المسائل وقالوا لي : - إنك تقدم على المدينة وبها (أبناء) (١) أصحاب رسول الله ﷺ، فسلهم لنا ، وإنكما إن لم تفعلا كانت حجة لهم ، فماشئتما) (٢) ، فقال له القاسم : سل فسألهما خالد فأجاباه ، فيما سألهما فيه) (٣) ومع أن المالكي لم ينص حقيقة على أن تلك المسائل التي طرحها خالد بن أبي عمران على التابعين المذكورين كانت نتيجة للخلاف المذهبي بين جمهرة أهل السنة ، وبين الخوارج ، إلاّ أننا لانستطيع أن نفهم منها إلاّ أنها كذلك . فخالد بن أبي عمران عاصر أنذاك عنفوان الانتشار الخارجي عقائدياً وفقهياً ، بدليل أن المالكي (٤) يقول معقباً على تلك الواقعة، بأن تلك الإجابة قد احتوتها مدونة سحنون الفقهية ، وهو الأمر الذي أشرنا إليه (٥) من قبل . وهكذا نرى أن الدراسات الشرعية قد جنت من جراء ذلك ، قدراً غير يسير من ذلك العطاء العلمي .

وأيا ماكان الأمر ، فإن الصدّى العلمي أو الأثر الثقافي الأبرز والأوضح في الانعكاسات العلمية للصراعات المذهبية بين الخوارج ، وجمهرة أهل السنة في بلاد المغرب آنذاك هو ظهور المذهب المالكي هناك كردّ فعل مباشر لمواجهة تلك التيارات من الترهات الخارجية وبعض الآراء البدعية

---

(١) زيادة اقتضاها السياق وضعها محقق الكتاب حسين مؤنس .

(٢) زيادة اقتضاها السياق وضعها المحقق حسين مؤنس .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ج١ ، ص ١٠٣ .

(٥) أنظر ، ٣١٢ ومابعدها .

التي ظهرت بين البربر آنذاك (١) ، وذلك في محاولة للحفاظ على الإسلام النقي الصافي . هذا إلى جانب تأثير معظم الأسباب الأخرى التي أدت إلى انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب ، والتي لايمكن اغفال أصلها الديني المتفق وهذا السبب الذي أشرنا إليه .

وعندما استقرت خارطة توزيع القوى للمذاهب الفقهية والمذاهب الدينية السياسية على النحو المشار إليه في الفقرة الأولى من هذا الفصل ، تكشفت لنا حقيقة تاريخية مهمة ، وهي أن كلا المذهبين : المالكي والإباضي قد ركنا إلى مايمكن تسميته بتعايش الامر الواقع بينهما . فلم نلحظ الخلاف الذي كان قائماً – على قلّته – بين الخوارج وجمهرة أهل السنة قبل ذلك . ولسنا نشك في أن ثمة أسباب قد اكتنفت ذلك ، نجملها في الآتي :

السببالأول : أن المذهب الإباضي كان باتفاق عدد من المؤرخين السنة أقرب الفرق الدينية السياسية للمذاهب الفقهية السنية واكثرها

(١) مثل تلك التي أثارها البرغواطيون في المغرب الأقصى ، وهي آراء بدعية منحرفة عن جادة الإسلام نادى بها في بلاد تامسنا بالمغرب الأقصى رجل يدعى صالح بن طريف ، وذلك في القرن الثاني من الهجرة . ولقد دعى هذا الرجل الذي أدعى النبوة إلي نحلة ، وهرطقة تقوم على سن تشريع خاص في الجوانب التعبدية كالصلاة والصوم وصفة الوضوء مخالفة للإسلام تماماً . وفي جانب المعاملات سن قواعد بشأن الطلاق بعيدة عن روح الإسلام وتعاليمة كما أنه وضع لهم قرآناً من ثمانين سورة . أكثرها منسوبة إلى أسماء الأنبياء صلوات الله عليه وسلامه . وقد ظلت هرطقة برغواطة مدة طويلة منذ عهد صالح بن طريف هذا وعهود أولاده وأحفاده الذين خلفوه والذين نجحوا في تأسيس دويلة لهم في المغرب الأقصى . ثم تلاشت وانتهت هذه الدويلة وتلك الهرطاقات التي كانت ترفعها عام ٣٥٢هـ . أنظر ابن عذاري : نفسه والجزء ، ص ٢٣٢ – ٢٣٧ .

اعتدالاً كما مرينا في الفقرة الأولى . وإذا جاز لنا أن نقف قليلاً عند الأصول العقائدية والفقهية للإباضية والمذاهب السنية ، فإن من حق النزاهة أن نستطلع آراء الإباضية أنفسهم فيها . فالواقع أن على يحى معمر ، وهو مؤرخ وعلام اباضي محدث حصر الأصول العقائدية والفقهية للمذهب الإباضي من كتب قدامى ومحدثي الإباضية .

ومع أن علياً يحيى معمر لم يَّدع أن هناك تطابقاً متكاملاً بين الإباضية وأهل السنة في تلك الأصول ، إلاّ أنه أوضح أن تمة التقاءاً كبيراً في معظم تلك الأصول بين الفريقين (١). ومع ذلك فقد ظل بينهما بعض نقاط اختلاف (٢)

ونحن في الواقع لم نشر إلى ذلك إلاّ كي ندلل على أننا لم نلمس مع المعايشة والتجاور الطويلين بين المالكية والإباضية في المغرب الأدنى صراعات مذهبية مهمة ، ولكي نوضح هذه النقطة نضرب مثلاً بإقليم الجريد، فالجريد كانت تعيش فيه أغلبية إباضية كما عرفنا سابقاً . ولقد ذكرنا آنفاً أن الإقليم لم يكن حكْرا على المذهب الإباضي وحده ، فقد كانت تعيش في بعض مدنه وخاصة في مدينتي : قفصة وتوزر جماعات من

---

(١) أشار إلى ذلك بقوله : أن هناك التقاءً بين الإباضية والأغلبية المطلقة من أهل السنة تأويل المتشابه والقدروهناك التقاء مع الكثيرين من أهل السنة في الصفات ومرتكب الكبائر ، وهناك التقاء ، مع بعض الأئمة في صفة الكلام (القرآن مخلوف أو غير مخلوق) والرؤية ، والخلود . أنظر علي حيى معمر : نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ .

(٢) صالح باجية : نفسه ، ص٥٠ -٥٢ - السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ، ص٢٣٤ .

السنة (١) ، ومع ذلك فقد تعايش الجميع هناك جنباً إلى جنب .

السبب الثاني : مع ذلك التقارب العقائدي والمذهبي بين المالكية ، والإباضية ، فإن الخلاف ، أو لنَقُل الصراع المذهبي كان يمكن أن يظهر بصورة مخالفة لما ظهر عليه لو لم ينحسر الإباضية في المناطق النائية عن مناطق الكثافة السكانية المالكية سواء في الأطراف البعيدة أو في رؤوس الجبال .

السبب الثالث: يبدو أن الإباضية وقد أفلحوا في قيام دولة لهم في تاهرت بالمغرب الأوسط لم يكن عندهم الرغبة في الدخول في مناظرات ومجالس جدل علمية مع المالكية . وبالتالي فإننا لاننتظر شيئاً يذكر في ظلّ سلبية أحد أطراف الصراع .

السببالرابع : أنه ربما تكون هناك صور لصراع مذهبي بين الفريقين - بناء على الاختلاف المذهبي بين الطرفين - ولكن المصادر ، وبالذات المصادر الإباضية لم تفصح عنها . والواقع أن المصادر الإباضية عدا كونها لاتزال مخطوطة في أغلبها ، فإن الإباضية أنفسهم كانوا لايطلعون الآخرين على كتبهم ومصادرهم .

ولعل أقصى ماعرفناه من مواقف تطرف للصراع المذهبي بين المالكية والإباضية . هو أن الإباضية كان لهم آراء سيئة في مخالفيهم من المذاهب السنية، ومنها المذهب المالكي . ومع ذلك فقد احتفظوا بها في بطون الكتب ،

---

(١) أنظر ، قبل ١٧٩ .

دون أن تظهر على أرض الواقع في المغرب الأدنى (١) - وفي المقابل فإن أقصى ماعرفناه من مواقف من السنة ضد الإباضية في المغرب الأدنى هو ماعمد إليه الإمام سحنون بن سعيد ، عندما تولى قضاء إفريقية من إخراج اتباع المذاهب الكلامية ، والدينية السياسية ، ومنها الإباضية من جامع القيروان ، ومنعهم من التحليق فيه (٢) . ثم موقف آخر ، وهو أنه عندما تغلب المذهب المالكي على المذهب الإباضي في مدينة الحامة على أثر الضربات التي وجهتها الخلافة الفاطمية لهم آنذاك ، عمد المالكية إلى غسل المساجد بالماء الكثير كناية عن تطهيره من النجاسة (٣) .

السبب الخامس : ممّا يدل على أنه لم يكن هناك صراع مذهبي بين المالكية والإباضية في المغرب الأدنى ، بالإضافة لما ذكرناه من أسباب أن الأثر العلمي للصراع المذهبي الذي (أمد الثقافة بزاد لاينفذ) . كما يقول على الشابي في تقديمه لكتاب صالح باجية (٤) ، لم يكن وليد الصراع المذهبي بين المالكية والإباضية ، ولكنه كان بين الإباضية أنفسهم عندما انقسموا إلى قسمين : وهبية ونكارية (٥) . ولعلنا نضيف أيضاً مانجم من

---

(١) أنظر صالح باجية : نفسه ، ص ٧٢ -٧٣ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٣) صالح باجيه : نفسه ، ص ١٥١ .

(٤) مقدمة كتاب : الإباضية بالجريد بقلم على الشابي .

(٥) انقسم الإباضية في المغرب الأدنى إلى قسمين وهبية ونكارية ، على أثر تولى عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم الإمامة في تاهرت ، فأنكر عليه البعض حق الإمامية ، ومن ثم خرجوا عليه ، ثم انكروا بعد ذلك توريث الإمامة ومن ثم خرجوا عليه ، وعلى الأئمة من بعده بينما رضى فريق كبير من الإباضية إمامة عبدالوهاب . فسموا بالوهبية تبعاً لذلك نسبة إليه ، =

آثار علمية أخرى ظهرت نتيجة لظهور اجتهادات فقهية بين الوهبية الإباضية أنفسهم والتي تمثلت في اجتهادات نفاث بن نصر النفوسي وغيره (١) . ثم ماظهر من انعكاسات ثقافية للصراع المذهبي العقائدي بين الإباضية والمعتزلة في المغرب الأدنى . ذلك الصراع الذي كان عنيفاً بين الفريقين وتمثّل في شيوع المناظرات بينهم (٢)، على وجود نقاط التقاء بين الفريقين دون ريب (٣) .

السبب السادس : هو أنه لو كان المذهب الصفري ، هو الذي استقر في المغرب الأدنى بدلاً من المذهب الإباضي لربما كنا قد لمسنا صراعات مذهبية ، ومن ثم أصداءاً وانعكاسات علمية مترتبه عليها . ذلك لأن الصفرية كانوا دون ريب من فرق الخوارج المتطرفة ، ولايفوقهم في ذلك سوى فرقتي الأزارقة والنجدات ، كما هو معلوم تاريخيا (٤) . وبصرف النظر عن تفاصيل المبادئ العقائدية والفقهية للصفرية التي لاتعنينا في هذا المجال ، فإن مايهمنا الإشارة إلية ، هو أن بعض مبادئهم العقائدية والفقهية ، وخاصة مسألة الكفر والإيمان يختلفون فيها إختلافاً بيّناً مع الإباضية ،

= وقد مال الإباضية النكارية إلى التطرف بينما صبغ طابع الاعتدال : مواقف الإباضية الوهبية . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٥ - ٣٢٦ - ، صالح باجية : نفسه ، ص ٣٦ - ٣٧ مع الحواشي .

(١) أنظر علي يحيى معمر : نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٤ - ٢٧١ .

(٢) صالح باجية : نفسه ، مقدمة على الشابي ، ثم ص ٤٢ - ٤٤ - ٤٧ .

(٣) صالح باجية : نفسه ، ص ٥٢ .

(٤) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٢٥ - ٤٤ - ٤٥ . السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص٢٣٥ - ٢٣٦ .

فبينما يرى الإباضية مثلاً في مخالفيهم من المسلمين أنهم موحدون ، نادى الصفرية بتكفيرهم (١) ومن هنا لازمت القسوة والعنف حركاتهم . فلو أن المذهب الصفري هو الذي استقر في المغرب الأدنى لكان قد قُدّر فيما يبدو أن ينشب الصراع . المذهبي بينه وبين المذهب المالكي .

ونخلص من هذه النقطة التي ربما تكن قد طالت مناقشتها هو أننا لانتوقع أن نجد أصداءً علمية مهمةً للخلاف المذهبي بين المالكية والإباضية في المغرب الأدنى في الفترة الزمنية موضع اهتمامنا. – ففيما يتعلق بإقليم الجريد – ، فلعل كل ماصادفناه من انعكاسات علمية لايتجاوز موقفاً واحداً، تمثّل في صورة مناظرة وقعت بين علماء مالكية ، أو إن شئنا الدقة طلبة مبتدئين وبين عالم إباضي . والواقع أن هذه المناظرة تبدو (٢) متواضعة ساذجة لايمكن أن تلبي تطلّعنا إلى معرفة الصدى العلمي الذي ترتب عليها.

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ،ص ٤٥ مع الحواشي .

(٢) هذه المناظرة جرت عندما ضعف شأن الإباضية في مدينة الحامة على أثر ماوجهته لهم الدولة الفاطمية . ففي ذلك الوقت تنفس السنيون في المدينة الصعداء ، وانتهزوا فرصة مرور أحد علماء الإباضية وهو أبو عمر محمد عثمان بن خليفة السوفي بالمدينة ونزوله بها . دبروا أن يسألوه سؤالاً فيه شئ من المغالطة ، فإذا أجاب بالحق ، ألزموه الحجة ، وإذا أجاب بإجابه أخرى استأنفوا سؤاله كذلك . والموضوع الذي دبروا سؤاله عنهم هو : هل يجوز في مذهبكم تزويج نسائنا ، فإذا استعظم ذلك وأجاب كيف لايجوز ذلك وقد جاز عندنا تزويج اليهوديات والنصرانيات فكيف نساؤكم فضحوه ، وهكذا كان فقد أجاب الإجابة المتوقعة . مما دفعهم إلي الاستنكار عليه إذ كيف يضعهم في منزلة اليهود والنصارى ثم قاموا عليه ، وشتموه وصفعوه ، وطردوه من البلده أنظر صالح باجية : نفسه ، ص ١٥ – ١٥١ .

أما عن جبل نفوسة ، فإننا عبثاً نحاول العثور على مادة توضح لنا الآثار العلمية التي نجمت عن الخلافات المذهبية بين المالكية ، وبين الإباضية، فلم تشر المصادر التاريخية ، وغيرها من كتب التراجم والطبقات إلى شئ من ذلك البتة كما أن المراجع التي أرَّخت لبعض نشاطات الإباضية العلمية لم تشر إلى شئ ايضا . والظاهر أن الإباضية قد تقوقعوا في جبلهم ، ولم ينفتحو علمياً - إن جاز هذا - ، إلاّ على أبناء مذهبهم ومن خالفهم في تاهرت (١) . ولانعتقد أن الجبل الذي عرف أعداداً من الفقهاء والعلماء الإباضية كان خاملاً في إبراز علماء جيل أو مناظرة . فالرستميون كما تروى لنا المصادر كانوا كثيراً مايستعينون بعلماء الجبل لمناظرة خصومهم ، كما حدث عندما أرسل الأمير الرستمي الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن ابن رستم إلى علماء الجبل ، يطلب منهم مساعدتهم في مناظرة خصومة من المعتزلة الواصلية ، فكان أن ذهب الفقيه مهدى النفوسي ونفر آخر غيره فدخلوا في مجادلات علمية أفحمت أولئك الخصوم (٢) .

---

(١) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ١٥٤ - ١٦٣ .

(٢) سعد زغلول : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

الأثر العلمي للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة الإسماعيلية

أ - نبذة عن دخول المذهب الشيعي الإسماعيلي إفريقية وانتشاره وأهم معتقداته :

تكاد تتفق معظم المصادر والمراجع على أن أول تسرب للدعوة الشيعية في بلاد المغرب قد تم قبيل منتصف القرن الثاني الهجري بقليل عندما بعث الإمام جعفر الصادق بداعيتين له لبثّ الدعوة هناك . ويبدو أن جعفراً الصادق قد رأى أهمية الدعوة إلى آل البيت في أرض المغرب البعيدة عن الدولة العباسية ، هذا من جهة ، واستغلالاً لأوضاعها - أي بلاد المغرب - التي كانت تمزقها الاضطرابات والإنقسامات من جهة أخرى - فكان أن بعث في عام ١٤٥هـ بداعيته : أبي سفيان ، والحلواني إلى هناك (١) . وقد خاطبهما بقوله : (بالمغرب أرض بور فاذهبا واحرثا حتى يجيئ صاحب البذر) (٢) ، (كما أوصاهما بأن يبسطا ظاهر علم الأئمة « صلوات الله

---

(١) ابن الاثير : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٤٠- القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق فرحات الدشراوي ص ٢٦- ٢٧ - برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ، ص ١٤٤- محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، تاريخها ، نظمها ، عقائدها ، ص ٢٣ (وينفرد بالقول بأن الداعي الإسماعيلي اليمني ابن حوشب الذي بعث أبا عبدالله الشيعي - وهما قد عاشا في القرن الثالث الهجري - ، هو الذي بعث أبا حسان والحلواني ، مع أن أكثر المصادر السنية والشيعية، والمراجع الحديثة تجعل من رحلة أبي سفيان والحلواني قبيل منتصف القرن الثاني الهجري) - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب ، ص ٤٦ .

(٢) حسن ابراهيم حسن :المرجع أعلاه ، والصفحة .

عليهم » وينشروا فضلهم ، وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر ، ثم يفترقان ، فينزل كل واحد منهما ناحية) (١) .

وبالفعل فقد نزل أبو سفيان في منطقة تدعى مرماجنة في حين نزل الحلواني في منطقة تدعى : الأبس ، وكلتاهما في المغرب الأوسط ، وقد باشر الداعيتان الدعوة للمذهب الشيعي هناك وخاصة بين قبيلة كتامة ، وهي من كبرى القبائل البربرية حيث أفلحا كما تشير المصادر في تنفيذ ماكلفا به (٢) .

ويبدو من المؤكد أن الأحداث في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري ، سواءً تلك الأحداث السياسية التي كان المغرب وخاصة الأدنى يعيشها ، أو تلك التي كانت تمر بها الدعوة الشيعية الإسماعيلية في المشرق قد اقنعت القائمين بأمرها بأن الظروف قد سنحت لاستئناف بث الدعوة في بلاد المغرب التي توقفت لقرن ونصف تقريباً ، والعمل على إقامة الدولة الفاطمية الإسماعيلية هناك ولهذا فقد جنَّد القائمون بأمر تلك الدعوة داعية من أشهر دعاتهم ، وهو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكريا الكوفي - ويقال الصنعاني كذلك - المشهور بأبي عبد الله الشيعي للقيام بتلك المهمة بحكم أن الداعيتين السابقتين قد حرثا البلاد ووطأها ، فلم يبق إلاّ مجئ صاحب البذر الذي أشار به الإمام جعفر الصادق .

وفي الواقع ، فإننا لن نضيف جديداً إلى ماذكره مؤرخو السنة

---

(١) القاضي النعمان : نفس المصدر السابق ص ٢٦- ٢٧ .

(٢) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٧ - ٣٠ .

والشيعة القدامى أو المؤرخون المحدثون عن تفاصيل مهمّة أبي عبد الله الشيعي ، والخطوات التي مرت بها تلك المهمة ، حتي كللت بالنجاح ، فهي أشهر من أن تعرف . ولعل غاية مانستطيع قوله هو أن ابا عبد الله الشيعي توجه إلي بلاد المغرب الأوسط وبالتحديد منطقة زواوة حيث تعيش أغلبية قبيلة كتامة عام ٢٨٠هـ مستغلاً المناخ الطيب الذي حققته الدعاية الشيعية هناك . وتروي المصادر أن أبا عبد الله الشيعي قد استخدم الكثير من ضروب الدهاء والحنكة للوصول إلى مسعاه ، سواءً في قصة توصله إلى البربر الكتاميين ، أو في الإفصاح عن حقيقة مهمته ، والهدف الأساسي من وجوده بين ظهرا فيهم ، ثم الخطوات الدقيقة في نشر المذهب الإسماعيلي وتطبيق مبادئه بين البربر هناك (١) .

ولقد رأى أبو عبد الله الشيعي ، بعد أن اطمأن إلى النجاح الكبير الذي حقّقته الدعوة الإسماعيلية بين بربر كتامة وغيرهم أن ينتقل بالقضية من مرحلة الدعوة والإعداد إلى مرحلة المواجهة المسلحة مع القوى السياسية الكبرى في المغربين الأوسط والأدنى ، وخاصة الدولة الأغلبية التي تردّت أوضاعها السياسية والاقتصادية آنذاك في عهد آخر أمرائها زيادة الله الثالث ، وصولاً إلى تحقيق الهدف المنشود ، وهو إقامة الدولة الفاطمية

---

(١) عن تكليف أبي عبدالله الشيعي بمهمة بث الدعوة الإسماعيلية في المغرب والعمل على إقامة الدولة الإسماعيلية هنا والخطوات التي رافقت ذلك أنظر القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص ٣٠-٢٨٧ (تفاصيل واسعة جدا) - ابن عذارى : نفسه ، ج١ ، ص ص١٢٤ - ١٥٧- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٦ - ٥٥ (وقد تناول بالحديث تلك الأحداث مدعمة بأقوال عدد من المصادر السنية والشيعية ، ثم المراجع الحديثة الأجنبية والمصريّة) .

هناك (١) .

وفي تلك الأثناء نجح إمام العصر الشيعى في الرحيل الى المغرب بعد أن وردت الأخبار بنجاح أبي عبد الله الشيعي في تهيئة المناخ الصالح لمجيئة (٢) . وتروي المصادر الشيعية وخاصة سيرة جعفر الحاجب قصة مغادرته ودخوله بلاد المغرب وماجرى له في جو مهيب تغلفه الجلالة والكرامة (٣) .

وكيفما كان الأمر فقد استقر المطاف أخيراً بإمام العصر الإسماعيلي وهو عبيد الله الذي تلقَّب فيما بعد بالمهدي في سجلماسة عاصمة الدولة المدرارية ، إنتظاراً لما تسفر عنه الأحداث هناك . ولكنه مالبث أن قبض عليه وأودع السجن هو وولده (٤) .

---

(١) عن الظروف السيئة التي كانت تعيشها الدولة الأغلبية في آخريات حياتها ، أنظر ابن عذاري : نفسه ، ص ١١٨ - ١٣٦ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ١٢٨- ١٨٢ (بتوسع شديد) - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٢٤ - ٣٢٠ ، ٥١١ - ٥١٥ - محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ص ١٩١ - ٢٠٨ .

(٢) القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص ١٥٧ - وما بعدها محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٢٤- حسن ابراهيم حسن : الدولة الفاطمية ، ٥٠ - ٥٦ .

(٣) استتار الامام وسيرة جعفر الحاجب ،ص ١٠٧ - ١٣٣ مقال نشره المستشرق الروسي : ايفانوف، ترجمة محمد كامل حسين ، مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، المجلد الرابع ، ج٢.

(٤) القاضي النعمان : نفسه ، ص ١٦٣ - ١٦٥ ، ٢٧٦ - ٢٧٨ - ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ١٥٢- ١٥٦ ، حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ص ٥٢-٥٤- محمد كامل حسين ، نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٤ - ٢٥ (وقد انفرد هو دون غيره بأن الأغالبة هم الذين قبضوا عليه في سجلماسه ، بمعنى أنه كان يعد دولة بنى المدرار تابعة للدولة الأغلبية . ولاشك أن هذا خطأ تاريخي كما هو معروف) .

وعندما نجح أبو عبد الله الشيعي في القضاء على الدولة الأغلبية وإسقاطها في عام ٢٩٦هـ ، توجه للمغرب الأقصى لتخليص إمامه من سجن الدولة المدرارية . ولقد تهيّأ له ذلك بالفعل وبعد أن أطاح بالدولة المدرارية (١) . ومن مدينة سجلماسة أعلن إمام العصر الإسماعيلي عبيد الله قيام الدولة الفاطمية كأول دولة إسماعيلية ، ثم كرّس ذلك الإعلان رسمياً بمدينة رقادة بإفريقية عام ٢٩٦هـ ، كما أعلن الخلافة الفاطمية بتلقبه بالمهدي أمير المؤمنين (٢) . وعلى هذا النحو قامت الدولة الفاطمية بالمغرب والتي تعاقب على أمرها في هذا الدور المغربي من حياتها أربعة خلفاء ، هم عبيد الله المهدي ، ثم القائم بأمر الله ، والمنصور ثم المعز لدين الله الذي ارتحل إلى مصر عام ٣٦٢ هـ كما هو معروف (٣) .

ونحن بالطبع لايعنينا من مجمل الأوضاع السياسية المذهبية للدولة الفاطمية في المغرب منذ أن تسرّبت الدعوة إلى بلاد المغرب وحتى القضاء عليها نهائياً في عهد المعز بن باديس الصنهاجي إلاّ ماله مساس بالانعكاسات العلمية على الدراسات الشرعية .

وفي الواقع فإن المتتبِّع لتلك الأطوار التي مرت بها الدعوة للمذهب الشيعي في المغرب منذ أن استقر الأمر به للدولة الفاطمية سيلحظ حتماً

---

(١) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٧٨ - ٢٨١ - سيرة جعفر الحاجب ص ١١٣ - ١١٩ ، ١٢٢ ومابعدها - ابن عذارى : نفسه ،ص ١٥٣ - ١٥٧ ، حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٥٥ .

(٢) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٧ - ٢٩٩ - ابن عذارى : نفسه ،ص ١٥٥ - ١٥٨ - ١٥٩ ، ١٦٠ حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٥٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(٣) أنظر قبل ص ٧٥ ومابعدها .

ذلك الصراع العنيف الذي وقع بين غالبية السكان وهم مالكي المذهب ، وبين الشيعة الاسماعيلية وسيلحظ كذلك أن ذلك الصراع قد اكتسى أشكالاً شتّى من المواقف ، سواء كانت مواقف مقاومة سلبية أو إيجابية ، أو حتى مسلّحة، بالإضافة إلى الجدل العلمي الذي تمثّل في شيوع المناظرات العلمية وكثرة المؤلفات بين الفريقين .

وفي الحق ، فإن ذلك الصراع العنيف ، كان أمراً طبيعياً نظراً للاختلاف المذهبي : سياسياً وعقائدياً وفقهياً بين المذهبين : المالكي والإسماعيلي ، فغير خاف أن المذهب الإسماعيلي يقوم على أسس ومبادئ سياسية لاتوافقهم عليها المذاهب السنّية ومنها المذهب المالكي . ومن هنا ثار الصراع السياسي والمذهبي بين الفريقين ، عندما شرع الشيعة الإسماعيلية يطبقون عملياً تلك الأسس والمبادئ لمذهبهم .

ولعل من الضروري قبل التصدى للممارسات العملية للمذهب الإسماعيلي التي طبّقها الفاطميون في إفريقية ، ثم ردود الفعل من قبل المالكية ، رعيةً وفقهاءً ، أن نتحدث بإيجاز عن أهم تلك الأسس والمبادئ التى يقوم عليها المذهب الإسماعيلى .

فمن الناحية السياسية يرى الإسماعيلية ، بل ومعظم فرق الشيعة ، أن الإمامة تعد أصلاً من أصول الدين ، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام ، وهي واجبة بالتعيين والتنصيص وليس بالاختيار كما يذهب أهل السنة . ويرون جميعاً أن الإمامة وراثة إلى يوم القيامة في الوصى على بن أبي طالب وفي ذريته من السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ، وذلك بمقتضى

حديث غدير خم الذي ينسبه الشيعة إلى الرسول ﷺ (١) .

وعلى هذا ، فإن الأئمة هم علي وأبناؤه من فاطمة فالإمامة تنتقل من الأب إلى الابن الأكبر بالتعيين ، ولاتنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين : إبني علي بن أبي طالب (٢) . وهذا المبدأ هو أساس وجود المذهب الإسماعيلي أو الفرقة الإسماعيلية التي ظهرت نتيجة للتصرف الذي قام به جعفر الصادق من نقل الإمامة من ابنه الأكبر اسماعيل إلى ابنه الآخر موسى الكاظم ، ولذلك فلم يقر فريق كبير من الشيعة الإمامية ذلك فانقسموا تبعاً لذلك إلى فرقتين : الإثنى عشرية والإسماعيلية كما هو معروف (٣) .

ولقد رافق هذا المبدأ الخاص بالإمامة أربع مسائل نشأت نتيجة له وتلازمت معه ، وهي العصمة أي عصمة الأئمة ، والمهدية والرجعة ، وهي

---

(١) عن مسألة الإمامة عند فرق الشيعة ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٦٦ – ٢٧٤ ضحى الإسلام ، ج٣ ، ص٢٠٨–٢٢٠ ظهر الإسلام ، ج٤ ، ص١٠٩–١١٤ (وقد تتبع معظم أقوال المؤرخين السنة والشيعة حول هذا المبدأ أو المسألة) – برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ص٨٣–٩٦ ، (في تقص دقيق لهذا المبدأ وتطور مفهومة عند الشيعة من المصادر السنية والشيعية ومن مؤلفات المستشرقين الأوربيين) حسن ابراهيم حسن :نفسه ، ص١–٣٣ ص ٦٥١ عن معظم المصادر والمراجع العربية والأجنبية والمصادر الإسماعيلية المنشورة حديثا) – محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ص ٣–٩ .

(٢) برنارد لويس : المرجع السابق ،ص ١١٢ – محمد كامل حسين : المرجع السابق ، ص١٢ .

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٧٢– ٢٧٣ – ضحى الإسلام – ج٢ ، ص٢١٢– ٢١٣– ظهر الإسلام ، ج٤، ص ١١١، ١٢٧، برنارد لويس : نفس المرجع السابق ،ص ٩٤– ١١٦ ، محمد كامل حسين : نفس المرجع السابق ، ص ٥ – ٢٢ وغير ذلك .

متعلقة بالمهدية ، ثم التقية (١) ، وهي ذات شأن عظيم عند الشيعة الإسماعيلية بالذات (٢) . ولقد دفع هذا الإعتقاد في مسألة الإمامة فرقة الشيعة – ماعدا الفرقة الزيدية (٣) إلى الطعن في خلافة الخلفاء الراشدين : أبي بكر وعمر وعثمان ، فضلاً عن طعنهم في خلافة الأمويين والعباسيين كما أنهم قد جرّموا أكثر ية الصحابة وأزواج الرسول ﷺ ، نتيجة لمواقفهم من علي بن أبي طالب كما يرون هم ، ولم يستثنوا سوى نفر يسير من الصحابة (٤) .

وممّا يلحق بمسألة الإمامة ، الولاية ، وهي إحدى دعائم الإسلام السبعة عند الإسماعيلية ، وقد كان لها دور خطير في المعتقد الشيعي . فلقد

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٣ ، ص ٢٢٦– ٢٤٩ (وقد تناول هذه القضايا في تقص دقيق وتحليل منطقي تاريخي وناقشها مناقشة موضوعية) .

(٢) أنظر محمد أبو زهرة : المرجع السابق ، ص ٦١ – حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٣٧ .

(٣) مع اعتراف الشيعة الزيدية بأفضلية علي بن أبي طالب وبأحقيته في الخلافة على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، إلاّ أنهم لم ينكروا خلافتيهما . فزيد بن علي زين العابدين بن الحسين ابن علي بن أبي طالب الذي تنسب إليه الفرقة الزيدية يجوّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل – كما أن نظرتهم إلى مسألة التفضيل التي رفعتها فرق الشيعة كلها ، كانت معتدلة ، فهم يقولون إن النبي ﷺ قد عين علياً بن أبي طالب بالوصف لا بالشخص ، أنظر أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص ٢٧٢ ، ضحى الإسلام : ج٣ ، ٢١٢ .

(٤) الحق أن المصادر السنية هي التي أشارت إلى ذلك ، وقد ذكرت أن الشيعة قد تناولوا بالتجريح كل الصحابة وزوجات الرسول ﷺ ، ماعدا – كما تقول تلك المصادر – ، علي بن أبي طالب ، والمقداد بن الأسود ، عمار بن ياسر – وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الغفاري . عن هذا أنظر مثلا ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ١٥٩ .

رأوا أنها أفضل دعائم الإسلام وأقواها ولايستقيم الدين إلاّ بِها . ويقضي مبدأ الولاية بوجوب إتباع الإئمة وأوامرهم والخضوع التام لهم ، وليس مجرد حبهم فحسب (١) .

ولقد قام على مبدأ الولاية هذا الذي يعتنقه الشيعة الإمامية بفرعيهم : الاثنى عشرية والإسماعيلية ثلاثة أسس هي :

١- الفيض الإلهي : وهي الفضل الذي أفاء الله به على الائمة من المعرفة والعلم ، وهو الفيض الذي اختص به الأئمة وراثة عن النبي ﷺ. وعلى ذلك فهم فوق الناس علماً وفوق الناس قدراً (٢) .

٢- مبدأ الاستتار : فالإمام يمكن أن يكون غير ظاهر ومع ذلك تجب طاعته ، وأنه لايخلو عصر من إمام للناس وهو المهدي المنتظر الذي لابد أن يظهر فيملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت جوراً . وهذا المبدأ هو مايعني نظرية المهدوية التي رفعها الإسماعيلية في المغرب وتلقب بلقبها أول خلفائهم وهو عبيد الله المهدي (٣) .

---

(١) عن مسألة الولاية وكونها أفضل دعائم الإسلام عند الإسماعيلية أنظر القاضي النعمان : كتاب دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والاحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي ، الجزء الأول وقد بدأه بالحديث عن أهمية الولاية أو الإيمان كدعامة أولى للإسلام ، وأنظر كذلك مقدمة المحقق ، ص ٩ -١٢ فهي تلقى الضوء على هذا الموضوع - محمد كامل حسين : نفس المرجع السابق : ص ١٥٥ .

(٢) محمد أبو زهرة : المرجع السابق ص ٦١- ٦٢ .

(٣) محمد أبو زهرة : نفسه ، ص ٦٢ ، ولزيادة التفاصيل عن مسألة المهدوية ، أنظر البحث الواسع الذي كتبه كل من : برنارد لويس : المرجع السابق ، ص ٨٥- ١٤٣ - أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٣ ، ص ٢٣٥- ٢٤٦ .

٣- عصمة الأئمة ، فالإمام ليس مسؤولاً أمام أياً كان من الناس ، ولاحق لأحدٍ أن يخطئه مهما يأتي من أفعال وتصرفات وأن يفعله من أفعال تبدو غير سليمه ، له فيها مايسوغها (١) .

وسنرى أن هذا المبدأ قد أثار عليهم حفيظة المغاربة بالدرجة الأولى الذين لم يستطيعوا استيعاب تعدي الخلفاء الفاطميين حدودهم البشرية إلى أبعد من ذلك .

ومهما يكن من أمر ، فإن بعضاً من الباحثين يرى أن السبب في ذلك، هو تأثر الشيعة الإسماعيلية بالأفكار الفارسية القديمة والهندية ، والفلسفة الإغريقية المبنية على الرجعة والتناسخ والحلول .. الخ (٢) .

ومن مبادئ الإسماعيلية الرئيسية : عقيدتهم في تأويل علم الباطن . فالعلم في نظرهم علمان : علم الظاهر وعلم الباطن ، وقد علَّم الرسول ﷺ، العلمين معاً لعلي بن أبي طالب الذي ورثهما بدوره إلى الأئمة من أبنائه . وفي نظرهم أن الناس يعلمون علم الظاهر وعند الإمام علم الباطن ، بل أن

---

(١) محمد أبو زهرة : نفسه ،ص ٦٢ - ٦٣ ، وأنظر البحث الممتع الذي كتبه حول هذه النقطة أحمد أمين ضحى الإسلام : ج٣، ص ٢٢٢- ٢٢٥، ٢٢٦ - ٢٣٥ .

(٢) أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ،ص ٢٧٠ -٢٧٤ - ٢٧٦- ٢٧٧ - برناردو لويس : مقدمة المرجع السابق التي كتبها عبدالعزيز الدوري ، ص ٢٢ ، ثم ماجاء في الكتاب نفسه بقلم برنارد لويس ، ص ٤٨- ٥٠، ١٨٧ - ١٩٣ - حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٧١- ٣٧٢- محمد كامل حسين : المرجع السابق ،ص ١٦٤ - ١٢١ - ١٧٣ (وأن كان محمد كامل حسين : لايرى أن الاسماعيلية قد دانوا بفكرتي التناسخ والحلول . بناء على ما جاء في كتبهم المنشورة حديثاً بالمعنى الذي فهمه أهل السنة ، وقد إختفت فكرة الحلول بالذات من الدور الفاطمي كله) .

عنده علم باطن الباطن (١) . ولقد ترتب على ذلك أن أوَّلوا ألفاظ القرآن تأويلات مجازية توافق نظرتهم تلك . وبعض تلك التأويلات تحمل آراء جد خطيرة خارجة عن الإسلام (٢) . ويرى أحمد أمين (٣) أن الإسماعيلية قد أخذوا في مذهبهم بمذهب الإفلاطونية الحديثة وطبقوها على مذهبهم الشيعي تطبيقاً غريباً ، وهذا المبدأ كان أحد الأسباب لتسميتهم بالباطنية أو الباطنيين (٤) وفي هذا الصدد يرى محمد أبو زهرة (٥) . أن بعضاً من اعتقاداتهم في التأويل كانت من الخطورة إلى الحد الذي كانوا يسترون كثيراً منها ولايعلنون إلاّ عن قدر تسمح الظروف بإعلانه .

ومن مبادئهم العقائدية التي أخذت بالأفلاطونية الحديثة ، ذلك الجانب الذي يتعلق بالأسماء والصفات التي وردت في القرآن الكريم . فقد جعلوها

---

(١) محمد أبو زهرة : نفسه ، ص ٦١. وللاستزادة عن مسألة تأويل الباطن ، أنظر أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص٢٧١- ٢٧٣ ، ضحى الإسلام ، ظهر الإسلام ، ج٤- محمد كامل حسين ، نفسه ، ص ١٦١ - ١٧٠ - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٤ ومابعدها

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ،ص ٢٧٣ - محمد أبو زهرة - نفسه ، ص ٦٠ .

(٣) فجر الإسلام ، ص ٢٧٣ - أنظر محمد كامل حسين ، نفسه ، ص ١٧٦ .

(٤) أحمد أمين : نفس المرجع أعلاه ،ص ٧٣ - برنارد لويس : نفس المرجع السابق ،ص ٤٨ ، ٦٥- ٦٦ ، ٧٣ - ٧٥ - ١٠٣ محمد كامل علي حسين : نفسه ، ص ١٤٧ - ١٤٨ - محمد أبو زهرة نفسه ،ص ٦١- ٦٢ (ويقول أبو زهرة إن ثمة سببين آخرين لتسميتهم بالباطنية كذلك : السبب الأول : أنهم سموا بالباطنيه لاستخفائهم عن الناس الذي كان نتيجة للاضطهاد الذي لقوه أولاً، ثم صار عندهم حالة نفسية دائمة . والسبب الثاني ، أنهم قالوا في كثير من الأحيان : بأن الامام مستور . واستمر ذلك حتى قامت دولتهم في المغرب ، هذا بالإضافة إلى قولهم بعلم الظاهر والباطن

(٥) نفسه ، ج١ ، ص ٦٢ .

للعقل الكلي الذي أشار إليه الفلاسفة الذي هو المبدع الأول ، الذي أبدع النفس الكلية ، أو المبدع الثاني ... الخ نظريتهم (١) تلك . وهذا الجانب أثار كذلك حفيظة المغاربة الذين رأوا في ذلك كفراً بواحاً .

أما أهم المبادئ الفقهية التي تميز بها المذهب الشيعي والذي أثارت تطبيقاتها العملية ثائرة المغاربة ، فقد كانت كثيرة وخاصة تلك التي تتعلق بجانب العبادات . فمن بين تلك القضايا : إبطال صلاة التراويح واسقاط عبارة : الصلاة خير من النوم في صلاة الفجر ، وزيادة عبارة : حي على خير العمل في الأذان . والجهر بالبسملة في الصلاة ، وزيادة القنوت في صلاة الجمعة في الركعة الثانية ، وابطال صلاة الضحى ، وزيادة تكبيرة خامسة في صلاة الجنازة .. الخ وتأخير الصلوات عن أوقاتها .. الخ (٢) . وفيما يختص بالصوم من حيث تحديد بداية الشهر ونهايته ، فقد نحوا في ذلك منحى يعتمد على الفلك والحساب ، وكانت لهم آراء اجتهادية في ذلك

---

(١) أنظر محمد كامل حسين : نفسه ، ص ١٥٧ -١٥٩ ، حيث ناقش تجريدهم الله ، عز شأنه من كل صفه وكان مبررهم في ذلك هو التنزيه المطلق لله وهذا لايتأتى إلا بتوحيد الله الذي يعنى بأن ينفي عنه سبحانه جميع مايليق بمبدعاته التي هي الأعيان الروحانيه ، ومخلوقاته التي هي الصور الجسمانيه من الأسماء والصفات .. الخ معتقدهم ذلك .

(٢) أبو العرب التميمي : كتاب المحن ط١ ، ص٢٩٤ - ٢٩٥ - المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٤١-٤٣، ٥٥ وغير ذلك - عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٣٨ - ٥١٤ - ٥١٧ الدباغ : نفسه ، ج١ ، ص ٢٤ - ٢٧ - ج ٣ ، ص ٥، ٤٧ ، أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ص ٧٤ - ٧٥ عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ص ١٧٥ - ١٨٠ - السيد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٦ - ٢٩٨ . وكل هؤلاء المحدثون إعتمدوا على نقولات مؤرخي التاريخ والطبقات ومؤرخي الفرق .

لاتعنينا هنا وقد تأولوا حديث رؤية الهلال ، بأنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار (١) .

وفيما يتعلق بجانب المعاملات الفقهي ، فقد أسقطوا الحنث عمن طلّق البتة ، وأحاطوا البنات بالميراث في وجود ابن الابن ، وإباحة نكاح المتعة... الخ (٢) . وسنرى أن إثارة هذه المعتقدات وغيرها ، بل تطبيقها على أرض الواقع ، كانت من الأسباب الإضافية للصراع المذهبي العنيف بين المالكية والإسماعيلية .

أما وقد أتينا على ذكر كيفية دخول المذهب الشيعي الإسماعيلي وانتشاره في بلاد المغرب وأهم الأسس والمبادئ التي يقوم عليها هذا المذهب، فإن من الضروري أن نستعرض بايجاز كيفية تطبيق الفاطميين لمبادئ مذهبهم عملياً ، توطئة لرصد ردود فعل المغاربة على تلك المبادئ والممارسات .

ففي المبدء ، جاء أول تطبيق عملي لمبادئ الإسماعيلية في رفع عبارة : حي على خير العمل ، وذلك عندما دخل أبو عبد الله الشيعي القيروان إثر سقوط الدولة الأغلبية في رجب سنة ٢٩٦ هـ (٣) . كما أن الداعي أمر في

---

(١) أنظر السيد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٧ مع الحواشي (نقلا عن المؤيد في الدين في كتابه السيرة المؤيدية .

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ١٥٩ - ١٦٠ - عبدالعزيز المجنوب : نفسه ، ١٧٨ - ١٧٩ ، (نقلا عن عدد من المصادر المختلفة) - السيد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٧ (عن عدد من المصادر المختلفة) .

(٣) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٥٠ .

أول خطبة خطبت بالقيروان بأن يتضمن الدعاء في الخطبة : الصلاة على محمد وعلى آله وعلى أمير المؤمنين علي ، وعلى الحسن والحسين ، وعلى فاطمة الزهراء (صلوات الله عليهم أجمعين) (١) .

وفي الكتاب الذي كتبه أو عبد الله الشيعي إلى البلدان بالأمان ذكر بأن السبب في خروجه ، هو طلب ثأر أولياء الله : آل رسول الله ﷺ من المغتصبين ، لاسيما وأنه عمل جهده في إنابتهم (٢) . ورجوعهم إلى الحق – في نظره – ، وعندما عزم على الخروج إلى سجلماسة لإطلاق سراح إمامه ، حرر كتاباً جعله نسخاً . وبعث بكل نسخة منه إلى معظم المدن بإفريقيَّة لقرآته . هذا الكتاب يشرح وجهة نظر أبي عبد الله فيما فعله وماسيفعله ومن جملة ماأشار إليه في كتابه رواية الشيعة ، لحديث الثقلين الذي يقول فيه الرسول ﷺ : « إني تارك فيكم الثقلين بعدي ما أن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله وعترتي أهل بيتي .. الخ » (٣) .

وعندما قامت الدولة الفاطمية فعلياً تولى عبيد الله الإمامة والخلافة ، وتلقب بالمهدي في مديني رقادة والقيروان أثر دخوله إليهما في ربيع الاخر عام ٢٩٦ هـ ، شرح يطبق مبادئ مذهبه عملياً بالقوة والشدة كما تشير إلى ذلك كثير من مصادر السنة المختلفة . فغداة تلقيه البيعة أمر بأن يدعى على المنابر في رقادة والقيروان بالدعاء (بالصلاة على محمد ﷺ وعلى علي

---

(١) القاضي النعمان : نفسه ، ٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٢) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٥٣ – ٢٥٤ .

(٣) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٧٠ – ٢٧٢ – ٢٧٣ مع الحاشية ، رقم (١) ص ٢٧٢ .

(عليه السلام) وفاطمة والحسن والحسين . وعلى الأئمة من ولده) (١) .
وقد أورد القاضي النعمان في كتابه افتتاح (٢) الدعوة نص ذلك الدعاء كما أمر به المهدي . وقد أمر المهدي أيضاً بكتابة خطاب أو منشور بمعنى أدق قرئ على منبر القيروان ونسخت منه نسخ إلى بقية المدن ، وهو كتاب طويل ، أورد فيه المهدي الكثير عن الأوضاع التي مرت بها الدعوة الشيعية الإسماعيلية ، حتى تحقَّق لها إعلان الخلافة وأشار في جملة ما أشار إلى أحقية آل البيت بإرث النبوة ومقاليد الإمامة بأخذه ميراث جده النبي وأبيه الوصي (صلوات الله عليهما) (٣) .

وفي حين لم يذكر القاضي النعمان في كتابه السابق شيئاً عن سب الصحابة ، عندما دخل عبيد الله المهدي رقادة والقيروان ، وهذا بالطبع شئ متوقع ، ذكرت المصادر السنية أن عبيد الله المهدي أظهر التشيع القبيح ، وسب أصحاب الرسول ﷺ وأزواجه حاشا من ذكرنا منهم قبل قليل ، إذ استثنوا من ذلك التجريح ويقول المؤرخون إن عبيد الله زعم أن الصحابة عدا أولئك النفر ارتدوا بعد الرسول ﷺ .

ويذكر ابن عذارى (٤) ومن أخذ عنه أن الشعراء مدحوا عبيد الله (بالكفر) ومنهم الشاعر محمد البديل ، الذي قال فيه مادحاً :

---

(١) القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٩٣ .
(٢) ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .
(٣) القاضي النعمان : المصدر السابق ،ص ٢٩٤ - ٩٥ م .
(٤) البيان المغرب ، ج١ ، ص ١٦٠ .

حــل برقــادة المسيـــــــح حــل بهــا آدم ونـــــــوح

حل بها أحمد المصطـــــــفى حل بها الكبش والذبيـــــح

حل بها الله ذو المعـــــــالي وكل شئ ســواه ريـــــح

أما القاضي النعمان (١) فلم يشر إلى أبيات الشاعر محمد ابن البديل تلك ، ولكنه أورد بعضاً من مديح الشاعر سعدون الورجيني في الخليفة المهدي ، وفي داعيته أبي عبد الله وذلك إثر دخول المهدي القيروان ، ومن جملة ماأنشده :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت لقدومه أركان كل أمـــــير

هذا الإمام الفاطمي ومن بـه أمنت مغاربها من المحذــــور

والشرق ليس لشامه وعراقـه من مهرب من جيشه المنصور

حتى يفوز من الخلافة بالمنى ويفاز منه بعدلـه المنشــــور

ولعل البيت الذي يعكس ماذكره المؤرخون عن رضاء الخليفة المهدي بما يقال عن تأليهه ، هو ذلك الذي خاطب فيه سعدون الورجيني الخليفة المهدي مادحاً داعيه أبي عبد الله قائلاً :

أشبهت موسى وهو حيتّك التي تُلقى فتلقف كل إفك مسحور(٢)

ويروي ابن عذارى (٣) ومن نقل عنه أن صيغة القسم الذي كان يُحلف

---

(١) نفسه ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٢) افتتاح الدعوة ، ص ٣٠١ .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ١٦٠ .

به أيام عبيد الله المهدي ، وخاصة من قبل قبيلة كتامة : (وحق عالم الغيب والشهادة مولانا المهدي الذي برقادة) .

وفيما يتعلق بالتطبيق العلمي لفقه العبادات الإسماعيلي ، واصل الفاطميون في عهد المهدي ما أمر به الداعي أبو عبد الله الشيعي من المناداة : بحي على خير العمل ، وبالجهر بالبسملة (١) .

ويروى عدد من مؤرخي التراجم الإفريقية أن المهدي ودعاته طالبوا الفقهاء والعلماء المالكية في نفس عام ٢٩٧ هـ بضرورة الاعتراف بتفضيل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – على كل الصحابة (٢) ، كما يروى أولئك المؤرخون أن دعاة الشيعة كانوا يطلبون من العلماء بأن يشهدوا أن عبيد الله : رسول الله (٣) وفي هذا الصدد يذكر حسن ابراهيم حسن (٤) فيما يرويه عن مصادر عدة اعتمد عليها أن دعاة عبيد الله المهدي أسرفوا في الصاق صفات التقديس بالخليفة بأمر منه مثل قولهم : هو المهدي ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه ، وأن بعض الدعاة كانوا كثيراً مايقولون لبعضهم البعض هو رسول الله . ويقول بعض لبعض آخر : (هو الله الخالق الرازق) .

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ص ٥٥–٥٦ – عياض : نفسه ج٢ ، ص ٢٥٣ – الدباغ : ٢٧٨ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ – ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٧٨ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٤٩ – الدباغ : نفسه ،ج٢ ، ص ٢٦٣ – ٢٦٤ .

(٤) نفسه ، ص ٣٢٧ – ٣٢٨ (نقلا عن أبي شامة في كتابه : الروضتين فيما يتصل بالقول : هو الله الخالق الرازق) .

ويذكــر عبــده بدوي – دون أن يذكــر سنده – أنه قد قيل عن المهدي (كلام كثير منه أنه أدعى النبوه ، وأنه كان يسمع في مجلسه بالقول بأن محمداً (ﷺ) ليس بخاتم المرسلين) (١) .

ويجاري عبد العزيز المجذوب (٢) حسن ابراهيم فيما أشار إليه بل ينقل عنه حرفياً . وقد زاد فقال بأن المقولة الخطيرة السابقة وهي أن المهدي – معاذ الله – ، هو الله الخالق الرازق ، قد أشار اليها ابن عذارى ، في حين أننا لم نر في كتاب بن عذارى مايشير لذلك . ويشير المجذوب (٣) أن المهدي بدعائه بالصلاة على شخصه ، قد أدعى النبوة ، كما أنه يذكر بأن المهدي رضى من دعاته أن يؤلِّهوه ولم ينكر عليهم ذلك .

ونحن بالطبع ليس من مهمتنا التعليق على ماورد من آراء خطيرة للكشف عن مدى وقوعها أو لا ، بقدر مايعنينا اظهار ماتردَّد – إن صحت الروايات تلك – من آراء خطيرة أدت إلى ردود فعل غاضبة من المغاربة .

على أن الشئ الواضح للمتتبِّع لأحداث تلك الفترة وخاصة تلك الممتدة بين عامي ٢٩٧ – ٣١٠ هـ سيلحظ أنها كانت فترة صعبة الوطأة على أهل السنة ، فقد أخذ الفاطميون يطبقون بكل شدة تعاليم مذهبهم السياسية والعقائدية والفقهية ، وعاملوا بكل قسوة كل من خالف ذلك حسبما سنعرف بعد ، سواءً فيما يتعلق بالمناداة بحي على خير العمل ، أو مايتصل بمسألة

---

(١) مع حركة الإسلام في إفريقية ،ص ٤٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

التـفـضـيل أي تفـضـيل علي بن أبي طالب على غـيـره من الصـحـابة ، أو مـوضـوع عـدم الإفـتـاء بمذهـب غير مـذهب الدولة الفـاطمـية (١) أو مـا رآه المؤرخون من غلو شديد في مدح المهدي وخاصة بعد بنائه المهدية (٢) ذلك الغلو الذي أشـار إليه ابن عذارى (٣) عندمـا أورد الشـعر بقوله : « فقالت شعراء إفريقية في انتقاله واستيطانه من الشعر ماذكرنا أبياتاً منها ليستدل بما فيها على ما كان يستحله ويجوز عنده من الأشعار » .

وقـبل أن نتـرك الحـديث عمّا جـرى في عـهـد عـبـيـد الله المهـدي من ممارسات وتطبيقات لابد أن نشير إلى بعض تصرفات وصفها بحق السيد أبو العزم داود (٤) بالحماقات الغريبة . سواء التي أمر بها هو نفسه ، أو تلك التي ارتكبها رجاله ودعاته . فمن بين تلك التصرفات والحماقات الغريبة ما أمر به الخليفة - إن صحت الرواية - بتعليق رؤوس حيوانات على دكاكين القيروان وكتب تحت كل رأس اسم صحابي من الصحابة . ومنها - وهي ذات دلالات خطيرة - أنه نصب شخصاً سباباً يسب بأسجاع محفوظة فهم

---

(١) ابن عذاري نفسه ، الجزء ، ص ١٥٩ .

(٢) كهذه الأبيات : ليهنك أيهـا الملك الهمـام ... قدوم فيه للدهر ابتسـام

حططت الرحل في بلد كـريم ... رعته لك الملائكة الكـرام

ومنها : هي المهدية الحـرم المـوقي ... كما بتهامة البلد الحـرام

كأن مقـام ابراهيـم فيـه ... ثري قدميك أن عدم المقـام

وان لثم الحجيج الركن أضحي ... لنا بعراص قصركم إلتثام

أنظر ابن عذارى : نفسه - الجزء ، ص ١٨٤ .

(٣) نفسه ، ج١ ،ص ١٨٤ .

(٤)-نفسه ، ص ٣٠٤ ، وأنظر تلك التصرفات : عياض ، نفسه . ج٢ ، ص ٣١٨ .

منها سب النبي ﷺ كقوله - العياذ بالله - ألعنوا الغار وماوعى ، والكساء وماحوى) ، ونحن نستبعد مع السيد أبي العزم (١) أن يكون هذا بتدبير من المهدي ، فلا يعقل كما يبدو لنا أن يأمر المهدي بسب النبي ﷺ ، والعياذ بالله ، وهو الذي يعتبر نفسه إبناً له يستمد نفوذه من اسمه عليه الصلاة والسلام .

وفي عهدي القائم بأمر الله والمنصور ابنه لم ترو لنا المصادر شيئاً عن الممارسات العملية التطبيقية للمذهب الإسماعيلي سوى بعض الإشارات . ولعلنا لسنا في حاجة إلى كبير ذكاء لنستنتج بأن السبب يعود في ذلك لإنشغال الخليفتين الفاطميين بالثورة الكبرى التي شنها عليهما الثأر الخارجي أبو يزيد مخلد بن كيداد . ولذلك فقد حاولا كما يظهر ، التخفيف من غلواء تطرف مذهبهما بعدم استثارة حفائظ أهل السنة . غير أن الرقع اتسع على الخارق فيما يبدو ، فقد وقف أهل السنة مع أبي يزيد ضد الدولة الفاطمية كما هو معروف .

ومع ذلك فقد أورد لنا ابن عذارى (٢) أن القائم بأمر الله واصل ماقيل عن والده المهدي من سب الصحابة . كما أنه عامل بشدة فقهاء المالكية ومن تحدثه نفسه بالتأليف إلاّ بما يوافق طروحات الشيعة - إن جاز هذا التعبير - .

---

(١) نفسه ، ص ٣٠٥ .

(٢) نفسه ، ج١ ، ص ١٨٥ .

أما في عصر المنصور وهو الذي تصدى للقضاء على ثورة أبي يزيد حتى أفلح أخيراً ، فيبدو أن تطبيقات الشيعة لأسس مذهبهم لم تنقطع - وإن لم تشر المصادر صراحة إلى انقطاعها أو استمرارها - ، وماقد يتبادر للأذهان من أن تحالف أهل السنة مع أبي يزيد وخروجهم على الدولة الفاطمية قد تم في عهد المنصور لايصح أن يعد دليلاً ، فلقد كان خروجهم في عهده نتيجة لتراكمات السنين منذ عهد المهدي . وقد استغلوا ثورة أبي يزيد للوقوف في وجه الشيعة . والأثر الذي أشار إليه مؤرخو التراجم والطبقات كدليل على مواصلة الخليفة المنصور لتطبيق مبادئ مذهبه ، هو تشدّده في مسألة تحديد بداية شهر الصوم ونهايته ومعاقبة كل من يخالف ذلك (١) كما سنعرف بعد قليل .

أما في عهد المعز ، فقد نحا في تطبيق مبادئ المذهب الإسماعيلي ورفع شعاراته منحى خطيراً . ولقد حمل كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين على المعز لدين الله ، وقد رأوه يرضى بصفات وألقاب يوسم بها لاتليق بالبشر . ففيما يتصل بالدعاء لشخصه ، فقد استمر اطلاق لفظ (ﷺ) ولفظ (عليه السلام) على الخليفة من رجاله ودعاته (٢) .

---

(١) مثلما جرى لقاضي برقة أبو عبدالله محمد بن إسحاق الجبلي في سنة ٣٤١هـ ، أنظر الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ٤٧ .

(٢) أنظر القاضي النعمان : نفسه ، ص ٣٣٢- ٣٣٩ - سيرة جعفر ، ص ١١٩ ، ١٢١ حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف :نفسه (وقد تردد لفظ ﷺ ولفظ عليه السلام في كل صفحه ورد فيها ذكر المعز عند مؤرخي الشيعة وخاصة القاضي النعمان في كتابه المجالس و المسايرات الذي اعتمد عليها المؤلفان في كل صفحات الكتاب تقريباً) وكتاب =

ويشير ابن عذارى بأن معداً ، وهو اسم المعز لدين الله (إدعى النبوه، وجعل من ينادي فوق صومعة القيروان : أشهد أن معداً رسول الله ، فارتج البلد لذلك ، وداخل أهله الرعب) (١) . ولقد عاد ابن عذارى (٢) . فأكد بعد ثلاث صفحات من كلامه السابق على ادعاء الخليفة المعز للنبوة من على صومعة القيروان ، غير أنه ذكر بأن الرعب قد داخله هو ، أي داخل المعز عندما لمس الضجة الكبرى التي أثارها إعاؤه ذلك .

أما عبد العزيز المجذوب (٣) فيقول بأن المعز لم يكتف بادعاء النبوة ، بل قد تألّه فعلاً وادعى الربوبية علنا . وفيما يتصل بالتطبيق العملي لفقه العبادات الإسماعيلي . فقد واصل المعز تطبيق مبادئ مذهبه الفقهية فيما يتعلق بالدعوة بحى على خير العمل وبالجهر بالبسملة والتكبير على الجنائز خمساً .. الخ (٤) .

بيد أن النقمة الكبرى التي تعرض لها المعز سواءً من أهل السنة ، أو من المؤرخين القدامى ومن بعض الباحثين المحدثين ، كانت بسبب سكوته ،

= المجالس والمسايرات يعد سيرة ذاتيه للمعز تابعها القاضي النعمان متابعة معاصر يوماً بيوم وحدثاً بحدث كما صرح بذلك في الكتاب ، وكما صرح في اختتامه لكتاب افتتاح الدعوة ص ٣٣٨ - ٣٣٩- عن عزمه عن تأليف ذلك الكتاب الذي هو المجالس والمسايرات وبالطبع فقد كانت تلك الكتب والسير معروفة لدى أهل السنة بالمغرب الأدنى آنذاك .

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٢٨٢ .

(٢) نفسه ، ج١ ، ص ٢٨٥ .

(٣) نفسه ، ص ١٧٠ .

(٤) ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٢٤ (وذلك في منشور أصدره إلى أئمة المساجد في كافة انحاء البلاد عام ٣٤٩هـ) .

بل قبوله ورضاه عن قصائد المدح التي قيلت فيه من شاعرة الأشهر ابن هانئ الأندلسي . فقد رأى فيها هؤلاء كفراً بواحاً ، وهي قصائد عديدة سنعرض لها بعد إن شاء الله .

غير أن اشهر ماأثار النقمة علي المعز – وهي نقمة صادقة في موضعها – ، بضعة أبيات أغرق ابن هانئ فيها في إضفاء صفات التقديس على المعز لدرجة رفعته فوق منزلته البشرية . ومن بين تلك الأبيات الأشد خطورة وإغراقاً :

فكأنما أنت النبي محمــد ... وكأنما أنصارك الأنصــار

ماشئت لاماشاءت الأقــدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار (١)

وكذلك :

أقسمت لولا أن دعيت خليفــة ... لدعيت من بعد المسيح مسيحا

شهدت بمفخرك السموات العلا ... وتنزل القرآن من فيك مديحــا

ومن قصيدة أخرى : (٢)

وعلمت من مكنون سر الله مـــا ... لم يؤت في الملكوت ميكائيــلا

لو كان أتى الخلـق ما أوتيتــه ... لم يخلق التشبيــه والتأويــلا

---

(١) الرائية : أنظر ابن هانئ الأندلسي : ديوان ابن هانئ الاندلسي ، تحقيق اكرم البستاني ص ١٤٦ -١٥٣.

(٢) من القصيدة الحائية ، أنظر ابن هانئ الأندلسي ، نفس الديوان السابق ، ص ٧٥ – وما بعدها .

ومن هذه القصيدة :

لولاك لم يكن التفكر واعظـــــاً والعقل علماً والقياس دليــــلا

لو لم تعرفنا بذات نفوسنــــــا كانت لدينا عالماً مجهــــــولا

وفي الحق فإن تلك القصائد وماجاء فيها ، كانت دليلاً على آراء الشيعة في الأئمة حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل وأوضحنا مقدار نظرتهم المقدسة للإمام ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فبعضها دليل كذلك عن الجانب العقائدي من مذهبهم الذي يتعلق بأسماء الله وصفاته التي جلعوها للعقل الكلي الذي يعني المبدع الأول .. الخ تلك الآراء البدعية .

وإذا ماذهبنا نتقصى التطبيقات العملية للمذهب الشيعي الإسماعيلي في عهد الزيريين أو الصنهاجيين منذ رحيل المعز إلى مصر عام ٣٦٢هـ وحتى عام ٤٤٠هـ ، وهو العام الذي قطع فيه المعز بن باديس الخطبة للفاطميين في إفريقية وخطب للعباسيين ، فإن مايمكن ملاحظته هو أن الزيريين كانوا مدفوعين - حتى ولو على غير اقتناع - بالدعوة على المنابر للخلفاء الفاطميين في مصر بنفس النمط الذي سارت عليه الخلافة الفاطمية إبّان مكوثها في المغرب . وفي عهد بلقين أوبلكين بن زيري الذي تولى حكم إفريقية بعد رحيل المعز مباشرة حرص على أن يستمر في الدعوة للمذهب الشيعي ، كما تشدّد في قضايا النزاع مع فقهاء المالكية كقضية التفضيل وغيرها (١) . والحرص على تهيئة المناخ الصالح لنشر المذهب الشيعي استمر كذلك في عهود خلفائه وإن كان على درجات متفاوته .

---

(١) أنظر حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٣٢- ٣٣٣ .

بيد أن الشيئ المؤكد ، هو أن عهد الزيريين تميز بالفتور في الولاء للمذهب الشيعي . فعدا ماذكرنا بعاليه ، لم نر منهم حرصاً على تطبيق مبادئ الشيعة الأخرى ، وخاصة في جانب العبادات . (١) ولاريب في أن لذلك العديد من العوامل التي لاحظها بكل دقة المؤرخون المحدثون والتي سنشير إلى بعضها عند التعرض لردود فعل المغاربة تجاه الصراع العنيف مع الشيعة .

---

(١) أنظر حسين مؤنس : مقدمة الجزء الأول من الرياض : ص ١٩م ، ٢١م – حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٣٤– ٣٣٧– عبده بدوي : المرجع السابق ، ص ٨٣– ٨٥– اسماعيل العربي : دولة بني حماد : ص١٠٧ – ١١١ – عبدالحليم عويس : دولة بنى حماد : ص١٦٧– ١٦٩ ، ٢٥٥ – ٢٥٦ ، الفرد بل : المرجع السابق ، ص ١٦٣ – ١٦٥ .

ب - موقف فقهاء المالكية من المذهب الشيعي والدولة الفاطمية :-

بعد أن أوضحنا شيئاً من أهم معتقدات المذهب الإسماعيلي وماطبقوه منها على أرض الواقع في إفريقية . علينا أن نستعرض بإيجاز مواقف الفقهاء المالكية ، وهم من هم في تشدّدهم وكرههم للبدع والضلالات ، وبعدهم عن التفلسف والتنظير الذي تميز به المذهب الإسماعيلي .

لانزاع في أن المغاربة قد وقفوا في وجه الخلافة الفاطمية ودعاتها ، مواقف متشددة لاهوادة فيها ، فلم يهنوا ولم يضعفوا وقاوموها بشتى انواع المقاومة ، بالمواجهة الشديدة تارةً ، وبالمعارضة الصامتة تارةً ثانيةً ، وبالمداراة والتقية تارةً ثالثةً ، وبالمواجهة المسلحة تارةً رابعةً ، وبالمقاطعة وعدم ممالئة من يخضع لنفوذها ويضعف تارةً خامسة ، وأخيراً بالقلم والحجة والبرهان (١) .

وكتب التاريخ المغربية وكتب التراجم والطبقات الإفريقية التي تناولت الأحداث في الدور المغربي من عصر الخلافة الفاطمية ، ثم في العهد الزيري تكلمت عن تلك المواقف بإسهاب أحياناً وبإيجاز أحياناً أخرى ونحن هنا لن نتحدث عن تفاصيل تلك المواقف التي نشبت بين الفريقين : السنة والشيعة ، لأن ذلك لايهمنا كثيراً . ولعل مايهمنا منه هو الجانب العلمي من تلك المواقف

---

(١) جمع أحد الباحثين وهو أبو لبابه حسين تلك المواقف التي وقفها فقهاء المالكية ضد الدولة الفاطمية، ثم ضد دعاتها في العهد الزيري في كتاب أسماه (موقف متصوفه إفريقية وزهادها من الإحتلال العبيدي) تناول فيه بالحديث شتى تلك المواقف . عن تلك المواقف أنظر : أبو لبابة حسين : نفس المرجع أعلاه ، ص ٥ - ٩٥ .

كما هو مفهوم . على أن ذلك لايتّسق إلاّ بالحديث عن أهم جوانب تلك المواقف التي ذكرناها آنفاً .

وفي الحق فإن المغاربة وعلى رأسهم الفقهاء المالكية ، عارضوا الخلافة الفاطمية منذ أن بسطت نفوذها على بلادهم ولقد عبر العامة عن إدعاء الخليفة عبيد الله المهدي الغيب الذي يرافق ذلك القسم الذي كان يحلف به رجال كتامة ، والذي أشرنا إليه سابقاً بطريقة ذكية تفضح إدعاءات عبيد الله المهدي تلك . فكان أن إحتالوا في وضع بيتين من الشعر لهما دلالتهما بين يدي المهدي من حيث لايشعر . وقد أوضح البيتان أصدق توضيح عن تهكم العامة بتلك المسألة . وهذان البيتان هما :

بالجـــور قد رضينا　　لا الكفر والحمـاقة

يامـدعي الغيـــوب　　من كاتب البطـاقة (١)

كما أن الناس لابد أن يكونوا قد تأثروا وقتذاك بما ثار من تشكيك حول مهدوية عبيد الله التي كان داعية أبو عبد الله قد أشار إليها (٢) .

ولقد راع الناس ذلك ، وراعهم كذلك تخلّص عبيد الله من داعيته أبي عبد الله الذي قامت دولة عبيد الله على أكتافه ، وذلك بقتله هو وشقيقه (٣) .

---

(١) ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ١٦٠ .

(٢) أنظر القاضي النعمان : إفتتاح الدعوة ص ١٥٨ - ابن عذاري نفسه ، و الجزء أعلاه ص ١٦١- ١٦٢ .

(٣) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ، وأنظر ماقاله قاتله له عندما هم بقتله فقد قال إن الذي أمرني بقتلك هو من أمرت الناس بطاعته وانخلعت من الملك له بعد توطئته) .

وأثار عبيد الله الشكوك حوله كذلك عندما تخلص أيضاً من أقرب معاونيه من كتامة الذين تعاطفوا مع الداعي أبي عبد الله (١) . هذا بالإضافة إلى ماشهدوه من تطبيق علمي في جانبي الفقه والمعاملات ، لم يألفوه ويعرفوه عن الشريعة الإسلامية النقية الواضحة .

أما الفقهاء ، وقد لمسوا الدلالات الخطيرة لمبادئ الشيعة الإسماعيلية ، وخاصة تلك التي طبقوها عملياً كما عرفنا سابقاً فقد أفزعهم ذلك ، فوقفوا تلك المواقف التي ذكرناها قبل قليل ، ولعل أول تلك المواقف التي واجه بها فقهاء المالكية الشيعة هو مواقف المواجهة المباشرة المتشددة ، وفي هذا الصدد حمّل الفقيه جبلة بن حمود الصدفي (ت ٢٩٧هـ) عبء تلك المواجهة الشديدة . فقد ارتفع صوته مستنكراً مبادءهم ومعلناً (كفرهم) أي كفر بني عبيد الله كما كان يطلق على الفاطميين وقتذاك (٢). كما أن مما ينسب إليه: إبتداره إلى مقاطعة صلوات الجمعة في مسجد القيروان وغيره من المساجد وذلك عندما تبين له مايتم فيها من قبل مؤذني وخطباء الدولة الفاطمية (٣) .

---

(١) القاضي النعمان : نفسه ،ص ١٦٧ ومابعدها – ابن عذاري : نفسه ١٦٧ ، ١٧٢ .

(٢) مما يدل على ذلك ، أن عبيدالله المهدي لما دخل مدينة رقادة ترك جبلة سكنى قصر الطوب في ضواحب مدينة سوسة وجاء إلي القيروان ، وعندما سئل عن ذلك ، قال (كنا نحرس عدواً بيننا وبينه البحر ، والآن حلّ هذا العدو مساحتنا ، وهو أشد علينا من ذلك) ولذلك فقد كان يقوم يومياً بدور الحراسة للقيروان ويقف تجاه مدينة رقادة من الصباح حتى المساء ، ثم يعود إلى داره ويقول (أحرس عورات المسلمين منهم فإذا رأيت منهم شيئاً حركت المسلمين عليهم) ، وكان كثيراً مايصرح بأن جهاد هؤلاء القوم (أي الفاطميين أفضل من جهاد أهل الشرك) .أنظر عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٣) المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٢-٤٣ . عياض : نفسه ، ص ٢٥٢ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، =

ويعلق المالكي (١) على تصرف جبلة ذلك بقوله (فمن حينئذ ترك العلماء حضور جمعتهم ، وهو أول من نبّه على ذلك) . ويذكر مؤرخو ترجمته أنه مع كل مواقفه منهم ، إلاّ أنهم لم يستطيعوا فعل أي شئ تجاهه (٢) .

وممّن وقف من الشيعة ومذهبهم مواقف متشددة مدافعاً عن الشريعة النقية الواضحة التي لاغموض فيها عدد من فقهاء البلاد الذين عاصروا عنفوان المد الشيعي ، فكان أن تصدوا لذلك ، وقد واجهت الدولة الفاطمية موقفهم العدائي ذلك بقسوة بالغة ، فحكمت على عدد منهم بالقتل ، وضربت بعضاً آخر ونكّلت به وسجنت فريقاً ثالثاً ، ثم مالبثت أن أجبرته بترك الفتيا بمذهب مالك وبالتعهد بعدم إلقاء الدروس .

وقد أورد مؤرخو التراجم والطبقات أسماء كل أولئك الفقهاء فمن الذين ذهبت أرواحهم فداء الشريعة والسنة، الفقيهان : أبو اسحاق ابراهيم ابن محمد الضبي المعروف بابن البرذون ، والفقيه أبو بكر بن هذيل ، اللذان قتلا عام ٢٩٧ هـ في عهد الخليفة المهدي ، لأنهما رفضا أن يشهدا بأن المهدي (هو رسول الله) كما طلبهما دعاته بذلك حسبما تشير إلى ذلك كتب الطبقات المغربية (٣) .

= ص ٢٧٣ – ٢٧٤ .

(١) نفسه : ج٢ ، ص ٤٣ .

(٢) المالكي : نفسه ،ص ٣٨– عياض : نفسه ،ص ٢٥١ ، وغيرهما .

(٣) هذا ماذكرته المصادر السنية المغربية ، أنظر عن هذا مثلا المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٤٨ –٤٩ الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٦٢ – ٢٦٥، ٢٦٦ – ٢٦٨ أما أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ط١ ، ص ٢٩٥ فقد أشار إلى مقتل الفقهين فقط دون أن يشير إلى أسباب قتلهما . ولابد من التنبيه هنا إلي أن المالكي : والدباغ ومعهما ابن ناجي مكمل ومعلق الكتاب قد أشاروا إلى =

ومن أولئك الذين قتلوا كذلك في عهد الخليفة المهدي ، الفقيه محمد بن ابراهيم المعروف بالسنجري وحسن بن مفرج اللذان ضربا بالسياط ، ثم قتلا بالرماح عام ٢٩٩ هـ ، لأنهما كانا يفضلان بعض الصحابة على علي ابن أبي طالب ، رضي الله عن الجميع (١) .

ومنهم أبو جعفر محمد بن محمد بن خيرون المعافري الذي قتل عام (٣٠١ هـ) (٢) وعروس المؤذن (٣١٧هـ) الذي قتل لانه لم يقل في أذانه عبارة : حي على خير العمل (٣) . ومنهم أيضاً أبو القاسم بن مفرج ، وأبو عبد الله محمد بن عبد الله السدرى وقد قتلا عام (٣٠٩هـ) في عهد الخليفة المهدى (٤) .

وممَّن ضرب ضرباً مبرّحاً نظراً لمواقفه المتشددة ، عدد من الفقهاء ، وذلك في عهدي الخليفتين المهدي والقائم بأمر الله أبرزهم : أبو عبد الله محمد بن العباس الذهلي المعروف بدعدع (ت ٣٢٩هـ) وقد ضرب لأنه

= أنه حادثة مقتل الفقهين كانت عام ٢٩٩هـ وهذا في الحقيقة وهم منهما فالحادثة وقعت عام ٢٩٧هـ كما أشار أبو العرب التميمي وكما أشار محقق الجزء الثاني من الرياض بشير البكوش في حاشية رقم (١) ص ٤٧ ومحمد الأحمدي أبو النور ، ومحمد ماضور محققا الجزء الثاني من المعالم ، حاشية رقم (١) ص ٢٦٤ .

(١) أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ - ابن عذاري : نفسه ، ص ١٨٧ (وعنده أنهما قد قتلا عام ٢٠٩هـ)

(٢) المالكي : نفسه ، ص٥٢ - ٥٤- الدباغ : نفسه ، والجزء ، ص ٢٨٨ - الدباغ: نفسه ، ٢٩٢هـ .

(٣) أبو العرب : نفس المصدر أعلاه ص : ٢٩٤ - المالكي : نفسه : ص ١٥٢ - الدباغ : نفسه ، ج٣، ص٥ .

(٤) المالكي : نفسه ،ص ١٦٥- ١٦٦، ١٦٦- ١٧٥ .

(كان شديد البغض لبني عبيد كثير السبّ لهم لايخاف في الله لومة لائم)(١)، ولأنه كان يفتي بمذهب الإمام مالك (٢) . وأبو جعفر أحمد بن الثمار (ت٣٢٩هـ) ، وقد ضرب أيام الخليفة المهدي هو وأخوه (٣) .

وكذلك : أبو اسحاق ابراهيم بن عبد الله الزبيري المعروف بالقلانسي (ت ٣٦١هـ) وقد (امتحن على يدي أبي القاسم بن عبيد الله الرافضي ، ضربه سبعمائه سوط وحبسه في دار البحر أربعة أشهر بسبب تأليفه كتاب الإمامة) كما يقول عياض في مداركه (٤) .

كما لجأت الخلافة الفاطمية إلى سجن بعض العلماء الذين وقفوا منها موقفاً عدائياً ، فلم يرضوا بأن يفتوا بمذهبها ، بل أصروا على الفتوى بأحكام مذهبهم المالكي ، ولم يكتفوا بذلك بل واصلوا عقد حلقات الدروس في المساجد وغيرها . ومن أبرز هؤلاء نذكر الفقيه المالكي المشهور أبا بكر محمد بن وشاح اللبّاد (ت ٣٣٣هـ) فقد سجنوه فترة من الزمن ، ثم أطلقوا سراحة على أن لايفتي بمذهب مالك ولايعقد حلقات الدرس لا في بيته ولا في المساجد (٥) .

على أن بعض فقهاء البلاد ، فضل اللجوء إلى المداراة والتقية لمواجهة

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ٣٤٥ .

(٢) عياض : ننفسه .

(٣) عياض : نفسه ،ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

(٤) الجزء الثاني ،ص ٥٢٤ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٢٨٧ (عن منعة من الفتوى والسماح واجتماع الطلبة) عياض : نفسه ج٢، ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

المذهب الشيعي والدولة الفاطمية ، ومن أولئك الذين فضلوا ان يلونوا بمذهبهم السني تحت شعار التقية والمداراة أبو محمد يونس بن محمد الورداني (ت ٢٩٩ هـ) حيث فضل الاستتار تحت مهنة رعي البقر ، على أن يسلم للشيعة بمطالبهم (١) ، ومنهم الفقيه أبو بكر القمودي الذي فضل مداراة الشيعة عندما لمس غضبهم الشديد منه وتهديدهم إيّاه نظراً لمواقفه التي كان قد وقفها من قبل من المذهب والدولة (٢) .

بيد أن أخطر تلك المواقف بلاشك هي المواجهة المسلحة ضد الدولة والمذهب الشيعي التي عكست بصدق نظرة علماء وفقهاء المالكية للمذهب الشيعي ورجالاته هذه المواجهة التي هيأ لها حدث داخلي خطير ، واجه الدولة الفاطمية كاد أن يطيح بها . نعني بذلك ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد التي أتاحت السبيل لفقهاء المالكية للمواجهة المسلحة مع المذهب الشيعي والدولة الفاطمية على نحو ماسنعرف على التوّ .

ذلك أنه في عهد الخليفة الفاطمي الأول المهدي شهدت الخلافة في عام ٣١٦ هـ (٣) بداية تمرد خارجي إباضي مالبث أن تحول إلى ثورة عارمة قادها رجل بربري إباضي المذهب من فرقة النكارية التي انفصلت عن

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٤٥- ٤٦ .

(٢) الخشني : كتاب طبقات علماء إفريقية الوارد ضمن كتاب أبي العرب التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص ٢١٤ .

(٣) هذا ما أعتمده محمود اسماعيل عبدالرازق : الخوارج في بلاد المغرب ص ٢٤١ ، - صالح باجية : نفسه ، ص ١١٧ . كما أن ابن عذاري : نفسه ، ص ١٩٣ إعتمد هذا التاريخ كبداية لتمرد أبي يزيد .

الإباضية في المغرب ، ويعرف ذلك الثائر البربري بأبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الزناتي المعروف تاريخياً بصاحب الحمار لاشتهاره بركوبه (١) . ويعرف كذلك بأبي يزيد فقط .

وأياً ماكانت الأسباب التي دفعت بأبي يزيد للتمرد فالثورة ضد الدولة الفاطمية (٢) فإن الدافع الرئيسي المعلن هو استنكار مبادئ الشيعة الإسماعيلية وتطبيقاتهم العملية لها (٢) . ومن هنا أعلن تمرده وثورته على الدولة الفاطمية ، ولقد زادت ثورته اشتعالاً في عهد الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله . وبدأ كما لو أن الخلافة الفاطمية ستهوى بين يديه في عهد القائم ، غير أن ثورته تلك مالبث أن قضى عليها الخليفة الفاطمي الثالث اسماعيل المنصور عام ٣٣٧هـ ، بعد أن أفلح في القبض على أبي يزيد الذي

---

(١) لاشتهاره بركوب الحمار في أول أمره ، أنظر مثلا : ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، ص ٥٦-٥٧- عياض : نفسه، ج٢ ، ص ٣١٨ - محمد الشابي ، دولة صاحب الحمار ونقوده ، وهو بحث قدمه إلى المؤتمر الرابع للآثار الذي نظمته جامعة الدول العربية عام ١٩٦٣ ، ص ٥٨٥- ٥٨٩- ٥٩٢ .

(٢) عالج محمود اسماعيل عبدالرازق : كل ماقيل عن الأسباب التي دفعت بأبي يزيد والخوارج الإباضية للثورة ، سواء ماذكره المؤرخون المسلمون أو المستشرقون ، وهي الأسباب التي تعددت مناحيها من أسباب اجتماعية إلى أسباب حضارية إلى أسباب مذهبية الى غير ذلك . أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : الخوارج ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ مع الحواشي .

(٣) هذا ما يراه محمود اسماعيل : نفسه ، ص ٢٣٧ ، الاعتبار الأول في ثورة أبي يزيد مع عدم نفيه لتأثير بقية تلك الأسباب التي أوردها كذلك ، وهذا أيضا مايؤكده ويصر عليه مؤرخ إباضي معاصر وهو سليمان بن الحاج داود بن يوسف المؤرخ الجزائري ، فهو يرى أن ثورة أبي يزيد ثورة جهاد في سبيل الله وقد صنف كتاباً بعنوان : ثورة أبي يزيد جهاد لاعلاء كلمة الله . أنظر سليمان بن الحاج داود : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٣ -٧٥ .

مات بعد قليل متأثراً بجراحه .

ولعل الأمر الذي يعنينا من تلك الثورة هو ماوقع إبأنها من تحالف بين السنة وعلى رأسهم فقهاء المالكية وبين أبي يزيد للقضاء على المذهب الشيعي والدولة الفاطمية ، وقد وقع ذلك التحالف عام ٣٣٣هـ ، عندما عول أبو يزيد على الاستيلاء على مدينة القيروان توطئة للقضاء المبرم على الدولة الفاطمية في المهدية (١) .

ولقد نظر فقهاء المالكية إلي انضمامهم لأبي يزيد من جهة ومحاربة الدولة الفاطمية من جهة أخرى بنظرة دينية ، ذلك أنهم رأوا أن الخروج مع أبي يزيد (متعين لكفر بنى عبيد) (٢) ولأن أبا يزيد الخارجي الإباضي من أهل القبلة كما يرون . ولذلك فقد وجب الخروج على أولئك الذين لايمكن اعتبارهم من أهل القبلة (٣) .

ومع كل ذلك ، فإن فقهاء المالكية كانوا لايرون الدخول في طاعة أبي يزيدمخلد بن كيداد لو قدر له الانتصار على الشيعة فلعل الله يسلط عليه إماماً عادلاً يخرجه عنهم (٤) .

---

(١) كان المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٢٩٢ – ٣٤٦– وعياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٨ – ٣٣١ – هما خير من عالج مسألة تحالف فقهاء المالكية مع أبي يزيد وما تمخض عن ذلك التحالف من أحداث.

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣١٨ .

(٣) وهذا رأي الفقيه أبو اسحاق السبائي بصفة خاصة ووافقة عليه بقية الفقهاء . أنظر عياض : نفسه ،ص ٣١٨ .

(٤) عياض :.نفسه ، ص ٣١٩ .

وصـرح أحـد الفـقـهـاء وهو أبو الفـضل الممـسي آنذاك بأن قـتـال الفاطميين أفضل من قتال المشركين ، ذلك لأنه قد قرأ القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، فلم يجد فيه مايوجب القعود ، كما أن الخروج مع أبي يزيد الخـارجي فـرض لازم في رأيه (لأن الخـوارج من أهل القبلة لايزول عنـهم إسم الإسـلام ويرثون ويورثون وبنوا عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجـوس زال عنهم إسم الإسلام ، فلا يتوارث معهم ولاينسب إليهم) . (١)

ومـهـما يكن من أمر ، فقد عزم فقهاء المالكية وعلى رأسهم عدد من أبرز فقهاء ذلك الوقت كأبي الفضل الممسى ، وأبي العرب التميمي ، وربيع القطان ، وأبي اسـحاق السبـائي وغيـرهـم على الخروج مـع أبي يزيد ضـد جموع الشيعة في موقعة عرفت بموقعة وادي الملح عام ٣٣٣هـ . ولقد انتهت المعركة باستشهاد حوالي ثمانين عالماً منهم أولئك النفر المذكورين (٢) آنفا . وينسب المؤرخون إلى إبي يزيد مخلد بن كيداد تعمده التقاعس في المعركة . ممَّا كشف أهل السنة وأدى إلى انتصار الشعية عليهم (٣) .

ومن المناسب هنا أن نشير إلى أن استعدادات فقهاء المالكية لمواجهة الشيعة، وما اتسمت به تصرفاتهم آنذاك ، جاءت توضح أصدق توضيح عن

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٢٩٧ – ٢٩٨ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ . وأنظر الحاشية رقم ٣ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ . بقلم المحقق ، فهي ذات أهمية عظيمة في توضيح زمان ومكان المعركة – عياض : نفسه ، ص ٣١٩ – ٣٢١ – والدباغ : نفسه ، ج٣، ص ٣٠– ٣٦ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢١ – ابن عذاري : نفسه ، ص ٣١٨ .

وجهة نظرهم في الشيعة ، سواءً في الخطبة التي خطبوها وقتذاك والتي أعلنوا فيها كفر بني عبيد وشرعية مقاتلتهم (١) أو ماكتبوه علي البنود من أيات بينات وأقوال توسم الشيعة بالكفر والمروق عن الإسلام (٢) .

على أن فقهاء المالكية وقد انجلت الأمور عن مقتل العديد منهم لم يهنوا ولم يضعفوا ، فقد عادوا يقفون من الدولة الفاطمية مواقفهم المتشددة السابقة ، كما أنهم لجأوا إلى مقاطعة وعدم موالاة رجالات الدولة والمتقربين

---

(١) جادت الخطبة بتفصيل واسع عند المالكي . ومنها أن الفقيه الخطيب خطب يوم الجمعة من عام ٣٣٣هـ على المنبر فحرض الناس على الجهاد ، ومايعده الله للمجاهدين ، مضمناً خطبته العديد من الآيات التي تحث على الجهاد ثم قال (يا أيها الناس جاهدوا من كفر بالله ، وزعم أنه رب من دون الله تعالى وغير أحكام الله عز وجل ، وسب نبيه وأصحاب نبيه وأزواج نبيه) ثم أخذ يرمي عبيدالله المهدي بالكفر وادعاء الربوبية ، والطعن على الرسل والتكذيب للرسول ﷺ ، والسب له ولاصحابه وأزواجه ، ثم أخذ يستمطر عليه (اللعنات) ، والخزى ، ودعا عليه وعلى شيعته .. الخ . وأنظر المالكي : نفسه ،ص ٣٤٢– ٣٤٤ .

(٢) من ذلك أن ربيعاً القطان وهو واحد من زبرز من استشهد في تلك المعركة خرج ومعه بندان أي علمان : مكتوب فيه لا إله إلا الله محمد رسول الله ، والثاني مكتوب فيه (نصر من الله وفتح قريب) (سورة الصف آية ١٣) على يد أبي يزيد ، اللهم انصره على من سب نبيك) ثم بند ثالث مكتوب فيه « قاتلوا أئمة الكفر انهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون » (سورة التوبة آية ٢) . وكتب الفقيه مروان الزاهد على بنده « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديهم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) (سورة التوبة آية ١٤) . وكتب الفقيه أبو الحسن السبائي على بنده بعد البسملة (لا إله إلا الله محمد رسول الله ، (أبو بكر الصديق) (عمر الفاروق) وكتب الفقيه ابراهيم بن العمشاء على بنده (لا إلاه إلا الله محمد رسول الله « ألا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذا يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » (سورة التوبة اية ٤٠) انظر المالكي : نفسه ، ص ٣٤١ – ٣٤٢ عياض : نفسه ، ص ٣٢٠ – ٣٢١ .

إليها (١) . وواصل البعض منهم تحديه بعدم تنفيذ أوامر الشيعة بتطبيق بعض اتجاهاتهم الفقهية التعبدية ، ومن أولئك القاضي أبو عبدالله محمد بن اسحاق الجبلي الذي قتل عام ٣٤١هـ في عهد الخليفة اسماعيل المنصور لرفضه أن يفطر الناس حتى تتحقق الرؤية (٢) أي رؤية هلال العبيد ، ولقد وجد من العلماء من رأى ضرورة مداراة الشيعة واتقائهم وخاصة فيما يتعلق بأمر المناداة بحي على خير العمل كالفقيه علي بن محمد بن مسرور الدباغ (ت٣٥٩هـ) (٣) .

وفي العهد الزيري الذي بدأ فور مغادرة المعز لدين الله الفاطمي المغرب عام ٣٦٢هـ ، واصل فقهاء المالكية إعلان رأيهم في الشيعة وقد جاهروا بالعديد من الآراء التي رموا فيها الفاطميين بالكفر البواح ويلعنهم) وأن حالهم حال المرتدين والزنادقة . وحرموا التعامل معهم أيا كانت صيغة ذلك التعامل (٤) . ولقد دعاهم هذا إلي مقاطعة كل من تسول له نفسه من

---

(١) أنظر مثلا عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤٠- ٣٤٢- ٣٦٣- ٣٦٥، ٣٦٩ ، ٣٧١ ، ٣٧٨- ٣٧٩، ٣٨١- ٣٨٤- ٣٨٩ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ج٣، ص ٤٧ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٥٢٧- الدباغ : نفسه ، ص ٧٥- ٧٦ .

(٤) أنظر تلك الآراء التي صرح بها الفقهاء : أبو إسحاق الجبنياني (ت٣٩٩هـ) و أبو محمد عبدالله ابن أبي رعيد (ت٣٧٩هـ) وأبو بكر اسماعيل بن عذرة (كان معاصراً لابن أبي زيد) وأبو الحسن القابسي (٤٠٣هـ) وأبو القاسم بن شبلون (كان معاصراً لابن أبي زيد) وأبو محمد ابن الكراني (كان معاصراً لابن أبي زيد) وأبو نصر الداودي (٤٠٧هـ) وغيرهم عند عياض : نفسه ، ص ٥١٣ – ٥١٥، ٧١٨-٧٢٠ .

الفقهاء والدفاع عن الفاطميين ، كما حدث من مقاطعتهم للفقيه البراذعي الذي ألف كتاباً في نسب بني عبيد كما سبق وأن ذكرنا عنده حديثنا عن الفقه . (١) ولم يكتف فقهاء المالكية بذلك ، بل عارضوا كل من يتصدى للتشكيك فيما ينسب للفاطميين من كفر ، كما فعلوا مع الفقيه أبي إسحاق ابراهيم بن حسن التونسي (ت ٤٤٣هـ) عندما أفتى بأنه لايجب تكفير كل الشيعة ، فمع أن هناك فريقاً منهم كافر مباح الدم إلاّ أن هناك فريقاً آخر وهم الذين يذهبون إلى تفضيل علي بن أبي طالب على الصحابة لايجب تكفيرهم . وقد قاد هذا الفقهاء إلى التشدد مع هذا الفقيه والطلب منه التبرؤ من أقواله على ما سنعرف بعد إن شاء الله (٢) .

أما عن موقف الزيريين من المذهب الشيعي الإسماعيلي والدعوة إليه فقد واصلوا رسمياً تطبيق مبادئ المذهب في الأمور الحياتية والجوانب التعبدية . غير أنهم ابتداءً من عهد ثاني أمرائهم وهو المنصور بن بلكين أخذوا يوازنون بين الالتزام بالمذهب الشيعي ، وبين رفض أغلبية السكان لهم. وأخيراً روا أن يكسبوا ثقة الغالبية الكبري للحفاظ على نفوذهم . ومن هنا فقد بدأوا يتحللون تدريجياً من الانتماء المذهبي للخلافة الفاطمية مع الحرص على الحفاظ على الإنتماء السياسي لها .

ولقد أسهب كثير من المؤرخين المحدثين في شرح أبعاد تلك الخطوات وتوصلوا بحق إلي القول بأن الفتور في الانتماء المذهبي هو ماطبع العهد

(١) أنظر قبل ص ٣٦٠ .

(٢) أنظر بعد ص ٥٦٧ .

الزيري وخاصة عهود المنصور بن بلكين وباديس ابنه ، ثم المعز بن باديس ابن المنصور (١) . ومماً ينسب للمنصور من مواقف تجاه بعض المبادئ الشيعية ، موقف له دلالته حيث ذكر بأنه رفع إليه عام ٣٨١هـ بأن شخصاً قذف بعض الصحابه رضى الله عنهم فأمر بقتله وصلبه . (٢) كما أن مما ينسب للمعز من دلالة على التحول المذهبي هو تعمده عام ٤٠٧هـ مخالفة الشيعية الذين يكرهون ويسبون أبا بكر وعمربن الخطاب ، فكان أن ذكرهما بخير وترضى عنهما ، الأمر الذي فهمه الناس وكأنه اشارة إلى تبدل حقيقي حيال الشيعة ، فبدأوا يهاجمونهم ويقتلونهم (٣) ابتداء من ذلك التاريخ وحتى الانفصال السياسي والمذهبي عن الخلافة الفاطمية بعد ذلك .

ومهما يكن من أمر فإن الشئ الذي لاجدال فيه هو أنه كان لمواقف فقهاء المالكية الآثر الأكبر في ذلك التحول في الانتماء المذهبي نهائياً عن الخلافة الفاطمية عام ٤٤٠هـ (٤) ، والرجوع إلى المذهب المالكي مذهب الأغلبية الذي ظل منذ منتصف القرن الخامس الهجري وحتى الآن المذهب الوحيد للأغلبية العظمي للمغاربه .

---

(١) أنظر ماذكرناه عن ذلك الفتور المذهبي ، قبل

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ٢٤٦ .

(٣) الطاهر أحمد الزاوي تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ٢٨٨- ٢٨٩م وتجاوزنا رواية ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٧٤ التي يقول فيها إن المعز خرج في بعض الأعياد إلى المصلى فكبابه جواده فقال عند ذلك (أبو بكر وعمر) مما أغضب الشيعة فهموا بقتله لكن عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة قاموا عليهم فقتلوهم شر قتله) فالرواية الأولى معقولة أكثر من الرواية هذه الرواية .

(٤) عن الإنفصال السياسي والمذهبي للزيريين عن الخلافة الفاطمية أنظر قبل ص٨٩ ومابعدها .

جـ -الأصداء العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة :-

مع أن الصراع المذهبي بين السنة والشيعة كان حاداً وعنيفاً في الفترة التي كانت الخلافة الفاطمية تقيم فيها بإفريقية إلاَّ أن الجانب العلمي من ذلك الصراع لم يكن متساوياً مع أوجه الصراع الأخرى التي أوضحناها من قبل . وفي الحقيقة فليس في الأمر غرابة ، فذلك أمر طبيعي يحدث دائماً في مثل تلك الظروف التي تقف فيها السلطة تدعم مذهبها ومعتقدها . فالدولة الفاطمية كما لايخفى كانت تسعى إلى إخماد أي معارضة لها ، وخاصة تلك التي تتسلح بالجدل العلمي الذي هو أشد أوجه الصراع أثراً وتأثيراً .

ومن ثم فلاغرابة أن يحتل الجانب العلمي المرتبة الأخيرة من أوجه ذلك الصراع وإذا عرفنا أن كثيراً من علماء إفريقية آنذاك قد آثروا المعارضة السلبية ، وآثر بعضهم التقية (١) لاتضح لنا الموقف بجلاء .

ومع ذلك فهذا لاينفي أنه لم تكن هناك اصداء علمية للصراع المذهبي بين المذهبين : فلقد كان هناك العديد من الآثار العلمية للصراع ، وهي على قلتها قد أحدثت دون ريب أثراً إيجابياً في مسيرة الدراسات الشرعية ، فضلاً عن أنها قد أسهمت في تثبيت العقيدة الصحيحة سواء مايتصل بالجانب الفقهي أو العقائدي ، أو حتى الجانب المتصل بأمر الإمامه الذي كان له دور عظيم في بلورة المذهب الإسماعيلي .

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٢ .

والأصـداء العلمـيـة التي ترتبت على الصـراع المذهبي بين السنة والشيعة في إفريقيّة وقتذاك مرت عبر قنوات ثلاث كما يتراءى لنا تلك القنوات هـي : حلقات العلم والمعرفة والدرس والمؤلفات والمصنفات العلمية والمناظرات أو المجالس .

حلقات العلم والدرس :

فحلقات العلم في الجوامع والمساجد والبيوت كانت أظهر أثر علمي للصراعات المذهبية آنذاك فلقد كان الطلبة يتحلّقون حول شيوخهم فقهاء المالكية يتلقون عنهم مايثبت عقيدتهم ومايحافظ على شريعتهم . والأمثلة أعسر من أن نحصيها . فقد كانت حلقات الدروس تتناثر في مساجد وبيوتات معظم المدن الإفريقية وكانت الدولة الفاطمية تفيق بعض الأحيان فتستشعر الخطر الذي يأتيها من حلقات الدروس ، فكانت تبادر لمنع فقهاء المالكية من التجمهر وإلقاء الدروس وتسجنهم في دورهم وتهدد من يفعل ذلك بالعقاب الصارم . (١) لكن ذلك لم يثن فقهاء المالكية عن مواصلة دورهم العلمي الذي كسوه بطابع الجهاد ضد الشيعة . فكانوا يستمرون في إلقاء الدروس والتحليق في المساجد الصغيرة وفي بيوتاتهم إصراراً منهم على التصدي للمد الخطير للمذهب الشيعي ولم تفلح محاولات الدولة في منعهم . ولعل في الحادثة التالية مايوضح طبيعة هذا الموقف ، أي حرص علماء المالكية على التصدي للمعتقد الشيعي بكل ما أوتوا . روت كتب التراجم

---

(١) أنظر المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٣ .

والطبقات أن الفقيه المالكي أبا بكر بن اللباد (ت٣٣٢هـ) كما عرفنا من قبل أمتحن أيام الخليفة عبيدالله المهدي ، وسجن لأنه كان يفتي بغير مذهب السلطان ، وهو المذهب المالكي بالطبع ، ولقد أمر الخليفة بإطلاق سراحه بعد ذلك على أن لايفتى ولايجتمع إليه أحد ولايفتى إلا بمذهب الدولة ، وألاَّ يجتمع عليه أحد – وهو بيت القصيد هنا – غير أن الفقيه المالكي لم ينصع إلى ذلك ، فقد شرع بفتح باب دارة خفية لإلقاء الدروس على طلبته (١) . ولندع عياض (٢) يروى ذلك لنا بأسلوبه الدقيق قال (فلزم داره ، وأغلق بابه وكان ربما خرج إلي المسجد ، فيأتي الطلبة إلى بابه ، فتفتح لهم خادمة فإذا اجتمعوا أتته ،فيدخل وتغلق عليهم . فيقرأون . وكان منهم أبو محمد التبان وابن أبي زيد رحمهما الله تعالى وغيرهم . وكانوا ربما جعلوا الكتب في أوساطهم حتى تبتل بأعراقهم ، فأقاموا على ذلك إلى أن توفى رحمه الله تعالى) .

ومع أن هذه الحادثة تكاد تكون فردية ، فإننا لا نعتقد بأنها الوحيدة ، ذلك لأن الشئ المؤكد هو أن الفاطميين منعوا الكثير من علماء وفقهاء المالكية من الإفتاء بالمذهب المالكي كما مر بنا سابقاً . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الإفتاء كان عادة مايتم في حلقات الدروس والمذاكرة .

أما حلقات الدرس والمذاكرة التي كانت تعقد علناً والتي تكرت تأثيرها العلمي دون شك فلم تنقطع كما قلنا آنفا . ولعل فيما سنورده الآن من دلائل

---

(١) نفسه ، ص ٢٨٧ – عياض : نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٩ – ٣١٠ .

وإشارات مايسلط الضوء على الأثر العلمي للصراع المذهبي الذي نعنى به حالياً . فعندما بدأ أهل السنة يتأهبون لملاقاة الثائر أبي يزيد مخلد بن كيداد اليغوني للإنضمام إليه ضد الشيعه ، وذلك إبان محاصرته لعاصة الدولة الفاطمية المهدية، انتصب الفقيه المالكي أبو العرب التميمي (ت٣٣٣هـ) للتدريس في المسجد الجامع بالقيروان . فلم يجد ما يناسب الوضع ويدفع بمعتقدات الشيعة سوى أن يقرئ الناس كتابي الإمامة للعالم القيرواني محمد بن سحنون (١) وليس إلى الشك سبيل بأن هذا العمل كان رداً عملياً على غلو الشيعة في مسألة الإمامة ، ويقول أبو العرب نفسه معقباً على تصرفه ذلك – وهو أمر له دلالته الكبيرة – (كتبت بيدي هذه ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة كتاب ، فوالله الذي لا إله إلا هو لقرآءة هذين الكتابين على في هذا الموضع أفضل عندي من جميع ماكتبت (٢) .

ودليل ثان نسوقه ، وهو أن ربيعاً القطان المتوفي سنة ٣٣٣هـ قتيلاً في حرب أبي يزيد مع الشيعة كما عرفنا من قبل استجمع شجاعته مستغلاً فترة التمكين التي سنحت للسنة ، فاتخذ له حلقة في جامع القيروان ، يظهر فيها السنة ، ويجتمع عليه للفقه فيها عدد من الفقهاء المشهورين من أمثال أبي الأزهر بن معتب ، ومحمد بن أحمد السيوري ، وأبي محمد عبدالله بن أبي زيد وغيرهم (٣) .

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢ ص ٣١٠ .

(٢) المالكي : نفسه .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢١– ٣٢٤ .

ودليل ثالث نورده للدلالة على المغـزى الذي تحـمله حلقـات الدرس والمذاكرة ، إذا يروى عيـاض (١) أن الفقيه العابد أبا اسحـاق ابراهيم بن أحمد السبائي (ت٣٥٦هـ) وهو الذي وقف من الشيعة مواقف شديدة (كان ممّاً شغل به نفسه ، ذكر فضل الصحـابة والثناء عليهم لإ نتشـار أمر المشارقة (٢) ، فما كان أحد يذكر الصحابة إلاّ في داره) . ولنا بالطبع أن نتصور مقدار ماينعكس على الدراسات الشرعية من فائدة نتيجة لذلك . فلابد أن يحدث ذلك تياراً علمياً دافقاً .

وفي موضـع آخر يقـول عيـاض (٣) عن أبي الحسن السبائي إنه لما (اشتهر أمر بني عبيد ، وفتح دعاتهم أبوابهم ، ودعوا إلى كفرهم ، قال أبو اسحـاق لأصحـابه : أفتحوا باب داري تأخذ في ذمهم والتحذير منهم) . لا نتصور أن ذمهم والتحذير منهم يخلوان من أثر علمي وفقهي دون ريب .

وأخيراً فإن هناك دليلاً رابعاً ، إذ يروى عياض (٤) كذلك أن الفقيه

---

(١) نفسه : ج٢ ،ص ٣٧٨ .

(٢) المشارقة ، هم الشيعة كما أصطلح على تسميتهم بذلك المغاربة وقتذاك ، وقد جاءت هذه التسمية نسبة إلى أبي عبدالله الشيعي الذي عرف وشهر بالمشرقي كما يقول القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٥٢ ، ثم أصبحت بعد ذلك تطلق على الشيعة وعلى من يتمذهب بالمذهب الشعي واشتقوا لها فعل وهو تشرق ، أي تمذهب بالمذهب الشيعي ، وقد جرت هذه الكلمة على ألسنة مؤرخي التراجم والطبقات المغربية : كطبقات أبي العرب ، وطبقات الخشنى والرياض والمدارك والمعالم وغير ذلك كلما ورد ذكر للشيعة أو من مال إليهم من المغاربة . أنظر حول هذا الموضوع إلى ما كتبه حسين مؤنس في حاشية رقم (٣) ص٤٢-٤١م من الجزء الأول من كتاب : رياض النفوس .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٧٨ .

(٤) نفسه ، ج٢ ، ص ٤٨٨ .

أبا سعد خلف بن عمر المعروف بابن أخي هشام الربعي الخياط (ت٣٧١هـ) كان يجتمع هو وعدد من العلماء الفقهاء من أمثال أبي الأزهر بن معتب ، وأبي محمد عبدالله بن أبي زيد ، وابن التبان ، وأبي الحسن القابسي (للتفقه في جامع القيروان عندما ظهر أمر أبي يزيد على بني عبيد) .

وإذا أمعنا النظر فيما انتهجه الفاطميون من سبل لنشر مبادئ مذهبهم عبر حلقات الدرس والمعرفة، لوجدنا أنهم لم يقصروا في الدعاية لمذهبهم مطلقاً، وكيف لا وهم الذين يعدون الدعاية أحد أهم الأسس التي يعتمد عليها لنشر المذهب (١) وفي هذا الصدد تحضرنا عبارة محمد كامل حسين (٢) الذي يقول (بأن الدعاية كانت من صميم عقيدة الإسماعيلية وفلسفتهم). ولقد حشد الفاطميون جهودهم في سبيل نشر مبادئ مذهبهم على نطاق واسع بين السكان عن طريق حلقات الدرس في المساجد وقصور الخلفاء .

بيد أن الفاطميين كانوا بالإضافة إلى رغبتهم في استماله السكان إلى مبادئ مذهبهم، يحرصون على نشر خصائص وحقيقة المذهب الشيعي الإسماعيلي بين الأتباع الخلص والدعاة في حلقات أخرى أطلق عليها مدارس الدعوة(٣) وقد انتصبت تلك المدارس في المهدية أيام الخليفة المهدي، والقائم ابنه، ثم في مدينة المنصورية أيام الخليفة المنصور والمعز لدين الله ابنه (٤) . وعندما رحل الفاطميون إلى مصر واصل الزيريون خلفاءهم في حكم البلاد

(١) محمد كامل حسين : طائفة الإسماعيلية ، ص ١٣٠ .

(٢) نفسه : ص ١٣١ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٢٩ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٣٣١ .

رعاية تلك المدارس الخاصة بتبيان حقيقة المذهب الإسماعيلي(١) .

ولقد تميز عهد الخليفة المعز بالدعاية المنظمة للمذهب الإسماعيلي ، ومرت الدعاية تلك عبر طريقين أو اتجاهين سارا جنباً إلى جنب - الاتجاه الأول وهو الذي يخاطب الناس العاديين من سنة وشيعة ، وكان اعتماده على حلقات المساجد الجامعة والمساجد الأخرى . وفي هذه الحلقات كان دعاة الشيعة وعلى رأسهم القاضي النعمان يقرأ على مسامع الناس برامج خاصة كالنصائح أو الوصايا وقضايا فقهية وعقائدية واضحة معتمداً في ذلك على كتب علم الظاهر . وكانت هذه البرامج تشكل مايمكن عده منشوراً صادراً من الخليفة نفسه ، وكان غالباً مايتم إثر إنتهاء المناسبات الدينية الإسبوعية كصلاة الجمعة ، أو السنوية كصلاة العيدين (٢) ، ويرى حسن ابراهيم (٣) حسن أن هذه الحلقات هي أساس مجالس الحكمة التي شاعت في مصر في الدور المصري للخلافة الفاطمية .

ولم يكتف الخليفة المعز بذلك ، فقد فتح أبواب قصره في المنصورية أمام الناس لسماع المحاضرات التي كان يلقيها دعاته وعلى رأسهم القاضي النعمان ، وهي مستمدة أيضاً من كتب المذهب التي تعول على علم الظاهر ككتاب دعائم الإسلام . (٤) وقد زاد الخليفة فأباح الاطلاع على الكتب التي تحتويها مكتبة القصر (لمدراستها وانتساخها والتعلم

---

(١) حسن ابراهيم حسن : نفسه ،ص ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٣٢ - ٢٣٤ .

(٣) نفسه، ص ٢٣٣ .

(٤) حسين ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

منها والتفقه عليها) كما يقول القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات (١) .

وكان الخليفة نفسه يعقد في قصره المجالس العلمية التي يحضرها عادة كبار رجال الدولة والدعاة والعلماء والأدباء فيلقي عليهم من علومه في كل فن تقريباً من فنون المعرفة كالفقه والفتيا وعلم التوحيد وغير ذلك . (٢)

أما الاتجاه الثاني فقد كان مقصوراً علي الأتباع والأشياع من الدعاة وكانوا يخضعون لبرنامج علمي - إن جاز هذا - يتلقون من خلاله أسرار المذهب الشيعي أو علم الباطن الذي كان يعرف بعلم آل البيت (٣) أيضا . وكان الخليفة حريصاً على تنبيه داعي دعاته لشرح وتذليل كل مايصعب على الأولياء فهمه ، حتى يتاح لهم بعدُ الترويج لمبادئ المذهب ، وكان المعز غالباً مايشارك بنفسه في هذه الحلقات الخصوصية فيقرأ على الأشياع كتب الباطن ، وخاصة أولئك الذين لديهم الاستعداد لفهم أدق أسرار التأويل الباطن (٤) .

ومن المهم أخيراً أن نشير إلى ماذكره عبده بدوي (٥) بشأن حلقات الدرس تلك أو مدارس الدعوة فهو يرى - وليس ما يمنع من موافقته - أن

---

(١) فيما ينقله عنه حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٦ .

(٢) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ،ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٣) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٥ (عن القاضي النعمان في المجالس والمسايرات) .

(٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ،ص ٢٣٤ - ٢٣٥ .

(٥) مع حركة الإسلام في إفريقية ،ص ٤٤ .

الفاطميين انتهجوا أسلوباً جديداً في الدعوة لمذهبهم يقوم على تشكيك الفرد، ثم التسلط عليه بالحجج العقلية ، تمهيداً للوصول إلي موافقتهم على مبادئ مذهبهم ، ويعتقد أن ذلك الأسلوب قد جاء نتيجة لالتقاء الفكر العرب بالفكر الفارسي والعقلية الإفريقية (١) ، مما أدى إلى أن يتمخض عن ذلك أسلوب معين يمكن تسميته بالطابع الفاطمي .

وممَّا يدعم رأي عبده بدوي ما أشار إليه القاضي النعمان في كتابه (٢) المجالس والمسايرات من نصيحة نصحه إياها الخليفة المعز لدين الله . فقد قال له الخليفة ما نصه : (متى ناظرك من ترى أنه ألحن بالحجة منك ، فاستتر بالباطن ، يعني أن يقطع كلامه ، ويومئ إلى أن في ذلك باطنا لايتهيأ له ذكره ، ولايتمادى في الكلام إلي أن يظهر عليه مخاصمه ، فيكون ذلك فتنة ، وداعياً إلي الإصرار على ماهو عليه ، ولكن يبقية على شبهة من أمره ، إن كان قد وجل في مناظرته ، وأن علم أنه ألحن منه قبل المناظرة ، لم يناظره واستتر كذلك بالباطن ما أمكنه لان احتجاج المبطلين ربما شبهوا به وخيلوا للسامعين أنه الحق) . ومن هنا لم يكن اعتماد الإسماعيلية في نشر وبث الدعوة لمذهبهم إلاَّ على الدعاة المأذونين ، أي أولئك الذين وصلوا درجة من العلم بالباطن تؤهلهم للقيام بالمهمة على أحسن وجه (٣) .

---

(١) مع موافقتنا لعبده بدوي ، فيما قاله ، إلاَّ أننا نوافقه فيما نشار إليه عن العقلية الإفريقية وتأثيرها في الطابع الفاطمي الذي تمخض عن التقاء الفكر العربي بالفكر الفارسي . ذلك لاننا لم نعثر على أي دلالة تؤيد ذلك .

(٢) فيما ينقله عنه حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٦ – ٢٣٧ .

(٣) حسن ابراهيم حسن وطه شرف : نفسه ، ص ٢٣٧ .

الحركة التأليفية :

كان أمام أهل السنة سبيل آخر لمنافحة ومدافعة المعتقد الشيعي ، ذلك السبيل هو التأليف والتصنيف في الموضوعات التي يثيرها المذهب الإسماعيلي ، ونستدرك هنا فنقول بأن تلك التآليف والمصنفات التي سنشير إليها بعد قليل لم ينص فيها حقيقة على أنها جاءت كرد فعل لدعاوى المذهب الإسماعيلي الفقهية والعقائدية والسياسية . لكننا نعتقد اعتقاداً جازماً بأنها كذلك في الواقع ، إذ تكفى نظرة متأنية مدقّقة على ما تحمله تلك التآليف لمصنفات من مضامين لتؤكد فحوى مانذهب إليه .

وفي الواقع ، فإن لدينا العديد من الأمثلة التي توضح ذلك . فعندما يستغرب فقهاء المالكية تصرفات الفاطميين التي طبقوها واقعياً ينبرون إلي تصنيف كتب في مسألة نسب الشيعة وهو الأمر الذي يجر عليهم النقمة من قبل الفاطميين الذين لم يتورعوا عن قتل من سولت له نفسه ذلك ، وهذا كان حال أبي جعفر محمد بن محمد بن خيرون المعافري الذي قتله الفاطميون عام ٣٠١هـ . بسبب تصنيفه لكتاب نسب الشيعة . (١)

وتشغل مسألة الإمامة من وجهة نظر الشيعة بال فقهاء المالكية فيبادرون إلى التصنيف فيها من منظور سني دون شك – وهذا ما فعله أبو اسحاق ابراهيم بن عبدالله الزبيري – القلانسي (ت ٣٦١هـ) فقد صنف : كتاب الإمامة ، ممًّا دعى الخليفة القائم بأمر الله إلي ضربه

---

(١) المالكي :نفسه ، ج٢ ، ص ٥٢ – ٥٣ – مع حاشية ، ص ٥٢ .

وسجنه والتنكيل به ولقد سبق لنا أن لمسنا حرص أبي العرب التميمي في استقراء كتابي : الإمامة لمحمد بن سحنون ، في ذلك الوقت الذي هبت فيه رياح المعارضة على الفاطميين من قبل أهل السنة ، والثائر أبي يزيد مخلد ابن كيداد .

وعندما يشتد الشيعة في الدعوة لمذهبهم ، وخاصة في عهد الخليفة عبيدالله المهدي ، يصنف الفقيه المالكي المشهور سعيد بن الحداد المتوفي عام ٣٠٢هـ ، كتاباً في الرد عليه وهو كتاب المقالات (١). ومع أننا لم نستكنه فحوى الكتاب حقيقة إلاّ أننا لانستبعد أن يكون قد استهدف المذهب الشيعي في جملة ما استهدف من المذاهب ، ولعل اعتقادنا يزداد يقيناً إذا ماعرفنا أن سعيداً بن الحداد نفسه ، كان الفقيه الأشهر الذي تصدى للشيعة وناظرهم وجادلهم حسبما سنعرف بعد قليل . والقرينة الأخرى أن سعيداً بن الحداد لايستغرب منه الرد على المذهب الشيعي ، وهو الذي صنّف كتاباً أسماه الرد على الشافعي ، وهو الذي قيل عنه إنه مال إلى المذهب الشافعي في بعض أوقات حياته (٢) .

وفي فترة من فترات اشتداد ذلك الصراع المذهبي ، نري فقيهاً مالكياً ثانياً يكتب كتاباً ، بعنوان : كتاب تجديد الأيمان من شرائع الإسلام . ذلك

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ص ٢٣٩ – ٢٤٠ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٩٥ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

الفقيه هو أحمد بن عبدالرحمن القصري (ت : ٣٢٢هـ) (١) .

ويصنف الفقيه المالكي أبو محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني ،الذي عاصر الخلافة الفاطمية في دورها المغربي ، ثم رحيلها إلى مصر ، عدة كتب تخدم ذلك الغرض ، وهو الرد على دعاية المذهب الشيعي ، مثل كتاب : الإقتداء بأهل السنة ، وكتاب الذب عن مذهب مالك ، إلى غير ذلك . (٢)

وعندما كان الشيعة يثيرون بعض القضايا الفقهية والعقائدية كان علماء وفقهاء المالكية يتصدون للرد على تلك القضايا الشيعية ، فيصنفون العديد من الكتب التي تعكس الرأي الموافق للشريعة الصحيحة كما وردت بهذا الشأن في القرآن والسنة . ومن هنا نرى الفقيه أبا بكر بن اللباد ، والذي مر بنا ذكره كثيرا يصنِّف كتاباً في الطهارة (٣) ، ولربما كان ذلك الكتاب رداً على مايراه الشيعة في الطهارة من أنها دعامة من دعائم الإسلام السبعة عندهم .

ونرى فقيهاً خامساً ، هو عبدالله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجاج (ت ٣٤٦ هـ) يكتب في ذلك الصدد كتاباً ، وهو كتاب المواقيت ومعرفة النجوم والأزمان (٤) . وقد يكون في ذلك رداً على الشيعة الذين لهم رأي مغاير في مسألة تحديد شهر الصوم ونهايته ، على

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ١٩٨ .

(٢) عياض :نفسه ، ص ٤٩٤ .

(٣) عياض : نفسه ،ص ٣٠٥ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٤٢ .

النحو الذي عرفناه سابقاً .

ونرى فقيها سادساً ، وهو ابن أبي زيد يكتب كتباً تصب في ذلك الإطار ، مثل كتاب تفسير أوقات الصلوات وكتاب فضل قيام رمضان (١) . وهو أمر يعكس رغبة السنة كما يبدو لنا في تثبيت صلاة التراويح ، وماجاء فيها ، وهي التي أبطلها الشيعة كما ذكرنا سابقاً .

وعندما كانت تثار مسألة العصمة ، وهي مبدأ من مبادئ الشيعة في أئمتهم كما سبق أن رأينا ، يتصدى علماء وفقهاء المالكية للتصنيف في هذا الصدد ، فنرى أبا بكر بن اللباد الذي أشرنا إليه آنفاً ، يصنِّف كتباً عدة ككتاب عصمة النبيين ، وكتاب إثبات الحجة في بيان العصمة (٢) وليس من شك بأن عنواني هذين الكتابين يدلان دلالة واضحة على المغزى الذي فرضته طبيعة الصراع وقتذاك .

وكيفما كان رأينا في مغزى تصنيف تلك الكتب السابقة بما تحمله من مضامين ، سواء إذا عددناها أثراً مباشراً لذلك الصراع المذهبي أو عددناها أو أنها امتداد طبيعي للحركة العلمية في إفريقيَّة ، فإننا لانستطيع أن نغفل أمراً مهماً ، وهو أن عصر الفاطميين قد عرف عدداً من الفقهاء الذين أثروا الدراسات الشرعية على وجه الخصوص بالعطاء الغزير . ففيه ظهر أبو العرب التميمي الذي قيل إن مؤلفاته بلغت ٣٥٠٠ كتاباً أو جزءاً

---

(١) عياض : نفسه ص ٤٩٤ .

(٢) عياض : نفسه ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

بمعنى أدق ، ثم محمد بن حارث الخشني ، الذي قيل إنه ألف مائة ديوان ثم أبو محمد عبدالله بن أبي زيد الذي صنف العشرات من الكتب . أفلا يعطينا ذلك انطباعاً بأن نشاط الحركة التأليفية على الصورة التي ذكرناها وفي عصر الفاطميين ، كان أحد الردود على نشاط الفاطميين في نشر مذهبهم في إفريقيَّة آنذاك ؟

وعلى أية حال ، فإذا تجاوزنا ذلك كله ، فإن الشئ المؤكد هو أن تلك المؤلفات كان لها أثرها الكبير في تثبيت العقيدة الصحيحة في نفوس الناس من منظور سني . وهذا أثر إيجابي على الدراسات الشرعية دون ريب .

ومادمنا قد أشرنا إلى مصنفات أهل السنة الدينية والسياسية في عهد الفاطميين ، فإن من الضروري أن نعيد إلي الأذهان ماذكرناه سابقاً عن مؤلفات الشيعة الفقهية . غير أنها على كل حال ، قد أسهمت في إثراء الدراسات الشرعية ، حتى ولو عن طريق غير مباشر ، فقد عرفنا أن القاضي النعمان ألفَّ العديد من الكتب الفقهية ككتاب : دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام ، وهذا الكتاب بالذات جاء يخدم صراحة المعتقد الشيعي ، وقد ألفه بطلب من الخليفة المعز كما أشرنا إلى ذلك من قبل ومن الكتب التي كتبها القاضي النعمان : كتاب الطهارة ، وكتاب كيفية الصلاة وكتاب الإقتصار ويشتمل على مسائل فقهية مستمدة من أئمة أهل البيت ، كما ذكرنا عند حديثنا عن الفقه (١) .

---

(١) أنظر قبل ، ٣٥٣ .

هذا وينسب للخليفة الفاطمي الثالث وهو المنصور تصنيف كتاب بعنوان : تثبيت الإمامة لمولانا علي بن أبي طالب (١) . وإن كان هذا الكتاب ينسب أيضاً للقاضي النعمان (٢) .

أما الخليفة المعز لدين الله فقد عرفنا أثناء حديثنا عن الفقه الشيعي ، أنه ينسب إليه تصنيف كتاب الروضة الذي يحتوى كثيراً من الحالات الفقهية وكتاب أخر ، هو : المناجاة وهو فقهي كذلك .

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ، ص ٣٥٤ .

(٢) كارل بروكلمان : نفس المرجع أعلاه والجزء والصفحة .

المناظرات العلمية :-

عرف عصر الفاطميين ، وبعض من عصر الزيريين العديد من المناظرات العلمية بين السنة والشيعة ، وفي الحق ، فقد كان الكثير منها إن لم نقل كلها . بطلب وإصرار من دعاة الفاطميين ، وأحياناً الخلفاء على ماسنعرفه على التَّو . ولقد تمخضت تلك المناظرات عن انتصار أهل السنة فيها بما أوردوه من حجج وبراهين دينية وأدبية ومنطقية .. الخ حسبما روته لنا المصادر السنية التي لم يكن أمامنا سواها . أما المصادر الشيعية الفاطمية المعاصرة ، فلم تشر إلى ذلك مع أن القاضي النعمان قد أشار عرضاً لبعض الإشارات لمناظرات جرت بين السنة ودعاة الشيعة ، كانت الغلبة فيها للشيعة كما يقول ، وهو ماسنشير إليه في موضعه بعد قليل .

وما من ريب في أن أغلب المناظرات العلمية تلك قد جرت في عهد الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي ، سواء تلك التي رعاها هو بنفسه أو تلك التي رعاها دعاته وقضاته ، وفي الواقع فليس بدعاً أن تكون تلك المناظرات قد حدثت في عهد الخليفة عبيدالله ، فلقد حشدت الخلافة الفاطمية وقتذاك كل اسلحتها لمواجهة ومقاومة أهل البلاد لها ، واستخدمت في سبيل نشر وتثبيت مذهبها وبالتالي وضعها السياسي كل الوسائل ، من تشدد مع المخالفين لتطبيق مبادئ المذهب إلى العقوبات الصارمة التي تصل إلى القتل ، وإلى غير ذلك كما عرفنا آنفا . ولذلك فمن الطبيعي أن يستخدموا سلاح الجدل العلمي ويشرعوه في وجه مخالفيهم من السنة ولاسيما وهم الذين اصطبغ معتقدهم بمظهر فكري جدلي . ومن هنا فقد

رأى الخليفة عبيدالله أن تصارع الفكرة الفكرة ويجادل الرأي الرأي . وهذا أمر أشار إليه داعيته أبو عبيدالله الشيعي بكل وضوح عندما عارض تشدد شقيقة المكنى بأبي العباس في معاملة الناس فقال له) أن دولتنا دولة حجة وبيان ، وليست دولة قهر واستطالة) (١) .

ولعل أول ذكر يصادفنا لتلك المناظرات العلمية بين الفريقين هو ما أشار إليه بعض المؤرخين من مناظرة أبي العباس الشيعي للفقيه المالكي أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الضبي المعروف بابن البرذون (ت : ٢٩٧هـ)(٢) ، في مسألة التفضيل، أي تفضيل علي بن أبي طالب رضي الله عنه على الصحابة بما فيهم الصديق والفاروق رضى الله عن الجميع .

وفي الحق فإن تلك المناظرة لم تقع مواجهة بين أبي العباس ، وابن البرنون ، غير أنه حفظ عن ابن البرذون أنه كان يقول : (كان علي بن أبي

(١) أحمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ : ص ٣٢ .

(٢) ذكر كل من المالكي : نفسه ،ج٢ ، ص ٤٧ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٦٣ – ٢٦٤ – أن مقتل ابن البرنون كان عام ٢٩٩هـ – وقد أشار محقق كتاب الجزء الثاني من المعالم محمد الأحمدي أبو النو ومحمد ماضور بأن ذلك خطأ لان أبا العباس الشيعي الذي أمر بقتلهما قتل عام ٢٩٨هـ مع أخيه أبي عبدالله ورّجحا أن مقتل ابن البرنون كان عام ٢٩٧هـ ولاشك أن هذا الترجيح موافق للصواب ، فإلى جانب ماذكراه فإنني قد تاكدت من ذلك يقيناً عندما أشار أبو العرب التميمي في كتابه المحن ، ص ٢٩٥ ، إلى أن مقتل ابن البرنون وابن هذيل كان عام ٢٩٧ هـ ولاشك أن تحديد أبو العرب ذلك ، تحديد دقيق لانه أقرب للحدث وربما يكون قد عاصره . فهو كما عرفنا سابقاً قتل عام ٣٣٣هـ في موقعة وادي الملح المذكورة سابقاً التي وقعت مع الشيعة .

طالب رضي الله عنه يقيم الحدوب بين يدى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،ويعينه على أموره . فلو لم يكن عنده إمام هدى ، مستحقاً للتقدمة ، مافعل مافعل) (١) ويبلغ قوله لأبي العباس الشيعي . فيرد عليه قائلا : (كان يوسف الصديق من أعوان العزيز بمصر ، يعينه في أموره ،فماكان فيه نقص ليوسف ولازيادة في مقدار العزيز). ثم نراه يأمر بقتله . (٢) .

ومع هذا فإن الرأي في جواب أبي العباس الذي يبدو ككلمة حق أريد بها باطل يكمن في أن الفقيه المالكي لم يقل كلامه ذلك عبثا ، فقد كانت قضية التفضيل قائمة وقتذاك على قدم وساق ، ولم يكن الأمر يقتصر على ذلك ، وإنما كان يجر إلى الطعن على الخليفتين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . ولذلك فما كان الفقيه المالكي الذي (كان بارعاً في العلم يذهب مذهب النظر) (والذي لم يكن في شباب عصره أقوى على الجدل والمناظرة وإقامة الحجة على المخالفين مثله) (٣) نقول ما كان له أن يسكت عن ذلك . فكان أن تفوه بما تفوه به وكانت النتيجة أن عد ذلك سبباً من أسباب مقتله كما لاحظ ابن ناجي مكمّل ومعلّق كتاب المعالم (٤) .

وموقف أخر أو لنقل مناظرة أخرى تولى أمرها أبو العباس الشيعي كـذلك . ونحـن وإن لم نطلع على تفاصيـل مادار فيهـا . إلاّ أننا عرفـنا ما

---

(١) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦١ – ٢٦٢ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦٢ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٤٧ .

(٤) كان ابن ناجي مكمل ومعلّق كتاب معالم الإيمان دقيقاً في روايته لهذه الحادثة فقد أوضح بأن ذلك السبب كان أحد أسباب مقتله ، ولكنه لم يكن السبب كله ، أنظر الدباغ : نفسه ،ص ٢٩٤ .

تمخض عنها من رد فعل ، إذ يروى الخشني (١) أن الفقيه المالكي أبا بكر القمودي المعروف الفيلسوف (كان حاد القنا بصيراً بوجوه الكلام عارفاً بأبواب المناقضة متدربا في صنعة المعارضة) ناظرة أبو العباس الشيعي ذات مراة مناظرة أفحمت الداعي الشيعي وأحرجته . وقد أدى هذا بأبي العباس إلى أن يتهدَّد أبا بكر ويتوعده : (ويحرك له أصبعه ، ويقول له: وإنك لتظهر لأهل البيت ما أرى منك من البغضاء وتنصب في توجيه أمرك ما أسمع من حجاجك) ولم يكن أمام أبي بكر وقد خشى على نفسه سوى الاعتذار ، والتقرب إليهم تقية ، فولوه أمر السكة ، ورياسة دار الضرب بالبلاد . (٢)

أما المناظرات العلمية الدامغة التي لقيت شهرة عريضة آنذاك فهي التي تصدى لها الفقيه المالكي الأشهر سعيد بن الحداد (ت : ٣٠٢هـ) وكان أبو العباس أحد أطرافها الرئيسين . تلك المناظرات تفاوتت عدداً وموعداً ومضموناً وهي التي وفَّرت لسعيد بن الحديد سمعة وصيتاً عريضاً ، وثناءً وافراً من قبل معاصريه ، ومن قبل مؤرخي التراجم والطبقات ، فلقد أكبر الجميع فيه شجاعته في التصدي للمد الشيعي الخطير ، وأكبروا فيه قدرته العلمية الفائقة التي تعتمد على زاد لاينفذ من التفهم للشريعة الإسلامية السمحة ، من تمكُّنٍ من قواعد الجدل والمناظرة ، بل لقد غفروا له

---

(١) نفسه : ص ٢١٤ .

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ص ١٥١ – ١٥٨ .

تمذهبه وقتاً من الأوقات بالمذهب الشافعي (١) - حتى ولو بدون تقليد - وتبدلت نظرة رفقائه الفقهاء فيه إلى اعجاب وتقدير .

وقبل أن نتعرض لظروف تلك المناظرات وموضوعاتها ، علينا أن نعرف بابن الحداد ، فهو أبو عثمان : سعيد بن محمد الغساني المعروف بابن الحداد نسبة إلى جدة لأمه . وقد سمع لعدد من الشيوخ مثل سحنون بن سعيد وغير ه وسمع منه عدد من شيوخ إفريقيَّة من أمثال ابنه عبدالله ، وأبو العرب التميمي وأحمد بن موسى النمار وغيرهم . وقد مال إلى مذهب الشافعي من غير تقليد، ممَّاحدا ببعض الشيوخ إلى تنقُّصه ، وقد أشتهر بأنه (كان أحد رجال زمانه في المناظرة والرد على الفرق مقدماً في ذلك) (٢) . وقال الدباغ (٣) : (وكان مذهب أبي عثمان المناظرة وفهم القرآن والمعرفة بمعانيه ، وأخبرني بعض أصحابه أنه سمعه كان يقول : ما حرف من القرآن إلاَّ واعددت له جواباً ولكن لم أجد له سائلاً) وروى الخشني (٤) عنه فقال : (كان أبو عثمان هذا قليل الاشتغال بجمع الكتب وبالرواية ، وكان يقول : إنما هو النظر والخبر ، فلو دخلت المشرق ما كانت له فيه حاجة غير الخبر) ويمتدح الزبيدى في طبقات النحويين واللغويين (٥) سعيداً ، ويثنى على اقتداره في علم الجدل والمناظرة ، ويشهد بعلو كعبه في

---

(١) أنظر قبل ، ص ٣٥١ .

(٢) الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٩٥ .

(٣) نفسه : ج٢ ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٤) نفسه ، ص ٢٠١ .

(٥) ص : ٢٣٩- ٢٤٠ .

علوم اللغة .

وفي انتصابه للرد على الشيعة ، يقول عنه الخشني (١) . (وكانت لأبي عثمان مقامات كريمة ومواقف محمودة في الدفع عن الإسلام ، والذب عن السنة ، ناظر فيها أبا العباس المخدوم (٢) أخا أبي عبدالله الشيعي الصنعاني ، بملء فمه ومنى نفسه مناظرة القرن المساوى ، بل مناظرة المتعزّز المتعالي ، لم يتلعثم لفظاعة المقام ولا أحجم لهيبة السلطان ، ولاخاف ماخيف عليه من سطوة الحدثان ، ولقد قال له ابنه محمد يوماً اتق الله في نفسك ولا تبالغ في مناظرة الرجل ، فقال له حسبي من له غضبت وعن دينه ذبت) .

ولقد سأله كثير من أصحابه أن يلجأ إلى التقية ، أي مجاراة الشيعة، ولكنه رفض قائلا : (إني أربيت على التسعين . ومابي إلى العيش من حاجة، وقتيل الخوارج (٣) ، خير القتلى ، ولابد لي من المناظرة والمناضلة عن الدين ، وأن أبلغ ذلك عذرا . ففعل ذلك وصدق ونصح ، رحمه الله) (٤)

---

(١) نفسه ، ص ٢٥٧ – ٢٥٨ .

(٢) لعله خطأ مطبعي أو سهو من الخشني ، وإلاَّ فالمشهور أنه كان يعرف بالمخطوم ، وبذلك وصفته معظم المصادر السنية ووصفه القاضي النعمان : افتتاح الدعوة ، ص ٣٠٦ – ٣٠٧ بهذا الاسم– وكذلك وصفه جعفر الحاجب : سيرة جعفر الحاجب ص ١١٦– أما المصادر السنيه فقد ذكرت ذلك كلما ورد ذكر أبي العباس ، ممَّا يصعب علينا الإشارة إلي مواضع ذلك .

(٣) هو يعني بلا شك : الشيعة ولا نعرف سر إطلاقه اسم الخوارج عليهم إلاَّ إذاً فهم منه الخروج عنه الشريعة السمحة الواضحه .

(٤) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٤١ .

ويقول الدباغ (١) : (وكان يرد على أهل البدع المخالفين للسنة ، وله في ذلك مقامات مشهورة وآثار محمودة ، ناب عن المسلمين فيها أحسن مناب ، حتى مثلة أهل القيروان بأحمد بن حنبل أيام المحنة). (ولم يدخل في قلوب القوم له من الإجلال والمهابة مادخل لسعيد الحداد) كما يقول الخشني (٢) أيضاً .

ولقد استدعى أبو عثمان سعيد بن الحداد أكثر من مرة من قبل الخليفة المهدي وداعيته أبي العباس وأبي عبدالله الشيعيين ومن قاضيه محمد بن عمر المروذي (٣) ، وعقدوا وأياه عدّة مجالس مناظرة ، وكانت هذه المجالس تضم أحياناً الداعيتين معا ، كما أن أبا الأسود موسى القطان (٤) وهو أحد فقهاء المالكيه كان يشارك سعيداً الحداد في بعض تلك المجالس حسبما سنعرف بعد قليل .

والقضايا التي دارت حولها تلك المناظرات كانت متعدِّدة ، ولكنها لم تخرج عن عكس وجهة نظر الشيعة في مبادئ مذهبهم الشيعي السياسية والفقهية والعقائدية التي كنا قد أشرنا إليها من قبل . ونحن لن نورد كل تلك

---

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٢٩٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢١٤ .

(٣) محمد بن عمر المروذي (ت : ٣٠٣هـ) فقيه حنفي تولى القضاء للخليفة الفاطمي الأول : المهدي . وقد لقى منه السنة عنتاً كبيراً ، ولقد أمر الخليفة بقتله بعد أن جار الناس بالشكوى منه . أنظر المالكي : نفسه ، ج٢ ،ص٤١ مع الحاشية رقم ١٨٤ من نفس الصفحة ، ص ٥٢ -٥٤- ابن حماد أخبار ملوك بني عبيد ، ص ٥٢ .

(٤) أنظر ترجمته قبل ، ص ٣٤٨ .

المجالس . ولكننا سنمضي بتسليط الضوء على أهم ماتضمنه كل مجلس من قضايا .

ولعل أولى تلك المجالس ، ما أشار إليه مفصلاً المالكي (١) ، وذلك عندما بعث الداعي أبو عبدالله الشيعي يستدعي سعيداً بن الحداد ، وكان المجلس يضم أحد فقهاء القيروان الذي كان متولياً لقضاء إفريقيَّة قبيل قيام الدولة الفاطمية ، ولماضمَّهم المجلس شرع أبو عبدالله يسأل القاضي المالكي عن السنة ومعناها ، فتلجلج القاضي في الإجابة ، فما كان من سعيد بن الحداد إلاَّ أن تصدى للإجابة فأوضح له ما تعنيه السنة في كلام العرب مستشهداً في ذلك بالشعر ، ثم تطرق إلى معناها الاصطلاحي .

ولقد تشعب عن تلك المناظرة وذلك الرد من سعيد بن الحداد الكثير من القضايا بين الرجلين ، فقد تساءل أبو عبدالله عن الطرق التي انتقلت عنها السنة أي الأسانيد ؟ فأجابة سعيد إجابة مقنعة ، ثم سألة عن القياس وما هو دليل السنة عليه ؟ فأجابة كذلك إجابة مفيدة معتمداً ومستشهداً بآيات من كتاب الله تعالى .

وعندما تطرق الحديث عن الخمر وحدها سأل أبو عبدالله الشيعي أبا الأسود موسى القطان الذي كان مرافقاً لسعيد بن الحداد أن يأتيه بالدليل من القرآن ، غير أن موسى القطان أجابه مستشهداً على وجوب الحد بحديث الرسول ﷺ المعروف الذي ينص على

---

(١) نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٧٩-٨٦(وهو أطول المجالس التي عقدها سعيد الحداد مع الشيعة) .

الحد (١) ممَّا جعل الشيعي يستشيط غضباً ويقول له معنتاً : أطالبك بدليل من القرآن ، وتأتيني بحديث ؟ فتدخل سعيد الحداد في الحوار ، موضحاً السبب الذي حدا بأبي الأسود أن يجيب مستشهداً بالحديث ثم تطرق الحوار بينهما كذلك إلى موضوع الحديث الذي ورد عن الرسول ﷺ في وصفه كبار أصحابه بأوصافهم العظيمة (٢) فأثار أبو عبدالله مسألة قول الرسول ﷺ في علي بن أبي طالب : وأقضاكم علي ، ولقد فهم موسى بن القطان من ذلك حطًّا من مكانة بقية الصحابة ، فكرر على أسماعه نص الحديث ذلك الذي يتضمن مدحاً لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما . غير أن أباعبدالله أخذ ينكر على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ماقيل عن هروبة بالراية يوم حنين - هذه رواية الشيعة - (٣) ولذلك فهو غير حقيق أن يكون أشد الصحابة في دين الله - وهو ماورد في الحديث عن الرسول ﷺ - ولم يكن من أبي موسى القطان وسعيد الحداد إلاَّ الرد عليه رداً علمياً موثوقاً .

وفي نفس المجلس آثار أبو عبدالله ماجاء في القرآن الكريم على لسان

---

(١) هذا الحديث ، هو الذي رواه الإمام أحمد في المسند ٩ : ٤٩ ، رقم ٦١٩٧ « عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال : من شرب الخمر فاجلدوه فإن شربها فاجلدوه ، فإن شربها فاجلدوه . فقال في الرابعة أو الخامسة فاقتلوه » .

(٢) هذا الحديث لم يروه من أصحاب السنن سوى الترمذي في صحيحه رقم ٣٨٧٩. وقد خرجه صاحب المقاصد الحسنة ص ٤٧ ، وصاحب كشف الخفاء ، الجزء الأول ،ص ١١٧ . أنظر الحاشية رقم ٢٨١ ص ٧٩ من الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس بقلم المحقق بشير البكوش.

(٣) أنظر رواية أهل السنة ، المخالفة لذلك والتي تروى على العكس من ذلك أن عمر بن الخطاب كان من ضمن الذين ثبتوا مع الرسول ﷺ . أنظر حاشية رقم ٢٨٢ ص ٧٩ من الجزء الثاني من رياض النفوس بقلم المحقق بشير البكوش .

الرسول ﷺ من قـوله لأبي بكر { لا تحـزن إن الله مـعنا } (١) ذلك لأن الشيـعـة كانــوا يرون أن حـزن الصـديق (كـان مـسخـوطاً (٢) ، لأن الرسول ﷺ نهاه عنه) (٣) فرد عليه أبو عثمان رداً وافياً ، ثم أثيرت مسألة البـغض والحب لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه، و مسألة ضرورة إطلاق لفظ ﷺ ، ومسألة الولاية .. الخ . ولقد أجاب سعيد عن كل هذه القضايا إجابات موفقة محمودة .

ومجلس ثان (٤) ، وقد تعمَّد أبو العباس الشيعي أن يستدعى سعيداً ابن الحداد ليستفزه ، وفي هذا المجلس كان أبو العباس يثير قضية جدلية عن العـالم وأنه أعلم من المتـعلم أبداً ، وذلك للتـوصل للطعن بأبي بكر الصديق الذي كان يعتمد كثيراً على قضاء علي بن أبي طالب ، وفتاويه . فلم يسع سعيد سوى تبيان حقيقة الموقف معتمداً على أدلة القرآن الكريم ، ومن الواقع ، وقـاد الحديث عن هذه المسـألة إلى قـضـايا أخـرى لغـوية كالاستفهام عن المقصود بالمحصنَّات ، هل هن المتزوجات ، أم العفائف ؟ وفي كل ذلك كان سعيد يجيب إجابات سديدة موقفه مضمناً حديثة بعض آيات من القرآن ومستشهداً ببعض أحاديث تفيد المعنى . كما جرَّ الحديث إلى قضايا أخرى طويلة ، كان سعيد فيها العلم المبرز .

(١) سورة التوبة ، آية رقم ٤٠ .

(٢) هذا تعبير المالكي ، ولعله يقصد أن الشيعة كانوا يرون أن أبا بكر قد استحق سخط الرسول ﷺ عندما أبدى الحزن في الغاز) .

(٣) المالكي : نفسه ،ج٢، ص ٨١ .

(٤) المالكي : نفسـه ، ص ٨٦-٩٦ وهو مجلس طويل ، ويأتي في المـرتبـة الثـانيـة كـثيـرة بين تلك المجالس) .

ومجلس ثالث (١) ، وكان مع الخليفة المهدي ، وقد بعث إليه بغرض مناظرته . وفي هذا المجلس أثار الخليفة ، مسألة الولاية ، أي ولاية علي بن أبي طالب ، وماجاء في حديث غديرخم عن الرسول ﷺ : (من كنت مولاه ، فعلى مولاه .. الخ) (٢) ولذلك فقد تساءل الخليفة وهو الذي ينتسب إلى الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنه : لِمَ لا يكون الناس عبيداً لنا . فأجابه أبو عثمان عما تعنيه كلمة الولاية لغة واصطلاحاً ، معتمداً في ذلك كله على ما تدخره ذاكرته من الآى والأحاديث وأمثال العرب وكلامهم .

ومجلس رابع (٣) ، وكان الداعي إليه هذه المرة القاضي محمد بن عمر المروذي ، وقد أثيرت فيه مسألة قيام رمضان أوصلاة التراويح ، وتركَّزت حجة القاضي على أن قيام رمضان أوصلاة التراويح ، كان بأمر عمر بن الخطاب ، ولذلك فهو بدعة في نظر الشيعة . فما كان من سعيد بن الحداد إلاَّ أن أوضح له ، أصل البدعة ، مستشهداً بآي من القرآن بشأن البدعة الحسنة ، ولم يملك المروذي سوى أن يختتم المجلس بالتهديد بقتل كل من صلى صلاة القيام ، ممَّا جعل سعيد بن الحداد يذكره بما قاله له في أول المجلس عن عدم الحاجة إلى المناظرة ، لأنه يعرف ماستسفر عنه (٤) .

---

(١) المالكي : نفسه ،ج٢، ص ٥٨ – ٦٠ .

(٢) لم يرو هذا الحديث من أصحاب السنن سوى الترمذي في جامعة (حديث رقم ٣٧٩٧) وابن ماجه في سننه (حديث رقم ١٦، ١٢١) والإمام أحمد في مسنده ، ج ٤ ، حديث ٣٦٨) أنظر حاشية رقم ٣٣ من ص ٥٩ من الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٦٠-٦١ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٦٢ – ٦٣ .

ومجلس خامس ، مع أبي عبدالله الشيعي كذلك ، وقد ثارت فيه قضايا عدة . فقد ذكر الداعي مسألة خطيرة ، وهي زعمة بأن القرآن يقرّ بأن محمداً ليس بخاتم النبيين ، فلما قال له سعيد ومن أين جاء بذلك القول؟ قال أبو عبدالله : من قوله تعالى ﴿ .. ولكن رسول الله وخاتم النبيين ﴾ (١) فخاتم النبيين غير رسول الله فقام سعيد له موضحاً بأن تلك الواو ليست كمايظن من واوات الإبتداء ، بل هي من أدوات العطف كقوله تعالى ﴿ هو الأول والآخر * والظاهر والباطن * وهو بكل شيءٍ عليم ﴾ (٢) ، ثم سألة : فهل من أحد يوصف بهذه الصفة غير الله عز وجل ؟ وفي هذا الصدد يروى المالكي أن سعيداً تكلم يوماً عند أبي عبدالله كلاماً جعل أحد رجالات الدولة الذي كان حاضراً المجلس يغضب ، حتى أنه هم بقتل سعيد فمنعه أبو عبدالله من ذلك . ثم التفت أبو عبدالله لسعيد معتذراً طالبا منه عدم الغضب موضحاً له قيمة ومكانة ذلك الرجل ، وأنه إذا غضب غضب له اثنا عشر ألف سيفاً ، أي يغضب لغضبه أنصاره الكثر ، فقال له أبو عثمان (ولكن أنا يغضب لغضبي الله الواحد القهار الذي أهلك عاداً و ثموداً وأصحاب الرس وقروناً بعد ذلك كثيراً) (٣)

وأخيراً ، فإذا كان لنا من تعليق على هذه المجالس ، فهو أن تلك المجالس لم تشر إليها سوى المصادر السنية وخاصة

(١) سورة الأحزاب : آية رقم ٤٠ .

(٢) سورة الحديد : آية رقم ٣ .

(٣) تضمين للآية ٣٨ من سورة الفرقان .

كتب الطبقات والتراجم المغاربة المعاصرين من أمثال محمد بن حارث الخشني (١) ، وأبي بكر المالكي الذي كان يعيش قريباً من ذلك العصر . أما كتب الشيعة المعاصرة فلم تشر إلى تلك المجالس . وكل ما استطعنا العثور عليه في كتاب افتتاح الدعوة (٢) وهو أن أبا العباس الشيعي قد تصدى لمناظرة بعض فقهاء المالكية فأفحمهم وأسكتهم . فهل هي هذه المناظرات التي أشرنا إليها ، أو إلى بعضها ؟ وهل حقيقة أن أبا العباس قد أفحم فقهاء المالكية ، أما أنهم هم الذين غلبوا ؟

ومهما يكن ، فقد افتقدنا بعد ذلك أي ذكر للمناظرات أو للمجالس العلمية عند مؤرخي التراجم والطبقات طوال بقية الدور المغربي للخلافة الفاطمية . غير أننا مانلبث أن نرى في عهد الزيريين وخاصة أولهم بلكين بن زيري (٣٦٢- ٣٧٣هـ) إصراراً على استفزاز علماء المالكية واستدراجهم للمناظرة والمجادلة . فكان أن تصدى له العالم القيرواني المشهور أبو محمد عبدالله بن اسحاق المعروف بابن التبان (ت : ٣٧١هـ) كما عرفنا سابقاً .

وتولى أمر الدعوة للمناظرة عامل القيروان في عهد بلكين المعروف بابن المحتال ، فقد طلب هذا العامل من فقهاء المالكية مناظرته في بعض القضايا . ولقد بادر ابن التبان فطلب من رفقائه ان يتيحوا له الفرصة للذهاب إلى العامل ومناظرته ليبيع روحه دونهم حسب قول عياض في

---

(١) أنظر تلك المجالس في كتابه : السابق نفسه ، ص ٢٥٧، ومابعدها .

(٢) ص ٢٤٣- ٢٤٤ .

مداركه . (١) ولندع عياضاً (٢) يروى لنا نص ما دار في ذلك المجلس : (ويقال إنه قال لعبدالله : لما دخل عليه جئتك عن قوم إيمانهم مثل الجبال ، أقلهم يقيناً أنا فحدث بعض من حضر ، قال : كنت مع عبدالله، وقد احتفل مجلسة بأصحابه ، وفيهم الداعيان : أبو طالب ، وأبو عبدالله (لعنهم الله)(٣) وقد وجه إلي ابن التبان ، فإذا به داخل وعيناه توقدان ،كأنهما عيناشجاع ، فدخل وسلم ، فقال أبطأت عنا يا أبا محمد ، فقال : في شغلك . كتاب ألفته في فضائل أهل البيت الساعة . أتاتى به المجلد ودفعه إلي . فقال : يا أبا محمد ناظر هؤلاء الدعاه قال : في ماذا ؟ قال في فضائل أهل البيت فقال لهما : ما تحفظان في ذلك . قال له أبو طالب : أنا أحفظ حديثان - ولحن - ، ثم سأل الآخر ، فقال له : وأنا أحفظ حديثان ، فقال : فيما ذان الحديثان اللذان تحفظ أنت ؟ فقال له : هما يحفظان حديثان - ونطق بلحنهما - وأنا أحفظ في ذلك تسعين حديثاً ، فأولى بهما الرجوع إلي . ثم قال أبو عبدالله : يا أبا محمد ، من أفضل أبو بكر أو علي ؟ قال : ليس هذا موضعه ، فقال : لابد ، فقال : أبو بكر أفضل من علي : فقال عبدالله : أيكون أبو بكر أفضل من خمسة جبريل عليه السلام سادسهم؟ فقال أبو محمد : أيكون علي أفضل من اثنين ، الله ثالثهما (٤)؟

---

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٥٢١ - ٥٢٢ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ٥٢٢ - ٥٢٤ .

(٣) هذا هو قول عياض الذي استمطر (اللعنات على الشيعة) .

(٤) أشارة إلى الآية الكريمة { ثاني إثنين إذهما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا } آية ٤٠ من سورة التوبة .

أني أقول لك مابين الوجهين ، وأنت تأتيني بأخبار الآحاد ، فضاق عبدالله ، وقال : فمن أفضل عائشة أو فاطمة فقال له : هذا آخر سؤالك الأول ، قال : لابد، قال عائشة رضى الله عنها وسائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من فاطمه قال من أين ؟ فقال له قال الله تعالى: ﴿ يانساء النبيّ لستن كأحدٍ من النساء إن إتقيتن ﴾ (١) فيقال إن بعض الدعاة قال له في هذه المسألة . أيما أفضل امرأة أبوها رسول الله ﷺ ، وأمهاخديجة الكبرى ، وزوجـهـا علي بن أبي طالب ابن عم رسـول الله ﷺ ، وولداها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، أو إمرأة أمها أم رومان وأبوها عبدالله بن أبي قحافة ؟ فقال له أبو محمد : أيهما أفضل عندك ، امرأة إذا طلقها زوجها ، أومات عنها تزوجها عشرون زوجاً ، أو امرأة إذا مات عنها زوجها أو طلقها لم تحل لأحد فيحكى أن أبا عبدالله قال له : يا أبا محمد أنت شيخ المؤمنين ، ومن يوثق بك . أدخل العهد وخذ البيعة . فعطف عليه أبو محمد وقال له : شيخ له ستون سنة ؛ يعرف حلال الله وحرامـه ، ويرد على اثنين وسبعين فرقة . ويقال له هذا ؟ لو نشرت بين إثنين . مافارقت مذهب مالك ، فلم يعارضه) .

وفي نفس الفترة نرى حدوث مواجهة علمية أكثر منها مناظرة تقع بين أحد شيوخ المالكية وأحد رجالات الشيعة . فقد روى عياض أن الفقيه المالكي عمر بن خلف المعروف بابن أخي هشام الربعي الخياط (ت ٣٧١هـ)

---

(١) سورة الأحزاب آية رقم ٣٢ .

ناظـره بعضــهم فقال له : أنتــم تقولون من سب عائشة قتل . والله يقول : ﴿ والذين يرمـون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شـهـداء .. ﴾ (١) الآيـة والرسول إنما جلد أصحاب عائشة : فلم تأخذوا بالقرآن ولا بالسنة ! فقال له أبو سـعيد : قال الله تعالى : ﴿ أولئك مبـرءون مما يقـولون ﴾ (٢) ليضرب مثل البرآءة بما في القرآن وبعد القرآن من سبها فقد رد القرآن . ومن رد حرفاً منه فقد كفر باجماع) (٣)

وفي عهد الأمير المعز بن باديس الصنهاجي ، حدثت مناظرة علمية حول الشيـعة ومبـادئهم ، ولكنها في هذه المرة وقعت بين فـقـهاء المالكيـة بعضهم بعضاً ، وذلك أن الفقيه أبا اسحاق ابراهيم بن الحسن التونسي استفتى في أمر الشيعة وشرعية معاملاتهم ، وذلك عام ٤٣٧هـ ، فأفتى بأن الشيعة على ضربين : الأول (كافر مباح الدم والضرب) ، والآخر (الذين يقولون بتفضيل علي بن أبي طالب على سائر الصحابة لا يلزمهم الكفر ، ولاتبطل نكاحاتهم) (٤) .

وبالطبع فقد أغضبت هذه الفتوى فقهاء المالكية الذين كانوا متشددين مع الشيعة لاسيما بعد أن لمسوا من المعز بن باديس الرغبة في التخلص من المذهب الإسماعيلي ، ولذلك فقد طلبوا منه العدول عن فتواه ولكنه رفض ،

---

(١) سورة النور ، آية رقم ٤ .

(٢) سورة النور آية رقم ٢٥، ٢٦ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٤٨٩ – ٤٩٠ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٧٦٦– ٧٦٧ .

فرفع الموضوع إلي المعز الذي استدعاه ونقراً من فقهاء المالكية للمناظرة بحضوره (١) . ولندع عياضاً (٢) يقص علينا تفاصيل تلك المناظرة ، فقد ذكر أن المعز لما استدعى العلماء لمناظرة أبي إسحاق وناظروه) فأظهر الإنابة إلى قولهم ، والرجوع إليهم ، ثم خلا أصحابه ، فأنكروا عليه رجوعه عن قولهم ، وأنه الحق الذي لايجب سواه ، وكان رأى الفقهاء سد هذا الباب للعامة على هذه (الكفرة) وأن بنى عبيد زنادقة ، وأن الداخل في دعوتهم وإن لم يقل بقولهم ، كافر لتوليه الكفرة) .

ومهما يكن من أمر فقد تمسك أبو اسحاق بفتواه السابقة مماً أثار حفيظة الفقهاء والعامة عليه ، لاسيما وأن فتواه تلك قد استحسنت لدى الشيعة ولذلك فقد رماه الفقهاء بالتضليل والتبديع ، وحركوا عليه الشعراء ينتقدونه ، حتى أدى الأمر بالمعز إلى إنشاء سجل يحكى واقعة أبي اسحاق، ويعلن التبرؤ من قوله له وأمر بقرآته على منبر القيروان في أحد أيام الجمع من عام ٤٣٨ هـ ، قبل الصلاة (٣) .

(ثم أمر السلطان باحضاره في ذلك اليوم ، إثر الصلاة وأحضر معه الفقيه أبا القاسم اللبيدي في بقية مشيخة الفقهاء وكبيرهم ، والفقيه أبا الحسن بن المغربي والقاضي أبا بكر بن محمد بن أبي زيد ، خاصة من بين سائر الفقهاء ، وكان هذان الفقيهان من أشد الناس ، وحكم في المسألة

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٦٧ .

(٢) نفسه ، ص ٧٦٧ -٧٦٨ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٧٦٨ .

اللبيدي ، فحكم بأن يقر بالتوبة على المنبر بمشهد جميع الناس ، وأن يقول، كنت ضالاً فيما رأيته ونطقت به ، ثم رجعت عن ذلك إلى مذهب الجماعة ، فكانوا على ذلك . وكأنه استعظم الأمر على المنبر ، وقال ها أنا أقول هذا بينكم . فساعدوه وقنعوا منه يقول ذلك بحضرة السلطان والجماعة ، وأن يقوله في مجلسه ويشيعه عن نفسه ، فافترقوا على ذلك) . (١)

ويعلق القاضي (٢) عياض بأن الأمر الذي لاجدال فيه أن الحق هو ماقاله أبو إسحاق غير أنه أخطأ في إصراره على فتواه لأن (رأي الجماعة كان أسد للحال وأولى بعائدة الخير) .

---

(١) عياض : نفسه ،ص ٧٦٨ .

(٢) نفسه .

الفصل الرابع

الدراسات الأدبية واللغوية

- مدخل
- النثر
- الشعر
- اللغة والنحو

مدخـــــــل :

قبل أن نتصدى للحديث عن الدراسات الأدبية واللغوية في إفريقية خلال الفترة الزمنية التي اخترناها رحاباً زمنياً للرسالة . نجد لزاماً علينا أن نلقي الضوء على العوامل التي أثَّرت في مسيرة هذه الدراسات وقتذاك سلباً وايجاباً ، ثم التعرض في إيجاز لملامح الحركة الأدبية واللغوية ذاتها ، ورصد اتجاهاتها وتطوراتها .

إن المتتبع للحركة الأدبية في إفريقية سيلحظ دون ريب أن الاهتمام بالدراسات الأدبية واللغوية هناك قد تأخر لفترة طويلة نسبياً ، لكنه سيلحظ أيضاً أن الاهتمام بتلك الدراسات مالبث أن أخذ حقه بعد ذلك ، فانبعثت نهضة أدبية ، ازدهرت وتطورت ، بل بلغت من الإزدهار حداً جعلها تحتل مكاناً مرموقاً في مسيرة الحركة الأدبية العربية عموماً وتسهم في إثرائها كما سنعرف بعد .

وإذا أردنا مناقشة أسباب تأخر الإهتمام بالدراسات الأدبية الذي طال أمده أكثر من قرن ونصف قرن ، أي منذ المحاولات الأولى للفتح وحتى قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤هـ التي يعد قيامها نقطة تحول مهمة في تاريخ إفريقية لوجدناها تتدرج في عناصر مختلفة صبغت الحركة الأدبية بصبغتها آنذاك .

فبادئ ذي بدء نجد أن بلاد المغرب انفردت دون غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى بأن مدة فتحها قد طالت كثيراً ، وأن العرب لم يتمكنوا من أحكام سيطرتهم على هذه البلاد ، إلاّ بعد سبعين عاماً من المحاولات

الأولى للفتح كما هو معروف تاريخياً .

ومن المؤكد أنه في ظل طول أمد الفتح ، وما رافق ذلك من اضطرابات وفتن ، لم يكن من اليسير أن يظهر أي نشاط أدبي وقتذاك . كما أن من الطبيعي أن يكون إهتمام الفاتحين العرب مصروفاً إلى نشر الإسلام والدراسات الإسلامية بين البربر أولاً وقبل كل شئ .

وبالإضافة إلى هذا ، فإن ثمة عنصراً ثانياً كان سبباً في تأخر الإهتمام بالدراسات الأدبية بل بالأدب عموماً . فعلى جهود الفاتحين العرب في نشر الإسلام واللغة العربية بين البربر ، وعلى عظم الدور العلمي الذي أدته مدينة القيروان منذ تأسيسها ، وعلى جهود البعثات العلمية ، سواءً كانت رسمية ، أو فردية ، في نشر الإسلام واللغة العربية بين السكان ، على ذلك كله ، فإن الحركة الأدبية لم يقدر لها البروز والظهور آنذاك ، صحيح أن اللغة انتشرت بين من أسلم من البربر بالضرورة - وكانوا كثرة - ، نتيجة لجهود الفاتحين والولاة ، ولأنها لغة العبادات ، ولغة التخاطب والوظائف ، ولعجز اللغة البربرية من مجاراتها بعد دخول البربر حظيرة الإسلام إلاّ أن الانتشار شئ ، وتشرب روح اللغة العربية وفصاحتها وبلاغتها شئ آخر والأدب بوصفه نتاجاً إبداعياً وجدانياً يعتمد على الموهبة والاستعداد أولاً ، ثم الحصيلة أو الخلفية الثقافية الكبيرة ثانياً ، يتطلب وقتاً طويلاً حتي تتفتح القرائح وتظهر الملكات ، وينشأ بالتالي أدب محلي ، وفي إعتقادنا أن هذا الأمر جد بدهي ، فلا يمكن أن يظهر أدب بين قوم لم يتشبعوا بعد باللغة العربية ولم يصلوا إلى درجة الانفعال بها ، كما لايمكن

أن يظهر أدب بين قوم لم يتشبعوا بعد باللغة العربية ولم يصلوا إلى درجة الانفعال بها ، كما لايمكن ذلك حتى تكون دواخلهم قد تمثّلت الأدب العربي نثراً وشعراً وأقاصيص ومسامرات في أيام العرب وغيرها .

ولقد كان من المنتظر – كما يتراءى لنا – ، بعد أن هدأت حركة الفتح وأسلم المغرب قيادته للعرب المسلمين ، أن تؤدي العوامل المساعدة لإزدهار الحياة الأدبية سواءً المباشرة أو غير المباشرة إلى ظهور حركة أدبية محلية ، لولا العوائق المعروفة التي اكتنفت بلاد المغرب ، فأخّرت الاهتمام بالدراسات الأدبية ، فالأحداث المؤسفة التي شهدتها بلاد المغرب منذ العقد الأول من القرن الثاني الهجري ، وحتى العقد الثامن منه ، من حروب دامية بين العرب والبربر من جهة ، والولاة العرب والجند العرب من جهة أخرى – كما هو معلوم . وكما سبق أن ألمحنا إليه – ، جاءت لتؤخر انبعاث نهضة أدبية محلية في هذه البلاد . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الأدب دائماً هو مرآة صادقة تعكس طبيعة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي يتفيأ الأدب ظلالها انكماشاً وتوسعاً توقفاً وازدهاراً .

وثمة عنصر أخير أدى إلى تأخر الاهتمام بالأدب والدراسات الأدبية في إفريقّية ، وهو عنصر تنفرد به إفريقية دون سائر الأمصار الإسلامية ، ويتلخص ذلك العنصر في أن الاهتمام بالدراسات الشرعية في إفريقية أسهم بطريق غير مباشر في تأخر الاهتمام بالدراسات الأدبية . وهذا القول – على ما فيه من غرابة – ، يبدو غير بعيد عن الصواب ، فتحت تأثير هبوب رياح التيارات الخارجية المتطرفة ورياح البدع والضلالات التي

انتشرت في المغرب آنذاك ، لم يكن أمام المغاربة سوى الاهتمام بالدراسات الشرعية وحدها ، فكرسوا لها جل وقتهم ، وكأنما كان الإهتمام بالدراسات الشرعية وحدها وقتذاك مطلبا دينياً - ولربما كان قومياً - أيضاً .

على أن ذلك كله لاينسينا أن ثمة حركة أدبية متواضعة كانت تتفاعل في المغرب الأدنى خلال هذه الفترة التي حصرناها بين الفتح وقيام الدولة لأغلبية ، كانت تلك الحركة ذات شقين : شق جاء عفوياً وتمثّل في تيار شعرى ، جاء نتيجة لاستعار الخلاف بين الولاة العرب والجند العرب ، فاستخدم كل من الطرفين سلاح الشعر ، وشق آخر يمكن عده بمثابة حركة أدبية وافدة سواءً بالمؤثرات التي تبنتها ، وهى انتصاب الأسرة المهلبية لحكم البلاد المغرب وخاصة يزيد بن حاتم الذي شجع الأدب والأدباء ، أو بالعناصر التي صنعتها ، وهو ما تمثل في تقاطر الأدباء واللغويين على إفريقية إما بدعوات رسمية من المهالبة ، أو برغبات فردية محضة (١) .

أما وقد أتينا على ذكر مسببات تأخر الاهتمام بالأدب والدراسات الأدبية خلال تلك الفترة التي أشرنا إليها ، فإن الوقت قد حان للتحدث عن المسببات التي أدت إلى تقدم الدراسات الأدبية ، بل وتطورها وازدهارها فيما بعد .

سبق أن ذكرنا قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤هـ ، كان نقطة تحول مهمة في مسيرة الحركة الأدبية ، وهو قول صحيح لاغبار عليه - فقيام

---

(١) عن تلك الحركة الأدبية الوافدة ودور يزيد بن حاتم فيها أنظر تقويم محمد محمد طه الحاجري : دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية ،ص ٤٩ - ٥٤ .

الدول المستقلة ومن ثم استقرارها أمر مؤثر جداً في تطور الأدب والدراسات الأدبية ، بل وفي تطور الحياة العلمية عموما(١) ، وإن كان ذلك في الأدب أبرز وأظهر . ولقد اتضح هذا بصورة جلية في إفريقية ، فما أن قامت الدولة الأغلبية واستقرت قواعدها ، حتى رأينا الدراسات الأدبية تأخذ مكانها في مسيرة الحركة العلمية ، وهو الأمر الذي توالى بعد ذلك في عهدي الفاطميين والزيريين ، ولقد أدى انفراد الأغالبة بحكم إفريقية انفراداً مطلقاً ، إلاَّ من سلطة إسمية للخلافة العباسية ، إلى انصرافهم لبناء دولة بكل مقوماتها الحضارية لهم هناك . وسمح لهم الإستقرار النسبي الذي عرفته إفريقية في عهدهم بتحقيق أهدافهم . فعمت البلاد في عهدهم نهضة شملت كافة ضروب الحياة الإجتماعية والإقتصادية والعمرانية (٢) ، وكان من الطبيعي أن تشمل الحياة العلمية ، والدراسات الأدبية اقتضاء .

ومما أدى إلى نشاط الدراسات الأدبية في عهد الأغالبة وما تلاه من عهود أن ظروفاً شتى أسهمت في ذلك كإنعدام الروح العنصرية بين البربر والعرب بل وذوبانها ، ولاسيما وأن البربر ، رأوا في قيام الدولة الأغلبية تعبيراً عن الشعور بالإستقلال كما ذكرنا سابقا (٣) . ثم الرخاء والثراء الذي أصابته الدولة من جراء فتحها لصقلية عام ٢١٣هـ ، مما ترتب عليه

---

(١) راجع ما قلناه قبل عن عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية .

(٢) عن التقدم الحضاري الذي بلغته إفريقية في عهد الأغالبة . أنظر مثلا عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ص ١٠-٤٤ .

(٣) أنظر قبل ، ص ٥٩ ومابعدها .

بحبوحة من العيش انعكست آثارها في تهيئة المناخ الصالح لتقدم الدراسات الأدبية . ولذلك انطلق أبناء البلاد سواء كانوا من البربر أو العرب إلى ابتهال تلك الظروف السانحة فملأ وا البلاد شعرا ونثرا .

ولقد زاد من اشتعال جذوة الأدب والدراسات الأدبية في عهد الأغالبة، أن الأمراء الأغالبة أنفسهم بحكم كونهم عرباً خلصاً ، كان يهزهم كما يقول محمد عبدالمنعم خفاجي (١) البيان الجيد ، وتدفعهم أريحيتهم إلى تشجيع الأدباء واللغويين والنحاة وتقريبهم . هذا إلى جانب أن معظم أولئك الأمراء كانوا يقرضون الشعر ويتذوقونه .

والحق أن الأسباب والعوامل التي دفعت بالدراسات الأدبية قدماً نحو الأمام ، كانت متعددة ، علاوة على ما أسلفنا ذكره منها . فعلى سبيل المثال نذكر من أهم تلك الأسباب توافد الأدباء والنحاة على إفريقية واستيطانهم بها ، ثم رحلات المغاربة إلي المشرق وما تضفيه من إذكاء الحس الأدبي لديهم ، ثم الرغبة في إضفاء جو من المهابة على الدولة ، إرضاء للشعورالذاتي من جهة ، وايجاد شعور بالاستعلاء والتفوق على الدول المجاورة من جهة أخرى .

وفي عصر الفاطميين تضافرت معظم تلك العوامل السابقة في تقدم وازدهار الدراسات الأدبية من استقرار سياسي نسبي ، ومن رخاء اقتصادي عميم نتج عن اتساع رقعة البلاد بضمها أجزاء واسعة من المغرب الكبير ، إلى الرغبة في تشجيع الأدب ورجالاته ، إلى تمتع خلفاء الفاطميين

---

(١) قصة الأدبية في ليبيا من الفتح الإسلامي إلى اليوم ، الجزء الأول ، ص ٦٢ .

أنفسهم بالحس والذوق الأدبي ، ولاسيما أن معظمهم ممن قرض الشعر وتذوقه ، إلى الرغبة الطاغية في جعل بلاطاتهم أكثر توهجاً وتألقاً من بلاطات العباسيين في بغداد والأمويين في قرطبة إضافة إلي تأثير عوامل إزدهار الحياة العلمية سالفة الذكر التي ألمحنا إليها من قبل .

بيد أن الباعث الرئيسي الذي أسهم في تنشيط الحركة الأدبية في عصر الفاطميين بالإضافة لما ذكر ، هو باعث الاختلاف المذهبي الذي أفاد الحركة الأدبية أيما إفادة . فلقد نشط الفاطميون في الترويج لمبادئ مذهبهم فاصطنعوا العديد من الأدباء والشعراء واللغويين يمجدون دولتهم ويمتدحون مذهبهم ويغالون في إضفاء صفة الإجلال والمهابة عليهم . وحفز ذلك أدباء وشعراء البلاد ممَّن تمذهبوا بالمذهب المالكي ، – وهو مذهب الأغلبية العظمى –، إلى الإنبراء للتصدي لأولئك الأدباء المحسوبين على الدولة بنفس سلاحهم الذي شرعوه ، وهو سلاح الأدب ، فكان أن أوجد ذلك كله تياراً أدبياً قوياً نشطاً . فاتسعت بالتالي البحوث اللغوية والأدبية ، وأصبحت سوق الأدب نافقة في عصرهم (١) .

أما عصر الزيريين ، فلم يكن إلاَّ الثمرة الناضجة التي تكونت نتيجة لتضافر معظم العوامل السابقة التي أشرنا إليها ، والتي أسهمت في انبعاث وتقدم النشاط الأدبي في العصرين السابقين ، علاوة على تأثير

---

(١) حول تأثير العامل المذهبي في إثراء الدراسات الأدبية واللغوية في إفريقية في عصر الفاطميين وللاستزادة ، أنظر محمد عبدالمنعم خفاجي : قصة الأدب في ليبيا ، ج١، ص ١١٣ – ١١٧– عبدة قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي ، ج١ ، ص ٣٥– رابح بونار : المرجع السابق ، ص١٨٥، ٢٥٢ –٢٥٣، ٢٨١ .

عوامل ازدهار الحياة العلمية الطبيعية التي أشرنا إليها سابقاً .

بيد أن إزدهار الحركة الأدبية وتطورها في عصر الزيريين لم يكن نتيجة للعوامل السابقة التي كانت قدراً مشتركاً بين العصور السابقة فحسب ، بل انفرد هذا العصر بعوامل أخرى ، منها ماجاء عفوياً طبيعياً ، ومنها ما جاء قصداً ، فأدى بالإضافة لما سبق إلى تقدم الدراسات الأدبية واللغوية التي بلغتها البلاد في هذا العصر الذي يعد العصر الذهبي للحياة الأدبية على وجه الخصوص .

فلم يكن قيام الدولة الزيرية وانفرادها بحكم البلاد إنفراداً مطلقاً إلاَّ من تبعيه سياسية إسمية ومذهبية بالخلافة الفاطمية في الدور الأول من حياتها . نقول لم يكن ذلك وحده واضحاً في استمرار الاهتمام بالحياة العلمية ومن بينها الحياة الأدبية دون شك . ذلك أنه رافق ذلك عامل آخر كان له دوره المؤثر هو الشعور القومي الذي استفزه واستنفره قيام هذه الدولة البربرية الصرفة ، فانطلق أبناء البلاد يبدعون ويثرون الحياة العلمية بأوجهها المختلفة . وفي اعتقادنا أن الأمر لم يقتصر على إرضاء الشعور العنصري لدى البربر فحسب ، بل أرضى شعور العرب المقيمين والمتأصلين في تلك البلاد أي إفريقية ، الذين رأوا في الدولة الزيرية دولة عربية المنزع والهوى ، بتوجها نحو الثقافة العربية قلباً وقالباً (١) .

---

(١) لعل الزيريين بالإضافة إلى تشيعهم بالثقافة العربية ، كانوا يصرون في تشجيعهم للعلم والعلماء والأدباء من أنهم كانوا يرون أنفسهم عرباً ، ومن هنا كانوا يصرون على تأكيد حقيقة انتسابهم إلى قبيلة حمير كل ما سنحت الظروف إلى ترديد ذلك . ويكفي أن نسوق دليلاً واحداً لنؤكد ما قلناه. فقد نسب إلى المنصور بن بلكين بن زيري (٣٧٣- ٣٨٦هـ) ثاني أمراء الدولة الزيرية=

وإذا كان الاستقرار النسبي المؤثر في دفع الحركة العلمية قدماً ، قدراً مشتركاً بين العصور السابقة للعصر الزيري ، أعنى العصر الأغلبي والعصر الفاطمي إلا أنه كان أوضح وأبرز في عصر الزيريين ، لاسيما بعد أن تمخضت الأحداث السياسية عن انكفاء الزيريين على أنفسهم بعد الانقسام العائلي الذي تم بموجبه قيام الدولة الحمادية في المغرب الأوسط (١) ، وأدي هذا بهم إلى الالتفاف لرفع شأن دولتهم والاهتمام بها ، وتكريس جل أوقاتهم في رعاية الحركة العلمية والأدبية على وجه الخصوص.

ومماَّ أسهم في تنشيط الحركة الأدبية في عصرهم ، الرخاء والثراء الاقتصادي العظيم الذي تحقق لهم ، صحيح أن العصريين السابقين تمتعا بحالات كبرى من الرخاء الاقتصادي ، لكن الرخاء الذي شهده عصر الزيريين فاق كل ماشهدته تلك العصور السابقة ، وذلك نتيجة للتحول الذي

= قوله وهو يبرز حسن معاملته للناس (إن أبي وجدي أخذا الناس بالسيف قهراً ، وأنا لاآخذهم إلاّ بالإحسان ، وما أنا في هذا الملك ممّن يولى بكتاب ويعزل بكتاب ، لأني ورثته عن آبائي وأجدادي وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير) . أنظر ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٤٠ . ولقد جرئ كثير من المؤرخين القدامى على انهاء نسبهم بالجد الأكبر لقبيلة حمير . ومن أولئك : ابن خلكان : نفسه ، المجلد الثاني ، ص ٣٤٣-٣٤٤ في ترجمته لزيري بن مناد جد الزيريين ، وفي ترجمة بلكين بن زيري ابنه في الجزء الأول ،ص ٢٨٦ ، وفي ص ٤١١ من نفس الجزء في ترجمته باديس بن بلكين ، وفي المجلد الخامس ، ص ٢٣٣- ٢٣٦ في ترجمة المعز بن باديس ، وفي ص ٣٠٤ – ٣٠٦ الجزء الأول في ترجمة تميم بن المعز ابن باديس ، حيث أوصله إلي سام بن نوح ، ونحن نورد هذا لاعلى أساس أننا نؤيد صحة نسب الزيريين إلى حمير أو نستبعده ، بل لنستدل به على أنهم كانوا يرون أنفسهم عرباً خلصاً .

(١) أنظر قبل ص ٧٤ .

طرأ على طرق التجارة بين غرب إفريقية ومصر (١) ، ممّا كفل حياة ناعمة لينة للمجتمع الإفريقي في عصرهم ، وأوجد مناخاً صالحاً لانتعاش الحياة الأدبية .

وكان من حظ الدولة الزيرية كما يتراءى لنا أنها كانت الوريثة للتمدن الإسلامي والتحضر الذي كانت قد رعته الأنظمة السياسية التي سبقتها ، ثم سلمتها إيّاه يافعاً ، أسهمت هى في تطوره وسوقه بعيداً نحو الازدهار والتطور .

وأخيراً ، فإن ممّا أسهم في تنشيط الدراسات الأدبية واللغوية ، بل وازدهارهما ، أن قيض الله للبلاد شخصياً كان له دور عظيم في ذلك . ذلكم هو الأمير المعز بن باديس ، الذي يعد الباعث الحقيقي للنهضة الأدبية الشاملة التي شهدتها إفريقية آنذاك . وليس في الأمر غرابة إذا ما عرفنا أن المعز كان واسطة عقد الأمراء الزيريين ، وأوسعهم طولاً ونفوذاً ، ثم أن عهده كان أطول عهودهم زمناً ، فقد امتد حكمه إلى مايصل لنصف قرن من الزمن ومن هنا فقد حرص على أن يجعل بلاطه لايقل روعة وبهاء عن البلاطات الزاهية في الأندلس والقاهرة وبغداد وغيرها ، إضافة إلى ذلك ، فقد فطر هو نفسه على حب العلم والأدب ، لاسيما وهو نو الحس والأدب المرهف . ومن هذا كله يتضح لنا كيف أفاء على الأدب والأدباء التشجيع والرعاية ، ويتبين لنا بالتالي ازدحام عهده بأبرز الأدباء واللغويين ذكراً وأبعدهم صيتاً . ولقد أطنب كثير من المؤرخين القدامى وبعض من الباحثين

(١) أنظر الجيب الجنحاني : المغرب الإسلامي – الحياة الإقتصادية والإجتماعية ، ص ١٣-٢٦ .

المحدثين في وصف مقدار ما وصلته الحياة الأدبية (١) في عهده الذي وصفه بعضهم بحق بأنه العصر الذهبي للأدب (٢) .

يبقى أن نشير أخيراً إلى أهم ملامح الحركة الأدبية الإفريقية خلال الفترة موضع الاهتمام . وفي الحق فإن أول ما يتبادر للمتتبِّع للحركة الأدبية الإفريقية من ملاحظات ، هو أن إفريقية لم تعرف كل فنون الأدب التي عرفها المشرق ، وعرفتها الأندلس كذلك ، ففي النثر لم تعرف البلاد القصص مثلا ، كما أنها لم تعرف المقالة أيضا . وإذا كانت قد عرفت المقامة فإنها قد عرفتها بشكل محدود جداً . وفي الشعر لم تعرف إفريقية الموشحات ولا الأزجال ، كما أن طرقها لبعض الأغراض الشعرية كان ضعيفاً باهتاً إلى الدرجة التي لايكاد يبين فيها ، مثل الخمريات ولعل في طبيعة المغاربة الدينية الواضحة والمحافظة على العقيدة النقية ما نأى بهم عن طرق هذا اللون من ألوان الشعر إلاَّ قليلاً .

---

(١) أنظر مثلا : ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس ،ص ٣٣١- ٣٣٦ - ابن عذاري : نفسه ، والجزء ، ص ٢٩٥ - ٢٩٨ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ١١١ - ١١٥ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٢٢٢- بساط العقيق ،ص ٧٧، ٨٢ - ٨٥ - عبدالرحمن ياغي : حياة القيروان ومواقف ابن رشيق منها، ص ٧٨ - ٧٩ ، ٩٦-١٠٢ - عبدالرؤوف مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر ، ص ٧٤-٧٧- أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ، ص ٥٠- ٥٤ - محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني ، ص ١٤- ١٥ - عبدة قلقيلة : المرجع السابق : ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ١١٣ - أحمد بن عامر : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٥٠ - عبدة قلقيلة : المرجع السابق ص ٣٦ .

والملاحظة الثانية التي نلحظها من تتبعنا لملامح الحركة الأدبية الإفريقية ، هي أن بعض أوجه الحركة الأدبية بمعناها الواسع من نثر وشعر ولغة ونحو قد حظيت بالغلبة والظهور في بعض العصور السياسية السابقة دون بقية الأوجه أو بمعنى أدق أن بعض أوجه الحركة الأدبية كانت أوسع انتشاراً من بقية الأوجه الأخرى .

والملاحظة الثالثة التي تبدّت لنا ونحن نستقرئ أهم ملامح الحركة الأدبية واللغوية الإفريقية ، هي أن الحركة الأدبية هناك كانت تقتفي دون ريب مثيلتها في المشرق . بمعنى أن الحركة الأدبية الإفريقية تأثرت في كثير من مناحيها بالحركة الأدبية في المشرق . ولكننا نستدرك فنقول بأن ذلك لم يكن مطلقاً ، لتماثل العناصر الأساسية التي كوّنت الثقافة والأدب العربي في المشرق والمغرب كما لاحظ ذلك بحق أبو القاسم كرو وعبدالله شريط في كتابيهما : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب (١) عند تناولهما لحقيقة التشابه بين الأدبين المشرقي والمغربي حسبما سنعرف بعد .

أما الملاحظة الرابعة والأخيرة كما تتراءى لنا في أهم ملامح الحركة الأدبية ، فهي أن الدراسات الأدبية واللغوية لم تكن متساوية مع الدراسات الشرعية في كمّها ونوعها . وعلى ذلك فهي تمثل المرتبة الثانية في تسلسل مسيرة الحياة العلمية بعد الدراسات الشرعية .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٤٥- ١٥٠ .

النـــــــــــثر

- النثر في عصر الولاة
- النثر في عصر الأغالبة
- النثر في عصر الفاطميين
- النثر في عصر الزيريين

الأدب

أولا : النــثر :-

من المعروف أن النثر يشكل أحد فرعي الأدب بجانب الشعر ، كما أن من المعروف أن النثر ينقسم بدوره إلى نوعين رئيسيين ، أولهما : النثر الفني ويضم عدة فروع كالكتابة الديوانية أو السلطانية ، وهي المكاتبات الرسمية التي تصدر عن الخلفاء والملوك الأمراء والوزراء والولاة والعمال وغيرهم، أو العكس ، وكالرسائل الاخوانيه المتبادلة بين الأدباء وغيرهم ، مثل الخطب والوصايا وغيرذلك ، وثانيهما هو النثر التأليفي الأدبي المتمثل في تأليف مؤلفات أدبية بالمعنى الدقيق للأدب ، ثم المقامة ، والمقالة ، والقصة .. الخ .

النثر في عصر الولاة :

ذكرنا من قبل أن عصر الولاة لم يَقَّدر له أن يشهد نشاطاً أدبياً مزدهراً ، وإن كان هو العصر الذي بزغت فيه تباشير النهضة الأدبية التي عرفتها إفريقية بعد ذلك . بيد أن هذا لايعنى خلو هذا العصر من نشاط نثرى . فعلى سبيل المثال كان هناك نشاط نثرى فنى لابأس به ، لاسيما وأن ظروف بلاد المغرب السياسية استدعت وجوده ، وبالأخص المكاتبات الرسمية بين الخلافة في المشرق والولاة ، وبين الولاة والخارجين على الدولة، ونفس الشئ يمكن أن يقال عن الخطب .

النثر الفنـــي :

فيما يتصل بالمكاتبات الرسمية ، حفظت لنا المصادر إشارة إلى رسالة بعث بها الوالي حنظلة بن صفوان الكلبي (١٢٤-١٢٧هـ) إلى خوارج طنجة ، وهي الرسالة التي أشرنا إليها من قبل عند حديثنا عن الأثر العلمي للصراع المذهبي بين المالكية والإباضية (١) . والرسالة بالطبع كانت تحمل روح ذلك العصر من الناحية الأدبية ، فقد اتسمت بالتلقائية ، والبعد عن التكلف والتزويق الأدبي الذي عرفته المكاتبات الرسمية بعد ذلك .

ومع أن المؤرخين أشاروا إلى أن عصر الولاة بعد ذلك ، وخاصة في عهد الأسرة المهلبية التي تولت أمر المغرب الأدنى مدة تصل إلى ربع قرن من الزمن ، قد حفل بالمكاتبات الرسمية بين الخلافة العباسية والولاة من جهة ، وبين الولاة والخارجين عليهم من جهة أخرى (٢) . إلاَّ أننا لم نوفَّق في العثور على نصوص تلك المكاتبات لمعرفة كتَّابها من ناحية ، ولتبيان مكانتها الأدبية من ناحية أخرى . غير أن المرجَّح أن أسلوبها لايحمل أي خلاف لطبيعة كتابة وروح ذلك العصر . والأمر نفسه يمكن أن يقال عن المكاتبات الرسمية التي حفل بها عهد آخر واليين عباسيين للمغرب الأدنى ، وهما ، هرثمة بن أعين ، ومحمد بن مقاتل العكي (٣) .

---

(١) أنظر قبل ، ص ٧٣ ومابعدها .

(٢) عن تلك المكاتبات الرسمية التي أشار إليها المؤرخون دون أن يوردوا نصوصها ، أنظر مثلا : الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٤٥ ، ١٦١-١٨٢-١٨٥ ، ١٨٨ ، ١٩١-١٩٢ . إلى غير ذلك

(٣) عن تلك المكاتبات، أنظر كذلك :الرقيق القيرواني، نفس المصدر أعلاه، ص٢٠٢-٢٠٤ ، ٢٠٧-٢١١.

ولئن لم تخلد لنا المصادر أسماء كتّاب عصر الولاة ، إلاّ أنها احتفظت لنا بذكركاتب أديب كانت له مكانة في الترسل والإنشاء ، ذلك الكاتب هو خالد بن أبي ربيعة الإفريقي (كان حياً سنة ١٤٠هـ) فقد عاصر خالد بن أبي ربيعة عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع مؤسس الأسرة الفهرية التي حكمت المغرب ، من عام ١٢٧حتى ١٤٠هـ ولقد استكتب عبدالرحمن خالد بن أبي ربيعة ، فجعله مسؤولاً عن المراسلات الرسمية ، ومع أننا لم نعثر على شئ ذي بال من كتاباته ، وكذلك عن تفاصيل ترجمته، إلاّ أننا عرفنا عنه أنه هو الذي حرَّر الكتاب الرسمي الذي بعثه عبدالرحمن إلى الخليفة الأموي مروان بن محمد يعترف له فيه بالطاعة ، وعرفنا بأنه هو الذي حمل الكتاب الرسمي إلى الخليفة في دمشق . وفي دمشق قابل الكاتب المشهور عبدالحميد بن يحيى المعروف بعبد الحميد الكاتب ، حيث انعقدت أواصر صداقة بينهما (١) . ثم عاد إلى بلده ليمارس مهمته في تحرير الرسائل الرسمية التي كان عبد الرحمن بن حبيب يبعثها إلى الآفاق. وعندما خلع عبدالرحمن طاعة الدولة العباسية حرَّر خالد بن أبي ربيعة الكتاب الرسمي الذي نص على خلع طاعة الخليفة المنصور ، والذي قرئ على المنابر في سائر بلاد المغرب (٢) .

ومهما يكن ، فإن خالداً بن أبي ربيعة وصف بأنه كاتب (مترسل

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٥١ -١٥٣ .

(٢) الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ١٣٤ ، ويسميه خالد بن ربيعة بدون (أبي) -سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٣٣٠ .

بليغ، نشأ في الدواوين ، وله رسائل مجموعة في الأدب نحو مائتي ورقة كما يقول ابن النديم (١)

وإذا مضينا نبحث عن الرسائل الإخوانية بوصفها ضرباً من ضروب النثر الفني ، فلن تأخذنا الدهشة إذا عرفنا أنها انعدمت تقريباً خلال هذا العصر ، وهو أمر طبيعي دون ريب ، وبين أيدينا رسالتان بعثهما العابد الزاهد العالم أبو يزيد رباح بن يزيد اللخمي (٢) (ت : قبل ١٧٠هـ) (٣) إلى صديقيه : الفقيه البهلول بن راشد المتوفي عام ١٨٣هـ ، والفقيه عبدالله ابن فروخ المتوفى عام ١٧٥هـ حسبما عرفنا سابقاً . أما رسالته للبهلول ، فقد غلبت عليها بسهولة في التعبير ، ووضوح المعنى لاسيما وهي رسالة نُصح وقد ضمَّن رباح بن يزيد الرسالة بالعديد من الآيات القرآنية الكريمة ، كما استشهد فيها بالعديد من الأحاديث النبوية (٤) .

أما رسالة رباح بن يزيد الأخرى لعبد الله بن فروخ ، فهي على غرار الرسالة الأولى من حيث خلوها من الرونق الأدبي ، ومن حيث وضوح فكرتها ومن حيث تضمينها بعض الآيات الكريمة ، والاستشهاد ببعض

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٥٥ .

(٢) ترجم له المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢١٠- ٢٢٠ .

(٣) هذا هو التاريخ المعقول لوفاته . ولاعبرة لما قاله المالكي : نفسه ، ص ٢١١، من أنه توفى سنة ١٧٢هـ ، ذلك لأن المالكي نفسه يذكر بأن يزيداً بن حاتم المهلبي شهد وفاة رباح وصلى عليه والمعروف تاريخيا أن يزيداً بن حاتم توفى سنة ١٧٠هـ . أنظر ماذكرناه عن ولايته قبل ، ص ٦٩. ومن هنا أشرنا إلي أنه توفى قبل عام ١٧٠هـ . أولعله في نفس العام الذي توفى فيه يزيد بن حاتم .

(٤) أنظر نص الرسالة عند المالكي : نفسه ، ص ٢١٦ – ٢١٨ .

الأحاديث النبوية وإن كانت قد تميزت عن الأولى باشتمالها على بعض أقوال الحكمة ، وقد جاءت هذه الرسالة رداً على رسالة كان قد بعثها له عبدالله بن فروخ (١) .

وفيما يتصل بالخطابة ، سواء كانت سياسية ، أو كانت دينية ، فقد انعدمت الإشارة إليها تقريباً . على أننا تمكّنا من العثور على ذكر خطبتين سياسيتين ، إحداهما لعبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة مؤسس الأسرة الفهرية كما عرفنا من قبل ، والأخرى لأبي الخطاب عبدالأعلى بن السمح المعافري الإباضي (ت : ١٤٤هـ) أول أئمة الظهور الإباضية في المغرب الأدنى حسبما عرفنا من قبل أيضاً .

أما خطبة عبدالرحمن بن حبيب التي ألقاها من على منبر القيروان عام ١٣٧هـ ، والتي أعلن فيها خلع طاعة الخليفة العباسي المنصور ، فإن النتف اليسير الذي وصلنا منها ، لايمكننا من الحكم على مكانتها الأدبية (٢) ، وأما الخطبة الأخرى التي خطبها أبو الخطاب في جموع الإباضية أثناء الاستعداد لاقتحام مدينة القيروان ، وذلك قبل وفاته بقليل، فهي وإن كان قد ورد عنها شئ غير يسير ، إلاّ أنها كانت تعبر عن روح العصر الأدبي الذي عرفه عصر الولاة إذ بدت عليها السهولة في التعبير ، ووضوح الفكرة وجنوحها إلى مخاطبة العقل ،

---

(١) أنظر نصها عند المالكي : نفسه ، ص ٢١٨ - ٢٢٠ .

(٢) عن تلك الخطبة أنظر الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ١٣٤ - ابن عذارى : نفسه ، ص٦٧ .

وخلوها من الرونق الأدبي (١) .

٢- النثر التأليفي : -

من الطبيعي ألاّ نوفق في العثور على أي اسهامات في النشاط النثري التأليفي في هذا العصر ، الذي ذكرنا أنه يمثل عصر النشوء الأدبي . وينطبق هذا على مدينة القيروان آنذاك ، كما يصدق على بقية مدن وأقاليم إفريقية . ولسنا في حاجة إلى القول بأن الاهتمام بنشر المذهب المالكي والتأليف في مجال الفقه كان أهم ما يشغل العقول آنذاك ويصرف أبناء البلاد عن الاهتمام بالأدب والتأليف فيه ، إضافة إلى تأثير العوامل سالفة الذكر في تأخر الإهتمام بالأدب خلال هذا العصر .

(١) عن نص تلك الخطبة أنظر أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٧٨هـ وأنظر تعليقة عليها كذلك في ص ١٨٠ .

النثر في عصر الأغالبة :-

أهم ما يلاحظه الدارس للحركة الأدبية واللغوية في عصر الأغالبة هو أن النثر بقسميه الرئيسيين وبما يندرج تحتهما من فروع وأنواع ، كان أقل أوجه الحركة الأدبية عطاءً ، سواءً كان ذلك في مجال الشعر ، أو مجال الدراسات اللغوية والنحوية ، على أن ذلك لاينفي حقيقة أن ماحفظ من ذلك النثر القليل بأنواعه المختلفة قد لمسه التطور الأدبي كماً ونوعاً قياساً بعصر الولاة الذي سبقه .

١- النثر الفني :-

على الاستقرار النسبي الذي عرفته إفريقية في عصر الأغالبة ، إلاّ أنه لم يخل بالطبع من الفتن والقلاقل الداخلية والخارجية ، ومن هنا فقد حفل هذا العصر بالكثير من القضايا السياسية والعسكرية التي استوجبت اللجوء للمكاتبات الديوانية أو الرسمية ، سواء ماكان من مراسلات بين الخلافة العباسية ، وبين بعض أمراء الأغالبة ، أو ما كان بين بعض أمراء الأغالبة وبين عمالهم والخارجين عليهم ، ومع أن المؤرخين القدامى أشاروا إلى ظروف تلك المكاتبات ، إلاّ أنهم لم يزودونا إلاّ بنصوص قليلة منها ، كما أنهم ضنوا علينا بذكر الكتاب الذين أوكل إليهم أمر تلك المكاتبات .

ولعل من أول النماذج القليلة التي حفظها لنا المؤرخون ، والتي تبودلت في أول عصر الأغالبة ، الرسالة التي بعثها الأمير ابراهيم بن الأغلب

مؤسس الدولة الأغلبية إلى الثائر عليه ، خريش بن عبدالرحمن بن خريش الكندي (١) والرسالة في الأصل عبارة عن رسالة تهديد وتقريع ، ولكنها تحمل في مضامينها روح السخرية والازدراء بقليل من التأنق اللفظي . وقد ختمها ابراهيم بعدة أبيات يفتخر فيها بنفسه ، ويتوعد خريشاً ويتهدده (٢).

أما في عهود خلفائه من أبنائه الثلاثة الذين تولوا الحكم بعده :عبدالله (١٩٦-٢٠١هـ) وزيادة الله المعـــروف بزيادة الله الأول (٢٠١- ٢٢٣هـ) والأغلب (٢٢٣-٢٢٦هـ) ، فلم يقدر لنا لسوء الحظ العثور على نماذج أو نصوص المكاتبات العديدة التي كانت متداولة وقتها بين الخلافة وبينهم من ناحية (٣) ، وبينهم وبين الخارجين عليهم من ناحية أخرى (٤) . هذا فضلاً عن أننا لم نحظ بالتعرف على الكتاب الرسميين الذين كان يضمهم البلاط الأغلبي وقتئذ .

وفي عهد الأمير أبو العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٦-٢٤٢هـ) صادف أسماعنا لأول مرة ذكر لكاتب رسمي له وهو نصر ابن حمزة الجروي . ولم يتسن لنا أن نعرف عنه أكثر من أنه غدا ذا أهمية كبيرة في عهد الأمير محمد ، ثم ازدادت مكانته وأهميته عندما استبد ولي

---

(١) عن ثورة خريش بن عبدالرحمن بن خريش الكندي على ابراهيم بن الأغلب وما تمخض عنها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤ - ٣٥ مع الحواشي .

(٢) أنظر رابح بونار : المرجع السابق ، ص ١٠٨ حيث أورد نص الرسالة .

(٣) أنظر عن تلك المكاتبات ، سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ص ٦٤ مع الحواشي .

(٤) عن تلك المكاتبات ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ،ص ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ .

العهد الأمير أحمد شقيق الأمير محمد بشؤون الإمارة دون أخية ، فقد رقاه الأمير أحمد إلى مرتبة الوزارة ، بالإضافة إلى رتبة الكتابة (١) . أما عن مكانته في الترسل والإنشاء ، فلم تسعفنا المصادر بالتنبيه إلى ذلك .

أما عهد الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب (٢٦١-٢٨٩هـ) المعروف بابراهيم الأصغر أو الثاني ، فقد كان عامراً بالنشاط الأدبي ولاسيما جانب المراسلات الدويوانية أو السلطانية ، ولاغرابة في الأمر إذا عرفنا أن هذا الأمير يعد واسطة عقد الأمراء الأغالبة ، ويعد عهده أطول العهود الأغلبية زمنا . كما أن عهده يمثل ذروة العصر الأغلبي في كافة الجوانب (٢) خاصة الجانبين : الأدبي والعلمي (٣) .

وعلى كل حال فقد طرق أسماعنا لأول مرة ، ذكر ديوان الإنشاء أو ديوان الرسائل الديوانية ، وهو أمر له دلالته من حيث الإشارة إلي مابلغته البلاد من رقى وتطور أدبي ، كما أننا تعرفنا على العديد من نصوص الرسائل الديوانية ، فضلا عن أننا ازددنا تعرفاً بعدد من أسماء الكتاب اللامعين في هذا العهد والعهدين اللذين بعده ، وفوق هذا وذاك ، فإن عهد ابراهيم الثاني عرف نشاطاً نثرياً تاليفياً حسبما سنشير إليه بعد قليل .

ومن أوائل الكتاب الأدباء اللامعين الذين عرفهم عهد الأمير ابراهيم

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ،ص ٧٩، ٨١ .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١١٤ - ١٢٩ .

(٣) أنظر قبل ، ص ١٥٥، لمعرفة دوره في تأسيس بيت الحكمة .

الكاتب الأديب أبو العباس محمد بن أحمد بن حيون المعروف بالبريدي (١) (ت : ٢٧٦هـ) ولقد بلغ البريدي من المكانة الأدبية ما جعل الأمير يوليه أمر المكاتبات الديوانية ، بيد أنه مالبث أن سخط عليه فسجنه . ولقد حاول البريدي أن يستعطف الأمير بأن يعفو عنه ، فبعث له برسالة ، حفظ شطر كبير منها لحسن الحظ .

وللرسالة من الحلاوة والطلاوة والتمكن البلاغي مالها ، ممَّا يسمح لنا أن نوردها هنا ، لما تمثله من إيضاح للجو الأدبي الذي كانت تعيشه بلاد إفريقية وقتذاك ولإيضاح الفرق بين مابلغه النثر الفني – على قلته – ، في عصر الأغالبة وبين ماكان عليه النثر في عصر الولاة ، فلقد خاطب البريدي الأمير بقوله : (أعز الله الأمير ، لكرم العفو ، وعلو قدره ، وجليل خطره تسمى الله عز وجل به فسمى نفسه العفو الغفور . والطبع البشرى مركب على النقص ، مقرون بالزلل إلاَّ ما خص الله به الأنبياء ، وأودعه السادات الأمراء ، من طهارة الأخلاق ونزاهة الأنفس ، ولست أيد الله الأمير ممن يدعى العصمة والبرآءة من الهفوة ولست أمت إليك إلاَّ بفضلك عليَّ ، وإحسانك إليَّ ، ولا أعرفك ، بل أذكرك ، أن من غرس غرساً فواجب أن لايجتثه ، وأن أبطأ بسوقه ، بل يجدد بمداد موارده العذبة حتى تمتد

---

(١) هذا ما يقوله ابن عذاري : نفسه ، ص ١٢١ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٣٠ – حسن حسنى عبدالوهاب الورقات ، القسم الأول ،ص ٢٤٧–٢٤٨– وانفرد ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، أو الجزء الثالث من كتاب أعمال الأعلام ،ص ٣٠٠ (وهو الذي نقلنا عنه النص) يذكر اسمه ولقبه مختلفاً . فيسميه أحمد القديدي .

خيطانه ، وتورق أغصانه ، أعاذك الله بما أودعك من معالي الأخلاق ، من ترك العفو عن مقر معترف ، لايعرف إلاَّ فضلك ولايرجو إلاَّ عدلك ولو كنت أعز الله الأمير عواناً في الخدمة ، لكان عفوك أكبر من ذنبي ، وفضلك في حلمك أعظم من جرمي ، فكيف وأنا بكر في خدمتك ، لم أقف على حدودها ، ولا معرفة اقتسام مراتبها ، فإن يكن ذنب فعلى غير قصد أوزلة ، فليست عن عمد ومماَّ ذهبت به الأفواه ونطقت به الألسن وعرفه الخاص والعام بياناً واضحاً ، أنك ممَّن عنى الله عز وجل ذكره بقوله : ﴿ ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله * وليعفوا وليصفحوا * ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (١) ، وقال عز وجل : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ﴾(٢) ، فلا أحد بمعالي الأخلاق والامتثال لأدب الله أحق منك ، لما وهب الله لك من كريم الطبع ، وصحة المركب ، فاعتبر أمرى فما سألت إلا سؤال من دحضت حجته ، وأحاطت به زلته ، وأوبقه جرمه ، فالحظني بعين عفوك ، وأضف عليَّ ستر نعمتك) (٣) . وقد ختم الرسالة بعدة أبيات يطلب فيها صفح الأمير ، لكن دون جدوى ، فقد قضى عليه أخيراً (٤) .

ومهما يكن فإن الأمر الذي يشدنا للرسالة ، هو ما يتجلى فيها من

---

(١) سورة التوبة : آية رقم ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران : آية رقم ١٣٣ .

(٣) ابن الخطيب : تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام، تحقيق وتعليق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني ، ص ٣٠ -٣٢ .

(٤) ابن عذارى : نفسه ، ص١٢١-١٢٢- سعد زغلول عبدالحميد نفسه ، ص١٣٠ .

تأنق في اللفظ ، وما فيها من محسنات بديعية من سجع وخلافه ، وما فيها من التفات ومزاوجة ، وقدرة على استخدام مختلف لحروف الجر .. الخ ، ويرى رابح بونار (١) أن هذه الرسالة تدل على مقدار تشبُّع البريدي بأسلوب الكاتب ، المشهور : الجاحظ وغيره من أدباء فن الترسل في المشرق وقتذاك .

ومما يؤكد ارتقاء النثر الفني ، وخاصة النثر الرسمي - إن جاز هذا -، الرسالة التي بعثها الأمير ابراهيم بن أحمد للداعي أبي عبدالله الشيعي الذي بدأت حركته في الدعوة للشيعة في عهد هذا الأمير كما سبق أن ذكرنا من قبل . والرسالة فيها شئ من الطول ، وتتسم بصفتين رئيسيتين الترغيب والترهيب ، وفي ثنايا ذلك جهد كاتبها أن يوضح الغرضين الآنفيين بكل ما أوتى من قدرة بلاغية تكمن في أسلوب الترسل والتوشيح (٢) .

وفي عهد هذا الأمير حظى بلاطه بوجود شخصية أدبية وعلمية لامعة هي شخصية الكاتب الأديب الرياضي أبو اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني (ت ٢٩٨هـ) ، الذي كان له دور في اثراء النثر الإداري والتأليفي في إفريقية وكان له دور كذلك في اثراء الدراسات العلمية التطبيقية أو التجريبية حسبما سنعرف بعد . وأبو اليسر الشيباني بغدادي الأصل ، ترعرع في بلده العراق ، وتتلمذ على يدي أبرز الكتاب المشهورين آنذاك ،

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥، ١٠٥ .

(٢) أنظر نص تلك الرسالة عند القاضي النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ، ص ٥٦-٥٧ .

من أمثال الجاحظ والمبرد ، وابن قتيبة ، كما تأثر بالشعراء المشهورين آنذاك في العراق ، من أمثال أبي تمام والبحتري وغيرهما . وقد ترك بلده ألعراق ، وطوف في الجزء الغربي من الدولة الإسلامية ، أي الأندلس والمغرب ، ثم استقر به المقام في إفريقية . وهنا لقى التشجيع والتكريم من الأمير ابراهيم الذي عينه رئيساً لديوان الإنشاء ، وهذه أول مرة يمر بنا ذكر هذا الديوان ، وقد استمر أبو اليسر يعمل في خدمة مخدومه الأمير ابراهيم ثم ابنه عبدالله، ثم حفيده زيادة الله حتى سقطت الدولة الأغلبية عام ٢٩٦هـ . ولما دخل الخليفة عبيدالله المهدي القيروان ورقادة عرف له قدره ، فاستمر يعمل في خدمته كاتباً ومشرفاً على بيت الحكمة القيرواني حتى توفي عام ٢٩٨هـ (١) وأبو اليسر الشيباني أول كاتب يحظى بترجمة واسعة لدى المؤرخين القدامى والمحدثين ، مما يدل على علو كعبه الأدبي ، وممن وصفه وأثنى على مكانته الأدبية المؤرخ والأديب القيرواني ابراهيم الرقيق (٢) ، فقد وصفه بالأدب الرفيع ، والترسل البليغ ، والشعر الرائق ، مع مصافة الفكر ومكارم الإخلاق) . وقال أيضاً عنه (وكان ضارباً في كل علم وأدب ، كتب بيده أكثر كتبه مع براعة خطه وحسن وراقته) .. الخ ماحلاه به من نعوت .

ومن الكتاب المشهورين أيضاً في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد ، وخليفتيه من بعده ، الكاتب محمد بن أحمد بن الفرج البغدادي (ت: ٢٩٠هـ)

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٤٤ - ٢٤٧- (نقلا عن غير واحد من المؤرخين القدامى) .

(٢) فيما ينقله عنه حسن حسنى عبدالوهاب : المرجع السابق ،ص ٢٤٥- ٢٤٦ .

وهو ممن وفدوا إلى افريقية والعراق ، فألحقه برئيس ديوان الإنشاء أبي اليسر الشيباني (١) ، ويقول حسن حسني عبدالوهاب (٢) ، أنه كانت له (مشاركة عالية في فنون الأدب) .

ومن الكتاب اللامعين أيضا ، عبدالله بن الصائغ (ت ٢٩٦هـ) وهو من أبناء القيروان ، وقدتولى وظيفة الكتابة في ديوان الخراج في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد (٣) ، وفي عهد الأمير زيادة الله الثالث (٢٩٠- ٢٩٦هـ) ازدادت مكانته ، وعلت منزلته ، فرقّاه الأمير إلي رتبة : صاحب البريد ، بالإضافة إلى رتبة الكتابة (٤) ، ولقد مارس ابن الصائغ دوراً في الأحداث التي انتهت إليها الدولة الآغلبية في أخريات أيامها ، وانتهى به الأمر مقتولاً عام ٢٩٦هـ ، أي نفس العام الذي سقطت فيه الدولة الأغلبية (٥) . وممّا ينسب لابن الصائغ أيضاً تمتعه بموهبة شعرية اشتهر بها آنذاك (٦) .

وقبل أن نختتم الحديث عن المكاتبات الرسمية ، والكتّاب الذين ذكروا خلال هذا العصر ، لا يفوتنا الإشارة إلى المكاتبات التي حررها الأمير زيادة الله ، والتي يهاجم فيها الداعي أبا عبدالله الشيعي ، ويوضح حقيقة دعوته والتي أمر أن تقرأ على المنابر .

---

(١) الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٤٦.

(٢) نفس المرجع والقسم والصفحة أعلاه .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٧٩ - حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ،ص ٢٣٠ .

(٤) حسن حسنى عبدالوهاب : المرجع السابق والجزء ، ص ٢٣٠ .

(٥) عن دوره ذلك ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه، ص ١٦٢-١٦٣، ١٧٥- ١٨٢ .

(٦) أنظر بعد ص ٦٧٥ .

وأيا ماكان الرأي في حقيقة ماورد في تلك المكاتبات ، وأيا ماكان رأي المؤرخين (١) في زيادة الله ، فإن تلك الرسائل التي أمر بقرآءتها على المنابر تعد بدون ريب قطعاً أدبيبة ، فيها بلاغة وفصاحة ، وفيها سمو ورقي أدبي (٢) .

وإذا مضينا نبحث عن الرسائل الإخوانية ذات الطبيعة الأدبية خلال هذا العصر ، لوجدنا الإشارة إليها تكاد تنعدم ، ويبدو أن الإهمال قد طال هذا اللون من ألوان النثر الفني ، كما طال غيره خلال هذا العصر أو لعل طبيعة التوجه الأدبي لهذا العصر لم تكن منصرفه إلاّ إلى الشعر ، والدراسات اللغوية والنحوية .

ومع ذلك فإن إهابنا لم يخل من التعرف على صور من هذا اللون الأدبي ، فبين أيدينا رسالة بعث بها العالم النحوى أحمد بن أبي الأسود النحوي إلى صديق له وكان قد وقع بينهما خلاف أدى إلى تهاجرهما فترة من الزمن ، وقد جهد ذلك الصديق ما أمكنه أن يسترضي صديقه أحمد بن الأسود دون جدوى ، ولم ير أحمد بن أبي الأسود بداً من أن يبعث إلى صديقه برسالة يوضح له فيها موقفه منه . ومما جاء في الرسالة (... أما بعد ،فإن طول الترداد يورث الملال ، وقلة غشيان الناس أفضل لقوله ﷺ : « زرغباً تزدد حباً » وللقلوب نبوة ، فإن اكرهت لم يكن لما يتولد منها لذة،

---

(١) أنظر تقويم سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٥٩ وما بعدها ، لفترة حكم زيادة الله عن عدد من المؤرخين .

(٢) عن تلك المكاتبات ، أنظر القاضي النعمان : المصدر السابق ، ص ١٨٥ - ١٩١، ١٩٢- ١٩٧ .

ولابد من استجماعها إلي غايتها . وأسأل الله أن يجعلها منا عزمة ، ومنك سلوة ، والملتقى إن شاء الله في داره وجواره ، حيث لاتحاسب ولاتصاحب) (١) . فهذه الرسالة كما يبدو لا تخلو من مسحة أدبية واضحة، ورسالة أخرى أمكننا العثور عليها ، وهي رسالة عتاب بعثها أبو محمد عبدالرحيم بن عبد ربه العبدي الزاهد (٢) إلى صديقه الفقيه المشهور سحنون بن سعيد ، يعتب فيها عليه قبوله تولي القضاء . والرسالة (٣) مع قصرها، فإنها تترك في النفس تأثيراً جميلاً – من الناحية الأدبية المحضة – بما فيها من محسنات بديعية كالطباق والمقابلة .

ومثلما كان حظنا ضئيلاً من الرسائل الإخوانية ، كان حظنا ضئيلاً أيضاً من لون آخر من ألوان النثر الفني ، وهو الخطابة ، ويصدق هذا على الخطب السياسية والدينية معا . ولانقصد بالدينية بالطبع، خطب المناسبات الدينية التعبدية كخطب الجمع والأعياد . ومع يقيننا بأن الإهمال ربما كان .

السبب في ذلك، لاننسى أن روح العصر على مستوى الدولة الإسلامية نفسها، كانت تتميز بالفتور في الاتجاه نحو الخطابة ، إذ حلّت الرسائل .

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٣٣ – ٢٣٤ – الفيروز آبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ص ١٣٢ .

(٢) ترجمته موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ، ص ١١٣– المالكي : نفسه ،ج١ ، ص ٣٢٧–٣٣٤ بتوسع) .

(٣) عن نصها أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٢٩ ..

الديوانية والمنشورات محل الخطابة ، لضعف القدرة عليها ، ولقلة الدواعي إليها كما يرى أحمد حسن الزيات (١) .

ومهما يكن فإن بين أيدينا مقتطفات من خطبة خطبها الفقيه عبدالله ابن طالب (ت: ٢٧٦هـ) على منبر القيروان ، وكنا قد أشرنا إلى ظروفها سابقاً عند حديثنا عن موقف فقهاء المالكية من أتباع المذاهب الكلامية (٢) ومن الملائم أن نعيد الآن ذكر هذه المقتطفات ، فعندما اعتلى ابن طالب المنبر قال : (... الحمد لله الذي يشكر على ما به أنعم ، والحمد لله الذي عذَّب على مالوشاء منه عصم ، والحمد لله الذي على عرشه استوى ، وعلى ملكه احتوى ، وهو في الآخرة يرى). هذه المقتطفات على قصرها ، تحمل كما يتراءى لنا معظم خصائص الخطابة من افتتاحها بالحمد ومن عذوبة ألفاظها ، واقتباسها من القرآن ، ثم مافيها من سجع في كلمتي : استوى واحتوى ، إلى غير ذلك .

على أن اللون الأدبي الذي كثر طرقه خلال هذا العصر إنماهو الوصايا والمواعظ . وفي تصورنا أنه ليس في الأمر غرابة إذا ما عرفنا أن معظم من طرق هذا اللون كانوا من العلماء والعبَّاد الزهاد الذين زهى بهم هذا العصر، وتأسيساً على ذلك ، فلسنا في حاجة إلي كبير عناء لنكتشف أن معظم تلك الوصايا والمواعظ جاءت تحث على الزهد والقناعة ، والتأدب

---

(١) تاريخ الأدب العربي للمدارس الثانوية والعليا ، ص ٢١٩ .

(٢) أنظر مقتطفات تلك الخطبة ودواعيها قبل ص .

والتأسي بسير الصالحين والزهاد بل بتعاليم الإسلام نفسه (١) . ومن هنا فلن نطمع أن نجد فيها عناية بالتذويق الأدبي كثيراً إلاَّ في القليل منها (٢).

ومن بين تلك الوصايا والمواعظ التي لم يخل سطر واحد منها من رونق أدبي ، تلك التي أملاها العابد الزاهد أبو على شقران بن على الفرضي على تلميذه المصري الشهير بذى النون (٣) ، وقد اتَّصل به وطلب منه تزويده بمواعظه، فكتب اليه يقول : (يا أخي إن لله عز وجل عباداً غلبوا فألفوا ، وطلبوا فرحلوا ، وقصدوا فوصلوا ، أولئك الربانيين والأحبار وعمال الله الأبرار ، أولئك قوم كرمت نفوسهم على الله فركبوا مطية النجاة إلى الله، وأحياهم الله عند ذلك حياة الأصفياء ، ثم أمدهم بمعونات الأقوياء، فسبحانه ما أكرمه فيما أعطاهم وخولهم ، ولقد دعاهم فأجابوا ولقد قبلوا فأصابوا) (٤) .

وسمعه تلميذه مرة يخاطب نفسه ويقول : (أواه ! ألا مريد صادق ؟ ألا فتى نمت عليه الحقائق ؟ . مالي لا أرى الصادقين ؟ مالي عدمت أهل

---

(١) عن تلك الوصايا والمواعظ ، أنظر مثلا المالكي : نفسه ،ج١ ، ص ٢٣٦- ٢٣٧ (الموعظة التي بعثها عبدالخالق المتعبد المعروف بالفتات إلى أحد أصدقائه) ،ص ٢٤٦- ٢٤٨، (حيث الموعظة التي بعثها اسماعيل بن رباح إلى أحد أصدقائه كذلك) ، ص ٣٤٨- ٣٤٩ (حيث ذكر الموعظة التي وعظ بها الفقيه محمد بن سحنون أحد أفراد بنى الأغليب) .

(٢) أنظر من ذلك مثلا : الموعظة التي وعظ بها الفقيه أحمد الصواف (٢٩١هـ) طالب العلم ، والتي تدل على المسحة الأدبية التي تشع منها . - أنظر رابح بونار : نفسه ،ص ١٠٥ -١٠٦ (حيث ورد نص تلك الموعظة .

(٣) أنظر ترجمته عند ابن خلكان : نفسه ، ج١ ، ص ٣١٥ - ٣١٨ .

(٤) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٥ .

اليقين ؟ ألا فجدوا، فإن الطريق واضح ، ثم اسمعوا منى، وإني لكم ناصح ، فكم يلق من هو غداً مكرم محبور إلى من هو موبخ بما جنى محقور ، ثم يؤمر به إلى لظى مجرور ، ويحكم إن الدنيا دار فناء ، والآخرة دار بقاء ، ولنعم دار المتقين ثم قال : ألا لهج خدوم ؟ ألا ثكل ندوم ؟ ألا حبيب كئيب ؟ ألا صفى لبيب، ألا تائب يتوب ؟ ألا خادم يذوب ؟ ألا راغب في الجزيل ؟ ألا عارف بالجليل ؟ أين من استراحت بواطنه بحب الله تعالى ؟ أين من ظهرت على جوارحه شواهد الهيبة ؟ أين من اقترب الرب تعالى من سرائره ؟(١) أين من دانت لمعاملة الله عز وجل ظواهره ؟ أين من خبر الطريق ؟ أين من نظر بالتحقيق ؟ أين من أدناه فلم يبرح ؟ أين من شوق فلم يفرح ؟ أين من شجى فباح ؟ أين من بكى فناح ؟ أين من قبل ففرح ؟ أين من وصل فغنم ؟ أين من لزم فاجتبى ؟ أين من بكى بعويل ؟ أين من صرخ بغليل ؟ أين من رضى فطاب ؟ أين من نخل فذاب ؟ أين من شفه الوداد ؟ أين من جد باجتهاد ؟ أين من همه الحبيب ؟ أين من دهره غريب ؟ أين من طالع الكشوف ؟ أين من صال بالمعروف ؟ أين عماله الكرام ؟ أين خدامه القيام ؟ أين من ذكره غذاه ؟ أين من قلبه يراه ؟ يا أخي هل كانوا إلاّ بركات على المسلمين ما أبصرهم بعلوم أهل اليقين ؟ ما أغوصهم في بحار المستنطقين؟ ما قولك في رجال أتتهم فوائد العطايا والمواهب ؟ ، جعلنا

---

(١) لابد أن نؤكد هنا أن هذه الجملة بشكلها هذا ، غير مقبولة من الناحية العقدية فالله عز وجل قريب من البشر في سرهم وعلانيتهم ، ويخيل إلينا أن ثمة تحريفاً قد وقع من الناسخ ، وحق العبارة أن تكون : أين من أقترب إلى الرب تعالى بسرائره .

الله منهم وفيهم وحشرنا في زمرتهم) (١) .

هذا النص يمثل لنا قطعة أدبية رائقة ، حيث التأنق اللفظي ، والتفنن في العبارات والأخيلة ، والقدرة البالغة في استخدام المحسنات البديعية وبالجملة، فالقطعة تشيع فيها روح أدبية لم يخل منها سطر ، ولم تخل منه كلمة ، ومن هنا فقد حرصنا على أن نأتي بها بتمامها .

ومن المواعظ القليلة التي حفظت عن بعض الأدباء واللغويين ، تلك التي أشير إلى أن العالم اللغوي عبدالملك بن قطن الفهرى (ت : ٢٥٣هـ) - والذي سنترجم له بعد - ، وعظ بها الفقيه عبدالله بن غانم في مرضه الذي مات فيه ، إذ روى أنه دخل عليه فقال له : (رفع الله ضجعتك من هذه العلة إلى إفاقة وراحة ، وأعاد عليك ماعودك من الصحة والسلامة ، فطالما صححت وعوقبت أصلحك الله ، فاصبر لحكم ربك ، فإن الله عز وجل يجب أن يصبر على بلواه ، كما يجب أن يشكر على نعماه (٢) .

وما من ريب في أن هذه الموعظة على قصرها لا تخلوا من رونق أدبي جميل ، ويعتقد رابح بونار (٣) أن هذه الموعظة يشتم منها روح جاحظية .

وأخيراً ، فإن عصر الأغالبة ، لم يخل من لون من ألوان النشر الفنى كان شائعا في الدولة الإسلامية ، وهو الحكمة . والحكمة كما هو معروف عبارة عن قول موافق للحق وسالم من الحشو ، وهو خلاصة الحنكة وثمرة

---

(١) المالكي : نفسه ،ج١، ص٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ١٠٣ .

(٣) نفسه .

التجربة (١). وقد اشتهر بقولها آنذاك عدد من الفقهاء المعروفين كالفقيه أحمد بن سليمان (٢) ، المعروف بالصواف (ت : ٢٩١هـ) الذي ترجمنا له من قبل ، والفقيه عبدالجبار (٣) بن خالد بن عمران السرتي (ت : ٢٨١هـ)، وقد سبقت ترجمته ، والفقيه عيسى بن مسكين (ت : ٢٩٦هـ)، الذي ترجمنا له من قبل كذلك ومن أقوال الحكمة الجيدة التي كان عبدالجبار بن خالد كثيراً ما ينطق بها نجتزئ شيئاً يسيراً منها فنورده هنا مثل : من قل كلامه، قلّت آثامه ، وكذلك : من كان في الله همُّه ، قلَّ في الدنيا والآخرة غمّه ، وأيضاً : لولا الفضول لصَفَت العُقول ، ولكان المجهول عندك معقول ، ومن الحكمة التي تشد الانتباه لروعتها : من وبَّخك فقد نفعك ، ومن نفعك فقد رفعك (٤) .. الخ .

ومن أقوال الفقيه عيسى بن مسكين التي تدخل في باب الحكمة ، قوله : أشرف الغنى ترك المنى ، وقوله : من قاسى الأمور على المستور ، ومن تلك الحكم أيضاً : من أطلق طرفه كثر أسفه ، ومنها : في تقلّب الأحوال ، علم جواهر الرجال (٥) ... الخ

---

(١) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ١٨ .

(٢) أنظر عياض : نفسه ،ج٢، ص ٢٤٥ .

(٣) أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٦٢ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٢٦٣ .

(٥) عياض : نفسه ،ص ٢٢٥ .

٢- النثر التأليفي :-

يتملك العجب أنفسنا ، ونحن نتطلع إلى الحركة الأدبية في عصر الأغالبة ، فلا نجد ثمة مؤلفات أدبية تملأ الساحة ، وتتناسب مع النهضة العلمية الشاملة التي شهدتها البلاد في هذا العصر ، ومبعث العجب يكمن بالإضافة لما ذكر في أننا لا نتصور انعدام وجود تلك المؤلفات في مجتمع أخذ بكل أسباب النهضة الأدبية ، وفي ظل مناخ مشجع للعطاء برعاية أمراء محبين للأدب ورجاله .

بيد أننا على أية حال ، لم نعدم مطلقاً الإشارة إلى وجود مؤلفات أدبية آنذاك . فلقد ذكر بأن الأديب الكاتب أبو اليسر الشيباني ، الذي أشرنا إليه آنفا ، خاض مجال التأليف الأدبي ، وترك لنا عدة مؤلفات منها : لقط المرجان في الأدب ، ويقول حسن حسني عبدالوهاب (١) أنه جاء على نسق عيون الأخبار لابن قتيبة ، وإن كان أكبر حجماً منه . ومن بين تلك الكتب التي عرفت له ، قطب الأدب ، المرصعة والمدبجة ، وهي كتب من نوع الرسائل النثرية في الأدب (٢) . كما أننا تعرفنا على مصنفين أدبيين كما يعتقد (٣) ، وهما : راحة القلب) . وكتاب (الزهر للأمير الأغلبي محمد بن

---

(١) الورقات ، القسم الأول ،ص ٢٤٦ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم والصفحة .

(٣) نقول كما يعتقد ، لأن ابن الابار في كتابه : الحلة البراء ، ج١ ص ١٨٠ ، قال وهو يترجم للأمير الأغلبي الشاعر محمد بن زيادة الله بن محمد بن الاغلب بن ابراهيم بن الأغلب ، بأنه كان (أديباً ظريفاً ، ألف كتاب : (راحة القلب) وكتاب (الزهر) ، بالإضافة إلى كتاب في تاريخ أسرته بني الأغلب .

زيادة الله بن محمد بن الأغلب (ت : ٢٨٦هـ) . يبقى أن نشير في ختام حديثنا عن النثر في عصر الأغالبة ، أننا لم نوفق لسوء الحظ في العثور على مايدل على وجود نشاطات نثرية مختلفة ، سواء في بقية المدن الإفريقية، أوفي بقية الأقاليم الإفريقية الأخرى ، وإذا جاز لنا أن نعلق ، فإننا نقول بأن ذلك يعد أمراً طبيعياً في ظل ضعف النشاط النثرى كله على مستوى العصر نفسه .

النثر في عصر الفاطميين :-

مثلما كان النثر في عصر الأغلبة أقل أوجه الحركة الأدبية ظهوراً وبروزاً ، كان كذلك في عصر الفاطميين وخاصة فيما يتصل بالنثر التأليفي الأدبي ، أما النثر الفني ، فهو وإن كان أحسن حظاً في الإشارة من النثر التأليف الأدبي ، إلاَّ أنه لم يزدهر منه سوى بعض ألوان دعت دواعٍ إلى وجودها بكثرة ، كالمواعظ والوصايا التي كان الخلفاء الفاطميون يعظون بها أتباعهم .

ا - النثر الفني :-

حفل عهد الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي (٢٩٦ - ٣٢٢هـ) بكثرة المكاتبات الرسمية التي كانت تُتبادل بينه وبين ولي عهده أبي القاسم الذي كان مكلفاً ببعض الفتوحات في المغرب

ومصر (١) ، وتلك التي كانت تُتبادل بينه وبين قواده ورجال دولته (٢) . وبلغت تلك المكاتبات من الكثرة حداً لدرجة تعذر علينا معها استقصاؤها في المصادر التي أشارت إلى ذلك . بيد أن الإشارات العديدة والكبيرة لتلك المكاتبات لم يرفقها ايراد نصوصها إلاَّ فيما ندر . والواقع أننا كنا نُمنى النفس في العثور على تلك النصوص حتى يتسنى لنا الحكم على مقدار ما بلغه فن الكتابة من رقي وتطور من جهة ، ولنتعرف على من اضطلع بكتابة تلك الرسائل الرسمية من جهة أخرى . لكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فلم تَجُدْ علينا المصادر إلاَّ بنماذج يسيرة جداً من تلك المكاتبات ، وهي التي أشار إليها القاضي النعمان في كتابه افتتاح الدعوة (٣) .

وعلى أية حال فإن النزر اليسير من تلك النصوص التي حفظت لنا ، يكفينا للدلالة على التطور الذي رافق الكتابة الرسمية من حيث الشكل والمضمون . فلقد اصطبغت المكاتبات الرسمية آنذاك بميزات كثيرة ، منها متانة الأسلوب ورصانه العبارة ، والحرص على استخدام المحسنات البديعية المختلفة عن سجع وطباق ومقابلة . وكذلك التفنن في استخدام الجمل الاعتراضية ، والاستشهاد كثيراً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والتأكيد على استخدام عبارات التمجيد والتفخيم للخليفة . أما من حيث المضمون ، فلقد اتسعت المعاني واتسعت أغراضها من دون ريب ، فقد

---

(١) أنظر ابن عذارى : نفسه ، ص ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٨١، ١٨٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ .

(٢) أنظر ابن عذارى : نفسه ، ص ١٦٠ ، ١٦١ ١٦٢، ١٦٥، ١٧٠، ١٧١ - ١٧٢، ١٧٥، ١٧٨ وغير ذلك .

(٣) نفسه ، ص ٢٨١ - ٢٨٩، ٢٩٠-٢٩٩ .

أصبحت هناك معانٍ لا يخلو منها كتاب رسمى على ما نستنتجه من ملاحظتنا للقليل من النماذج المحفوظة ، كالتأكيد على الحقائق الشيعية التي هي من قبيل المسلمات عندهم . وهي التذكير أبداً بالحق المغتصب من الخلافة الذي استعاده الفاطميون ، وأن الولاية واجبة الطاعة على الناس ، مع التركيز على ترديد عبارات أو ألفاظ شيعية اسماعيلية محضة ، من أمثال حجة الله في أرضه ، وابن رسول الله ، أوولد رسول الله ، وولى الله ، والإمام أمير المؤمنين ، وهي ألفاظ خاصة بالخلفاء الفاطميين ، وكذلك أولياء الله وهم أتباعهم (١) ... الخ .

وكيفما كان الأمر ، فإننا إذا تركنا ذلك وبحثنا عن أهم الكُتّاب في عهد الخليفة الفاطمي الأول لوجدنا من حسن الحظ ذكراً لعدد منهم كأبي عبدالله الشيعي الذي قتل عام ٢٩٨هـ ، وكأبي اليسر ابراهيم بن محمد الشيباني الذي كان متولياً شؤون ديوان الرسائل في عصور أمراء الأغالبة الثلاثة الأخرين حسبما ذكرنا من قبل . وقد استكتبه الخليفة عبيدالله المهدي أيضا ، وظل يزاول مهمام منصبه حتى توفى عام ٢٩٨هـ (٢) . ثم استكتب

---

(١) راجع تلك النصوص عند القاضي النعمان : نفسه ، ص ٢٨٠– ٢٨٩ ، وهو الكتاب الذي بعثه الداعي أبو عبدالله الشيعي إلى عامل القيروان غداة نجاحه في اطلاق سراح عبيدالله المهدي من سجن بني المدرار في سجلماسة ، وكذلك الكتاب الثاني ، ص ٢٨٩ – ٢٩٠ ، وهو الكتاب الذي كتبه أبو عبدالله الشيعي بأمر من الخليفة عبيدالله ، الذي كان متهيأً لدخول القيروان، ثم الكتاب الذي كتبه الخليفة ، ص ٢٩٤ – ٢٩٩ أمر أن تنسخ منه نسخاً وترسل للمدن، وهو أن لم يشر إلى كاتبه ، إلا أنه جاء يعكس كل خصائص الكتابة الفنية والمذهبية التي »أشرنا إليها في المتن .

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ص ١٦٣ .

الخليفة كاتباً آخر هو أبو جعفر محمد بن أحمد بن أحمد بن هارون البغدادي الذي مالبث أن رقى إلى وظيفة صاحب ديوان البريد ، بالإضافة إلى الكتابة ، وذلك عام ٣٠٠هـ (١) . هذا ولم تزودنا المصادر بمعلومات عنه أكثر مما سبق ذكره . ومن الكتاب الذين ذكر أنهم كانوا ضمن كتاب الخليفة عبيدالله المهدي وقتذاك كاتب يدعى أبا غانم الكاتب (٢) . وهذا أيضا هو جل ما نعرفه عنه . ومن العجيب أن ابن حماد صاحب كتاب : ملوك بني عبيد وسيرتهم الذي أشرنا إليه مرات عديدة سابقاً ، لم يعن بذكر كتاب الخليفة ، وهو يأخذ نفسه بمنهج محدد في نهاية ترجمته للخلفاء الفاطميين يذكر فيها قضاة وحجاب وأصحاب بيوت المال في عهد كل منهم (٣) .

وفي عهد الخليفة القائم بأمرالله (٣٢٢- ٣٣٤هـ) لم يقدر لنا التعرف على أي نشاط نثري فيما يتصل بالمكاتبات الرسمية ، ويبدو أن ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني قد أخذت عليه كل سنوات عهده ، فانكفأ معزولاً ومحاصراً في عاصمته المهدية . ومع أن عهد ابنه الخليفة اسماعيل المنصور (٣٣٤-٣٤١هـ) قد شهد تداول كتابات رسمية بين الخليفة وقواده ورجال دولته (٤) ، إلاَّ أننا لم نستطع العثور على نماذج المكاتبات ، ولا على معرفة كتابها .

---

(١) ابن عذاري : نفسه ، ص ١٦٩ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ،ص ١٨١ .

(٣) أنظر : ص ٥٣ ، من الكتاب .

(٤) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٦٤- ٦٥ ، ٦٧، ٧١، ٧٥، ٧٦ .

وفيما يتصل بالكتاب الرسميين في عهد الخليفة القائم بأمر الله ، فإن غاية ماعرفناه أنه أقر أبا جعفر محمد بن أحمد بن هارون البغدادي على منصبيه اللذين كان يتولاهما من قبل كما عرفنا آنفا(١) . أما في عهد الخليفة المنصور ، فقد انعدمت الإشارة إلى أي كاتب من كتاب الدولة الرسميين ، وقد أغفل ابن حماد (٢) الإشارة إلى ذلك في ترجمته للخليفة المنصور ، وكذلك في ترجمة أبيه الخليفة القائم من قبل .

أما عهد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله (٣٤١- ٣٦٢هـ) أي عهده المغربي الذي يعنينا هنا - ،فقد كان حافلاً بالنشاط النثرى الإداري إذ أن سلطان الدولة الفاطمية الذي شمل بلاد المغرب كلها على وجه التقريب، تطلّب تبادل الرسائل الديوانية بين الخليفة وقواده ورجال دولته من جهة وبين الخليفة والملوك والأمراء المجاورين لدولته براً وبحراً من جهة ثانية، وبين الخليفة وبعض الثائرين عليه من جهة أخيرة . ولعل من حسن الحظ أن كثيراً من تلك المكاتبات ، قد حفظت نصوصها (٣) ، وليس يساورنا شك في

(١) ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٠٩ .

(٢) ملوك بنى عبيد وسيرتهم ، ص ٨٧ - ٥٨ ، ٨١- ٨٢ .

(٣) أنظر بعضاً من نصوص تلك الكتب عند : القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد اليعلاوي > ص ١٦٨- ١٧٣- ١٧٤ (حيث رد الخليفة المعز على رسالة الخليفة الأموى عبدالرحمن بن الناصر) ، ص ٣٦٧-٣٦٩ (حيث نفس الرسالة التي بعثها الخليفة المعز إلى امبراطور الدولة البيزنطية) و ص ٣٤٥ (حيث نص رسالة المعز لدين الله إلى الإخشيدي صاحب مصر) - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٣٠١- ٣٠٢ (حيث نص رسالة المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم القرمطي) - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٠٨-٢٠٩ (حيث نص رسالة الامير عبدالله بن المعز لجوذر الصقلي) (نقلا عن أبي على منصور العزيزي الجوذري صاحب كتاب :سيرة الاستاذ =

أن النثر الإداري جاء متوافقاً مع روح العصر الذي كانت تحياه الدولة الإسلامية في المشرق والمغرب على السواء ، فالنصوص التي حفظت لنا تمثل قطعاً أدبية لا تقل عن مثيلاتها في المشرق من إغراق في التأنق اللفظي ، ومن إغراق في الصنعة والتكلف ، إلى الاستخدام المبالغ فيه للمحسنات البديعية . هذا مع التوسع في استخدام الخصائص التي تميّزت بها الكتابة الفاطمية مثل استخدام الألفاظ الشيعية الاسماعيلية المعتادة ، على غرار: ولي الله ، والإمام ، وصلوات الله عليه ... الخ ، وكذلك الإغراق في اسباغ صفات الإجلال والتعظيم للخليفة مع ترديد المسلمات الشيعية المعروفة ، وهي الحق المغصوب في الإمامة ، وحق الولاية الواجبة على الناس، وعلم الولي الذي هو فوق علوم البشر ... الخ .

ولعل أصدق رسالة (١) ديوانية تعكس التطور الكبير الذي أصاب المكاتبات الرسمية من حيث الشكل والمضمون ، تلك التي بعثها الخليفة المعز لدين الله إلى الثائر عليه الحسن بن أحمد الأعصم الثائر القرمطي (٢) ، وقد بعثها له الخليفة المعز عشية قدومه من إفريقية إلى مصر . فتلك الرسالة بلغت فيما يبدو لنا الذروة في الروعة الأدبية ، إذا استخدم فيها المعز كل ما

= جوذر) – عبدالمجيد عطية وعبدالرازق الحليوي : تميم بن المعز ،ط١ ،ص ٩٩-١٠٤ ، (حيث بعض نماذج لنصوص رسائل متبادلة بين المعز ومولاه جوذر الصقلي (نقلا عن سيرة الاستاذ جوذر) إلى غير ذلك من النصوص .

(١) أنظر نص الرسالة بتمامها عند حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٣٠١-٣٠٧.

(٢) عن ثورة الحسن الأعصم وصراعه مع الفاطميين والخليفة المعز ، أنظر حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ١٠٦ – ١٢٦ .

أوتى من بلاغة وفصاحة ، وتفنن في استخدام المحسنات البديعية المختلفة ، ومماً زاد في قيمتها الفنية استخدام أسلوب الترغيب والترهيب من قبل الخليفة ، وكذلك أسلوبى الاستفهام والتعجب اللذين لم يخل منهما فقرة من الفقرات ، ثم القدرة الفائقة على استخدام المترادفات ، وكذلك القدرة المتمكنة في الاستشهاد بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية في كل سطر من سطور الرسالة تقريباً .

أما من حيث المضمون ، فقد كانت الرسالة كما يقول حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (١) الغاية في فن الدبلوماسية السياسية ، والدبلوماسية المذهبية . فأما الشق السياسي ، فقد حاول الخليفة أن يتعرض بالتفصيل لجميع قضايا الخلاف السياسي مع ذلك الثائر . وأما الشق المذهبي ، فقد شغلت المضامين المذهبية كل أجزاء الرسالة . إذ تناول الخليفة فيها كل مسلمات المذهب الشيعي الإسماعيلي التي كنا قد أشرنا إليها من قبل ، مثل الحق الآلهي الأزلي لهم في الخلافة والإمامة ، إلى التذكير بالنقمة التي تحل بمغتصبي حقهم في الخلافة من العباسيين أو غيرهم ، إلى نظرية تقديس الأئمة، إلى الطاعة التامة الواجبة للأئمة ... الخ. مع التركيز على ايراد المصطلحات الشيعية الإسماعيلية المحضة التي أشرنا إليها من قبل .

ومن المثير للدهشة أن لايتهيأ لنا التعرف على الكتَّاب الذين كان يضمهم بلاط الخليفة المعز لدين الله آنذاك . فعدا جوذر

(١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ١٢٢ .

الصقلي (١) المشهور بالأستاذ (ت : ٣٦٢هـ) ، الذي كان أحد كتاب الخليفة المعروفين ، لم نوفق في العثور على ذكر لكتاب آخرين غيره ، نعم لقد ذكر بأن القائد الفاطمي المشهور جوهراً الصقلي (٢) (ت : ٣٨٦هـ) كان يعرف بجوهر الكاتب ، لكننا فيما عدا رسالته التي بعثها للمصريين عند افتتاحه لمصر (٣) ، لم نتبين أي نشاط نثري سابق له في إفريقية .

وأيا ماكان الأمر فيما يتصل بالمكاتبات الرسمية في عصر الفاطميين إلاّ أنها كانت بدون ريب أفضل حظاً من غيرها من ألوان التعبير الأدبي فالرسائل الإخوانية وهي لون من أعذب ألوان النثر الفني ، لم تكن متداولة آنذاك ، مع أن العصر لم يخل من الكتاب والأدباء واللغويين المرموقين ، ومن غير المستبعد أن يكون الإهمال قد لف هذا الجانب الممتع من النثر مثلما لف غيره .

على أن هذا العصر آزدهى بلون آخر من ألوان التعبير الأدبي ، ذلك هو المواعظ والوصايا التي كانت شائعة في العصر الفاطمي . وفي الحق فآن ثمة دواع فرضت ذيوع هذا اللون من ألوان التعبير الأدبي ، فالفاطميون بوصفهم دعاة لمذهب يختلف كثيراً عن مذهب الأغلبية الكبرى من السكان ، كان لابد لهم من دعاة يتصدون لتقريب الناس وتأليفهم إياه . ثم أن الغموض والابهام الذي يتميز بهما المذهب الشيعي الإسماعيلي ، كانا

---

(١) أنظر ترجمة مفيدة له عند الزركلي : نفسه ،ج٢ ، ص ١٤٤ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ١٤٦ – ١٤٧ .

(٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٩٨، ٢٠١ .

يتطلبان أناساً أكفاء يخضعون لتدريب مكثّف لفهم طبيعة المذهب ، ولنشر ما تقضى الظروف نشره وقت الحاجة (١) .

ومن هنا ، فإن فن الدعاية التي تشكّل عنصراً رئيسياً في المعتقد الشيعي الإسماعيلي حسبما عرفنا من قبل (٢) . استوجب أن يخضع الداعي لمنهجين رئيسيين : أولهما أخلاقي ، ويهدف إلى بث صفات الخير كلها في شخصية الداعي ، وثانيهما تعليمي مذهبي ، ويهدف إلى غرس مكونات الثقافة المذهبية في شخصية الداعي أيضاً . ولذلك فقد كثرت الوصايا والمواعظ من قبل الأئمة التي تتطرق إلى الجانبين معاً في تكوين شخصية الداعي .

ولقد جاءت تلك الوصايا والمواعظ التي كان الأئمة يبثونها دعاتهم متينة السبك ، جزلة الألفاظ . واضحة العبارة ، تميل إلى القصور والإيجاز، حتى تكون أكثر وقعاً في النفس (٣) .

ومن ألوان النثر الفني الذي عرفه عصر الفاطميين ، وإن لم يكن بصورة واسعة ، الخطب السياسية المذهبية التي كان الخلفاء الفاطميون يخطبونها في صفوف الناس سواء في المناسبات الدينية كالجمع والأعياد ،

---

(١) أنظر القواعد التي وضعها الفاطميون في الدعاة ومواصفاتهم عند حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٢- ٢٤٠ - ٢٦٢- ٢٦٦ .

(٢) أنظر قبل ، ص ٥٤٢ .

(٣) أنظر بعض تلك المواعظ والوصايا عند القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، ص ٨٣، ٩١، ٩٢، ١٠٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ٢٢٢، ٢٥٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ وغير ذلك .

أو في المناسبات الأخرى (١). وما من ريب في أن عصر الفاطميين لم يخل من الدواعي التي تتطلب الخطابة ، لاسيما ، وهم يعيشون في مجتمع يناصبهم العداد آناء الليل وأطراف النهار . ومن هنا فقد اهتموا بالاهتمام بوسيلة توضح نياتهم وأهدافهم دون لبس أو ابهام ، ولذلك فقد أولوا الخطابة جزءاً كبيراً من عنايتهم ، وتمثلت تلك العناية في أنهم كانوا يتولون بأنفسهم الخطابة حتى يكون تأثيرها أوقع في نفوس أتباعهم وخصومهم على السواء ، ولم يعهدوا لأحد أن يتولى أمر الخطابة إلاَّ نادرا .

ولعل الخطبة التي توضح أصدق توضيح الاتجاه المذهبي للفاطميين من جهة، وتعكس جل خصائص أسلوب فن الخطابة من جهة أخرى هي الخطبة التي خطبها الخليفة المنصور في الناس في عيد الفطر عام٣٣٤هـ، وهو العام الذي انتشرى فيه خطر ثورة أبي يزيد،ومماً جاء في تلك الخطبة قول المنصور :(اللهم انك أخرجتني من المهاد والوساد، وجنبتي الرقاد ، وحالفتني السهاد وسلكت بي مغاور البلاد ، اللهم احكم لي على مخلد بن كيداد { فرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد} (٢)

---

(١) لم تقتصر الخطب على الخلفاء الفاطميين أو من ينيبونه عنهم ، ولكن كان لأهل السنة مشاركة في ذلك ، ولقد مر بنا سابقاً ونحن نتحدث عن أثر الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة على الحياة العلمية ، الخطبة التي خطبها الخطيب المالكي – وهو أحمد بن محمد بن أبي الوليد – في جموع السنة إبان الاستعداد لمقاتلة الشيعة والتأهب للانضواء تحت قيادة الثائر البربري أبي يزيد مخلد ابن كيداد . عن ظروف هذه الخطبة ونصها الكامل ، أنظر المالكي : نفسه ، ج٢، ص ٣٤٢– ٣٤٤ مع الحواشي . وهناك خطبة دينية غير مذهبية تنتمي إلى هذا العصر ، وقد نسبت إلى الفقيه المشهور ، ربيع القطان ، وهي خطبة بليغة عكست كل خصائص الخطابة أنظر نص هذه الخطبة عند المالكي : نفسه ، ص ٣٣٤ .

(٢) سورة الفجر آية رقم (١٠–١٢) بدون ذكر حرف الواو من كلمة : فرعون .

اللهم أنزلهم بالمرصاد ، اللهم إنك تعلم أني سلالة نبيك ، وابن رسولك ، وبضعة من لحمه ، ونقطة من دمه ، ماقلت فخراً ولا لدداً، اللهم إنك تعلم من أين أقبلت ، إلى أين انتهيت ، وما فيك لاقيت ، اللهم إني بذلت مهجتي ونفسي في سبيلك مجاهداً لعدوك ، طالباً الثأر لنبيك ، وابتغاء مرضاتك ، حتى تعيد في الأرض حق عبادتك ، ويحكم فيها بحكمك ، إنك أهل المن والطول) (١) .

فهذه الخطبة علاوة على القضايا السياسية المذهبية التي تثيرها فإنها تميزت بمتانة الأسلوب وعذوبة الألفاظ ، وقوة التأثير ، والاقتباس من القرآن الكريم ، وهي المميزات التي تميزت بها الخطب في الدولة الإسلامية (٢) .

ومن ألوان النثر الفني التي انفرد بها عصر الفاطميين دون غيره: التوقيعات التي شغف بها الخلفاء الفاطميون منذ عهد الخليفة عبيدالله المهدي ، حتى عهد المعز لدين الله ، والتوقيعات كما هو معروف لون جذاب من ألوان التعبير الأدبي ، ويتلخص فيما يعلّق به الخليفة أو الملك أو الأمير أو الوزير على مايرفع إليه من الكتب ، وتمتاز التوقيعات بأنها تجمع بين القصر والإجمال ، وقد تكون بمثابة بيت من الشعر ، أو آية، أومثل .(٣)

والخلفاء الفاطميون كانوا ذوى ثقافة واسعة ، ومن هنا اهتموا بالتوقيعات التي تترك أثراً جميلاً في نفوس الأتباع ، وممّا اشتهر من

---

(١) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٥٩- ٦٠ .

(٢) أحمد حسن الزيات : تاريخ الأدب العربي ، ص ١٧٦ .

(٣) أحمد حسن الزيات : نفس المرجع أعلاه ، ص٢١٩- ٢٢٠ .

توقيعات في عهد الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي توقيعه بعزل القاضي أبي اسحاق بن أبي المنهال في سنة ٣١١هـ ، فقد وقع على خطاب عزلة مخاطباً القاضي (لم نعزلك عن حرجة ، وانما عزلناك للينك ومهانتك !) (١) . ثم مالبث أن أعاده بعد عام واحد للقضاء ، فوقع في خطاب تعيينه مخاطبا له : (وانما كنا عزلناك للينك ومهانتك ! ورددناك لدينك وأمانتك !) (٢) .

وشغف المعز لدين الله بالتوقيعات أيضا ، لكنها لم تكن موجزة مثل توقيعات المهدي ، بل غلب عليها الطول والاستقصاء مع احتفاظها بخصائص فن التوقيعات (٣) . والملاحظة الأخرى لتوقيعات المعز أنها كانت موجهة غالبة لشخص واحد ، وهو قاضيه وداعيته الأبرز والأشهر القاضي النعمان ، الذي كان يرفع إلى خليفته كل أمر يهمه من شؤون القضاء ، وشؤون تنظيم الدعوة ، وكل مايخدم الثقافة المذهبية الإسماعيلية ، وأحياناً أموره الشخصية . ولم تكن كل توقيعات المعز طويله وإنما كان بعضها قصيراً موجزاً ، مشرق العبارة ، ومن تلك التوقيعات التي وقعها الخليفة المعز والتي لانستطيع كتم إعجابنا بها ، التوقيع الذي وقَّع به الخليفة للقاضي النعمان عندما رأى جزع القاضي على وفاة الخليفة المنصور والد المعز ، فوقع له : (يا نعمان ، ليحسن عزاؤك ويجمل صبرك ، فمولاك

---

(١) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٨٨ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٨٩ .

(٣) أنظر مثلا القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، ص ١٢٢ ، ١٢٣، ٢٥٧، ٣٥٨، ٣٦٠ ، ٣٣٤ ، ٣٩٥ .

مـضـى، ومـولاك بقى ، وأنت واجـد عندنا مـاكنت واجـداً عنده ، ونحن كنا سـبـبك عنده ، ولن ينقطع ذلك السـبب لدينا لك إن شـاء الله تعـالى ، فطب نفساً ، وقر عينا، وليحسن بنا ظنك ، وتسكن إلي ماتحبه لدينا نفسك) (١).

بقى أن نشير أخيراً إلى أن عصر الفاطميين لم يخل من أناس نطقوا بالحكمـة ، والقـول المأثور . وقد اشـتـهـر بذلك عـدد من الفـقـهـاء تماماً مـثل ماعرفه العـصـر الأغلبي من قبل . فممَّن أشير إلى أنه اشـتـهر بقول الحكمة الفقيه سـعيد بن الحداد (ت٣٠٢هـ) ، وهو ممن عرضنا له أثناء حديثنا عن انتـشار المذهب المالكي في إفريقـيَّة ، وتردد اسمـه كثـيراً عند الحـديث عن الدراسـات الشـرعية . ومنهم الفـقيه ربيع القطان (٢) (ت : ٣٣٣هـ) ، وهو كذلك أحد الذين تردد اسمهم كثيراً عند حديثنا عن انتشار المذهب المالكي . وعند التعرض للدراسات الشـرعية ، ثم الفقيه أبو ميسرة أحمد بن نزار (٣) المتوفى عام ٣٣٧هـ ، وغير ذلك .

ولقد كان سـعيد بن الحداد أكثرهم طرقاً لهذا اللون الممـتع من النثر الفنى . فـمن حكمـه مـانصـه : من تحـبب إلى العـبـاد بمعـاصي الله تعـالى بغَّضه الله إلى من تحبب إليه بمعصيته ، وكذلك : ما استنقذت النفوس بمثل ترك مساعدتها ، وأيضا : إنما هو دين مروءة ، فمن عرى فهمهما، فقد عرى من كل خـير. و أعظم من ذنب المذنب تركه الاعتـراف بذنبه (٤) ، إلي غير

(١) القاضي النعمان : نفس المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٢) أنظر عياض : نفسه ، ص٣٥٩- ٣٦٠(حيث بعض تلك الأقوال المأثورة) .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ج٢ ص٣٣٢(حيث الاشارة إلى اشتهاره بقول الحكمة) .

(٤) المالكـي : نفسه ، ص١٠٥-١٠٩ (حيث الإشـارة إلى هذه النصوص وغيرها) .

ذلك من الأقوال العديدة التي تدل على البراعة الأدبية المميزة .

٢- النثر التأليفي :-

أيا ماكانت الأسباب في تفسير قلة الانتاج الأدبي فيما يتعلق بالتأليف الأدبية بالمعني المفهوم والدقيق لها ، فإن الحقيقة المؤسفة أننا لم نعثر على أي ذكر لنشاط تأليفى أدبي في هذا العصر ، أي عصر الفاطميين ، ويبدو أن ذلك يرجع إلى المناخ المذهبي الذي ساد إفريقيَّة في عهود الخلفاء الفاطميين ، الذين كان اهتمامهم مركزاً على نشر المذهب الشيعي الإسماعيلي بين المغاربة الرافضين له . وكما سبق أن أوضحنا في مجال الدراسات الشرعية أن المغاربة – بدورهم – قد قاوموا هذا المذهب أشد المقاومة . وليس ثمة شك في أن هذا المناخ الذي اصطبغ بالصراع العنيف بين الخلفاء الفاطميين وبين الكثرة الغالبة من المغاربة . وليس ثمة شك في أن هذا المناخ الذي اصطبغ بالصراع العنيف بين الخلفاء الفاطميين وبين الكثرة الغالبة من المغاربة المالكية قد ترك بصماته على الانتاج الأدبي في ذلك العصر ، وعلى أية حال فإن المؤلفات ذات الصفة المذهبية التي وصلت إلينا من ذلك العصر لم تخل من قيمة أدبية طيبة . فبين أيدينا ثلاثة كتب من نتاج ذلك العصر ، أولها كتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان بن حيون ، وثانيها كتاب الهمَّة وفضل الأئمة للقاضي النعمان كذلك ، والمؤلف الثالث كتاب : تلقيح العقول للأديب برية بن أبي اليسر الشيباني (ت٣٤١هـ)

أما كتاب المجالس والمسايرات ، فهو كتاب قيم متعدد الجوانب والاهتمامات ، وإذا تجاوزنا الإشارة إلى قيمته وأهميته التاريخية والوثائقية

والمذهبية ، فإن قيمته الأدبية لا تقدر .

فكتاب المجالس والمسايرات ، كتاب أدبي ممتع ، طريف في موضعه ، إذ يعد من كتب أدب السيرة ، فقد ألّف القاضي النعمان مادته من ملازمته شبه الدائمة للخليفة المعز لدين الله ، ومن آرائه المتعددة في شتى جوانب الحياة السياسية والاجتماعية والمذهبية التي كانت تعيشها الدولة في عهد المعز ، بالإضافة إلى بعض أحداث جرت في عهود الخلفاء والسابقين ، كما أن الكتاب كان يرصد مواقف المعز من القضايا الداخلية والخارجية التي تشهدها الدولة وقتذاك .

أما من حيث القيمة الأدبية للكتاب ، فهو قطعة أدبية رائعة كما وصفه بحق حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (١) في تقريظهما للكتاب ، ذلك لأن الكتاب يمتاز بأسلوب سهل رقيق ويمتاز بالانسجام الكبير بين ألفاظه ومعانيه . والكتاب يعد انعكاساً صادقاً للأدب الشيعي الإسماعيلي في عصوره الأولى .

أما المؤلف الأدبي الثاني ،فهو : كتاب الهمّة وفضل الأئمة للقاضي النعمان (٢) نفسه ، والكتاب كما يومئ عنوانه . ألفً بقصد تبيان فضل الأئمة وحاجة الناس لهم ، ويسعى بالإضافة إلى هذا ، لبث روح التفاني والإخلاص في نفوس الأتباع ، أي الدعاة ، لإعدادهم بما يبثهم فيه من المثل

---

(١) المعز لدين الله ، ص ٢٦٤ .

(٢) أنظر ما ذكرناه قبل ، ص ٣٥٣ ، عن مؤلفات القاضي النعمان .

والأخلاق النبيلة إلى ممارسة دورهم الخطير في نشر الدعوة ، علاوة على تعدّد مناصبه التاريخية المذهبية الأخرى (١) .

ولاشك أنه لايقل من حيث قيمته الأدبية عن المجالس والمسايرات ، ويرى حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف (٢) أن الكتاب يمثل الأدب الإسماعيلي في عصوره المبكرة أحسن تمثيل .

والمؤلف الأدبي الثالث والأخير والذي ينتمي إلى عصر الفاطميين ، هو كتاب : تلقيح العقول للأديب : برية بن أبي اليسر الشيباني ، كما ذكرنا آنفا . والكتاب عبارة عن مجموعة من الأمثال ، ويقع في ١٥٧ باباً من الأبواب الصغيرة (٣) ، ويبدو أنه قد ألفّه في بداية عهد الخليفة المعز (٣٤٣-٣٦٥هـ) لأنه توفى في نفس العام الذي تولى فيه المعز الخلافة ، أي عام ٣٤١هـ .

يبقى أن نشير قبل أن نتأهب لترك الحديث عن النثر في عصر الفاطميين ، إلى أننا لم نعثر على أي نتاج نثرى كانت تتجاوب أصداؤه في بقية المدن الإفريقية . أما النثر الإباضي سواء في جبل نفوسه (٤) ، أوفي إقليم الجريد (٥) ، فلم يكن واضحاً آنذاك . وكل النماذج التي أشير إلى أنها قد تنتمي إلى عصر الفاطميين لاتروى ظمأ ، ولاتشفى غلة .

---

(١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع السابق ، ص ٢٦٤ - ٢٦٦ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٦٤ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٢، ص ٢٧٧.

(٤) أنظر أحمد مختار عمر : المرجع السابق ،ص ٢٠٨ - ٢١٣ .

(٥) أنظر صالح بأجنية : نفسه ، ص ١٥٧ - ١٦٣ .

النثر في عصر الزيريين :-

لم يبلغ النشاط الأدبي في مجال النثر في عصر من العصور السابقة مابلغه من ازدهار ورقي في عصر الزيريين الذي نؤرخ لحركته الأدبية هنا ، ولقد أصاب ذلك الإزدهار والرقي الدعامات الثلاث التي يقوم عليها النشاط النثرى . وهي الشكل والمضمون والكم ، غير أن نشاط الدراسات النثرية بقسميها الرئيسيين : النثر الفنى ، والنثر التأليفي لم يكن متساوياً خلال هذا العصر في عطائه . فالنثر التأليفي كان أكثر بروزاً وظهوراً من النثر الفني . وفي هذا من الدلالة مافيه ، على أن البلاد دخلت وقتذاك المجال الأرحب من الدراسات الأدبية وهو مجال التأليف والمجاميع الأدبية ، وكفى به دليلاً ينهض على صدق مقولة تقدم الدراسات الأدبية في هذا العصر .

ا - النثر الفني :

أهم مايلاحظ على مسيرة النثر الفني في عصر الزيريين أن بعض ألوانه المتعة التي عرفتها إفريقية من قبل قد اختفت في هذا العصر مثل الوصايا والمواعظ والخطابة ، والتوقيعات وغيرها . ولعل السبب في ذلك يكمن في ضعف الدواعي الداعية لها في هذا العصر . واللونان اللذان تلمسنا شواهد لهما هما المكاتبات الديوانية أو الرسمية ، والرسائل الإخوانية فحسب ، ومن البدهي أن الحاجة إلى المكاتبات الرسمية لا يمكن أن تنتفي في ظل دولة كبيرة مثل الدولة الزيرية ، كما أن الرسائل الإخوانية لايمكن انقطاعها في هذا العصر الذهبي للأدب ، بل لعلها كانت الدليل

الواضح على مقدار الرقى الأدبي الذي بلغته الحياة الأدبية في العصر الزيري .

أما المكاتبات الرسمية ، فمع أن هذا العصر قد عرف كتاباً كباراً لهم قيمتهم الأدبية التي خلَّدتها كتب التاريخ والأدب حسبما سنعرف بعد قليل ، إلا أننا لم نوفق في العثور على نماذج أو نصوص لمكاتبات ديوانيه (١) تنتمي إلى هذا العصر ، حتى يتهيء لنا الحكم على مقدار مابلغته من رقى وتطور متوقع من حيث الشكل والمضمون هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لنتعرف على كتابها . وعلى كل حال فإننا قد عثرنا على ماهو أبلغ في الدلالة على مقدار ما بلغته المكاتبات الرسمية كماً ونوعاً وقتذاك . فهناك دليلان مهمان غاية الأهمية، الأول : أن هذا العصر ازدحم بعدد كبير من الكتاب المرموقين ذوى الثقافة الأدبية المتنوعة والواسعة ، والثاني : أن الكتابة الديوانية بلغت شأواً بعيداً من الإهتمام . فقد غدا ديوان الإنشاء في عصر الزيريين جهازاً حكومياً من أبرز الأجهزة (٢) . وفي هذا مايضع الدولة الزيرية في مصاف الدول الكبيرة التي أولت الكتابة كل عنايتها . ولهذا فلم يعد مدهشاً لنا أن نعرف

---

(١) على الإشارة الواسعة لهذه المكاتبات في معظم المصادر ، كتلك التي كانت تتبادل بين الأمراء الصنهاجيين والخلفاء الفاطميين من جهة ، وبينهم وبين عمالهم وقوادهم من جهة أخرى . أنظر مثلا ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٤٤، ٢٤٦ ، ٢٤٩، ٢٥٠ ، ٢١ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، إلى غير ذلك .

(٢) أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : بساط العقيق، ص٥٤- أحمد بن عامر ، المرجع السابق ، ص١٦١ .

بأن ديوان الإنشاء في عهد المعز بن باديس كان يضم وحده مائة كاتب من الكتاب المعروفين والبارزين (١) .

وكيفما كان الأمر ، فإذا تلفّتنا نبحث عن أهم وأبرز الكتاب خلال العصر الزيري لوجدنا كما قلنا عدداً وفيراً منهم . ففي عهد الأمير بلكين بن زيري (٣٦٢-٣٧٣هـ) تعرفنا على كاتب مشهور هو : عبدالله بن محمد الكاتب الذي كان يلي أمر القيروان بالإضافة إلى الكتابة آنذاك . وقد اشتهر بأنه كان شاعراً بارعاً له أشعار جزلة ، وقد استمر عبدالله الكاتب إلى أن قتل عام (٣٧٧هـ) يتولّى أمر منصبه في عهد الأمير المنصور بن بلكين بن زيري (٣٧٣- ٣٨٦هـ) إلى أن قتل عام ٣٧٧ هـ (٢)

وفي عام ٣٨٣هـ عهد الأمير المنصور بن بلكين إلى شخصية أخرى بتولى أمر المنصبين الخطيري اللذين كان عبدالله الكاتب يتولاهما من قبل . ذلك الشخص هو : محمد بن أبي العرب الكاتب (٣) ، وهو ربما يكون أحد أحفاد الفقيه المالكي المشهور بأبي العرب التميمي الذي عرفنا دوره العلمي المؤثّر من قبل ، وعلى أيه حال فإن معلوماتنا عن محمد بن أبي العرب الكاتب لاتزيد عمّا ذكر ، فلا نعرف انتاجاً أوإسهاماً أدبياً له ، كما أننا لا نعرف على وجه اليقين أو التقريب سنة وفاته .

ومن الكتاب المرموقين في العصر الزيري أيضا : الأديب الشاعر

---

(١) حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٢) ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٩-٢٤٠ ، ٢٤٢ .

(٣) ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٤٦ ومابعدها .

عبدالكريم بن ابراهيم النهشلي التميمي القيرواني (١) (ت : ٤٠٥ هـ) . وعبدالكريم النهشلي من رموز الأدب الإفريقي الذين أنبتتهم التربة الإفريقية، وسنفرد له لاحقاً حديثاً مسهباً عن مكانته الأدبية والنقدية . أما مايخصنا هنا فهو الحديث عن مكانته بوصفه كاتباً، فقد ذكر بأنه كان أحد كتاب الدولة الزيرية حتى عهد الأمير باديس بن المنصور (٣٨٦-٤٠٦هـ)(٢). ويرى المنجي الكعبي (٣) ، أنه كان من كتاب الدولة الفاطمية ، وبالذات الخليفة المعز لدين الله . لكننا في الواقع لانميل إلى تأييد هذا القول لافتقارنا إلى الأدلة التي تدعم هذا الرأي .

ومن كتاب عصر الزيريين المشهورين أبو الحسن محمد بن اسماعيل ابن اسحاق ، الملقب بأبي الحسن الكاتب (٤) (٤٠٨هـ) . وقد قال ابن

---

(١) تتبع المنجي الكعبي ترجمته في كل المصادر والمراجع التي كتبت عنه وقد خرج بانطباع مفاده أن النهشلي لم يوف حقه ، ولذلك فقد تتبع كل ذكر له في المظان المختلفة في كتاب بعنوان : النهشلي القيرواني ، جمع فيه كل شاردة وواردة عنه .

(٢) المنجي الكعبي : النهشلي القيرواني ،ص ٥٧-٥٨ (نقلا عن ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار) ، على أنه صحح ماقاله ابن فضل الله العمري من أن النهشلي ظل كاتباً حتى عهد تميم بن باديس ، فنفى المنجي الكعبي : نفس المرجع ، ص ٥٨ أن يكون النهشلي قد ظل كاتباً حتى عهد تميم لأنه ليس هناك أمير صنهاجي يدعى تميم بن باديس كما أشار ابن فضل الله العمري . ولكن هناك أمير يعرف بتميم بن المعز بن باديس الذي خلف أباه المعز في الإمارة ، ولما كان النهشلي قد توفى عام ٤٠٥ هـ ، فإن أمر كتابته للأمير تميم بن المعز الذي تولى الإمارة عام ٤٥٤هـ ليس أكثر من وهم ولعل مرده كما يرى المنجي الكعبي - وهلى على حق - اضطراب في النقل من ابن فضل الله العمري .

(٣) نفس المرجع أعلاه ،ص ٥٧ .

(٤) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، جمع وتعليق زين العابدين التونسي ، ص ١١٩-١٢١- الصفدي : الوافي بالوفيات : الجزء الثاني ، ص ٢١٤ - ٢١٦ - =

رشيق (١) عنه بأنه (من بيت شعر وكتابة ، وكان أبوه من جلة أهل زمانه في الرياسة والكتابة وعلم الدواوين ، وابتدار الشعر ، وكذلك ولده المذكور) .

ومنهم الحسن بن علي الكاتب المعروف بابن زنجي الكاتب (٢) (ت:٤١٦هـ) ، ويصفه ابن رشيق بأنه (من بيت كتابة ورئاسة وعلم (٣) . وكان بالإضافة إلى هذا شاعراً بارعاً مشهوراً .

ومنهم أيضا ، محمد بن عطية الكاتب المعروف بابن حيان الكاتب المغربي (٤) ويذكر الصفدي (٥) أنه كان متولياً شؤون الكتابة في (كتابة الحضرة) أي الحضرة الزيرية مع الكاتب المشهور ابراهيم الرقيق ، ويقول حسن حسني عبدالوهاب (٦) بأنه كان أحد حملة الأقلام في عهدي الأمير باديس بن المنصور والمعز ابنه .

= عبدالرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٦٧-١٦٨ (نقلا عن ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار) وقد أورد عبدالرحمن ياغي خطأ ماذكره ابن فضل الله العمري واهماً من أنه توفي عام ٤٤٨هـ . بينما الصحيح أنه توفي عام ٤٠٨هـ كما ذكر ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ،ص ١٢٠.

(١) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ١١٩ .

(٢) ابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٣-٨٧- عبدالرحمن ياغي : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢١٣-٢١٤ .

(٣) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ٨٣ .

(٤) الصفدي : نفس المصدر أعلاه ،ج ٤ ، ص ٩٥- ٩٧ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ،ص ٢١٨-٢١٩ - بساط العقيق في حضارة القيروان - شاعرها ابن رشيق ، ص٨٠ مع الحاشية .

(٥) الوافي بالوفيات : ج٤، ص ٩٥ .

(٦) بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ،ص ٨٠ .

ومن الكتاب المشهورين أيضاً : أبو اسماعيل الكاتب ابراهيم بن غانم ابن عبدون الملقب بابن غانم الكاتب (١) (ت : ٤٢١هـ) . وكان بالإضافة إلى شهرته بالكتابة ، شاعراً مبرزاً من شعراء القيروان الذين أثنى عليهم ابن رشيق في كتابه الأنموذج (٢) .

ومنهم الكاتب المشهور عبدالعزيز بن محمد القرشي الطارفي ، وقد اشتهر بالنثر ، وكان فيه : (فارس الفرسان ، وواحد الزمان ، ما بين تزوير مقامة مبتدعة ، وتصدير خطبة غير مفترعة ، إلى الرسائل السلطانية ، والمكاتبات الإخوانية) (٣) .

ويضيق بنا المجال لو استقصينا كتاب هذا العصر جميعهم ، فهم في الواقع كثيرون ، لكننا نختتم الحديث عن الكتابة والكتاب بكاتبين كانا أشهر كتاب الدولة الزيرية على الإطلاق ، ومن الكتاب المعدودين في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

فأولهما الكاتب الأديب والمؤرخ المشهور أبو اسحاق ابراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني (٤) (ت : ٤٢٥هـ) ، وهو من ألمع الكتاب الذين عرفتهم إفريقيَّة ، تولى رئاسة ديوان الإنشاء ، أي ديوان الرسائل منذ عهد الأمير المنصور وابنه باديس ، ثم حفيده المعز ، وظل

---

(١) ابن رشيق : نفس المصدر السابق أعلاه ،ص ٢٢- ٢٥ - الصفدي : نفس المصدر السابق أعلاه، ج٦ ، ص ٧٨-٧٩ - عبدالرحمن ياغي : نفس المرجع السابق ،ص ١٦٩- ١٧٠ .

(٢) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٣ .

(٣) عبدالرحمن ياغي : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٢١١-٢١٢ .

(٤) عن ترجمته الواسعة وسنة وفاته والاختلاف في ذلك أنظر بعد ، ص ٧٩٨ ومابعدها .

يمارس مهمته مدة تصل إلى نصف قرن من الزمان ، وكان يسمى خلالها بكاتب الحضرة ، أي الحضرة الصنهاجية (١) . وقد أثنى ابن رشيق (٢) معاصره على مكانته في فن المكاتبات فقال عنه (شاعر سهل الكلام ، محكمه ، لطيف الطبع قويه ، تلوح الكتابة على ألفاظه ، قليل الشعر ، غلب عليه رسم الكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس ، وهو كاتب الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن) . ويرى حسن حسني عبدالوهاب (٣) أن ابن رشيق يقصد بعبارة : (إلى الآن) : أي إلى عام ٤٢٥هـ ، وهو العام الذي ألف فيه ابن رشيق كتابه : الأنموذج .

ومما يدل على مكانته في فن الكتابة الرسمية أن معظم من ترجم له من المؤرخين نعته بأهم صفتين رئيسيتين له وهما : أنه كان كاتباً (٤) ومؤرخاً (٥).

والكاتب الآخر المشهور هو الأديب الرياضي الفلكي : أبو الحسن علي ابن أبي الرجال التاهرتي الشيباني (٦) (ت : ٤٢٥هـ) . وأبو الحسن علي

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٣٨ (نقلا عن عدد من المؤرخين) .

(٢) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨ .

(٣) الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٤٢.

(٤) ممن نعته بالكاتب : ابن رشيق : نفس المصدرالسابق ، ص ٢٨ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٦، ص ٩٢ – حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ،ص ٤٣٨– الزركلي : نفسه ،ج١ ، ص ٥٧١ – الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا حاشية رقم ١، ص١٨٨ .

(٥) عن مكانته في علم التاريخ ، أنظر بعد ص ٨٠٠ .

(٦) أنظر ترجمته ووفاته والاختلاف في ذلك ، بعد ، ص ٨٢٦ .

ابن أبي الرجال تاهرتي الأصل ، إلا أنه قدم القيروان مبكراً ، فالتحق بخدمة الدولة الزيرية (١) ، ولقد أوصله نبوغه إلى محل رفيع في البلاط الزيري ، لذلك رأيناه يُعهد إليه بتربية وتثقيف الأمير المعز بن باديس (٢) ، الذي تولى الحكم عام ٤٠٦هـ . ومما ينسب إليه من جلائل الأعمال أنه كان السبب الرئيسي في إثناء الأمير المعز عن المذهب الشيعي وتحوله إلي مذهب الأغلبية : المذهب المالكي (٣) . أما مكانته العلمية فقد كانت ذات جوانب متعددة ، إذ كان كما ذكرنا كاتباً بارعاً وهو الأمر الذي أهله لتولى رئاسة ديوان المراسلات أو الانشاء (٤) ، وإن كنا لانعرف متى تم ذلك على وجه التعيين ؟ وبالإضافة إلى ذلك كان شاعراً متمكناً (٥) ، وعدا هذا وذاك فهو ذو اهتمامات معروفة بعلمي : الفلك والرياضيات ، حتى أن له فيهما مؤلفات حسبما سنعرف بعد إن شاء الله .

ومما يدل على المكانة الأدبية التي بلغها أنه كان يحيط الأدباء والشعراء المشهورين آنذاك من أمثال ابن رشيق ، وابن شرف وغيرهما برعايته وحدبه . وهذا مادفعهم إلى أن يهدى إليه البعض منهم

---

(١) رابح بونار : نفسه ،ص ٢٩٨ ، ويقول عنه أنه من أشراف تيهرت (يقصد تاهرت) وأنه نشأ في قرطبة ، ثم قدم القيروان والتحق بخدمة الدولة الزيرية) – عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية ، الجزء الأول ،ص ٢٧٧ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ،ص ٢٧٣ .

(٣) ابن عذارى : نفسه .

(٤) لم يشر إلى توليه رئاسة ديوان المراسلات أو الانشاء ممن ترجم له سوى عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ١٤٦ – ١٤٧ ، وهو مع ذلك لايقطع قطعاً أكيداً ولكنه لايستبعده .

(٥) عن مكانته الشعرية ، أنظر بعد ، ص ٧١٩ .

مؤلفاته الأدبية (١) جرياً على العادة التي كانت شائعة وقتذاك .

وإذا ما نحينا الكتابة الرسمية والكتاب جانباً وبحثنا عن اللون النثرى الآخر الذي ذكرنا أنه قد ازدهر في عصر الزيريين ، فإننا على قلة نماذجه التي بين أيدينا واثقون من أن النثر قد بلغ أوج تقدمه وتطوره من حيث الشكل بالدرجة الأساسية – على مقاييس التطور المعروفة آنذاك بالطبع – فتلك النماذج القليلة (٢) كافية لنتبين من خلالها العام الذي سلكته المكاتبات الإخوانية في إفريقية آنذاك ، فهي لا تخرج عن حشو الرسائل بالصنعة والتكلف في الكلام المسجوع والمحلي بألوان البديع من جناس وتورية وطباق ومقابله إلى تقليب الجمل على المعنى الواحد ... الخ .

وإذا جاز لنا أن نقف عند واحدة من تلك الرسائل الإخوانية التي ذاع أمرها، فإننا لانجد خيراً من الرسالة الإخوانية الأدبية الممتعة وانتشرت عند مؤرخي الأدب في الأندلس والمغرب والمشرق أيضاً ، وهي الرسالة التي بعثها الأديب القيرواني المسكن والوفادة ، التاهرتي الأصل أبو علي الحسن

---

(١) كما فعل ابن رشيق الذي أهدى إليه كتاب : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، وكما فعل زميله الشاعر الأديب الناقد ابن شرف الذي أهدى إليه كتاب : مسائل الانتقاد أو أعلام الكلام ، أنظر ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ،ص٣– ابن شرف : مسائل أو رسائل الانتقاد بلطف الفهم والافتقاد (أعلام الكلام) ، تصحيح وضبط عبدالعزيز أمين الخانجي ،ص١٥.

(٢) من تلك النماذج للرسائل الاخوانية القليلة التي عثرنا عليها : الرسالة التي بعثها ابن رشيق للأديب أبي الحسن علي بن أبي الرجال ، وهو يهدي إليه كتابه العمدة ، والرسائل التي كان يبعثها الحصرى القيرواني الضرير إلى أصدقائه في الأندلس . عن رسالة ابن رشيق أنظر ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابة ونقده ،ص١٥–١٨ و عن رسائل الحصري ، أنظر محمد المرزوقي والجيلاني ابن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني ،ص٩١–٩٩ .

ابن محمد التميمي ، القاضي التاهرتي المعروف بابن الربيب (١) (ت: ٤٢٠هـ) إلى صديقة الأديب الأندلسي أبو المغيرة عبدالوهاب بن حزم الوزير والكاتب الأندلسي المشهور. والرسالة (٢) في الأصل قصد منها نقد الحالة الأدبية في الأندلس ، والافتخار بمثيلتها في القيروان خاصة .

ولقد أجابه الأديب الأندلسي برسالة أدبية ضافية يوضِّح له فيها حالة الحركة الأدبية في بلاده الأندلس (٣) . وبالطبع فنحن ليس من مهمتنا نتبع ذلك ، ولكننا رغبنا في إظهار ما بلغته حالة النثر الفتى في إفريقية وقتذاك من خلال رسالة ابن الربيب التي جاءت تعكس كل خصائص النثر الفنى الذي بلغته من حيث الشكل ، مع مافي الرسالة من مضامين توضح حالة الحركة الأدبية في إفريقية وقتئذ .

وقبل أن نغادر الحديث عن النثر الفنى وفروعه التي طرقها الأدباء في العصر الزيري ، لايفوتنا الإشارة إلى أن هذا العصر عرف نماذج للون من ألوان التعبير الأدبي وهو الحكمة ، وقد نطق بها عدد من الفقهاء ، – و هو أمر أصبح بمثابة ظاهرة عامة – من أمثال : ابن التبان المتوفى عام ٣٧١هـ،

---

(١) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص٧١-٧٢ المقرى : نفح الطيب ، ج٣، حاشية رقم ٢ ، ص ١٥٦، وقد قال المحقق احسان عباس بأنه قد استمد ترجمته من ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار . ولقد أطلق عليه اسم : الحسين بينما سماه ابن رشيق الحسن ، وكذلك فصل المقرى في متن الصفحة رقم ١٥٦ .

(٢) ممن أشار إلى تلك الرسالة ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق احسان عباس ، القسم الأول ، المجلد الأول ،ص ١٣٣ – المقري : نفس المصدر أعلاه ، والجزء ،ص ١٥٦، مع اختلاف يسير في الألفاظ بين المصدرين .

(٣) ابن بسام : نفس المصدر السابق والقسم ، المجلد الأول ،ص ١٣٨ – ١٣٩ .

وأبي اسحاق (١) الجبنياني المتوفي عام ٣٩٩هـ ، وقد ترجمنا لهما من قبل عند حديثنا عن دور فقهاء المالكية في نشر المذهب المالكي وفي الدراسات الشرعية . وكذلك من الفقهاء الذين اشتهروا بقول الحكمة الفقيه النفوسي أبو عبدالله محمد بن بكر (٣٤٥-٤٤٠هـ) ، وقد ترجمنا له كذلك من قبل عند حديثنا عن دراسات الفقه الإباضية . ولعل في النموذجين اللذين نوردهما الآن لأبي عبدالله محمد بن بكر النفوسي مايوضح لنا حقيقة مابلغه الأدب من رقى في العصر الزيري من خلال لون الحكمة هذا . قال أبو بكر : هم أهل الزمان كالسبخة إن ابتلت زلقت ، وإن جفت خدشت ، وكذلك قوله : كالتيوس إن اجتمعوا تناطحوا ، وإن إفترقوا تصايحوا (٢) .

٢- النثر التأليفي :

ذكرنا آنفاً أن إفريقيَّة دخلت في عصر الزيريين المجال الأرحب والأوسع من الدراسات الأدبية ، وهو مجال التآليف والمجاميع الأدبية الكبيرة ، وهو قول صحيح لاغبار عليه ، فلقد ازدحم هذا العصر بصفة خاصة بأدباء كبار كان لهم أثرهم العظيم في إثراء الدراسات الأدبية الإفريقية ، ليس على مستوى عصرهم فحسب وإنما على مستوى كل العصور الإفريقيَّة حتى الآن . فلقد وجد في هذا العصر معظم رموز الأدب الإفريقي الذي يشار إليهم بالبنان حتى الآن من أمثال : النهشلي القيرواني

---

(١) عياض : المصدر السابق ، ج٢، ص٥١٢، ٥٢٣ (حيث الإشارة إلى نماذج الحكمة في أقوال ابن التبان وأبي اسحاق الجبنياني) .

(٢) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٨٦ .

والقزاز القيرواني وابراهيم الحصري والرقيق القيرواني ، وابن رشيق ، وابن شرف، والحصري الضرير ، وغيرهم ممَّن ملأ البلاد انتاجاً أدبياً غزيراً في شتى المجالات الأدبية حسبما عرفناه من قبل ، وحسبما سنشير إليه الآن ، ثم لاحقاً إن شاء الله .

ولعل من أوائل أولئك الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بمؤلفاتهم وإسهاماتهم ، الأديب والشاعر المشهور أبو محمد عبدالكريم بن ابراهيم النهشلي التميمي القيرواني (ت٤٠٥هـ). والنهشلي القيرواني عربي الأصل وينتسب إلى قبيلة تميم المشهورة ، وقد ولد بمدينة المحمدية أو المسيلة كما تعرف أيضاً، وهي احدى مدن إقليم الزاب ، ثم قدم القيروان ، فالتحق بخدمة الدولة الزيرية ، وتولي منصب الكتابة في بلاط الزيريين حتى عهد الأمير باديس بن (١) المعز (٣٨٦-٤٠٦هـ) . على أن الكتابة لم تكن مجال النهشلي الأدبي الوحيد فقد كان شاعراً وناثراً وناقداً بجانب ذلك . وإذا كنا سنؤجِّل الحديث عن مكانته الشعرية إلى مابعد ، فإن مايعنينا هنا هو انتاجه الأدبي النثري الذي خلَّفه ونعنى بذلك (كتاب الممتع في علم الشعر وعمله (٢)) ، الذي كان له شهرة في دنيا الأدب في العصور الأولى (٣) . وكتاب الممتع من أهم كتب المجاميع الأدبية في تاريخ الأدب العربي بما يتضمنه من مادة غزيرة منتقاة من الأدب العربي والجاهلي والإسلامي

(١) المنجي الكعبي : النهشلي القيرواني ، ص ٣٨ -٥٨ .

(٢) هكذا رجح المنجي الكعبي بعد بحث طويل هذا العنوان لكتاب النهشلي القيرواني . أنظر المنجي الكعبي : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٢٧، ١٥٤، ١٦٧ .

(٣) المنجي الكعبي : المرجع السابق ،ص ١٧٧ - ١٧٨ .

تسهم في إرواء ثقافة الشاعر والناثر على السواء ، وهو في الوقت نفسه خير معين للناقد في ممارسة رسالته (١) ، والممتع من كتب الأدب التي جاءت على نسق كتاب الكامل للمبرد ، والأمالي لأبي على القالي ، والعقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، وزهر الآداب للحصرى القيرواني .. الخ ، بالإضافة إلى أنه من كتب النقد المعدودة .

وممّن أسهم في إرواء الحركة التأليفية الأدبية آنذاك ، الأديب والعالم اللغوي النحوي المشهور أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي القيرواني المعروف بالقزاز القيرواني (٢) (٣٢٢-٤١٢هـ) (٣) . والقزاز القيرواني شخصية أدبية متعددة الجوانب والاهتمامات ، وقد عاصر الدولتين الفاطمية والزيرية معاً ، ذلك لأنه ولد عام ٣٢٢هـ . وهذا يعنى أنه قد عاش أربعين عاماً في ظل الخلافة الفاطمية ، وقد كان خلالها شعلة تتوهج أدباً ولغةً

---

(١) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) تصدى المنجي الكعبي إلى تأليف كتاب عنه ، وقد أطلق عليه العنوان الآتي : القزاز القيرواني - حياته وآثاره) . ولقد تتبع في هذا الكتاب كل مايتصل بالقزاز في حياته وشيوخه وتلامذته وأولاده ، إلى غير ذلك ممّا يتعلق بأدق تفاصيل حياته ثم من ترجم له . وفي الشق الثاني من الكتاب تطرق إلى كل شاردة وواردة عن آثاره الأدبية واللغوية على وجه الدقة والتفصيل . ومن هنا فقد اكتفينا في الترجمة للقزاز القيرواني وفي التعرض لآثاره الأدبية على هذا الكتاب وحده لشموليته .

(٣) فيما يتعلق بتاريخ وفاته ، فقد كانت في عام ٤١٢هـ ، وذلك باتفاق كل من ترجم للقزاز . ولكن الاختلاف كان في تحديد عمره ، وبالتالي سنة ولادته . فمن قائل إنه توفى وهو في السبعين من عمره ، ومن قائل بل في التسعين ، وقد حقق ذلك المنجي الكعبي فتوصل إلى ترجيح أنه ولد في حدود عام ٣٢٢هـ فهو بالتالي قد توفى في التسعين من عمره . أنظر المنجي الكعبي : القزاز القيرواني - حياته وآثاره ، ص ٥-٨ .

ونحوا، وكان الخليفة المعز لدين الله يجله ويقدره ، وقد اصطحبه معه إلى مصر عندما غادر المغرب عام ٣٦٢هـ . غير أن القزاز القيرواني مالبث أن عاد إلى بلاده بعد مدة ، حيث ظل هناك إلى أن توفى عام ٤١٢هـ (١) .

وإذا كنا سنترك الحديث عن مكانته الشعرية إلى موضعها فيما بعد ، فإن الخليق بنا الآن أن نعرض إلى إسهاماته في دنيا النثر التأليفي . فقد أهدى القزاز للحركة الأدبية الإفريقية مجموعة من الكتب القيمة منها : التعريض والتصريح ، وهو كتاب تتكون مادته الأدبية من مجموعة من النوادر والحكايات التي تدور بين الناس في التعريض من كلامهم (٢) . وكتاب : شرح رسالة البلاغة ، وهو كتاب يقع في عدة مجلدات (٣)، ثم كتاب : ما أخذ على المتنبي من اللحن والغلط (٤) . ويقع في جزء واحد ، وهو من كتب النقد أيضاً . وللقزاز كذلك كتاب ثالث هو : كتاب أبيات معان في شعر المتنبي (٥)، وهو كتاب تدور مادته الأدبية حول استعراض معاني الحكمة والأخلاق التي دارت في شعر المتنبي .

ومن مصنفات القزاز الأدبية أيضاً : كتاب معاني الشعر ، وهو لايمت بصلة إلى الكتاب السابق : أبيات معان في شعر المتنبي ، كما يرى المنجي الكعبي (٦) ، والكتاب السادس والمهم : كتاب : أدب

---

(١) المنجي الكعبي : المرجع أعلاه ،ص ٣٠ – ٣٢ .

(٢) المنجي الكعبي : نفس المرجع السابق ، ص ٤٥، ٧٥– ٧٧ .

(٣) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٥، ٧٧ .

(٤) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٧٧ –٧٩ .

(٥) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٥، ٧٩ .

(٦) نفسه ، ص٤٥ ، ٧٩ – ٨٠ .

السلطان (١) والتأدب له وهو من أضخم مؤلفاته ويقع في عشرة أجزاء . وقد جاء على نسق المؤلفات التي تعنى بالآداب السلطانية ، وهو معنى طرقه الأدباء المشارقة من قبل مثل ابن المقفع والجاحظ وغيرهما .

ومن الأدباء الذين أثروا الحركة الأدبية بمؤلفاته قيمة ، الأديب الشاعر: أبو اسحاق : ابراهيم بن على بن ابراهيم بن تميم الحصري أحد أدباء القيروان (٢) المبكرين الذين عرفهم العصر الزيري ، وهو كما يتراءى لنا ثالث أربعة أدباء تتلمذ على أيديهم الرعيل الثاني من أدباء بلاد إفريقية الذين يأتي على رأسهم ابن شرف وابن رشيق، والحصري الضرير وغيرهم والأربعة الأدباء هم : النهشلي والقزاز ، وابراهيم الحصري نفسه والرقيق الكاتب والمؤرخ .

بيد أن الغموض للأسف لف جزءاً غير يسير من حياة ابراهيم

---

(١) المنجي الكعبي : نفسه - حياته وآثاره ، ص ٤٥، ٨٠- ٨١ .

(٢) ترجم له كل من : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص١٨- ٢٠ - ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، الجزء الثاني ، ص ٩٤ -٩٧ - ابن خلكان : المصدر السابق ،المجلد الأول ، ص ٥٤- ٥٥ - الصفدى : المصدر السابق ، الجزء السادس ، ص٦١- ٦٢ - ابن السراج : الحلل السندسية في الاخبار التونسية ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٧٦- ٢٧٨- أبو القاسم كروو عبدالله شريط : شخصيات من المشرق والمغرب ، ص ٢٧٩ - ٢٨٧ - عبدالجبار الشريف وعلى دب : ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب - دراسة ومنتخبات ، ص ١١-١٢ وغير ذلك من المؤرخين القدامى والمحدثين . وقد تفاوتت الإشارة إلى اسم الحصرى بين مصدر وآخر ، وبين المراجع بالتالي فهناك من اكتفى بذكر اسمه ولقبه فقط هكذا ابراهيم الحصري ، وهناك من نسبه نسباً كاملاً وهناك من اكتفى بالإشارة إلى اسمه واسم أبيه وجده ، ثم لقبه .

الحصري مع أنه قد عاش طويلاً ، فقد قارب الثمانين من عمره (١)، وذلك بعكس ماحظى به زملاؤه : النهشلي ، والقزاز، والرقيق ، لكننا على أيه حال ظفرنا من ترجمته بمعلومات مهمة سواءً كان ذلك فيما يتصل بمكانته الشعرية التي سنتطرق إليها لاحقاً ، أو مكانته في فن النثر التأليفي عن طريق مؤلفاته التي خلدت له .

وأهم مؤلفات ابراهيم الحصري ، وأشهرها ، وأعظمها تأثيراً وأثراً هو كتاب : زهر الآداب وثمر الألباب (٢)، وهو الكتاب الذي وضع الحصري

(١) اختلف في سنة وفاة ابراهيم الحصري اختلافاً بيناً ، فابن رشيق : نفس المصدر أعلاه ، ص ٢٠ يقول إنه توفى عام ٤١٣هـ ، وتابعه في ذلك ياقوت : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٩٥ . أما ابن خلكان : نفس المصدر السابق والمجلد، ص٥٤ . فقد ذكر أنه توفى عام ٤١٣هـ ، ثم ذكر أنه قيل بل ٤٥٣هـ (نقلاعن ابن بسام في الذخيرة) .لكن ابن خلكان عاد فاعتمد التاريخ الأول ، ووقف الصفدي : نفس المصدر والجزء ، ص ٦٢ ، نفس موقف ابن رشيق . أما ابن السراج : نفس المصدر السابق والجزء والقسم ، ص ٢٧٨ فقد (اعتمد سنة ٤١٣هـ، وحدها . أما الباحثون المحدثون فإن أكثرهم يميل إلى تأييد ابن بسام فيما ذكره من أن الحصري توفى سنة ٤٥٣هـ ، وأنظر بعناية الشاذلي بويحيى : مقال بعنوان : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الأول ، ١٩٦٤م ، تونس ، ص ٩-١٨ ، حيث يشير إلى أنه توفي سنة ١٤١٣هـ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج٢ ، ص٦٩- ابن خلكان : نفسه ، المجلد الأول ، ص ٥٥ - الصفدي : نفسه ، ج٦ ، ص ٦٢- ابن بسام : نفسه ، القسم الرابع ، المجلد الثاني ، ص ٥٨٤ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨١. وانفرداً وحدهما بالقول بأن اسم الكتاب : زهر الآداب ونثر الألباب - عبدالجبار الشريف وعلي دب : ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، ص ١٥ وما بعدها . وكل هؤلاء المؤرخين القدامى والمحدثين ونفر آخر غيرهم أجمعوا على أهمية شهرة كتاب زهر الآداب .

في مصاف مؤلفي المجاميع الأدبية المشهورين مثل الجاحظ والقالي، والمبرد، وابن عبدربه ، والنهشلي القيرواني وغيرهم (١) . ولقد بناه ابراهيم الحصري على طريقة كتاب البيان والتبيين للجاحظ (٢) . وتتألف مادته الأدبية من مختارات ، شعرية ونثرية ، ونوادر ، وملح وطرائف ، كالتي كانت تتضمنه كتب الأمالي ، والبيان والتبين ، والعقد الفريد إلى غير ذلك (٣) ، ولقد تبنى ابراهيم الحصري منهجية لا تختلف عما كانت تسير عليه تلك المجاميع الأدبية من نهج يجمع بين التنويع والتلوين (٤) .

وفي الحق فإن كتاب زهر الآداب يعد من أهم كتب الأدب الخالص بما يشتمل عليه من مضامين وقيم أدبية واجتماعية ونقدية وتاريخية ووصفيه إلى غر ذلك كما يعتقد عبدالجبار الشريف ، وعلى دب في كتابها : ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب (٥) . وإن كان المأخذ الوحيد عليه أنه تجاوز الإنتاج المغربي ، فلم يعره اهتمامه (٦)، تماماً مثل مافعل الأديب الأندلسي ابن عبدربة في كتابه : العقد الفريد .

---

(١) المنجي الكعبي : النهشلي القيرواني ،ص ١٧٨-١٧٩ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨١ - ٢٨٣.

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٥، ص ١٠٥ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه، ص ٢٨١، ٢٨٣ - عبدالجبار الشريف وعلى دب : نفس المرجع السابق ، ص ١٥- ١٩ .

(٤) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ص ٢٨٤- ٢٨٥ - عبدالجبار الشريف وعلى دب : نفسه، ص ١٦- ٢٤ .

(٥) ص ٢٤- ٢٩ .

(٦) عبدالجبار الشريف وعلى دب : نفسه ،ص ٢٤- المنجي الكعبي : نفس المرجع أعلاه ،ص ١٧٨ ، وإن كان لايرى أن ذلك عيباً بقدر ماهو جهد مأثور تاريخي لأدباء المغرب الذين كان لهم الفضل في جمع مادة الأدب المشرقي جمعاً لا مثيل له .

ومن مؤلفات الحصري الأخرى عدة كتب منها : نور الطرف ونور الظرف (١) ، وهو مختصر لكتاب : زهر الآداب ويقع في جزء واحد وقد يسمى : النورين أيضاً (٢) . ومنها : كتاب جواهر النوادر ولمح الملح (٣) كما سماه هو ، أو : « جمع الجواهر في الملح والنوادر » (٤) كما سماه ونقله بعض من مؤرخي الأدب القدامي .

ومن مصنفات الحصري القيرواني التي بلغت شهرة عريضة ، كتاب : المصون في سر الهوى المكنون (٥) ، وقيل الدر المكنون . ويقع في جزء واحد وهو ذو قالب أدبي طريف في بابه ، إذ هو عبارة (عن دراسة تحليلية لعاطفة الحب في مظاهرها) (٦) ، ويرى الشاذلي (٧) بويحيى أن هذا الكتاب ربما يكون أصلاً من الأصول لكتاب الأديب والعالم الأندلسي

---

(١) الصفدي : نفسه ، ص ٦١ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٢٨٢ - كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٥ ، ص ١٠٦ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ، ج٢ ، ص ٩٧- أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨٢ - بينما يسميه ابن بسام : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٨٤ كتاب : النور والنور .

(٣) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨٢ .

(٤) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٨٢ - كارول بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٥ ، ص ١٠٥- ١٠٦ .

(٥) ياقوت : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٩٦- ٩٧ ويسميه المصون والدر المكنون - الصفدي : نفسه ، ج٦ ، ص ٦١- أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٢٨٢ وقد أشارا إلى أن الكتاب يعرف كذلك : المصون في الدرالمكنون . في حين أغرب ابن بسام : نفسه ، ج٢، ص٥٨٤ ، فقال إن اسم الكتاب هو : (المصون من الدواوين) .

(٦) الشاذلي بو يحيى : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري - مجلة حوليات . الجامعة التونسية ، العدد الأول ، ١٩٦٤م ، ص١٧ .

(٧) حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري ، ص ١٧- ١٨ .

المشهور : ابن حزم القرطبي المعروف بكتاب (طوق الحمامة في الألفة والآلاف) ومن مصنفات الحصري أيضاً ، كتاب : طيبات الأغاني ، مطربات القيان ، ويقول أبو القاسم كرو وعبدالله شريط(١) إن هذا الكتاب مفقود . وقد أشار إليه الحصري نفسه في كتابه : جواهر النوادر ، أو جمع الجواهر، كما هو مشهور .

ويعد الكاتب والمؤرخ والأديب ابراهيم الرقيق (ت : ٤٢٥هـ) ، الذي عرفنا دوره من قبل في الكتابة الرسمية ، أحد الأدباء الذين أسهموا في تنشيط واغداق الحركة الأدبية الأفريقية بمؤلفاتهم القيمة الممتعة . فقد كان الرقيق أحد الذين فتح لهم الباب في التأليف سواء في التاريخ أو الأدب .

فمن مصنفاته التي خلَّدت له نذكر : كتاب : نظم السلوك في مسامرة الملوك ، ويقع في أربعة أجزاء ، وهو على نسق كتب الآداب السلطانية كما يومئ عنوانه بذلك (٢) ، وكذلك كتاب : الأغاني ويقع في مجلد واحد ضخم ، وهو على نسق كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني كما يدل عليه عنوانه (٣) أيضاً . ومن كتبه كتاب : « النساء » (٤) ، ويتضمن أخبار النساء الشاعرات وغيرهن ، وكتاب : « المتيمين » (٥) وليس هناك ما

---

(١) نفسه ، ص ٢٨٢ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٤٤٥- مقدمة المنجي الكعبي محقق تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ، ص ٢٣ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٤٤٦ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، ص ٤٤٦ – مقدمة المنجي الكعبي ، ص ٢٣ .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، ص ٤٤٦ .

يرشدنا إليه سوى ذكر اسمه فحسب .

وللرقيق القيرواني مجموعة من المصنفات تتناول الخمريات ، أشهرها كتاب : قطب السرور في وصف الأنبذة والخمور (١) ، ويقع في جزأين . وهذا الكتاب على عكس ما يوحى به عنوانه لا يتضمن إلاَّ القليل من المادة عن الخمرة (٢) وإلاَّ فهو في معظمه مختارات وطرائف (من أمثال الحكماء ومنثور البلغاء ، ومنظوم الشعراء ، وأخبار الأدباء والظرفاء ، مالا يستغني عنه شريف ولايجوز أن يخلو منه ظريف) (٣)، ويرى الشاذلي بو يحيى(٤) أن كتاب قطب السرور (لايوجد له مثيل في نوعه بين مؤلفات المشرق)

وأما الأديب الإفريقي الذي غمرت مؤلفاته الأدبية ساحة الأدب ، لا الإفريقي فحسب ، وإنما العربي أيضا ، فهو الأديب الشاعر الناقد طائر الصيت ، أبو علي : الحسن بن رشيق القيرواني (٥)

---

(١) هذا هو العنوان الصحيح للكتاب كما أشار إلى ذلك حسن حسني عبدالوهاب والشاذلي بو يحيى، لا كما أورد المنجي الكعبي محقق القطعة المحفوظة من كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق نفسه ،ص ٢٣ . من أن اسمه كتاب قطلب الدرر في الأنبذة والخمور . أنظر حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٤٤٥- الشاذلي بويحيي : حول نشر كتاب قطب السرور أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثامن ، السنة ١٩٧٠م ، ص ٨ .

(٢) الشاذلي بويحيي : نفس المقال أعلاه ص ٩ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٤٤٥ (نقلاً عن مقدمة الرقيق نفسه لكتابه ذلك) .

(٤) الشاذلي بو يحيى : نفس المقال أعلاه ، ص ٩ .

(٥) لم يحظ أديب من أدباء إفريقية بمثل ما حظى به ابن رشيق من اهتمام واسع إلاَّ القليل جداً ، فمن بين من ترجم له من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين نذكر : ابن بسام : =

(٣٩٠-٤٥٦هـ) (١) ، وابن رشيــق - كمـا نعتقد - لسنـا في حاجـة إلى التعــريف والترجمـــة له ، فهو في الحقيقة أشهر من أن يعرف . كـيف لا ، وهـــو واحـد من أعظم من أنبتتهم الساحة الآدبية على مستوى الدولـــة الإسلاميـــة حتى الآن ؟ . ومع ذلك فإن من ضــرورات المنهـج أن نلـــم ببعـــض شؤون حياته . فقد ولد بالمحمدية أو المسيلة ، ثم قدم إلى القـــيروان ولم يتـعد العشرين من عمـره ، فالتقى بكبار أدبائها وعلمــائهـا المشـهـــورين من أمـثـال : القـزاز القـيرواني ، وابراهيم الحصـري ، وابراهيم الرقـيـــق وغيـرهم ، ثم مـالـبث أن أوصله نبـوغه الأدبي إلى الأمـــير المعز بن باديس ، حـيث لقى منـــه حـدباً وحظـوة

= نفس ، القسم الرابع ، المجلد الثاني والجزء ، رقم ٨ ، ص ٥٩٧ - ٥٩٩ - ابن خلكان: نفسه، المجلد الثاني ، ص ٨٥ -٨٩ . ياقوت : معجم الأدباء ، ج٨، ص ١١٠- ١٢١ مقدمة محقق كتاب العمدة لابن رشيق : محمد محي الدين عبدالحميد ،ص ١٠-١٤- أبا القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٣ -٣٢٠ - عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ، ص ٦٢- ٦٣ وقد أشار إلى حوالي ٢٣ مصدراً ومرجعاً جاءت فيها ترجمة ابن رشيق - كارل بروكلمان: المرجع السابق ، ج٥ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ، وبالإضـافـة إلى هؤلاء ، فـقـد اخـتـصـه أربعـة من البـاحـثين المحـدثين بكتب مستقلة تترجم له وتترجم لعصره الأدبي من خلاله مثل: حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق - عبدالرحمن باغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها - عبـدالرؤوف عبدالعزيز مـخلوف : ابن رشيق ونقد الشعـر - أمـا البـاحـث الرابع فـهـو عبدالعزيز الميمني الراجكوني الذي جمع شعر ابن رشيق وابن شرف في كتاب أطلق عليه :النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين .

(١) هناك اختـلاف شـديد في تاريخ ولادته وتاريخ وفـاته بين أولئك المؤرخين القدامى والمحدثين الذين أشرنا إليهم آنفا ، ولكن الذي يبـدو أن الأكـثـرية تميل إلى أن ولادته كـانت عام ٣٩٠هـ ، ووفـاته كانت عام ٤٥٦هـ حسبما أشرنا في المتن .

لامثيل لهما (١) . وقد جمعه بلاط المعز بمعاصره الشاعر المشهور ابن شرف، حيث شجر بينهما تنافس كبير في تزعم النشاط الأدبي داخل قصر المعز وخارجه . وقد أدى ذلك إلى أن ينشب بينهما تلاح وخصومة أفادت الحياة الأدبية من حسن الحظ ، وظل ابن رشيق في معية المعز حتى سقطت القيروان عام ٤٤٩هـ بيد الهلاليين ، ثم ذهب معه إلى عاصمته الجديدة المهدية حتى توفى المعز عام ٤٥٤هـ . وبعد وفاة المعز التحق ببلاط ابنه تميم، إلاّ أنه مالبث أن غادر المهدية في نفس العام إلى صقلية ، حيث استقر به المقام هناك حتى توفى عام ٤٥٦هـ (٢) على الأرجح .

وابن رشيق في الحق نموذج متكامل للأديب الشامل ، فهو شاعر بارع (٣) ، وهو ناثر متمكن بليغ وهو ناقد يتمتع بثقافة واسعة، وهو عالم لغوي (٤) كل ذلك في آن واحد . وهو مع ذلك كان ذا اهتمام بالتاريخ وأحداثه . ومن هنا فقد حظى بإهتمام كبير من قبل مؤرخي الأدب وغيرهم الذين ترجموا له ترجمات اختلفت طولاً وقصراً . كما أنه كان محط اهتمام كثير من الباحثين المحدثين الذين بهرتهم المكانة الأدبية العظيمة له ، فصنفوا عدداً من الكتب تدور حول دوره الأدبي في الحياة الأدبية الإفريقية آنذاك حسبما أشرنا آنفا .

---

(١) تتبع تلك الأحداث وسردها بشئ من البسط أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص٣١٢ – ٣١٤ – معتمدان في ذلك على أقوال كثير من المؤرخين القدامى ولذلك رأينا الاكتفاء بأقوالهما هنا.

(٢) أنظر أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٣١٢ – ٣١٣ .

(٣) عن مكانته الشعرية أنظر بعد ص ٧٢٠ ومابعدها .

(٤) أنظر بعد ، ص ٧٦٨ .

ومهما يكن من أمر ، فقد ترك ابن رشيق مجموعة كبيرة من التآليف الأدبية القيمة . فمن تلك التآليف : « كتاب العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده » . وقد ألفه في عام ٤٢٠هـ ، وقدمه للأديب والكاتب المشهور أبي الحسن علي بن أبي الرجال الشيباني رئيس ديوان الإنشاء في دولة المعز (١) آنذاك . وهو كتاب أدبي من أجل كتب الأدب بجانب صفته الأساسية ، وهو النقد الأدبي .

والعمدة يقع في جزأين ، متعدد الأبواب والفصول في قضايا صناعة الشعر ودوره وأثره في حياة العرب وفي حياة الشعراء ، وجمع الأخبار والروايات وتعريف الشعر ومذاهبه المختلفة (٢) ، وعلى هذا فهو من هذه الوجهة كتاب أدبي خالص (٣) ، مما جعل ابن خلدون يقول (٤) عنه : (هو الكتاب الذي انفرد بصناعة الشعر وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولابعده مثله) . ومما يدل على مكانة كتاب العمدة الأدبية الفائقة ، أنه قد

---

(١) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مقدمة المحقق ، ص ٣-٤، مقدمة المؤلف ، ص ١٥-١٧ - حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ١٢٩ - عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٤٧- ١٤٨.

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ،ص ١٢٩- ١٣٠- أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٥ .

(٣) ابن رشيق : قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، مقدمة المحقق الشاذلي بو يحيى ، ص ٥-٦- حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ص ١٣٠ - أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : نفسه ، ص ٣١٧ - ٣١٩ - عبدة قلقيلة : المرجع السابق ، ص ١٥٩ ، مع الحاشية رقم ٢ من نفس الصفحة .

(٤) فيما ينقله عنه حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، ص ١٣٠ .

أولع به الأدباد قدامى ومحدثين ، فعلقوا عليه الحواشي والشروح (١) .

ومن كتب ابن رشيق ذائعة الصيت، أيضاً كتاب :« قراضة الذهب في نقد أشعار العرب » (٢) ، وهو كتاب يعنى بالدرجة الأساسية بسرقات الشعراء أو أنه يعنى بمعنى آخر بالشعر الإبداعي ويعيد المعنى المبتكر الذي يستخدمه أو يستخدم مايقاربه بعض الشعراء إلى صاحبه الأصلي ، سواء أكان قد وفق في الاستخدام، أم فشل فيه . وذلك منذ العصر الجاهلي حتى عصره ، أي عصر ابن رشيق (٣) ، والكتاب على الرغم من أنه في عداد كتب النقد ، إلاّ أن أسلوبه ومواضيعه ومختاراته الأدبية الشعرية لا تقل روعه ومكانة عن قيمته النقدية .

والكتاب الثالث الذي كان لايقل شهرة عن سابقيه هو كتاب : «أنموذج الزمان في شعراء القيروان » (٤) . وقد وضع فيه ابن رشيق تراجم لأكثر

---

(١) أنظر حسن حسني عبد الوهاب : المرجع السابق ، ص ١٣٠ - ١٣١، حيث الإشارة إلى تلك الحواشي والشروح .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٣١ (ويسميه « قراضة الذهب في أشعار العرب) = أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٤ .(ويطلقان عليه « قراضة الشعر ») - عبده قلقيلة ، نفسه ، ص ١٤٠- كارل بروكلمان : المرجع السابق ،ج٥ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٣) أنظر ابن رشيق : قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، مقدمة المحقق ص ٦-٧ كذلك مقدمة المؤلف ، ص ١٩-٢١ .

(٤) حسن حسنى عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٣٢ - ١٣٣ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٤ . وهذا الكتاب مفقود وإن كان الكثير من المؤرخين القدامي من أمثال الصفدى وابن فضل الله العمري ، وياقوت وغيرهم قد نقلوا عنه كثيراً . وقد عمد أحد الباحثين المحدثين ، وهو زين العابدين السنوسي إلى جمع ما تناثر من كتاب الأنموذج في كتب المؤرخين القدامى =

من مـائة شاعر من شعراء القيروان وإفريقية المعاصرين له . وهو كتاب (١) أدبي رائق يدل على مايتمتع به ابن رشيق من مكانة في دنيا الأدب سواء كـان ذلك من حـيث أسلوبه النثري المتـأنق ، أوفيـمـا يتـعلق باختـيـاراته وموضوعاته ، أو ذوقه الأدبي إن شئنا ، وكما رأى بعض نقاد الأدب العربي أن أبا تمام في كتـابه : الحمـاسـة ، كان أشعر منه في شـعره ، فإن ابن رشيق يعد في أنموذجه أشعر منه في شعره (٢) ، على كعبه في الشعر ، ويكفى أن نذكر بأن ابن خلدون (٣) عده (أشعر شعراء عصره) والكتاب في شقه الآخر من كتب النقد الأدبي ، مثل العمدة وقراضة الذهب ، والكتاب بعد هذا يعد من الكتب التي تتدرج ضمن كتب التأريخ للأدب .

ولابن رشيق كتاب آخر عنى بطبقات الشعراء ، هو كتاب : « الروضة الموشية في شعراء المهدية (٤) » ، وقد دوَّنه في أخريات حياته عندما استقر بالمهدية قبل أن يغادرها إلى صقلية .

وبالإضافة إلى هذه الكتب القيمة ، ترك ابن رشيق مجموعة من

= على شكل مختارات علّق عليها – وقد تنشرت هذه المختارات بعد وفاة زين العابدين السنوسي في شكل كتاب صغير يحتى على بعض تراجم الانموذج ، وقد رأى أبو القاسم محمد كرو الذي عهد إليه كتابة المقدمة لهذه المختارات أن يطلق عليها اسم شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، أنظر ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٥– ٨ .

(١) عده حسن حسني عبدالوهاب المأثرة الخالدة لابن رشيق ، أنظر حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، ص ١٣٢ .

(٢) عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ٢١٤ – ٢١٥ .

(٣) فيما ينقله عنه أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣١٤ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ١٢٣ .

الرسائل الأدبية الصغيرة ، التي جاءت في أكثرها رداً على منتقديه من أمثال ابن شرف وغيره ، مثل : رسالة : « الأشكال ودفع المحال » و « نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية » و « نسخ الملح وفسخ الملح » و « الرسالة المنقوضة » و « نجح الطلب » و « ساجور الكلب » و « قطع الانفاس » (١) ... الخ .

وقبل أن نختتم الحديث عن النثر عامة ، والنثر التأليفي خاصة ، لايفوتنا الإشارة إلى أديب لامع غذى الحركة الأدبية والإفريقية بمؤلفاته وابتكاراته . ذلك الأديب هو الشاعر الأديب الناقد أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني المعروف بابن شرف (٢) (ت : ٤٦٠هـ) . وابن شرف أحد أشهر شعراء إفريقية وفحولها الكبار ، وهو من بلدة إجدابية (٣) ، بليبيا الآن ،ثم قدم إلى القيروان . وقد جذبه توهجها وتألقها الأدبي ، فالتقى هناك بكبار أدبائها وشعرائها من أمثال إبراهيم الحصري ، والقزاز القيرواني ، وإبراهيم الرقيق وغيرهم ، ولقد قادته موهبته الأدبية إلى بلاط الأمير المعز بن باديس حيث غدا يشار إليه بالبنان - هو

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والصفحة .

(٢) ترجم لابن شرف عدد كبير من المؤرخين قدامى ومحدثين ، وفمن أولئك : ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩، ص ٣٧- ٤٣ - ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الابياري ، ص ٦٦- ٧٢ - الصفدي : نفسه ، ج٦ ، ص ٩٧- ١٠١ - الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق وتعليق محمد محي الدين عبدالحميد ، ج٢ ، ص ٤١٠- ٤١٣ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط ، نفسه ، ص ٣٢١ - ٣٢٧ - محمد عبدالمنعم خفاجي : مقدمة الأدب في ليبيا ، ج١ ، ص ١٠٨- ١١٢ ، وغير ذلك .

(٣) محمد عبدالمنعم خفاجي : نفس المرجع أعلاه ، ج١ ، ص ١٠٨ .

وزميله ابن رشيق من بين كل الأباء الذين كان يضمهم بلاط الأمير . وكما ذكرنا من قبل فقد اشتعلت جذوة المنافسه بينه وبين ابن رشيق ، ممّا أدى إلى تلاحيهما وتخاصمهما (١) ، وكان الأمير المعز نفسه يعمل كثيراً على إذكاء الخصومة بينهما (٢) ، وفي كل ذلك كان الأدب والحركة الأدبية تربحان دائما . وعندما سقطت القيروان عام ٤٤٩هـ بيد الهلاليين رافق ابن شرف الأمير المعز في عاصمته المهدية ، غير أنه مالبث أن غادرها إلى صقلية مثل صديقه اللدود ابن رشيق ، حيث اتصل بصاحبها ولكنه عاد فغادر صقلية إلى الأندلس ، حيث اتصل بأمرائها وأدبائها ، وظل يتنقل بين مدنها حتى وافته المنية عام ٤٦٠هـ (٣) .

ولقد أهدى ابن شرف كما ذكرنا آنفاً الحركة الأدبية مجموعة من المصنفات الأدبية القيمة من حيث الشكل والمضمون ، فمن بين تلك المصنفات نذكر ، كتابه : « أبكار الأفكار » (٤) ، ويقع في جزئين ، ويقول ابن دحية صاحب كتاب المطرب (٥) من أشعار أهل المغرب أنه (اختراع كله في الحكم والأمثال والنظم والنثر) ، ومن كتبه

---

(١) الصفدي : نفسه ،ج٦ ، ص ٩٧ – الكتبي : فوات الوفيات ، ج٢ ، ص ٤١٠ – أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٣٢١ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه .

(٣) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٣٢١-٣٢٢ – محمد عبدالمنعم خفاجي : المرجع السابق ، ص ١٠٨-١١٢ .

(٤) الصفدي : نفسه ،ص ٩٧- الكتبي : نفس المصدر السابق والجزء ،ص ٤١٠- ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ، ص ٦٦- أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٣٢٣ .

(٥) ص ٦٦ .

أيضاً « ملح اللمح » (١) ، وهو الكتاب الذي عارضه فيه ابن رشيق برسالته: « نسخ الملح وفسخ الملح » حسبما أشرنا من قبل .

على أن أشهر مصنفات ابن شرف القيِّمة من الناحيتين : الأدبية الخالصة والنقدية ، هو كتاب : « أعلام الكلام » أو « مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد » ، وهذا الكتاب في الواقع حمل أكثر من اسم ، بل حتى اختلف الاسم الواحد له (٢) . ويرى أحد الباحثين (٣) أن أعلام الكلام هو نفسه كتاب مسائل الانتقاد ، وليس كتاباً آخر مستقلا .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتاب أعلام الكلام (مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد) كتاب أدبي طريف وممتع في بابه وموضوعه ، فعدا القيمة أو الهدف الأساسي لتصنيفه ، وهو النقد الأدبي ، فهو كتاب أدبي رائق النثر بما يحتوي عليه من المحسنات البديعية المختلفة . كما أنه – وهذا تطور أدبي مهم – قد جاء على شكل مقامات اخترع ابن شرف شخصية

---

(١) ابن دحية : نفس المصدرالسابق ، ص ٦٦– ويسميه لمح الملح . ويبدو أنه تصحيف ، وإلاَّ فالمعقول أن يكون اسمه : ملح اللمح ، كما أشرنا في المتن والسبب في ذلك أن ابن رشيق له كتاب بعنوان « فتح الملح ونسخ اللمح » الذي أشرنا إليه سابقاً ، وقد ألفه ليعارض به كتاب ابن شرف هذا .

(٢) فهو قد حمل اسم أعلام الكلام . واسم : مسائل الإنتقاد بلطف الفهم والافتقاد . حسبما أشرنا في المتن ويطلق عليه مسائل الانتقاد كذلك .أنظر أبو القاسم كرو وعبدالله شريط :نفسه ، ص ٣٢٣– محمد عبدالمنعم خفاجي : نفسه ،ص ١١٢ .

(٣) هو عبدالعزيز أمين الخانجي مصحح وضابط ألفاظ هذا الكتاب لابن شرف أنظر أبن شرف : مسائل الانتقاد بلطف الفهم والافتقاد (أعلام الكلام) ، صححه وضبط ألفاظه عبدالعزيز أمين الخانجي ، المقدمة ، ص ١٠ .

راويها (١) ، كما اخترع من قبل بديع الزمان الهمذاني في مقاماته شخصية عيسى بن هشام ، فجاء الكتاب - على عدم جدة موضوعه - ، قطعة أدبية رائعة تدل على مقدار ما بلغته الحركة الأدبية الإفريقية من ازدهار وتطور في عصر الزيريين .

على أن ابن شرف لم يكن وحده الذي اشتهر بتحرير المقامات أو أنه السباق في ذلك . فقد ذكر بأن محمداً القرشي الطارقي ، الذي ترجمنا له ونحن نتحدث عن الكتاب في العصر الزيري كان أحد الذين اشتهروا بتحرير المقامات المتدعة ، وإن لم نعثر على نصوص أو نماذج لتلك المقامات المبتدعة (٢) .

---

(١) ابن شرف : مسائل الانتقاد بلطف الفهم والانتقاد ، ص ١٣- ١٥- مقدمة المؤلف نفسه .

(٢) أنظر عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ٢١٣ .

الشعـــر

- الشعـر في عصـر الولاة
- الشعـر في عصر الأغالبة
- الشعر في عصر الفاطميين
- الشعر في عصر الزيريين

الشعر في عصر الـــولاة :

لعل من الضروري هنا أن نعود بالأذهان إلى ماسبق وقلناه من قبل من أن عصر الولاة ، على الظروف العديدة التي شرحناها ، والتي أدت إلى تأخر الاهتمام بالأدب ، قد شهد حركة أدبية لا بأس لها ، تفاعلت أصداؤها في أرجاء البلاد . وذكرنا أيضا أن تلك الحركة الأدبية المتواضعة كانت ذات شقين : شق جاء عفوياً غير مباشر ، وشق آخر كان بمثابة حركة أدبية وافدة بمؤثراته التي تبنته ، وبعناصره التي صنعته .

أما فيما يتصل بالشق الأول الذي أسهم في انبعاث حركة أدبية لا بأس بها آنذال في هذا العصر ، فإنه قد جاء نتيجة طبيعية أو إن شئنا الدقة صدى للخلافات التي شجرت بين بعض الولاة العرب ، وبين الخارجين عليهم من رؤساء الجند العرب المقيمين بإفريقية وقذاك ، إذ لجأ كلا الطرفين لاستخدام سلاح الأدب ، مع ما استخدموه من سلاح وعدة في مقارعة بعضهم بعضاً . ولم يكن ذلك السلاح الأدبي ، سوى سلاح الشعر الماضي الفتاك ، الذي لاجدال في أن العرب كانو يجيدون استخدامه .

ومن المألوف والحالة كذلك أن تكون الأغراض الشعرية التي دارت على ألسنة أولئك الذين أوتوا نصيباً من الشاعرية ، لاتخرج عن أغراض محددة تتفق مع الظروف التي فرضتها الأحداث آنذاك . ومن هنا فقد رأينا النصوص التي حفظت عن تلك الفترة لا تتجاوز في أغراضها الشعرية : الفخر، والوعيد ، والهجاء ، والعتاب .

ومهما يكن من أمر فإن من أوائل الذين حركت الأحداث السياسية شاعريتهم في ذلك العصر ، أبوالخطار الحسام بن ضرار بن سلامان الكلبي (١) (ت : ١٣٠هـ) (٢) ، أحد العرب اليمنية الذين كانوا برفقة الوالي الأموى : بشر بن حنظلة الكلبي (١٠٢ - ١٠٩هـ) فقد حفظت له مقطوعة شعرية في الوعيد تدور في فلك العصبية القبلية التي كانت قائمة وقتذاك بين المضرية واليمنية (٣) ويقول ابراهيم الدسوقي جاد الرب(٤) أن تلك القطعة تركت أثراً مدوياً وقتها في المشرق والمغرب معاً .

ومن الشعراء الذين عرفهم عصر الولاة ، وعرف آثاراً شعرية لهم ، أبو داود سليمان بن حميد الغافقي (٤) (ت : ١٣٥هـ) (ت : ١٣٥هـ) ، وقد وصفه (٥) ابن الآبار بقوله : (فارس العرب قاطبة بالمغرب في عصره ، وأحسن الناس لساناً ، وأبلغهم إلى المعرفة بأيام العرب وأخبارها ، ورواية لوقائعها وأشعارها) . وسليمان بن حميد الغافقي أحد رجالات العرب بإفريقية الذين عاصروا عبدالرحمن بن حبيب الفهري الذي تولى أمر إفريقية

---

(١) ترجم له كل من : ابن الأبار : الحلة السيراء ، تحقيق حسين مؤنس ، ج١ ، ص ٦١- ٦٦ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب ، شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ١٦- ١٧- الزركلي : نفسه ، ج٢، ص١٧٥ .

(٢) الوحيد الذي أشار إلى سنة وفاته هو الزركلي : نفسه ، ج٢، ص ١٧٥ .

(٣) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق ،ص ١٦ .

(٤) شعر المغرب حتي خلافة المعز ،ص ١٧ .

(٥) ترجمته موجودة عند ابن الأبار : نفس المصدر السابق ، ج١ ،ص ٨٢- ٨٣ ، حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٣٣-١٣٥- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ص ٧٣ - ٧٤ .

عام ١٢٧هـ ، والذين دخلوا في خدمته ، غير أنه مالبث أن أمر بسجنه ، ويبدو أن هذه الحادثة كانت سبباً في تحريك كوامن الشعر لدى هذا الفارس والشاعر المعروف ، فشرع ينظم الشعر ، ولسوء الحظ فإنه لم يحفظ من ذلك العطاء الشعري له سوى نص واحد يقع في عدة أبيات ، وافتخر فيها الشاعر بنفسه وبقومه (١) . ويمتاز هذا النص بجزالة الألفاظ ورصانة العبارة ، وقوة الجرس مثلما كان يتميز به شعر الفخر في المشرق (٢) .

وفي إبان ولاية الوالي العباسي الأغلب بن سالم بن عقال التميمي (١٤٨- ١٥٠هـ) ، احتدم الصراع بينه وبين أحد الثائرين العرب عليه وهو الحسن بن حرب الكندي (٣) . ومن الطبيعي أن يسهم النظم في ذلك الصراع بين الرجلين اللذين كانا يتمتعان بموهبة شعرية ، ولقد احتفظ المؤرخون من ذلك النظم بمقطوعتين شعريتين تنتميان إلى الفخر تبودلتا بين الرجلين (٤) . ومما هو جدير بالذكر أن المقطوعتين جاءتا على نسق واحد وزناً وقافية وحركة روى ، وعدد أبيات ، وهذا أمر شائع معروف في حلبات الصراع العربي كما يقول ابراهيم الدسوقي جاد الرب (٥) .

---

(١) أنظر نص القطعة عند ابن الأبار : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٨٣- حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم أعلاه ،ص ٣٥- ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ٧٣ .

(٢) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٧٤ .

(٣) عن تلك الأحداث أنظر ابن عذارى : نفسه - والجزء ، ص ٧٤- ٧٥- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٣٤٨- ٣٥٠ .

(٤) أنظر نص المقطوعتين عند ابن الأبار : المصدر السابق والجزء ،ص ٦٨ - ٦٩، ٧٢- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المرجع السابق ،ص ١٨-١٩ .

(٥) شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ١٩ .

وشـهـدت الفـتـرة التي تلت وفـاة الوالـي يزيد بن حـاتم المهلي (ت : ١٧٠هـ) والتي تعاقب على حكم بلاد إفريقية والمغرب خلالها عدد من الولاة المهالبة تياراً شعرياً قوياً ، تجاوبت مع أصدائه البلاد ، وذلك بين الولاة والأمراء المهالبة ، وبين مناوئيهم ، فجاشت النفوس بأشعار قويه في الوعيد والعتاب والفخر .

فممّن أوثر عنه قوله للشعـر ، الوالي الفضل بن روح بن حـاتم المهلي (١٧٧-١٧٨هـ) ، الذي ثار عليه رجل من الجند العرب المقيمين في إفريقية ويدعى عبدالله بن الجارود العبدي أو العبدوي (١) . ولقد جاءت كذلك على نسق واحد من حيث الوزن والقافيه وحركة الروى ، وعدد الأبيات (٢) .

وعندما استبد عبدالله بن الجارود بالأمور بعد مقتل الوالي السابق الفضل بن روح ، استخدم الشعر في كثير من مواقفه السياسية ، فعلاوة على الأبيات السابقة التي بعثها للفضل بن روح ، حفظت له أبيات في الفخر والوعيد كتلك التي افتخر فيها بنفسه بعد أن أفلح في الفتك بأحد رؤساء جنده (٣) . وكالتي بعثها متوعداً الأمير المهابي العلاء بن سعيد والي إقليم الزاب آنذاك (٤) .

---

(١) أنظر نص المقطوعتين عند ابن الأبار : نفسه ، ص ٧٧-٧٨- ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٢) أبراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ٢١ .

(٣) أنظر نص المقطوعة عند الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ٢٠٠- ابن الأبار : نفسه ، ص ٨٥-٨٦- والرجل الذي فتك به ابن الجارود هو صديقه وقائد جيوشه محمد بن الفارس .

(٤) أنظـر نصـهـا عند الرقـيق القـيرواني : نفسـه ، ص ١٩٦- ١٩٧ - ابن الأبار : نفسـه ، ص٨٦-٨٧ .

ومن الذين أنطقتهم الأحداث السياسية تلك شعراً ، مالك بن المنذر الكلبي ، الذي كان والياً على مدينة ميلة بالزاب من قبل الفضل بن روح بن حاتم ، والمقطوعة الشعرية التي حفظت عنه تنتمي إلى غرض الفخر ، وكان قد ألقاها أثناء لقاء له مع عبدالله بن الجارود (١) .

ومن الأمراء المهالبة الذين أوتوا حظاً من الشاعرية ، والذين حفظت عنهم قطعة شعرية الأمير العلاء بن سعيد عامل الزاب من قبل الوالي الفضل بن روح بن حاتم ، وهي أيضاً في الوعيد ، وقد بعث بها إلى عبدالله ابن الجارود بتوعده فيها بالثأر منه لقتله للوالي الفضل بن روح (٢) .

ومنهم سعيد بن يزيد بن حاتم ، وقد اشتهرت له قطعة شعرية في النصح (٣) وعبدالله بن يزيد بن حاتم المهلبي أخوه ، وقد خلدت له قطعة من الشعر في العتاب (٤) .

وقيل أن يأذن عصر الولاة بالآنتهاء ، شهد آخر الولاة العباسيين في إفريقية ، وهو محمد بن مقاتل العكي (١٨١- ١٨٤هـ) خروج أحد رجالات العرب المقيمين بإفريقية عليه ، وهو تمام بن تميم الدارمي التميمي (٥) وكما

---

(١) أورد نص المقطوعة كاملة ، ومقطوعة ابن الجارود في الرد عليها : ابن الأبار نفسه ص ٨٦-٨٧ .

(٢) هذه القطعة جاءت رداً على القطعة التي افتخر فيها ابن الجارود بنفسه ، والتي أشرنا إليها في الحاشية رقم (٢) أعلاه .

(٣) ابن الأبار : نفسه ص ٧٩-٨٠ ، حيث أورد نص تلك القطعة ، والظروف التي دعت لها .

(٤) ابن الأبار : نفسه ، ص ٨١- ٨٢- ابراهيم الدسوق : نفسه ، ص ٢٤٤، حيث الإشارة إلى ظروف تلك المقطوعة ، وكذلك نصها الكامل .

(٥) عن تلك الأحداث أنظر الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ٢٠٥ - ٢١١ ابن عذارى : نفسه ، ص ٨٩-٩٢- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣٩٠- ٣٩٥ .

سلف من عادة ، فقد تبادل الرجلان الرسائل التي تشتمل على نظم شعرى من باب الوعيد (١) ، جاء على نسق واحد من حيث الوزن والقافية وحركة الروى ، وعدد الأبيات .

يبقى أن نشير ونحن نتأهب لترك الحديث عن هذه النقطة إلى أن عصر الولاة عرف أول محاولة شعرية جاشت بها نفس أحد أبناء البلاد الإفريقية ممّن ولدوا فيها ودرجوا على ثراها وتنفسوا هواءها ، نعني به القاضي عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري (٢) (ت: ١٦٠هـ) الذي ذكر بأنه (أول مولود ولد في الإسلام بعد فتح إفريقية ٩ (٣) ، فلقد حفظ عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم مقطوعه شعرية تندرج ضمن غرض الحنين والتشوق (٤) .

والمقطوعة الشعرية تلك جاءت ضمن رسالة كان قد بعثها القاضي عبدالرحمن بن زياد بن أنعم إلى أحد أبنائه في القيروان إبان رحلته إلي العراق .

ومن أبيات تلك المقطوعة :

ذكرت القيروان فهاج شوقي ... وأين القيروان من العــراق

مسيرة أشهر للعيس نصـا ... على الإبل المضمرة العتــاق

---

(١) ابن الأبار : نفسه : ص ٨٨-٩٠- ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٤-٢٥ ، حيث نص المقطوعتين .

(٢) أنظر ترجمته قبل ٣١٣ .

(٣) المالكي : نفسه ، ج١ ،ص ٩٦ .

(٤) المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٩٩ .

فأبلغ أنعمــاً وبني أبيـــــه | أومن يرجى له ولنا التلاق
بأن اللــه قد خــلى سبيــلي | وجد بنا المسير إلى مُزاق (١)

أما وقد تيسر لنا إبراز ملامح الحركة الشعرية التي جاءت عفوية في عهود بعض الولاة الأمويين والعباسيين ، وكذلك الإشارة إلى أولئك الذين استفزتهم الظروف والأحداث ، فاستنطقتهم شعراً ، فإن من الملائم هنا أن نتحدث عن الحركة الشعرية الوافدة التي ذكرنا من قبل أنها عمت البلاد في عهد يزيد بن حاتم المهلي .

لعلنا لانكون مبالغين إذا قلنا بأن ولاية يزيد بن حاتم المهلي لإفريقية التي امتدت من عام ١٥٥ حتى عام ١٧٠هـ أي حوالي ستة عشر عاما ، تعد نقطة تحول مهمة تركت آثارها الحسنة في البلاد في شتى منامي الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية والعلمية ، وإذا كان ليس من مهمتنا التحدث عن أعماله الجليلة في تلك المناحي (٢) ، فإن ماهو خليق بالإشارة إليه هنا التنوية بجهوده العلمية ، والأدبية منها على وجه الخصوص. ذلك أن يزيداً بن حاتم منذ أن استقرت له الأمور في البلاد عمل على إضفاء جو ثقافي وأدبـي في البلاد يحيى به تقاليد أسرته العريقة في تشـــجيع الأدب والأدباء . وفي الحق فإن ذلك لم يكن مستغرباً منه ، وهو الذي وصف

---

(١) وضّح المالكي : نفسـه ، ص ٩٩ - ابن أبي دينار : نفسـه ، ص ١٨-١٩ مـايعنيـه هذا المعلم الجغرافي فقالا إنه فحص من أحد فحوص إفريقية أو القيروان وسمى بذلك لأن السحاب كان يتمذق عنده .

(٢) عن جلائل الأعمال تلك : أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ج١، ص ٣٥٨- ٣٦٤ ، ٣٦٤ - ٣٧٠ مع الحواشي .

بأنه (كان جواداً سرياً مقصوداً ، ممدحاً) (١) . ولذلك فقد رأيناه يستقدم بعض الأدباء والشعراء المشارقة ممَّن ذاع صيتهم آنذاك ، إلى جانب أن بعضاً من الشعراء والأدباء ، وقد تراءت إلى أسماعهم عطايا الأمير يزيد وهداياه ، قصدوا بلاطه ، وأسهم هؤلاء وأولئك في انبعاث حركة أدبية نشطة في البلاد تعهدها الوالي ورعاها بكرمه وجوده ، ليس هذا فحسب بل ، وبمشاركته أيضا. (٢) .

وها نحن نعرض أولاً ، إلى أبرز من أم بلاطه من الشعراء المشارقة . أما اللغويون والنحاة الذين قدموا عليه ، فسوف نعرض لهم بعد إن شاء الله، ولعل أبرز من وفد على يزيد بن حاتم طمعاً في نواله الشاعر المشهور أبو أسامة ربيعة بن ثابت الرقي الأسدي أحد شعراء الدولة العباسية المجيدين ، ممَّن طارت شهرتهم في الآفاق ، وقد امتدحه بقصيدة خالدة ، نالت لدى مؤرخي الأدب شهرة عريضة (٣) .

ومع أننا لانعرف على وجه اليقين ، ولا على وجه التقريب ، متى غادر ربيعة بن ثابت الرقي إفريقية ، وكم أمضى فيها ؟ إلاَّ أننا لانستبعد أن يكون قد أضفى على البلاد حركة شعرية طيبة ، لاسيما وهو الشاعر الطائر الصيت ، كما أننا لانستبعد أن يكون قد ترك أثراً وتأثيراً لدى الشبيبة

---

(١) ابن خلكان : نفسه ، ج٦ ، ص ٣٢١- ٣٢٢ .

(٢) عن بعض محاولاته الشعرية ، وكذلك عن حسه وذوقه الأدبي والنقدي : أنظر ابن خلكان : نفسه ، ص ٣٢٥ - ابن الأبار ، نفسه ،ج١، ص ٧٦ .

(٣) أنظر ابن خلكان : نفسه ، ص ٣٢٢-٣٢٣- ابن الأبار : نفسه ، ص ٧٤-٧٥ ، حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٤١-١٤٣، حيث نص القصيدة .

الإفريقية آنذاك .

ومن الشعراء الذين وفدوا على يزيد بن حاتم ، محمد بن عبدالله بن مسلم المعروف بابن المولى ، وقد مدحه بعده مقطوعات شعرية ، سارت بها الركبان (١) وهو ممَّن قصده كذلك أيام ولايته على مصر (٢) .

ومنهم الشاعر المشهور : المسهر التميمي ، الذي قصد إفريقية طمعاً في عطايا يزيد بن حاتم ، وقد حفظ عنه مدحه بقصيدة سائرة مشهورة (٣) ، دفعت بيزيد إلى إغداق الجوائز عليه ، ويظن حسن حسنى عبدالوهاب (٤) أن المسهر التميمي مكث لفترة طويلة من الزمن في إفريقية ، وإذا ما ثبت ذلك ، فإنه يعطينا دون ريب انطباعاً حسناً عن الحركة الشعرية في إفريقية آنذاك .

وممَّن وفد على يزيد بن حاتم ، بل ممَّن قدم معه ، المعمر بن سنان التميمي ، وهو وإن لم يكن من الشعراء إلاَّ أنه كان من ذوى الأدب ، ومن رواته . وقد أشار إلى اهتمامه بالأدب : ابن الآبار (٥) ، وألى قصة قدومه مع يزيد بن حاتم ، فقال : « وكان زميله في طريقه إذا ركب عماريته لأنسه

---

(١) ابن خلكان : نفسه ،ج٦، ص ٣٢٦ – حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، القسم الأول ، ص ١٤٥– ١٤٦ – حيث الإشارة إلى تلك المقطوعات .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ،ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلكان : نفسه ،ص ٣٢٥– ٣٢٦ – حسن حسني عبدوالهاب : نفسه ص ١٤٤ ، حيث الإشارة إلى بعض أبيات تلك القصيدة .

(٤) الورقات : القسم الأول ،ص ١٤٤ .

(٥) الحلة السيراء ، ج١ ، ص ١٠٧ .

يه واستماعه من حديثه ، وكان المعمر من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها وعنه أخذ أهل إفريقية حرب غطفان وغيرها من وقائع العرب » .

والجملة الأخيرة من كلام ابن الأبار ، وهي قوله : وعنه أخذ أهل إفريقية .. الخ تغنينا عن التعليق ، فلسنا بعدها في حاجة إلى ذكر ما أفادت الحركة الأدبية من وفادة هذا الرواي المؤرخ للأدب ، ويقول حسن حسني عببد الوهاب (١) إن المعمر بن سنان ظل في إفريقية حتى ولاية الفضل بن روح بن حاتم المهلبي (١٧٧ - ١٧٨هـ) حيث توفى هناك .

ومماً ينسب من حسن الحظ ليزيد بن حاتم ، أن المعمر بن سنان لم يكو وحده الذي أثرى الحركة الأدبية بما اشتهر من صحبته ليزيد بن حاتم المهلبي وللولاة المهالبة من أهل بيته ، فقد كان للمعمر دور أدبي عن طريق ابنه عامر ، الذي كان شاعراً مشهوراً ، قد امتدح ابراهيم بن الأغلب قبل وبعد أن يتولى إمرة إفريقية (٢) ، ولقد أهدى ذلك البيت أيضاً للحركة الأدبية شاعراً وأديباً ثالثاً ، هو : حمزة بن أحمد بن عامر بن المعمر الذي عاش في العهد الأغلبي ، ومات في منتصف القرن الثالث الهجري (٣) .

---

(١) الورقات، القسم الأول ، ص ١٣٧ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٣٨ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه . والقسم ،ص ١٣٨- ١٣٩ .

الشعر في عصر الأغالبية :

تستلفت نظر الباحث ، وهو يتتبع حركة الشعر واتجاهاته ورجالاته في إفريقية خلال عصر الأغالبة العديد من المؤشرات ذات الدلالات الإيجابية التي كان لها أثرها الطيب في مسيرة الدراسات الأدبية هناك . ولعل أول تلك المؤشرات هي أن إفريقية عرفت وقتذاك ولأول مرة شعراء أوتوا نصيباً من الشاعرية أنبتتهم التربة الإفريقية . أي أننا بدأنا نجد من أبناء البلاد الأصليين سواء كانوا عرباً أو بربراً من قرض الشعر ونظمه ، ممَّا يصدق معه إطلاق لقب شاعر عليهم ، وهذا بالطبع أمر له دلالته البالغة .

وممَّا تبدى لنا من مؤشر حسن ، ونحن نمعن النظر في الحركة الشعرية خلال هذا العصر ، وهو أن بعض أولئك الشعراء الذين أظهرهم العصر الأغلبي كانوا من فقهاء وزهاد المالكية على وجه التعيين .

والمؤشر الثالث الذي لفت نظرنا ، هو أن معظم الأمراء الأغالبة الذين حكموا إفريقية ابتداءً من الأمير ابراهيم بن الأغلب أولهم ، وانتهاءً بزيادة الله الثالث آخرهم ، قرضوا الشعر ونظموه في أكثر المعاني والأغراض ، ولم يكن الأمر قاصراً على الأمراء الذين تولوا سدة الحكم فحسب وإنما شارك في قول الشعر ونظمه عدد آخر من الأمراء المهالبة ، ممَّن كانوا يتولون حكم الولايات وقيادة الجيوش .

وثمة مؤشر رابع تابعناه ، ونحن نرقب ذلك الإنتاج الذي خلفه عصر الأغالبة ، هو أن شعراءه طرقوا معظم أغراض الشعر المعروفة ، وإن كانت

الغلبة والظهور قد رافقا بعض الأغراض الشعرية دون الأخرى ، مثل الرثاء، والهجاء ، والمديح ، وشعر الزهد ، فقد كانت هذه الأغراض أحفل في الظهور والاهتمام دون بقية الأغراض ، هذا في الوقت الذي لم تلق بعض الأغراض مثل الغزل أي قدر ملحوظ من الاهتمام والظهور تقريباً .

والمؤشر الخامس والأخير في سلسلة ملاحظاتنا على الحركة الشعرية في العصر الأغلبي أن المعاني والأخيلة ، أو أدوات البناء الشعري عموماً وأشكالها ، جهدت على أن تتمشى مع طبيعة روح العصر الأدبي التي كانت قد قصرت أن تبلغهما بالطبع .

وأيا ماكان الأمر ، فإذا مضينا نترجم لأبرز الشعراء وأشعارهم خلال هذا العصر ، فإن ضرورة المنطق تستدعى تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام تبعاً لاتجاهاتهم الفكرية والإجتماعية كما أشار إلى ذلك بحق رابح بونار (١) وهذه الأقسام الثلاثة هي : الشعراء الأمراء ، والشعراء الفقهاء والزهاد ، والشعراء الأدباء الخلص .

(١) نفسه ، ص ١٠٧ .

الشعراء الأمراء :

لابراح في أن الأمير ابراهيم بن الأغلب (١٨٤-١٩٦هـ) مؤسس الدولة الأغلبية ورأسها ، يعد في طليعة الشعراء الأمراء الأغالبة ، وهو واحد من أشهر شعراء العصر الأغلبي . فقد حفظ عنه الكثير من القطع الشعرية التي تدل على علو كعبة في الشعر ، وكيف لايحدث هذا ، وهو الذي وصف بأنه (كان عالماً أديباً شاعراً خطيباً) ؟ (١) .

وفي الحق فإن شاعرية ابراهيم بن الأغلب قد تجلت قبل أن يتولى الإمرة فقد روى أنه كانت له مقطوعات شعرية في الوعيد والفخر والهجاء في مناوئيه ومناوئي ولاة إفريقية قبله (٢) .

وعندما تولى الإمرة دعت ظروف ودواع إلى أن يستخدم ، وهو الشاعر الأديب سلاح الشعر الماضي في مواجهة مناوئيه الخارجين عليه . ومن الطبيعي أن تكون الأغراض التي طرقها في أشعار إمرته لاتختلف عن الأغراض التي طرقها من قبل أن يتولى الإمارة ، وذلك لتشابه الدواعي والظروف (٣) .

---

(١) ابن الأبار : نفسه ، ص ٩٣ .

(٢) عن تلك الأشعار ، أنظر ابن الأبار : نفسه ، ص ٩٥ - ٩٦- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه، ص ٧٢٥- ٩٥٢ .

(٣) راجع ابن الأبار : نفسه ص ٩٨، حيث الإشارة إلى شعر الوعيد ، ص ١٠٤ حيث الإشارة إلى شعر الفخر ، - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٢٩- ٣٠ ، حيث الإشارة إلي أشعار الوعيد ، ص ٧٦- ٧٧ حيث الإشارة إلى نصوص الفخر .

ومن أبنائه لصلبه ممّن اشتهر بقول الشعر وفرضه الأمير زيادة الله الأول بن ابراهيم بن الأغلب : (٢٠٢- ٢٢٣هـ) ، فقد كان شاعراً متضلعاً في الشعر ، مع قلة شعره ، ويقول ابن الأبار عنه (١) : (كان أبوه ابراهيم بن الأغلب إذا قدم عليه أحد الأعراب والعلماء بالعربية والشعراء ، أصحبهم ابنه زيادة الله هذا ، وأمرهم بملازمته ، فكان أفضل أهل بيته ، وأفصحهم لساناً ، وأكثرهم بياناً وكان يعرب كلامه ولايلحن ، دون تشادق ولا تقصير ، ويصوغ الشعر الجيد) . ووصف ابن الأبار (٢) مكانته في الأدب فقال عنه بأنه كان أمتن إخوته أدباً بعد أبيه .

وقد أفلت من الشعر الذي كان يصنعه ويكتمه ، كما يقول ابن الأبار (٣) بضع مقطوعات جيدة في شعر الوعيد والشكوى ، والنسيب ،كانت كلها تدل على أصالة شعرية ، وقدرة فائقة على التعبير (٤) .

أما الأمير الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٢٢٣- ٢٢٦هـ) ، وهو ثالث إخوته ممّن تولى الإمارة ،فقد (كان له حظ من الأدب يصوغ به مقطعات من الشعر) كما يقول ابن الأبار (٥) . لكننا لم نظفر من تلك المقطعات إلاّ بثلاثة أبيات في النسيب (٦) ، وهي على تفردها وقصرها تتسم بالعبارة

---

(١) نفسه : ج١، ص١٦٣ .

(٢) نفسه ، ص ١٦٨ .

(٣) نفسه ، ص ١٦٥ .

(٤) عن تلك المقطوعات : أنظر ابن الأبار : نفسه ، ص ١٦٥ -١٦٦ -١٦٧ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٣٢، ١١٢- ١١٣، ٢٣٣- ٢٣٤ .

(٥) نفسه ، ص ١٦٨ .

(٦) ابن الأبار : نفسه ، ص١٦٩- ابراهيم الدسوقي : نفسه ص ٢٣٤ .

البارعة كما يرى ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) .

وكان الأمير محمد ابنه (٢٢٦- ٢٤٢هـ) الذي تولى الإمارة بعده ، لايقل حظاً من الأدب عن أبيه ،وقد حفظت له قصيدة في الفخر ، تعد من أطول نصوص الفخر في العصر الأغلبي (٢) ، مع أنها لم تكن ذات متانة شعرية ، لافتقارها إلى قوة الجرس المطلوبة عادة في شعر الفخر (٣) .

هؤلاء الأمراء الأغالبة الحكام كانوا في نظر مؤرخي الأدب أشهر الأمراء الحكام وأقربهم إلى صفة الشاعرية . أما بقية الأمراء الآخرين . فقد كانوا أقل حظاً في الشاعرية منهم ، وإن كان بعضهم قد خلف شيئاً من الشعر في أغراض الفخر والحنين وغيره . مثل الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب (٤) (٢٦١- ٢٨٩هـ) ، وابنه الأمير عبدالله بن ابراهيم بن أحمد (٥) (٢٨٩-٢٩٠هـ) ، وحفيده زيادة الله (٦) (الثالث) بن عبدالله بن ابراهيم بن أحمد (٢٩٠- ٢٩٦هـ) .

---

(١) نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٢) عن تلك القصيدة : أنظر ابن الأبار ، نفسه ، ص ١٧٠-١٧١ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٧٨-٧٩ .

(٣) ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ٧٩-٨٠ .

(٤) حيث ذكر بيتان في الفخر له ، انظر بن الأبار : نفسه ،ص ١٧٢- ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٨٠ .

(٥) وقد روى له ثلاثة أبيات في شعر الحنين قالها وهو في صقلية بعيداً عن القيروان ، أنظر عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ،ص ٤٠-ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص٢٥٤ .

(٦) وقد رويت له أربعة أبيات في الفخر ، انظر ابن الأبار : نفسه ، ص ١٧٨ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٨٥- ٨٦ .

وإذا تركنا الأمراء الأغالبة الحكام جانباً ، فهناك نفر آخر من أفراد البيت الأغلبي أثرى الحركة الشعرية بآثاره وأدبه . فمن أبرز أولئك الأمراء . أحمد بن سفيان بن سوادة بن سفيان بن سالم بن عقال ، الذي كان والياً على إقليم الزاب ،ثم طرابلس في عهد الأمير أبي العباس محمد الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب المتوفى عام ٢٤٢هـ كما عرفنا سبقا . فقد كان أحمد هذا شاعراً معروفاً ، ومماً ينسب إليه مقطوعتان في الفخر ، تدل على شاعرية قوية متمكنة (١) .

ومنهم محمد بن زيادة الله بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب الذي كان والياً على طرابلس في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد بن محمد المتوفى عام ٢٨٩هـ ، وقد وصفه ابن الأبار (٢) بقوله : كان عالماً أديباً شاعراً خطيباً ، مع عشرة لإخوانه ولين جانب لأخدانه . لاينادم إلاّ أهل الأدب). وقد قتل عام ٢٨٤هـ على يد ابن عمه الأمير ابراهيم بن أحمد (٣). ومماً حفظ عنه أبيات حسنة في شعر الحنين (٤) .

ومن الأمراء الأغالبة كذلك في عهد الأمير ابراهيم بن أحمد ، مجير ابن ابراهيم بن سفيان ، الذي كان والياً على صقلية من قبل الأمير ابراهيم

---

(١) عن هذا الأمير ، وعن تلك المقطوعتين ،أنظر ابن الأبار : نفسه ،ص ١٨٢- ١٨٣ ، ١٨٥- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ٨١ - ٨٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٩- ١٨٠ .

(٣) عن ظروف مقتله : أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ١٤٠- ١٤١، ١٤٣ .

(٤) ابن الأبار : نفسه ص ١٨١ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ ، حيث الإشارة إلي النص .

الثـاني ، ثم مـالبث بعد ذلك أن وقع أسـيـراً في يد الروم ، حـيث بعث إلى القسطنطينية ، ولقد بعث من أسره في القسطنطينية بقصيدة طويلة « اشتهرت آنذاك اشتهاراً كبيراً .

٢- الشعراء الفقهاء :-

لم يكن قول الشعر وقرضه وقفاً على الأمراء الأغالبة ، ولا على بقية الأدباء الآخرين وحدهم ، فقد شارك بعض فقهاء البلاد في إرواء الحركة الشعرية بفيض لا بأس به من شعرهم المتعدد المعاني والأغراض ، فمن أوائل الفقهاء الذين أوتوا شيئاً من الشاعرية : الفقيه المالكي عبدالله بن أبي حسان اليحصبي المتوفى عام : ٢٢٧هـ وهو أحد الفقهاء الذين كنا قد عرضنا لهم من قبل أثناء حديثنا عن الفقه في العصر الأغلبي . ومما حفظ عنه من شعر أبيات أربعة في شعر الشكوى (١) . وأيضاً الفقيه عبدالملك بن نصر . وقد اشتهر له من الشعر مقطوعه تقع في أربعة أبيات رثى بها الفقيه المشهور سحنون بن سعيد المتوفى عام ٢٤٠هـ (٢) . ومن العباد الذين قالوا الشعر نذكر حاتم الجبنياني الذي نظم قصيدة تقع في ثلاثة عشر بيتا في رثاء عبدالرحيم بن عبدين المتعبد (٣) .

ومن الفقهاء الذين روى عنهم شئ من الشعر ، نذكر الفقيه محمد بن

---

(١) المالكي : نفسه ،ص ٢٠٣ - ابرهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ١١٢- ١١٣ .

(٢) المالكي : نفسه ،ص ٩٠- ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ١٩٥ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٢٣ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٩٥ .

داوود . ومعلوماتنا في الحق عن محمد بن داوود لاتتعدى مجرد معرفه اسمه فحسب ، غير أن ماعرفنا به هو مقطوعة شعرية جيدة في الرثاء ، قالها في رثاء صديقة الفقيه محمد بن سحنون (١) المتوفي عام ٢٥٦هـ كما أشرنا لذلك من قبل .

بيد أن أبعد أولئك الفقهاء ذكراً في الشعر وأشهرهم فيه في هذا العصر الأغلبي الذي نؤرخ له كان بلامراء الفقيه المشهور أحمد بن أبي سليمان داود المعروف بالصواف (٢) (ت : ٢٩١هـ) ، وأحمد بن أبي سليمان أحمد ممَّن تتلمذ على الفقيه الأشهر سحنون بن سعيد وأفاد منه ، ومن هنا كان يعبر في شعره دائماً عن تقديره العميق له ولابنه محمد بن سحنون كذلك ، ويبدو أن مكانته الشعرية كانت تزاحم مكانته في الفقه ، ومماً جاء في الثناء على مكانته ما قاله عياض (٣) من أنه كان أديباً وراوية للشعر، مكثر القول فيه ، ونقل عياض (٤) أيضاً عن أحد مصادره التي اعتمد عليها ، أنه كان له بالشعر عناية في أول أمره ، فلما صار إلى درجة العلم وصحبة العلماء ترك قوله) .

وكيفما كان الأمر ، فإن بين أيدينا انتاجاً شعرياً غزيراً له في بعض

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١١٧- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٢) ترجم له ترجمة واسعة كل من المالكي : نفسه ، ج١ ،ص ٤٠٧- ٤١٣- عياض : نفسه ، ص٢٤٢- ٢٤٥ .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص ٢٤٢ .

(٤) نفسه ، ج٢، ص٢٤٢ .

أغراض الشعر كالرثاء والزهد وغيرهما . فأما ما يتصل بالرثاء ، فقد روى أنه نظم قصيدة تقع في ثلاثمائة بيت – وهو أمر له دلالته البالغة هنا – في رثاء الفقيه محمد بن سحنون . على أنه لم يبق من تلك القصيدة الطويلة سوى أربعة وخمسون بيتا ذكرها المالكي (١) وحده ، في رياضه ، ويقول مطلع تلك القصيدة :

ألا فابك للإسلام إن كنت باكيا لحبل من الإسلام أصبح واهيا

تثلم حصن الدين وانهد ركنه عشية أمسى في المقابر ثاويا

إماماً حباه الله فضلا وحكمة وفقهه في الدين كهلا وناشيئاً

وعلى كل فإن مابقى منها يدل على أنها ذات سبك قوى متين ، فيها حرارة العاطفة ولوعة الأسى ، وعندما توفى الفقيه عبدالله بن طالب (ت:٢٧٥هـ) رثاه أحمد بن أبي سليمان الصواف كذلك بقصيدة طويلة ، لم يشر إلاّ إلى ستة أبيات منها فقط (٢) .

والغرض الشعري الآخر الذي قال فيه أحمد بن أبي سليمان، وأجاد ، هو غرض الزهد ومايسمى بالشعر الروحي . ولقد ترك العديد من القصائد الطوال فيه ، التي توضح نظرته للحياة ومواقفه الداعية إلى إيثار العبادة والعلم ، والرغبة في العزلة ، والانقطاع عن الدنيا والتبرم بها ، والندم على مافات إلى غير ذلك (١) . ولقد ترك قصيدة تعبر عن موقفه من الشعر الذي

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٣٥٧ – ٣٦٠ .

(٢) نفسه ، ج١ ، حاشية رقم ٣ ، ٣٨٧ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٤١٠– ٤١٣ – ابراهيم الدسوقي : نفسه ،ص ١٤٢ – ١٤٧ .

زهد فيه الشعراء وهي جيدة ذات سبك حسن (١) على قصرها .

وثمــة فقيــه آخــر أوتى شيئاً طيباً من الشاعرية ، وهو الفقيه محمد ابن عبدالرحمــن بن سليم بن أراب بن سهيــل الفــارَسي الملقب بزرزر (٢) (ت : ٢٩١هـ) ، فقد ذكر بأنه كان (حافظاً للغريب بصيراً بالعربية ، راوية للاشعار يحسن الصنعه له جيد القول فيها) (٣) ، ويقول المالكي (٤) عن انتاجه والطابع الذي يغلب عليه : (وشعره كثيرجداً ، واكثره في توحيد الله عز وجل ، والرد على الزنادقة والملحدين والكذابين) . على أنه لم يزودنا من شعره الكثير جداً ، إلاّ بمقطوعة واحدة تقع في خمسة أبيات (٥) ، وقد أتت صورة صادقة تعكس الطابع الذي تميز به شعره الذي أشار إليه المالكي .

وأخيراً ، فإن الفقيه عيسى بن مسكين (ت : ٢٩٦هـ) ، الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن الدراسات الشرعية في العصر الأغلبي ، كان من الفقهاء الذين عرف عنهم قولهم للشعر ، ولقد وصفه عياض (٦) بالفصاحة وإجادة الشعر ومماً حفظ عنه من ذلك الشعر الذي كان جيداً ،

---

(١) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٤٢ .

(٢) ترجم له الخشني : المصدر السابق ،ص ١٩٠- المالكي : نفسه ،ص ٤١٤ - ٤١٦ . وقد نبه محقق الجزء الأول من الرياض حسين مؤنس إلى اسمه كاملاً بناءاً على ما أستقاه من مصادر مختلفة . أنظر المالكي : نفسه ، حاشية رقم ٢ ، ص ٤١٤، ويقول في نفس الحاشية أن زرزر لقب له وليس اسمه .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٤١٥ .

(٤) نفسه ،ص ٤١٥ .

(٥) المالكي : نفسه ، ج١، ص ٤١٥ .

(٦) نفسه ، ج٢، ص ٢١٥ .

ثلاث قطع في الشكوى والتوجع بعد أن هده الكبر وذهب عنه الشباب (١) .

ولعل من أمتع تلك القطع ، القطعة التي ذكر منها هذان البيتان (٢) .

لما كـبرت أتتني كل داهيـــــــة وكل مـا كان مني زايد انقصـــا

أصافح الأرض إن رمت القيام وان مشيت تصحبني ذات اليمين عصا

٣- الشعراء الأدباء :-

ونقصد بذلك أولئك الذين طغت عليهم صفة الأدب عامة ، وصناعة الشعر خاصة ، وسواء كانوا من الثائرين على الدولة الأغلبية ، أو غيرهم . فمن أوائل أولئك نذكر خريشاً بن عبدالرحمن بن خريش الكندي (توفى مقتولاً عام ١٨٦ هـ) وهو أحد الثائرين على الأمير ابراهيم بن الأغلب إبان إمارته ، وقد نسب إليه قطعة في شعر الوعيد بعث بها إلى الأمير ابراهيم ، وهي على قصر أبياتها تدل على شاعرية حسنة لدى خريش الكندي (٣) .

ومن أولئك الثـائرين علي ابراهيم بن الأغلب ممَّن كـان له شئ من الشعر ، عمران بن مجالد بن يزيد الربعي (توفى مقتولاً كذلك عام ١٩٦هـ) وقد أورد ابن الأبار (٤) له مقطوعة واحدة في شعر الفخر.

---

(١) أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٢٦- ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٤٤- ١١٥ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٣) ابن الأبار : نفسه ، ج١ ص ١٠٢- ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٥- ١٠٦ .

أما الثائر الذي يمكن اعتباره بحق شاعراً أصيلاً ، فهو عامر بن المعمر ابن سنان التميمي ، وعامر بن سنان سبق لنا أن تعرضنا له أثناء حديثنا عن والده المعمر بن سنان ، الذي كان أحد شعراء عصر الولاة ، ولقد وقف عامر بن سنان هذا يعاضد إبراهيم بن الأغلب بشعره وسيفه حتى قبل أن يتولي الإمارة ، فقد روى أنه نظم قصيدة مدح في ابراهيم أيام تصدية لثورة تمام بن تميم التميمي على والي إفريقية محمد بن مقاتل (١) العكي (١٨١- ١٨٤هـ) . وعندما انتصر ابراهيم على الثائر خريش الكندي الذي ذكرناه آنفاً امتدحه عامر كذلك بقصيدة حسنة (٢) . ولكن عامراً قد استهوته فكرة الثورة والتمرد . فخرج على إبراهيم بن الأغلب مع الثائر عمران بن مجالد الربعي الذي ترجمنا له قبل قليل ، غير أن إبراهيم مالبث أن عفا عنه بعد ذلك (٣) .

ومن شعراء عهد الأمير ابراهيم بن الأغلب ، القائد الفارسي والشاعر المجيد حمزة بن السبال المعروف بالحرون (٤) . ولقد رويت له عدة قطع شعرية في مدح ابراهيم بن الأغلب ، كما رويت له قطعة واختلط فيها الفخر بالوعيد (٥) ، وكذلك الشاعر المعروف بأبي المضرجي - وهذا كل مانعرفه عنه - وذكر القاضي عياض في مداركه (٦) أنه كان أحد جلساء وشعراء

(١) ابن الأبار : نفسه ، ج١، ص ١٠٦- ١٠٧ .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٠٧ .

(٣) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٠٦ .

(٤) ابن الأبار : نفسه ، ج١، ص ١٠٧- ١٠٨ .

(٥) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٩ .

(٦) الجزء الأول ، ص ٣٢٣ .

الأمير ابراهيم بن الأغلب ، ويظهر أن فنه الشعري المشهور هو الهجاء . فقد ذكر عياض (١) أيضاً أنه هجا الفقيه عبدالله بن غانم الرعيني (ت١٩٠هـ) بشعر اشتهر آنذاك .

ومن شعراء العصر الأغلبي الشاعر يعقوب بن يحيى الذي عاش في عهد الأمير زيادة الله بن ابراهيم (٢٠١- ٢٢٣هـ) ، ويبدو أنه كان شاعر الأمير . وقد حفظت عنه مقطوعة شعرية محرضة تقع في أربعة أبيات . وقد قالها محرضاً الأمير للتخلص من بعض الثائرين عليه (٢) آنذاك .

ولقد عرف عهد الأمير زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب شاعراً آخر مشهوراً هو الحسن بن منصور المذحجي ، أحد رجالات العربي النابهين آنذاك ، وقد قال ابن الأبار (٣) عنه بأنه (كان يجمع إلى شرف آبائه وأهل بيته ، علماً واسعاً وأدباً غزيراً ، وأقل ما تصرف فيه الشعر ، وكان بصيراً باللغة ناقداً في النحو عالماً بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها ، هذا وتنسب إليه عدة مقطوعات جيدة في الرثاء والمديح والنسيب (٤) .

ومن ألمع الشعراء الذين عرفهم العصر الأغلبي : ابو العباس محمد ابن حيون الكاتب المعروف بالبريدي : (ت : ٢٧٦هـ) ، الذي كنا قد تلمسنا دوره في نشاط الحركة النثرية إبَّان توليه الكتابة للأمير ابراهيم بن أحمد بن

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٣٢٣- ٣٢٤ .

(٢) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢،ص٦٢- ابراهيم الدسوقي: نفسه ، ص٢٤٦- ٢٤٨ .

(٣) نفسه ،ج١، ص ١٨٧ .

(٤) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٨٧ -١٨٨-ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٢٣٩ .

محمد بن الأغلب ، فالبريدي بالإضافة إلى شهرته في النثر ، كان شاعراً مجيداً ، ومما حفظ عنه من شعر جيد الأبيات الثلاثة التي نظمها في ختام رسالة الاستعطاف التي بعث بها إلى الأمير ابراهيم بن أحمد من محبسه ، والأبيات من الشهرة والجودة بحيث لانرى غضاضة في أن نوردها هنا ، فهي توضح لنا مقدار ما بلغته الحركة الشعرية آنذاك من تطور .

هبني أسأت فأين العفو الكـــــرم قد قادني نحوك الاذعان والنـــدم

ياخير من مدت الأيدي إليه أمـــا ترثى لمن قد بكاه عندك القلـــم

بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا (١)

وشاعر آخر مشهور لايقل مكانة عن البريدي ، عرفه هذا العصر ، وهو عبدالله بن الصائغ الكاتب وصاحب البريد (ت : ٢٩٦هـ) الذي كنا قد عرفنا دوره في الحركة الأدبية عن طريق وظيفته الرسمية في ديوان الانشاء في عهد آخر الأمراء الأغالبة الأمير زيادة الله بن عبدالله بن ابراهيم (٢٩٠-٢٩١هـ) ، وكذلك دوره السياسي الذي اضطلع به آنذاك فقد كان عبدالله بن الصائغ شاعراً مجيداً ، كما يقول ابن الأبار (٢) ، ولقد أورد له

---

(١) هذه الأبيات متنازع عليها ومختلف فيها أشد الإختلاف فابن عذارى :نفسه ، ص ١١٥، يقول أنها لمحمد بن حيون المعروف بالبريدي هذا الذي نترجم له في المتن ، وكذلك يقول ابن الأبار : نفسه ، ص ٢٦٥ – ٢٦٦ ، وإن كان لم يقطع بذلك ، فقد أوردها في معرض الإشارة إلى الاختلاف فيها بين من يقول إنها للبريدي وبين من يقول إنها للحاجب الأموي الأندلسي جعفر بن عثمان المصحفي ، وقد قالها مستعطفا الحاجب الأموي المشهور المنصور بن أبي عامر ، وأورد ابن الأبار : نفسه ص ٢٦٦، أيضاً رأيا ثالثاً وهي أن هذه الأبيات تنسب إلي الشاعر الأندلسي أبي عمر بن دراج القسطلي .

(٢) نفسه ، ص ١٧٧ ، ١٨٩ .

عدة مقطوعات شعرية رائعة المعاني والأسلوب : (تمثل قمة ما وصل إليه الشعر المغربي في القرن الثالث الهجري) ، كما ذكر ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) . ومعظم تلك المقطوعات جاءت في غرض واحد ، هو النسيب ، وفي الحق فإننا لانستطيع أن نتجاوز البيتين اللذين صاغهما ارتجالا ومن فوره ، عندما طلب منه الأمير زيادة الله أن يجعل من عجز بيت ، وهو : «فقد صرت بعد البين أقنع بالهجر » .

قال :

ولي كبد لولا الأسى لتصـــــدعت وقلب أبى أن يستريح إلى الصبر

وقد كنت أخشى هجرهم قبل بينهم فقد صرت بعد البين أقنع بالهجر (٢)

وأخيراً فإن هناك شاعراً آخر عاش ردحاً من الزمن في عصر الأغالبة، وتولي ديوان الإنشاء في بلاطات الأمراء الثلاثة الأخيرين منهم ، ثم توفى في صدر العصر الفاطمي ، أي عام ٢٩٨هـ ، ونعنى بذلك الأديب الرياضي الكاتب أبا اليسر ابراهيم الشيباني ، الذي كنا قد ترجمنا له عند حديثنا عن النثر الفني والتأليفي ، وفي الحق فإننا لم نعثر له إلاَّ على بيت واحد من الشعر قاله وهو يجود بأنفاسه وهو :

يكاد جسمي من نحول الضنى تحمله أنفاس عوادى (٣)

---

(١) نفسه ، ص ٣٣٦.

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٧٧ .

(٣) حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص٣٦٨– ٣٦٩ .

الشعر في عصر الفاطميين :-

لعل أهم مظهر نلحظه علي الحركة الشعرية في إفريقية خلال عصر الفاطميين ، هو غزارة الإنتاج الشعري الذي خلفه هذا العصر . وما من ريب في أن معظم ذلك الانتاج الشعري الغزير قد جاء نتيجة للتحول السياسي والمذهبي الذي رافق قيام الدولة الفاطمية ، والذي تلمسنا بصماته أو آثاره على ماسبق من حقول الحياة العلمية التي تعرضت لها الدراسة من قبل . بيد أن ذلك التحول السياسي والمذهبي كان أكثر تأثراً في الحرة الشعرية – التي عادة ما تكون المرآة الصادقة لمجمل نواحي الحياة المختلفة – من أي حقل علمي أو أدبي آخر .

فلقد سخرت الدولة الفاطمية منذ أن قامت طاقات من استخوزت عليه من الشعراء لخدمة معتقدها المذهبي ، والدفاع عنه ، ومدح خلفائها والإشادة بهم . وبالمقابل تصدى الشعراء المناصرون للمذهب المالكي إلى مناهضتهم ، ومن الطبيعي والحالة كذلك أن تكون محصلة ذلك محصلة شعرية وفيرة . زد على ذلك أن لغزارة الإنتاج الشعري في هذا العصر سبباً آخر ، إلا وهو رغبة الخلفاء الفاطميين في جعل بلاطاتهم لا تقل روعة ومكانة عن بلاطات منافسيهم في بغداد وقرطبة بصفة خاصة ، وغيرها من البلاطات بصفة عامة . ومن هنا ازدحم بأبوابهم الكثير من الشعراء الذين أثروا الحركة الشعرية بنتاجهم الغزير .

وفيما عدا هذا فبإمكاننا القول إنه ليس ثمة مايميز الحركة الشعرية كثيراً في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة . فلقد تتابع ظهور شعراء

إفريقيين من نبت الأرض الإفريقية ، سواء كانوا عرباً أو بربراً . والأمر الجديد هنا أن بعض أقاليم ومدن إفريقية عرفت شعراء أصلا أرضها ، عاشوا مبرزِّين ينتسبون إليها .

وكما عرف عصر الأغالبة نوعيات ثلاث من الشعراء ، وهم الشعراء الأمراء والشعراء الفقهاء ، والشعراء الأدباء الخلص ، كذلك عرف هذا العصر ، بل واشتهر بهذه النوعيات الثلاث من الشعراء .

وفيما يتصل بالأغراض الشعرية التي قام على سوقها ذلك الإنتاج الشعري الغزير الذي خلفه عصر الفاطميين فإن شعراء طرقوا كسابقيهم في العصر الأغلبي أكثر أغراض الشعر المعروفة ، وإن كانت الغلبة والظهور لبعض الأغراض دون الأخرى مثل المديح والهجاء بصفة خاصة ، ثم الفخر والوصف ، ومايعرف بالشعر الروحي . على أن الغرض الشعري الأحفل كان بلا مراء المديح ، وانزوت بعض الأغراض الأخرى التي كانت سائدة من قبل مثل الرثاء والزهد تقريباً .

وأخيراً ، فإن أدوات البناء الشعرى من معان وأخيله وغيرها من ضروب البناء الشعري عموما تمشت كسابقتها في العصر الأغلبي مع طبيعة روح العصر الأدبي التي كانت تعيشها الحركة الشعرية في الدولة الإسلامية .

الشعـــــراء الخلفــــاء :

أشرنا آنفاً إلى أن عصر الفاطميين عرف نوعيات ثلاث من الشعراء ، و هم الشعراء الخلفاء ، والشعراء الفقهاء ،ثم الشعراء الأدباء الخلص ، ومن البدهي أن نتطرق بالحديث عن الشعراء الخلفاء جرياً على ما احتذيناه من منهج عند حديثنا عن الشعراء في العصر الأغلبي .

عرف عن الخلفاء الفاطميين الذين تولوا الخلافة في الدور المغربي نظمهم للشعر ، وإن كان حظهم قد اختلف كماً ونوعاً من واحد لآخر . فالخليفة عبيدالله المهدي (٢٩٦- ٣٢٢هـ) مع أنه كان (مفوهاً فصيحاً عالماً أديباً)، كما يقول ابن الأبار (١) ، إلاَّ أنه لم يعرف عنه سوى مقطوعتين احداهما في الوعيد ، وتتكون من عدة أبيات ، بقى منها بيتان فقط ، وهى التي بعثها إلى أحد خصومه في المغرب الأقصى (٢) . والمقطوعة الأخرى في الفخر ، وتقع في أربعة أبيات ، يفتخر فيها بنفسه وبشجاعته وبحيويته الجرارة (٣) وتتميز بجزالة معبرة ، وجرس قوي .

أما الخليفة القائم بأمر الله ابنه (٣٢٢- ٣٣٤هـ) فقد كان أغزر شعراً من أبيه ، وقد اختفظ له المؤرخون بمقطوعتين إحداهما في مايسمى

---

(١) نفسه ، ص ١٩٣ .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ١٩٣- ابن عذارى : نفسه ، ص ١٧٨ .

(٣) أحمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ ، ص ٢٠٠ – ١-٢ .

بالشعر الروحي وقد بعثها إلى والده في عام ٣٠٣هـ ، عندما أخفق في فتح مصر . وتقع في أحد عشر بيتاً ، وهي عبارة عن (تسبيحة غريبة تصدر اسم الجلالة (الله) كل بيت منها وختمه) (١) وهي في الوعيد ، وتقع في أربعة عشر بيتا (٢) .

ويقول ابن الأبار (٣) ان الأديب العباسي أبا بكر الصولي أجابه بمقطوعة مماثلة لمقطوعته ، وذلك بأمر من الخليفة العباسي المقتدر .

وكان الخليفة المنصور (٣٣٤-٣٤١هـ) لا يقل شاعرية عنهما . وقد عرفت له مقطوعتان الأولى وتتكون من ٨ أبيات بعثها ضمن كتاب إلى ولده المعز لدين الله إبان مطاردته للثائر البربري أبي يزيد مخلد بن كيداد . وهي مقطوعة اختلطت فيها الشكوى بالفخر (٤) . والمقطوعة الأخرى في الفخر ، وقد قالها وهو يتأهب للنصر الوشيك على أبي يزيد مخلد ، وهي أفضل من الأولى من حيث القيمة الشعرية ، فقد تميزت بقوة الجرس ، وجزالة العبارة (٥) كما هو شأن شعر الفخر عادة .

---

(١) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٨٧- ١٨٨ .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ٢٨٧، ولم يورد منها سوى أربعة أبيات - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٣٨- ٣٩ ، وقد زورد النص بأبياته كلها .

(٣) نفسه ، ص ٢٨٧- ٢٨٨ .

(٤) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٥) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ٨٧ .

ولم يتخلف الخليفة المعز لدين الله (٣٤١- ٣٦٢هـ) عنهم ، فقد كان (شاعراً أيضاً(١) وأديباً) وكان له شعر يميل فيه إلى استخدام الصنعة والمحسنات البديعية التي كانت سائدة في عصره آنذاك (٢). ولقد نسبت إليه عدة مقطوعات جاءت كلها في النسيب (٣) ، ولعل أشهر المقطوعات ، تلك التي لم يبق منها سوى هذين البيتين :

أطلع الحسن من جبينك شمسا فوق ورد في وجنتيك أطلا

وكأن الجمال خاف على الـورد جفافا فمد بالشعر ظـــلا (٤)

فلقد رأى فيهما ابن خلكان (٥) (معنى غريباً بديعاً) ، وفصل محمد عبدالغني حسن (٦) ذلك المعنى الغريب البديع بما في البيتين من خيال جميل وصوره مستحسنة ، وحس شاعري مرهف دقيق ، أو هو الصورة المستملحة المخترعة وكفى .

---

(١) محمد عبدالغني حسن : الأمير الشاعر تميم بن المعز ، سلسلة المكتبة الصغيرة رقم ١١٠ .

(٢) أحمد الطيب الفقيه : المرجع السابق ،ص ٩٧.

(٣) عن تلك النصوص أنظر محمد عبدالغني حسن : نفس المرجع أعلاه ، ص ١١– ١٣ .

(٤) محمد عبد الغني حسن : المرجع السابق ،ص ١٢، و إن كان يقول إنها نسبت إلى شاعر فاطمي مصري آخر هو ظافر الحداد ، (أنظر ص ١٢-١٣) . على أن المؤلف فاته كذلك أن يشير إلى أن هذين البيتين ينسبان إلى الأمير تميم بن المعز نفسه ،كما أشار هو أي محمد عبدالعغني حسن نفسه إلى ذلك في ص٥٤ نقلا عن ابن سعيد المغربي صاحب كتاب المرقصات) . وليس ثمة اختلاف في البيتين إلاّ في صدر البيت الثاني ، فبدلا من : فكأن المال .. الخ قال عن بيتى تميم في نفس صدر البيت الثاني : فكأن العذار ... الخ .

(٥) فيما ينقل عنه محمد عبدالغني حسن : نفسه ص ١٢ .

(٦) نفسه ،ص ١٢ .

بقى أن نشير قبل أن نترك الحديث عن الشعر الخلفاء إلى أن أعظم وأنبغ شاعر أنبته البيت الفاطمي قاطبة هو الأمير تميم بن المعز لدين الله (٣٣٧- ٣٧٤هـ) (١) . ومع أن تميماً لم يل الخلافة لا في دور الخلافة الفاطمية المغربي ، ولا في دورها المصري ، إلاً أننا لانستطيع إغفال ذكره كشاعر أمير من أمراء الفاطميين ، كان له في الشعر دولة سامقة الذرى . وكيف لنا أن نغفل ذلك وهو كما وصفه ابن الأبار : (شاعر أهل بيت العبيديين غير منازع ولا مدافع ، وكان فيهم كابن المعتز في بنى العباس غزارة علم ومكانة أدب ، وحسن تشبيه ، وابداع تخييل ، وكان يقتفى آثاره ، ويصوغ على مناحيه في شعره أشعاره) (٢) ، ولم يكتف ابن الأبار بهذا الوصف فزاد فقال : (وشعر تميم مدون ، ومحاسنه كثيرة ، وتصرفاته بديعة) (٣) .

على أن سؤالاً قد يبدو هنا ، وهو أن كل شعر تميم بن المعز المدون (٤) والمحفوظ جاء في دور الخلافة الفاطمية المصري ، وكانت مناسباته وليدة أجواء ذلك الدور . فكيف نصنفه ضمن شعراء البيت الفاطلي في الدور المغربي ؟ هذا التساؤل بلا شك له وجاهته التي لا تدفع . بيد أننا

---

(١) كما حدد ذلك محمد عبدالغني حسن في كتابه تميم بن المعز ٢٧ - عبدالمجيد عطية وعبدالرزاق الحليوي في كتابهما : تميم بن المعز ص ٨ ، الذي ألفاه عنه ، وذلك من نقولاتهما المختلفة .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٣) نفسه .

(٤) له ديوان شعرى ضخم يحتوى على معظم فنون الشعر ، أهتدي إليه أخيرا حيث طبع عام ١٩٥٧م . أنظر محمد عبدالغني حسن : نفس المرجع السابق ،ص٣٦- ٣٧ .

نبادر فنجيب بأن شاعرية الأمير تميم بن المعز لايمكن أن تكون قد جاءت وليدة للدور المصري وحده فهو قد ولد ٣٣٧هـ ، والخليفة المعز ارتحل إلى مصر عام ٣٦٢هـ . ومعنى ذلك أنه عاش بإفريقية ٢٥عاماً ، وهي سن تظهر فيها المواهب والملكات عادة والشئ الآخرأن تميماً توفى عام ٣٧٤ومعنى ذلك أنه عاش في مصر ١٢عاماً ، فهل كانت هذه الاثنا عشر سنة بكل عطائها الشعري الغزير ، هي وحدها التي كونت شخصيته كشاعر ؟ . وبعد فلايخامرنا شك في أن شاعرية الأمير تميم قد رأت النور في إفريقية ، وأن شعره في الدور المغربي ربما يكون قد طواه الضياع أو النسيان .

الشعــــــراء الفقهـــاء :-

كما عرف العصر الأغلبي عدداً من الفقهاء الذين أوتوا حظاً من الشاعرية ، فقد عرف هذا العصر أيضاً عدداً منهم ، وهم كسابقيهم الذين عرفهم العصر الأغلبي من أشهر الفقهاء الذين رووا الدراسات الشرعية بانتاجهم ، ولعل من أوائل الفقهاء والشعراء في هذا العصر ، الفقيه أبو عثمان سعيد بن الحداد الغساني (ت : ٣٠٢هـ) ، الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن الدراسات الفقهية ، وعن الانعكاسات العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة . وقد أثنى المالكي (١) على شاعريته ، فقال عنه : (كان يقول الشعر ويجيده ، ثم أورد له عدة مقطوعات تقع كلها

(١) نفسه ،ج٢ ، ص ١١٠ .

في غرض الشكوى (١) ، وتدل على شاعرية جيدة .

والفقيه الثاني الذي نظم الشعر، فأجاده هو المحدث أبو العرب التميمي (ت : ٣٣٣هـ) ، الذي كنا عرفنا عنه كثيراً عند حديثنا عن الدراسات الشرعية وغيرها ، ولقد أثنى عليه هو الآخر المالكي (٢) ، فقال عنه : إنه كان (يصنع الشعر ويجيده) ، وعقب فأورد له عدة مقطوعات تقع كلها في غرض الشكوى والأسى (٣) .

على أن أغزر أولئك الفقهاء شعرا وأبعدهم شاعرية ورفاهة حسن خلال عصر الفاطميين هذا هو الفقيه المشهور ربيع القطان (ت :٣٣٣هـ) . وهو كذلك أحد الفقهاء الذين عرضنا لهم عند حديثنا عن دور فقهاء المالكية في نشر المذهب المالكي ، وكذلك عند حديثنا عن الدراسات الشرعية ، وقد أثنى عليه عياض (٤) ، فقال : (كان يؤلف الخطب والرسائل ويقول الشعر) ، وقال عنه كذلك : (وشعره كثير وخطبه ورسائله كثيرة) . وقد أورد له مؤرخوالطبقات المغربية عدة مقطوعات تدل على شاعريته الجيدة المتمكنة في غرض الشكوى ، ومنه مايمسى بالشعر الروحي (٥)

وهناك فقيه رابع من فقهاء عصر الفاطميين اشتهر بقول جيد الشعر ،

---

(١) نفسه ، ص ١١٠ – ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١١٥-١١٦.

(٢) نفسه ، ص ٣١٠ .

(٣) نفسه ، ص ٣١١– ٣١٢– ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١١٧ .

(٤) نفسه ، ج٢ ص ٣٢٤ .

(٥) نفسه ، ص ٣٢٧ – ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١١٦ ، ١١٧، ١٧٤ ، ١٧٧ – ١٨٠ .

كما اشتهر بالأدب البارع ، وهو يوسف بن عبدالله القفصي التميمي (ت : ٣٣٦هـ) و قد سبق أن ذكرناه أثناء حديثنا عن الدراسات الفقهية أنه أحد أبناء مدينة قفصة الذين أثروا الدراسات الشرعية هناك ، ومن شعره الذي حفظ عنه ، توجد ثلاثة نصوص طويلة تقع في الشعر الروحي ، وتدل كلها على شاعرية متمكنة لديه (١) .

ويعد الفقيه الاسماعيلي الأشهر أبو حنيفة النعمان بن حيون (ت ٣٦٣هـ) أحد الفقهاء الذين نظموا الشعر ، ولقد وصف ابن خلكان (٢) شعره : بالشعر الفحل . ولكن على ذلك لم يشر ابن خلكان إلاَّ لقصيدة واحدة لم ترد أبياتها ، وهي قصيدة فقهية عرفت بالمنتخبة .

وفيما يتصل بالفقهاء الإباضية ، فلم يخل العصر من واحد منهم على أيه حال ، فقد عرف عن الفقيه أبي خزر الحامي الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن فقهاء الإباضية في العصر الفاطمي قوله للشعر ، وقد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن فقهاء الإباضية في العصر الفاطمي قوله للشعر . وقد نسبت إليه قصيدة شعرية قالها ، وهو يودع بلده ، أثناء إكراهه على الخروج إلى مصر في صحبة الخليفة المعز لدين الله (٣) .

---

(١) ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص١٨٣ - ١٨٦ .

(٢) نفسه : المجلد الخامس ، ص ٤١٥ .

(٣) صالح باجية : نفسه ،ص ١٠٥ .

الشعـــــراء الأدباء :-

وازدحم هذا العصر بعدد كبير من الشعراء الأدباء الخلص الذين أسهموا في تنشيط الحركة الأدبية عموماً ، والحركة الشعرية على وجه الخصوص بعطائهم وانتاجهم الثر ، على أن وجه الحق هنا يفرض علينا الإشارة إلى أن أكثر أولئك الشعراء كانوا من الدائرين في فلك الخلافة الفاطمية المغنين بأمجادها ومذهبها . ومن الطبيعي ألاَّ تكون ثمة غرابة في هذا تأسيساً على ما سبق أن ذكرناه من قبل عن الدواعي التي فرضت هذا الوضع .

كما عرفت إفريقية أيضاً شعراء آخرين غمروا البلاد بإنتاجهم الشعري ، ولكنهم للأسف ظلوا مجهولين لدى مؤرخي الأدب وغيرهم ، فلم يعرف عنهم شئ يذكر .

وأيا ماكان الأمر ، فإن من أوائل الشعراء الذين عرفهم عصر الفاطميين ، وبالذات عهد الخليفة عبيدالله المهدي (٢٩٦- ٣٢٢هـ) الشاعر محمد البديل الكاتب (١) . وقد رأينا محمداً البديل الكاتب هذا يهب واقفاً يمدح الخليفة المهدي إبَّان حلوله بمدينة رقادة قادماً من سجلماسه عام ٢٩٧هـ بالأبيات المشهورة التي يقول مطلعها :

حل برقادة المسيـــــح حل بها آدم ونــــــوح (٢)

(١) ابن عذاري : نفسه ، ص ١٦ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ص ٥٨ - ٦٠ ، محمد اليعلاوي : شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونيسية ، ١٩٧٣م .

(٢) أنظر قبل نص تلك الأبيات ، ص ٥١٣ .

وهي الأبيات المفرطة في الغلو ، والتي رأى فيها أهل المغرب كفراً بواحاً . وهذه الأبيات تعكس تماماً نظرة الشيعة الإسماعيلية للأئمة ، وتعكس أيضاً كل خصائص نظرية التأويل التي عرضنا لها من قبل ، أو ما يسميه ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) - وهو على حق - بالصيغة الفاطمية التي لازمت منذ ذلك الحين الأدب الإسماعيلي .

وعلى كل حال ، فلم تكن تلك الأبيات كل ما نظمه محمد البديل الكاتب من شعر ، فقد ذكر بأنه امتدح الخليفة عبيدالله المهدي كذلك بعدة أبيات لم يبق منها سوى بيتين ، وذلك بمناسبة إنتهائه من بناء مدينة المهدية (٢) عام ٣٠٨هـ .

ومن الشعراء المبرِّزين ممَّن عاصر الخليفة عبيدالله الشاعر المعروف : سعدون الورجيني ، وقد يقال الورجيلي (٣) . وسعدون الورجيني ، شاعر مكثر متمكن ، عاصر الدولتين الأغلبية والفاطمية . ومن هنا فقد أتينا به في عداد شعراء العصر الفاطمي ، وفقاً لما سلكناه من نهج نعتمد فيه تاريخ

---

(١) نفسه ، ص ٥٦ -٥٧ .

(٢) محمد اليعلاوي : شعراءء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، مجلة حوليات الجامعة التونسية، العدد ١٩٧٣م .

(٣) القاضي النعمان : إفتتاح الدعوة ،ص ٣٠٠ -٣٠١ ، ويسميه المورجيني - المالكي : نفسه ،ج١، ص٤٠٤ ويقول محقق هذا الجزء حسين مؤنس في الحاشية رقم ٣من نفس الصفحة أن سعدونا الورجيني يعود إلى أصل بربري (نقلا عن حسن حسني عبدالوهاب) - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه، ص ٣٧ ويسميه هنا بالورجيني ، وكذلك في ص ٢٠٢ ، أما في ص ١٩٧ فيسميه الوارجين - محمد اليعلاوي : نفس المقال أعلاه ، ص ١٦٦- رابح بونار : نفسه ، ص ١٦٨- ويسميه سعدون الورجيلي .

الوفاة شرطاً للمعاصرة . ومع أننا لانعرف بالضبط تاريخ وفاته ، إلاّ أن الشئ المؤكد هو أنه عاش حتى مجئ الدولة الفاطمية . وعاش ردحاً من الزمن في خلافة الخليفة المهدي .

ويبدو أن سعدوناً الورجيني كان من الشعراء الذين لايرون غضاضة في التنقل بأهوائهم وميولهم حيثما تكمن المصلحة الذاتية . فلقد عرفت له قصيدة طويلة ميمية قالها في رثاء الفقيه المالكي المشهور يحيى بن عمر (١) الأندلسي الأصل ، القيرواني الدار والوفاة ، والذي كنا قد ترجمنا له من قبل ، وهي قصيدة من عيون الشعر ، وتقع في ٥٠ بيتاً هذا على عدم خلوها من مآخذ .

غير أن هذا الشاعر ما أن تتنصب الخلافة الفاطمية في إفريقية والمغرب حتى نراه يبادر فيمجدها ، ويتقرب إلى أول خلفائها بقصائدة المختلفة الأغراض والأهواء ، فلقد روى بأنه امتدح الخليفة بقصيدة تقع في أكثر من ١٤ بيتاً ، وذلك إبَّان قدومه من سجلماسه إلى مدينة رقادة عام ٢٩٧هـ (٢) . وفي الحق فإن القصيدة لم تكن مدحاً كلها ، فقد اختلط المدح بها بالوعيد الذي كان يرسله الشاعر صارخاً ومتوعداً أعداء الخلافة في المشرق بقدوم الجيوش الفاطمية الحرارة إلى المشرق لضمه إلى سلطة

---

(١) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٤٠٤- ٤٠٦ - ابراهيم الدسوقي : نفسه ، ص ١٩٧(ويقول إن عدد أبياتها خمسين بيتا) ، ص ٢٠١ - ٢٠٧ (حيث تحليل لقيمة القصيدة الشاعرية .

(٢) أنظر القاضي النعمان : نفس المصدر السابق ، ص٣٠٠- ٣٠١- أنظر : كذلك محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ،ص ١٦٦-١٦٧ .

الخلافة الفاطمية واسقاط الخلافة العباسية (١) ، وهو الأمر الذي ما انفك الفاطميون يحلمون به أبدا ، و لسعدون الورجيني كذلك قصيدة أخرى في مدح الداعي أبي عبدالله الشيعي ، وقد أشرنا إليها من قبل عند حديثنا عن الانعكاسات العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والشيعة ، كما أشرنا إلى قصيدته في مدح الخليفة آنفة الذكر .

وعرف عهد الخليفة عبيدالله المهدي شاعراً ثالثاً هو : أبو عبيدالله بن حبوس الفاسي (٢) ، الذي عمل قصيدة في مدح الخليفة عند بنائه لمدينة المهدية ، وهي قصيدة كما يبدو طويلة ، لم يبق منها سوى بيتين فقط . وثمة شاعر رابع عاش في عهد الخليفة المهدي ، وهو أبو بكر أحمد (٣) بن ابراهيم بن أبي عاصم (ت ٣٠٨هـ) وقد ذكر بأنه كان شاعراً معروفاً ، وبالإضافة إلي ذلك كان مشهوراً بعلو كعبة في علوم اللغة . ومن أسف أنه لم يصلنا من شعر أبي بكر أحمد ابن ابراهيم هذا سوى بيت واحد . قد يكون مطلعاً لقصيدة أو مقطوعة غزلية .

ومن الشعراء الذين طوت الأيام اسمه فلم تذكره ، ذلك الشاعر الذي وقف بين يدى الخليفة المهدي يمتدحه لبنائه مدينة المهدية ، ثم لايكتفي بذلك

---

(١) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ٣٧- ٣٨ .

(٢) لم يشر إلى هذا الشاعر ومقطوعته التي لم يبق منها سوى بيتين فقط ، إلاّ ابن حماد وحده . أنظر ابن حماد : المصدر السابق ،ص ٤١- ٤٢ .

(٣) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٨٤ ، ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ٦٠- ٦١ حيث يحلل المؤلف القصيدة من الناحية الشعرية والمذهبية - محمد اليعلاوي : المقال السابق ،ص ١٦٤ .

بل شرع يضفي على المهدية صفات التقديس والإجلال (١) حسبما جرت عليه العادة من صبغ القصيد بالصيغة الفاطمية التي تركز على التأويل كما أشرنا آنفا ، ويرى محمد اليعلاوي (٢) أن في القصيدة نفساً شبيهاً بنفس الفقهاء الشعراء ، ولذلك فهو يظن أن هذا الشاعر ربما يكون أحد فقهاء القيروان الذين ساندوا الفاطميين وتحولوا إلى جانبهم .

ومن الشعراء المرموقين الذين عايشوا الخلفاء الثلاثة الأول : المهدي والقائم ، والمنصور ، الشاعر المشهور أبو جعفر أحمد بن محمد المروذي أو المروزي . وأبو جعفر أحمد المروزي هو ابن الفقيه والقاضي الشيعي أبي عمر محمد بن عمر المروذي (ت : ٣٠٢) الذي ولاه القضاء الخليفة المهدي ، والذي كان قد تطاول على عدد من علماء وفقهاء القيروان وقتذاك حسبما مر بنا سابقاً (٣)

ولقد تمتع أبو جعفر هذا بشاعرية طيبة ، كما أنه عرف عنه سرعة البديهة الحاضرة في قول الشعر المناسب للأحوال والظروف (٤) ، وقد ترك عدة مقطوعات شعرية تدل على شاعرية جيدة متمكنة ، ومن بين تلك

---

(١) نفس المقال السابق .

(٢) ترجم له كل من ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٦ – ٦٨ وقد لقبه المروزي بالزاي – حسن حسي عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ص ٣٩٥–٣٩٦ ، ويدعوه المروذي بالذال – محمد اليعلاوي : المقال السابق ، ص ١٥٧ – ١٥٩ ، ويقول إن لقبه المرورذي . ولا شك أن ذلك بعيد ، ومرة يقول المروذي ، وثالثة : المروري .

(٣) أنظر قبل ص ٥٥٨ .

(٤) ابن خلكان : نفسه ، المجلد الأول ص ٢٣٤ (حيث الإشارة إلى ذلك ويلقبه بالمودرزي– حسن حسين عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والقسم ، ص ٣٩٥– ٣٩٦ .

المقطوعات لتي نسبت إليه مقطوعته في الهجاء التي هجا فيها أحد خصوم الخليفة المهدي (١) ، وكذلك تلك التي هجا فيها الثائر البربري أبا يزيد مخلد ابن كيداد الخارج على الخلافة ، وهي إلى الرجز أقرب (٢) . وللمروذي مقطوعة في مدح الخليفة المنصور بن القائم (٣٣٤- ٣٤١هـ) ، قالها وهو برفقته في مطاردته لأبي يزيد (٣) وعندما تمكن الخليفة من القبض على أبي يزيد ، وما تبع ذلك من وفاته متأثراً بجراحه ، انتصب المروذي يمتدح خليفته ، ويصب قارص الكلام المذموم على أبي يزيد (٤) .

والشاعر محمد بن المنيب (٥) ، كان أيضاً أحد الشعراء الذين حاموا حول بلاطات الخلفاء الفاطميين يمدحونهم ويبجلونهم ، ثم لايكتفون بذلك ، بل كانوا ينتقصون خصومهم . ويلصقون بهم كل رذيلة . وقد ترك قصيدة تقع في ١١ بيتاً في الهجاء قالها بمناسبة قضاء الخليفة المنصور على أبي يزيد مخلد بن كيداد (٦) .

---

(١) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠١ - ١٠٣ - عباس الجراري : الأدب المغرب خلال ظواهره وقضاياه ، ص ٦٥(حيث نص تلك المقطوعة) .

(٢) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ١٠٣ - محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق ، ص١٥٩(حيث نص المقطوعة) .

(٣) محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٥٨ (حيث الإشارة إلى المقطوعة وكذلك نصها) .

(٤) ابن حماد : نفسه ، ص ٦٦ (ويدعوه أبا يعلى المروزي) - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٥٨ (حيث نص المقطوعة).

(٥) لم يشر إلى هذا الشاعر سوى ابن حماد : نفسه ، ص ٧٤ كما لاحظ ذلك محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٦٠ .

(٦) ابن حماد : نفسه ، ص ٧٤- ٧٥ - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٦٠ - ١٦١ (حيث نص المقطوعة) .

ومن الشعراء المحلقين في عصر الفاطميين ، الشاعر سهل بن ابراهيم الوراق (١) ، وسهل بن ابراهيم هذا يبدو أنه كان شاعر أهل السنة الذي يلهج لسانه بمدحهم ، كما يلهج بذم مخالفيهم الشيعة (٢) ، فشعره الذي وقفنا عليه يدل علي ذلك . فقد روى أنه رثى الفقيه المتكلم المشهور سعيد بن الحداد الغساني المتوفي عام ٣٠٢هـ بمقطوعتين ، إحداهما عينية ، وتقع في ٢٣ بيتاً ، والأخرى رائية ، وتقع في ٩ أبيات ، وكلتاهما تدلان على شاعرية حسنة (٣) ، وبجانب هاتين المقطوعتين هناك مقطوعة في

---

(١) لم يزودنا المؤرخون القدامى بأي معلومات ذات بال عنه ، وكذلك فعل المؤرخون المحدثون . فالمالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ١١٢ لايشير إلاّ إلى أن اسمه سهل بن ابراهيم الوراق ثم يورد له المقطوعتين اللتين رثى بهما سعيداً بن الحداد ، ثم لايزيد على ذلك شيئاً ، وابن عذارى : نفسه ، ص ٢٩٣ لم يشر إلاّ إلى اسمه : سهل بن ابراهيم فقط ، وذلك في معرض حديثه عن الأبيات التي قالها في حصار مدينة سوسة . أما المؤرخون المحدثون ، فإن ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٨٨-٨٩ ، ١٠٤-١٠٧ ، ١٩٧-١٩٨ لايمدنا بشئ مهم عنه البتة . فهو لم يعرض إلاّ إلى اسمه فقط ، والباحث الذي حقق بعضاً من أحداث حياة سهل الوراق هو : محمد اليعلاوي : المقال السابق ،ص ١٤٢- ١٤٣ . ومثله البشير اليكوش محقق الجزء الثاني من رياض النفوس في حاشية رقم ٦٥٤ ص ١١٢ من نفس الجزء .

(٢) بجانب شعره في هجاء الشيعة ، ومدح أهل السنة الذي أشرنا إليه في المتن أورد محمد اليعلاوي : نفس المقال السابق، ص ١٤٢ (نقلا عن المالكي ، جملة مفيدة تدل على ذلك ، فقد ذكر اليعلاوي في نقله عن المالكي أن الشاعر ابن قتار وكان حياً في عهد الخليفة المعز لدين الله سئل ذات مرة عما إذا كان هو أشعر ، أم سهل الوراق ؟ فقال بما معناه أنه أشعر من سهل في مدح الشيعة ، وسهل أشعر منه في هجوهم .

(٣) أنظر نص المقطوعتين عند المالكي : نفسه ، والجزء ، ص١١٢- ١١٥- محمد اليعلاوي : المقال السابق ، ص ١٤٨- ١٥٣ . وانظر كذلك تحليل اليعلاوي لهاتين القصيدتين من حيث قيمتهما الشعرية .

الفخر (١) ، قالها يشيد بمدينة سوسة التي تصدت عام ٣٣٥هـ لأبي يزيد مخلد بن كيداد ، الذي تكشفت نياته لأهل السنة بعد الموقعة المشهورة التي وقعت عام ٣٣٣هـ ، وذهب ضحيتها عدد كبير من فقهاء القيروان المعروفين حسبما أشرنا سابقاً .

على أن أشهر قصائده ، تلك القصيدة التائية (٢) التي تتكون من ٣٦ بيتاً ، والتي هجا فيها الفاطميين هجاءاً عنيفاً مراً ، بدَّد فيها سهل بن ابراهيم كل دعاوى الشيعة الإسماعيلية السياسية والمذهبية بل وهدمها ونقضها .

وثمة شاعر قيرواني مبدع فرضت عليه الظروف أن يتقرب أخيراً إلي الفاطميين ، وخاصة الخليفة المنصور بن القائم ، ونعني به الشاعر المشهور: أبا القاسم محمد بن عامر بن ابراهيم بن العباس الفزاري القيرواني (٣) (ت : ٣٤٥هـ)(٤) وأبو القاسم الفزاوي كما اشتهر يعد في الحقيقة أحد

---

(١) لم يبق منها سوى بيتان فقط ، أنظرها عند ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٩٣- ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٨٨- محمد اليعلاوي : نفسه ، ص١٤٤ .

(٢) أنظر محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٤٤- ١٤٨ (نقلا عن المالكي) ، حيث نص القصيدة وتحليل اليعلاوي لها - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠٤- ١٠٧ حيث الإشارة إلى القصيدة دون ذكرها مع تقويمه لها .

(٣) لم يشر المالكي : نفسه ،ص ٤٨٧ وما بعدها ، وهو الأصل الذي نقل عنه كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين ، لم يشر إلاَّ إلى اسمه أبو القاسم الفزارى . ولقد تتبع محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١١٩ الأقوال التي نسبت إلى الفزاري ونسبه فتوصل إلى أن اسمه الكامل هو كما أوردناه في المتن ، وذلك بناء على ماورد لأبيه وجده من تراجم في بعض مصادر طبقات النحويين واللغويين .

(٤) محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٢٠ (نقلا عن حسن حسنى عبدالوهاب في المجمل) .

أعلام النهضة الأدبية في العصر الفاطمي الذين أثروها بزخم كبير ممتع كماً ونوعاً ، وهو دون ريب كما يتضح من متابعة قصائده أحد شعراء أهل السنة ، بل أن محمداً اليعلاوي (١) يرى أنه قد يكون أحد فقهاء القيروان آنذاك . ولقد وقفنا على انتاج شعرى غزير له يدل بما لايدع مجالا للريبة على قوة الشاعرية وأصالتها عنده .

فمما نعرفه له مما يدل على حقيقة انتمائه المذهبي ، تلك المقطوعة التي تتكون من ١٣ بيتاً (٢) ، والتي هجا بها الفاطميين هجاءا مراً ، أزرى فيها بمذهبهم وبمرتكزاته التي يقوم عليها . وبالإضافة إلى هذا ، فقد حمل عليهم حملة شديدة إزاء تنقصهم للصحابة رضوان الله عليهم ، وخاصة الخليفتين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما .

وعندما انضم علماء المالكية إلى الثائر أبي يزيد مخلد في حربه التي شنها على الفاطميين ، هب أبو القاسم يجرد سلاح النظم ، فصنع قصيدة مطوله تقع في ٦٧ بيتاً عرفت بالقصيدة الرائية (٣) . وهذه القصيدة كما

(١) شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ،ص ١٢٠، ١٤٤ .

(٢) عن هذه المقطوعة أنظر المالكي : نفسه ، ج ٢، ص ٤٩٤ - ٤٩٥ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠٨- ١٠٩ (حيث النص وتحليل قيمته الشاعرية والمذهبية) - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٦-١٢٧ (حيث النص وتعليقه عليه) .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٤٨٩- ٤٩٤ (حيث نص القصيدة الرائية والظروف التي قيلت فيها - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفس المرجع السابق ،ص ٨٩-١٩٢ وقد أشار إلى الظروف التي قيلت فيها القصيدة - دون أن يذكرها بل أورد بضعة أبيات منها ، ثم وهو الأهم تحليله لها من حيث قيمتها الشاعرية) - محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٢ - ١٢٥ (وقد أورد نص القصيدة بتمامها ، ثم علق عليها) .

يرى ابراهيم الدسوقي جاد الرب (١) تحتل مكانة قيمة في دنيا الأدب المغربي آنذاك . فقد اطردت الأفكار فيها مع ما فيها من طول ، كما أنها تنضح بانفعال صادق حار . وهذه القصيدة الرائية مع أنها قد قيلت أساساً في مدح أبي يزيد مخلد ، إلاَّ أنها في الحقيقة تعد من قصائد الفخر (٢) . وقد افتخر فيها الفزارى بمدينته القيروان وبمكانتها الدينية والعلمية ؛ ومن هنا حظيت بالخلود في بطون كتب مؤرخي الطبقات المغربية . وعندما مات الفقيه المالكي أبو الفضل الممسي عام ٣٣٣هـ مقتولاً في الموقعة التي وقعت بين السنة المتحالفين مع أبي يزيد وبين الشيعة ، رثاه أبو القاسم الفزارى بقصيدة عينية تقع في واحد وثلاثين بيتاً (٣) .

وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، وانتهى الأمر بمقتل أبي يزيد مخلد ابن كيداد كما هو معروف ، طلب الخليفة المنصور بن القائم ، أبا القاسم الفزارى ، وقد تناهى إلى سمعه بالطبع أهاجيه فيه وفي بنى بيته ، وتناهى إلي ذهنه كذلك امتداحه لعدوه اللدود أبي يزيد . غير أن الشاعر انتابه الهلع، ثم مالبث أن ذهب إلى الخليفة مشيعاً بدعاء الفقيه الصالح أبي

---

(١) نفسه ، ص ٨٩-٩٠ .

(٢) كما لاحظ ذلك بحق ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٩٠- محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٥، وقد قال بمنتهى الدقة : أنها تعتبر قصيدة هجاء للفاطميين ، لا قصيدة مدح لأبي يزيد مخلد ، بل هي في قسمها الأوفر قصيدة مدح للقيروان وأهلها . ومن هنا حازت اعجاب مؤرخي الطبقات الإفريقية مثل الدباغ صاحب معالم الايمان وغيره .

(٣) أنظر نص القصيدة عند المالكي : نفسه ، ص ٣٠٢- ٣٠٥ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب: نفسه ، ص ١٩٨، ٢٠٨-٢١١ (حيث نص القصيدة وتقويمه لها) - محمد اليعلاوي : نفسه : ص ١٣٧- ١٤١(حيث القصيدة بتمامها وتعليق اليعلاوي عليها) .

القاسم السبأي (١) .

ويبدو أن الشاعر قد اضطر إلى مداراة الخليفة المنصور . لذا دبج قصيدة طويلة اشتهرت بالقصيدة الفزارية (٢) ، التي تعتبر من غرر قصائد المدح (٣) في إفريقية ليست في العصر الفاطمي فحسب ، وإنما في كل العصور موضوع الرسالة ، وهذه القصيدة تمتاز بالفصاحة التي تتجلى في أبياتها ، والتي تشهد بالقدرة اللغوية الفائقة ، وهي جزلة التراكيب ، تشع منها موسيقى شاعرية تتناسب مع الموضوع ، وقد استعرض الفزاري في هذه القصيدة مقدارما تختزنه ذاكرته من إرث ثقافي (٤)، فقد استهل قصيدته بذكر مائة علم من أعلام العرب من سراة العرب وأشرافهم (٥) .

وقد نالت هذه القصيدة والتي عرفت بالفزارية نسبة إليه ، شهرة عريضة في المغرب وكذلك في المشرق حتى أنها أفردت بالشرح دلالة على عناية أهل الأدب بها (٦) .

---

(١) المالكي : نفسه ، ج٢ ،ص ٤٨٩– ٤٩٠ .

(٢) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٨– محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٠، ١٢٧ .

(٣) اعتبرها ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه أشهر مدحة ، بل أشهر قصيدة تنتمي إلى العصر الذي ألف فيه كتابه السابق شعر المغرب حتي خلافة المعز ، وبالطبع فجاد الرب لم يتحدث عن شعراء عهد المعز ولا عن شاعره الأشهر ابن هانئ الأندلسي ، ومن هنا قال عن القصيدة الفزارية ما قال آنفا .

(٤) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ،ص ٦٨–٧٠ .

(٥) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٠ – وقد ترجم في الصفحات : ١٣٠– ١٣٤ لحوالي ٣١ علماً منهم في الحواشي .

(٦) لم يتبين لابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٩– ولا لمحمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٢٧ من شارح القصيدة الفزارية ، الذي لم يشرح من القصيدة إلا ٣٣ بيتا ، وهي التي ورت =

ويضيق بنا الحال لو مضينا نترجم لكل شعراء العصر الفاطمي ، فهم كثيرون فعلا ، غير أننا سنكتفي بالقول أن هناك عدداً من الشعراء كانوا أقل شهرة ممّن (١) عرضنا لهم كما أن هناك عددا آخر لم نقف إلاّ على أسمائهم ، أما أشعارهم فلم يصل إلينا منها شئ (٢) وعددا آخر بقيت أشعارهم ، ولم تخلد أسماؤهم (٣) .

وفيما يتصل بشعراء بقية أقاليم ومدن إفريقية الذين عرفهم هذا العصر بالإضافة إلى أبي خزر الحامي الذي أنجبته بلاد الجريد ، ويوسف ابن عبدالله القفصي الذي أهدته مدينة قفصة ، فإن هذا العصر عرف ثلاثة شعراء مشهورين أنبتتهم ثلاث مدن هي سوسة وتونس وطرابلس فلقد انجبت مدينة سوسة شاعراً مشهوراً هو أحمد بن أفلح (٤) ، وقد يقال له بلج السوسي ، وحفظت عنه قصيدة قالها بمناسبة رفع أبي يزيد مخلد بن كيداد حصاره عن مدينة سوسة عام ٣٤٥هـ ، والقصيدة عبارة عن مقطوعة في الفخر يتغنى فيها الشاعر بمدينته سوسة (٥) .

= فيها أسماء سراة العرب ، وأشرافهم الذين أشار إليهم الفزارى في قصيدته تلك .

(١) أنظر محمد اليعلاوي ، نفسه ، ص ١٥٤ – رابح بونار : نفسه ، ص ١٧٣ .

(٢) راجع محمد البعلاوي : نفس المقال السابق ،ص ٩٥– ٩٦، ١٦٩ .

(٣) محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٦٢ –٦٣ .

(٤) هذا مارجحه حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٥٧ – وكذلك محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٥٥ – ١٥٦ ، وقد أورد الأقوال التي قيلت عن الاختلاف فيي لقب الشاعر هذا ، ويبدو أنه قد اعتمد أخيراً لقب أفلح هذا . أما ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٨٨ فقد أسماه أحمد بن بلج السوسي .

(٥) أنظر نص المقطوعة عند حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والقسم والصفحة – =

أما مدينة تونس ،فقد أهدت البلاد ليس على مستوى عصر الفاطميين وحده ، وإنما على مستوى كل العصور شاعراً آخر مبرزاً ، هو علي بن محمد الإيادي التونسي (١) (ت : ٣٦٥هـ) (٢) مع أن تارخ وفاته تجعلنا نضعه ضمن شعراء العصر الزيري ، إلاَّ أن الإيادي قال كل شعره في الفاطميين ، بل ولم تقم له شهرة إلاَّ بما صنعه من شعر فيهم .

وعلى الإيادي شاعر مرموق محلِّق ، عربي الأصل ، وينتسب إلى فرع من قبيلة الأنتاج النازلة آنذاك بالقرب من مدينة المسيلة بإقليم الزاب ، فهو على هذا ليس من قبيلة إياد المشهورة كما قد يتوهم (٣) ، كما أن انتسابه إلى ذلك الفرع من قبائل بني هلال يعني أن إفريقية عرفت نزوحاً هلالياً قبل الزحف التاريخي المشهور الذي تم في منتصف القرن الخامس الهجري .

وكيفما كان الأمر فقد ولد هذا الشاعر في مدينة تونس ، وبها ترعرع ثم جذبه البلاط الفاطمي في المهدية فالمنصورية ، وهناك شرعت مواهبه الشعرية تتفتق ، حتي أصبح من أبرز شعراء إفريقية . وقد أجله الخلفاء :

= محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٦٥ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٨٨-٨٩ (حيث قام بتحليل المقطوعة) .

(١) تتبع ترجمته أوردها في شئ من الطول : محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٧- ٩٩ من أقوال كل من حسن حسني عبدالوهاب في مجمل تاريخ الأدب التونسي ، والشاذلي بويحيى في رسالة الدكتوراه التي أعدها عن الحياة الأدبية في إفريقية في العصر الزيري ، وغير ذلك من مصادر ، ومراجع وأقوال .

(٢) كما اعتمد ذلك فيما يبدو محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٨ (نقلا عن حسن حسني عبدالوهاب في المجمل) .

(٣) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٩٧ - ٩٨ .

ثم جذبه البلاط الفاطمي في المهدية فالمنصورية ، وهناك شرعت مواهبة الشعرية تتفتق ، حتي أصبح من أبرز شعراء إفريقية . وقد أجله الخلفاء : القائم والمنصور والمعز ، فأكرموه وقدروا شاعريته (١) .

أما شاعريته فلا نزاع على قيمتها الكبيرة في دنيا الأدب ، ولقد وصفه الأديب الأفريقي المشهور ابن شرف القيرواني (٢) ، بقوله : (وأما على بن الإيادي التونسي المورد العذب ، ولفظه اللؤلؤ الرطب ، وهو بحترى الغرب ، يصنف الحمام فيرق الأنام ، ويتشبب ، فيعشق ويحبب) . ولقد حصل الإيادي على شهرة تعدت حدود وطنه إفريقية إلى المشرق (٣) . ومما ينهض دليلاً على أصالته ومكانته بوصفه شاعراً محلقاً أن الشاعر المشهور ابن هانئ الأندلسي الذي وفد على المعز لدين الله هجاء شعراء إفريقية فلم يجيبهم . وقد صرح بأنه لن يجيب أحداً منهم ، إلاّ أن يهجوه الأيادي (٤) فيجيبه .

---

(١) محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ٩٨ -٩٩ .

(٢) مسائل الانتقاد - اعلام الكلام ،ص ٢٦-٢٧ . وأنظر كذلك محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٠٠ مع الحاشية .

(٣) أنظر محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٠٠-١٠١ حيث الإشارة إلى تأثر الشاعر المشرقي السري الرخاء يعلى الإيادي في إحداى مقطوعاته المدحية ، وكذلك الإشارة إلى خلط المشارقة في قصيدة على الإيادي ، حيث نسبوها للشاعر المشرقي الوأوأ الدمشقي . ومما يدل على اشتهار شعر الإيادي في المشرق حتى في حياته أن الشريف الرضى ، أورد إحدى مقطوعات الإيادي الغزلية في كتابه : طبقات الخيال . أنظر محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١١٥- ١١٦ .

(٢) ابن رشيق : العمدة ، الجزء الأول ، ص ١١١ - محمد اليعلاوي : نفسه ص ٩٣ (ويبدو أن اليعلاوي يستبعد ذلك الخبر . لأن ابن هانئ كما يعتقد لم يكن هجاء ، على أننا نعتقد أن ابن رشيق بحكم قرب حياته من حياة كلا الشاعرين ابن هانئ وعلى الإيادي أصدق خبراً على كل حال .

وعلى هذه المكانة العريضة لعلى الإيادي ، فقد ضاع شعره ، ولم يبق منه سوى أثنى عشر قصيدة ومقطوعة (١) . يبدو أن مابقى من شعره هو على كل حال من رائق الشعر وأملحه . ولعل أغلب فن شعري قاله وأجاده كـان الوصـف . فـقـد ترك ثلاثة نصـوص ، الأول في وصف أسطول الخليفة (٢) القائم بأمرالله ، والثاني في وصف قصر البحر بالعاصمة المنصورية (٣) ، والثالث في وصف جواد أحد أمراء (٤) البيت الفاطمي وهذه النصوص الثلاثة (تشهد له ببراعة فائقة في تصريف وجوه الخيال في شعره الوصفي) كما يقول محمد اليعلاوي (٥) . وأما ابراهيم الدسوقي جاد الرب (٦) فقد أخذه الانبهار بشاعرية الأيادي وقدرته الفائقة على الوصف ، فقال : (لقد أثبت المغرب أن في السويداء رجالاً ، فإن طابق أبو تمام والبحترى ، وشبَّه البحترى وابن المعتز وبرزا في الوصف ، وحرص بعض هؤلاء وكثير من المحدثين على حسن التخلص ، فصنيعهم صنع

---

(١) كما حصر ذلك وتتبعه محمد اليعلاوي : نفسه ،ص ١٠٠-١١٨ ، من مختلف المصادر والمراجع التي تحدثت عن الإيادي .

(٢) عن هذا النص ، أنظر محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١٠٨- ١١٢، حيث تناول الباحث هذا النص بالتعليق والتقويم - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٢١٥- ٢٢٢ ، حيث حلل المؤلف قصيدة الإيادي ، وبين روعتها وقيمتها الشعرية في دنيا الأدب .

(٣) محمد اليعلاوي :نفسه : ١٠٤-١٠٧ (حيث النص بتمامه والتعليق عليه) - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ - (حيث النص وتحليل قيمته الشعرية) .

(٤) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١١٢- ١١٣ (النص والتعليق عليه) - ابراهيم الدسوقي جاد الرب: نفسه ، ص٢٢٢- ٢٢٣ (النص وتحليله) .

(٥) نفسه ، ص ٩٩ .

(٦) نفسه ، ص ٢٢٨ .

الإيادي يرفده معجم واسع ، وعلم جم بالتراث القديم المعاصر ، و تسلسل له عبارة صائبة ، ويواتيه خيال نشط مغرب) .

على أن للإيادي كذلك مقطوعات أخرى في المديح الخالص بالإضافة إلى مافي قصائد الوصف سالفة الذكر من مديح . فقد ترك قصيدة في مدح المنصور بن القائم عندما أمر والده الخليفة القائم بالبيعة له عام ٣٣٤هـ(١). وله كذلك قصيدة في مدح الخليفة المنصور عند قضائه على أبي يزيد بن مخلد (٢). والإيادي في مدحه للفاطميين لايغرق إغراق معاصريه في إضنفاء صفات القداسة عليهم ، كما أن مدحه لم يصطبغ بالصيغة الفاطمية التي كنا قد ألمحنا إليها من قبل . ويرى محمد اليعلاوي (٣) أن طابع الاعتدال كان يطبع شعر الإيادي ، فهو بهذا ليس شاعر فكرة ودعوة ، مثل ابن هانئ ، وهو بشكل مًّا يعرف بشاعر بلاط غير ملتزم - إن جاز لنا استخدام هذا القول - وهذه القصيدة التي مدح بها الخليفة المنصور كانت مزيجاً من المدح والوصف والهجاء (٤) اختلط فيها المديح بالوصف والهجاء.

---

(١) محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ١١٣- ١١٥ (نقلا عن الدواداري صاحب الدرة المضيئة ، وقد إنفرد اليعلاوي بالإشارة إلى هذه المقطوعة دون إبراهيم الدسوقي جاد الرب الذي تتبع شعر المديح في المغرب من الفتح وحتى عهد المعز لدين الله .

(٢) الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا : ص ٢٥١-٢٥٢. وقد أورد بعض أبياتها فقط - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، وقد أوردها بتمامها مع تقويمه لها .

(٣) نفسه ، ص ١٠٠ - ١١٥ .

(٤) وذلك في تصويره الدقيق حسبما يتراءى لنا إلى وصف سلخ جلد الثائر : أبي يزيد مخلد بن كيداد وحشوه بالتبن ، كما اشتهر وعرف تاريخياً عن حادثه سلخ أبي يزيد ، أنظر ابن حماد ، نفسه ص ٧٦، وأنظر استنكار محققا كتاب ابن حماد : التهامي نقرة وعبدالحليم عويس لذلك الفعل ، في حاشية رقم (١) ، ص٧٦ .

وأسهمت مدينة طرابلس في انعاش الحركة الشعرية عن طريق ابنها الشاعر والقائد الفاطمي المعروف أبي العباس خليل بن اسحاق بن ورد (١)، (مات مقتولا عام ٣٣٢هـ) . وخليل بن اسحاق أحد أبناء مدينة طرابلس الذين تحزبوا للدولة الفاطمية ، فقدموا خدماتهم لها . ولم تبخل عليه الدولة من جهتها فعينته في أكثر من منصب رفيع ، وذلك في عهدي الخليفتين : المهدي والقائم بأمر الله (٢) ، وقد انتهى به الأمر مقتولاً عام ٣٣٢هـ كما ذكرنا على يد الثائر البربري الخطير أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني .

وأيا كان الرأى في سيرة خليل بن اسحاق التي شابتها الشواب (٣) أثناء تبوئه للمناصب التي أسندتها له الدولة ، فإن الشئ الذي لا مراء فيه أنه كان شاعراً جيداً متمكناً . ولقد وقفنا من شعره الذي خلد له على قصيدتين في المديح ، الأولى منهما تقع في ١٤بيتاً ، وقد مدح بها الخليفة عبيدالله المهدي (٤) ، والأخرى قالها ممتدحاً الخليفة القائم بأمر الله لما اختصه (٥) ، والمقطوعتان أو القصيدتان كلتاهما جاءتا تشوبهما الصبغة

---

(١) ترجم له ترجمة حسنة : ابن الأبار : نفسه ، ج١ ، ص ٣٠٢- ٣٠٤ ابراهيم الدسوقي جاد الرب: نفسه ، ص ٦٢-٦٣- محمد اليعلاوي : نفسه ، ص ٦٨ (نقلا عن الجوذري صاحب سيرة الاستاذ جوذر) - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٢٨- ٢٣٠ .

(٢) ابن الأبار : نفسه ، ص ٣٠٢ .

(٣) أنظر ابن الأبار : نفسه ،ص ٣٠٢ - أحمد مختار عمر : نفسه ص ٢٢٨- ٢٢٩ .

(٤) أنظر نصها عند ابن الأبار : نفسه ، ص ٣٠٣ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٢-٦٣ ، ٢٣٨- أحمد مختار عمرو : المرجع السابق، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .

(٥) ابن الأبار : المصدر السابق ،ص ٣٠٣ - ابراهيم الدسوقي جاد الرب : المصدر السابق ، ص ٦٣ مع تحليل وتقويم لها .

الفاطمية التأويلية التي لازمت مدائح الفاطميين (١) .

أما وقد وضحت لنا معظم ملامح الحركة الشعرية الإفريقية في عصر الفاطميين ، طبيعة وشعراء ، فإن الواجب يملي علينا أن لانغفل أثر شاعر مشهور ، أثرى الحركة الشعرية الإفريقية وقتذاك بفيضوضة شعره ذي المضامين المثيرة للتساؤل ، والاستغراب ، بل والغضب والاستنكار ، نعني بذلك الشاعر المشهور ابن هانئ الأندلسي (٢) المتوفى عام ٣٦٢هـ (٣) .

وقبل أن نتحدث عن ذلك الأثر الذي أحدثه حلول ابن هانئ في إفريقية، وعن شعره وخصائصه ، تقتضى دواعي المنهج أن تعقد ترجمة مختصرة له ، توضح من خلالها مسيرته في الحياة ، قد تفتحت عيناه على الحياة ، وحتى غمضتا عام ٣٦٢هـ في نهاية غامضة ، بعد حياة قصيرة حافلة بالعطاء ، والفقر والثراء ، ولقد اتفق المؤرخون على أن أبا القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي ولد في مدينة اشبيلية ، لأب إفريقي عربي

---

(١) ابراهيم الدسوقي جاد الرب : نفسه ، ص ٦٣ -٦٤ .

(٢) ترجم له ترجمة واسعة بعض الشئ ، ابن خلكان : نفسه ، ج٤، ص ٤٢١- ٤٢٤ (وقد أشار محقق الكتاب احسان عباس في حاشية الصفحة ٤٢١ إلى أن لابن هانئ ترجمة في أكثر من ١٠ مصادر مشرقية وأندلسية – ياقوت : نفسه ، ج١٩ ،ص ٩٢ – ١٠٥ (عن أكثر من مصدر) – الصفدى : نفسه ، ج١ ، ص ٣٥٢، (وقد جاءت قريباً من ترجمة ابن خلكان ، ويسميه محمد بن ابراهيم بن هانئ ويكنيه بأبي القاسم وأبي الحسن) . – أكرم البساتني ناشر ديوان ابن هانئ في مقدمة الديوان ،ص ٥-٨- أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص٢٩٤-٣٠٩ .

(٣) هذا مارجحه ابن خلكان : نفسه ،ص ٤٢٤ ووافقه عليه الصفدي : نفسه ، ص ٣٥٢ ، وإن كانا قد ذكرا تاريخياً آخر كقول ثان وهو عام ٣٦٥هـ ، ولكنهما يبدو أنها اعتمدا التاريخ الذي أشرنا إليه في المتن .

ينتسب إلى المهالبة ، نزح من مدينته المهدية إلي الأندلس ، وبالذات إشبيلية التي استوطنها هو وأسرته . وفي إشبيلية تلقى ابن هانئ علومه ، وتفتحت شاعريته . غير أنه مالبث أن انجذب إلى بريق العاصمة قرطبة ، فانتقل إليها واختلط بمثقفيها ، ثم رحل إلى مدينة ألبيرة ، وظل فيها فترة ، حتى أنه قد يطلق عليه الشاعر الألبيري (١) . وفي كل تلك التنقلات كانت شاعريته تنصقل وتتبلور . ثم قادته قدماه ثانية إلى مدينته إشبيلية فإتصل بأميرها وصاحبها . غير أن إنصرافه إلى حياة اللهو والمجون ، وما طرأ على فكره من ميل إلى المذهب الشيعي ، كل ذلك جعله منبوذاً في نظر أهل اشبيلية . ممًّا اضطره إلى مغادرتها ، بل الأندلس كلية والنزوح إلى إفريقية (٢) .

ولقد انتهى به المطاف في إفريقية إلى أن يحل شاعراً على الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله في عاصمتيه : المهدية والمنصورية ، الذي سمع به فأدناه واستقطبه (٣) .

ومذ ذلك طفق ابن هانئ ينشئ القصائد الطوال السائرات في مدح الخليفة وأسرته ، وفي التغني بأمجاد الدولة الفاطمية ، وتحقير خصومها السياسيين : الأمويين والعباسيين وغيرهم . ومن كل ذلك جاء عطاء شعرى

---

(١) أكرم البستاني : مقدمة ديوان ابن هانئ ، ص ٥ .

(٢) أكرم البستاني : مقدمة ديوان ابن هانئ ، ص ٥-٧ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٩٦ - ٢٩٧ .

(٣) أكرم البستاني : نفس المقدمة أعلاه ، ص ٥-٦ - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص٢٩٧ - ٢٩٨ .

غزير تمثل في ديوان كبير (١) احتوى على أكثر من عشرين قصيدة (٢) مدحية في المعز وحده ، حتى أنها سميت بالمعزيات (٣) ، وهي ماتمثل نصف الديوان .

وأيا ماكان الأمر في المضامين المذهبية التي جاد بها شعر ابن هانئ، والتي عكست بحق كل خصائص المذهب الشيعي الإسماعيلي العقائدية والسياسية ، والتي جرّت عليه - بحق - النقمة من قبل المؤرخين السنة وغيرهم ، نقول أيا كان الرأي في طروحات ابن هانئ المذهبية تلك ، فإن الذي لا مراء فيه ، أنه قد أنعش الحياة الأدبية في إفريقية آنذاك . ويبدو أن قدومه إلى إفريقية قد جاء في الوقت المناسب جداً للفاطميين ، الذين ازدادت حملة أهل السنة عليهم ، وخاصة في عهد الخليفة المعز نفسه ، الذي ذكرنا من قبل أن الدعوة للمذهب الشيعي قد بلغت في عهده درجة كبيرة - ولذلك فقد كان الخليفة والخلافة والمذهب الشيعي في حاجة إلى شاعر يذيع أمجادهم ، وإلى شاعر يؤكد على الملأ أحقيتهم في الخلافة ، فلا يفتأ يردِّد ذلك ويردِّده حتى تستقر في الأذهان خصائص مذهبهم السياسي والعقائدي، هذا بجانب الجهود الحثيثة التي يضطلع بها الدعاة الاخرون ، ومن هنا أغدق عليه المعز (وبالغ

---

(١) كما يقول ابن خلكان : نفسه ، ج٤، ص ٤٢٤ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٢٩٨ .

(٣) أنظر مثلا ابن خلكان : نفسه ، والصفحة - أكرم البستاني : نفس المقدمة ،ص ٧(نقلا عن غير واحد من المؤرخين القدامى - أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ،ص ٢٩٩- ٣٠٠ ، ٣٠١ - سعد البشرى : الحياة الأدبية في عصر الخلافة في الأندلس ،ص ٢٦٠، مع الحواشي .

في الإنعـام عليـه) (١)، فـفـاضت إثر ذلك (حـيـاة ابن هانـئ رخـاء وبذخا) (٢) . ولقد حاول ابن هانئ من جهته - وعرف أنه اضطلع برسالة سياسية ومذهبية - ، ولقد سعى ابن هانئ من جهته - وعرف أنه اضطلع برسالة سياسية ومذهبية - ، أن يقصر جهده كله في ذلك ، أي مديح المذهب والخلافة في شخص الخليفة المعز ، ومن هنا نستطيع أن نضع أيدينا على سر اقتصاره على غرض واحد رئيسي ، هو المدح ، وكذلك نضع أيدينا على سر تأسى الخليفة المعز وأسفه ، وقد بلغته وفاة ابن هانئ ، وهو يتأهب ، أي المعز إلى الإنتقال إلى مصر عام ٣٦٢هـ كما هو معروف ، فيقول عنه : (هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدر لنا ذلك) (٣) .

وفيما يتصل بتأثيره على شعراء القيروان ،فإننا على افتقارنا إلى الشواهد التي تدل على ذلك ، نملك دليلاً واحداً لا نستبعد أن يكون له أمثلة متعددة ، فقد ذكر ابن رشيق في أنموذجة (٤) أن هناك شاعراً إفريقياً ترسم خطى اب هانئ ، وهو اسحاق بن ابراهيم المغربي الرافضي ، عرف عنه أنه بجانب كونه رافضياً ، فقد كان اعتماده في الشعر على أبي القاسم ابن هانئ المغربي ، وله كان يتعصب) . وقد دفعه إعجابه بابن هانئ إلى أن يصرح في مجلس ضمه مع ابن رشيق قبل مقتله عام ٤٢٠هـ على يد المعز

---

(١) ابن خلكان : نفسه ، ج٤، ص ٤٢٢ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٢٩٧- ٢٩٨ .

(٣) ابن خلكان : نفسه .

(٤) فيما ينقله عنه الصفدي : نفسه ، الجزء السابع ،ص ٣٩٨- ٣٩٩ .

إلى أن يقـول عنـه وقـد ذكر المتنبي ، أن الشعر ختم به وبأبي القاسم (١).

أما وقد عرفنا أثر وتأثير ابن هانئ في الحركة الشعرية الإفريقية بالصورة التي رأينا ، فإنه ليس من الغريب أن يضعه نقاد الأدب ومؤرخوه في جملة شعراء الطليعة الأولى في العصور الإسلامية (٢) . بل إن ابن خلكان (٣) يضعه في المرتبة الأولى باتجاه شعراء المغرب والأندلس ، حتى عصره ، أي عصر ابن خلكان ، كما يقول أيضاً أن المغاربة يعدون ابن هانئ عندهم كالمتنبي عند المشارقة ، وقد كانا متعاصرين .

بيد أن نقاد الأدب ، وقد أجمعوا على تقدير شاعرية ابن هانئ ومكانتها ، قد اختلفوا في تقويم شعره فمنهم من أنكر عليه عدم الاختراع والتوليد ، إلاّ نادراً كابن رشيق الذي يقول عنه) أنه يبهر بألفاظه أكثر ممّا يبهر بمعانيه)(٤) ومثل ذلك الشاعر المشهور أبو العلاء المعرى ، الذي كان يقول عندما يسمع شعر ابن هانئ (وما اشبهه إلاّ برحى تطحن قروناً لأجل القعقة في ألفاظه)(٥) .

على أن نفراً آخر من مؤرخي الأدب ونقاده لايرون ذلك ، مثل ابن خلكان (٦) ، الذي أنكر على المعرى قولته ، وعزى ذلك إلى تعصبه على ابن

---

(١) الصفدي : نفسه ، ص ٣٩٩ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه ، ص ٣٠٩ .

(٣) نفسه ،ج٤ ، ص ٤٢٤ .

(٤) فيما ينقل عنه أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : نفسه .

(٥) ابن خلكان : نفسه .

(٦) نفسه : ص ٤٢٤ .

هانئ لحساب المتنبي ، وكذلك مثل الأديب الأندلسي الفتح بن خاقان (١) الذي أعجب ببدائع ابن هانئ واختراعه وتوليده ، ولم ينكر عليه (إلاّ كفره وتجرده عن الدين) ، وغير ذلك .

الشعر في عصر الزيريين :

إذا كان أهم مظهر مادي لاحظناه على الحركة الشعرية في إفريقية في العصر الفاطمي هو غزارة الانتاج الشعري ، فإننا نقول هنا أن ذلك لا يعد شيئاً أمام الانتاج الشعري الهائل الذي خلفه العصر الزيري في حدود ما يهمنا منه ، وهي الفترة الممتدة من اللحظة التي رحلت فيها الخلافة الفاطمية عام ٣٦٢هـ إلى مصر وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، وفي الحق فإنك تستطيع أن تقول ما شئت عن كثافة الإنتاج الشعري وغزراته . وإذا كان العصر الفاطمي قد عرف شاعراً واحداً ترك ديواناً شعرياً وهو ابن هانئ الأندلسي فإن عصر الزيريين خلف العديد من الدواوين الشعرية القيمة ، والواقع أننا لانعدو الحقيقة إذا ما قلنا بأن التراث الشعري الذي خلفه العصر الزيري – بمفهومه الزمني الذي أشرنا إليه – ، يفوق كل التراث الشعري الذي خلفته العصور السابقة .

ولئن كان معظم الإنتاج الشعري الذي خلفه العصر الفاطمي والذي قلنا إنه أهم ماميز الحركة الشعرية في العصر الفاطمي عن العصور

---

(١) فيما ينقله عنه أكرم البستاني : مقدمة ديوان ابن هانئ ،ص ٧ .

السابقة نقول بأن ذلك الانتاج قد جاء نتيجة للتحول السياسي والمذهبي الذي رافق قيام الدولة الفاطمية كما أشرنا من قبل ، فإن معظم الانتاج الشعري في العصر الزيري إنما جاء وليد النهضة الحضارية الشاملة التي عاشتها إفريقية في العصر الزيري ، حسبما ألمحنا عند حديثنا الذي استهلينا به الدراسات الأدبية واللغوية ، وبجانب ذلك لايمكننا أن نغفل أن كثيراً من ذلك الإنتاج الشعري جاء وليد نظرية الفن للفن ، وهو ذروة الرقي الأدبي كما نعتقد - على أنه أيا كان وصفه ،فهو أمر لا يمكن النظر إليه بمعزل عن النهضة الحضارية الشاملة التي بسطنا بعض أبعادها من قبل .

وعدا هذا وذاك ، فإننا لاننسى أن كثيراً من جوانب ذلك الانتاج الشعري الغزير - ككل التيارات الشعرية زماناً ومكاناً - جاءه لتلبية مقتضيات ذاتية واجتماعية وسياسية وتاريخية .. الخ . ولعل أقرب مثل نسوقه هنا هو ما أحدثه سقوط القيروان على يد الهلاليين في منتصف القرن الخامس الهجري من أصداء وانعكاسات أذكت شعر الرثاء وأجّجته ، وبرز نتيجة لذلك لوناً باكياً جسّده فطاحل شعراء هذا العصر من أمثال ابن رشيق (١) وابن شرف (٢) ، والحصرى القدير (٣) ،

---

(١) أنظر قصيدته الطويلة في رثاء القيروان عند الدباغ : نفسه ، ج١ ص ١٨- ٢٠ - عبدالعزيز الميمني السلفي الراجكوتي : المرجع السابق ص ٧٣- ٨٠ .

(٢) عن قصائده في رثاء القيروان أنظر عبدالعزيز الميمني : نفس المرجع أعلاه ص ٩٨-١٠١، ١١٠- ١١١- محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : الحصري القيرواني ص ٣٨ .

(٣) عن مرثية الحصري أنظر ، محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ص ٣٩- ٤٠، ١٢٥- ١٢٧ .

وعبدالكريم الحلواني (١) وغيرهم ، ذكرنا بأدب المراثي الذي عرفته الأندلس، واشتهرت به وهو مراثي الدول المدن .

وعلاوة على ذلك العطاء المعطاء من الانتاج الشعري ، فقد انفرد عصر الزيريين بازدحامه بالعشرات من الشعراء الذين كان ألشعر فنهم الوحيد سواء كان ذلك في حق شعراء القيروان ، أو في حق شعراء بقية مدن وأقاليم إفريقية ، ويكفي للدلالة على ذلك ، أي على ازدحام البلاد بالعشرات من الأدباء أن نشير إلى أن ابن رشيق أديبنا المصقع ، لم يجد بداً وهو يتأهب لتصنيف كتابه أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، من أن يترجم لأكثر من مائة شاعر (٢) ، ومع ذلك فإن ابن رشيق لم يستوعب كل شعراء العصر الزيري ، فهو لم يعرض مثلا لبعض الشعراء الذين تناءت ديارهم عن عاصمة النور والعلم: القيروان، كما أنه لم يلق بالاً لأولئك الذين جمعوا من بين ماجمعوا من حقول المعرفة القدرة على قول الشعر ونظمة ، كبعض الفقهاء (٣)

---

(١) أنظر مريثته عند الدباغ : نفسه ، ج١ ، ص ١٦- ١٧ - محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٣٨ .

(٢) أبو القاسم كرو : مقدمة كتاب شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، الذي جمعه زين العابدين السنوسي . أنظر : ابن رشيق شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، المقدمة ، ص٦ .

(٣) كالفقيه المالكي المشهور ابن أبي زيد القيرواني (ت ٣٨٦هـ) ، الذي أوتى حظاً طيباً من الشاعرية ، و إن كان قد اقتصر على شعر الرثاء الذي قاله في رثاء أشهر فقهاء وقته ، أنظر تلك النصوص عند المالكي : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٨٨- ٢٩٠، وهي قصيدة طويلة في رثاء الفقيه ابن اللباد المتوفي عام ٣٣٣هـ ، وص ٣٠٠-٣٠٥ ، وهي طويلة كذلك في رثاء الفقيه أبي الفضل الممسي المتوفي عام ٣٣٣هـ . ولقد تجاهل ابن رشيق ، الشاعر المشهور جداً الذي معاصر له وهو عبدالله ابن يحيى الشقراطسي التوزري الذي سنترجم له في موضعه ، وقد كان ولم =

والكتاب (١) وغير ذلك تقريباً ،ولكنه اقتصر على ذكر الشعراء الأدباء الخُلَّص . بيد أن ثمة استدراك يقتضيه السياق هنا ، وهو التنبيه إلى أننا لسنا نذهب إلى القول بأن ذلك الإنتاج الشعري الغزير الذي تحدثنا عنه آنفا هو بالضرورة محصلة عطاء الشعراء الذين ضمهم كتاب ابن رشيق الأنموذج ، فالواقع أن كثيراً من ذلك الانتاج كان لشعراء لم يحتو شعرهم كتاب ابن رشيق كشعر ابن رشيق نفسه ، وشعر على الحصري القيرواني الضرير وغيرهما .

وتسوقنا معرفتنا بنوعية الشعراء الذين احتواهم كتاب الأنموذج وكذلك الذين لم يضمهم الكتاب إلى القول بأننا لا نستطيع أن نمضي في تقسيم شعراء العصر الزيري إلى الأقسام الثلاثة التي قسمنا بها شعراء العصرين : الأغلبي والفاطمي حسبما عرفناه من قبل . فأما الأمراء الزيريون فلم نتبين لهم أي محاولات شعرية . نعم ذكر بأن للمعز شعراً قليلاً صرح ابن خلكان (٢) على أنه لم يقف منه على شئ . ومع أننا عثرنا على مقطوعة من عدة أبيات نسبها أحد الباحثين (٣) له ، فإن ذلك لايجيز لنا أن ننظر إليه ، إلاَّ على أنه حالة منفردة لأبناء أسرته . أما ابنه تميم ، فليس من

= يتوف إلاَّ عام ٤٦٦هـ ، أي بعد ابن رشيق بعشر سنوات فقط وحسب الشقراطسي أنه صاحب أشهر قصيدة مدحيه في الرسول ﷺ .

(١) كالكاتب الشاعر عبدالله الكاتب (ت : ٢٧٧هـ) مثلاً الذي ذكرنا من قبل في ص ٦١٧ أنه كان بالإضافة إلى الكتابة التي مهر بها ، كان شعراً بارعاً له أشعار جزلة .

(٢) نفسه ، المجلد الخامس ،ص ٢٣٣ .

(٣) أحمد الطيب الفقيه : المرجع السابق ،ص ١٣٩ .

حقنا أن نتحدث عنه هنا ، لأنه تولى الإمرة في الفترة التي تخرج عن نطاق اهتمامنا كما هو معروف (١) تاريخياً وفيما يتصل بالفقهاء الذين أوتوا شيئاً من الشاعرية ، فإن قلة عددهم لا تحتاج منا أن نعقد لهم قسماً مستقلاً ، كما فعلنا من قبل .

والدارس للحركة الشعرية في إفريقية في عصر الزيريين لا يملك – وهو ما يمكن اعتباره أحد دلائل الازدهار الأدبي – ، إلاَّ أن يؤخذ وهو يرى أن الحركة الشعرية لا تعم عاصمة العلم والثقافة القيروان وحدها ، ولكنها تعم كثيراً من مدن وأقاليم إفريقية ، بل إن بعض المدن النائية قد عرفت شعراً وشعراء ، وهي التي لا تكاد تذكر من بين مراكز الثقافة والعلوم عادة حسبما سنشير إليه في موضعه .

وفيما يتعلق بالأغراض الشعرية التي احتوت ذلك التراث الشعري الذي وصفناه بالغزارة . فالواقع أننا لسنا في حاجة إلى القول بأنه بناء على نعومة الحياة المتحضره وطراوتها التي عرفتها إفريقية في العصر الزيري ،فقد طرق الشعراء ذلك العصر كل أغراض الشعر تقريباً . فقالوا في المديح وبرزواه وقالوا في الهجاء وأقذعوا وقالوا في النسيب وأكثروا بل وتهتك بعضهم، وقالوا في الخمريات، وهو أمر انفرد به العصر الزيري دون بقيه العصور الإفريقية السابقة –، فأسفُّوا، وقالوا في الرثاء فأبكوا، وقالوا في الوصف فأبدعوا في التشخيص، وقالوا في المعاتبات وألغزوا . بل إن بعضهم أوقف شعره في التخصص في غرض واحد

---

(١) أنظر ما ذكرناه قبل ، ص ٧٢ ومابعدها ، عن أمراء الدولة الزيرية .

لايعدوه (١) لغيره، وليس هذا فحسب ، لابل إن بعضاً منهم تخصص في معنى واحد من غرض واحد ، مثال ذلك الشاعر الذي أوقف شعره على وصف الحمام ، حتى غلبت صناعة الشعر عنه فيه وحده (٢) .

ويخيل إلينا أن الحياة الناعمة المليئة بالأجواء المشبعة بالأدب وعنفوانه، قد دفعت بعض شعراء هذا العصر إلى أن يتظارفوا ، أو لنقل يصطنعوا الظرف في شعرهم وقريضهم . وإلاَّ فبم نفسِّر لجوء بعضهم إلى صبغ شعره بالحديث عن الأبل والقفار (٣) في هذا العصر الذي رق فيه الشعر وتهذب ، ليس في إفريقية ، بل وفي الدولة الإسلامية ؟ ، وكيف يتسنى لنا أن نفسر أن مجئ شعر أحدهم إعرابي بدوي (٤) ؟ أو أن يأتي شعر شاعر ثان جاهلي المرمي قفري الأسلوب (٥) ؟ أو أن يذهب ثالث إلى مجاراة بعض المشارقة في الاحتيال والكذب اللغوي ، واستبدال لفظة بلفظة من مختزنه اللغوي ، حتى إذا سئل أحال إلى كتاب لم يسمع به (٦) قط ؟

---

(١) كالشاعر أبي طالب الولاي حسن بن محمد الجهني الذي فقد عدداً كبيراً من أفراد عائلته في حادثة غرق في البحر ، فجاد شعره كله في الرثاء ، أنظر عبدالرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٠١، ٢٢٦ .

(٢) كالشاعر حسين التميمي المعروف بعنترة لشدة سواده ، أنظر عبدالرحمن ياغي : نفس المرجع أعلاه ،ص ١٠١ ، ٢١٩ .

(٣) كالشاعر القفصي الكفيف ، أنظر عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٤٥١ .

(٤) كعبد الواحد بن فتوح الكنامي : راجع عبدالرحمن ياغي : نفسه .

(٥) كالشاعر عبدالله بن محمد ، المعروف بابن البغداد ، أنظر عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص٢١٨-٢١٩ .

(٦) كالشاعر أبي بكر عتيق بن عبدالعزيز المذحجي .. أنظر عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٠٠-١٠١، ١٨٠ .

أوأن يسلك رابع مسلك شعراء المشرق في نظم الأقوال والحكايات (١) ؟ .. الخ . الحق أننا لانعزو ذلك إلاَّ إلى الظرف الأدبى الذي كسى الحياة الأدبية في العصر الزيري ، مع تسليمنا بالرغبة الدفينة ، والظاهرة الملحاحة في اقتفاء أثر المشرق والمشارقة .

وإذا نظرنا إلى أولئك الشعراء وأشعارهم والأغراض الشعرية التي طرقوها ، سهل علينا أن ندرك شكل القريض الظاهري ، أو شكل أدوات البناء الشعري ، فهو لابد أن يكون في غالبه إنعكاساً لطبيعة الحياة المتحضرة التي كان يحياها الناس هناك . هذا أولاً ، ثم توافقا وتماثلاً لما كان عليه البناء الشعري آخر في المشرق من إغراق في البديع والصنعة ، ومن شغف باستخدام الكتابة والتشبيه والاستعارة ، إلى الولع بالإشارات ولطافة التركيب على أنهم في الحق لم يكونوا سواء في ذلك .

وأخيراً ، فنظراً لأن هذا العصر قد إزدحم كما قلنا بعشرات الشعراء فإننا سنكتفى بالإشارة إلى أولئك الذين كان لهم دور في الخصوبة الشعرية التي امتاز بها هذا العصر انتاجاً وجودة سبك ، وكذلك إلى أولئك الذين عرفتهم بعض مدن وأقاليم إفريقية ، وذلك لتوضيح الحياة العلمية عامة والأدبية خاصة في عصر الزيريين هذا .

وكيفما كان الأمر فمن أوائل الشعراء الذين أوتوا قدراً كبيراً من تلك الخصوبة الشعرية التي تحدثنا عنها ، الأديب الكاتب الناقد الشاعر

---

(١) كأبي محمد عبدالله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاض ميله ، أنظر عبدالرحمن باغى : نفسه، ص ٩٨ –٩٩ ، ٢٠٩ ، ٤٥١ .

عبدالكريم النهشلي القيرواني (ت٤٠٥هـ) الذي كنا قد ترجمنا له من قبل . وفي الحق ، فإن النهشلي كان إلى جانب براعته في تلك الجوانب التي عرضنا لها من قبل ، شاعراً مرموقاً ، بل إن الشعر كان صناعته الفنية الرئيسية تقريباً (١) ، ومما يؤكد على علو مكانته الشعرية أن ابن رشيق(٢) الشاعر الناقد مؤرخ الأدب ، قد أطلق عليه لقب النهشلي الشاعر ، ولقد روى ابن رشيق (٣) في أنموذجه – دونما انكار أو دفع – ، أن النهشلي سئل ذات مرة عن أشعر شعراء القيروان في عصره ، فبدأ بنفسه ، ثم ثنى بالأديب الشاعر الحسين بن محمد التميمي التاهرتي ، المعروف بابن الربيب (ت٤٢٠هـ) الذي سبق لنا أن ترجمنا له من قبل ، وسنعرض له بعد قليل أيضاً .

وعندما صنف ابن رشيق كتابه الأنموذج ، ورتب شعراءه ، كان ترتيبه بالصورة التي ظهر عليها ترتيباً مقصوداً (٤) ، هدف من خلاله الإشارة إلى شعراء القيروان حسب مكانتهم الشعرية ، ولذلك فقد استهل كتابه بعبدالكريم النهشلي (٥) ، ويرى المنجي (٦) الكعبي ، الذي ذكرنا من قبل أنه تتبَّع ترجمة النهشلي وتقصَّاها في مظانها المختلفة ، أنه لايستبعد أن

---

(١) المنجي الكعبي : النهشلي القيرواني ،ص ٦٤ .

(٢) فيما ينقله عنه المنجي الكعبي : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٣) فيما ينقله عنه المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٦٥ .

(٤) كما لاحظ ذلك المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٧٠ .

(٥) المنجي الكعبي : نفسه ص ٧٠ – ٧١ .

(٦) نفسه : ص ٦٨ – ٦٩ .

يكون له ديوان شعرى ، وهو الشاعر المكثر . ومع أننا لسنا متحقِّقين من وجود ذلك الديوان ، إلاَّ أن الشئ المؤكد ، أنه قد وردت له مقطوعات شعرية تجاوزت (١) ستة عشرة مقطوعة مختلفة الأغراض من غزل ومديح ورثاء ، تدل كلها على شاعريته المتمكنة .

والنهشلي من الشعراء النقاد ، الذين أثرت آراؤهم الشعرية في أبناء عصره من الشعراء ، كابن رشيق (٢) مثلا ، ولقد عده عبدالرحمن ياغي (٣) الشيخ الثاني الذي أثر في الحياة الحياة الفكرية المنهجية والأدبية لابن رشيق ، ووضحت شدة تأثر ابن رشيق بالنهشلي وآرائه النقدية الشعرية في كتابه العمدة (٤) .

وممَّن غذى الحركة الشعرية الإفريقية في العصر الزيري بجيد شعره، وغزير عطائه ، العالم اللغوي النحوى الأديب الناقد الشاعر أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز القيرواني (ت : ٤١٢هـ) ، حسبما عرفنا عند حديثنا عن النثر الفني والتأليفي من قبل، والقزاز نموذج للأديب الشامل ، فهو لم يكن لغوياً ونحوياً ولا أديباً ناثراً ، ولاناقداً شاعراً فحسب، وإنما كان كل ذلك في شخص واحد . ولقد

---

(١) كما تتبعها المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٧٠- ١٢٥ .

(٢) أنظر عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ١٤٠ - ١٤٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٤٠ .

(٤) عبدالرحمن ياغي : نفسه حاشيه رقم ٣ ص١٤١ وحواشي ص ١٤٢، وحواشي ص ١٤٣-١٤٤، حيث الإشارة إلى الصفحات التي وردت في كتاب العمدة ، الجزء الأول ، التي تدل على شدة تأثر ابن رشيق بالنهشلي القيرواني .

وصف ابن رشيق (١) مكانته الشعرية بأنه كان له شعر جيد مطبوع مصنوع ، ولايستبعد المنجي الكعبي (٢) الذي تقصى حياة وترجمة القزاز القيرواني أن يكون له، وهو الأديب المرهف الشاعرية ديوان شعري وعلى كل حال فقد أورد المنجي الكعبي(٣) له عدداً من القصائد والمقطوعات الجميلة .

ويأتي الأديب الناثر الناقد الشاعر ابراهيم الحصري (ت٤١٣هـ) مثالاً لواحد من صفوة شعراء إفريقية في العصر الزيري آنذاك ، ولقد أثنى ابن رشيق (٤) على شاعريته ، ووصفها وصفاً صائباً فقال عنه وعنها : (كان شاعراً نقاداً عالماً بتنزيل الكلام ، وتفصيل النظام يحب المجانسة والمطابقة ، ويرغب في الاستعارة تشبها بأبي تمام في أشعاره ، متتبعاً لآثاره ، وعنده من الطبع مالو أرسله على سجيته لجرى مجرى الماء ، ورق رقة الهواء) . أما ابن بسام (٥) فقد قال : (له أشعار أندى من نسيم الأسحار ، وأذكى من شميم الأزهار) .

ولإبراهيم الحصري ديوان شعر ، يعرف بديوان الحصري كما يقول ابن خلكان (٦) ، إلاّ أنه يعد في عِداد المفقود من دواوين المغاربة كما يعتقد أبو القاسم كرو وعبدالله شريط (٧) . على أن النتف الذي أورده ابن رشيق،

(١) نفسه ، ص ١٢٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٠٠ – ١٠٣ .

(٣) نفسه ، ص ١٠٠– ١٠٣ .

(٤) نفسه ، ص١٨– ١٩ .

(٥) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الثاني ج٨، ص ٥٨٤ – ٥٨٥ .

(٦) نفسه ، المجلد الأول ، ص ٥٤ .

(٧) نفسه ، ص ٢٨١ .

ومن أخذ عنه ، يدل بحق على قوة الشاعرية وأصالتها عند ابراهيم الحصري.

ومن الشعراء الذين زهي بهم العصر الزيري وقتذاك الشاعر الأديب محمد بن ابراهيم التميمي (١) الكموني (ت ٤١٤هـ) وعده ابن (٢) رشيق شاعراً فصيحاً لفاظاً ، حسن التقيم ، جزل الشعر جيد الترسيم ، ظاهر البلاغة من الشعراء العالمين بأسرار الكلام . إذا ركب معنى أجاده ، بيد أنه مع ذلك لم يمدنا من شعره إلاَّ بنتف ضئيل .

ومن أقطاب الحركة الشعرية في إفريقية الذين وصلنا شيئ يسير من الإشارة إليهم، وإلى شعرهم دون انتاجهم ، الأديب الناثر واللغوي النحوي والقاضي الشاعر الحسن بن محمد التميمي التاهرتي المعروف بابن الربيب (ت : ٤٢٠هـ) . وابن الربيب عرضنا لذكره من قبل ونحن نتحدث عن النثر الفني ، كما أننا عرفنا ونحن نعرض للشاعر النهشلي القيرواني ، أن النهشلي وضع ابن الربيب في المرتبة الثانية من الشاعرية بعده ، وعلى أيه حال فإن ابن رشيق (٣) الذي ذكر ذلك يصف ابن الربيب بأنه قد بلغ نهاية

---

(١) ترجمته موجودة عند : ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ١٠١-١٠٢ ، وهي ترجمة مختلطة مضطربة جداً - الصفدي : نفسه ، ص ٥٠٤- عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٦٢ - ١٦٣ - المنجي الكعبي : القزاز القيرواني : ص ٤٢ وهو الوحيد الذي أشار إلى سنة وفاته كما أثبتناها في المتن .

(٢) فيما ينقله عنه الصفدي : نفسه ، ص ٥ .

(٣) فيما ينقله عن ابن فضل الله العمري في المسالك : أنظر عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٦٨-١٦٩ .

الأدب وعلم الخبر والنسب ، وأنه كان يتكلفه بعض التكليف .

ويعد ابراهيم الرقيق القيرواني (ت٤٣٥هـ) الذي أشرنا إلى دوره في النثر الفني والتأليفي في موضعه من الشعراء المرموقين في إفريقية آنذاك ويتميز شعر الرقيق ، بأنه محكم لطيف الطبع ، قوى ، كما يرى ابن رشيق (١) ، أما حسن حسني عبدالوهاب (٢) ، فيقول عن شعره إنه نو طلاوة وحلاوة ورونق ، ومع أن ابن رشيق (٣) يصف الرقيق بقلة الشعر ، إلاَّ أنه يورد له مقطوعات عديدة في أغراض شتى ، كالمديح والنسيب ، والحنين ، تضعه دون ريب في مرتبة عالية من الشعر .

وثمة شاعر إفريقي مبرِّز ، كان له ولأشعاره دوى وصيت ذائع آنذاك ألا وهو الأديب الكاتب الشاعر الرياضي، أبو الحسن : علي بن أبي الرجال الشيباني ، التاهرتي أصلاً ، القيرواني وفاة وسكنى ، والمتوفى عام ٤٢٥هـ. وأبو الحسن على بن أبي الرجال ، رأيناه يضطلع برئاسة ديوان الإنشاء من قبل ، ورأينا كثيراً من المؤرخين يعزون إليه السبب في عدول المعز بن باديس عن المذهب الشيعي حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل . ويرى ابن رشيق (٤) لأبي الحسن على بن أبي الرجال علماً طائلا وأدباً كاملا، وقد أورد له في كتابه العمدة (٥) عدة مقطوعات شعرية أفاض ابن رشيق في وصف

(١) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨ .

(٢) الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٤٠.

(٣) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٢٨-٣٤ .

(٤) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، الجزء الأول ،ص ١٧ .

(٥) أنظر الجزء الثاني ، الصفحات ، ١٤٦، ١٦٧، ١٧٤- ١٧٥ ، وغيرها .

ماتتحلى به من شاعرية جيدة السبك .

ومن شعراء العصر الزيري المتأخرين ، ممَّن كانت لهم شهرة عريضة في النظم ، الأديب الشاعر أبو العباس أحمد بن أبي القاسم بن أبي الليث اللخمي المعروف بابن حديده (١) (ت : ٤٥٠هـ) (٢). وابن حديدة من معاصري ابن رشيق وأنداده ، وقد وصف ابن رشيق شاعريته بقوله : (شاعر فكه الشعر ، رائق التشبيه مولع به ، قليل التكلف ، قوى المنهج والظرف ، ورفض المدح والهجاء ويخبر التصنَّع خبراً جيداً ولايركبه إلاَّ في الأماكن التي تصلح له كما شرط حذاق المتقدمين)(٣) .

وتتجلي في مختارات ابن رشيق لشعر ابن حديدة (ميله إلى الصناعة الأنيقة الحضرية التي تبعد عن سذاجة الطبع ، وبساطة التعبير) . (٤)

على أن أشهر ثلاثة شعراء أبرزهم هذا العصر ، وتميزوا بالشاعرية التي تضعهم في مصاف شعراء العربية المبرِّزين في كل العصور ، كانوا بلا مراء ، ابن رشيق (ت : ٤٥٦هـ) ، وابن شرف (ت : ٤٦٠هـ) ، والحصري القيرواني الضرير (ت : ٤٨٨هـ) .

ولنبدأ بابن رشيق بوصفه أول الثلاثة وفاة . وابن رشيق في الحق

---

(١) ترجمته موجودة عند ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ص ١١– ١٥– الصفدي : نفسه ، ج٧، ص ٢٩٣ – ٢٩٥ – عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٢٠٦ – ٢٠٩ .

(٢) فيما يعتقده حسن حسني عبدالوهاب – أنظر عبدالرحمن باغي : نفسه ، حاشية رقم ٢، ص ٢٠٧ .

(٣) ابن رشيق : نفس المصدر المصدر السابق أعلاه ، ص ١١ .

(٤) عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ٢٠٨ .

تردد اسمه على مسامعنا كثيراً فيما سبق من عرض للحركة الأدبية فلي إفريقية في العصر الزيري ، كما أننا قمنا بالإشارة إلي الترجمات الواسعات التي حظى بها من قبل المؤرخين قدامى ومحدثين . وفوق هذا ، فقد تلمسنا من كثب إسهاماته في مجال التآليف الأدبية والنقدية . ولقد خرجنا من كل ذلك بانطباع هو أن ابن رشيق يعد أنموذجاً صادقاً للأديب الشامل متعدِّد المواهب . ولا نستطيع حقيقة أن نقول بأنه في هذا الجانب من الحركة الأدبية أقدر منه في الجانب الآخر ، فقد كان تبريزه في كل مجالات الأدب متساوياً متماثلا .

ولقد سبق لنا أن عرفنا أنه كان من أشهر رموز الأدب في بلاط المعز ابن باديس ، الذي استمر يقتعد صدارته حتى سقوط القيروان على يد الهلاليين في منتصف القرن الخامس الهجرى ، حيث التحقق بعد ذلك بصقلية ، وظل فيها إلى أن وافته المنية عام ٤٥٦هـ على الأرجح .

وطيلة مدة إقامته في بلاط المعز ، كان ينظم القصائد السائرات في شتى الأغراض ، تجاوباً مع الأحداث والمواقف ، وانفعالاً بها ، وكان مع ذلك لايفتأ ينظم أعذب الشعر وأروعه ، متى ما جمعته الأيام والأزمان مع أترابه ولداته من شعراء القيروان ، وبالجملة ، فإننا نستطيع أن نقول : إنه قد ملأ البلاد شعراً عذباً ، رائقاً ، كما ملأتها مؤلفاته وآرواؤه النقدية .

ولقد تصدى نفر من المحدثين ، وعلى رأسهم عبدالعزيز الميمني السالفي الراجكوني إلى تصنيف كتاب ، جمع فيه أكثر تراثه الشعري ، هو

وزميله ابن شرف ، وأطلق عليه : النتف من شعر ابن رشيق، وزميلة ابن شرف ، القيروانيين (١) ، كما مر بنا سابقاً . وكذلك فعل عبدالرحمن ياغي ، الذي كتب كتابه : حياة القيروان موقف ابن رشيق منها ، سالف الذكر . غير أنهما لم يقدرا (٢) على جمع كل شعر ابن رشيق المتناثر في بطون كتب الأدب ، ولاسيما كتاب ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة .

أما شاعريته ، فلسنا نجد بعد قول ابن بسام (٣) عنه ، أنه (إن نظم طاف الأدب واستلم) ، وقوله كذلك عن شعره (وأما الشعر ، فإنه أنسى أهل وملك منه سَخْتَهُ وَجْزَلَه) ، ولا بعد قول الأديب البغدادي الأصل، الأندلسي مقاماً ووفاة أبي على القالي (٤) عن ابن رشيق : شعره (شعاع القمر ، وحديث السمر ، ومعجزة الخُبر والخَبر ، فات الأواخر والأوائل ، وأسكت المناظر والمماثل) ، ولابعد قول ابن خلدون (٥) الذي قطع به قول كل خطيب ، من أنه أشعر شعراء عصره ، نقول لانجد تقريظاً جمع فأوعى مثل هذا ، ونختتم حديثنا عن شعره يقول الميمني الراجكوني (٦) في تقديمه لشعر ابن رشيق مانصه : (هذه نتف من شعر ابن رشيق القيرواني ، أبي على الحسن مثبوته في مطاوي ودواوين الأدب ودفاتره ، اقتطفنا من

---

(١) أنظر الصفحات من ٤- ٨٧ ، حيث شعر ابن رشيق .

(٢) أنظر الحاشية رقم ١، ص٥٩٧ من المجلد الثاني ، الجزء الثامن ، من كتاب ابن بسام : الذخيرة في محاسي أهل الجزيرة التي كتبها المحقق ، احسان عباس .

(٣) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، المجلد الثاني ، الجزد الثامن ، ص٥٩٧ - ٥٩٩ .

(٤) فيما ينقله عنه ابن بسام : نفس المصدر أعلاه والمجلد والجزء ، ص ٥٩٧ - ٥٩٨ .

(٥) فيما ينقله عنه أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب، ص ٣١٤ .

(٦) النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين ، ص ٢ .

أزاهرها ، وانتقينا من أخابرها ، لتكون نموذجاً من شعره ، يتوه بذكره ، ويميزه عن أبناء عصره ، ويطيب من نشره) .

أما الشاعر الثاني الأشهر الذي ازدان به جيد الشعر الإفريقي في العصر الزيري، فقد كان محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني، الذي غلب عليه اسم ابن شرف ، وابن شرف لامس اسمه أسماعنا فيما سبق من حديث عن بعض أوجه الحركة الأدبية ، وقد تتبعنا ترجمته التي حظى بها في مظانها المختلفة ، وذكرنا أنه كان ثاني اثنين اشتهر بهما بلاط الأمير المعز بن باديس ،وقلنا في حينه إنه أضطر إلى مفارقة القيروان بعد سقوطها والاتجاه إلي صقلية ، ثم الأندلس حيث تهادته بلاطات ملوك الطوائف ، وظل هناك حتى توفى عام ٤٦٠هـ بمدينة أشبيلية (١) .

وابن شرف لانجد مندوحة في وصفه بالأديب الشامل ، فهو ناثر ، وناقد ، ومؤرخ للأدب ويكفي أن نشير إلى أنه من أوائل من سبق في تحرير المقامات (٢) من المغاربة ، وهو مع ذلك شاعر مصقع . ولقد ترك تراثاً شعرياً ضخماً احتوى معظمه كتاب (النتف) (٣) لعبدالعزيز السلفي الميمني ، حسبما أسلفنا .

أما عن شاعريته ومكانته العالية فيه – أي الشعر – فقد قيل عنها الكثير ، فهذا ابن بسام (٤) مافتئ يشيد بها ويمتدحها كلما ورد ذكر لابن

(١) أظر قبل ، ص ٦٤٧ .

(٢) أنظر ما قلناه عن ذلك قبل ، ص ٨٤٩ .

(٣) أنظر الصفحات من ٨٨-١٢١ (حيث شعر ابن شرف حسب تقسيم الميمني) .

(٤) الذخيرة .

شرف . وهذا الصفدي (١) يعتبره أحد فحول شعراء المغرب ، ومن المحدثين نجد أبا القاسم كرو وعبدالله شريط (٢) يقولان عنه مانصه : (يعد من الشعراء المجيدين في المغرب لسلاسة معانيه ، وقوة تركيبه ودقة وصفه ، ووضوح أفكاره) .

والشاعر الأشهر الثالث والأخير الذي أنجبته إفريقية في العصر الزيري هو أبو الحسن علي بن عبدالغني الحصري الفهري القيرواني الضرير (٣) (ت : ٤٨٨هـ). والحصري القيرواني الضرير ، سبق أن عرفناه عالماً منهجياً من علماء القراءات المتأخرين ، وقلنا وقتها إن مكانته العالية في علوم القرآن لاتجيز لنا أن نغفلها بحجة أنه عاش فترة من الزمن بعد الفترة التي حددناها رحاباً زمنياً للرسالة ، وهي منتصف القرن الخامس الهجري .

وإذا كنا قد أجزنا ذلك منهجياً هناك ، أفليس من الأوجب أن نجيزه هنا في التنويه به كشاعر ، وهو الذي خلف أضخم تراث شعري عرفته إفريقيه لشاعر طيلة الفترة موضع الإهتمام ، لناهيك عن أنه هو صاحب

---

(١) نفسه ، ج٦ ، ص٩٧ .

(٢) نفسه ، ص ٣٢٥ .

(٢) لقد كفانا محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى عناء البحث عن الترجمات الواسعات التي حظى بها الحصري القيرواني الضرير وشعره ، من قبل المؤرخين القدامى والمحدثين ، وذلك بتاليفها لكتاب ضخم تتبّعا فيه كل ماجاء عن الحصري ، سواءا كان ذلك فيما يتعلق بحياته وسيرته منذ ولد عام ٤٢٠هـ حتى توفى عام ٤٨٨هـ ؛ أو ما يتعلق بشعره الغزير والاهتمام الواسع الذي لقيه من قبل الشعراء القدامى والمحدثين وقد أطلقا على ذلك الكتاب : أبو الحسن الحصري القيرواني .

القصيدة التي طبقت شهرتها الآفاق حتى الآن ، وهي قصيدة (ياليل الصب).

وفي الحق فإن شهرة الحصري القيرواني الضرير قد قامت لاعلى أساس مكانته في علم القراءات - على أهميتها - ولا على مكانته في علوم العربية (١) - مع تبريزه فيها -، ولكن على مكانته الشعرية التي شهد له بها الأدنى والأبعد .

وعلى أية حال ، فإن الحصري ولد عام ٤٢٠هـ ، كما يري حسن حسني عبدالوهاب ويرافقه عليه محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى(٢) ، وشب وترعرع في تلك البيئة العلمية التي عرضنا لمعظم أبعادها . على أنه لم يكن له صوت مسموع خلال المدة التي ظهرت فيها مخائل الشاعرية عنده ، وحتى اضطراره إلى مغادرة القيروان بعد سقوطها عام ٤٤٩هـ - ولعله كان خافتا وقتها - أمام عمالقة الشعر في ذلك الوقت . ولقد نزل المغرب الأقصى وبالذات مدينة سبتة حيث ظل فيها مدة مديدة من الزمن ، ثم غادرها عام ٤٦٢هـ إلى الأندلس ، حيث تنقل في أرجائها ، وبعث فيها جواً من النشاط الأدبي ، ثم عاد إلي المغرب الأقصى حيث توفى عام ٤٨٨هـ (٣) .

---

(١) أنظر محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيي : أبو الحسن الحصري القيرواني ص ٣٤-٣٥ .

(٢) أبو الحسن الحصري القيرواني ص ٢٣- ٢٤ .

(٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى ك نفس المرجع أعلاه ، ص ١٩-٨٢ (بتوسع واستفاضة) .

وأيا ماكان الرأي بشأن عدم وضوح انتاجه الشعري في الشطر الأول من عمره ، الذي قضاه في بلده القيروان (١) ، فإن الحصري قد ملأ الشطر الثاني من عمره شعراً غزيراً رائقاً جيد السبك متينه ، وهو من الشهرة والذيوع كما يقول محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى بحيث لايحتاج إلي تعريف وتقديم .

ومن مؤلفاته الشعرية التي تركها : ديوان المستحسن (٢) من الأشعار، وقد أهداه للمعتمد بن عباد ، أحد ملوك الطوائف في الأندلس وهو عبارة عن مدائح فيه وفي أسرته من بني عباد ، والقصيدة الرائية (٣) ، وهي منظومة في قرآءة نافع ، وتحتوى على ٢١٢بيتاً ، وقد أشرنا إليها في دراسات علوم القرآن ، وديوان المعشرات (٤) ، وهو ديوان في الشعر الغزلي ، نظمه على حروف المعجم ، وهو عبارة عن قصائد، كل قصيدة تتكون من عشر أبيات يبدأ كل بيت منها ، وينتهي بنفس حرف المعجم . ويتكون هذا الديوان من ٢٩٠بيتا . وقد حاول الحصري في هذا اللون من الشعر أن يستعرض مهارته الأدبية الفائقة ، ولا يستبعد محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى (٥) أن يكون الحصري صاحب السبق في هذه

(١) أنظر تعليل محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى لذلك : نفسه ، ص ٢٧-٢١ .

(٢) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٦٨، ١٠٣ .

(٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ٦٧-٦٨ .

(٤) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ،ص٧٠، ٢٠٥-٢٠٦، ثم الديوان ص ٢١٢-٢٤٠ .

(٥) نفسه ، ص ٢٠٦ .

الطريقة من الشعر. ومن مؤلفاته الشعرية أيضاً ، مجموعة قصائد (١) قالها في هجاء خصومه من الأندلسيين، وكذلك قصائد مدح أخرى قالها في أصدقائه. ثم ديوان اقتراح القريح (٢) واجتراح الجريح وهو ديوان شعر كله في الرثاء ، نظمه الحصري في رثاء أحد أولاده الأثيرين عنده ، وقد رتَّبه على حروف المعجم ، ويقع في نحو ألفين وستمائه بيت . وبهذا الديوان وبقصيدة ياليل الصب قامت شهرة الحصري الذائعة حتى الوقت الحاضر .

وأخيراً ، فإن أشهر مؤلفات الحصري الشعرية على الإطلاق ، كانت بدون شك قصيدة : ياليل الصب ، التي طارت شهرتها في الآفاق كما أسلفنا . وقصيدة ياليل الصب قصيدة أنشأها الحصري في مدح الأمير محمد بن طاهر ملك مدينة مرسية ، وهي إحدى ممالك الطوائف التي عرفتها الأندلس في القرن الخامس الهجري . وتقع القصيدة في ٩٩بيتا (٣) ولسنا في حاجة إلى القول بأن الناس قد شغلوا بهذه القصيدة منذ أن قالها صاحبها الحصري حتى الوقت الحاضر . ولقد دفعت روعتها الأدبية وعذوبتها ورقتها الكثير من الشعراء المشارقة والمغاربة القدامى والمحدثين ، إلى معارضتها بعشرات القصائد ، وقد تتبَّع محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى (٤) ، كل تلك المعارضات التي عورضت بها قصيدة ياليل

---

(١) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ،ص ١٠٣ .

(٢) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص٧٠، ٢٤٣- ٢٧٢ ، التحليل ، ثم الديوان، ص ٢٧٣ - ٤٥٤ ، ثم ذيل الديوان ، ص ٤٥٥-٤٩٠ .

(٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفسه ، ص ١٩٠-١٤٠ .

(٤) نفسه ، ص ١٥٠ - ٢٠١، ٤٩٤- ٤٩٥ (حيث إلى الإشارة إلى معارضات القدامى والمحدثين) .

الصب ، كما أنهما تتبعا(١) ما اشتهر من الألحان التي صاغها بعض قدامى الملحنين والمحدثين ، فأشار إلى ذلك في موضعه .

وبعد هذا ، فليس غريباً أن يثني عليه وعلى مكانته الشعرية نقَّاد الأدب ومؤرخوه وغيرهم ، فيقول ابن بسام (٢) عنه أنه كان بحر براعة ، ورأس صناعة وزعيم جماعة ، طرأ على جزيرة الأندلس منتصف المائة الخامسة من الهجرة بعد خراب وطنه القيروان ، والأدب يومئذ بأفقنا نافق السوق ، معمور الطريق ، فتهادته ملوك طوائفها تهادي الرياض للنسيم ، وتنافسوا فيه تنافس الديار في الأندلس المقيم) . ويقول الحميدي صاحب كتاب جذوة المقتبس(٣) عنه : (شاعر أديب ، رخيم الشعر ، حديد الهجو ... وشعره كثير ، وأدبه موفور) .

أما وقد تسنى لنا التعرف على أبرز شعراء القيروان في العصر الزيري فإن الحاجة تقتضي أن نتعرف على حالة الشعر والشعراء في بقية مدن وأقاليم إفريقية في ذلك العصر أيضا ، فالواقع أن كثيراً من مدن وأقاليم إفريقية كانت موئلاً لنهضة شعرية تتجاوب في أرجائها ، ولا تقل بهاءً وتألقاً عن النهضة الشعرية التي كانت مدينة القيروان تتفيئ أريجها وعبقها .

فمدينة تونس مثلاً ظهر فيها إذ ذاك نفر من الشعراء المرموقين ، حق

---

(١) نفسه ، ص ١٣٩ مع الحواشي .

(٢) فيما ينقله عنه محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى ، نفسه ص ٦٤ .

(٣) نفسه ، ص ١٣٩

لهـا أن تزهو بهـــم . نذكــر منهم ، الحـسن بن عـبـدالعـزيز بن جــربون التـونسي (١) ، (كـان حـيـًّاً سنة ٤٠٩هـ) ولقـد ذكـره ابن رشـيـق (٢) في أنموذجه، فقال عنه (شاعر مشهور ، مباحث ، دراس ، يعرف مستعمل اللغة وتركـيب ألفـاظ الشـعـر ، وينحـو نحـو أبي القـاسم بن هانئ في الإجـلاب والتـهويل ، وإن قصر عن ذلك في المعنى وحصرها) . ويرى ابن رشيق (٣) أن ابن جـربـون كان كثيراً مايميـل إلى ذكر الخيل وعدة الحرب في شعره (تقوية للكلام وتنغيماً للمستمـــع) ، على أنه يري أيضـــاً أنه لم يجـــد له (معنى إنفرد به ، ولازاد زيادة توجبه له) (٤) .

ومن شعراء مدينة تونس كذلك ، أبو الحسن محمد بن أحمد بن خليفة التونسي المعروف بالصرايري (٥) (ت ٤١٨هـ) (٦) . وأهم مايميز شعره الهجاء المقذع ، غير أن له مقطوعات في الغزل تدل مع انحراف مضامينها على شاعرية جيدة (٧) . وهناك شاعر تونسي ثالث كان كثيراً مايؤم مدينة

---

(١) ترجمته موجودة بإيجاز عند ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٧٩-٨٠ واسمه هنا الحسن بن جربون - عبدالرحمن باغي : نفسه ص٢٢٠ ، وعنده اسمه الحسن بن جربون .

(٢) ص ٧٩ .

(٣) فيما ينقله عبدالرحمن باغي : نفسه عن ابن فضل الله العمري الذي ينقل مباشرة عن ابن رشيق.

(٤) ابن رشيق : نفسه ، ص ٨٠ .

(٥) ترجم له ترجمة لا بأس بها ابن رشيق : نفسه ، ص ١١١ - ١١٥- الصفدي : نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٦١-٦٣- عبدالرحمن باغي : نفسه ، ص ٨٢ .

(٦) كما أشار الصفدي : نفسه ، ص ٦١ .

(٧) ابن رشيق : نفسه ، ص ١١٢- ١١٥- الصفدي : نفسه ، والجزء ص٦١-٦٣.

القيروان ويجتمع مع شعرائها ، وفيهم ابن رشيق وغيره ، وهو عبدالواحد ابن فتوح الكتامي الوراق (١) .

ولم تكن مدينة المهدية بمنأى عن النشاطات الأدبية والشعرية منها على وجه الخصوص . فلقد ذكر بأنه برز فيها عدد من الشعراء في العصر الزيري ، نذكر منهم معد بن حسين بن جبارة الفارسي (٢) أحد الشعراء المشهورين في إفريقية وقتذاك . وهو أحد الشعراء الذين طوقوا بالبلدان (وسلك طريق الشعراء في طي البلدان وقصد الأجواد) (٣) . ولمعد بن حسين بن جبارة شعر (يستغرق البناء ويستعجز الشعراء) (٤) . وبجانب ذلك يتميز شعره بأن كثيراً منه بلغ الغاية في الحلاوة والرشاقة .

ومن شعراء مدينة المهدية كذلك عبدالله بن ابراهيم بن المثنى الطوسي، المعروف بابن المؤدب (٥) (ت٤١٤هـ) ويقول الكتبى (٦) عنه إنه كان شاعراً مذكوراً مشهوراً ، قليل الشعر) ، ومنهم أيضاً على بن عبدالكريم المعروف بابن غالب (وقد نحى في الرجز نحواً عجيباً)(٧) .

---

(١) عبدالرحمن باغي : المرجع السابق ،ص ٢١٢- ٤٥١ .

(٢) عبدالرحمن باغي : المرجع السابق ،ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) عبدالرحمن باغي : المرجع أعلاه والصفحة .

(٤) عبدالرحن باغي : نفسه ،ص ١٦١ .

(٥) توجد له ترجمة طيبة عند الكتبي : فوات الوفيات ، ج١، ص ٤٣١- ٤٣٣- عبدالرحمن باغي : نفسه ،ص ١٦٣- ١٦٤ .

(٦) فوات الوفيات ، ج١ ،ص ٤٣١ .

(٧) عبدالرحمن باغي : نفسه ،ص ٢٢٤ .

وتنافست مدينة سوسة غيرها من المدن الإفريقية ، فأهدت البلاد نخبة من الشعراء المجيدين ، نشير إلى واحد منهم برز واشتهر آنذاك ، وهو محمد بن عبدون السوسي ، المشهور بالوراق السوسي (١) ، فلقد كان شاعراً بليغاً ، وأثنى عليه ابن رشيق (٢) ، فقال (شاعر بليغ وطئ الكلام ، كلف بعذوبة اللفظ ، والتوصل إلى المعنى البعيد بلطافة وسكون جأش) .
والوراق السوسي أحد الذين غادروا إفريقية أنذاك ، وتوجه إلى جزيرة صقلية عام ٣٩٣هـ، حيث اتصل بأميرها يوسف بن عبدالله بن محمد بن حسين الكلبي ، ولقد حفظ عنه شعر رائق بديع في غرض الحنين ، قاله متشوقاً إلى مدينته سوسة (٣) . وثمة شاعر سوسى آخر ، أثنى عليه ابن رشيق ، وهو علي بن أحمد الصفار السوسي ، الذي كان متسع القافية ، سالم الطبع ، عالم باللغة (٤) .

واشتهر من مدينة باجة ، سواء كانت باجة الزيت ، أو باجة القمح ، نفر من الشعراء مثل محمد بن أبي مفتوح المغربي (٥) الشاعر ، أحد أبناء مدينة باجة الزيت ، وقد غلب على شعره الهجاء البهديهي ، ومثل محمد بن

---

(١) ترجم له ترجمة حسنة الصفدي : نفسه ، ج٣، ص ٢٠٥- ٢٠٧- حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ،ص ٨٢-٨٣- أحمد بن عامر : الدولة الصنهاجية ،ص ٩١-٩٥ .

(٢) فيما ينقله عنه الصفدي : نفسه ، والجزء ، ص ٢٠٥ .

(٣) الصفدي : نفسه ، ج٣ ، ص٢٠٥- ٢٠٧- حسن حسني عبدالوهاب ، المرجع السابق، ص ٨٢-٨٣ – أحمد بن عامر : نفسه ، ص ٩١-٩٥ .

(٤) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٤ .

(٥) الصفدي : نفسه ، الجزء الخامس ،ص ٤٧ – عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص٢٣١ .

خلوف أو مخلوف ابن مشرق السلمي (١) ، أو المسلمي ، وقد أشاد ابن رشيق بشعره فقال (٢) : (شاعر مطبوع . درب عذب الألفاظ ، واضح المعاني ، سهل الطريق ، حسن التلويح) . ومما اختار له من شعر يصفه بأنه (شعر سلسل غير شرس ، عذب الظاهر ، رطب المكاسر ، سالم من التعسف والإكراه ، يشرب شرباً ، ويلصق بالقلوب حبا) (٣) .

وشارك إقليم الجريد في نهضة إفريقية الشعرية خلال العصر الزيري ونستطيع أن نعد من أبرزهم يحيى بن علي بن زكريا الشقراطسي التوزري (٤) من مدينة توزر ، وهو أحد الفقهاء والشعراء المشهورين آنذاك، ويقول عنه الهادي مصطفى التوزري (٥) إنه كان عالماً بفنون الأدب وضروبه وعالماً بالنقد ، ويورد المعنى الدقيق في أسلوب الشعر الجاهلي ، ويري الهادي مصطفى التوزري (٦) كذلك أن شعر يحيى الشقراطسي خلا من الصنعة وألوان البديع ، وللشقراطسي قصيدة جيدة في رثاء الفقيه المالكي محمد بن أبي زيد القيرواني المتوفي عام ٣٨٦هـ .

---

(١) ترجم له ترجمة واسعة الصفدي : نفسه ،ج٣، ص ٤٧ - ويلقبه بالسلمي - عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ويلقبه بالمسلمي .

(٢) فيما ينقله عنه الصفدي : نفسه ج٣، ص ٤٧ .

(٣) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٤) لم تزودنا كتب طبقات علماء وفقهاء إفريقية بأي معلومات عنه ، وقد حصلنا على تقريظ لترجمته وحياته وفقهه وشعره لدى الهادي مصطفى القدزرتي : أعلام الأفارقة ، ص ٧-١٥ في معرض ترجمته للشاعر الفقيه المشهور عبدالله الشقراطسي ابنه .

(٥) أعلام الأفارقة ص ١٢-١٣ .

(٦) أعلام الأفارقة ، ص ١٣ .

على أن أشهر شاعر خلال عصر الزيريين أهدته مدينة توزر بإقليم الجريد هو بلامراء الشاعر الفقيه أبو محمد عبدالله بن أبي زكريا يحيى بن علي الشقراطسي (١) (ت ٤٦٦هـ) ، ابن يحيى المذكور آنفا. وبالطبع فليس ثمة ضير علينا . أو تثريب عددنا الشقراطسي من شعراء الفترة موضع الإهتمام . فقضاؤه جل عمره في الفترة موضع الاهتمام من جهة ، وذيوع شهرته من جهة أخرى ، كل ذلك خليق بأن لانغفل ذكره البتة .

وعلى أية حال ،فقد ولد عبدالله الشقراطسي في مدينة توزر ، وإن كنا نجهل تاريخ ولادته ، لما بلغ سن التعليم ، التحق بحلقات شيوخ بلده من علماء المالكية ، ومن بينهم والده يحيى ، حيث تلقى علوم الشريعة على أيديهم . وبعد أن ملأ إهابه من علم شيوخه في توزر ، ارتحل إلى القيروان عام ٤٢٩هـ ، فتلقى العلم على أيدى شيوخها ، وفي هذا كله كانت شاعريته تتفتق وتتكون وتنصقل ، ثم تاقت نفسه إلي الحج ، فارتحل إلى مكة المكرمة، حيث أدى الفريضة ، ثم عاد إلى بلده عن طريق مصر ، التي مكث فيها بعضاً من الوقت ، وفي توزر كرس نفسه للإقراء والتدريس حتى وافته المنية عام ٤٦٦هـ (٢) .

وفي الحق فإن شهرة عبدالله الشقراطسي لم تقم على مكانته في علوم الفقه وغيره ، ولكن على شهرته في فرض الشعر ونظمه ، فقد كان شاعراً

---

(١) تتبع ترجمة حياته وأشعاره ، الهادي مصطفى التوزري ، الذي ألف فيه كتاباً بعنوان : أعلام الأفارقة – عبدالله الشقراطسي .

(٢) الهادي مصطفى التوزري : – عبدالله الشقراطسي ص ١٦–٢٠ .

قوياً متبحراً متمكناً . ولقد قال الشعر في كثير من الأغراض ، في الغزل ، وفي الرثاء وفي الفخر ، وكان في كل ذلك مجلياً (١) .

لكن شهرته في الحقيقة بوصفه شاعراً لم تقم إلاّ بالقصيدة التي ذاعت وشاعت شرقاً وغرباً ، وهي القصيدة اللامية المعروفة (بالشنقراطسية في مدح خير البرية) ، وقصيدة عبدالله الشقراطسي هذه ، المسماة باسمه تعد من عيون وغرر قصائد المديح النبوي ، وهي (طويلة بديعة على نسق واحد في الترتيب والجودة ، وحسن السبك ، تعد أبياتها ١٣٥بيتا) (٢) .

والواقع أن القصيدة الشقراطسية – كما يخيل إلينا – ، ذات دلالات عديدة . منها أنها تعد دليلاً على مقدار حب أهل المغرب للرسول ﷺ ، ومنها أنها تعد خير مؤشر للمكانة السامية التي وصلتها الحركة الشعرية في إفريقية آنذاك ، وأنها كانت المثال المحتذي لكل قصائد المديح النبوي ، ولقد سبق الشقراطسي في قصيدته هذه بردة البوصيري بنحو قرنين من الزمان (٣) ، ويقول الهادي مصطفى (٤) إن البوصيري نسج بردته على غرارها بحراً ومعنى ، ولم يخالفها إلاّ في اللفظ والقافية .

ولقد ذاع صيت القصيدة الشقراطسية ، ولكن بين المغاربة بدرجة أوسع والمشارقة بدرجة أقل . وقد ظلت لفترة طويلة هدفاً للتفسير

---

(١) أنظر الهادي مصطفى التوزري : نفس المرجع أعلاه ،ص ٢٣-٣١ .

(٢) الهادي مصطفى التوزري : نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) الهادي مصطفى التوزري : نفسه ، ص ٣٢ .

(٤) نفسه ، ص ٣٢ .

والتخميس (١) .من جانب المغاربة . أما شروحاتها الكثيرة ، فقد اضطلع بها نفر عديد من المغاربة بصورة أوسع (٢) ، وكذلك نفر من المشارقة (٣) .

ولم يتخلف إقليم طرابلس عن المشاركة في النهضة الشعرية في إفريقية خلال عصر الزيريين ، فقد لمع فيه آنذاك شاعر معروف ، هو أبو الحسن على بن أبي اسحاق بن ابراهيم السوداني ، الذي كان شاعراً رقيق الشعر ، وله فيه ديوان (٤) . ويروى أنه كان على صلة صداقة بالأديب الشاعر ابن رشيق (٥) وقد بقى من شعره مقطوعة تقع في خمسة أبيات (٦) .

ولم يكن إقليم الزاب بعيداً أيضاً عن الإسهام في النهضة الشعرية الإفريقية حينئذ ، فقد برز فيه غير واحد من الشعراء ، نذكر منهم الأديب الشاعر المشهور أبا محمد عبدالله بن محمد التنوخي المعروف بابن قاضي ميلة (٧) ، وقد أثنى على شاعريته عدد من الأدباء مثل

---

(١) الهادي مصطفى التوزري : نفسه ، ص ٣٣-٣٨ .

(٢) الهادي مصطفى التوزري : نفسه ، ص ٣٩-٤١ .

(٣) أنظر كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ،ج٥، ص ١٠٨ -١٠٩ .

(٤) عبدالمنعم خفاجي : قصة الأدب في ليبيا ، ص ١٠٥ .

(٥) عبدالمنعم خفاجي: نفس المرجع أعلاه ، ص ١٠٥ -١٠٦ - أحمد مختار عمرو :نفسه، ص ٢٣٣ .

(٦) عبدالمنعم خفاجي : المرجع السابق، ص ١٠٦ - أحمد مختار عمرو : نفسه ، ص ٢٣٣ - ٢٣٤ مع الحواشي .

(٧) ترجم له حسنة ابن بسام: نفسه ، المجلد الثاني ، الجزء الثامن ،ص ٥٢٩-٥٣٦- ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب، ص ٤٨- ٤٩ - ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس، ص١٥٩-١٦٢ - عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ٢٠٩-٢١١ .

ابن رشيق (١) ، الذي يرى فيه شاعراً لسناً مقتدراً ، يميل إلى الاستعارة ، واستخدام الزجر والعياقة ، ويقتفي أثر الشاعر الأمرى المشهور عمر بن أبي ربيعة في نظم الحكايات والأقوال . أما ابن بسام (٢) ، فقد وصفه بأنه ضرب في الأدب بأعلى قدح ، وقال عن أشعاره بأنها (أشعار شاردة ، سارت على ألسنة الأنام ، وكتبت في جبهات الأيام) .

وقد أورد له أولئك الذين ترجموا له العديد من المقطوعات الشعرية الجيدة ، أشهرها القصيدة المدحية التي قالهافي مدح أمير جزيرة صقلية ثقة الدولة الكلبي (٣) .

---

(١) فيما ينقله عبدالرحمن ياغي : نفسه ،ص ٢٠٩ .

(٢) نفسه ، المجلد الثامن ،ص ٥٢٩- ٥٣٠ .

(٣) ابن بسام : نفسه ، ص ٥٣٠ -٥٣٦ - ابن دحية : نفس المصدر أعلاه والصفحات - ابن خلكان: نفسه - عبدالرحمن باغي : نفسه .

اللغـــــة والنحـــو

- اللغة والنحو في عصر الولاة .
- اللغة والنحو في عصر الأغالبة .
- اللغة والنحو في عصر الفاطميين .
- اللغة والنحو في عصر الزيريين .

اللغة والنحو :-

لعل من قبيل القول المكرر المعاد الإشارة بأن انتشار اللغة العربية قد رافق بالضرورة انتشار الإسلام ليس في إفريقية والمغرب فحسب ، بل وفي كل الأقطار المفتوحة ، وإلي جانب تأثير عامل حتمية انتشار اللغة العربية هذا ، تضافرت فيما يتصل بإفريقية والمغرب عموماء عوامل عديدة أدت إلى انتشار اللغة العربية حسبما أشرنا من قبل أثناء حديثنا عن عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية . ولقد أسهمت جميع تلك العوامل في تعريب البلاد المغربية . على أن المغاربة . وقد استفتحت أمامهم مغالق اللغة – ، لم يكتفوا بمجرد التأثر والتشبُّع باللغة العربية فقط ، ولابمجرد الانتصاب للإقراء والتدريس والتفرغ للرواية – على أهميته – ، فحسب ، ولكنهم انتقلوا إلى المشاركة والإسهام في إثراء علوم العربية عن طريق الغوص في استكشاف كنه وأداة التعبير تلك لغةً ونحواً ، ومن هنا فقد وجدنا أنفسنا أما أعداد كبيرة من أبناء البلاد ينقبون في علوم العربية ، فيستخرجون مادة غزيرة في اللغة والنحو والعروض ، وهي إن لم تكن مخترعة مبتكرة ، إلاَّ أنها أسهمت دون ريب في إرساء وتقنين قواعد اللغة والنحو التي حمل مدرستا الكوفة والبصرة مشعلها في المشرق ، كما هو معروف تاريخيا .

اللغـــة والنحـــو في عصر الـــولاة :

الحق أن طبيعة دراسات علوم العربية في هذا العصر لم تتعد مجرد الانتصاب للإقراء ، ورواية علوم اللغة والنحو على أبناء البلاد ولقد حمل لواء هذه الجهود لغويون ونحاة وافدون ، قدموا إلي إفريقية ، أما في رفقة بعض الولاة مثل يزيد بن حاتم المهلبي ، وإما قدموا برغبة ذاتية فردية منهم .

فمن أوائل اللغويين والنحويين الوافدين إلى إفريقية في هذا العصر عياض بن عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي (١) (ت ١٧٥هـ) . وعياض بن عوانة سليل بيت عربي ، أشتهر بالعلم والأدب والنحو ورواية الأخبار (٢) ، وقد ولد في الكوفة وعاش بها زمناً طويلاً ، تلقى خلال ذلك كثيراً من العلوم، ولكن النحو غلب عليه حتى اشتهر به (٤) ، ولقد قادته قدماه أخيراً إلي إفريقية ، حيث الأمير يزيد بن حاتم ومن خلفه من الأمراء المهالبة الذي كانوا يكرمونه وظل عياض يقيم في كنف المهالبة ويعلم أولادهم فترة من الزمن غير أنه لم يقتصر عليه وعلى أولاد الأمراء فحسب ، وإنما أغدقه

---

(١) ترجم له كل من : الزبيدي الأندلسي ، طبقات النحويين واللغويين ،ص ٢٢٦- ٢٢٧- القفطي : أنباة الرواة ، ج٢ ، ص ٣٦١ - ٣٦٣ - الفيروز أبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، ص ١٧٨- السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ص ٢٣٤- حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٥٦-١٦٠ .

(٢) الوحيد الذي أشار إلى هذا التاريخ ، هو حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ، والقسم ص ١٦٠ ، على أنه لايقطع بذلك ولكنه يغلب الظن في ذلك .

(٣) الزبيدي الأندلسي : نفس المصدر أعلاه ،ص ٢٢٦ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ص ١٥٧ (نقلا عن عدد من المؤرخين) .

أيضاً على عدد من أبناء (١) البلاد الذين بلغوا بعد لأي شأواً بعيداً ، في علوم العربية مثل أبي الوليد المهري وغيره ممّن سنترجم له في موضعه إن شاء الله .

ومن علماء النحو الوافدين على إفريقية كذلك في عهد الأمراء المهالبة ، وخاصة الأمير يزيد بن حاتم ، أبو على الحسن بن سعيد البصري (٢) (ت : ١٧٨هـ) (٣) ، وأبو علي الحسن بن سعيد البصري من العلماء الذين وصلتنا أسماءهم ولم تصلنا آثارهم . وغاية ماعرفناه عنه أنه كان في عِداد نحاة البصرة المعروفين وأنه كان كاتب سر الأمير يزيد ومباشر أمره ، وأنه بالإضافة إلى ذلك كان من كبار المترسلين وكتّاب الدواوين . (٤)

وعرف عهد الأمير يزيد بن حاتم المهلبي عالم لغة ونحو آخر ، هو أبو عبدالرحمن يونس بن حبيب الضبي بالولاء (٥) (ت ١٨٢هـ) . ويونس بن حبيب الضبي أحد نحاة البصرة المشهورين ، وجعله الزبيدي (٦) في الطبقة الخامسة للمدرسة النحوية البصرية ، وممّا يدل على عظم مكانته في النحو أنه سمع منه عدد من مشاهير اللغة والنحو كالكسائي والفراء وسيبويه (٧)

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٥٨ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ص ١٦١ .

(٣) كما يعتقد حسن حسني عبدالوهاب ، نفسه ،ص ١٦٢ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب ، نفسه ، ص ١٦٢ .

(٥) له ترجمه عند الزبيدي الأندلسي : المصدر السابق، ص٥١- ٥٣ حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ص ١٤٦- ١٤٨ .

(٦) نفسه ، ص ٤٦-٥١ .

(٧) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٤٦ .

وغيرهم ، وقد قدم إفريقية إلى الأمير يزيد بن حاتم الذي احتفى به كثيراً .
ويعتقد حسن حسني عبدالوهاب (١) اعتقاداً يقرب اليقين بأن يونس ابن حبيب هذا قد انتصب للإقراء والتدريس في القيروان ، حيث عكف على نشر علوم العربيـة والأدب بين أفـراد الجيل الإفـريقي الناهض آنذاك . على أن إقامة يونس النحوي لم تطل في إفريقية فمالبث أن عاد إلى موطنه البصرة (٢) حيث ظل هناك حتى توفى عام ١٨٢هـ كما أسلفنا آنفا .

والإضافة إلى هؤلاء النحويين واللغويين الذين قدموا إلى إفريقية في عهود الأمراء المهالبة ، هناك نحوى مشهور قدم إلى الأمير يزيد بن حاتم ، وهو قتيبة النحوي الجعفي (٣) الكوفي أحد كبار مدرسة الكوفة النحويه ، وجعلـه الزبيدي (٤) الأندلسي أحـد أفراد الطبقـة الثالثة من أتباع هذه المدرسـة – ولقد سمع منه عدد من مشاهيرها ، ثم قدم إلى أفريقية كمـا ذكرنا حيث ظل في كنف الأميـر يزيد بن حـاتم مـعززاً مكرمـاً . وبالطبـع فقـد مارس طيلة فترة بقائة في إفريقيـة تدريس علوم العربيـة ، حيث انتفـع به عـدد من أبناء البلاد الذين استهوتهم الدراسـات اللغـوية

---

(١) الورقات ، القسم الأول ص ١٤٦ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب ، نفسه ،ص ١٤٧ –١٤٨ .

(٣) ترجم له ترجمة قصيرة : الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص ١٣٥ –١٣٦ ، وقد أشار محقق الكتاب محمد ابراهيم أبو الفضل في حاشية رقم ١٠–ص ١٣٦– أنه ترجم لقتيبه : أبو نعيم صاحب كتاب تاريخ أصبهان وسماه قتيبه بن مروان ، وأبو محمد الإزاذاني ، وكذلك أشار المحقق إلى أن له كذلك ترجمة في أنباه الرواة للقفطي – حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٤٨ – ١٤٩ ، وقد ذكر أن اسمه قتيبه الجعفي النحوي فقط .

(٤) نفسه ، ص ١٣١ – ١٣٥ .

والنحوية من أمـثال أبي الوليـد المهـري وغيره (١) . ويروي له المؤرخون مـوقفاً علمياً نحوياً جرى له في مـجلس الأمـير يزيد بن حاتم مع الفقيه المشهور عبد الله بن غانم الرعيني الذي ترجمنا له من قبل ، دل على علو مكانتـه في علم النحو (٢) . بيد أن قتيبة مالبث أن غادر إفريقية إلى المشرق ، حيث ظل هناك حتى توفي بعد سن عالية كما يقول حسن حسني عبد الوهاب (٣) .

وأخيراً فإن ثمة عالماً لغوياً ونحوياً ينتمي إلى عصر الولاة هو : أبو مالك أمان بن الصمصامة بن الطرماح بن حكم (٤) . وأمان النحوي هذا ، وليس أبان كما ورد في بعض المصادر (٥) ، من بيوتات العرب المشهور آنذاك ، وجدُّه الشاعر المشهور الطرماح بن حكم المتوفي عام ١٠٠هـ وقدم والده الصمصامة إلى إفريقية في مطلع القرن الثاني الهجري واستقر هناك، حيث ولد له ابنه أمان هذا (٦) وكان أمان محل الثناء من قبل عدد من مـؤرخي طبقات اللغويين والنحويين لعلو مكانته في علوم العربية والأدب

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، والقسم ص ١٤٨ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، الجزء الأول ،ص ١٤٦ - حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ، والقسم ص ١٤٨- ١٤٩ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب ، نفسه ،ص ١٤٩ .

(٤) ترجمته موجودة عند : الزبيدي الأندلسي : نفسه ،ص ٢٢٥- ياقوت : معجم الأدباء ج٧، ص ٥١- ٥٢- الفيروز أبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة ص ٣- السيوطي بغية الوعاة ، الجزء الأول ، ص ٤٥٩- حسن حسني عبدالوهاب نفسه ،ص ١٦٠-١٦٣ .

(٥) وهو مايعتقد حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ١٦٣، من أنه ليس إلاّ تحريفاً من النساخ فحسب .

(٦) حسن حسني : نفسه ص ١٦٠ .

فالسيوطي (١) مثلا يقول عنه : (وكان عالماً باللغة والشعر حافظاً للقريض شاعراً) ، وكان أمان شأنه شأن غيره من كبار اللغويين والنحاة يتصدى للتدريس ورواية علوم العربية والأدب لطلبة إفريقية وقتذاك (٢) . ولم تسعفنا المصادر بشئ عن وفاته وأقصى ماعرفناه في هذا الصدد ، هو أنه عاش حتى عهد الأمير ابراهيم بن الأغلب الذي تولى (٣) الإمرة في عام ١٨٤هـ ، ولعل هذه الإشارة ، وإشارة الزبيدي الأندلسي الأخرى التي جعلت أمان وعياض بن عوانة على رأس طبقة النحويين واللغويين القرويين ، هي التي جعلتنا نعده في عداد لغوي ونحوي عصر الولاة .

اللغة والنحو في عصر الأغالبة :

المتتبع لمسيرة دراسات علوم العربية في إفريقية في عصر الأغالبة ، سيلحظ دون شك أن الدراسات اللغوية والنحوية توسعت خلال هذا العصر كماً ونوعاً ، فمن حيث الكم بدأت تلامس أسماعنا أسماء كثيرة لعلماء لغة ونحو أنجبتهم البلاد الإفريقية . والأمر الملفت للنظر في هذا الصدد هو أن الاهتمام بعلوم اللغة والنحو لم يكن قاصراً على أبناء القيروان فحسب ، وإنما شاركت بعض مدن وأقاليم إفريقية في إهداء البلاد عدداً من اللغويين والنحاة المعروفين ، وأما من حيث النوع ، فقد شرع أولئك العلماء الذين

---

(١) بغية الوعاة ، ج١ ، ص ٤٥٩ .

(٢) حسن حسني : نفسه ،ص ١٦١ .

(٣) أنظر السيوطي : نفسه ، ص ٤٥٩ – حسن حسني : نفسه ،ص ١٦٢– ١٦٣ .

سنترجم لهم على التو في تصنيف المؤلفات التي أسهمت في إثراء علوم العربية ، ليس على المستوى المحلي فحسب وإنما على مستوى الدولة الإسلامية أيضاً . ففي هذا مايؤكد وضوح أثر عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية بصفة عامة ، والأدبية بصفة خاصة .

وكيفما كان الأمر فإن من أوائل علماء اللغة والنحو في عصر الأغالبة، العالم اللغوي النحوي ابراهيم بن قطن المهري (١) ، شقيق عالم اللغة والنحو المشهور أبي الوليد المهري الذي سنترجم له بعد قليل . وفي الحق فإن معلوماتنا عن ابراهيم بن قطن المهري لاتزيد عن مجرد معرفة اسمه ، وأنه كان أحد علماء النحو في إفريقية ، وأنه كان أسبق في التخصص في علم النحو من أخيه إلاّ أن أخاه مالبث أن فاقه علماً وشهرة . ومكانة ، فلم يعد يعرف ابراهيم إلاّ القليل من الناس (٢) .

أما أشهر شخصية لغوية ونحوية عرفها العصر الأغلبي ، فقد كانت بلا جدال شخصية أبي الوليد عبدالملك بن قطن المهري (٣)

---

(١) مع ضآلة المعلومات التي وردتنا عنه ، فقد حرص عدد من المؤرخين على أن يأتوا بها في مؤلفاتهم ، مثل : القفطي : المصدر السابق ، ج١، ص ٢٠- ياقوت : معجم الأدباء ، ج١ ،ص ٢٠٨ - الصفدي : نفسه ، ج٢، ص ٩٤ - الفيروز أبادي : المصدر السابق ، ص ٧- السيوطي : المصدر السابق ،ج١ ، ص ٤٢٣ .

(٢) أنظر مثلا القفطي : نفس المصدر السابق ، والجزء والصفحه - السيوطي : نفس المصدر السابق والجزء والصفحه .

(٣) ترجم له كل من الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص ٢٢٩-٢٣٢ ، المالكي : نفسه ، ج١، ص ٣٢٢-٣١٤- الفيروز أبادي : المصدر السابق، ص ١٣٠- السيوطي : المصدر السابق ،ج٢، ص١١٤ .

(ت : ٢٥٦هـ) (١) ، فلقد أثنى عليه وعلى مكانته في اللغة والنحو عدد من المؤرخين ، فالزبيدي الأندلسي (٢) يقول عنه : (شيخ أهل اللغة والنحو والرواية ، ورئيسهم وعميدهم ، والمقدم في عهده وزمانه عليهم . وكان من أحفظ الناس لكلام العرب وأشعارها ووقائعها وأيامها ، وكانت الأشعار تقرأ عليه مجردة من الشرح ، فيشرحها ، ويفسر معانيها ، فلما دخلت المشروحات نظر طلبة العربية والنحو فيها ، وفيما كانوا رووا عنه منها ، فلم يجدوا في شرحه خلافاً لما قال أصحاب الشرح ، ولا وجدوا عليه في روايته وتفسيره شيئاً من الخطأ) .

وعبدالملك بن قطن المهري أحد الذين تتلمذ على كبار النحاة الذين قدموا إلي إفريقية في عصر الولاة من أمثال عياض بن عوانه، وقتيبة الجعفي النحوي ويونس بن حبيب الضبي(٣) وغيرهم ، كما أنه أخذ عن أمان بن الصمصامة (٤) أيضاً . وبالإضافة إلى علو كعبة في علوم العربية،

---

(١) هذا هو التاريخ الصحيح ، فقد ذكر المالكي : نفسه ، ص ٣٦٠ أنه عندما توفى الفقيه محمد بن سحنون عام ٢٥٦هـ رثاه الشعراء بقصيدة قدموا بها إلى المهرى لكي ينقدها نقداً أدبياً . ولقد تنبه إلي ذلك أيضاً حسين مؤنس محقق الجزء الأول من الرياض ، فقال في حاشية رقم (١) من ص ٣١٢ أنه توفى عام ٢٥٦هـ ، لكن دون أن يوثق معلومته الصحيحه هاته بما ورد في ترجمة محمد بن سحنون – أما الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣١– ٢٣٢، ومن أخذ عنه قالوا بأنه توفى عام ٢٥٣هـ ولاشك أن هناك خطأً تاريخياً لايستقيم مع ماذكرناه آنفا .

(٢) نفسه ، ص ٢٢٩– ٢٣٠ .

(٣) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٢٩– الفيروز أبادي : نفس المصدر السابق أعلاه والصفحة.

(٤) أنظر قبل ، ص ٧٤٢ .

كان شاعراً خطيباً بليغاً (١) ، وفوق هذا وذاك ، كان ناقدا معروفا ، وقد تجلت مكانته في مجال النقد عندما كانت تعرض عليه أشعار المراثي التي قيلت عند وفاة الفقية المشهور محمد بن سحنون عام ٢٥٦هـ (٢) .

وممَّا هو جدير بالذكر أن أبا الوليد المهرى خاض مجال التصنيف في علوم العربية ، فمن الكتب التي ذكر بأنه وضعها : كتاب الألفاظ ، وكتاب في اشتقاق الأسماء ممَّا لم يأت به قطرب (٣) وغير ذلك .

ومن علماء اللغة والنحو الذين اشتهروا في عصر الأغالبة أبو سعيد ابن حرب بن غورك (٤) ولاتزدنا المصادر للأسف توضيحاً عن كثير من جوانب ترجمته ، فلا تذكر لنا اسمه . ولاتوضح لنا سنة وفاته ، والأمر الوحيد الذي هدانا إلى وضعه ضمن لغوي ونحوي العصر الأغلبي ، هو أنه كان كما يفهم ممَّا روته المصادر معاصرا لأبي الوليد بن عبدالملك بن قطن المهري الذي ترجمنا له آنفا . أما عن مكانته في علوم العربية . فقد كانت واضحة لحسن الحظ ، فلقد روى الزبيدي الأندلسي (٥) أنه (كان يقال إنه أعلم من المهري بالقرآن وبحدود النحو ، وكان المهري أوسع منه رواية وأعلم باللغة والشعر) .

---

(١) الزبيدي : نفسه ،ص ٢٣٠ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٦٠ .

(٣) الزبيدي : نفسه ، ٣٠ : الفيروز أبادي : نفسه : ١٣٠- السيوطي : نفسه .

(٤) ممن ترجم له ترجمة لابأس بها ، الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص ٢٣٣- السيوطي : نفسه ، ج١، ص ٥٨٦ .

(٥) طبقات النحويين واللغويين ،ص ٢٣٣ .

ومن علماء اللغة والنحو الذين زهي بهم عصر الأغالبة بجانب ما ذكرناه ، أبو الأسود أحمد بن أبي الأسود (١) النحوي المكنى بأبي العباس (ت أواخر القرن الثالث الهجري) (٢) فلقد كان أحد علماء اللغة والنحو المعدودين آنذاك ، ووصفه الزبيدي الأندلسي (٣) بقوله : (وكان غاية في علم النحو واللغة ، وهو من أصحاب أبي الوليد المهري . وله أوضاع في النحو والغريب) . ومع أن الزبيدي (٤) أشار إلى أن لأبي الأسود النحوي (مؤلفات حسان) إلاّ أنه لم يعن هو ولاغيره ممّن ترجم له بالإشارة إلى أسماء تلك الكتب التي صنفها ، ولابما تضمنته من موضوعات، ومماً يجدر ذكره أن أبا الأسود كان بالإضافة إلى براعته في علوم العربية شاعراً مجيداً ، كما يقول الزبيدي (٥) .

ويعد العالم اللغوي والنحوي أبو عبدالله حمدون بن اسماعيل

---

(١) ترجمته موجوده عند الزبيدي : نفسه ، ص٢٣٣- ٢٣٤- القفطي : نفسه ، ج١-٣٢- ياقرت : معجم الأدباء ج٢، ص٢٣٠- ٢٣١- الفيروز ابادي : نفسه ، ص١٣- حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص١٦٣-١٦٤ .

(٢) لم يشر إلى وفاته أحد من أولئك المؤرخين القدامى ، والوحيد الذي حدد وفاته بأنهاكانت في آواخر القرن الثالث الهجري هو حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه وإلقسم ص ١٦٤- على أن في الحق لم يرو لنا سنده .

(٣) نفسه ، ص٢٣٣ .

(٤) نفسه ، ص ٢٣٣-٢٣٤ .

(٥) نفسه ، ص ٢٣٤ .

المعروف بالنعجة (١) (ت : ٢٨٥هـ) (٢) أحد أبرز علماء إفريقية المتأخرين في العصر إفريقية المتأخرين في العصر الأغلبي في علوم العربية ، ولقد وصفه الزبيدي (٣) فقال : (وكان مقدماً بعد المهري في اللغة والنحو ، وكان يقال إنه أعلم بالنحو خاصة من المهري ، لأنه كان يحفظ كتاب سيبويه) . وحمدون النعجة كان له أثر علمي تمثل في تصنيفة لكتاب في النحو كما يقول الزبيدي (٤) نفسه إلاَّ أنه لم يدلنا على عنوان ذلك الكتاب ، ولا على مايحتويه من موضوعات ، وبالإضافة إلى براعة حمدون النعجة في علوم العربية فقد كان كما ينقل حسن (٥) حسن عبدالوهاب عن الصفدي في كتابه : نكت الهيمان ، واحداً من علماء اللغة والنحو الذين كانوا ينتصبون للتدريس والإقراء في مجال تخصصهم .

وفيما يتصل بلغوي ونحوي بقية مدن وأقاليم إفريقية ، فرن لدينا لحسن الحظ معلومات عن ثلاثة من علماء اللغة والنحو وكلهم من مدينة

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٥ - ٢٣٦- القفطي : نفسه ،ج١، ص٣٣٢-٣٣٣- الفيروز أبادي - نفسه، ص ٧٥-٧٦- السيوطي : نفسه ،ج١، ص٥٦-حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٦٧-١٦٩ .

(٢) الحقيقة أن الذي أورد هذا التاريخ للوفاة هو حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ، القسم ص١٧٠، في حين أن الزبيدي ومن نقل عنه من المؤرخين السابقين قالوا إنه توفى بعد المائتين . ولاشك أن هناك فارقاً كبيراً بين التاريخين . لكن منطق الأحداث يؤيد ماذهب إليه حسن حسني عبدالوهاب لأن حمدون النعجه كان تلميذاً لأبي الوليد المهري المتوفي عام ٢٥٣هـ حسبما عرفنا في ترجمته .

(٣) نفسه ، ص ٢٣٥.

(٤) نفسه ، ص ٢٣٥ .

(٥) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٦٩..

واحدة هي طرابلس ينتمون إلى هذا العصر ، وهم من الذين اشتهروا في تخصصهم في علوم العربية تقريباً . فمن أوائل أولئك اللغويين الثلاثة : محمد بن صدقة المرادي الإطرابلسي (١) الأفريقي . ولقد وصفه الزبيدي (٢) بأن كان عالماً باللغة متقعراً في كلامه متجاوزاً الحد في ذلك . على أن الزبيدي لم يعن هو ولا من ترجم للمرادي بأن يمدنا بمعلومات أكثر تفصيلاً ممَّا ذكر، كما أنهم أغفلوا الإشارة إلى تاريخ وفاته .

والعالم اللغوي الثاني الذي أهدته مدينة طرابلس لدراسة علوم العربية هو خلف بن مختار (٣) الأطرابلسي (ت ٢٩٠هـ). ولقد وصفه (٤) الزبيدي بأنه (كان صاحب نحو ولغه) كما وصفه في موضع آخر بأنه كان ممَّن يقرض الشعر ويجيده .

أما عالم اللغة والنحو الثالث والأخير الذي أهدته مدينة طرابلس للحركة الأدبية عموماً ، وحركة علوم العربية خصوصاً خلال عصر الأغالبة، فهو الفقيه اللغوي الإباضي أبو عبيدة الأعرج . فلقد كان أبو عبيدة الأعرج بجانب اشتهاره بعلم الفقه والكلام ، عالماً باللغة . وممَّاينسب إليه أنه كان يقرئ الطلبة عدداً من مصنفات المشارقة ، ومن بينها كتاب اصلاح اللغة لعبد الله بن مسلم بن قتيبة (٥) .

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص٢٣٢ – القفطي : نفسه ، ج٣،ص١٥٢– الصفدي : نفسه ، ج١، ص١٥٢– السيوطي : نفسه ،ج١، ١٢٠ .

(٢) نفسه ، ص ٢٣٢ .

(٣) الزبيدي : ص ٢٣٧ – ٢٣٨ – القفطي : نفسه ، ج١، ص٣٥١– الفيروز أبادي : نفسه ،ص ٨٧.

(٤) نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٥) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٥٣ .

اللغة والنحو في عصر الفاطميين :

الواقع أنه ليس ثمة ما يميز دراسات العلوم العربية في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة ، فأغلب من أشتهر باللغة والنحو في هذا العصر كانوا من الذين عاصروا الدولتين : الأغلبية والفاطمية وإن كان هؤلاء أكثر تصنيفاً من سابقيهم الذين عاشوا كل حياتهم في العصر الأغلبي ، وإضافة إلى هذه الخصوصية التي ميزت بعض الشيء دراسات علوم العربية في العصر الفاطمي عن العصر الأغلبي عرف العصر الفاطمي تزايداً في عدد اللغويين والنحاة ، وبالإضافة إلى ذلك ، فقد عرف عن أحد الخلفاء الفاطميين، وهو الخليفة المعز لدين الله تضلعاً في علوم العربية بشقيها : اللغة والنحو ، وكذلك كان قاضيه وداعيته الأشهر النعمان بن حيون .

وعلى أية حال فإذا مضينا نبحث عن لغوي ونحوي عصر الفاطميين فإننا سنجد ذكراً لعالم لغوي ونحوي عاصر الدولتين الأغلبية والفاطمية ، وهو أبو محمد عبدالله بن محمد المكفوف (١) (ت : ٣٠٨هـ) وأبو محمد المكفوف أحد أبناء إفريقية المبرَّزين في علوم العربية التي تكاد تكون فنه أو تخصصه العلمي الوحيد . ولقد ذكره الزبيدي الأندلسي (٢) فقال عنه : (كان من أعلم خلق الله بالعربية والغريب ، والشعر وتفسير المشروحات ،

---

(١) ترجمته مبسوطة عند الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص٢٣٦- ٢٣٧- القفطي : نفسه ، ص١١٣-١١٤- السيوطي : نفسه ،ج٢، ص٦٢- ٦٣ .

(٢) نفسه ، ص ٢٣٦ .

وأيام العرب وأخبارها ووقائعها) وفي موقع آخر يقول عنه (١) : (وعليه قرأ الناس المشروحات ، وإليه كانت الرحلة من جميع إفريقية والمغرب ،وكان يجلس مع حمدون في مكتبه ، فربما استعار بعض الصبيان كتاباً فيه شعر أو غريب أو شئ من أخبار العرب فيقتضيه صاحبه فيه ، فإذا ألح عليه أعلم بذلك أبا محمد المكفوف ، فيقول له : اقرأه على ، فإذا فعل ، قال أعده ثانية، ثم يقول رده على صاحبه ، ومتى شئت فتعال حتى أمليه عليك) .

ولا شك أن رجلاً بهذه المكانة العالية في علمي اللغة والنحو لايستغرب منه أن يخوض غمار التصنيف في علمه الذي أحبه وقضى عمره قبه عمره فيه . على أن من بين ماذكر من كتب كثيرة له (أملاها في اللغة والعربية والغريب) لم يصلنا شئ عن أسماء تلك الكتب ، ولاعما تشتمل عليه من موضوعات ، وبجانب هذا روى أن له كتاباً في العروض نال شهرة عريضة وقتذاك ، كما روى أيضاً أن له (كتابا في شرح صفة أبي زبيد الطائي للأسد) (٢) ، وكانت له كذلك قيمته التي لاتنكر ، وممَّاهو جدير بالإشارة هنا أن أبا محمد المكفوف من أهل مدينة سرت بإقليم طرابلس .

ومن علماء اللغة والنحو الذين ينتمون إلى عصر الفاطميين كذلك اللغوي والنحوي الشاعر أبو بكر أحمد بن ابراهيم بن أبي عاصم اللؤلؤي (٣)(ت ٣١٨ هـ) الذي كان من أمهر العلماء في علوم اللغة وغريبها،

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٢) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٧ .

(٣) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٣- ٢٤٤- القفطي : نفسه ، ج١، ص٢٧-٢٨- ياقوت : المصدر السابق ، ج٢، ص٢١٨-٢٢٤- الصفدي : نفسه ، ج٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

وفي النحو ، كما كان مشهوراً بالحفظ أيضاً . وقد ترك اللؤلؤي كتاباً في الضاء والظاء لقي سمعة طيبة آنذاك (١) .

وممَّن أبرزهم هذا العصر من علماء اللغة والنحو ، أبو علي : الحسن ابن على السنجي المكفوف (٢) (ت٣٤٢هـ) ، الذي كان أحد اللغويين والنحاة الذين تلقوا علومهم على يدي أبي محمد اللغوي النحوي المكفوف الذي ترجمنا له آنفاً . وأثنى المالكي (٣) على مكانتة في علوم العربية فقال عنه مانصه : (وكان عالماً باختلاف العلماء واتفاقهم مع المعرفة الواسعة بالنحو واللغة وعلوم القرآن الكريم، وبالإضافة إلى اشتهاره بعلوم العربية ، كان مشتهراً بالزهد والتقلل من الدنيا ، وهو أيضاً ممن أوتى شيئاً من الشاعرية كما نص على ذلك المالكي (٤) . ولأبي على الحسن بن على المكفوف كتاب لغوي بعنوان : (أقيسه الافعال) ، على نمط الأمالي تصدي لجمعه بعض تلاميذه (٥) .

ومنهم أبو محمد حسين بن محمد التميمي العنبري الداروني المعروف

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٣ – القفطي : نفسه ، ص ٢٧ .

(٢) لم يترجم له من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين سوى الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٢ ، على أنها ترجمة وجيزة جداً لاتزيد عن سطر واحد ، ولكن الذي ترجم له ترجمه واسعة على أنه لغوي وزاهد وشاعر هو المالكي : نفسه ج٢، ص٤٠٦- ٤١٠ – ثم حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق، القسم الأول ص ١٧٠- ١٧٢ .

(٣) نفسه ،ج٢، ص٤٠٦ .

(٤) نفسه ، ج٣، ص ٤١٠ .

(٥) حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٧٢ .

بابن أخت العاهة (١) ت ٣٤٣هـ) وهو أيضاً ممَّن نال شهرة واسعة في وقته لبراعته في علوم العربية والأدبية والمعرفة الكبيرة بأخبار العرب وأيامها ووقائعها وأنسابها (٢) . ويبدو أنه كان أحد المنتمين (٣) لغوياً ونحوياً إلى مدرسة الكوفة التي كانت تتقاسم زعامة علوم العربية مع مدرسة البصرة .

على أن أشهر شخصية لغوية ونحوية انتمت إلى عصر الفاطميين ، كان بلا مراء العالم اللغوي والنحوي ذائع الصيت أبو القاسم ابراهيم بن عثمان المعروف بابن الوزان (٤) النحوى (ت ٣٤٦هـ) وفي الحق فإن ابن الوزان لا يعد أحد أئمة اللغة والنحو في عصره فحسب ، وإنما في الفترة موضوع البحث ، ولقد أفاض الزبيدي الأندلسي(٥) وممَّن جاء بعده في الثناء عليه وعلى مكانته في علم العربية . فقال في معرض ترجمته له (.وهو يعد إمام الناس في النحو وكبيرهم في اللغة و عظيمهم في العربية والعروض) وفي موضع آخر يقول مانصه : (وانتهى من اللغة والعربية إلي مالعله لم يبلغه أحد قبله ، وأما في زمانه فما يشك فيه) .

---

(١) ترجم له كل من : الزبيدي : نفسه ، ص٢٤٥- ٢٤٧- الفيروز ابادي : نفسه ، ص ٦٦٠- السيوطي : نفسه ،ج١، ص ٥٤٠- والجزء الثاني ، ص ٤١ .

(٢) الزبيدي : نفسه ،ص ٢٤٦ .

(٣) الزبيدي : نفسه ،ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٤) الزبيدي : نفسه ، ص٢٤٧-٢٤٩- القفطي : نفسه ،ج١، ص١٧٢-١٧٤- ياقوت : المصدر السابق، الجزء الأول ،ص ٢٠٣-٢٠٤ - الصفدي : نفسه ، ج٦،ص٥٠ -٥١ السيوطي ، نفسه، ج١، ص٤١٩ .

(٥) نفسه ، ص ٢٤٧ .

ولقد اشتهر ابن الوزان بحافظته الكبيرة ، فلقد روى أنه كان يحفظ أمهات كتب اللغة التي ألفها أئمة اللغة العظام من أمثال الخليل بن أحمد وابن السكيت والفـراء ، وسيبويه ، وغيرهم (١) . ويقول الزبيدي الأندلسي (٢) أنه كان يميل إلى مدرسة البصرة اللغوية والنحوية ، مع علمه بمدرسة الكوفة . ولقد بالغ بعض واصفيه فقال إنه لو قيل إنه أعلم من العالمين اللغويين المشهورين : المبرد ، وثعّلب لما جافى الحقيقة في قوله (٣) . وممًّا يدل على مكانته في اللغة بصفة خاصة إنه خطَّأ الإمام الشافعي ، وهو من هو في علوم العربية فيما ذهب إليه من تفسير بعض ألفاظ القرآن الكريم (٤) . على أن ابن الوزان على إمامته في علوم العربية بشقيها : اللغة والنحو ، إلاَّ أنه لم يحفظ عنه أنه أسهم في التصنيف في مجال تخصصه ولعله اكتفى بالإقراء والتفرغ للرواية .

وبالإضافة إلى هؤلاء اللغويين والنحاة المشهورين نستطيع أن نضيف إليهم عدداً آخر ممَّن نص على أنه كانوا لغويين ونحاة عاشوا في عصر الفاطميين ، كأبي سعيد عثمان بن سعيد المعروف بالصيقل (٥) (ت في الأندلس عام ٣٣٠هـ) وعامر بن ابراهيم بن العباس الفزاري (٦) ، وعبدالله

---

(١) الزبيدي : نفسه .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٧ .

(٣) الزبيدي : نفسه ،ص ١٤٧ .

(٤) الزبيدي : نفسه ،ص ٢٤٩ .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق القسم الأول ص ٢٤٩-٢٥٠ .

(٦) القفطي : نفسه ،ج٢، ص٣٨٣- الفيروز ابادي : نفسه ، ص ١٠٢ - السيوطي : نفسه ج٢، ص ٢٤٩ .

ابن عبدالله الجهني القياس (١) النحوي (٢) ، وغيرهم . على أنه فيما عدا الإشارة إلى أسمائهم والتنويه باشتهارهم بعلوم العربية ، لم نعثر لهم على مايشير إلى تصديهم للإقراء والتدريس ، فضلا عن التصنيف .

وبوسعنا أخيراً أن نعد الخليفة المعز لدين الله أحد الذين نبغوا في علمي اللغة والنحو ، بالإضافة إلى الجوانب العلمية الأخرى التي لمع فيها ، فلدينا في الحقيقة العديد من الشواهد ، التي تدل على ذلك ، فلقد روى القاضي النعمان بن حيون في كتابه المجالس والمسايرات (٣) أن المعز طلب ذات مرة من أحد أئمة النحويين المشهورين في وقته وهو القزاز القيرواني(٤) تأليف كتاب في النحو ، وإن لم يشر النعمان إلي المادة التي اقترح الخليفة على القزاز أن يضمنها كتابه ، سوى مارغب فيه الخليفة من أن يأتي الكتاب مخالفاً لرأى العالم اللغوي ، والنحوي المشرقي المشهور أحمد بن يحي بن ثعلب (ت٢٩١هـ) في المجال نفسه بالطبع ، ومماً ذكره القاضي النعمان (٥) عن براعة الخليفة المعز اللغوية والنحوية أن الخليفة كان كثيراً مايعقد حلقات مجلسه مع كبار العلماء ، تناقش فيها كثير من

---

(١) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٤٣ .

(٢) ص ١٣٤ .

(٣) ص، ١٣٤ .

(٤) الحقيقة أن النعمان لم يسم النحوى الذي طلب إليه الخليفة المعز تأليف ذلك الكتاب في النحو ولكن المنجي الكعبي في الكتاب الذي ألفه عن العالمي اللغوي والنحوي الإفريقي المشهور القزاز القيرواني و الذي أطلق اسمه على الكتاب نفسه أشار إلى ذلك . وقال بأن الخليفة المعز طلب من القزاز تأليف ذلك الكتاب في النحو .

(٥) المجالس والمسايرات ، ص ١٥٩ - ١٦٤ .

القضايا اللغوية والنحوية ، وأقوال أئمة اللغة والنحو المشارقة المشهورين من أمثال الخليل بن أحمد ، وابن قتيبة ، وغيرهما وكان المعز يدلي في تلك الحلقات بأقوال علمية ينقض فيها آراء أولئك اللغويين المشارقة ويدحضها مماً يدل على تمكنه من فقه اللغة والنحو . وفي بعض الأحيان كان الخليفة كثيراً مايعمد إلى طرح أحاج نحويه على أتباعه الذين يعجزون عن فك معانيها (١) على أن الشئ الجلي الواضح الذي أشار إليه القاضي النعمان(٢) ، هو أن الخليفة كان يفسر الكثير من القضايا اللغوية سواء تلك التي كان يرد بها على اللغويين المشارقة، أو تلك التي كان يطرحها على شكل أحاج نحويه بمنظور اسماعيلي تأويلى باطني ، أكثر منه بمنظور لغوي ونحوي صرف .

ويمكننا أن نعد أيضاً القاضي النعمان بن حيون الذي تردّد اسمه كثيراً فيما سبق من تقويم لبعض جوانب الحياة العلمية في العصر الفاطمي، أحد الذين عنوا بعلوم العربية عن طريق تأليفه لكتاب لغوي ، هو : (الرسالة ذات البيان) التي صنفها في الرد على العالم اللغوي الكوفي عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٣) (ت٢٩٦هـ) ، حسبما يومئ بذلك عنوان الرسالة .

---

(١) القاضي النعمان : المجالس والمسايرات ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ ، وأنظر الحواشي كذلك في نفس الصفحات .

(٢) نفس المصدر السابق أعلاه ، ١٦٢ -١٦٤ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ٤٧٦- ٤٧٧- حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص٢٦١ .

وفيما يتصل بلغوى ونحوي بقية مدن وأقاليم إفريقية فقد ذكر بأن الفقيه المالكي يوسف بن عبدالله القفصي التميمي (ت٣٣٦هـ) الذي ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن الدراسات الفقهية والحديثية ، كان يجمع إلي براعته في ذلك ، البراعة في اللغة والنحو والأدب عموماً . وقد صنف كتاباً في اللغة عبارة عن مناقضة لعالمي اللغة المشرقيين : أبي عبيدة بن سلام ، وابن قتيبة (١) .

وعرف إقليم طرابلس في عصر الفاطميين نفراً من اللغويين والنحويين، منهم محمد بن سالم الإطرابلسي المعروف بالعقعق (٢) ، الذي كان ماهراً في علوم اللغة والنحو ، بالإضافة إلى نظم الشعر وكذلك أبو بكر محمد بن مؤمن بن محمد الكندي (٣) البرقي النحوي (ت٣٥١هـ) وكان مشتهراً بالبراعة في علم النحو ، الحديث .

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٣٥٦- حسن حسني عبدالوهاب ، المرجع السابق، القسم الأول ، ص ١٧٢-١٧٣ .

(٢) الزبيدي : نفسه ، ص ٢٣٩ - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٥٧- صالح مفتاح : الرسالة السابقة ،ص ٢٣٥ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ٢٥٧ .

اللغة والنحو في عصر الزيريين :-

شمل التطور والرقي علوم العربية في العصر الزيري مثلما شمل كافة ضروب الأدب التي عرضنا لها من قبل ، وإن كانت لم تواكب الإزدهار الكبير الذي عرفته الحركة الأدبية : النثرية والشعرية في هذا العصر توسعاً وعطاءً . وفي الحق فإنه ليس ثمة مايميز دراسات علوم العربية في العصر الزيري عن عصر الفاطميين ، فجل من استهر بالدراسات هذه كانوا من الذين عاصروا الدولتين الفاطمية والزيرية ، وإن كان عددهم قد ازداد هنا ، وصبغت مصنفاتهم مسحة من التعمق أو العمق العلمي ، وبالإضافة إلى هذا ، فإن ثمة أمر تميزت به الدراسات اللغوية والنحوية في العصر الزيري ، وهو أن كثيراً من علماء علوم القرآن ، كانوا في نفس الوقت علماء لغة ونحو، وأن أكثر مؤلفاتهم في علوم القرآن ، لارتباط علوم القرآن بعلوم العربية ، أي اللغة والنحو .

ومهما يكن من أمر فإن من أوائل علماء اللغة والنحو في العصر الزيري عبدالعزيز بن أبي سهل الخشني النحو اللغوي القيرواني ، المعروف بابن البقال (١) الضرير كما نعتقد (٢) ولقد كان ابن البقال من أئمة اللغة

---

(١) ترجم له ترجمة لابأس بها القفطي : نفسه ، ج٢ ،ص ١٧٨- ١٨٠ - (وقد أشار محقق الكتاب في حاشية ص ١٧٨ إلى حوالي ستة مصادر وردت فيها ترجمته الخشني الضرير) - عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٥٩-١٦٠ .

(٢) ومرد ذلك الاعتقاد يرجع إلى اعتبارات ثلاثة أولها أن المنجي الكعبي مؤلف كتاب القزاز القيرواني ، يعد الخشني أحد شيوخ القزاز المغاربة ، وليس ثمة مايمنعنا من الأخذ =

والنحو في إفريقية آنذاك ، مشهوراً فيهما (مفتقراً إليه فيهما)(١) وهو بالإضافة إلى ذلك كان شاعراً مرموقاً رائق الشعر (٢) . على أننا فيما عدا مايمكن أن نفهمه من كلام ابن رشيق ، من أنه كان منتصباً للإقراء والتدريس ، لم نتبين له أي مشاركة في التصنيف في علوم العربية تلك . ولعله وقد غدا مرجعاً في اللغة والنحو قد اطمأن إلى خلود علمه وبقائه في صدور وتلاميذه ، دونما الحاجة إلى التصنيف .

على أن اشهر شخصية لغوية ونحوية عرفها العصر الزيري كان الأديب الثائر الناقد الشاعر أبو عبدالله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز القيرواني (٣٢٢-٤١٢هـ) والقزاز القيرواني رأيناه أديباً بارعاً بما يسهم به في إثراء للحركة النثرية التأليفية، ورأيناه شاعراً جيد الشاعرية، والجانبان الأدبيان الآخران اللذان لم نتبينها في شخصيته العلمية هما علماء اللغة والنحو .

والواقع أن تبريز القزاز القيرواني في الجوانب الأدبية التي سبق لنا أن عرضنا لها من قبل ، لاتعد شيئاً على أهميتها - أمام مكانته في علوم

= بذلك - والإعتبار الثاني هو أن ابن رشيق يصرح فيما ينقله عنه القفطي : نفسه والجزء ،ص ١٧٨، بأنه قد أدركه عندما نزل القيروان لأول مرة وقد تجاوز السبعين وفي رواية أخرى التسعين، ومعلوم أن ابن رشيق قد جاء إلى القيروان لأول مرة عام ٤٠٦هـ - كما يقول كارل بروكلمان : المرجع السابق وغيره ، ج٥ ، ص ٣٤٣، وغيره ، والإعتبار الثالث ان ابن البقال الخشني الضرير قد عاصر الأمير باديس بن المنصور (٣٨٦-٤٠٦هـ) وأنه كان يجل الخشني كما صرح بذلك ابن رشيق فيما ينقله القفطي : نفسه ، ص ١٧٩ .

(١) القفطي : نفسه ،ص ١٧٨ .

(٢) عن شعره وتقريظ ابن رشيق ، أنظر القفطي : نفسه ، ص١٧٩- ١٨٠ ، عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٥٩- ١٦٠ .

العربية – ذلك لأن علوم العربية هي التي غلبت عليه (١) ، وهو الجانب الذي (فضح به المتقدمين ، وقطع ألسنة المتأخرين) (٢) ، وهي التي قامت على أساسها شهرته العلمية والتي جعلت مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين (٣) يحرصون على وضعه بالصفة التي غلبت عليه وهي النحو في عداد اللغويين والنحاة الذين عرفتهم الدولة الإسلامية .

ولقد قلنا ونحن نتحدث عن مؤلفاته الأدبية فيما سبق من حديث عن النثر التأليفي في عصر الزيريين ، إن القزاز عاش فترة طويلة من عمره في العصر الفاطمي ، وأنه بلغ آنذاك من المكانة والتجلة – ماجعلت الخليفة المعز لدين الله يصطحبه معه إلى مصر عام ٣٦٢هـ ، إلا أنه مالبث أن عاد إلى بلده إفريقية ، حيث ظل هناك حتى عام ٤١٢هـ ، ومن هنا فليس غريباً أن تتوثق الصلة بين الرجلين إلى الدرجة التي يطلب فيها الخليفة من القزاز تأليف كتاب في النحو على ماسنعرف بعد قليل .

ومما يجدر ذكره وينهض في نفس الوقت دليلاً على مكانة القزاز اللغوية والنحوية أنه ارتحل إلى بغداد ، وإن كنا نجهل متي تم ذلك ؟ فقابل هناك العالم المشهور الآمدى العراقي صاحب كتاب : الموازنة ، حيث تتلمذ

---

(١) القفطي : نفسه ، ج٣ ، ص ٨٤ – السيوطي : نفسه ، ج١، ص ٧١ .

(٢) ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ١٢٥ – القفطي : نفسه .

(٣) أنظر حاشية الصفحة ٨٤ من الجزء الثالث من كتاب القفطي : إنباة الرواة على أنباة النحاة ، حيث الإشارة إلى من كتب عنه من مؤرخي طبقات اللغويين والنحاة وغيرهم .

عليه (١) ، ولا يستبعد المنجي الكعبي (٢) أن يكون القزاز قد قابل غير الآمدي ، عدداً من أساطين اللغة والنحو آنذاك .

ومهما يكن من أمر ، فإن القزاز القيرواني أسهم في إثراء وإرواء الدراسات اللغوية والنحوية بمصنفاته العديدة ، ذات العمق العلمي ، الذي أهلّها لكي تحتل مكانها بين مصنفات اللغة والنحو على مستوى الدولة الإسلامية .

وبالإضافة إلى نشاطه العلمي المتمثّل في التصنيف كان له نشاط علمي آخر تمثل في التصدي للتدريس والإقراء والرواية ولعل من أشهر من تتلمذ عليه كما هو ثابت ، الأديب الشاعر ابن رشيق ، الذي أخذ عنه علوم اللغة والنحو ، ويبدو أنه قد تأثر تأثراً كبيراً بإستاذه وبآرائه اللغوية والنحوية والنقدية ، فيما كتب من مصنفات ، كما توحي بذلك المادة الطبية التي وردت فيها آراء القزاز في كتب ابن رشيق كالعمدة وغيره . (٣) .

وممّن تتلمذ على يدى القزاز القيرواني الأديب الشاعر الناقد ابن شرف القيرواني ، وكذلك الحسن بن محمد التميمي النحوي التاهرتي المعروف بابن الربيب (٤) ، الذي سبق أن عرضنا له من قبل عند حديثنا عن النثر الفني ، ومن تلاميذه كذلك عالم القرآءات المشهور مكي بن أبي طالب

---

(١) المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص٦ ، ٢٣-٣٣ .

(٢) نفس المرجع أعلاه ،ص ٣٣ .

(٣) أنظر المنجي الكعبي : نفسه ، ص٣٦، ٨٢- ٩٩ (حيث الإشارة إلى صفحات العمدة التي ورد فيها تأثير القزاز في تلميذه ابن رشيق) .

(٤) المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٢٦ -٢٧ .

القيسي المتوفي عام ٣٢٧هـ ، وقد قرأ عليه كتاب الظاء والضاد ، وكتاب الحروف ، وكتاب المثلث (١)، وغير ذلك، ومنهم عبدالرحمن بن عبدالله المطرز وهو الذي نقل كتاب القزاز : مايجوز للشاعر في الضرورة (٢) وغير ذلك .

ومهما يكن فإن من أهم مؤلفات القزاز القيرواني في اللغة سبع مصنفات، هي الجامع والمثلث ، وكتاب فيه ذكر شئ من الحلي والعشرات ، والمئات ، والضاد ، الظاء ، والكلمات المشاكلة الصور (٣) .

أما كتاب الجامع فهو من كتب المعاجم اللغوية ، وهو كتاب كبير يقع في نحو خمسة عشر مجلداً ، أو نحواً من ذلك ، وقد اثنى عليه كثير من المؤرخين ، ووضعوه في مرتبة أشهر المعاجم اللغوية كصحاح الجوهري ، وككتاب التهذيب لأبي منصور الأزهري (٤) وغيرهما، وقد رجح المنجي الكعبي (٥) - بعد بحث مضن - أن الكتاب هذا للقزاز القيرواني وليس لأحد غيره كما توهم البعض من المؤرخين .

أما كتاب المثلث ، فهو على غرار ماجاء في أمثاله من اهتمام بايراد الكلمات التي على صورة واحدة ، وتحمل مع ذلك ثلاثة معان مختلفة ، بحسب الحركات الثلاث ، الفتح والضم والكسر(٦) . (وكتاب فيه ذكر شئ

---

(١) المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٢٧ .

(٢) المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٢٧ .

(٣) المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٢٥ .

(٤) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٥٦، ٦٠- ٦٢ .

(٥) المنجي الكعبي : ص ٥٦- ٦٠ .

(٦) للاستزاده عن هذا الكتاب وموضوعاته ، أنظر المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٦٢-٦٤ .

من الحلي ، هو عبارة عن كتاب صنفة القزاز متتبعاً الصفات الخلقية للبشر وهو صغير الحجم وقد يعد رسالة أوكتيب أكثر منه كتابا (١) .

والكتاب الرابع هو كتاب العشرات ، وموضوعه ، البحث في (المعاني المفترقة التي يعبر عنها بألفاظ متفقة) ، أي أنه يتعلق بالحديث عن اللفظة ومعانيها المختلفة التي تصل إلى عشرة ألفاظ . وهو على غرار ما ألف في المشرق قبل بعض اللغويين والنحاة (٢) . أما الكتاب الخاص فهو (كتاب المئات) ، وهو على نسق كتاب العشرات ، وإن كان بالطبع القصد منه الإتيان بمئات اللفظات التي يعبر عنها بألفاظ مختلفة (٣) .

والكتاب السادس هو : الضاد والظاء ، وهو موضوع طرقه الكثير من علماء اللغة والنحو من المشارقة والمغاربة والأندلسيين (٤) أما الكتاب السابع والأخير فهو كتاب : (الكلمات المشاكلة الصور) وهذا الكتاب لم يشر إليه في الحقيقة أي من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين ، ولكن المنجي الكعبي استنتج أن يكون أحد كتب القزاز اللغوية ممًا ورد عرضاً له أثناء الحديث عن كتاب الحروف الذي سنتطرق إليه بعد قليل . وعلى كل فموضوع الكتاب هو البحث فيما يجيئ من الكلمات المشاكلة الصور في الأمر والنهي والصفة (٥) .

---

(١) راجع بشأن هذا الكتاب : وماجاء فيه موسعاً : المنجي الكعبي ، نفسه ، ص ٦٤– ٦٧ .

(٢) أنظر عنه : المنجي الكعبي : نفسه ،ص ٦٧ – ٧٢ .

(٣) المنجي الكعبي : نفسه ، ص٧٢ .

(٤) المنجي الكعبي : ص ٧٢ – ٧٣ .

(٥) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٧٣– ٧٥ .

وللقزاز مؤلفات في النحو مهمة ، يصل تعدادها إلى خمسة كتب هي كتاب الحروف واعراب الدريدية وشرحها ، وكتاب المعترض ، وكتاب المفترق، ثم كتاب مايجوز للشاعر في الضرورة .

أما كتاب الحروف فسنؤجل الإشارة إليه إلى مابعد الحديث عن كتبه الأربعة الأخرى سالفة الذكر ، أما كتاب إعراب الدريدية وشرحها ، فموضوعه شرح وإعراب قصيدة العالم اللغوي البصرى المشهور أبو بكر بن دريد (ت : ٣٢١هـ) المعروفة الشهيرة بالمقصورة وقد احتذى القزاز في شرحها واعرابها حذو كثير من الشعراء واللغويين والنحاة الذين تأثروا بمقصورة ابن دريد ، وأما كتاب مايجوز للشاعر في الضرورة ، فهو كتاب كما يؤمئ عنوانه ، يبحث عن الضرائر الضرورات النحوية التي تبيح ضرورة الوزن والقافية للشاعر أن يتجاوزها وفيما يتصل بكتابي : المعترض والمفترق، فليس ثمة معلومات عنهمافيما عدا ماذكر عن نسبتهما للقزاز القيرواني (١) هذا ولم يعن المنجي الكعبي بالبحث عن الموضوع الذي يقومان عليه .

أما كتاب الحروف الذي أجلنا الحديث عنه ، فهو أشهر كتب القزاز النحوية على الإطلاق ، وفي الحق فإن لنا قبل أن نتصدى للحديث عن موضوعه وعن المكانة التي بلغها وقفتين تجاهها . أما الوقفه الأولى ، فهي أننا كنا قد ذكرنا عند حديثنا عن اللغة والنحو في العصر الفاطمي ، أن

---

(١) عن هذه المصنفات أنظر المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٤ - ٤٥ - ٥٥ .

الخليفة الفاطمي المعز لدين الله طلب كما أشار القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات من أحد أئمة اللغة والنحو السنَّة ، أن يؤلف كتاباً في النحو ، وضح له طريقة صنعه اعتمادا على ماقاله كثير من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين كالقفطي وغيره ، أشار إلى أن ذلك النحوي واللغوي هو أبو جعفر محمد بن عبدالله القزاز القيرواني ، الذي نعرض له الآن .

وفي الحق فإن القاضي النعمان فضلاً عن إغفاله اسم ذلك النحوي لم يذكر فيما إذا كان النحوي قد نفذ المهمة التي طلبها منه الخليفة ، أم لا ، بدليل قول القاضي (١) النعمان أن ذلك النحوي قد تعاظم التأليف في الموضوع الذي طلب منه الخليفة ان يصنِّف فيه ؟ مع أنه من غير المعقول أن يجرؤ على مخالفة أمر الخليفة .

والآن وقد أوضحنا هذه النقطة ، نجد في المقابل إصراراً من قبل مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين على أن ذلك النحوى، هو القزاز القيرواني ،هذا أولا ، والشئ الثاني هو حشدٌ من المعلومات عن عنوان الكتاب ، هو كتاب الحروف ، وقد جاء على مارسمه له الخليفة من نهج - وهنا اتفاق بين الروايتين على الأقل فيما يخص موضوع الكتاب - والشئ الثالث أن القزاز قد ألَّف الكتاب فعلاً حسب رغبة الخليفة ، وبصورة فريدة غير مسبوقة ممَّا دعى الخليفة إلى أن يثني عليها ويشيد بها (٢) .

---

(١) كتاب المجالس والمسايرات ، ص ١٣٤ .

(٢) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٥- ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨- ٤٩ .

وبناءً على كل هذا،فإننا لانملك إلاّ أن نرجح الرواية السنية (١) ، ولاسيما وهي مليئة بالمعلومات المهمة التي أشار إليها عرضاً القاضي النعمان ، وأن نطرح الرواية الشيعية مع أخذ مايتفق وما أشرنا إليه منها . وممّا نود الإشارة إليه أخيراً أن المنجي الكعبي لم يشر من قريب ولا من بعيد إلى رواية القاضي النعمان هذه التي عرضنا لها نحن ، وكذلك لم يفعل مؤرخو الطبقات قبله .

أما الوقفة الثانية ، فهي أن المنجي الكعبي (٢) أثبت بعد بحث طويل ، دقيق في الرد على أحد الباحثين التونسيين وهو الشاذلي بويحي – أن كتاب الحروف هو كتاب نحوي صرف ، وهو غير كتاب الجامع اللغوي كما ظن الشاذلي بويحيى . وفي الحقيقة فإن المنجي الكعبي بعد بحثه الدقيق ذلك لم يترك مجالاً للشك بأن كتاب الحروف هو فعلاً غير كتاب الجامع (اللغوي).

وأخيراً ، فإن الموضوع الذي قام على أساسه كتاب الحروف هو شرح الحروف التي روى النحاة أنها قد جاءت لمعنى ، وقد أجراه المؤلف على حروف المعجم . وهو كتاب مشهور كما ذكرنا من قبل ، ويقع في ألف

---

(١) يجب أن نشير إلى أن أحد المصادر السنية وهو وفيات الأعيان لابن خلكان يعزو إلي العزيز بالله ابن المعز لا إلى المعز الطلب من القزاز تأليف كتاب الحروف ، ولكن يبدو أن تلك رواية ضعيفة فالثابت أن الخليفة المعز هو الذي طلب من القزاز ذلك كما تشير أغلب المصادر السنية ، وكذلك رواية القاضي النعمان . عن رواية ابن خلكان : أنظر المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٨– ٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٤٦– ٥١ مع الحواشي .

ورقة (١) ، ويرى المنجي الكعبي (٢) أن القزاز كان صاحب السبق إلى ذلك المعنى والنهج النحوي البحث دون غيره من النحويين واللغويين الذين ألفوا في ذلك المعنى ولكن بطريقة مختلفة قبل وبعد القزاز .

ومن لغويي ونحويي إفريقية في العصر الزيري ، ممّن وردتنا إشارات عديدة ، لصفتيهم اللغوية والنحوية ، عبدالعزيز بن خلف النحوي المغربي (٣) الذي كان بالإضافة إلى مهارته في علم اللغة والنحو ، شاعراً بارعاً . ويقدر عبدالرحمن ياغي (٤) أن عبدالعزيز بن خلوف النحوي ، كان أحد شيوخ ابن رشيق الذين تلقى عنهم علوم العربية .

ومن اللغويين والنحويين المعروفين آنذاك بإفريقية أبو الفضل جعفر بن أحمد النحوي الذي يقدر عبدالرحمن ياغي أيضاً أنه أحد شيوخ ابن رشيق اللغويين والنحاه ، ولانعرف لأبي الفضل جعفر النحوي آي جهود علمية تضعه في مصاف علماء اللغة والنحو سوى ما أشار إليه ابن رشيق في كتابه العمدة من آراء لغوية ونحوية له في غاية من الأهمية (٥) .

وبوسعنا أن نعد عالم القرآءات القيرواني الأصل والمنشأ الأندلسي السكني والوفاة ، مكياً بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) من علماء اللغة

---

(١) المنجي الكعبي : نفسه ، ص ٤٦- ٤٧ ، ٤٩ .

(٢) نفسه ، ص ٥٢ - ٥٣ .

(٣) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٧١ - ١٧٥ ، . نقلا عن عدد من مؤرخي طبقات اللغويين والنحويين كما القفطي والسيوطي وابن فضل الله العمري وغيرهم) .

(٤) حياة القروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ١٧١ .

(٥) عبدالرحن يغي : نفسه ، ص ١٨٠- (نقلا عن غير واحد من مؤرخي الطبقات) .

والنحو في إفريقية في عصر الزيريين ، وقد رأيناه يتلمذ على القزاز القيرواني ، ويقرأ عليه بعض كتبه . ومكي بن أبي طالب يعد لغوياً ونحوياً ، لأنه بجانب كتبه ذات الصبغة اللغوية والنحوية التي أشرنا إليها في الحديث عن علم القرآءات في العصر الزيري له كتب في النحو صرفة، مثل : (كتاب الزاهي في اللمع الدالة على أصول مستعمل الإعراب) ويقع في أربعة أجزاء وكتاب (دخول حروف الجر بعضها مكان بعض) وكتاب : (أصول الظاء في نحو وقرآءات القرآن والكلام وذكر مواضعها في القرآن) وكتاب ، التذكرة لأصول العربية ومعرفة العوامل ، وكتاب الموصول إلى تذكرة كتاب الأصول لابن السراج في النحو) (١) ... الخ .

وبإمكاننا بل هو فعلاً أن نعد ابن رشيق الشاعر الثائر الناقد مؤرخ الأدب الذي عرضنا له من قبل ، لغوياً ونحوياً ، وكيف لانفعل ذلك ، وقد قال يافوت فيما ينقله عنه السيوطي : (٢) (كان شاعراً نحوياً لغوياً ، أديباً عروضياً) ، وعلى أية حال فقد ذكر بأن لابن رشيق كتابين في الفخر: الأول (كتاب الشذوذ) وقد ذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة في بابها والثاني : (شرح كتاب الشذاذ) نفسه (٣) .

وعالم القرآءات المشهور علي بن أبي فضال المجاشعي القيرواني (ت٤٧٩هـ) ، الذي كنا قد تلمسنا أثره العلمي في إفريقية من قبل والذي

---

(١) القفطي : نفسه ،ج٣ ، ص ٣١٥ – ٣١٧ .

(٢) بغية الوعاة ، الجزء الأول ،ص ٥٠٤ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ،ص ١٣٢ .

قلنا إنه نزل القيروان وارتحل إلى المشرق ليلحق ببعض ملوكه يعد من علماء اللغة والنحو ، وقد ذكر بأن له عدة مؤلفات قيمة منها كتاب إكسير الذهب في صناعة الأدب) ، وهو في النحو ، و(كتاب العوامل والهوامل) في النحو أيضا وكتاب (الفصول في معرفة الأصول) ، و (الإشارة إلى تحسين العبارة) ، وكذلك (شرح عنوان الإعراب) و (المقدمة) وأيضاً (شرح معاني الحروف) (١) وكلها في النحو .

وأخيراً قبل أن نختتم الحديث عن الدراسات اللغوية والنحويه في إفريقية في العصر الزيري ، لايفوتنا الإشارة إلى أن بعضاً من مدن وأقاليم إفريقية أسهمت خلال عصر الزيريين في إنعاش حركة العلوم العربية وتقدمها . ولعل أشهر من نذكره من علماء بعض مدن إفريقية العالم اللغوي والنحوي اسماعيل بن ابراهيم المعروف بابن الخازن المغربي (٢) (كان حياً سنة ٤٢٠هـ) وهو أحد أبناء مدينة المهدية . ومع أننا لم نعثر على أي نشاطات علمية له سواء فيما يتعلق بالتصنيف أو التصدي للإقراء والتدريس، إلاّ أنه اشتهر بأنه أحد علماء اللغة والنحو ، ويصفه ابن رشيق (٣) بأنه كان كثيراً مايبحث عن الشاذ في اللغة ويضمنه أشعاره ، وممّا يذكر أن لابن الخازن رحلة إلى المشرق ، لقي فيها عدداً من شيوخ علماء اللغة والنحو .

---

(١) القفطي : المصدر السابق ،ج٢، ص٢٠٠ .

(٢) أنظر ترجمة جيدة له عند ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، ص ٤٩-٥٢
الصفدي : نفسه ، ج٩، ص٦٨-٦٩ .

(٣) ابن رشيق : نفس المصدر السابق ، ص٤٩ .

وفي وسعنا أن نعد عالم القرآءات المهدوي أصلا الأندلسي وفاة أحمد ابن عمار بن أبي العباس المهدوي من علماء اللغه والنحو الذين أهدتهم مدينة المهدية للعلم والعلوم الشرعية والعربية . وقد أطلق عليه القفطي وهو يعرض لترجمته هكذا : أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي المغربي النحوي اللغوي المفسر .. الخ . وكتبه التي ألفها في علم القرآءات يمكن عدها كتب لغة ونحو أيضاً .

الفصـــل الخامـــس

الدراســـــات الإنسانيـــة

- الجغرافيا
- الفلسفة
- التاريخ

الجغرافيــــــــــا

تصادف المتتِّبع للدراسات الإنسانية في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة حقيقة مفادها أن إفريقية قد قصرت بها همتها العلمية عن أن تجاري في مجال الدراسات الإنسانية هاته غيرها من الأمصار الإسلامية ، كبعض بلدان المشرق أو حتى جارتها الأندلس ولا تكاد نستثنى من ذلك الحكم العام سوى الدراسات التاريخية ، ومع ذلك فإن لنا وقفة مع الدراسات التاريخية نقفها معها بعد قليل بإذن الله .

وتزداد مساحة الاستغراب عندما نرى أن بلاد المغرب الأدنى كان لها في الفترة الزمنية نفسها التي تعنينا حضور علمي - إن جاز هذا التعبير - في حقل الدراسات الطبيعية أو التجريبية ، وأن ذلك الحضور العمي لبعض تلك الدراسات كان من الوضوح بحيث شغل موقعاً طيباً في حركة البناء العلمي على مستوى الدولة الإسلامية .

ففي علم الجغرافيا نستطيع القول إن إفريقية افتقرت إلى وجود جغرافيين مبرَّزين، وما وجد من إشارات عن اشتغال عالمين هما محمد بن يوسف الوراق، وأحمد بن أبي خالد الجزار بالجغرافيا وبالتالي التصنيف فيها،لايعدو أن يكون مجرد حالتين فرديتين. هذا فضلاً عن أن هذين العالمين ترجع شهرتهما إلى مجال التاريخ أكثر من مجال الجغرافيا، ولذلك نؤثر الحديث عنهما في سياق حديثنا فيما بعد - عند الدراسات التاريخية. وما يقال عن الجغرافيا يمكن أن يصدق على الرحلات بمعناها الجغرافي، أو أدب الرحلة الجغرافي الذي شاع آنذاك في المشرق وفي المغرب بعد فترة

لاحقـــــه .

وفي الحق فإننا لانملك الأدلة التي تفسر لنا سر عزوف أبناء إفريقية عن طرق هذه الحقول من حقول الدراسات الإنسانية ، ذلك لأن كل المؤشرات تؤكد حتمية الاهتمام بها ، فمعظم الدواعي التي دعت المسلمين إلى الاهتمام بعلم الجغرافيا (١) كانت إفريقية في حاجة إليها ، ومن المعلوم أن (عناية العرب بالجغرافية وليدة ظروف البيئة إلى حد كبير) (٢) .

فمن الناحية السياسية والإدارية (٣) لانعتقد أنه لم تكم ثمة حاجة لدى الأنظمة السياسية التي تعاقبت على حكم إفريقية إلى تنظيم البلاد إدارياً ، مع مايتبع ذلك من ضرورة التعرف على طرقها ومسالكها ودروبها ، وما تحتويه المناطق والأقاليم من ثروات وغير ذلك ؟ هذا شئ والشئ الآخر هو أننا نعرف الأهمية الجغرافية التي يتيحها علم الجغرافيا للتعرف على مـوارد الميـاه ومنابت الكلأ (٤) .. الخ ، فكيف نتـصـور خلو البـلاد من المصنفات التي توضح تلك المعالم ؟

---

(١)عن الدواعي التي دعت المسلمين إلى الاهتمام بعلم الجغرافيا وبفن الرحلة ، أنظر نقولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب ص ١١-١٢، ١٣٧-١٣٨، ص١٦٠ - عبدالرحمن حميده أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ص ٢٨- ٦١ - كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، الجزء الرابع ، ص ٢٣١- ٢٣٤- شوقي ضيف - الرحلات ، سلسلة من فنون الأدب العربي (الفن القصصي) ص ٨-١٢- أحمد علي الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ص ١٦٩-١٧٠ .

(٢) عبدالرحمن حميده : نفس المرجع أعلاه ، ص٢٨ .

(٣) وهو عامل من أهم العوامل الذي أشار إليه المؤرخون من دواعي الاهتمام بالجغرافيا .

(٤) هو كذلك من عوامل أو دواعي الاهتمام بالجغرافيا .

ثم أن الرغبة في التجارة وكسب العيش ، وهو عامل من أهم عوامل الاشتغال بالجغرافيا والأدب الجغرافي ، ألم تكن هناك حاجة إليها هنا ، خاصة إذا عرفنا أن لإفريقية سواحل طويلة هذا من جهة ، وحركة اتصال واسعة ببلاد السودان من جهة أخرى ؟

ونحن فيما عدا ماذكرناه من عوامل لن نمض في تتبُّع بقية تلك العوامل التي تؤكد وجود الاهتمام بالجغرافيا وبالرحلات الجغرافية ، ولكننا نتساءل : ألم تكن الرغبة في المعرفة الجغرافية وحدها تداعب أذهان علماء بلاد المغرب الأدنى ومفكرِّيهم ؟

ونخلص من هذا كله إلى القول بأننا عبثاً نحاول تبين أثر حسى جغرافي يتعامل مع ظروف الطقس والمكان والأوضاع السياسية والاقتصادية لدى المغاربة في إفريقية في الفترة موضع الاهتمام .

بيد أنه في وسط ذلك التَّقصي الشديد لمعرفة الاسهامات الجغرافية للإفريقيين ، أمكننا العثور على مصنف جغرافي لباحث قامت شهرته في الأصل على علم التاريخ ، أعني بذلك محمداً بن يوسف الوراق ، أحد مؤرخي العصر الزيري ، فلقد صنَّف كتاب مسالك إفريقية وممالكها للخليفة الحكم المستنصر ، وهو كتاب يحمل أهمية بالغة في توضيح مسالك ودروب إفريقية ، وقد اعتمد عليه كثيراً المؤرخ الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكرى في كتابه المسالك والمبالك (١) .

---

(١) الضبي : المصدر السابق ،ص ١٤١ - ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ج٢، ص ٣٦٦ - حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيين والجغرافيين في الأندلس ، ص ٧٣ - ١٤١ .

وهناك كتاب في الجغرافيا كتبه الطبيب المورخ الأديب أحمد ابن ابراهيم بن أبي خالد بن الجزار ، المعروف بابن الجزار ، وهو من علماء العصر الزبري كذلك ، وهذا الكتاب هو كتاب : عجائب البلدان ، أو عجائب الأمصار (١) .

ولايستبعد أن ثمة مؤرخين آخرين قد ضمت مصنفاتهم ومعلومات جغرافية ، أو أنهم ألفوا كتباً في الجغرافيا ، ولكنها لم تصل إلينا .

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ٣١٩ - ٣٢٠ .

الفلسفـــــــة

وإذا تركنا الجغرفيا والرحلات الجغرافية جانباً ، لنستطلع أثر حقل آخر من حقول الدراسات الإنسانية في إفريقية ، وهو الفلسفة ، فإننا سنخرج بانطباع جد مهم ، وهو أن الفلسفة لم تكن بأحس حال من الجغرافيا هناك . فالواقع أننا عدا ماطرق أسماعنا من ذكر لرجلين أطلق عليهما لقب فيلسوف (١) - دون أن نتبين مجهوداتهما التي خولت إطلاق ذلك اللقب عليهما ، نقول عدا هذين الرجلين لم نعثر على أي شئ ذي بال عن الفلسفة ورجالها .

وفي الحق فإذا كانت الأسباب قد أعوزتنا في تفسير عزوف أهل إفريقية عن الجغرافيا والأدب الجغرافي ، فإنها فيما يخص الفلسفة لم تعزنا لحسن الحظ، وهو ماسنتطرق إليه على التو .

بيد أنه يحق لنا أن نأخذ على المستشرق ت . ج . دي بور(١) الذي أرخ للفسلفة في الإسلام عدم إشارته إلى أسباب خلو إفريقية من الدراسات

(١) هما الفقيه أبو بكر القمودي ، والشاعر يعلى بن ابراهيم الأبرسي ، أما أبو بكر القمودي ، فقد كان أحد فقهاء إفريقية المشهورين بالجدل والمناظرة ، وقد ترجمنا له من قبل (أنظر ص٥٥٥) ، وقد أطلق عليه من أرخ له لقب الفيلسوف . ولانعرف سر إطلاق هذا اللقب عليه ، فإذا كان السبب هو اشتهارة بالجدل والمناظرة ، فقد كان هناك نفر آخر غيره اشتهر بالمناظرة والجدل ، وقد أشرنا لهم من قبل ، وإذا كان قد اشتهر بالفلسفة بمعناها الدقيق فإننا لم نتبين أي أثر فلسفي له من خلال ترجمته . أما الشاعر يعلى ابراهيم الأبرسي الذي عاش في العصر الزيري ، والذي كان ذا حظ في علمي الطب والهيئة ، فقد قيل بأنه كان كذلك يذهب إلي الفلسفة . وهو جل ماقيل عنه . أنظر عبدالرحمن ياغي :نفسه ، ص ١٠٦ .

(٢) تاريخ الفلسفة في الإسلام ، نقله إلي العربية وعلّق عليه محمد عبدالهادي أبوريدة ، ط٥ ، ص ٣٦١ .

الفلسفية وذلك عندما راح يصف واقع إفريقية الفلسفي بقوله : (فأما إفريقية فشأنها « في الفلسفة » ثانوي ذلك لأن الأسباب كانت من الوضوح بحيث لاتخفى على أحد) . وبالطبع فلسنا في حاجة إلى كبير عناء لنستنتج بأن كره أبناء إفريقية العميق للتفلسف والتنظير والجدل ، هو السبب الرئيسي في خلو البلاد من الفلاسفة وآثارهم. وإذا كان المالكية قد واجهوا تيار أتباع المذاهب الكلامية بتلك الموجة الساخطة التي رأيناها من قبل ، فمن باب أولى ألاّ يرحبوا بأي تيارات فلسفية ، لاسيما وأن الفلسفة بما تعنى به من مضامين فكرية عقلية حول قضايا الوجود، والعدم ، والجوهر، والعرض ، وقضايا ماوراء الطبيعة أو مايعرف بالميتافيزيقيا ، وكذلك ماتعنيه من البحث في المسائل بحثاً مجرداً من المؤثرات والاعتقادات وقضايا الوجود المطلق ، إلى غر ذلك من القضايا . (١) كل هذا كان كافياً لأن يعرض أهل إفريقية عن الفلسفة ويديروا لها ظهورهم وهم في ذلك كانوا ينظرون إلي الفلسفة نظرة إخوتهم الأندلسيين ، الذين كانوا يرون في الفلسفة على أنها (علم ممقوت لايستطيع صاحبه إظهاره) (٢) .

نقول هذا مع التأكيد على أننا لانملك الأدلة القطعية فيما إذا كانت إفريقية قد استسلمت لتيارات الفلسفة (أم قاومتها ونفرت منها ، أم تكيفت

---

(١) عن الفلسفة وتعريفاتها ، أنظر مثلا مصطفى عبدالرازق : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ٣-٧٥- أحمد أمين : ضحى الإسلام ج٣،ص١٣، ١٨ .

(٢) فيما ينقله سعد البشري : الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية الشريعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٠١هـ / ١٤٠٢هـ (لم تطبع) ص ٣٣٦(عن المقري في نفح الطيب ، الذي ينقل عن ابن سعيد المؤرخ الجغرافي في الأندلس) .

معها ، وأخذت عنها مايتناسب وطابعها الخاص ويمتاشى وذاتها ؟) ، كما تساءل محي الدين عزوز (١) .

ولقد كان المظنون في تصورنا أن تبلغ الدراسات الفلسفية درجة من الرقي في ظل الشيعة الإسماعيلية ، وهم الذين كانوا يعتمدون في كثير من قضايا مذهبهم الإعتقادية والسياسية على مبادئ المذهب الفلسفي للافلاطونية الحديثة . و بالتالي فقد كان من الطبيعي أن تظهر مؤلفات فلسفية في عهدهم ، لكن شيئاً من ذلك لم يحدث . صحيح أنه قد ظهرت كتب الباطن ، التي كنا قد أشرنا إليها من قبل ، ولكن كان ينظر إليها – على ما فيها من نظرات فلسفية – على أنها كتب فقه في المقام الأول ، وليست كتباً فلسفية محضة .

وكيفما كان الأمر فإن الأثر العلمي الوحيد الذي نُص على انتمائه للفترة الزمنية موضوع الرسالة هو ماذُكر عن تآليف الطبيب والصيدلي والمؤرخ والمربي القيرواني المشهور ابن الجزار لكتاب في الفلسفة عرف عنوانه : رسالة في النفس (٢) .

أما وقد أوضحنا ما أوضحناه بشأن الجغرافيا والرحلات الجغرافية ؛ وكذلك بشأن الفلسفة ، فإننا بناء على كل تلك المعطيات التي تبدت لنا نستطيع التأكيد على أن إفريقية لم تعرف في الفترة الزمنية موضوع الرسالة من حقول الدراسات الرنسانية سوى التاريخ وحده .

---

(١) التطور المذهبي بالمغرب ،ص ٧ .

(٢) محي الدين عزوز : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٤ .

التاريـــــــــخ

ولعل الشئ الذي لاخلاف حوله هو أن بلاد إفريقية شهدت خلال الفترة موضوع الرسالة اهتماماً ملحوظاً من قبل أبنائها في العناية بأخبار بلادهم وتدوين أخبارها وأخبار رجالاتها ، وبمعنى آخر فقدل كان هناك حرص على تسجيل وحفظ مكتسبات البلاد في المجالات المختلفة . وبإمكاننا أن نؤكد بأن الحس التاريخي قد نمى مبكراً لدى أبناء إفريقية .

غير أن عناية المغاربة بالتاريخ والدراسات التاريخية في الفترة موضوع الرسالة – تبدو في تصورنا غير تامة ، فثمَّة بعض الملاحظات عليها، وهو الأمر الذي عنيناه في الاستهلال ، عندما ذكرنا بأن لنا وقفة مع التاريخ والدراسات التاريخية الإفريقية .

ففي البدء نلاحظ أن أبناء إفريقية لم يعنوا بكل مناحي التاريخ الإسلامي بمعنى أنهم لم يهتموا بالكتابة في بعض حقول التاريخ كالمغازي والسير ، أو التاريخ للمدن .

كما أن الإفريقيين لم يهتموا بالتأريخ للدولة الإسلامية العامة كما فعل المؤرخون المشارقة ، وفي الأنساب لم يكن لهم إلاَّ قدر يسير من المؤلفات .

وبناء على هذا نستطيع القول : إن إفريقية لم تعرف من مناحي التاريخ سوي تلك التي كانت تهتم بالناحية الإقليمية وهو ماتمثل في ظهور مؤلفات تعني بتاريخ إفريقية ، أو تلك التي تعني بالترجمة . وهي سلسلة المؤلفات التي كانت تهتم : أما بالترجمة للآحاد من العلماء ككتب المناقب

التي كثرت كثرة معروفة آنذاك ، وأما الترجمة لطبقات العلماء سواء كانوا فقهاء أومحدثين أوزهادا وهذه كثرت كذلك في الفترة الزمنية موضوع الرسالة كثيرة ظاهرة .

وثمة ملاحظات أخرى على الدراسات التاريخية الإفريقية منها أن المغاربة مع اهتمامهم ببعض مناحي التاريخ لم يجاروا المشارقة في ذلك ، كما أنهم لم يجاروا جيرانهم الأندلسيين أيضا . ومن الملاحظات على الدراسات التاريخية الإفريقية هي أنها لم تتفرَّد بمنهج تاريخي معين ، وإنما كانت تساير أسلوب المشارقة في منهجهم التاريخي ، سواء ماجاء منه على نسق الحوادث ، أوماجاء على نسق السنين . وهذا مالاحظناه من متابعتنا لما بقى من كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني .

ومن الملاحظات كذلك أن الدراسات التاريخية كانت لاترقى كثرة للدراسات الشرعية أو الدراسات الأدبية . وهذا أمر طبيعي ليس في إفريقية فحسب ، وإنما في العالم الإسلامي كله آنذلك .

والملاحظة الأخيرة التي تبدت لنا من ملاحظاتنا للحركة التاريخية ، هي أن بعض المؤرخين مثل محمد بن أبي العرب ، ومحمد بن حارث الخشني ، والمالكي كانوا يسلكون في تواريخهم مسلك المحدثين ، بحكم طبيعة تخصصهم ، وهو منهج عرفته المؤلفات التاريخية المشرقية من قبل .

وكيفما كان الأمر فسنمضى الآن في التعريف بالدراسات التاريخية في إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة على نفس النهج الذي

سلكناه من قبل عند تقويمنا لمظاهر ماسلف من الحياة العلمية . أي أننا سنتحدث عن الدراسات التاريخية حسب العصور السياسية الأربعة التي عرفتها إفريقية .

الدراسات التاريخية في عصر الولاة :-

من الطبيعي ألاَّ يشهد هذا العصر اهتماماً بالدراسات التاريخية ، وهو العصر الذي ذكرنا من قبل أنه كان مخصوصاً بتباشير النهضة العلمية ، وليس بإزدهارها ، نتيجة لما أشرنا إليه من عوامل من قبل، ولكننا مع ذلك لم نعدم الإشارة إلى أحد مؤرخي إفريقية في هذا العصر ، أو إن شئنا الدقة أحد الأخباريين ، وهو الفقيه عبالرحمن بن زياد ابن أنعم (ت : ١٦١هـ) .

ويرى سعد زغلول عبد الحميد (١) أن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم قد أثَّر في كثير من روايات المصريين لفتح المغرب والأندلس برواياته المغربية المختلفة ، كما أنه قد يكون قد تأثر برواياتهم أيضا .

ويعتقد سعد زغلول (٢) أيضاً من خلال الكم القليل من روايات عبدالرحمن بن أنعم للأحداث التي احتفظت بها بعض كتب المؤرخين المغاربة مثل البكري ، وابن عذاري ، وغيرهما أن عبدالرحمن بن أنعم كان

(١) نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢٤ مع الحاشية رقم ٣ .
(٢) نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢٤ مع الحاشية رقم ٣١ .

يميل إلى العناية بالروايات الأسطورية ، أو القصص الشعبي العجيب .

الدراسات التاريخية في عصر الأغالبة :

لاشك أن الدراسات التاريخية في هذا العصر قد حظيت باهتمام عدد لا بأس به من أبناء إفريقية الذين خاضوا في التأليف في مناح شتى من التاريخ كالمغازي والسير والأنساب والتأريخ للأسر إلى غيرذلك .

ومن أوائل مؤرخي هذا العصر الفقيه المالكي عبدالله بن أبي حسان اليحصبي (ت٢٢٧هـ) الذي رأيناه فقيهاً مالكياً مدافعاً عن المذهب المالكي بلسانه وقلمه . ومع أن بعض المؤرخين المحدثين نبّه إلى أنه أحد مؤرخي البلاد في العصر الأغلبي(١)، إلاّ أننا لم نعثر على أية إسهامات تاريخيه له.

ويأتي المؤرخ عيسى بن محمد بن سليمان بن أبي المهاجر(ت في القرن الثالث الهجري) مؤرخاً ثانياً من مؤرخي هذا العصر (٢) وهو حفيد القائد العسكري المشهور أبي المهاجر دينار ، الذي جاء إفريقية فاتحاً بعد حملة عقبة بن نافع الأولى .

ويرى البشير البكوش (٣) أن عيسى بن محمد يعد أقدم مؤرخي

(١) من الذين أشاروا إلى أن عبدالله بن أبي حسان اليحصبي كان مؤرخاً حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، حاشية رقم (١) ص٦٩- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه .

(٢) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٦٩- حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، حاشية رقم (١) ص ٦٩ .

(٣) البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من كتاب رياض النفوس ،ص ١٣م .

إفريقية ، كما أن كتابه (فتوح إفريقية) يعد المصدر الرئيسي لتاريخ الفتح الإسلامي الذي استقى منه المؤرخون معلوماتهم .

أما سعد زغلول عبدالحميد (١) فإنه يرى أن عيسى بن محمد بن سليمان كان من تلامذة الفقيه المؤرخ المصري المشهور عبدالله بن وهب (ت١٩٧هـ) الذي يعد من مؤسسي أول مدرسة مصرية تاريخية . ومن هنا فإن روايات عيسى بن محمد لاتختلف بشأن فتح المغرب عن روايات أهل مصر .

وبوسعنا أن نعد الفقيه المشهور محمد بن سحنون بن سعيد (ت٢٥٦هـ) أحد مؤرخي عصر الأغالبة ، فلقد طرق هذا الرجل أبواباً كثيرة من العلوم ، ومن بينها التاريخ . ومماً ينسب إليه أنه كتب كُتباً في السير تبلغ نحواً من عشرين كتاباً أو جزءا . وفي التراجم والطبقات : كتب كتاباً في طبقات العلماء يقع في سبعة أجزاء ، وإن كنا لانعرف عنه في الحقيقة أكثر من أسمه . ولمحمد بن سحنون أيضاً كتاب في التاريخ يقع في ستة أجزاء ، وقيل بل أربعة ، وهو أيضاً لانعرف عنه سوى اسمه فحسب (٢) .

ويعد الأمير محمد بن زيادة الله الأغلب (ت٢٨٣هـ) أحد الرجال الذين أسهموا في الحركة التاريخية والأدبية ، ولقد ذكرنا من قبل أنه شارك في التأليف في الحركة الأدبية النشطة لبلاده (٣) أما في التاريخ فإنه ينسب

---

(١) نفسه ،ج١ ، ص ٢٣ مع الحاشية رقم ٢٨ .

(٢) عند هذه الكتب أنظر عياض : نفسه ، الجزء الثاني ص ١٠٦– ١٠٧ .

(٣) أنظر قبل ص ٦٦٧ .

إليـه تصـديـه لتـأليف كـتـاب في تاريـخ أسـرته أطلق عليـه : تاريخ بنى الأغلب (١) .

ويأتي الفقيه الأخباري أبو سهل فرات بن محمد العبدي (ت: ٢٩٢هـ) على رأس مـؤرخي وإخباري عـصر الأغالبـة المتـأخرين (٢)، ويقول محـمـد مخلوف (٣) . أن فرات بن محمد العبدي (له لسان طويل ومعرفة بالأنساب وكـان أعلم الناس بالناس وأوقع الناس في الناس حـتى أنه نسب إلى الكذب).

وأياً ماكان الرأي في فرات بن محمد العبدي فإن الأمر الثابت هو أن كثيراً من مؤرخي الطبقات المغربية كأبي العرب التميمي بصفة خاصة ، وغيره ، اعتمدوا على أقواله ومروياته . (٤) وممّا هو جدير بالذكر أن فرات ابن محمد العبدي يستحق قصب السبق بانفراده عن مؤرخي بلده بالتأليف في الأنساب .

---

(١) ابن الأبار : الحلة السيراء ، الجزء الأول ،ص ١٨ .

(٢) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ص٧٢– حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، الحاشية رقم (١) ص ٦٩ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص٢٤ مع الحاشية رقم ٣٤ – البشير البكوش ، مقدمة الجزء الأول ، من رياض النفوس ، ص١٣م .

(٣) نفسه ص ٧٢ .

(٤) محمد بن محمد مخلوف : نفسه – البشير البكوش ، نفس المقدمة أعلاه والصفحة .

الدراسات التاريخية في عصر الفاطميين :

الملاحظ على الدراسات التاريخية في هذا العصر ، هو أنه عدا ازدحامها بعدد أكبر من المؤرخين عن ذي قبل ، فإن مناحيها قد تعدد خلال هذا العصر، فهناك مصنفات عُنيت بالترجمة للأفراد والأسر ، وهو ماعرف بكتب المناقب ، كما دخل الشيعة الإسماعيلية طرفاً في الدراسات التاريخية عن طريق المصنفات التي تؤيد وجهة نظرهم .

ولعل أول من يأتي في مقدمة مؤرخي هذا العصر من حيث التسلسل الزمني والمكانة التاريخية الفقيه المحدث المشهور محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي المعروف بابن أبي العرب التميمي (ت:٣٣٣هـ). وابن أبي العرب التميمي تردد اسمه كثيراً في تنايا الرسالة الأمر الذي يدل على علو مكانته العلمية . وفي مجال الدراسات التاريخية صنف ابن أبي العرب مجموعة من الكتب أهمها كتابه المشهور : طبقات علماء إفريقية (١) ، وهو الكتاب الذي احتذاه بعده كثير من مؤرخي الطبقات المغربية سواء أولئك الذين عاشوا في العصور الزمنيه التي نؤرخ لها ، أو أولئك الذين اعقبوهم ، والكتاب على ما يوحى به عنوانه ، إلاَّ أنه تضمن الكثير من الإشارات التاريخية المهمة في مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والعلمية ... الخ . ونحن وإن كنا نتفق مع المنجي الكعبي (٢) محقق كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني فيما ذهب إليه من أنه في كثير من كتب الطبقات

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ٣٣٤- محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ .
(٢) تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٥ .

المتأخره غنى عن كتاب طبقات علماء إفريقية لكننا لانميل إلى موافقته كليةً ونتفق مع ما يقوله البشير البكوش في أنه يكفي هذا الكتاب أن يكون المصدر الأساسي لكل من كتب في تراجم رجال إفريقية (١) .

ولأبي العرب التميمي كذلك كتاب آخر في الطبقات يعرف بكتاب : عبّاد إفريقية (٢) ، وهذا الكتاب وكتاب طبقات علماء إفريقية نهج فيهما ، ابن أبي العرب نهج المحدثين في مؤلفاتهم ، ولايستبعد ذلك عنه إذا عرفنا أنه كان من أشهر محدثي إفريقية في العصر الفاطمي (٣) .

ومن مصنفات ابن أبي العرب التاريخية أيضاً سلسلة من كتب التراجم للأفراد والقبائل . مثل كتاب فضائل سحنون (٤) . وكتاب مناقب تميم (٥) ، وهي القبيلة التي ينتسب إليها .

ولابن أبي العرب كذلك كتاب بعنوان : كتاب المحن (٦) ويقوم موضوعه على تتبّع من تعرض من رجال الإسلام في المشرق أو المغرب إلى محن دارت عليه من قبل بعض الخلفاء والأمراء . وقد سبق لنا أن أفدنا منه عند حديثنا عن محنة خلق القرآن التي تعرض لها الفقية المشهور سحنون ابن سعيد .

---

(١) مقدمة الجزء الأول من رياض النفوس بتحقية هو ، ص ١٤م .

(٢) عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ٣٣٥ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ .

(٣) أنظر قبل ، ص ٤١٥ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٣٥– البشير البكوش : نفس المقدمة أعلاه والصفحه .

(٥) البشير البكوش : نفسه ،ص ١٤م .

(٦) عياض : نفسه ،ص ٣٣٥– البشير البكوش : نفسه ، ص ١٤م .

ومـــن كتب التـاريــخ الدقيق التي كـتـبـهـا ابن أبي العـرب ، كـتـاب التاريخ (١) ، ويقع في سبعة عشر جزءا . ويرى البشير البكوش (٢) أن ابن أبي العرب سلك فيه أسلوب التأريخ على نسق الحوليات .

ومن مؤرخي عصر الفاطميين ممَّن اقتصر على علم التاريخ وحده ، المؤرخ أبو على الحسن بن أبي سعيد بن عبدالرحمن بن عبيد البصري (٣) المعروف بالوكيل (كان حياً سنة ٣٤٦هـ) (٤) . ولقد اشتهر الوكيل بكتابه الذي صنَّفه وأطلق عليه عنوان : الكتاب المعرب عن أخبار إفريقية والمغرب، وقد اعتمد كثير من مؤرخي طبقات العلماء واللغويين والنحاة من أمثال عياض في مداركة وابن الأبار في الحلة السيراء ، وأبي بكر الزبيدي الأندلسي في كتابه : طبقات اللغويين والنحويين ، على كتاب الوكيل وأفادوا منه ، وكان ذلك من حسن الحظ ، إذا حفظوا بذلك معلومات تاريخية مهمة جداً كان يحتويها هذا الكتاب الذي فقد (٥) .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٣٥ (وهو الذي أشار إلى عدد أجزاء الكتاب - البشير البكوش نفسه ص١٤م .

(٢) مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ١٤م .

(٣) ترجم له حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني حاشية رقم (١) ص ٥٨ - البشير البكوش : مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ١٤م .

(٤) ذكر حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه القسم والصفحة أن وفاته كانت عام ٣١٠هـ - وكذلك قال سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص٢٤- والمنجي الكعبي : مقدمة كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني ، ص١٥ ، غير أننا أخذنا في المتن برواية البشير البكوش : نفس المقدمة والصفحة أعلاه ، لأنه ذكر بأن الوكيل قد أخذ علومه في العربية على يدي اللغوي النحوي المشهور ابن الوزان المتوفي سنة ٣٤٦هـ .

(٥) البشير البكوش : نفس المقدمة أعلاه والصفحة .

وهناك مؤرخ إباضي المذهب شارك كما يُظن في مسيرة الدراسات التاريخية في العصر الفاطمي هو أيوب بن أبي يزيد مخلد بن كيداد الثائر الخارجي المشهور ، الذي خرج على الخلافة الفاطمية كما أشرنا إلى ذلك من قبل . وأيوب بن أبي يزيد كان مشاركاً لأبيه في الأحداث التي وقعت آنذاك ، وقد انتهى الأمر بمقتله عام ٣٣٦هـ ، ومع أن سعد زغلول عبدالحميد هو الذي أشار إلى أن أيوب بن أبي يزيد هو أحد أخباري إفريقية وقتذاك ، إلاّ أننا لم نعرف عن إسهاماته التاريخية سوى ماذكره عن نقل ابن خلدون في كتابه العبر فقرات من أخبار أيوب وروایاته (١) .

ومن مؤرخي العصر الفاطمي أبو عبدالله الحسين بن سعيد الخراط • (كان حياً بعد ٣٥٠ هـ) و يقول البشير البكوش بأن الفقيه المؤرخ الإفريقي المالكي صاحب رياض النفوس قد اعتمد في كثير من زوايا كتابه على أخبار ومرويات ينقلها عن الخراط ، سواء مايتصل منها بالفتح الإسلامي للمغرب أو مايتصل بمناقب الصحابة وأخبار العلماء ، وغير ذلك ، وأنه – أي المالكي –، هو الوحيد الذي نقل مباشرة عن الحسين بن سعيد الخراط (٢).

وفيما يتصل بالدراسات التاريخية الشيعية فإن الملاحظ أنه كان هناك حرص على تدوين أحوال الخلافة الفاطمية وأخبارها في الدور المغربي من تاريخها ، وهذا ماوضح من اضطلاع القاضي النعمان بتلك المهمة .

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٥ .

(٢) مقدمة تحقيقه للجزء الأول من رياض النفوس ،ص ٢١٥ .

وعلى أيه حال فإن من أوائل المصنفات التاريخية الشيعية كتاب الإمامة الذي قيل : إن الخليفة المنصور بن القائم (ت :٣٤١هـ) قد صنَّفه ، ولقد ذكر كذلك بأن الذي صنَّف الكتاب هو القاضي النعمان وليس الخليفة المنصور (١) . وفي الحق فإن القاضي النعمان كتب سلسلة من المصنفات التاريخية القيمة التي تعكس نظرة الفاطميين الشيعة الإسماعيلية للأحداث .

فمن بين تلك الكتب المهمة كتاب افتتاح الدعوة ، وهو كتاب يتناول بالشرح والتحليل أخبار انتشار الدعوة الشيعية في المغرب منذ أن فكر جعفر الصادق في بعث دعاته إلى المغرب وحتى قيام الخلافة الفاطمية ، بل وحتى خلافة الخليفة المعز لدين الله (٢) وقد حمل الكتاب بجانب عنوانه المشهور سالف الذكر عناوين أخري مثل كتاب أخبار الدولة وكذلك : شرح الأخبار عن الأئمة الأخيار أو الأطهار (٣). ومن مصنفات النعمان التاريخية أيضاً كتابان أشار عليه بتصنيفهما الخليفة المعز لدين الله كما يُصرح هو نفسه في كتابه المجالس والمسايرات (٤) . هذان الكتابان هما : كتاب بنى هاشم ، وكتاب مثالب بنى عبد شمس ، وقد جاءا كتابين ضخمين جامعين في موضعهما (٥) .

ولايفوتنا – ونحن نشير إلى كتب القاضي النعمان التاريخية – ،

---

(١) أنظر قبل ص ٥٤٣ .

(٢) أنظر فرحات الدشراوي : مقدمة كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان .

(٣) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، الحاشية رقم (١) ص ١١٧ .

(٤) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، حاشية رقم (٢) ص ١١٧ .

(٥) القاضي النعمان : نفسه ، ص ١١٧ .

الإشارة إلى الأهمية الكبيرة التي يمثّلها كتاب المجالس والمسايرات ، فهو كتاب جامع بحق : مذهبي واجتماعي وتاريخي وعقائدي إلى غير ذلك حسبما أشرنا من قبل (١) .

ولقد ذكر القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات (٢) أن أحد رجالات الخلافة الفاطمية في إفريقية قد صنَّف كتابين في سيرة بنى أمية ، وبنى العباس ، وهو الأمر الذي أغضب الخليفة المعز الذي كان ينتظر من تابعه هذا أن يكتب في سير الأئمة (العلويين) بدلاً من أن يكتب عن خصومهم .

ومن أبرز المؤرخين المتأخرين في العصر الفاطمي أبو عبدالله محمد ابن يوسف الورَّاق القروى المعروف بالتاريخي (٣) (ت : ٣٦٣هـ) ومحمد بن يوسف الوراق أندلسي الأصل ، إفريقي المنشأ والتعليم ، ثم ارتحل ثانية إلى الأندلس ، فعاش في كنف الخليفة الحكم المستنصر ، الذي رعاه وقربه إليه وحفزه على التأليف .

---

(١) أنظر قبل ص ٦١٩ .

(٢) ص٢٨٦ .

(٣) ترجمته موجودة عندالضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ،ص ١٤١– ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة ج٢،ص٣٦٦ – حسين مؤنس : تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس ،ص ٧٣ – ٧٥ ، ١٤١ – ١٤٥ – كارول بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، الجزء الثالث ، ص ٩١ عمر رضا كحالة : التاريخ والجغرافيها في العصور الإسلامية ،ص ٨٦– ٨٧ وص ٢٥٧ (وعنده أن وفاته كانت عام ٣٦٢هـ) – عبدالسلام بن عبدالقادر بن سودة المرى : دليل مؤرخي المغرب الأقصى ، الجزء الأول ،ص ٢٩– ٣٠ ، ٦٠ ، ٦٢، ٦٣ ، ١٢٢ .

ونحن بالطبع قد ملنا إلي عدِّه أحد مؤرخي إفريقية بحكم أنه عاش فيها (ونشأ وتعلم وانتشر له صيت في العلم بأحوال إفريقية والمغرب وتاريخهما) (١) ، ومن هنا حق لنا أن نضعه في عِداد مؤرخي إفريقية ، لهذا الأمر من جهة ، ولأن شهرته العلمية قامت على مؤلفاته التي اختص بها بلاد إفريقية التي عاش بها مدة مديدة من الزمن من جهة أخري .

وعلى أية حال فقد كان محمد بن يوسف الورَّاق القروى من المشهورين بعلم التاريخ حتى أنه لقب بالتاريخي لكثرة (٢) تآليفه فيه كما مر سابقاً ويقول حسين مؤنس (٣) إن الوراق هو أول من كتب في (المغرب الإسلامي كتاباً بعنوان المسالك والممالك) ، كما أن ممَّا يدل على مكانة الورَّاق العلمية أنه هو الذي ابتكر مزج الجغرافية بالتاريخ ، وهي الطريقة التي سار عليها البكري والرحالة التيجاني بعد ذلك (٤) .

أما مصنفاته في التاريخ فقد تعدَّدت أيضاً ، نذكرمنها كتابه ، الذي صنفه في (أخبار ملوكها - أي أفريقية - والغالبين عليهم) (٥).

ومن مصنفاته التاريخية أيضاً مجموعة من الكتب (في أخبار تيهرت (تاهرت) ووهران ، وتنس ، وسجلماسة ، ونكور ، والبصرة (المغربية)

---

(١) حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٢) أنظر الضبي : نفسه - حسين مؤنس : نفس المرجع السابق والصفحه..

(٣) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين ، ص ٧٥ .

(٤) حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٥ .

(٥) كما نقل حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ (عن الحُميدي في جذوة المقتبس وابن الأبار في التكلمة وغيرهما) .

هنالك) (١) . وقد اعتمد المؤرخ المغربي المشهور ابن عذارى في كثير من أخباره على سلسلة الكتب هذه التي كتبها الورّاق للخليفة الأموي الحكم المتنصر (٢) .

ومماً ينسب إليه كذلك كتاب في الأنساب ، بعنوان : أنساب البربر ، نقل عنه البيدق مؤلف كتاب محمد بن تومرت وغيره (٣) .

---

(١) كما ينقل حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ (عن الحميدي والضبي وابن الأبار) .

(٢) حسين مؤنس : نفسه ، ص ٧٣ - ٧٦ .

(٣) حسين مؤنس : نفسه ، ص٧٥- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ .

الدراسات التاريخية في عصر الزيريين :

لقد تابعت الدراسات التاريخية في هذا العصر توسعها وازدهارها من حيث الكم والنوع ، فمن حيث الكم ازدادت أعداد المؤرخين في هذا العصر عن ذي قبل ، ومن حيث النوع فقد تنوعت المصنفات التاريخية في معظم مناحي التاريخ ، كالتأريخ للأقاليم والأقوام والترجمة لطبقات العلماء وغيرهم ، مع كثرة عددها .

ومن أوائل المؤرخين الذين عرفهم هذا العصر الفقيه المحدث المشهور محمد بن حارث بن أسد الخشني (ت ٣٦٦هـ) الذي طرق أسمه أسماعنا كثيراً فيما قبل . ولقد خاض محمد بن حارث التأريخ للحديث والفقه وغيرذلك . ويأتي كتابه طبقات قرطبة وعلماء إفريقية على رأس أشهر كتبه التاريخيه . وهذا الكتاب ترجم فيه ابن حارث الخشني لمن تولى القضاء في الأندلس منذ الفتح وحتى سنة ٣٥٦هـ . (١) كما أنه ترجم لعشرات من علماء إفريقية . ومماً يلاحظ على كتابه هذا أنه قد ترجم بالإضافة إلى العلماء الذين سبقوا عصره إلي علماء معاصرين له ، فأورد لهم تراجم تفاوتت من حيث الطول والقصر (٢) .

---

(١) سعد البشري : الحياة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة ، ص ٢٩٤ (نقلا عن أكثر من مصدر) - البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ،ص ١٥م .

(٢) أنظر محمد بن حارث الخشني : طبقات علماء إفريقية الوارد ضمن كتاب طبقات علماء إفريقية لأبي العرب التميمي ، ص ٨٠-١٩٧- (باب في ذكر الرجال العراقيين) وقد ترجم فيه لعلماء معاصرين له من علماء المذهب الحنفي ، وغيرهم ، بل إنه قد أورد مناظرته لبعض منهم (أنظر ص ١٩٥، ١٩٧) .

ومن مصنفات محمد بن حارث الخشني في مجال التراجم والطبقات عدّة كتب منها : كتاب في تاريخ علماء المالكية ، وكتاب آخر بعنوان كتاب فقهاء المالكية ، وإن كنا لا نعرف الفرق بينهما . ومنها كتاب في تاريخ علماء الأندلس ، وكتاب المولد والوفاة ، وكتاب تاريخ قضاة الأندلس (١) .

أما في مجال كتب التاريخ العامة ، فقد كتب : كتاب الإفريقيين (٢) وكتاب تاريخ الأندلس (٣) وكتاب التعريف (٤) وفي الأنساب كتب كتاباً بعنوان : كتاب في النسب (٥) .

ومن المؤرخين المبرزين في هذا العصر الطبيب المشهور أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد بن الجزار المعروف بابن الجزار (٦) (ت: ٣٦٩هـ) . وابن الجزار رجل متعدِّد المواهب ، فهو طبيب حاذق ، وصيدلي متمكن ، وهو مؤرخ ، وأديب أيضا . فمن مصنفاته في التاريخ نذكر كتاب « مغازي إفريقية» ويتعلَّق كما يوحى عنوانه بالفتح الإسلامي لبلاد إفريقية (٧) ، ويقول حسن حسنى عبدالوهاب (٨) بأن الجغرافي الأندلسي أبا عبيدة

---

(١) عياض : نفسه ،ج ٢ ، ص ٥٣١ .

(٢) عياض : نفسه – البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ١٥م (ويسميه كتاب الأفارقة) .

(٣) سعد البشري : الحياة العلمية في الأندلس في عصر الخلافة ، ص ٢٩٥ .

(٤) عياض : نفسه ،ص ٥٣١– البشير البكوش : نفس المقدمه أعلاه والصفحه .

(٥) عياض : نفسه ،ص ٥٣١ .

(٦) عن ترجمته ووفاته والاختلاف فيها ، أنظر بعد ص ٨١٥ – ٨١٦ .

(٧) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ٣١٩– البشير البكوش : نفسه أعلاه والصفحه .

(٨) الورقات ، القسم الأول ،ص ٣١٩ .

البكري قد نقل عنه كثيرا في كتابه المسالك والممالك .

ومن كتب التاريخ العام التي صنَّفها ابن الجزار كذلك كتاب : تاريخ الدولة أو : أخبار الدولة (١) ويعنى بها الدولة الفاطمية .

ويرى حسن حسني عبدالوهاب (٢) أن المؤرخ المصري المقريزي في كتابه اتعاظ الحنفا قد نقل عنه كثيراً . والكتاب التاريخي العام الذي صنَّفه ابن الجزار هو كتاب : التعريف بصحيح التاريخ (٣) وهو كتاب جليل الفائدة يدل على ارتقاء الحس التاريخي في إفريقية آنذاك ، ويقول حسن حسني عبدالواب (٤) إن ابن أبي أصيبعة صاحب كتاب طبقات الأطباء ، وياقوت الحموي في كتابة معجم الأدباء قد ذكراه وأثنيا عليه . أما الحبيب الهيلة محقّق كتاب الحلل السندسية في الأخبار التونسية لابن السراج ، فإنه يذكر بالإضافة إلى ابن أبي أصيبعه وياقوت ، نقولات كل من الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات ، وحاجي خليفة في كشف الظنون ، والبغدادي في هدية العارفين عن كتاب التعريف هذا ، ويضيف إلى ذلك قوله إنه قد نقل عن ابن الجزار في كتابه هذه أكثر مؤرخي الطبقات المغربية والأندلسية مثل القاضي عياض في المدارك ، والمالكي في رياض النفوس ، والدباغ في

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٣١٨ البشير البكوش : نفسه ، ص١٥م.

(٢) الورقات ، القسم الأول ،ص ٣١٨ .

(٣) ابن السراج : الحل السندسية في الأخبار التونسية ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، حاشية ، رقم(٢) ص ٧٦٣ – حسن حسنى عبدالوهاب : نفسه .

(٤) نفسه ، ص ٣١٨ .

معالم الإيمان والمؤرخ الأندلسي ابن حيان في كتابه المقتبس (١) .

وأخيراً فإن لابن الجزار كتاباً في التراجم بعنوان : طبقات القضاة ، ترجم ، ترجم فيه لقضاة إفريقية حتى عصره . (٢)

ويوسعنا أن نعد الفقيه أبا القاسم أو أبا سعيد المعروف بالبراذعي (ت بعد ٣٧٢هـ) أحد مؤرخي هذا العصر ، فقد صنَّف كتاباً (في تصحيح نسب بني عبيد) ، وهو الكتاب الذي كان أحد أسباب نقمة فقهاء المالكية عليه كما أوضحنا من قبل (٣) .

ومن أولئك المؤرخين ، أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد بن رشيق (ت ٣٧٦هـ) الفقيه المحدث الذي كنا قد ترجمنا له من قبل عند حديثنا عن دراسات علم الحديث . فلقد ذكر بأنه كان ذا اهتمام بعلم التاريخ ، وقد وصف بأنه كان له (تقدم في معرفة الآثار والسير والأخبار) (٤) .

ومن الذين عنوا بالترجمة لبعض علماء وفقهاء إفريقية المشهورين آنذاك الفقيه : أبو عبدالله الحسين بن أبي العباس عبدالله بن عبدالرحمن الأجدابي (ت٣٨٤هـ) . فلقد صنف مجموعة من الكتب ككتاب : مناقب ربيع القطان ، وكتاب مناقب أبي الفضل الممسى ، وكتاب مناقب أبي اسحاق السبأي ، وكتاب مناقب ابن نصرون – وكلهم فقهاء لهم شهرة معروفة –

---

(١) الجزء الأول ، القسم الثالث ، حاشية رقم (٢) ص ٧٦٣ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والقسم ، ص ٣١٩ .

(٣) أنظر قبل ص ٣٦٠ .

(٤) عبدالرحمن ياغي : نفسه ص ١٨٩– ١٩٠ .

آنذاك - . (١)

ومن مؤرخي إفريقية المشهورين أيضاً أبو بكر عتيق بن خلف التجيبي (ت : ٤٢٢هـ) وله كتاب مشهور يعرف بكتاب الافتخار بمناقب شيوخ القيروان وماتعلق بهم من تاريخ فقهاء الأمصار (٢) . وللتجيبي كتاب آخر يعرف بكتاب الطبقات (٣) .

على أن أشهر وأبرز مؤرخي إفريقية ليس في عصر الزيريين وإنما ، في كل عصور الرسالة ، كان بلامراء المؤرخ الكاتب الأديب ابراهيم الرقيق المعروف بالرقيق القيرواني (٤) (ت : ٤٢٥هـ) . والرقيق القيرواني عرفناه كاتباً مرموقاً من كتاب الدولة الزيرية . لكن مالم نعرفه بعد هو مكانته في علم التاريخ . وفي الحق فإن شهرته في علم التاريخ قد فاقت شهرته في

---

(١) ترجم له كل من عياض : نفسه ، ج٢، ص٦٢١ - ٦٢٢ - الدباغ : نفسه ، ج٣، ص١٠٦- ١٠٧- (وهو الذي أشار إلى تاريخ وفاته) - البشير البكوش : مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ٢١٦ (وقد ذكر أن وفاته كانت سنة ٤٣٢هـ) ولكن يبدو أن هذا وهم منه .

(٢) هذا مازودنا به البشير البكوش : نفس مقدمة الجزء الأول من الرياض أعلاه ص ٢١٦- أما الدباغ : نفسه ، ص ١٥٨- ١٥٩- فقد أشار إلى أن اسم الكتاب هو كتاب الافتحار فحسب .

(٣) الدباغ : نفسه ، ص ١٥٨ - ١٥٩ - البشير البكوش : نفسه ص ١٦. .

(٤) ترجم له كل من ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج ج الزمان ص ٢٨-٣٤ الصفدي : الوافي بالوفيات ، ج٦ ، ص ٩٢ - ٩٣ - ابن الخطيب : تاريخ المغرب في العصر الوسيط ، القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام ، حاشية رقم (١) ص ٦٩- الزركلي : نفسه ، ج١ ، ص٥٧ (وعنده أن وفاته كانت سنة ٤٢٥هـ) - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الثاني ، ص٤٣٨- ٤٤٧(وعنده أن وفاته كانت سنة ٤٢٥هـ) .

الأدب والكتابة وعلم التاريخ وتأليف الأخبار وهو بذلك أحذق الناس) (١) .

أما ابن خلدون فقد قال عنه مانصه : (ابن الرقيق (٢) مؤرخ إفريقية والدول التي كانت بالقيروان ، ولم يأت من بعده إلاّ مقلد) (٣) .

ولقد ترك الرقيق القيرواني مجموعة من المصنفات القيمة مثل كتاب تاريخ إفريقية والمغرب ، ويقع في عشر مجلدات ، تناوله فيه أحداث بلاد إفريقية والمغرب حتى سنة ٤١٧هـ (٤) . وهذا الكتاب من أجل المصنَّفات التاريخية، وقد اعتمد عليه كثير من مؤرخي إفريقية وغيرهم في تأريخهم لأحداث المغرب العربي (٥) .

ويرى المنجي الكعبي (٦) محقق القطعة التي وجدت من كتاب تاريخ إفريقية والمغرب أن كتاب الرقيق هذا قد احتوى على كثير من التفصيلات التاريخية المهمة التي خلت منها نقولات بعض المؤرخين عنه كابن عذاري وغيره .

---

(١) فيما ينقله عنه حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق والقسم : ص ٤٤١ .

(٢) هذا خطأ تاريخي ، فالثابت تاريخياً أن كلمة ابن التي تسبق كلمة الرقيق هي وهم تاريخي جرى عليه كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين . أما الصحيح فهو : ابراهيم الرقيق أو الرقيق القيرواني ، وهو نعت له وليس اسما لابيه أنظر اشاذلي بويحيى : مقاله حول نشر كتاب قطب السرور ، أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، ص ٨-٩ .

(٣) فيما ينقله عنه حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم والصفحه .

(٤) كما لاحظ ذلك حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٤٤٢- ٤٤٣ .

(٥) حسني حسني عبدالوهاب : نفسه ، ص ٤٤٢-٤٤٣ - المنجي الكعبي : مقدمة تحقيق كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق ص ٧-٨ ، ١٠-١١- ١٣ .

(٦) مقدمة تحقيق تاريخ إفريقية والمغرب ،ص ١٠- ١١ ،١٣ .

أما حسن حسني عبدالوهاب (١) ، فإنه يرى أن كتاب تاريخ إفريقية والمغرب هو مأثرة الرقيق الخالدة ، ويرى أيضاً أن الكتاب أستمد أهميته من اعتماد مؤلفه على الوثائق التاريخية التي كان يطّلع عليها بحكم اشتغاله في ديوان المراسلات الزيري كما ذكرنا من قبل .

وممّا هو جدير بالذكر أن معلومات الرقيق القيرواني تزداد كثافة كلما قرب من الأحداث التي عاصرها ، والمتتبِّع للقطعة الموجودة من تاريخه التي تقف عند إمارة الأمير عبدالله بن ابراهيم بن الأغلب (ت : ٢٠١هـ) وما تناثر من معلومات تاريخيه مهمة في كتاب ابن عذارى نقلاً عن الرقيق القيرواني بشأن أخبار الأمراء الزيريين (٢) . سيلمس الفارق ، وهذا أمر طبيعي إذ كان الرقيق يؤرخ للأحداث السياسية والاجتماعية التي شاهدها وعايشها بحكم اضطلاعه برئاسة ديوان الإنشاء مدة ربع قرن ، ولذلك أتت معلوماته كثيفة غزيرة كشاهد عيان عاصرها وشارك فيها .

وللرقيق كتاب تاريخي آخر بعنوان أخبار بني زيري الصنهاجيين ، ويحتوى على معلومات وأخبار عن الأمراء : زيري بن مناد ، وابنه بلكين بن زيري ، وحفيده المنصور بن بلكين (٣) . كما أن للرقيق كتاباً في التاريخ بغنوان : الإختصار البارع للتاريخ الجامع ، ويقع في عدة مجلدات كما ذكر الصفدي في كتابه الوافي بالوفيات (٤) .

---

(١) الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٤٣- ٤٤٤ .

(٢) أنظر مثلا ابن عذاري ، نفسه ، ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ،ص ٤٤٤ .

(٤) فيما ينقله عنه حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٤٤٦ .

وبإمكاننا أن نعد ابن رشيق الأديب الإفريقي المشهور (ت : ٤٥٦هـ) من مؤرخي العصر الزيري المتأخرين ، فقد ذكر بأن له كتاباً في التاريخ بعنوان : ميزان العمل في أيام الدول (١) ، أو ميزان العمل في التاريخ (٢) .

وفي وسعنا كذلك أن نعد ابن شرف القيرواني الأديب المشهور (ت ٤٦٠هـ) هو الآخر مؤرخاً ، فقد ذكر بأن له كتاباً في التاريخ ذيَّل به كتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني (٣) .

وأخيراً فإن الفقيه المشهور أبا بكر المالكي يعد بتصنيفه لكتابه الممتع رياض النفوس ، من مؤرخي إفريقية المتأخرين ، فالكتاب عدا القيمة الفقهية العظيمة التي نستمدها منه يعد كتاباً تاريخياً قيِّما .

وكتاب رياض النفوس للمالكي يلقى ضوءاً جديداً على تاريخ المغرب الإسلامي كما لاحظ بحق حسين مؤنس (٤) . فالكتاب يقدم معلومات قيِّمة عن الفتح الإسلامي للمغرب ، كما أنه يقدِّم معلومات مهمَّة عن الحياة العامة للإفريقيين سواء ما يتصل منها بالنواحي السياسية والإجتماعية أو العلمية أو العمرانية . ومن ناحية أخرى فالكتاب يسلِّط الضوء على موضوع جديد كان له السبق في خوضه ، وهو التأريخ للأربطة وسكانها من العباد والعلماء

---

(١) كما يقول عبدالسلام عبدالقادر المري : دليل مؤرخي المغرب الأقصى ، ص ١٦٦ .

(٢) كما يقول عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص١٧٨- ١٧٩ (نقلا عن مصادر مختلفة) .

(٣) البشير البكوش ، مقدمة تحقيق الجزء الأول من رياض النفوس ص ١٧ م .

(٤) مقدمة تحقيقه للجزء الأول من رياض النفوس ،ص ٢٤ ومابعدها .

المتطوعين ، الذي سكنوها . (١)

وتزداد أهمية الكتاب أكثر فأكثر بالنقولات المهمة التي نقلها المالكي عن المصـــادر التي سبقتـــه في التأريخ لإفريقية . ولقد أحصى البشير البكوش (٢) في جهد مشكور جميع المصادر التي أعتمد عليها المالكي في روايته للأخبار والتواريخ ، سواءاً كانت مصادر تاريخية أو مصادر فقهية أوحديثية وسواءاً تلك التي نص صراحة على نقله منها أو أغفل ذكرها .

وهكذا نرى أن الدراسات التاريخية قد بلغت في عصر الزيريين مبلغاً كبيراً من الرقي والإزدهار والتوسع .

---

(١) أنظر حسين مؤنس : مقدمة تحقيقه للجزء الأول من الرياض ، ص ٢٢م - ٢٧م .

(٢) البشير البكوش : في مقدمة تحقيقه للجزء الأول من رياض النفوس ص ٢٠م - ٢٢م .

الفصـــل الســادس

الدراســات الطبيعيــة

- الطب والصيدلة
- الفلك والرياضيات

- الطب والصيدلة :

في حديثنا السابق عن الدراسات الإنسانية ذكرنا أن إفريقية قد سجلت حضوراً علمياً في الدراسات الطبيعية ، وإن كان ذلك الحضور العلمي لايتساوى مع الحضور العلمي في حقلي الدراسات الشرعية والأدبية من جهة ، ولايجاري - من جهة أخرى - مثيله في المشرق أو الأندلس .

ومع ذلك فإنه يحق لنا أن نشيد بالتقدم والإزدهار الذي أسداه ذلك الحضور العلمي لمسيرة الحياة العلمية في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فإفريقية على عدم توفر الأسباب الكفيلة بتقدم الدراسات الطبيعية بها ، إلاَّ أنها أهدت إلى حركة العلوم الإسلامية العديد من الرموز العلمية الطبية التي كان لها آلأثر الحسن في تقدم الدراسات الطبيعية تلك .

وكيفما كان الأمر فإننا إذا مضينا نبحث عن الطب وعلومه في إفريقية - وهو حقل من أهم حقول الدراسات الطبيعية - فإننا سنجد حضوراً متميزاً بشأنه خلال الفترة موضع الاهتمام . فلقد رعت الأنظمة السياسية التي تعاقبت على حكم إفريقية وخاصة الدولة الأغلبية علوم الطب وشجعتها ، واستمر الاهتمام بها يتواصل ممَّا حفز أبناء إفريقية على مواصلة جهودهم في إثراء البلاد ببحوثهم ومصنفاتهم .

وممَّا يلاحظ على حركة العلوم الطبيعية في إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة أن بزوغها ومن ثم ازدهارها قام على أكتاف فئة من الأطباء المشارقة وفدت إلى إفريقية فنشرت علومها ومعارفها الطبية في البلاد من ناحية ، ورعت بعض أبناء البلاد وشجعتهم على الانخراط في تعلم

علوم الطب من ناحية أخرى . بيد أننا نستدرك فنقول إن نسبة هؤلاء الأطباء من أبناء البلاد كانت ضئيلة .

والملاحظة التي اتضحت لنا ونحن نرقب الحركة الطبية الإفريقية أن عدداً من أطباء إفريقية وقتذاك كانوا من غير المسلمين ، وهذا أمر يمكن فهم أبعاده من خلال أوّلية اليهود والنصارى في هذا المجال عادة .

العلوم الطبية في عصر الولاة :-

من المعلوم أن عصر الولاة في إفريقية قد اكتنفت معظم سنواته الفتن والإضطرابات ، فكان من الطبيعي ، ألاّ يشهد عناية بعلوم الطب ، ونستثنى من ذلك عصر الوالي يزيد بن حاتم المهلبي ، الذي عرف عهده قدوم أحد أطباء المشرق المشهورين ، وهو الطبيب السرياني أبو يوحنا ماسويه . وأبو يوحنا ماسويه كان أحد الأطباء المهرة من أتباع مدرسة جند يسابور الطبية في ألعراق، ثم قدم على الأمير يزيد بن حاتم ، حيث ظل في معيته فترة من الزمن ، ويميل حسن حسني عبدالوهاب إلى القول بأن أبا يوحنا ماسويه ربما يكون قد عاد ثانية إلى المشرق بعد وفاة الأمير يزيد بن حاتم لاسيما أن ابنه يوحنا بن ماسويه قد نال درجة رفيعة في الطب في بغداد في عهد الخلفاء : الرشيد، والأمين، والمأمون ، والمتوكل . (١)

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب الورقات ، القسم الأول ،ص ٢٧١ .

على أننا في الحقيقة فيما عدا ماذكره حسن حسني عبدالوهاب (١) من قدوم أبي يوحنا ماسويه إلى إفريقية ، لم نعثر على أي نشاطات طبية له في هذه البلاد ، اللهم إلاَّ إشـــارة عابرة أوردها المالكي في سياق ترجمته للقـاضي عـبـــدالرحـمن بن زياد بن أنعم (ت : ١٦١هـ) تنوه بمهـارته في الطب (٢) .

العلوم الطبية في عصر الأغالبة :

لإخفاء في أن العلوم الطبية في عصر الأغالبة قد شملها الكثير من التوسع والإطراد في الكم والنوع ، وبوسـعنا أن نقول بـأن هذا العصـر هو العصر الذي شـهد البداية الحقيقية للدراسات الطبية الإفريقية . ومامن ريب في أنه كان لجهود الأمراء الأغالبة ، ولاسيما الثلاثة الآخر منهم : ابراهيم الثـاني وابنه عبـدالله ، وحـفـيده زيادة الله الثـالث الدور الكبـير فـي تقـدم الدراسات الطبيعية عامة والطبية على وجه الخصوص . ولقد تمثَّل ذلك الدور في تأسـيس بيت الحكمـة برقـادة الذي قـصـد منه العناية بتلك العلوم التي شغفت لب أولئك الأمراء .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ،ص ٢٧١ .

(٢) ذكر المالكي أن القاضي عبدالرحمن بن زياد بن أنعم أكل في الليلة التي مات فيها حوتاً وشرب لبناً على مائدة الأمير يزيد بن حاتم . وكان الطبيب يوحنا (وهكذا يسميه بدون : أبو) حاضراً ، فاستنتج من خلال خبرته الطبيه أن ذلك ربما يكون سببا في موت القاضي . ولقد توفى القاضي فعلاً في فجر تلك الليلة ، أنظر المصدر السابق والجزء ،ص ١٠٢ .

وممًا ساعد على تقدم الدراسات الطبية في عصر الأغالبة قيام الأمراء الأغالبة بتأسيس البيمرستانات أو المستشفيات للمصابين بالأمراض المعدية. ولقد عرفت تلك البيمرستانات أو المستشفيات في كتب مؤرخي التراجم والطبقات الإفريقية بالدمنة . (١) والدمنة في الأصل عبارة عن ناحية من نواحي مدينة القيروان أنشئ فيها أو تلك المستشفيات ، ثم مع تتابع الأمر صارت اسم علم المستشفى بحيث أصبحت الدمنة تعنى المستشفى نفسه ، وقد تتابع إنشاء تلك الدمن في كثير من مدن إفريقية ، كتونس ، وسوسه ، وصفاقس (٢) .

ومهما يكن من أمر ،فإن من أوائل الأطباء الكبار الذين عرفهم العصر الأغلبي الطبيب المشهور اسحاق بن عمران الملقب بسم ساعة (٣) . الذي استقدمه الأمير زيادة الله الثالث آخر الأمراء الأغالبة إلى بلاطه في القيروان . ويذكر ابن جلجل في كتابه : طبقات الأطباء والحكماء (٤) ، أن الأمير زيادة الله كان حريصاً على قدوم اسحاق بن عمران إلى بلاطه ، حتي أنه وافق على الشروط التي وضعها اسحاق بن عمران للموافقة على المجئ

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٧٣ – ٢٧٤ – بساط العقيق ،ص ٢٢-٢٣ .

(٢) حسن حسني عبد الوهاب : الورقات ، القسم الأول ص ٢٧٤ .

(٣) ترجمته موجودة عند ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء تحقيق فؤاد السيد ، ص ٨٤ – ٨٧ – ابن أبي أصبعة : عيون الأخبار في طبقات الأطباء ،ص ٤٧٨– ٤٧٩– شوكت الشطي : مختصر في تاريخ الطب وطبقات الأطباء عند العرب ،ص ١٧٩– ١٨٠– كارل بروكلمان : تاريخ الأدب الجزء الرابع ،ص ٢٦٨– عمر رضا كحالة : العلوم البحته في العصور الإسلامية ،ص ٢٠٠ .

(٤) ص ٨٤ – ٨٥ .

إلى القيروان .

أما من حيث مكانته في عالم الطب فإنها ليست مجال نزاع ولقد قال ابن جلجل (١) عنه مانصه : (وبه ظهر الطب بالمغرب وعرفت الفلسفة ، وكان طبيباً حاذقاً مميَّزاً بتأليف الأدوية المركبة) . كما أورد ابن جلجل (٣) في ترجمته له حادثة طبية جرت له مع الأمير زيادة الله دلَّت على علو كعب اسحاق بن عمران في التطبيب والمعالجة .

وعندما غضب الأمير زيادة الله على الطبيب اسحاق بن عمران وصرفه من خدمته اتخذ اسحاق بن عمران من إحدى ساحات مدينة القيروان مكاناً للمعالجة ، فوضع (هنالك كرسياً ودواة وقراطيس ، فكان يكتب الوصفات كل يوم بدينار) (٣) ، غير أن الأمير زيادة الله مالبث أن تخلص منه بالقتل بعد ذلك .

أما عن مصنفاته الطبية ، فقد كتب مجموعة من الكتب القيِّمة ، مثل كتاب نزهة النفس ، وكتاب في داء المالخونيا ، الذي لم يسبق إلى مثله كما يقول ابن جلجل ، ومن تلك الكتب أيضاً ، كتاب في الفصد ، وكتاب في النبض (٤) ، ومقالة في الاستسقاء وكتاب العنصر والتمام ، ومقالة في علل القولنج وأنواعه وشرح أدويته ، وكتاب في البول من كلام أبقراط وجالينوس

---

(١) طبقات الأطباء والحكماء ، ص ٨٥ .

(٢) طبقات الأطباء ،ص ٨٦ – ٨٧ .

(٣) ابن جلجل : نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٧ .

(٤) عن كتابه نزهة النفس وكتاب المالخونيا ، وكتاب الفصد ، وكتاب النبض أنظر ابن جلجل نفس المصدر أعلاه ، ص ٨٥–٨٦– ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٧٩ .

وغيرهما ، وكتاب جمع فيه أقاويل جالينوس في الشراب ، ومقالة في بياض المعدة ورسوب البول ، إلى غير ذلك من الكتب والرسائل (١) .

ومن أطباء إفريقية في العصر الأغلبي طبيب يهودي كان منافساً للطبيب اسحاق بن عمران في بلاط الأمير زيادة الله ولم يذكر لنا ابن جلجل (٢) الذي أشار إلى هذه الحقيقة ، أكثر من ذلك ، فلم يذكر لنا اسمه ولا أي نشاطات طبية أخرى له .

وهناك صيدلي معروف عرفه عصر الأغالبة هو اسماعيل بن يوسف القيرواني النحوي المعروف بالطلاء المنجم (٣) واسماعيل بن يوسف الطلاء رجل متعدد المواهب ، فقد كان نحوياً ومنجماً وصيدلانيا . ومما يذكر عن براعته في علم الصيدلة أنه عندما عزم على مغادرة العراق عائداً إلى بلدة القيروان رغب في أن يدخل إلى بلاده الطلاء العراقي الذي كان عبارة عن طلاء يعمل من خلط العقاقير بمائع خلطاً محكماً ، ويسمى الضماد أيضاً . ولقد تلطف اسماعيل بن يوسف في الحصول على سر هذا المركب الكيميائي حتى استطاع فعلا أن يحصل على صناعته من البغداديين (٤) .

---

(١) عن كتب الاستسقاء ، والعنصر والتمام ، وعلل القولنج ، والبول ، ومقالة الشراب ، ومقالة بياض المعدة ورسوب البول ، أنظر ابن أبي اصيبعه : نفسه ، ص ٤٧٩ .

(٢) نفسه ، ص ٨٧ .

(٣) ترجمته موجودة عند الزبيدي الأندلسي : نفسه ص ١٦٤- ١٦٥- القفطي : نفسه ، الجزء الأول ، ص ٢١٣ - ٢١٤ (وقد ذكر محقق كتاب القفطي ابراهيم أبو الفضل ابراهيم أن لاسماعيل الطلاء عدة تراجم في أكثر من مصدر من مصادر الطبقات الطبية واللغوية.

(٤) القفطي : نفسه .

العلوم الطبية في عصر الفاطميين :

الحقيقة أنه ليس ثمة مايميِّز العلوم الطبية في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة ، فأطباء هذا العصر هم أطباء عاشوا ردحاً من الزمن في العصر الأغلبي ثم عاصروا الدولة الفاطمية وأدركتهم المنية في عهدها ، وهم في معظمهم اتباع للمدرسة الطبية التي وضع أساسها الطبيب اسحاق بن عمران .

ومن أطباء هذا العصر المشهورين اسحاق بن سليمان الإسرائيلي (١) (ت قريباً من سنة ٣٢٠هـ) (٢) . واسحاق بن سليمان الإسرائيلي مصري الأصل، قيرواني السكني والوفاة ، ولقد لازم الطبيب اسحاق بن عمران وتتلمذ عليه ، وعندما سقطت الدولة الأغلبية وقامت الخلافة الفاطمية التحق بخدمة الخليفة عبيدالله المهدي .

ويقول ابن جلجل (٣) عنه : (وكان طبيباً لسناً عالماً بتقاسيم الكلام). أما عمر رضا كحالة (٤) فإنه يقول عنه إنه أسهم في إثارة حركة علمية

---

(١) ترجمته موجودة عند ابن جلجل : نفسه ص ٨٧– ابن أبي أصبعة : نفسه ص ٤٨٠–٤٨١ شوكت الشطي : مختصر في تاريخ الطب وطبقات الأطباء عند العرب ،ص ١١٩– ١٢٠ – كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي ، ج٤، ص ٢٨٦– ٢٨٨– عمر رضا كحالة : العلوم البحته في العصور الأسلامية ، ص٢١، ٣٠ .

(٢) كما ذكر محقق كتاب ابن جلجل في حاشية ص ٨٧– عمر رضا كحالة : نفس المرجع أعلاه ، ص٢١.

(٣) ابن جلجل : نفسه ، ص ٨٧ .

(٤) نفسه .

قيمة في ذاتها في إفريقية ، كما يذكر أنه قد صنف كتاباً في الطب ، والذي سرعان ماترجم إلى العربية بأمر من الخليفة عبيدالله المهدي .

ومهما يكن من أمر فإن اسحاق بن سليمان الإسرائيلي قد ترك مجموعة من الكتب الطبية القيِّمة مثل كتاب البول (وهو أشبع كتاب ألفه مؤلف بذَّ فيه جميع المتقدمين) كما يقول ابن جلجل (١) ، وكتاب الحميات (٢) وكان صاحبه معجباً به كثيراً ، وقد ترجم إلى العربية ، وكتاب في الغذاء والدواء ، وكتاب في الترياق ، وكتاب في المدخل إلى صناعة الطب ، وكتاب الإسقطسات (٣) ، إلى غير ذلك .

ومن أطباء إفريقية الذين عاصروا الدولتين الأغلبية والفاطمية زياد بن خلفون مولى بنى الأغلب (٣٠٨هـ) وهو أحد الذين تلقى علومه الطبية على يدى سليمان بن عمران ، ولمَّا قامت الخلافة الفاطمية التحق بخدمة الخليفة عبيدالله المهدي (٤) .

وممَّا يذكر أن زياد بن خلفون كان أيام الحكم الأغلبي يضطلع بمعالجة الأمراء والرؤساء والأعيان ، كما أنه كان يباشر عمله في دمنة القيروان (٥) .

---

(١) نفسه ، ص ٨٨ – وأنظر كارل بروكلمان : المرجع السابق والجزء ص ٢٨٦ .

(٢) ابن جلجل : نفسه ، ص ٨٨– كارول بروكلمان : نفس المرجع السابق أعلاه والجزء والصفحة .

(٣) ابن جلجل : نفسه – ابن أبي اصيبعه : نفسه ، ص ٨١– كارل بروكلمان : نفسه ، ص ٢٨٦–٢٨٧ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص٢٤١– ٢٤٢ .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه والقسم ، ص ٢٤١ .

ومن الأطباء المعروفين آنذاك أبو الفضل بن الفضل بن على بن ظفر (ت ٣٢٣هـ) الذي تلقى علومه الطبيه على يدى اسحاق بن عمران وتلميذه اسحاق بن سليمان وغيرهما . وهو أحد أطباء بيت الحكمة القيرواني . ومع أن مؤرِّخي الطبقات المغربية كالخشني وابن ناجي ، وكذلك ابن عذاري قد أشاروا إلى نبوغه في علم الطب إلاَّ أنهم لم يوردوا لنا شيئاً عن نشاطاته في مجال التصنيف (١) .

ومن الأطباء المذكورين وقتذاك أبو سهل دونش (ت٣٦٠هـ) ، ويسمى باسم آخر هو أونيم بن تميم الملقب بالشَقْلُجي الإسرائيلي. وأبو سهل دونش أحد أطباء إفريقية الذين تتلمذوا على اسحاق بن عمران ، وكان مع اتقانه للعبرية وبراعته فيها ، يتقن اللغة العربية أيضاً .

ولقد اتصل بالخلفاء الفاطميين وخاصة الخليفة المنصور وابنه المعز لدين الله ، وصنف لهما العديد من كتبه ، ومماَّ يذكر أنه بقى على ديانته اليهوديه ، وكان يتبادل الرسائل الطبية وغيرها مع أطباء اليهود في الأندلس كالطبيب حسداى بن اسحاق الذي كان طبيباً للخليفة الحكم المستنصر .

وقد صنف أبو سهل دونش مجموعة من الكتب الطبية مثل كتاب : التلخيص في الأدوية المفردة ، وقد احتوى على بيان في المكاييل الطبية التي كانت مستعملة آنذاك . ومنها كتاب المستلحق ، وسلسلة رسائل كرسالة التسوية ، ورسالة التغريب والتسهيل ، ورسالة التنبيه ، ورسالة الأصول ،

---

(١) أنظر حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٤٣، ٤٤ (حيث الإشارة إلى ذلك وإلى معلومات أخرى عن مهارات الفضل بن على الأدبية) .

إلى غير ذلك (١) .

وفي منتصف القرن الرابع للهجرة شهدت إفريقية بزوغ نجم أسرة طبية مشهورة ، هي أسرة الجزار التي اشتغلت بالطب مدة مائة عام وقد عاش في ظل الفاطميين اثنان منهما هما : أبو بكر محمد أبي خالد بن الجزار ، وشقيقة ابراهيم بن أبي خالد ، ولقد نبع الإثنان في الطب وتلقيا علومهما على يدى اسحاق بن عمران وغيره . وكان للأول منهما شهرة عريضة ومصنفات في الطب والصيدلة بينما كان الثاني كحالاً أي طبيباً من أطباء العيون (٢) آنذاك .

كما عرف العصر الفاطمي نبوغ أسرة العزار التي اشتغلت بالطب في عهدهم ، وهي أسرة يهودية عاشت في إفريقية آنذاك وأول رجال هذه الأسرة الطبية هو موسى بن العزار المكنى بأبي ابراهيم (ت بعد ٣٦٣هـ في مصر) . الذي التحق بخدمة الخليفتين المنصور ، والمعز ، ولكن شهرته الطبية زادت في عهد الخليفة المعز الذي اصطحبه معه عند ماغادر المغرب إلى مصر ٣٦٢هـ ، حيث توفى بها في العام التالي كما ذكرنا آنفا .

ويبدوا أن موسى بن العزار كان الطبيب الرسمي للبلاط الخلافي . فقد ذكر بأنه ركَّب للخليفة عدة أدوية كشراب التمر هندي وهو أول من ركَّبه وشراب الأصول المنقح للسدد والمحلل للرياح الشراسيفيه والأمغاص

---

(١) عن أبي سهل دونش الأسرائيلي ومكانته الطبيه وغيرها ، وتفاصيل واسعة عن حياته ، أنظر حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، القسم الأول ص ٢٩٧- ٣٠٠ .

(٢) عن أبي بكر محمد بن أبي خالد وأخيه ابراهيم راجع ماكتبه مفصلاً حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

العارضة للنساء عند حضور الطمث ، وغير ذلك .

ومن الكتب الطبية المحضة التي كتبها موسى بن العزار كتاب المعزي، وقد صنفه للخليفة المعز ، وكتاب السعال ، وفي الصيدلة كتب الأفراباذين في جزء واحد (١) .

ومن أفراد هذه الأسرة الطبية التي عاشت في كنف الخليفة الفاطمي سواء في المغرب أوفي مصر عون الله بن موسى بن العزار وهو أكبر ابناء الطبيب موسى . ولقد اعتنق عون الله الإسلام كما التحق مع والده بالخليفة المعز إبان مغادرته المغرب إلى مصر ، وظل يعمل في خدمة الخليفة حتى توفى في مصر عام ٣٦٣هـ بعد أبيه بوقت قليل .

ومنهم شقيقه اسحاق بن موسى وكان مقرباً كذلك من الخليفة المعز ، وتوفى أيضاً بمصر عام ٣٦٣هـ ، بعد أخيه عون الله بيوم واحد . وبالإضافة إلى هذين الولدين كان هناك ابن آخر لموسى بن العزار اشتغل بمهنة الطب، وكان مقرباً من الخليفة المعز أيضاً ، وهو اسماعيل بن موسى وهو أصغر اخوته . وقد قدمه الخليفة في مكان أخيه المتوفى اسحاق . وهناك طبيب خامس من أفراد هذه الأسرة، عمل في خدمة الخليفة المعز أيضاً وهو يعقوب بن اسحاق بن موسى حفيد موسى بن العزار رأس هذه الأسرة الطبية (٢) .

---

(١) عن موسى بن العزار وتفاصيل أخرى عن حياته الطبية ، أنظر حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، والقسم ص ٣٠١ - ٣٠٣ .

(٢) عن هؤلاء الأطباء ، أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : المرجع السابق والقسم ، ص ٣٠٢ - ٣٠٤ .

ومن أطباء العصر الفاطمي أيضاً الطبيب أعين بن أعين (ت في مصر ٣٨٥هـ) الذي كان مشتهراً ببراعته في طب العيون ، وهو الحقل الذي تخصص فيه . ولقد اصطحبه الخليفة المعز لدين الله معه إلى مصر في جملة من اصطحب من الأطباء. ومما ينسب إليه من مصنَّفات كتاب أمراض العين ، ومداواتها ، وكتاب في الطب (١) .

العلوم الطبية في عصر الزيريين :-

إن ممَّا يلفت النظر بشأن العلوم الطبية في هذا العصر، هو أنها لم تلق حظاً من العناية والاهتمام من قبل الإفريقيين . فلم نلحظ في ذلك العصر تلك الكثافة في عدد الأطباء ، ولا تلك الكثرة في المصنفات الطبية التي شهدناها في العصرين : الأغلبي والفاطمي . كما أن معظم الأطباء الذين ينتمون إلى هذا العصر، عاشوا شطراً طويلاً من عمرهم في العصر الفاطمي وكانت وفاتهم في العصر الزيري .

وكيفما كان الأمر فقد عرف هذا العصر طبيباً مشهوراً جداً هو الطبيب والمؤرخ ذائع الصيت أبو جعفر أحمد بن ابراهيم ابن أبي خالد

---

(١) عن براعته في طب العيون أو الكحاله : الدباغ : نفسه ج٣ ، ص ١٥٤- ١٥٥- أما عن المعلومات التي وردت عنه في المتن ، فانظر حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والجزء أعلاه ، ص ٣٠٥ .

ابـن الجـزار (١) (ت : ٣٦٩هـ) (٢) . وأحـمـد بن أبي خـالد بن الجـزار واحد من رموز العلم والمعارف الإفريقية قاطبه ، ليس لعصره فحسب ، بل لكل عصور الرسالة ، ولقد رأيناه من قبل مؤرخاً مشهوراً وجغرافياً مبرزاً ، كما رأيناه عالم تربية مرموق ، وفوق هذا وذاك فقد كان أدبياً لامعاً .

لكن العلم الذي برز فيـه ونبغ ، كـان بلا نزاع الطب والصيـدله وفي الحق فإن شـهرة ابن الجزار الطبية تعود إلى عدة أسـباب : أولها أنه أول طبيب إفريقي محلي مسلم بلغ تلك المرتبة العالية في الطب . والسبب الثاني أن شـهرته في الطب تجاوزت بلده إفريقية – وذلك في حياته وبعد مـوته – ،

(١) لم يلق طبيب إفريقي من العناية والإهتمام من قبل المؤرخين مثل مالقيه ابن الجزار، فقد ذكره : ابن جلجل : نفسه ، ص ٨٨–٩١ ابن أبي اصيبعه : نفسه ، ص ٤٨٢– ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، ج٢، ص١٣٦– ١٣٧ – الصفدي : نفسه : ج٦، ص ١٠٨– ٢٠٩– ومن المحدثين : كارل بروكلمـان : تاريخ الأدب العـربي ج٢، ص٢٩٦–٢٩٩– الزركلي : نفـسـه ، ج١، ص ٨٥– ٨٦– حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق ، والقسم ص ٣٠٦–٣٢٢ (وهي ترجمة وافية واسعة) – شوكت الشطي : مـختصر في تاريخ الطب ، ص ١٨١– عبدالعزيز بن عبدالله : الطب والأطباء بالمغرب ،ص ١١ – عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ص ٢٨٢ – عمر رضا كحاله : العلوم البحته في العصور الإسلامية ،ص ٢٢ . وغير ذلك .

(٢) لقد اختلف في تاريخ وفاته اختلافاً بيناً ، فهناك فريق من المؤرخين القدامى والمحدثين يرى أنه توفى سنة ٣٩٥هـ أو سنة ٤٠٠هـ ، وهناك فريق آخر يستبعد ذلك من الناحية التاريخيه والطبية ويذكر أدلة قوية على أن وفاته كانت سنة ٣٦٩هـ حسبما اثبتناه في المتن . عن كل ذلك أنظر ابن جلجل : نفسه ، هامش ، ص ٨٨ بقلم المحقق فؤاد السيد (وقد تعرض لأكثر الأقوال المختلفة واثبت أن وفاته كانت سنة ٣٦٩هـ) – وأنظر حسن حسني عبد الوهاب نفس المرجع السابق ،ص ٣١١– ٣١٢ وقد ذهب معتمداً على أقوال موثوق فيها بان وفاته كانت عام ٣٦٩هـ) .

إلى المشرق والأندلــس، فقـد كان المشارقة ينظرون إليه نظرة احترام وتقدير (١) . أما الأندلسيون فيكفي حرصهم على جلب مؤلفاته إلى بلادهم دليلاً على صدق مانقوله حسبما سنعرف بعد قليل .

والسبب الثالث أن شهرة ابن الجزار الطبية لم تكن على مستوى الدولة الإسلامية ، بل تجاوزت المشرق والمغرب، إلى أوربا ، حيث حظيت الكثير من مصنفاته بالعناية والاهتمام اللذين تمثلا في ترجمة تلك المصنفات إلى اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ثم أخيراً الفرنسية (٢) . وممَّا يجدر ذكره أنه يعرف لدى الأوربيين باسم «ALgizar » (٣) .

والسبب الرابع هو أن ممَّايدل على براعة ومقدرة ابن الجزار الطبية ماتمثَّل في مصنَّفاته من دقة علمية تأخذ في حسبانها ظروف بلاد إفريقية البيئية والإجتماعية ، ممَّا جعل لها ميَّزة مفردة فوق ميزتها العامة (٤) .

والسبب الخامس أن لابن الجزار بعض الأوليات الطبية على مستوى العالم أجمع بدون مبالغة، وهو تصنيفه لأول كتاب في علم طب الأطفال ،

---

(١) أنظر مثلا تقريظ الشاعر المشرقي كشاجم لابن الجزار وكتابة الأشهر زاد المسافر . عن ذلك أنظر حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ،ص ٣١٠- شوكت الشطي : نفس المرجع السابق ، والصفحه .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : المرجع السابق والقسم ص ٣١١ ، ٣١٣- ٣١٧- كارل بروكلمان : المرجع السابق ،ج٤ ، ص ٢٩٦- ٢٩٩ .

(٣) شوكت الشطي : نفسه ، ص ١٨١ .

(٤) أنظر عن هذا الموضوعماينقله حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ص ٣١٠ عن الطبيب التونسي أحمد الخميري الذي عاش في القرن العاشر الهجري .

وهو كتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم (١) . ومِمّا هو جدير بالذكر أن ذلك الكتاب يحتوي بجانب معلوماته الطبية على نظريات تربوية قيِّمة ، هذا وإن كثيراً من آراء الجزار في طب الأطفال لاتزال موضع التقدير حتى الآن (٣) .

وأخيراً ففيما يختص بمصنفات ابن الجزار الطبية والصيدلانية فقد أحصى حسن حسنى عبدالوهاب في جهد كريم كل تلك المصنفات من مظانها المختلفة ، وأشار إلى أهميتها في عالم الطب عند المسلمين والفرنجه وإلى ماترجم منها للغات الأجنبية .

ونظراً لأن تلك المصنَّفات قد بلغت نحواً من خمسة وعشرين كتاباً كما ذكر حسن حسني عبدالوهاب ، فإننا سنشير إلى أبرزها وأكثرها شهرة .

فمن تلك المصنَّفات بل لعلة أولها كتابه الأشهر : زاد المسافر وقوت الحاضر في علاج الأمراض . ويقع في مجلدين . وقد نال هذا الكتاب شهرة عالمية منذ عهد مؤلِّفه وحتى وقت قريب ، وقد ترجم إلى اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية والفرنسية كما أنه كان يدرَّس في كلية سالرنو في جنوب إيطاليا ، وقد نقله إلى الأندلس الطبيب اليهودي المعروف ابن طيبون .

ومن كتبه الاعتماد في الأدوية المفردة ، وهو عبارة عن أربع مقالات في

---

(١) محمود محمود الحاج قاسم : الموجز لما أضافه العرب في الطب والعلوم المتعلقه به ، ص ٤٩ – ٥١ .

(٢) عن آراء ابن الجزار من حيث العناية الطبية بالأطفال ، أنظر محمد محمود الحاج قاسم : نفس المرجع أعلاه ، ص ٥٤– ٥٧، ٦٢ .

معالجة الأمراض ، وقد نقل إلى اللغة العربية بعناية الطبيب اليهودي الأندلسي ابن طبون .

ومن تلك الكتب طب المشائخ ، وهو رسالة يعالج فيها الحالات التي تعترض كبار السن والمعمِّرين ، ومنها كتاب أبدال الأدوية ، وهو رسالة في الأدوية ، وكذلك نذكر كتاب الزكام وأسباب علاجه، وكتاب الجزام وأسبابه وعلاجه ، وكتاب المختبرات ، وكتابه سياسة الصبيان وتدبيرهم ، وغير ذلك (١) .

ومن الأطباء الذين عرفهم العصر الزيري الطبيب ابن الماعز الذي كان يفزع إليه في الفتيا في الطب كما يفزع إليه في الفتيا في الفقه (٢) .

وكذلك ممَّن عرف ببراعته في الطب الشاعر يعلى بن ابراهيم الأبرسي الذي كان ذا حظ وافر في علم الطب والهيئة والفلسفة (٣) .

ومنهم ابن عطاء اليهودي طبيب الأمير المعز بن باديس الخاص، كما صرحت بذلك مصادر كتب الطبقات (٤) .

---

(١) عن جهود حسن حسني عبدالوهاب في تقصي كتب ابن الجزار من المظان المختلفة وعن كتب ابن الجزار نفسها سواء التي أشرنا إليها ، أو التي أحلنا القارئ لمكانها ، أنظر المرجع السابق ، والقسم ص٣١٣ - ٣١٨ .

(٢) عبالرحمن ياغي : نفسه ، ص١٠٦(فيما ينقله عن أماري في مجموعته المكتبة الصقلية ، ذيل ص ٦٧) .

(٣) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص١٠٦ .

(٤) الجنحاني : المغرب الأسلامي ، ص ٩١.

وهناك طبيب إفريقي مشهور أنجبته البلاد في العصر الزيرى ، وهو قسطنطين الصقلي أوالإفريقي (٤٠٩-٤٨٠هـ). وقسطنطين الإفريقي كما يوحى لقبه ولد بإفريقية ، ثم تطلع إلى علوم الطب والحكمة فأتقنها، وكان مع اشتغاله بالعلوم الطبية يعمل بالتجارة وقد قادته مهنته هاته إلى جزيرة صقلية ، حيث نزل بمدينة سالونه ، وهناك توطت الصلة بينه وبين أمير المدينة جيزولف ، ثم اتقن اللغة اللاتينية ، ولقد وجد من الأمير رغبة في العلوم الطبية ، فما كان منه إلاَّ أن عاد ثانية إلى بلده إفريقية ، حيث انكب على جمع معلومات طبية غزيرة حملها معه إلى مدينة سالونه ، ومنذ ذلك الوقت أصبح يعرف بقسطنطين الإفريقي أو الصقلي .

وفي مدينة سالونه عكف قسطنطين على ترجمة أهم كتب الطب العربي ككتاب زاد المسافر لابن الجزار ، الذي أصبح لصاحبه طريقة مشت عليها أوروبا حتي وقت قريب ، كما ترجم مجموعة من كتب أطباء المشرق الكبار كالرازي ، وعلي بن العباس صاحب كتاب المالكي في الطب وحنين بن اسحاق صاحب كتاب أمراض العيون وغيرهما ، وترجم أيضاً بعضاً من كتب الطبيب الإفريقي اسحاق بن سليمان .

وبالإضافة إلى جهود قسطنطين العلمية سواء في ترجمة الكتب الإسلامية المشهورة أو في براعته في الطب ، فقد ترك مجموعة من المصنَّفات الطبِّية القيِّمة مثل كتاب البول وتحليله ، والأعضاء الداخلية في جسم الإنسان وكتاب العيون ، وكتاب الماليخوليا وكتاب الجراحة ، وكتاب المعدة ، وكتاب الحمة للمرضى ، وكتاب النبض وكتاب جسم المرأة

وأعضاءها وغير ذلك من الكتب (١)

الفلـك والرياضيـات :-

لعلنا لانجد حرجاً في القول بأن هذا الجانب من العلوم الطبيعية أو التجريبية – أي الفلك والرياضيات –، لم يصل لدى الإفريقيين إلى مستوى اهتمامهم بالطب والصيدلة ،

وإذا كان مفهوماً أن ينظر المغاربة إلى علم الفلك نظرة الكراهية لاسيما وأن جانبه النظرى مرتبط بالتنجيم (٢) الذي لايقر الإسلام كثيراً من

(١) لخصنا هذه المعلومات عن أحمد توفيق المدني في كتابه المسلمون في جزيرة صقلية ، ص ١٩٩–٢٠٢ . وتجب الإشارة إلى أن المكانة التي احتلها قسطنطين الإفريقي جاءت من ترجمته لهذا الكتب ذات الأهمية الطبية البالغة لهؤلاء العلماء المسلمين ، لامن مكانته هو نفسه في عالم الطب .

عن قسطنطين الإفريقي وماذكره بعض من الباحثين الغربيين من أن سطا على مؤلفات غيره من الأطباء المسلمين، انظر زيغريد هونكة : شمس العرب تسطع على الغرب (أثر الحضارة العربية في أوربا) ، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال الدسوقي ، راجعه ووضع حواشيه ، مارون عيسى الخوري ، ط ٤ ، ص ٢٩٣–٢٩٩ .

(٢) من الواضح أن التنجيم بمعناه الساذج المتمثّل في رصد بعض الكواكب والنجوم وحركاتها وتأثيرها في الحياة المستقبلية للإنسان تعد ضرباً من الأوهام والخرافات التي ليس لها أساس علمي – أما علم الفلك فهو العلم الذي يميل بعلم النجوم نحو الحقائق المبنية على المشاهدة والعلم والاختبار أو التطبيق ، وهو ما يعرف بالفلك التطبيقي الذي يعتمد على استخدام الآلات والمراصد والرياضيات البحتة في مراقبة حركات أفراد المجموعات الشمسية ومدارات الكواكب السيارة وأبعاد بعضها عن بعض .. الخ . والإسلام من هذا الجانب يحث على تعلم علم الفك بمعناه الدقيق ، ذلك ليتمكن المسلمون من تطبيق نظرياته الرياضية على جوانب مهمة من القضايا التعبدية ، كتحديد أوقات الصلوات التي تقتضي معرفة أوقاتها . معرفة عرض الموقع الجغرافي وحركة الشمس في البروج .. الخ . =

مناحيه . نقول إذا كان مفهوماً أن يقصِّر الإفريقيون في علم الفلك ، فإن ما لانستطيع تصوره أن يقصروا في علوم الرياضيات وهي علوم لاتثريب عليها، من وجهة النظر الإسلامية . بل إن الإسلام في كثيرمن قضاياه الحياتيه يدعو إلى تعلم مبادئها كما هو معلوم (١) . وعلى أية حال فإن إفريقية لم تكن خلوا من بعض الجهود العلمية في ذلك المجال الذي نؤرِّخ له هنا . ولربما كان الإفريقيون أو لنقل بعضهم كان مدفوعاً بعوامل محلية وشخصية إلى أن يسجل حضوراً في تلك العلوم ، حتى ولو كان ضئيلا .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الولاة :-

لعل الأثر العلمي الوحيد الذي استطعنا الظفر به ، والذي ينتمي إلى هذا العصر هو ماتمثَّل في تصنيف العالم العابد أبي علي شقران بن علي (ت١٨٦هـ) كتاباً في علم الفرائض أو المواريث (٢) . وقد صرح المالكي (٣) بأن أحدا لم يكتب مثله ، أي أن أحداً في إفريقية لم يكتب مثله.

= وللاستزادة عن هذا الموضوع أنظر قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ط٢، ص٨٧ ومابعدها - علي عبدالله الدفاع : أثرعلماء العرب والمسلمين في تطور علم الفلك ص ١٧-١٩ (نوابغ علماءالعرب والمسلمين في الرياضيات) ص ٤٣-٤٥ .

(١) أنظر علي عبدالله الدفاع : إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، تعريب وتعليق جلال شوقي ، ص٩-١٣ .

(٢) الزركلي : نفسه ، ج٣، ص١٧٠ (نقلا عن أكثر من مصدر) .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٢ .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الأغالبة :-

من البديهي أن تخطو علوم الفلك والرياضيات في عصر الأغالبة خطوات حسنة ، لاسيما وأن عصرهم قد تميز بازدهار الدراسات الشرعية أولاً ، ثم العلوم التجريبية ثانياً كما ذكرنا من قبل .

ومن أوائل المشتغلين بالرياضيات في هذا العصر أبو زكريا يحيى بن سليمان الفارسي الخضري (ت ٢٣٧هـ) ويقول الدباغ (١) . عنه : (وكان ثقة ، عالماً بالفرائض ، والحساب ، فطُلب لخدمة السلطان لأجل علمه بالحساب فهرب إلى المشرق .. الخ) .

ويوسعنا أن نعد اسماعيل بن يوسف الطلاء المنجم أحد فلكي ومنجمي عصر الأغابة . واسماعيل الطلاء رأيناه عند حديثنا عن الدراسة الطبية في العصر الأغلبي صيدلانياً بارعاً ، على أنه قد اشتهر بعلم النجامة كما يقول الزبيدي الأندلسي ومن هنا فقد كان مقرَّباً من الأمير ابراهيم الثاني بن أحمد الأغلبي (ت ٢٨٩هـ) الذي كان هو الآخر (ينتحل علم النجامة) (٢) .

كما عرف عصر الأغالبة رياضياً مشهوراً هو أبو اليسر ابراهيم بن أحمد الشيباني (ت٢٩٨هـ) الذي عرفناه رئيساً لديوان المراسلات في عهود

---

(١) نفسه ، ج٢، ص ٦٤ وهو الوحيد الذي أشار إلى ترجمة هذا العالم الرياضي .

(٢) عن انتحال اسماعيل الطلاء وابراهيم الثاني الأغلبي لعلم النجامة والعلاقة بينهما ، أنظر الزبيدي الأندلسي : نفسه ، ص ٢٤١-٢٤٢- حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٥٢ - ٢٥٤ .

الأمراء الأغالبة الثلاثة الآخيرين وفي عهد الخليفة الفاطمي عبيدالله المهدي . كما رأيناه أديباً يشارك في تصنيف عدد من الكتب الأدبية الجيدة .

ومع أن لقب الرياضي كان يسبق اسم ابراهيم الشيباني (١) عند مؤرخي التراجم والطبقات ، إلاَّ أننا لم نعرف أي نشاط له في علم الرياضيات الذي عرف به .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الفاطميين :-

والأمر الذي نستخلصه من عصر الفاطميين فيما يتصل بعلم الفلك ، هو أن الخلفاء الفاطميين كانوا مولعين بالفلك والتنجيم، فالخليفة عبيدالله المهدي الذي كان له بصر بعلم النجوم، قام ببناء عاصمته المهدية وفق حسابات فلكية (٢) ، وهي وإن كانت أقرب إلى علم التنجيم ، إلاَّ أنها على كل حال تدل على ميله لهذا الجانب من العلوم .

والخليفة المنصور كان عالماً بالنجوم ، ولكنه كان غير مؤمن بتأثيرها ، وكان يقول دائماً : (والله ماطلبنا هذا العلم إلاَّ لما يدلنا عليه من توحيد الله جل ذكره وتأثير حكمته في منفعلاته) (أي مخلوقاته) فإياك أن تشغل نفسك بغير هذا ولا تلتفت إليه (٣) .

---

(١) أنظر ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، ج١ ص١٧٣ – الزركلي : نفسه ، ج١، ص ٢٨، ٦٠ .

(٢) ابن حماد : المصدر السابق، ص ٤١ .

(٣) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ،ص ١٣١– ١٣٢ .

أما المعز لدين الله فقد كان ماهراً في علم النجوم بجانب مهارته في علـوم الطب والهندسة والفلسفة ، بل إن علماء هذه العلوم يعتبرون عالة علية (١) . لكنه كان غير مؤمن بتأثيرها أيضا. وكان يرى أن النظر في النجوم صالح ولمعرفة قدرة الله ، ولكنه غير نافع في معرفة حظوظ الناس (٢) .

أما عن علوم الرياضيات ، فقد كان للخلفاء الفاطميين : القائم والمنصور، والمعز حس رياضي هندسي - إن صح هذا التعبير- فممّا نذكر للخليفتين : القائم و المنصور من نظر هندسي مارواه القاضي النعمان من رغبتهما في إجراء نهر يقع بعيداً من القيروان يدعى نهر أيوب إلى المدينة عن طريق قناة محمولة على قناطر أو حنايا . ولقد حاولا أن يمضيا في تحقيق المشروع على تهويل مستشاريهما لهما ، ولكن فتنة أبي يزيد وثورته حالت دون ذلك (٣) .

غير أن الخليفة المعز لدين الله بما أوتي من نظر هندسي وثروة كبيرة واستقرار سياسي - عمل على أن ينفِّذ المشروع ، ولكن نمو مدينة المنصورية العاصمة الجديدة التي بناها أبوه بعد انتصاره على ثورة أبي يزيد ، وذلك مع معارضة مستشاريه أيضا، (٤) قلَّل من متجه المشروع .

---

(١) القاضي النعمان : كتاب المجالس والمسايرات ، ص ١٤٨ .

(٢) القاضي النعمان : نفس المصدر أعلاه ، ص ٣٢٦- ٣٢٧ - ٤٣٩، ٥٣٢ - ٥٣٣ .

(٣) القاضي النعمان : نفسه ص٣٣١-٣٣٢ وأنظر الحاشية رقم (٢) ص٣٣١ حيث تناول محققو الكتاب تحليل ذلك العمل وأهميته للقيروان .

(٤) القاضي النعمان : نفسه ص٣٣٢- ٣٣٣ - وأنظر كذلك الحاشية رقم ٥١ ، ص ٣٣٢ .

والحقيقة أن الخليفة المعز لدين الله كان ذا نظرة هندسية ثاقبة ، وقد أورد القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسايرات (١) أعمالاً عديدة نفّذت بإشارة من الخليفة – هذا وان صحت – ومن ذلك تفكيره في إجراء البحر إلى عاصمته المنصورية (في خليج حتي تكون مراكبنا تحط وتقلع بحضرتنا) على حد قول الخليفة نفسه ، ويقول محققو كتاب المجالس والمسايرات أن هذه الرواية التي أوردها القاضي النعمان ذات دلالة في الإشارة إلى إمكانية ربط المنصورية والقيروان أيضاً بالبحر (٢) .

وأيا ما كان الأمر عن الفلكيين والرياضيين الذي عاشوا في عصر الفاطميين ، وكذا عن مصنفاتهم فإننا نستطيع القول إن هناك عدداً منهم ظفرنا بإشارات لهم ، كالطبيب أبي سهل دونش الشفلجي الإسرائيلي المتوفى عام ٣٦٠هـ ، وكنا قد ترجمنا له من قبل . إذ يذكر أنه صنّف كُتباً في الفلك والحساب، ككتاب في الحساب الهندي المعروف بحساب الغبار ، وكتاب في الفلك وحركة الكواكب كتبه لصديقه الطبيب الأندلسي اليهودي أبي يوسف حسداي ، وكتاب كبير في علم الفلك قدّمه إلى الخليفة المنصور ابن القائم (٣) .

وبالإضافة إلى أبي سهل دونش ، هناك فلكي يهودي يدعى نسيم بن

---

(١) ص ٣٤٣- ٣٣٣٤، ٥٣٠- ٥٣١ .

(٢) أنظر الحاشية رقم (٤) ، ص ٥٣٠ .

(٣) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ص ٢٩٩- ٣٠٠ .

يعقوب القيرواني كان بارعاً في علم الهيئة ، وحركة الكواكب إلى درجة أنه كان يُستفتي من قبل بعض يهود العراق والأندلس والمغرب في شأن مواقيت مواسمهم الدينية (١) .

وأخيراً فقد أمدنا القفطي (٢) بإشارة مهمَّة لعالم فلكي إفريقي هو أبو عبدالرحمن : محمد بن عبدالله بن محمد العتقي (ت في مصر سنة ٣٨٥هـ) . فلقد أشار إلى أن العتقي كان متفنناً في علوم عدة ، غير أن الغالب عليه هو علم النجوم والنظر ، وقد خرج إلى مصر مع الخليفة المعز لدين الله عام ٣٦٢هـ في جملة من خرج معه من العلماء والأطباء وغيرهم ، وظل هناك حتى توفى عام ٣٨٥هـ ، ويذكر أنه صنَّف مجموعة كبيرة من النجوم وأحكامها .

دراسات الفلك والرياضيات في عصر الزيريين :-

الواقع أن حركة العلوم الفلكية والرياضية في عصر الزيريين تعد متواضعه شأنها في ذلك شأن أمثالها في العصور السابقة . وغاية ماعرفناه - في هذا الصدد - أنه كان هناك بعض نفر اشتغلوا بعلمي الفلك والرياضيات ، بجانب تخصُّصاتهم الأصلية .

فمن بين هؤلاء الأديب الكاتب أبو الحسن : على بن أبي الرجال

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع ، والقسم ص ٢٨ .

(٢) تاريخ الحكماء ، وهو مختصر الزويزيني المسمى : المنتخبات الملتقطات من أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ص ٢٨٥ .

الشيباني (ت٤٣٢هـ) الذي عرفناه من قبل كاتباً يلي رئاسة ديوان الإنشاء في عهد المعز بن باديس ورأيناه كذلك شاعراً مرموقاً ، وفوق هذا وذاك فقد تلمَّسنا دوره في مساعدة المعز بن باديس على نبذ المذهب الشيعي الإسماعيلي .

أما مكانته في علم الفلك فلم تكن لتقل عن مكانته في دنيا الكتابة والأدب ، وقد ذكر بأن له عدَّة مصنَّفات قيِّمة نالت شهرة تعدَّت إفريقية إلى المشرق ، وإلى أوروبا .

وأهم تلك المصنفات ، كتاب البارع في أحكام النجوم ، وهذا الكتاب كانت له شهرة علمية كبيرة ، وقد ترجم إلى اللغة العبرية بعناية عالم يهودي يدعى يهودا بن موشى (ت ٦٥٢هـ) (١) ثم ترجم إلى اللغة اللاتينية مرارا. كما أنه ترجم إلى اللغة القشتالية (الإسبانيه الفصحى) وكذلك إلى الأسبانية الغربية (البرتغالية) (٢) .

وبجانب هذا الكتاب هناك منظومه شعرية له في التنجيم ، وتسمى الدلالات الكلِّيَّة على الحركات الفلكية . وممَّا يدل على أهميتها أنها خضعت للشرح من قبل أحد العلماء المتأخرين وهو أحمد بن حسن القنفذي القسطنطيني المتوفي عام ٨١٠هـ (٣) .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٤، ص ٢٢٥– عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، ص ١٧٨– ١٧٩ عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ج١، ص٢٧ .

(٢) كما يقول عمر فروخ : نفس المرجع أعلاه ، حاشية رقم (٢) ص ١٧٨ .

(٣) كارل بروكلمان : المرجع السابق ،ج٤ ، ص٢٢٧٦ – عبدالعزيز بن عباالله ، الموسوعة =

وله كذلك أرجوزه في دليل الرعد (١) وأرجوزة شعرية أخرى في الأحكام النجومية ، ثم مراسلات فلكية أخرى . (٢) ومماً يجدر ذكره أن اسم ابن أبي الرجال في اللاتينية هو " ABENRAGEL " (٣) .

وهناك فقيه إفريقي استهواه علم الهندسة والرياضيات ، هو الفقيه أبو الطيب عبدالمنعم بن محمد بن ابراهيم الكندي (ت٤٣٥هـ) الذي كنا قد ترجمنا له عند حديثنا عن الدراسات الفقهية في العصر الزيري ، وقد قال فيه أحد أئمة الفقه المالكي المتأخرين بصقليه مانصه : (لم تمنعه الإمامة في الفقه عن الإمامة الهندسة)(٤) . ومماً هو جدير بالتنويه أنه فكر في جعل مدينة القيروان مرسى بحرياً يجلب إليها الماء من مدينة تونس ، وقد وضع رسالة هندسية توضح هذه الفكرة (٥) .

ومماً يدل على براعته الهندسية أنه حاول فك كتاب اقليدس في الهندسة بذهنه . وعندما مات رثاه الشاعر أبو زكريا يحيى الشقراطسي التوزري والد الشاعر المشهور عبدالله الشقراطسي بقصيدة تشير إلى هذا المعنى (٦) .

= المغربية ، ج١، ص ٢٧ .

(١) كارل بروكلمان : نفس المرجع السابق والجزء والصفحه – عبدالعزيز بن عبدالله : نفس المرجع السابق ، والجزء والصفحة .

(٢) عن أورجوزة الأحكام النجومية والمراسلات الفلكية أنظر عبدالعزيز بن عبدالله : نفسه ،ص ٢٧ .

(٣) كارل بروكلمان : نفسه ،ص ٢٢٥ .

(٤) فيما بنقله عنه الزركلي : نفسه ، ج ٤ ، ص ١٦٨ .

(٥) الزركلي : نفسه .

(٦) عبدالرحمن ياغي : نفسه ، ص ١٠٧ .

وهناك أيضا عالم إفريقي هو ابراهيم بن عبدون بن غانم بن عبدون، اشتهر بالاشتغال بالهندسة والرياضيات ، ويقول عنه ابن رشيق أنه كان منفرداً بعلم المساحات والأشكال) بجانب شهرته في الأدب (١) .

وأخيراً هناك أديب يدعى محمد بن أحمد الإفريقي ويكنى بأبي الحسن (ت نحوسنة ٤٠٠هـ) كان بجانب اشتهاره بالأدب يميل إلى الاشتغال بالتنجيم . وقد غادر بلده إفريقيه وأتجه إلى المشرق ، حيث استقر به الأمر في اصبهان حتى أدركته المنية هناك (٢) .

---

(١) ابن رشيق : شعراء القيروان من أنموذج الزمان ،ص ٢٣ .

(٢) الزركلي : نفسه ، ج٥ ، ص ٣١٣ .

الخاتمة

الخاتمة

لعل من آكد الأمور وأوجبها ونحن نشرع في الانتهاء من الحديث عن الحياة العلمية في إفريقية في الفترة التي إخترناها إطاراً زمنياً للرسالة أن نشير في عجالة مركزة إلى أهم النتائج التي استخلصناها من متابعتنا لمسيرة الحياة العلمية تلك .

وبوسعنا في البدء أن نشير إلى حقيقة تاريخية وعلمية مهمة ،وهي أن الحركة العلمية في إفريقية قد تدرجت في شئ من البطء نتيجة للأوضاع الساسية والعسكرية التي عرفتها إفريقية – والمغرب عموماً منذ إتمام الفتح وحتى قيام الدولة الأغلبية .

والحقيقة التاريخية التي تسنى لنا استخلاصها من متابعتنا للحركة العلمية الإفريقية هي أنه كان لقيام الدول المستقلة : الأغلبية ، والفاطمية ، والزيرية . الأثر الواضح والبارز في إعطاء حركة العلوم والمعارف دفعة قوية.

ومن المعروف أن هذا الأمر هو من قبيل المسلمات التاريخية التي عرفتها مسيرة النهضة الحضارية – والعلوم على رأسها – ، في ظل الدويلات التي انفصلت عن السلطة المركزية للخلافة العباسية . فلقد سعت بلاطات تلك الدول إلى منافسة البلاط الخلافي من جهة ، علاوة على الرغبة في منافسة بلاطات الأمصار من جهة أخرى .

وبجانب هذا ، فإن الرغبة الشخصية في العلم والميل إليه لدى الأمراء والخلفاء كان باعثاً لنشاط علمي ملحوظ . ويضاف إلى ذلك كله مايوفره

المناخ العلمي الذي توفره تلك الدول للعلماء والأدباء ليبدعوا وليقدموا زبدة محصلاتهم العلمية ومخزونات ثقافاتهم .

وإذا تركنا هذه الحقائق التاريخية والعلمية العامة إلى الحديث عن العلوم والمعارف الإفريقية وحركة سيرها، فإن في مقدورنا أن نشير بادئ ذي بدء إلى أن أهم مظهر علمي رئيسي غلب على الحياة العلمية في إفريقية آنذاك كان بلا مراء الدراسات الشرعية بصفة عامة ، والفقه منها على وجه الخصوص .

ويقودنا إقرار هذه النتيجة إلى نتيجة أخرى لاحظناها وهي أن المذهب المالكي – التي قامت الدراسات الشرعية وفق منحاه الفقهي – ، كان الموجّه لتلك الدراسات والمحرك لها ، بل لعل دوره قد تعدى الجانب العلمي إلى التأثير في المناحي الحياتية الأخرى للإفريقيين من سياسية واجتماعية واقتصادية . ولقد صدق حسين مؤنس في مقولته التي جاءت في ثنايا تحقيقه للجزء الأول من كتاب رياض النفوس عندما قال إن المالكية كانت العصب الأول من أعصاب التاريخ الإفريقي والمغربي .

وممّا يناسب أن نشير إليه إزاء الحقيقة أو النتيجة السالفة هو أن الفقهاء المالكية كانوا يشكلون ضمير الأمة النابض بالحياة . تفزع إليهم العامة في كل مايؤرِّق ليلها ويستشكل عليها من قضايا فقهية وعقائدية . وحسبنا أن نذكر أنه عند ماثارت مسألة هل الكفار يعرفون الله أم لا ؟ ، وهي القضية التي أقلقت بال العامة خشية تأثير ذلك على العقيدة ، بادروا إلى الشيخ أبي عمران الفاسي (ت٤٣٠هـ) يسألونه .

وممّا يندرج ضمن النتائج المستخلصة من التوجه العلمي الرئيسي نحو الدراسات الشرعية ، هو مالاحظناه من أن الاهتمام بالدراسات الشرعية تلك كان متفاوتاً في ظل العصور السياسية الأربعة التي تعاقبت على حكم إفريقية ، فقد كانت تزيد في عصر ، وتنقص في عصر تبعاً لأسباب عديدة أشرنا إليها في تضاعيف الرسالة .

وممّا خلصنا إليه من نتائج من خلال المتابعة الحثيثة لحركة العلوم والمعارف الإفريقية أن الدراسات الأدبية قد أتت في المحل الثاني من الإهتمام من قبل الإفريقيين . وفي الحق فإننا قد ذهبنا عند الحديث عن الدراسات الأدبية إلى توضيح الأسباب العديدة التي أدت إلى ذلك .

لكن المهم الآن هو التأكيد على إقرار وإبراز هذه النتيجة هنا كأحد أهم النتائج التي كشف البحث أبعادها في ظل قواعد البحث العلمية .

ويقودنا هذا إلى التذكير بأن الإهتمام بالدراسات الأدبية قد تفاوت أيضاً بتفاوت العصور السياسية المختلفة التي حكمت إفريقية في الفترة التي نؤرخ لها ، وذلك وفقاً لدواعٍ عديدة بسطناها في مكانها .

وتوصلنا من خلال بحثنا عن أوجه المعارف والعلوم الأخرى في إفريقية إلى حقيقة تثير الانتباه ، وهي أن الدراسات الإنسانية بفروعها الثلاثة : الجغرافيا والفلسفة والتاريخ كانت متأخرة عن مثيلاتها في المشرق . ولعل التاريخ وحده من بين تلك العلوم الذي لقي شيئاً لابأس به من الإعتناء .

ولقد كنا خلال معالجتنا لتلك الموضوعات نضع اليد على الأسباب المفهومة التي أدت إلى قصور همة الإفريقيين في الفلسفة مثلاً . ولكننا فيما يختص بالجغرافيا لم نستطع أن نهتدي إلى أسباب عدم إهتمامهم بهذا العلم .

ومايصدق على الدراسات الإنسانية من إقرار هذه النتيجة التي تتعلق بقلة الإعتناء بها ، والأسباب المفهومة وغير المفهومة لذلك ، يصدق أيضاً على الدراسات الطبيعية ، وإن لم يكن الأمر سواء في كل جوانبها كما يلاحظه القارئ من خلال متابعته لهذا الفصل من فصول الرسالة .

ومن هنا فإن ترتيبنا لمفردات الحياة العلمية علي النحو الذي خلصنا إليه في الرسالة إنما هو ترتيب مقصود جاء نتيجة مباشرة لمراقبة خط سير مستخرجات الحياة العلمية تلك .

ومن النتائج المهمة التي خرجنا بها بل لعلنا نحسب أننا إنفردنا بها نتيجة تمثلت في أنه قد ترتب علي الصراعات المذهبية التي شهدتها إفريقية في الفترة موضع الإهتمام أصداء علمية مهمة ظهرت آثارها فيما شهدته البلاد آنذاك من شيوع المناظرات ، وكثرة التآليف ، وتكاثر حلقات العلم والمدارس . وما من ريب في أن كل تلك الجوانب قد أفادت الحركة العلمية حسبما فصَّلناه في موضعه ، وأفادت كذلك في تثبيت عقيدة الأكثرية الغالبة من السكان ، وهم المالكية أمام سبيل المناظرات ومجالس الجدل التي كانت تثيرها وتعقدها المذاهب الكلامية الدينية السياسية مثل المذهب الشيعي الإسماعيلي ، وأتباع المذاهب الكلامية .

وممّا خلصنا إليه من نتائج الدور العلمي الكبير الذي أسدته وسائط الثقافة للنهضة العلمية الإفريقية مثل المساجد والكتاتيب والرباطات والمكتبات العامة والخاصة . وليسص من شك في أن الاهتمام الذي حظيت به تلك الوسائط من قبل الأنظمة السياسية التي حكمت المغرب أو من قبل الأفراد العاديين كان له أثره في اضطلاع تلك الوسائط بمسؤولياتها .

على أننا قد أكدنا في حينه على ملاحظة مهمة وهي أن وسائط الثقافة تلك لم تقم بدورها العلمي بقدر متساو ، فجامع الزيتونة بتونس لم يتبوأ مركزه العلمي الريادي إلاّ متأخراً ، أي في القرن السادس الهجري ، ومنذ ذلك الوقت شرع يمارس دوره العلمي الريادي وحتى الآن .

ولقد قادنا الحديث عن المراكز العلمية الرئيسية في بلاد المغرب الأدنى إلى ملاحظة أن مدن وأقاليم إفريقية لم تشهد قدراً متساوياً من النهضة العلمية . ولقد أفصحنا في حينه إلى أن ثمة أسباباً سياسية وجغرافية واجتماعية ومذهبية قد قادت إلى ذلك الوضع .

ومن الملاحظات الجديرة بالإنتباه التى قادنا إليها جهد التقصى أن أتباع المذهب المالكي لم تقتصر مشاركتهم على الدراسات الشرعية وحدها ، وإنما كان لهم حضور علمي في كل فن من فنون العلم ، حتى الطبيعية منها . بينما كانت مشاركة أتباع المذاهب الكلامية ، والمذاهب الدينية السياسية الأخرى ضئيلة . ولقد أوضحنا وقتها أن السبب في ذلك هو أن المذهب المالكي كان مذهب الغالبية من السكان .

وجاءت الدراسة لتؤكد حقيقة مهمة وهي أن الإفريقيين لم يكونوا

بعيدين عن الاشتغال بالعلوم التي كان المشرق يتسيَّدها . وبمعنى آخر أن الإفريقيين كانوا يتفاعلون مع معظم التيارات الثقافية التي كان المشرق يذخر بها ، سواء فيما يتصل بالدراسات الشرعية واتجاهاتها ، أو الدراسات الأدبية ، أو حتى العلوم الطبيعية .

وجاءت الدراسة كذلك لتوضح أنه كان للإفريقيين في كثير من جوانب الحياة العلمية أسهام لايقل عن مثيله في المشرق والأندلس . فلقد إحتلت تلك الإسهامات العلمية حيزاً في الثقافة الإسلامية العامة ، وظلت مصدراً مهما لتلك الثقافة . فكتاب الأسدية لأسد بن الفرات ظل معتمد فقهاء المالكية في مصر لمدة طويلة . أما المدونة فهي المصدر الرئيسي الثاني للفقه المالكي في كل الأمصار التي تتمذهب به بعد الموطأ . وبجانب هذا يحضرنا دليل آخر يوضح لنا مقدار مابلغته مؤلفات المغاربة من سمعة علمية تعدت حدود بلادها ، فعندما ألف محمد بن سحنون كتاب : الإمامة ، تخاطفه المشارقة ، وأمر الخليفة بكتابته بماء الذهب . ثم لاننسى الرسالة في الفقه التي ألفها الفقيه الأبرز ابن أبي زيد القيرواني ، والتي بسطت إتجاهات المذهب المالكي الفقهية في شئ من اليسر والسهولة ، وكان ذلك مدعاة إلى انتشارها والتعويل عليها ، وعمل الشروحات لها .

وفيما يتعلق بالدراسات الأدبية ، فقد كان للإفريقيين حضور أدبي سامق الذرى وخاصة في العصر الزيري . ولايمكن للملاحظ للدراسات الأدبية إلاَّ أن يقرر بأن المؤلفات التي تركها الإفريقيون لاتقل بحال من الأحوال عن أضرابها في المشرق والأندلس ، وحسبنا أن نؤكد على أن أولئك

الأدباء بلغوا مع تبريزهم في التأليف الأدبية مبلغاً عظيماً في الشاعرية المرهفة .

ومن المناسب أن نشير إلى أنهم ، أي أدباء إفريقية ، قد أحرزوا قصب السبق في بعض المجالات الأدبية وأعنى بذلك سبق الأديب الشاعر عبد الله الشقراطسي في طرق موضوع أدبي طريف ، وهو : المدائح النبوية التي غدت تحتذي بعد ذلك من قبل المشارقة .

أما في العلوم الطبيعية ، فقد كان لبعض إسهاماتهم القدر الأسنى من القيمة ، وحسبك بكتاب : زاد المسافر لابن الجزار القيرواني شاهداً على ذلك .

ولعل في هذا الغيض من فيض النتائج التي توصلنا إليها ماتكفي الإشارة إليه هنا ، فهناك العديد من النتائج الأخرى التي أثبتناها في ثنايا الرسالة .

وأخيراً فإن بإمكاننا أن نقرر بأن إفريقية قد عرفت في الفترة الزمنية موضوع الرسالة حياة علمية لاتقل في بعض جوانبها عمّا أسدته الأمصار الأخرى ، بل لعلها تفوق كثيراً من الأمصار في تلك الجوانب .

وبجانب هذا فقد سجلت إفريقية حضوراً علمياً متواضعاً في الجوانب الأخرى مثل الفلسفة والجغرافيا ، والطب والصيدلة ، والفلك والرياضيات. ولكنها مع ذلك لم تخل ساحتها البتة من تلك الجوانب ، وكأنما هو حرص من رجالاتها على أن يكون لبلدهم إفريقية ذكر في كل العلوم ، حتى ولو كان متواضعاً في بعض جوانبه .

المصـــــادر والمراجـــع والدوريات

قائمة المصادر والمراجع والدوريات

المصادر :

- ابن الأبار (ت ٦٥٨ هـ) :

(١) الحلة السيراء ، تحقيق وتعليق حسين مؤنس ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، جزآن ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٣م .

(٢) التكملة لكتاب الصلة، عُني بنشره وصححه ووقف على طبعه السيد عزت العطار الحسيني ، مطبة السعادة ، القاهرة، ١٩٥٥م

- ابن أبي أصيبعة (ت٦٦٨هـ) :

(٣) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، شرح وتحقيق نزار رضى ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٦٥م .

- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) :

(٤) الكامل في التاريخ ، ١٠ أجزاء ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

- البخاري (ت ٢٥٦ هـ) :

(٥) صحيح البخاري .

- ابن بسام (ت ٥٤٢هـ) :

(٦) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ٨ أجزاء منشورات دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩ م .

- ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ) :

(٧) الصلة في تاريخ علماء الأندلس ، قسمان ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .

- البكري (ت ٤٨٧هـ) :

(٨) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك ، طبعة دي سيلان ، الجزائر ، ١٨٥٧م .

- ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ) :

(٩) غاية النهاية في طبقات القرآء ، عني بنشره ج برجستـرسر ، طبعه لأول مرة بنفقة الناشر ومكتبة الخانجي بمصر ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م .

- ابن جلجل (ت بعد ٣٨٤هـ) :

(١٠) طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد السيد ، أمين المخطوطات بدار الكتب المصرية ، مطبوعات المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

- ابن حماد (ت ٦٢٨هـ) :

(١١) أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبد الحليم عويس ، منشورات مطبعة نهضة مصر ، القاهرة ، ١٤٠١هـ /١٩٨١م .

- الحميدي (ت ٤٨٨هـ) :

(١٢) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ، الدار المصرية للتأليف والترجمة القاهرة ، ١٩٦٦م .

- ابن حوقل (ت في القرن الرابع الهجري) :

(١٣) صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩م.

- ابن حيون (القاضي النعمان المغربي) (ت ٣٦٣هـ) :

(١٤) كتاب افتتاح الدعوة ، تحقيق الدشراوي ، منشورت الشركة التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٥م .

(١٥) كتاب دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضاء والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام ، تحقيق أصف بن علي أصغر فيضي ، منشورات دار المعارف ، القاهرة جزآن ، الطبعة الثالثة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

(١٦) كتاب المجالس والمسايرات ، تحقيق الحبيب الفقي وابراهيم شبوح ومحمد البعلاوي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية ، ١٩٧٨م .

- الخشني (ت بعد ٣٦٦هـ) :

(١٧) قضاة قرطبة وعلماء إفريقية ، نشر وتصحيح عزت العطار الحسني ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ.

- الخطيب البغداد (ت ٤٦٣هـ) :

(١٨) الرحلة في طلب الحديث ، حقَّقه وعلَّق عليه نور الدين عتر ، منشورات دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م .

- ابن الخطيب (ت ٧٦٦هـ) :

(١٩) تاريخ المغرب في العصر الوسيط أو الجزء الثالث من أعمال الأعلام - تحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤م .

- ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) :

(٢٠) العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، طبعة مستكملة ومقارنة مع عدة نسخ ومخطوطات ومذيلة بحواشي وشروح وتمتاز بفهارس للموضوعات والأعلام والأماكن الجغرافية ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحاته وراجعه سهيل زكار ، ٨ أجزاء بما فيها المقدمة ، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م .

- ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) :

(٢١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، ٨ أجزاء منشورات دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

- ابن خير (ت ٥٧٥هـ) :

(٢٢) فهرسة مارواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف . وقف على نسخها وطبعها ومقابلتها على أصل محفوظ في خزانة الأسكوريال فرنششكو كديرة وخليان رياره ، طبعة جديدة منقحة عن الأصل المطبوع عام ١٨٩٣م ، ط٢ منقحة ومنقطة باعتناء زهير فتح الله ، ١٣٨٢هـ / ١٩٦٣م .

- الداودي (ت٩٤٥هـ) :

(٢٣) طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد عمر ، منشورات مكتبة وهبة ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

- الدباغ (ت ٦٩٦ هـ) :

(٢٤) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، صنَّفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي الدباغ ، أكمله وعلَّق عليه أبو الفضل بن ناجي التنوخي ، ٤ أجزاء ، صحَّح الجزء الأول وعلَّق عليه ابراهيم شبوح ، ونشرته مكتبة الخانجي بمصر عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م ، وحقق الجزء الثاني محمد الأحمدي أبو النور ومحمد ماضور ، ونشرته المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر ، وحقَّق الجزء الثالث وعلَّق عليه محمد ماضور ، ونشرته المكتبة العتيقة بتونس ومكتبة الخانجي بمصر عام ١٩٧٨م .

- ابن دحية (ت ٦٣٣هـ) :

(٢٥) المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد ، مراجعة طه حسين، بيروت ، د . ت، دار العلم للجميع للطباعة والنشر والتوزيع .

- ابن أبي دينار (كان حياً سنة ١١١٠ هـ) :

(٢٦) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، منشورات المكتبة العتيقة بتونس ، ١٩٦٧م .

- الذهبي (ت ٧٤٨هـ) :

(٢٧) تذكرة الحفاظ ، تحقيق أحمد أمين دمج ، ٤ أجزاء ، منشورات دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط٤ (د . ت) .

- ابن رشيق (ت ٤٥٦هـ) :

(٢٨) شعراء القيروان من أنموذج الزمان ، صنَّفه الحسن بن رشيق ، سلسلة من تراثنا رقم ١٠ ، جمع وتعليق زين العابدين سنوسي ، طبع على مرتين من ص٩ إلى ١٤٤ بمطبعة العرب ، تونس ، ١٩٥١م ، وطبع الغلاف مع التقديم والفهرس ونشرته دار المغرب العربي ، تونس ، ١٩٧٣م .

(٢٩) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حقّقه وفصّله وعلّق حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد ، منشورات دار الجيل ، بيروت ، ط٤ ، ١٩٧٢م .

(٣٠) قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، تحقيق الشاذلي بويحي ، الشركة التونسية للتوزيع ، توفى ١٩٧٢م .

- الرصّاع (ت ١٠٣٣هـ) :

(٣١) فهرست الرصّاع ، تحقيق وتعليق محمد العنابي ، منشورات المكتبة العتيقة ، سلسلة من تراثنا الإسلامي رقم ٤ ، تونس ، ١٩٧٦م .

- الرقيق القيرواني (ت ٤٢٥هـ) :

(٣٢) تاريخ إفريقية والمغرب ، قطعة تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني الهجري ، تحقيق وتقديم المنجي الكعبي منشورات رفيق السقطي ، تونس ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .

- الزبيدي الأندلسي (ت ٣٧٩هـ) :

(٣٣) طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم منشورات دار المعارف بمصر . د. ت .

- ابن أبي زرع (عاش في القرن الثامن الهجري) :

(٣٤) الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، قدّمه وعلّق عليه عبد الوهاب منصور ، دار المنصور للطباعة والوراقة ، الرباط ١٩٧٣م.

الجامعية ، الاسكندرية ، د . ت .

– أحمد مختار عمر :

(١٩) النشاط الثقافي في ليبيا ، منشورات كلية التربية ، الجامعة الليبية ، طرابلس ، الطبعة الأولى ، ١٣٩١هـ .

– إحسان عباس :

(٢٠) العرب في صقلية ، دراسة في التاريخ والأدب ، منشورات دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥م .

– آدم متز :

(٢١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، منشورات دار الكتاب العربي ، بيروت ، جزءان ، ط٤ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م . د . ت .

– إسماعيل العربي :

(٢٢) دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٠م .

– أنخل جينثالث بالنثيا :

(٢٣) تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة حسين مؤنس ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥م .

– بونارد لويس :

(٢٤) أصول الإسلماعيلية ، بحث تاريخي في نشأة الخلافة الفاطمية

نقله إلى العربية خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب ، وقدم له عبد العزيز الدوري ، منشورات دار الكتاب العربي ، القاهرة ١٩٤٧م .

- ت . ج . دي بور :

(٢٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام نقله إلى العربية وعلّق عليه محمد عبد الهادي أبو ريده ، منشورات دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨١م .

- الحبيب الجنحاني :

(٢٦) المغرب الإسلامي - الحياة الاقتصادية والاجتماعية (القرن ٣-٤هـ / ٩-١٠م) الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨م .

(٢٧) القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي ، منشورات الدار التونسية ، تونس ١٩٦٨م .

- حسن ابراهيم حسن :

(٢٨) انتشار الاسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربيها ، منشورات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

(٢٩) تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسوريه وبلاد العرب ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٨م .

- حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف :

(٣٠) المعز لدين الله ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٦٣م .

- حسن أحمد محمود :

(٣١) الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا ، منشورات دار النهضة المصرية ، جزءآن ، القاهرة ، ١٩٦٣م .

- حسن حسني عبد الوهاب :

(٣٢) الإمام المازري ، سلسلة نوابع المغرب العربي ، رقم ١ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ١٩٥٥م.

(٣٣) بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، تقديم محمد العروسي المطوي ، منشورات مكتبة المنار، تونس ، ط٢ ،١٩٧٠م .

(٣٤) خلاصة تاريخ تونس ، مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمن الحاضر ، الدار التونسية للنشر ، مؤسسة الوحدة للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٩٧٦م .

(٣٥) ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، ٣ أقسام ، منشورات مكتبة المنار ، تونس ، القسم الأول والثاني ، ١٩٧٢م ، القسم الثالث ، ١٩٨١م .

- الحسن السائح :

(٣٦) الحضارة المغربية عبر التاريخ ، جزءآن ، منشورات دار الثقافة الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٦٢م .

- حسن سليمان محمود :

(٣٧) ليبيا بين الماضي والحاضر ، منشورات مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٢م .

- حسين مؤنس :

(٣٨) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، منشورات معهد الدراسات الإسلامية المصري في مدريد ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٧م .

- خير الدين الزركلي :

(٣٩) الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب ، والمستعربين و المستشرقين ، منشورات دار العلم اللملايين ، ٨ أجزاء ، بيروت ، ط٥ ، ١٩٨٠م .

- رابح بونار :

(٤٠) المغرب العربي تاريخه وثقافته ، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط٢ ، ١٩٨١م .

- رفعت فوزي عبد المطلب :

(٤١) الخلافة والخوارج في المغرب العربي والصراع بينهما حتى قيام

دولة الأغالبة ، ط١ ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م .

- سعدي أبو حبيب :

(٤٢) سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ط١ ، منشورات دار الفكر ، دمشق ، ط١، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

- سعد البشري :

(٤٣) الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس (رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي) من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة ، ١٤٠١ / ١٤٠٢هـ (لم تطبع) .

- سعد زغلول عبد الحميد :

(٤٤) تاريخ المغرب العربي ، منشورات ، منشأة المعارف ، الاسكندرية جزءآن ، ١٩٧٩م .

- سليمان الحاج داوود يوسف :

(٤٥) ثورة أبي يزيد جهاد لإعلاء كلمة الله ، منشورات دار البعث للطباعة والنسر ، قسطنطينة ، الجزائر ، ط١ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

- السيد عبد العزيز سالم :

(٤٦) تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، منشورات مؤسسة شباب

الجامعة ، الاسكندرية ، الطبعة الثانية المصورة ، ١٩٨٢م .

- السيد محمد أبو العزم داود :

(٤٧) الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ، منشورات المكتبة الفيصلية ، مكة المكرمة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .

- شارل أندري جوليان :

(٤٨) تاريخ إفريقيا الشمالية ، تونس ، الجزائر ، المغرب الأقصى من الفتح الإسلامي إلى سنة ١٨٣٠م ، تعريب محمد مزالي والبشير ابن سلامة ، منشورات الدار التونسية للنشر ، جزءآن ، النشرة الثانية ، ١٩٨٣م .

- شوقي ضيف :

(٤٩) الرحلات ، سلسلة فنون الأدب العربي رقم ٤ ، منشورات دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩م .

- شوكت الشطي :

(٥٠) مختصر تاريخ الطب وطبقات الأطباء عند العرب ، نشر جامعة دمشق ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .

- صالح باجية :

(٥١) الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى ، منشورات دار

بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.
- صالح مصطفى مفتاح :
(٥٢) برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، (رسالة ماجستير) مقدمة الى كلية الآداب قسم التاريخ ، بجامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، (لم تطبع) .
- صبحي الصالح :
(٥٣) علوم الحديث ومصطلحه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة ١٥ ، ١٩٨٤م .
- الطاهر أحمد الزاوي :
(٥٤) تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، منشورات دار الفتح ، ودار التراث العربي بليبيا ، مطبوعات مؤسسة الخدمات الطباعية ، بيروت ، د . ت .
(٥٥) معجم البلدان الليبية ، منشورات مكتبة النور ، طرابلس ، ليبيا ط١ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- الطاهر المعموري :
(٥٦) جامعة الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ، منشورات الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٩٨٠م .
- عادل نويهض :
(٥٧) معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ،

بيروت ، ١٩٧١م .

- عباس الجراري :

(٥٨) الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، جزءآن ، منشورات مكتبة المعارف ، الرباط ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

(٥٩) وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

- عبده بدوي :

(٦٠) مع حركة الإسلام في إفريقية - دراسة من خلال الدول التي قامت قبل الاستعمار ، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب للتأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٠م .

- عبده عبد العزيز قلقيلة :

(٦١) النقد الأدبي في المغرب العربي ، منشورات مكتبة الانجلو المصرية ، جزءآن ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- عبد الجبار الشريف وعلي دب :

(٦٢) ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، دراسة ومنتخبات ، منشورات الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ١٩٨١م .

- عبد الحليم عويس :

(٦٣) دولة بن حماد – صفحة رائعة من التاريخ الجزائري ، منشورات دار الشروق ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م .

– عبد الرحمن حميده :

(٦٤) أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم ، منشورات دار الفكر ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

– عبد الرحمن الشرقاوي :

(٦٥) أئمة الفقه التسعة – شخصيات إسلامية ، منشورات دار إقرأ ، ط١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

– عبد الرحمن ياغي :

(٦٦) حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٦١م .

– عبد الرؤوف عبد العزيز مخلوف :

(٦٧) ابن رشيق ونقد الشعر – دراسة نقدية تحليلية مقارنة ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٣م .

– عبد السلام عبد القادر بن سوده المري :

(٦٨) دليل مؤرخي المغرب الأقصى « ببلوغرافيا » ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، جزءآن ، ١٩٦٠م .

– عبد السلام الكثنوني :

(٦٩) المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الإسلامي إلى ابن عطية ، مكتبة المعارف ، الرباط ، الجزء الأول ، ط١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

– عبد العزيز بنعبد الله :

(٧٠) الطب والأطباء بالمغرب ، المطبعة الاقتصادية ، الرباط ، ١٩٦٠م.

(٧١) مظاهر الحضارة المغربية ، منشورات دار السلمي ، جزءآن ، الدار البيضاء ، ١٩٧٧م ، أو تاريخ الحضارة المغربية وهو مقرر لتلامذة الثانوية في المغرب .

(٧٢) الموسوعة المغربية للاعلام البشرية ، ٤ أجزاء ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

– عبد العزيز السلفي الميمني الراجكوني :

(٧٣) النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف القيروانيين ، منشورات المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة ، ١٣٤٣هـ .

– عبد العزيز المجذوب :

(٧٤) الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

– عبد الله العروي :

(٧٥) تاريخ المغرب – محاولة في التركيب ، ترجمة ذوقان قرقوط ،

المؤسسةالعربية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٧٧م .

- عبد المجيد عطية وعبد الرزاق الحليوي :

(٧٦) تميم بن المعز ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس ، ط١، ١٩٧٧.

- عبد الهادي التازى :

(٧٧) جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس) ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ٣ أجزاء ، د. ت .

- عثمان الكعاك :

(٧٨) تاريخ الجزائر ، الدار العربية للنشر ، تونس ، ١٣٤٥هـ .

(٧٩) المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ، مطبعة العرب ، تونس ، ١٩٢٥م .

(٨٠) محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨م .

- عزيز أحمد :

(٨١) تاريخ صقلية الإسلامية ، نقله إلي العربية وقدّم له مع إضافة حواشي وتعليقات مناسبة أمين توفيق الطيبي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ، ١٩٨٠م .

- علي عبد الله الدفاع :

(٨٢) أثر علماء العرب والمسلمين في تطوير علم الفلك ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٨٣) إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، تعريب وتعليق جلال شوقي ، دار الشروق ، بيروت ، القاهرة ، ط١ ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

(٨٤) نوابغ علماء العرب والمسلمين في الرياضيات ، منشورات دار الأمل للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٧هـ .

- علي مصطفى المسراطي :

(٨٥) أعلام من طرابلس ، تراجم ودراسات ، دار الفكر ، طرابلس - ليبيا - ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

- علي يحى معمر :

(٨٦) الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كتّاب المقالات في القديم والحديث ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

(٨٧) الإباضية في الجزائر ، مكتبة وهبة ، ط١ ، ١٣٩٩هـ /١٩٧٩م .

- عمر كحالة :

(٨٨) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، مؤسسة الرسالة دمشق ، ٥ أجزاء ، ط٣ ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، ماعدا الجزء الأول من منشورات المطبعة الهاشمية بدمشق ، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م .

(٨٩) التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية ، المطبعة التعاونية ،

دمشق ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

(٩٠) العلوم البحتة في العصور الإسلامية ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢ م .

- عمر فروخ :

(٩١) تاريخ العلوم عند العرب ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م .

(٩٢) تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ،دار العلم للملايين، بيروت . د. ت .

(٩٣) العرب في حضارتهم وثقافتهم إلى آخر العصر الأموي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط٢ ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .

- عوض خليفات :

(٩٤) نشأة الحركة الإباضية ، نشر بتعضيد من اتحاد المؤرخين العرب ، مطابع دار الشعب ، عمان ، الأردن ، ١٩٧٨م .

- ألفرد بل :

(٩٥) الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمه عن الفرنسية عبد الرحمن بدوي ، منشورات دار ليبيا للنشر والتوزيع ، بنغازي - ليبيا ، ١٩٦٩م .

- قدري حافظ طوقان :

(٩٦) تراث العرب في الرياضيات والفلك ، منشورات الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ، ط٢ ، ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م .

- كارل بروكلمان :

(٩٧) تاريخ الأدب العربي في ستة أجزاء ، ج١-٣ ، ج٦ ترجمة عبد الحليم النجار ، والجزءآن الرابع والخامس ، ترجمة السيد يعقوب ورمضان عبد التواب ، دار المعارف ، القاهرة . د . ت .

- كتاب :

(٩٨) كتاب أصدرته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ، الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة .

- مجموعة من العلماء والأدباء :

(٩٩) تاريخ قفصه وعلمائها ، دار المغرب العربي ، تونس ، ط١ ، ١٩٧٢م .

- مجموعة من المستشرقين والباحثين العرب :

(١٠٠) دائرة المعارف الإسلامية ، منشورات دار الشعب ، القاهرة . د . ت .

- محمد أبو زهرة :

(١٠١) تاريخ المذاهب الإسلامية ، جزءآن ، دار الفكر ، القاهرة . د . ت

- محمد التونجي :

(١٠٢) عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، منشورات مكتب قورينا للنشر والتوزيع ، بني غازي – ليبيا – ، ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

– محمد جمال الدين سرور :

(١٠٣) الدولة الفاطمية في مصر – سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م .

– محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي الفاسي :

(١٠٤) الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، تخريج وتعليق عبد النذير عبد الفتاح القاري ، جزءآن ، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

– محمد الحسيني عبد العزيز :

(١٠٥) الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، وكالة المطبوعات،الكويت.

– محمد طه الحاجري :

(١٠٦) دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ط١ ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

– محمد عبد السلام عبود :

(١٠٧) تاريخ المغرب ، منشورات دار الطباعة المغربية الرباط، جزءآن، ١٩٥٧م .

– محمد عبد الغني حسن :

(١٠٨) الأمير الشاعر تميم بن المعز ، منشورات دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، الرياض ، ط١ ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .

- محمد عبد المنعم خفاجي :

(١٠٩) قصة الأدب في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى اليوم ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٧م .

- محمد العروسي المطوي :

(١١٠) سيرة القيروان رسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٩٨١م .

- محمد علي دبوز :

(١١١) تاريخ المغرب الكبير ، ٣ أجزاء ، منشورات عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٨٤هـ /١٩٦٤م .

- محمد بن عمرو الطمار :

(١١٢) تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٦٥م.

- محمد الفاضل بن عاشور :

(١١٣) التفسير ورجاله ، دار الكتب الشرقية ، تونس ، ط٢، ١٩٧٢م .

- محمد كامل حسين :

(١١٤) طائفة الإسماعيلية وتاريخها ، نظمها ، عقائدها ، منشورات مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٥٩م .

– محمد محمود الحاج قاسم :

(١١٥) الموجز لما أضافة العرب في الطب والعلوم المتعلقة به ، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٧٤م .

– محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحى :

(١١٦) أبو الحسن الحصري القيرواني – عصره ، حياته ، دواوينه ، مكتبة المنار ، تونس ، ١٩٦٣م .

– محمد الهادي العامري :

(١١٧) تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، الشركة التونسية للنشر والتوزيع ، تونس ، ١٩٧٤م .

– محمود اسماعيل عبد الرازق :

(١١٨) الأغالبة – سياستهم الخارجية ، مكتبة وراقة الجامعة ، فاس ، ط٢ ، ١٩٧٨م .

(١١٩) الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، منشورات دار الثقافة ، الدار البيضاء ، ط١ ، ١٩٧٦م .

– محمود شيت خطاب :

(١٢٠) عقبة بن نافع الفهري ، قادة الفتح الإسلامي ، دار الفكر ،

بيروت ، ط٢ ، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م .

- محى الدين عزوز :

(١٢١) التطور المذهبي بالمغرب أو دراسة قصة حي بن يقظان ، منشورات الشركة التونسية للنشر والتوزيع ، تونس . د. ت .

- مصطفى عبد الرزاق :

(١٢٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة ، القاهرة ، ١٩٤٤م .

- المنجي الكعبي :

(١٢٣) القزاز القيرواني حياته وآثاره ، منشورات الدارالتونسية للنشر ، تونس ، ١٩٧٨م .

(١٢٤) النشهلي القيرواني ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا - تونس ، ١٩٧٨م .

- نقولا زيادة :

(١٢٥) الجغرافيا والرحلات عند العرب ، منشورات الاهلية للنشر والتوزيع ، بيروت ، ١٩٨٠م .

- الهادي مصطفى التوزري :

(١٢٦) أعلام الأفارقة (عبد الله الشقراطسي) ، منشورات مطبعة الترقي ، تونس ، ١٩٥٥م .

الدوريات

- أحمد مختار العبادي :

(١) سياسة الفاطميين نحوالمغرب والأندلس ، بحث نشر في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧م .

- ايفا نوف :

(٢) استتار الامام وسيرة جعفر الحاجب ، بحث نشره المستشرق الروسي إيفانوف ، ترجمه محمد كامل حسين ، مجلة كلية الآداب بالجامعة المصرية ، المجلد الرابع .

- تقرير :

(٣) تقرير للجمهورية التونسية في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣م .

- الشاذلي بويحى :

(٤) حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الأول ، ١٩٦٤م .

(٥) حول نشر قطب السرور أو من سوء حظ ابراهيم الرقيق ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثامن ، ١٩٧٠م .

- فرحات الدشراوي :

(٦) سياسة الصبيان وتدبيرهم ، مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثالث ، ١٩٦١م .

- محمد الشابي :

(٧) دولة صاحب الحمار ونقوده ، بحث قدم إلى المؤتمر الرابع للآثار الذي نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣م .

- محمد عبد الهادي شعيرة :

(٨) من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة ، بحث ألقي في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية الذي نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ،١٩٦٣م .

- محمد الفاضل بن عاشور :

(٩) الآثار الحفصية في المرسي ، بحث قدم إلى المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية الذي نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو ، ١٩٦٣م .

- محمد اليعلاوي :

(١٠) شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية ، مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد عشرة ، ١٩٧٣م .

كشاف الفهرس العام

كشاف فهرست الجزء الأول

كشاف فهرست الجزء الثاني